الدرر الفرائد المنظمة

في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة

تأليف

عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن محمد
الأنصاري الجزيري الحنبلي
المتوفى نحو سنة ٩٧٧ هـ

تحقيق

محمد حسن محمد حسن اسماعيل

الجزء الثاني

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



الطبعة الأولى
١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠٢ م

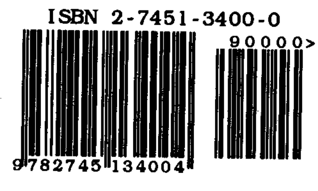
دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان

رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ ـ ٣٦٦١٣٥ ـ ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ٩٤٢٤ ـ ١١ بيروت ـ لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ère Étage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3400-0



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

ربِّ يسر وأعِن، وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً، قال الفقير إلى الله تعالى الشيخ العلامة زين الدين عبد القادر بن البدر محمد بن عبد القادر الأنصاري الجزيري الحنبلي كان الله في عونه وختم له بالحسنى وحشره من العلماء العاملين بالمحل الأسنى:

الباب الرابع

فيما يشتمل عليه ديوان إمرة الحاج من أصناف المهم وما يحتاج إليه من الأسباب، وفيه فصول:

الفصل الأول

في تجهيز الحمول

وذكر ما جرت العادة بحمله من ذلك بطريق الطُّوْرِ أوَّلاً، ثم إلى السويس، مما يجهز ذلك منها إلى جدة والينبع، وما يجهز إلى ألأزْلَم، وعَقَبَةِ أَيْلَةَ.

وتفصيل عربان الحمل بدنات وأسماء، فنقول:

إنَّ لكل شيء أُسًّا وقاعدة، يستند إليها، ويعتمد في حصوله عليها، وأُسُّ هذا المهم وقاعدته تجهيز الحمول إلى البنادر، وتحصيل جمال المناخات من النفر، والشعارة الحاملة لما يحتاج إليه من الأَسباب والمأكولات، وما عدا ذلك فموجودة بدون مَشَقَّة ما ذكرنا.

فأَما الْحُمول فهي قسمان: ما يجهز من طريق البحر، وما يجهز من طريق الْبَرِّ، فالذي من البحر هو حمل جدة المعمورة، وينقل منها إلى مكة المشرفة، والحمْلُ المجهزُ إلى بندر الينبع، وطريق ذلك وبندر هو السُّوَيْس المعمور، المستجد شحن ذلك منه - كما تقدم ذكره، وكما سيأْتي بيانه - من سنة إحدى وخمسين في ولاية المرحوم جانم من قصروه، واستجدَّ أَيضاً من طريق البحر من الطُّور، وتأَكد فعله من سنة ستين وتسع مئة تجهيز ثُلُثَي حمول الأَزلم، التي كانت تجهز على ظهور جِمال العربان من البر إليها فصار يجهز إلى الطور تارة الثلثان، وتارة كامل الحمل ويشحن في الجلاب الصغار، والزعيمات إلى مرسى الأَزلم كما سيأْتي بيانه.

والذي رأيته من العوائد في شحنة حمل جدة والينبع من طريق الطور مما نقلته من أوراق المرحوم الوالد - أسكنه الله الفردوس الأَعلى - أَنَّ أُمراء الحاج كانوا يشحنون قديماً بالجلاب من طريق الطور كما دلّ عليه الكشف من سنة سبع وتسعين

وثمان مئة، ولاية المرحوم السلطان قايتباي في كل جلبة وزعيمة الثلثان لأَمير الحاج، والثلث للرعايا عامة.

وأما الأُجرة فبحكم الضريبة السلطانية العرفية لا الشرعية، فكانت أجرة كل عشرة أحمال إلى الينبع ستة دنانير، وإلى جدة سبعة دنانير. ثم زِيدت الأُجرة إلى آخر سنة ثمان عشرة وتسع مئة، ومن استقبال سنة تسع عشرة وتسع مئة عند توجه الأمير قانصوه كرت، بمفاوضة العلائي ناظر الخواص الشريفة للسلطان الغوري الشحنة في الجلاب نحو الثلثاي على حالها، وأُجرة الحمل على ظهور جِمال العربان، فإلى الطور كل حمل بدينارين، ومثله إلى عقبة أيلة، وإلى الأزْلم كل حمل بأربعة دنانير، واستمر الحال على ذلك إلى سنة ثمان وعشرين.

وأما العادة في عدة الحمل المشحون بالجلاب فشحن للأَمير سودون العجمي أمير المحمل، في سنة ست وتسع مئة، أحمالٌ عدتها ألفان ومئتان وخمسون حملاً، منها إلى جدة النصف، وإلى الينبع النصف، هكذا رأيته بخط الشيخ الوالد ـ عفا الله عنه ـ وللأَمير الأَول وهو قانصوه الفقيه في تلك السنة ألف واثنان وعشرون حملاً، وللأَمير قرقماس أمير المحمل ألفان ومئتان وتسعون حملاً، وللأَمير الأَول في تلك السنة، وهو مغلباي الزردكاش ألف وأربعة وسبعون حملاً، وللأَمير طراباي رأس نوبة كبير أمير المحمل ألفان ومئة وستة وثلاثون حملاً، ولنوروز تاجر المماليك أمير الأول في تلك السنة ألف ومئة وأربعون حملاً.

وأما المجهز في الدولة العثمانية ففي ولاية الأَمير برسباي (الدوادار) الثاني، خارجاً عن المضاف لجماعته، ألف وتسع مئة وستة وخمسون حملاً، وفي ولاية الأَمير جانم عن دولات باي ألفان وأربع مئة وستة وأربعون حملاً، ثم إن المرحوم جانم الحمزاوي في أيام ملك الأُمراء خاير بك أَقَرَّ الشحنة بالمراكب على حكم الثلثين لأُمراء الحاج والثلث للرعايا، وزاد الأُجرة فجعل أجرة الحمل الواحد إلى عقبة أيلة ثلاث دنانير، وإلى الأَزلم ست دنانير، وإلى الطور ثلاث دنانير. والجُلاَّب إلى جدة بدينار وربع دينار، وإلى الينبع بدينار، وعدة الحمول تزيد على الأَلفين بالمضاف إليه كثيراً، إلى أن كانت سنة إحدى وخمسين، وحُوِّلَ الحمل من الطور إلى السُّويس كما ذكرنا، وعُين له مركبان من المراكب السلطانية، وتارة يزيدون ثالثة، فجعل داود باشا لما يشحن بالمراكب للسلطنة من مصاريف السفن، وما يحتاج إليه فمن الديوان الشريف السلطاني، وأما الأُجرة خاصة فعلى أمير الحاج لكل حمل إلى جدة اثنان وعشرون نصفاً ونصف نصف، وإلى الينبع عشرة أنصاف، وجُهِّزَ الحمل في تلك

السنة على هذا الحكم، وشُحِنَ بمركبين من المراكب الكبار السلطانية، فقدّر الله تعالى في تلك السنة أن غرقت إحداهما في نصف طريق مكة فكان لأمير الحاج بذلك من الضرر ما لا يخفى على صاحب النظر، والأمر لله تعالى.

وكان جملة ما شحن في تلك السنة للأَمير جانم في المركبين ألفين وتسعة وثلاثين حملاً ونصف حمل، ثم شحن للأَمير أيدين في سنة اثنين وخمسين ألفان، وسبعة وثلاثون حملاً ونصف حمل، وأراد المرحوم داود باشا أن ينقص حمل إمرة الحاج عن الألَفين، ويجعلها ألفاً وثمانَ مئة من غير زيادة، وصمّم على ذلك بعد أَنْ رُوْجع مراراً فاتفق ولاية الأَمير حسين كاشف البهنساوية إمرة الحاج في سنة ثلاث وخمسين، وهو من أغراضه وجماعته، فسكت في تلك السنة عما أراد أن يقطع من عدة الحمل، واستمر الحال عليه إلى أن ولي علي باشا فَأَقَرَّ الأَلْفَيْنِ على حالها من غير زيادة على ذلك، وكلُّ شيء زاد على الأَلفين يكون أجرته بالسعر الواقع للرعية، ولم يزل الحال عليه إلى تاريخ تسطيرنا لهذا المؤلف، في سنة خمس وستين، ثم تجدد على أمير الحاج من مصاريف الحمل بالسويس خارجاً عن الأُجرة ثمن أنخاخ من الْحلْفاء، بسبب فرش المراكب تحت الحمل لعدة ست مئة، وثمن قفف كبار لنقل الفول من الساحل إلى المراكب، عِدَّتُها مئة وخمسون، وما لا يستغني عن صرفه أهل المروءة لنجاز الشحنة على أحسن قانون كثمن جوخة لِلرَّيِّس علي بن قديح، وقدر ذلك عشرة من الذهب، ويحتاج إلى المصروف لجماعة الْعَتَّالين بالبندرين، والقبَّانية، والمخيطين، وثمن الشريط لخياطة الفروق، وغير ذلك مما هو معلوم عند المسفرين على الحمل.

وأما تفصيل الحمل المجهز من البحر فهو على ما أذكره عما هو مُتَداولٌ الآن، وهو من الدقيق المحزوم ثلاث مئة وخمسون حملاً، كل حمل من الدقيق ثلاث عشرة بطة، ومن البقسماط المنشف المقطوع الحجة مئة وثمانون حملاً، كل حمل غير الخيش ستة قناطير ونصف قنطار، ومن الأُرز المحزوم عشرون حملاً، كل حمل أردبَّانِ وربع أردب، ومن الكشك خمسة أحمال كل حمل أربعة أرادب، ومن البرغل كذلك، ومن الباسلا كذلك، كل حمل دون ضريبة الأُرز في المقدار بقليل، ومن الجبن القايات الكبير القطع ستون قنطاراً، في ضمن أَقفاص مغلقة عدتها عشرة أحمال، ومن العسل ستون قنطاراً في ضمن مزاود مغلّفة مخيّشة، وعدتها اثنا عشر حملاً، ومن السكر حملان كل حمل ستة قناطير، يعبَّأ ذلك ضمن أقفاص مغلّفة مجلّدة، ومن قُفَف الْقِرَب الْخوْص لأجل السقاية مما يجهز إلى بندر الينبع خمس مئة قُفَّة، عنها حملان، ومن الشمع الكبار القدر أربعة وزن ذلك أربعة قناطير، منها ما يجهز إلى مكة للكعبة المعظمة شمعتان وإلى الحجرة

المنورة كذلك، ويضاف إليها من السلب الليف والزمالات مما يحتاج إليه بمكة ليصير المعبأُ حملاً من الشمع، ومن الزيت السكندري ستة قناطير يعبأُ في زلعتين، ومن الشعير المغربل مائة وخمسون إردباً، ومن الفول الصحيح المغربل ثلاثة آلاف وأربع مئة إردب، واعلم أنَّ الفول المناسب لسفر البحر الصالح للجرش بالبنادر هو الفول المتوسط بين الحديث والقديم، لأنه إنْ كان حديثاً فهو قويُّ الجرش، فربما تَرمي الرَّحا من الصحيح ما ينقص الكيل في الاعتبار المطلوب، وإن كان قديماً أَذَابَهُ الجرشُ فيصير ناعماً، وينقص في الاعتبار أيضاً، ويعتبر في الجَرَّاشِ خبرته في الجرش، وأن يكون من أهل المعرفة والدراية بهذه الصناعة.

وأما تقسيم الحمل المذكور إلى بندرَي جدة والينبع، فكان في صدر من الدولة الجركسية لكل بندر نصف الحمل بالسوية، كما رأيته مسطّراً بأوراق المرحوم الوالد، وليس في ذلك تقدير ولا تحرير، مع أَن ما يُحتاج إليه بمكة أكثرُ من الاحتياج بالينبع، فجعل بعد ذلك في الدولة المظفرة الثلث إلى الينبع والثلثان إلى مكة، ثم لما زادت رغبة الأُمراء في المتحصل من المبيعات، وكان اجتماع أهل الركب بمكة أكثر من الينبع لاجتماع الحجيج من الشام واليمن، وغيرهما من البلدان، استقر القانون في الغالب إلى بندر الينبع من الدقيق أربعون حملاً، ومن البقسماط سبعون حملاً، ومن الأَرز أَربعة أَحمال، ومن الجبن أَربعة، ومن العسل خمسة أَحمال، ومن الكشك والباسلا والبرغل من كل صنف حملان، ومن الشمع إلى المدينة المنورة اثنان، وكامل القفف الخوص مع شِقين إلى الينبع، وما عدا ذلك جميعه فإلى جدة. وأما الغلال فمن الشعير مئة وستون إردباً، وإن كانت الخيول زائدة العدد زِيْدَ بقدرها. وأما الفول الصحيح فإِلَى الينبع ألف ومئتان وباقي ذلك إلى جدة.

* * *

ذكر العربان الحاملة لذلك ببدنات وأسماء

فنقول: هما قسمان:

القسم الأَول: وهو تعريف أمير العائد بالشرقية، ونائبه المسمى بِصبيِّ الباب، فمن ذلك عربان الرِّيف منهم الحماصية، ومقدمهم الآن مقيبل بن طميلة تصغير مقبل.

وبدناتهم سِتٌّ، وعادتهم يحملون إلى السويس فقط، ولا يحملون في غير البحر إلا أَن نُقِلَ الْحَمْلُ من بندر إلى آخر فيحملون عادتهم لذلك البندر، ومنهم الجبارات

والسمارات والعقابات والشويحات والعرارمة والحميلية، وبعض البدنات تحمل أكثر من غيرها بحسب كثرة الجِمال والرجال، ومحملهم من أربع مئة حمل، إلى ما دونها الآن. وإنما قلنا الآن لأَن أحوال العربان تختلف باختلاف الزمان، فربما تلاشى حال البدنة القادرة إلى أَن تصير إلى قلة وبالعكس، ويحملون حمل البحر في نقلتين.

ومنهم الطوارقة، من مقدمتهم محمود أبو زحافة وغيره، وغاية ما يحملون أثلاثاً بينهم من مئة وثلاثين حملاً إلى ما دونها.

العتاريف والطوقة وبنو سليمان والحطوم من مقدمتهم محمد بن أَحمد بن نصار وغيره، محملهم من مئة إلى ثمانين.

عيايرة البر منهم مساعد بن سلامة يحملون من ستين إلى خمسين حملاً، وفي غالب أحوالهم يحضرون مع عربان الطور.

عيايرة الريف منهم أحمد بن محمد بن ناصر، يحملون من ثلاثين إلى خمس وعشرين.

الشرفاء بنو حسين، وهم الفواطم وآل هاشم والخرص، منهم الشريف أحمد بن سليمان، ويونس بن محمد، وتمراز بن محمد، وعطيان بن عامر، ومحمل الجميع من ستين إلى ما دونها.

عربان النيعام - بالعين المهملة - هم بدنات متعددة وقد ضعفوا وبقيت منهم بقية يحملون يسيراً، وهذه البدنة بالخصوص كما تحمل إلى بندر السويس أو الطور في حمل البحر، تحمل إلى عقبة أيلة أيضاً في البر.

فمنهم الخضراء: منهم عامر بن عميرة محملهم من خمسة عشر إلى ما دونها.

والقواتيل، وهم بدنات: الريانية والمحافظة والطورة والبروق، والجميع يتسبّبون بحمل الجبس من معادنه حَجَراً إلى القاهرة، وكان محملهم عشرين جملاً ثم صار إلى عشرة، ثم لما توالت العمائر لأَكابر المملكة بالقاهرة صاروا يتوجهون بهم في عدم الحمل، ولهم عدة سنين على ذلك.

ومن النيعام: الأَطاولة، ومحملهم يسير.

والسلوط منهم سليمان بن ربيع ومحملهم من ثمانية إلى ما دونها.

والسليمية ومحملهم من خمسة عشر إلى ما دونها.

والعطيات منهم أولاد حجاج، وكانوا يحملون عشرين حملاً وأكثر ما يحملون الآن عشرة أَحمال.

والعقيبية منهم سليمان العقيبي ومحملهم بشرح العطيات.

ومن النيعام جماعات كثيرة، وكانت لهم عادة في الحمل قديماً، وانقطعوا عن ذلك من عدة سنين، ويحتجُّون صبيان الباب بأَنهم متشردون في البلاد، وأنهم ضعفاء عن ذلك.

ومن المذكورين الحبور والشحاشين والجبلة، ومنهم تمام والشهبة.

ومنهم سرى والخيارين منهم إسماعيل بن جدي. والفارات ومنهم أحمد بن بسيس. والعقادنة منهم محمد الظباوي. والرهادنة ومنهم إبراهيم بن بليب. والفضلات منهم أحمد بن شريف. والبحارات منهم أحمد بن حريص. والردنة منهم حمد، وبريد.

وممَّن كان يحمل قديماً من باطن أمير العائد طائفة تدعى خزام البياضة، ومحملهم قديماً لا غير خمسة أحمال.

عربان الضواعنة منهم خميس بن شبانة، يحملون خمسة عشر حملاً.

الرزنة منهم عطية الله بن وادي، يحملون من خمس وثلاثين إلى ما دونها.

النعيمية ويدعون بعبيد علي، منهم جمعة بن هدي بن حليس، محملهم من ثلاثين إلى ما دونها.

والقسم الثاني من العايد: عربان الطور وهم بدنتان:

البدنة الأُولى: ربان العليقات وهم أصحاب جِمال وسعي، كما هو المشهور عنهم، وهم أقسام: الطميلات ويحملون ثلث، العليقات والنفيعات، ويحملون الثلث الثاني، وحضرة ومزينة ويحملون الثلث فيما يخص العليقات كرفاقهم، وكان محمل الجميع قديماً خمس مئة حمل، فلما تضرروا، وأكثروا من الشكاية والعجز فنقص حملهم مئة حمل، وصاروا يحملون من أربع مئة حمل إلى ما دونها، ومن أكابرهم مسلم بن درهوس، وخشان بن غنيم، وسالم بن غنيم.

والبدنة الثانية: عربان الصوالحة، يحملون كحمل العليقات بالسوية، وينقسمون إلى ثمانية أقسام ونصف، ومنهم طائفة تدعى ببني واصل، لا تحمل شيئاً من الحمل، وإنما تذكر ويخرج باسمها قسم مقدار عشرين حملاً باللسان ذكراً لا فعلاً، ويقال

لهم: هذه حملة بني واصل، وهي كذا وكذا، ويبنى ذلك على قاعدة عندهم وهي أَنَّ البدويَّ لا يحمل حمل البدويِّ مثله، ويعدون ذلك من الضيم الفاحش، ومن غاية الذل والصغار، فمتى لم يُعَيّن ما باسم بني واصل ربما شردوا، وتركوا الحمل.

والصوالحة: البراغشة والقرارشة والبتة والرديسات والرطيلات، وأولاد سعيد، وأولاد سيف، وأولاد محسن، وأولاد عطية، وأولاد رحمة، وأولاد مقبل، وأولاد محمود، ومنهم كل قسمين بواحد، ومن شيوخهم علي بن ناصر، وغَضنفر بن صيفي، وسليمان بن محمود، وجوهر بن حمادة، ومَن أُقيم منهم كفى في السداد عن جميعهم.

ومن عربان الحمل الذين كانوا يحملون قديماً ثم عصوا عن ذلك، وامتنعوا، وهم من أتباع العائد [بنو ربعي والسعديون] وكان محملهم في سنة نيف وثلاثين وتسع مئة، مئتين حملاً، وبنو سليمان من المذكورين.

ومن عربان الحمل الفضيلات.

ومنهم أيضاً بنو واصل وهم بدنات: الحميسات منهم عيد، وسليم، وسالم، والغورية، والعلوية، منهم محمد بن سعدون، بنو واصل الريف منهم أيضاً، ومنهم خزام البياضة، وحملوا قديماً في عام واحد خمسة أيضاً.

والقسم الثاني من عربان الحمل تعريف مقدمي القوّاسة، وعربان بلي، وجهينة على ما يأتي بيانه، وهؤلاء فلاحة الحمل القرار، يحملون حمل البر والبحر، ومنهم مَن يحمل إلى عقبة أيلة فقط كالسعادنة، وبني شاكر، القفعة، ولم يكن لهم عادة في حمل الدشيشة قديماً مطلقاً على ما عهد وقرر ما عدا السعادنة.

فعربان بَلي وهم طوائف عديدة، منهم أهل حمل ودرك كالجعافرة، ومنهم أهل حمل بلا درك بالدرب الشريف.

فمن بَليٍّ عساكر الهضبة، وكانوا يحملون إلى ستين حملاً، وأَكثر، فلما ضعف حالهم وشردوا في الأَقاليم هرَباً من الحمل صاروا يحملون من خمسة وعشرين إلى ما دونها، منهم فجر بن خليفة، والعاصي، وسرور، وغيرهم.

عساكرة النجلة منهم سبع بن مصاول يحملون من أربعين إلى ما دونها.

المطارِفة يحملون أثلاثاً، وبعضهم أكثر قدرة من ثلث غيرهم وهم العشمة والغمرة واليزد، يحملون من أربعين إلى ما دونها منهم أحمد بن راشد، ونجاد بن صقر.

عساكرة الطرافية يحملون من ثلاثين إلى ما دونها منهم سالم بن حسين بن سليم، وسالم بن فرج، وغيرهما.

الرواشدة من بَليّ وهم بدنات: الكليبات والغمدة والعرادات والنزازيل والجباهين والجبور والجرابيع والنفور، والمعنة، ومحملهم الآن من ثلاثين إلى ما دونها، منهم عويسج، ونول وغيرهما.

النواجحة، ومخلد: منهم أحمد بن حسين بن سعيد، ورفقته محملهم الآن عشرة أحمال.

موالكة آل علي: منهم سليمان بن لافي، محملهم خمسة وعشرون.

موالكة السكارين: ومحملهم الشرح السابق.

جعافرة الخطب، من أصحاب درك الأَزْلم، منهم عقال بن سحيم، ومحملهم الآن من خمسة عشر إلى ما دونها بكثير.

جعافرة الشنابلة أصحاب الدرك أيضاً بالأَزْلم، وهِيش وادي أَكْرَه، منهم مشعل بن غانم ومحملهم بالشرح السابق.

الجمدة من السباعات يحملون في بعض السنين إن سَلموا من معاكسة القوّاسة سبعة أحمال ـ وسنذكر العربان التي لا تحمل شيئاً ـ، ويزنون مبلغاً لمقدمي القوّاسة كالجالية من السنة إلى السنة لأَجل أن يوجهوا لهم أوجهاً من منع الحمل عنهم.

وأما عربان جهينة وهم بدنات عديدة.

فمنهم السمرة وهم أكثر جهينة قدرة على الحمل، وكان محملهم في سنة سبع وخمسين وتسع مئة تسعين حملاً، ونزل إلى ما دون ذلك، وهم بدنات عديدة منهم اليزد، وشيخهم أبو زيد بن سعيد، والجدد منهم عمر بن مسعود بن محمد، والأَسنة منهم مسعد بن حسن، والعلاوين منهم مزيد بن مرعي، والعطيفات منهم مازن بن عمير، والصقرة منهم فضالة بن عتيق، والجرابيع منهم حسن بن عمير، وهذه أصول بدناتهم في حمل إمرة الحاج، ويضاف إليهم طوائف خارجة عن مَن ذكرنا، يساعدون السمرة في أمر صائل، وخطب هائل، منها الجبرة منهم سعيد ومساعد ورشيد، وراشد، وجمعة بن نجيم، وجمعان وزويد بن مبارك، وزايد أخوه، ومبارك بن خميس، وعطية بن غنيم، وغنيم بن خالد، وجبر بن خميس بن مريحل، وسويلم بن زبين، وحسن بن عمير، وحسين بن نمير، وسليمان، ومساعد بن عارم، وعامر بن غوينم، وزارع وأخوه نجيم، وسلمان، وناجي أخوه.

ومنها المشاهير وهم: سالم بن مبارك، وسلامة، ومقرن بن خلف الله، ومهمل أخوه، وجمعة بن حسين، ونويجع وولده.

ونظير والشرفان، وهم سليمان بن حسن، وابنه شهوان، وسالم الرشيدي، وعوض بن سليمان، وحسن بن خشيرم، وأخوه حسن.

والمصايحة وهم: محرز وولده ورويشد، وولده، وعربان الشرفان، والجربان، والشتاونة.

ومن جهينة رِفَاعَة، ويحملون الآن أثلاثاً لفتن وشرور بينهم، وربما انقسم الثلث منهم إلى أقسام، ومنهم عوض بن زين، وسبع بن حسب النبي، وعبد النبي بن جوهر، ورفقتهم، ومحملهم جميعاً أربعون حملاً.

الردنة رباعة سعيد بن مطر، وسالم أبو غنيم، ورفقتهم ومحملهم قديماً خمسة وأربعون حملاً.

بنو ثابت، وقوفة، والعلاوين. كان من شيوخهم حسان بن نمي، ووقع بين جهينة شرور أدت وآلت إلى قتله غدراً في سنة تسع وخمسين وتسع مئة فتفرقوا وانقسم الحمل بينهم، وكان الذي يحمله حسان خمسة وعشرين حملاً.

العوران منهم عيادة بن حميد الصابوني، وبصيص، ورفقهما ومحملهما من عشرين إلى ما دونها، وهم الآن قسمان لكل قسم قدر بالمراضاة.

المحاياة: منهم مساعد بن مبارك، ومحملهم اثنا عشر حملاً.

المرازيق منهم جمعة بن بريك، ويحملون من عشرة إلى ما دونها. عربان بني عقبة: وهم اللهب، والبركات، والمعاريف، والقنادلة، وعبيد السعادين، ومحملهم دون العشرين حملاً مفرقاً لضعفهم وتشتتهم الآن، وكانوا يحملون قديماً قدراً وافياً.

بنو شاكر الحجر: وهم بنو مرشد، والموازنة، والقرارين، وكانوا يحملون من السبعين فما فوقها إلى أن كان بينهم شرور وفتن في سنة اثنين وأربعين، وتحاملوا إلى خسرو باشا بالديوان السلطاني، فأمرهم بالصلح، وكرر ذلك عليهم ثلاث مرات، وهم يعيدون إليه الجواب: إنَّ صُلْحَنا على السيف، فأمر بضرب أعناقهم بحوش القلعة، فكان المقتول منهم في ذلك الوقت أحد عشر نفراً، ولم يزالوا على ذلك إلى أن زرعوا من باطن زين الدين الخولي بالسواقي السلطانية، فسأل الخولي ناظر الأموال حينئذ هو محمد جلبي ـ الذي ضُرِبت عنقه بالقلعة ـ أن يحمي المذكورين من حمل إمرة الحاج، ففعل ذلك مدة ولايته، ثم تفانوا لموتهم في زمن الطواعين، وعليهم إلى

الآن قليل من كثير، وهو عشرة أحمال إلى ما دونها في حمل البحر، وفي حمل البر إلى عقبة أَيْلَةَ خمسة أحمال، وكانوا أيضاً أصحاب درك مناخ عقبة أَيْلَةَ ـ كما سيأتي ـ فاستولى بنو عطية الحويطات، وغيرهم على الدر وعجزوا عن خفارته، وكان يشركهم فيه قديماً طائفة من بني عطية النازلين بالكرك، ويقال لهم الكعابنة فتركوه أَيضاً قبل بني شاكر، وسيأْتي ذكر هذا الدرك في بابه.

ذكر الطوائف التي لا يحملون شيئاً من الحمل

وعليهم مبلغ لمقدمي القوّاسة رشوة في كل سنة على ذلك ليجيبوا عنهم بكل قول غير مقبول، وبعض أمراء الطمع يطلبهم ويأْخذ منهم ما كان يدفع لمقدمي القوّاسة، ولا يحملهم شيئاً ولله عاقبة الأمور.

فمن أَعيانهم: عربان جهينة الضحيات، وعليهم للقوّاسة بحكم اعترافهم بذلك في كل سنة اثنا عشر ديناراً ذهباً مقررة، ومن الشعير والأَغنام بحسب الحال.

بنو كلب: بشرحهم، العلاوين: من بني ثابت وبني الحمر، والسباعات، الجمدة، والعترة، والقضاة ـ جمع قاض ـ من جُهَيْنة، بديل منهم أَيضاً.

عنَمةُ، والقرعان من بني ثابت، وجعافرة الصعيد وما تقدم ذكره من عربان بني عُقبَة أَيضاً.

وجميع مَن ذكرنا من البدنات السابقة لهم أَعوان فيحتوي باطنهم على بدنات غير ما ذكرنا، وإنما ذكرنا المشهور من البدنات على وجه الاختصار عما يطلب، ويذكر في باب إِمرة الحاج فقط.

ذكر المهمات من أمور حمل السويس

لنتابع به ما تقدّم ذكره إِذ لا يُسْتَغْنَى عن معرفة ذلك لكونه من الأَمر الواقع فنقول:

جوامك الْمُسْفَّرِيْنَ على الحمل ورأْس الجماعة في ذلك وقائدهم (الجاويش) وهو المعين من حضرة (الباش) بسؤال أَمير الحاج، وحسب اختياره على ما تكرر فعله في الدولة المظفرية، وإلاَّ فعندِي أن (الجاويش) وتجهيزه على الحمل في هذا الزمن كالخمر والميسر، ضرره أَكثر من نفعه (لَبِئْسَ الْمَوْلَى، وَلَبِئْسَ الْعَشِيْر) فإِنه قد صار

يتوجه لمنافع نفسه، ومصالحها، فيكثر من الحمل المضاف لنفسه، ويشتغل به عما توجه بصدده من درك الحمل وحفظه من مفسدي المسفرين عليه، والقيام في أَمره بقلبه وهمّته، فلا تكون همّته إلا إلى مهماته، وخاصة نفسه من نقل حمله وتَنْجيله، وشحنه أَولاً بالمراكب، والتضييق على أَمير الحاج بسعة حمله، ونقله على جِمال أَمير الحاج التي يجهزها أَمير مكة إلى جدة لذلك، مع ما يضاف إلى ذلك من المفاسد مع المسفرين، إن كانوا من أَهله، فيختلسون ما يختارون من الفول، والشدّ، ويوجهون له أَوجهاً من النقص على (الناخوذَة) وعلى عربان الحمل وبالحواصل، ويكون هو حينئذ شاهداً للمسفرين، ومساعداً لهم على أَمير الحاج، وقد رأَينا مثل ذلك كثيراً على اختلاف السنين، ومنفعة (الجاويش) لحمل إمرة الحاج أنه يكون عليه مُعَوَّل جميع أُمور الحمل، لأَنه رأس الجماعة، ينقادون لأَمْرِهِ في المصالح العائد نفعها على الحمل بالطاعة، ويلزمه الاهتما بتلقي أُمور الحمل في كل بندر، ومحل، ويستخرج كثيره وقليله من (النواخيد) بالمراكب، ومن العربان بالسواحل على أَتم حال، والتكلم مع مَن له ولاية الأَمر بجدة ومكة، في جميع المصالح العائدة على الحمل، وعدم الغفلة عن ذلك، فإِنَّ عُذْرَهُ في التقصير غير مقبول، فيلزمه أَن لا يتخلف عن جميع مصالحه إلى أَن يسلمه لأَمير الحاج على أَتم قاعدة، وأَعظم فائدة، مع سلامة الله تعالى.

و(جامكية) هذا الجاويش تختلف، فكانت قديماً من أَلف نصف من الفضة إلى أَكثر من ذلك، فلما ولي مصطفى باشا أَول ولايته وهو كاشف الغربية، جهّز على حمله صديقه شادي الجاويش، فأَعطاه من الفضة سبع مئة نصف، ثم هدر ذلك في آخر ولايته إلى خمس مئة نصف، وتبعه على ذلك غيره، فصار ذلك قانوناً الآن. وقد تخلّف هذا القانون بالكثرة مع أُمراء المعروف فلا يتعذر على إعطائه له (؟).

وأَما جرَايَتُهُ فمن القاهرة إلى مكة قنطارَان من البقسماط، وله بمكة عادة مستمرة دقيق ثلاثة أَحمال، وله عادة في المضاف بلغت في زمننا إلى ثلاثين حملاً. وقد عين لإبراهيم جاويش عند توجهه على حمل مصطفى باشا في سنة ستين وتسع مئة من المضاف خمسون حملاً، فليس ذلك من العوائد المستمرة، ولا من القواعد المستقرة، وإنما وقع ذلك للمذكور فقط لنوع من الصحبة، ولطريق من المحبة، فلا يعول عليه، هذا ما كان عليه أَول الحال.

وأَما الآن فاستجد للشحنة (جاويش) يعين للشحنة فقط، ويعود إلى القاهرة، وله على ذلك من (الجامكية) بما فيه ثمن المأْكولات ما عدَا الدقيق والبقسماط أَلف نصف، وله من الدقيق ستة بطط، ومن البقسماط قنطاران، ولكل واحد منهما من

الجِمال بالأُجرة التي يزنها أَمير الحاج من الديوان، لأَجل حمل أَثقال الجاويش إِلى السويس ثلاث جِمال، ولهم عادة في البلص عند التسليم من العربان مع جماعة المفسدين، وقد نَمَى فسادهم وظلمهم لعربان الحمل جِدًّا، ولهم في هذا الظلم أَحوال، نسأَل الله تعالى أَن يرفعها عنهم من أولئك الخبائث، هذا ما يتعلق بتجهيز (الجاويش) وأَولى من ذلك وأَحسن أَن يعين أَمير الحاج رجلاً من خواصه يثق بدينه وفعله، يكون من ذوي الهمة والمروءة والقدرة على ذلك، عوضاً عن (الجاويش) في ذل بل وأَوفر، وأَبلغ في قضاء مآرب حمله.

الشادون: وعادتهم أَن يكونوا من الأَتراك، إِما من مماليك أَمير الحاج وهو الأَولى، أَو من نفر العسكر ممن يختارهم ويرضاهم، وعدتهم أَربعة أَنفار: إِلى جدة مع الجاويش نفران، وإِلى الينبع نفران، وإِنما كانوا كذلك لأَن كل بندر يشتمل على محلين، فبجدة يكون أَحدهما، والثاني بمكة، وبالينبع الساحل يكون الثالث، وبالينبع القرية يكون الرابع، يتلقَّى ما يرد عليه من الحمل ليكون أَضبط له، وكان لكل نفر (جامكية) من أَربع مئة نصف إِلى ثلاث مئة وخمسين، فنقصها مصطفى باشا إِلى ثلاث مئة نصف للنفر، ولكل نفر من الجراية: إِما من الدقيق بمكة فحمل ونصف، وإِما من القاهرة فمن البقسماط مئة وخمسة وسبعون رطلاً، ومن المضاف أَربعة أَحمال بسعر أُجرة إِمرة الحاج، وله لحمل أثقاله من جمال الأُجرة جَمَلٌ واحد. وقد يزادون على ذلك من أَهل المعروف، فلا تقدير على إِعطائهم، ويلزمهم الاهتمام بأُمور الحمل، وحسن القيام عليه، واعتماد مصالحه في كل بندر، كما يلزم صاحب الفضل.

الكتاب على الحمل: وعاداتهم أَربعة كالشادِّين لما ذكرنا. وقد اختصرهم مصطفى باشا إِلى اثنين بكل بندر نفر، وفي ذلك من العجز في الضبط ما لا يخفى، ويلزمهم ضبط الحمل بالقلم والوزن في كل بندر، وإِن فَرَّطُوا أَو قصَّروا في ضبطهم أَو اختلسوا شيئاً لزمهم، ولهم (الجامكية) لكل نفر على ما استقر عليه الحال الآن مئتان وخمسون نصفاً، وعندي أَن في ذلك إِجحاف كبير، فينبعي لمَن أَراد أَن يصون ماله من أُمراء الحاج أَن يعين كتّاباً ثقات، ويزيدهم عما ذكرنا لتنقطع أطماعهم عن تعلقه، ولهم من الجراية والمضاف كالشادِّين وقد اختصر في هذا الزمن من عادتهم بالبندر من الدقيق كل نفر نصف حمل، ويصرف لكل نفر حمل، ولكل نفر جمل لركوبه، وقد يزادون على ذلك بحسب خدمتهم والنصح الصادر منهم.

الكيالون: كالكتاب في العدد والجراية من غير إِخلال بشيء، ويلزمهم ضبط الحمل بالكَيْلِ المحرر، وإِن فرطوا ضمنوا.

وأَما الضريبة عن الفول المجروش فالذي أَدركنا عليه من تقدم زمن الوالد ـ رحمه الله تعالى ـ فكان القانون بعد الجرش المحرر المستوفي لشرائطه عند أَهله، عن الأردب الصحيح خمسة وثلاثين قيراطاً فينقص قيراط عن أَردب ونصف، وقد تغير هذا القانون الآن إِلى نقص قيراطين الأردب ودون ذلك بيسير، مع التأخر على المسفرين من الفول بعد هذا العمل فبعض الأُمراء أَمَرَ بجرش إِردب من الفول الصحيح، بحضرة مَن يثق بدينه ومعرفته، واعتبره مجروشاً بعد استيفاء شرائط الجرش، ومشى على ما استقر عليه الحال من ذلك في سائره، وهذا أَخلص للذمة، وأَبعد من الريبة. ثم لما ولي إِمرة الحاج الخواجا خضر بن عبد الله جهز نقابة على حمله، وأَمرهم بالتحرير والضبط، فَذُكِر لي أَنه حرر على معدل ستة وثلاثين قيراطاً كل أردب محملاً، وتبعه مَنْ بَعْدَهُ على ذلك، وجرت العادة للمسفر بحكم العوائد التي أدركنا من تقدمنا عليها أَن يترك للمسفرين في نظير ما يأْكله الجراشون من الفول قدراً لطيفاً بحسب ما تسمح به المروءة، واعلم أَن حكم الأردب المغموس في ماء البحر حالة الجرش حكم الأردب الصحيح قبل الجرش من غير تزكية.

وأَما الشدُّ المحزوم فالعمل فيه على حساب القبَّان أَصلاً وخصماً، وله سماح في حساب المسفر عليه من نقص التسليم من العربان، ومن النواخيد، ومن الحواصل يزيد وينقص بحسب ما تسمح به النفوس، وكان قديماً يغض كل حمل إِلى تسليمه لأَمير الحاج من الدقيق بطة، ثم اختصر إِلى نصف ذلك ودونه، وأَدركنا أَنه كان لعربان الحمل عادة تزاد على كل حمل من الفول، ولا تقام للديوان بل يسامح بها الجمال، وتسمى في عرفهم العِبْرة ـ بكسر العين المهملة ـ فأَبطلها الأَمير جانم الحمزاوي عند ولايته، واستمرت، واستجد الآن أَمرٌ بخلاف ذل وهو أَن أَمير الحاج يأْمر بعمل كيلات على معدل كل إِردب بحساب ستة وعشرين قيراطاً، فتكون الزيادة فيه عن العادة قيراطين يكون في كل حملٍ من الصحيح خمسة قراريط، ومن المجروش ربع أردب، فيحمل ذلك على حمل الأُجرة ويستخرجه كذلك، ويشحنه في المراكب كذلك، فيتحصل من مجموع ذلك قدر وافر لأَمير الحاج تتوفر عليه أُجرته في الظاهر، وأَما عند الله تعالى إِن لم يعين ذلك للجمال، وفي المركب، ويتراضيا عليه، وإِلاّ فيتعلق بذمته، ويكون ظالماً لهم في الأُجرة، والحالة هذه، وعند الله تجتمع الخصوم.

ثم لما ولي إِمرة الحاج أَحمد شلبي أَمير اللواء ـ وهو الذي لم يحج، وعزل بغيره ـ رأَى أَن ذلك من الظلم البيِّن، فأَبطل عمل تلك الكيلات، وجعلها على حكم كيل البحر، وهو كل إِردب خمسة وعشرون قيراطاً.

تنبيه:

الجاري من العوائد السابقة أَن جماعة الكيّالين من التزام المعلم السمسار المدولب (؟) في الغلال، وعليه ضمانهم، ثم تجدد إِحضاره للمباشرين أَيضاً في زمننا، وصاروا بمعرفته وضمانته، فبمقتضى ذلك صادر رأْساً في أُمور الحمل ومتكلماً على المتسفرين فيما ينقص عليهم، وله اليد فيما يفعله من الأَمانة وضدها، والأَولى خلاف ذلك، فإِن كون الكتبة من باطنه أَيضاً يكون بهذه الواسطة الاجتماع على قلب رجل واحد في أُمور الحمل، ولا يخفى على ذِي لُبٍّ ما في ذلك من المفاسد.

مقدم القوّاسة: المتوجه صحبة القافلة لتعريف المتسفرين عمن حضر من العربان، ومَن تأَخر حضوره لإِحاطته بعلم العجز والنقص، لضمانه لذلك، وهذا المقدم يعود إِلى القاهرة بعد التسليم للمسفر، وله من (الجامكية) ستون نصفاً، والجراية عن كل يوم رطلان من الدقيق أَو غيره مدة غيبته في ذلك.

صَبي الباب: إِن توجه صحبة القافلة فحكمه كذلك.

العتالون: لحمول الشد ببندر السويس عند التسليم من العربان، ولشحنة المراكب وعادتهم أَن يكونوا ثمانية أَنفار لكل عود اثنان، وجامكيتهم لكل نفر ستون نصفاً، ورطلان من الدقيق أَو البقسماط في كل يوم، وعهدتهم على مقدم العكامة لأَنهم من باطنه وأتباعه.

الخفراء بالسويس: وهم عبارة عن أَربعة أَنفار إِلى اثنين من القوّاسة يقيمون بالسويس حراساً للحمل إِلى نهايته، ولكل نفر من (الجامكية) في كل شهر من ثلاثين نصفاً إِلى خمسة وعشرين، والجراية بشرح ما ذكرنا للعتالين.

القصاد: المتوجهة بالمكاتبات والمثالات والأَحكام إِلى السويس، وإِلى الطور عادة النفر إِلى بندر السويس عشرون نصفاً، وإِلى بندر الطور ستون نصفاً.

ذكر بعض توابع الحمل

فبالسُّوَيْس المعمور كالأَنخاخ للمراكب، والقفف الكبار للشحنة، وقد تقدّم ذلك. وأَما بجدة فإِحضار الجِمال لنقل الحمل إِلى مكة المعظمة، والعادة المستقرة على الشريف أَمير مكة أَن يبرز أَمره للحاكم من جهته بجدة بإِحضار أَلف جمل لنقل حمل إِمرة الحاج من غير زيادة على ذلك، وما عداه إِمّا أَن ينقله أَمير الحاج على جماله إِذا حضر زمن الموسم، أَو يكتري له جمالاً بالأُجرة لباقي ذلك.

وأَما جرش الفول فعلى أَمير الحاج الأُجرة، وكانت قديماً لكل أردب نصف، والمستقر عليه الحال الآن لكل عشرة أَرادب ستة أَنصاف.

وعلى أَمير الحاج بقية المصروف أَيضاً من أُجرة السنابيك لنقل الحمل وشحنه، وتفريقه، وأُجرة الحاملين له من المراكب إِلى الساحل أو الفرضة، وثمن الشريط، وأَعني بذلك خيوطاً من ليف النخل لخياطة الفروق وغير ذلك مما هو معلوم كما تقدّم ذكره. وأَما بالينبع فليس على أَمير الينبع سوى إِحضار الجِمال فقط، والأُجرةُ فَعَلَى أَمير الحاج لكل جمل نصفان، وأُجرة الجرش بشرح الضريبة السابقة.

وأَما أُجرة الشُوَن، والحواصل المعدّة للحمل بالبنادر، ففي السويس المستجد نقل الحمل إِليه، فصرف أُجرة الشونة به بحكم عدم رضا أصحابها عشرة من الذهب بطريق المصالحة. وأَما بالطور فكان يصرف لهم من الفضة مئة نصف. وأَما في جدة فكان للحمل فرضة معينة لحمل السلطنة، وإِمرة الحاج، والتجار من غير أُجرة مطلقاً. فلما بَنى السيد الشريف تلك الفرضة بيتاً له يسكنه زمن الموسم الهنديّ احتاج أمير الحاج إِلى موضع يضع فيه حمله، فصاروا يضعونه في محل لجماعة من الأشراف ظلماً، ولا يعطونهم أُجرة، فَشَكَوْا كثيراً إِلى أَن جعل له أُجرة على أَمير الحاج قدرها من الذهب خمسة وعشرون ديناراً. وأَما ببندر الينبع فيخزنه أَمير الينبع بمعرفته في أَماكن صالحة للتخزين، والأُجرة على أَمير الحاج بطريق المراضاة. وفي بعض الأَوقات يعوضون من الأُجرة بشيء من (الحوائج خاناه) الفرغ، ومن المزاود و(القطارميز) وغير ذلك. وأَما وكالة المرحوم الأَشرف قايتباي بمكة المخزن بها حمل أَمير الحاج إِلى نهايته، فأُجرتها على أَمير الحاج يأْخذها الناظر على الوقف، وقدرها من الذهب بحكم القوة خمسة وعشرون ديناراً.

فلنرجع إلى ذكر بقية الحمول المجهّزة من طريق البر، وهو القسم الثاني فنقول:

وأَما الحمل المجهّز من طريق الْبَرّ فمنه إِلى عقبة أَيْلَةَ، ومنه إِلى الأَزْلم على ظهور جِمال عربان الحمل مقررة له يأْتي ذكرها. فأَما حمل العقبة، وقدره الآن ـ بحكم النقص عما كان يجهز قديماً لنقص الجِمال بديوان إِمرة الحاج ولضعف العربان ـ مئتان وعشرون حملاً، وتفصيلها ما هو من الشَّدِّ المحزوم ثمانية وخمسون حملاً، فمن البقسماط أَربعون حملاً على ضريبة أَوزان البحر، ومن الدقيق ستة أَحمال كضريبة حمل البحر، ومن الكشك والباسلاء والبرغل والأُرز من كل صنف حملان، ومن البصل والجبن بشرح ذلك، ومن الغلال مئة واثنان: ما هو من الشعير المغربل

عشرة أَحمال عنها ثلاثون إِردباً، ومن الفول المجروش باقي ذلك، ضمن كل حمل من الزكائب المبتاعة بديوان أمير الحاج ثلاثة أَرادب.

وأَما العربان الحاملة لذلك فهم عربان السعادنة، وهم ست بدنات السعادات: منهم منصور بن عواد، النهارات: منهم حمود بن سعد بن قرع. الموانسة: منهم عيسى بن حميد. الشراونة: منهم مهيوب بن شبل. الخشارمة: منهم سليمان بن دغمان، ومن باطنهم طائفة تدعى الحواوشة، الحديرات: وهم أكثر جمالاً وقدرة، ولا يحملون سوى أَربعة أحمال، ولمقدمي القوّاسة عليهم راتب سنوي في مقابل ذلك.

وأَما مقدار حملهم جميعاً فكان بعد عربان بني عَطِيَّة ـ كما أَشرنا إِلى ذلك سابقاً ـ مئة وثمانين حملاً. ثم شكوا الضرورة مراراً فعاد إِلى مئة وعشرين، وتارة يزيد عن ذلك إِذا تغير خواطر القوّاسة عليهم في تلك السنة، فإِنهم من تفريقهم مع بني شاكر الحجر، ويحملون الآن خمسة أَحمال وقد يحملون عشرة غصباً.

وأَما تعريف صبي الباب، وهو القسم الثاني: فمنه بنو شاكر القفعة ونهاية محملهم أَربعون، وهم بدنات منهم الزيادات والعبيات والأُحيماد ـ بضم الهمزة ـ والطليحات والشنجرة ـ بتشديد الراء ـ والمساعيد، والمهانية، والعطيات.

وأَما عربان العطيات أَولاد حجاج ومَن معهم، فيحملون عشرة أَحمال بعد عشرين، العقيبية: بشرح العطيات لأَنهم رفاقهم. القواتيل: كذلك. السلوط: ومحملهم خمسة أَحمال. الخضراء: ويحملون ستة أَحمال. السليمية: ويحملون ثمانية، الأَطاولة: ويحملون خمسة أَحمال.

وأَما الأُجرة فهي ثلاثون نصفاً كما قدّمنا بحكم الضريبة السلطانية العرفية لا الشرعية، فإِن أُجرة المثل ثمانون نصفاً، وقد تزيد وتنقص عنها.

والقسم الثاني من حمل البُرّ حمل الأَزلم: وعادته أَن يجهز من البر صحبة أَمير الحاج، فلما تزايد شرور بني عَطِيَّة، وأَخذوا في الأَذى والفساد، وتبعهم طوائف العربان على مثل فعلهم كالمساعيد من بني عقبة أَولاد الأَمير سعيفان وغيرهم. فصاروا يتعرّضون للجِمال التي فرغت من الحمل وهي متوجهة إِلى القاهرة فينهبونها من أَربابها، وتكرر ذلك منهم، وتوالى شرهم، واعتمادهم لذلك بين الأَزلم والقاهرة، فضجر عربان الحمل من ذلك، وشكوا لأُمراء الركب المرة بعد الأُخرى فلم يفدهم ذلك، ولم يزدهم إِلا خساراً، فلما كان سنة تسع وخمسين، ولاية الأَمير إِبراهيم بن

عيسى باشا، وتوجهت القوّاسة لإحضار العربان لقبض الأُجرة، تمرّدوا عن الحضور، وشكوا فقرهم وضياع جِمالهم نهباً في عهدة أُمراء الحاج، واحتاج أَمير الركب إِلى أَن اشترى الفول من بندر الأزلم بِأَغْلَى القيم حتى أكمل عليقه في تلك السنة، وحصل بذلك غاية المشاقّ، لكون أَن أُمراء الحاج جرت عادتهم أَن يحملوا كفايتهم صحبة العربان بأُجرة سلطانية، وقدرها ستون نصفاً. وأَما للرعية فأَربعة من الذهب وخمسة، فلما ولي إِمرة الحاج مصطفى باشا في سنة ستين وتسع مئة قسم ما كان يجهز من البر إِلى الأَزلم أَثلاثاً، فجهّز ثلثيه من طريق الطور مشحوناً بالجلاب، والزعيمات، وأَلزم فشيغة بن سالم بن عريفطة صاحب درك الأَزلم بنقل ذلك من مرساة الأزلم إِلى الخان بها، بأُجرة معلومة ووجهه صحبة الحمل، وكان تقدّم له ذلك في ولاية الأَمير يوسف الحمزاوي، وفي ولاية الأَمير سليمان (دوادار) سليمان باشا، والثلث الثالث يحضر به جماعة العربان المعتادة من طريق البر صحبة العسكر، و(باش الملاقاة) لما يحتاج إِليه في الإِياب، ثم بعد ذلك جهز الحمل جميعه من البحر بالطور.

وجملة المجهز إِلى بندر الأَزلم بحكم زمننا هذا على ما فرق في سنة سبع وخمسين وتسع مئة على العربان من الأُجرة ثلاث مئة وأَربعة أَحمال: ما هو من الدقيق المحزوم سبعة، ومن البقسماط خمسون حملاً، ومن الأُرز، والكشك والباسلاء، والبرغل والجبن، والبصل، من كل صنف حملان ومن الشعير خمسة عشر حملاً بضريبة العقبة، ومن الفول باقي ذلك.

وأَما العربان الحاملون لذلك فهم العربان المذكورون في حمل البحر، وقد غرق ذلك في تلك السنة على ما نشرحه.

جهينة: رفاعة خمسة وعشرون حملاً، الردنة: كذلك، السمرة: ثلاثون، العوران: خمسة عشر، بنو ثابت: كذلك، المرازيق: خمسة، المحاياة: ثمانية هذه جهينة.

وأَما بَلِيٌّ فعربان المطارفة: خمسة وعشرون حملاً، الطرافية: اثنان وعشرون، جعافرة الشنابلة: عشرة. جعافرة الحطب: كذلك، النجلة: اثنان وعشرون، موالكة آل علي: أَربعة وعشرون، موالكة السكارين: كذلك الهضبة: ثلاثة وعشرون، الرواشد: اثنان وعشرون، النواحجة: سبعة، بنو عقبة المعاريف: أَربعة، بنو عقبة البركات: خمسة أَحمال ـ والله تعالى الموفق ـ.

* * *

الفصل الثاني

في ذكر الجمال

وتفصيل محملها وعددها على اختلاف الآراء والسنين وذكر بعض ما وقع في أَثمانها من التعيين عند انتقال الإِمرة وغيرها من أَسباب المهم وما يتعلق بذلك فنقول:

قدّمنا أَنَّ ألأُسَّ الذي ينبني عليه تجهيز المهم الشريف هو الحمل والجُمال، وقد قدّمنا ذكر الحمل وبقي الكلام في الجِمال وهو الأَمر الثاني: والذي كان عليه مَن تقدّم من أَعيان الأُمراء من الاعتناء بأَمر الجِمال، والمنافسة في كثرة عددها، وغلو أَثمانها والمفاخرة بها، وبزيادتها عن المحتاج إِليه، بحيث أَن الذي كان عليه المتقدمون أَنه لا بُدَّ من الفضلات في ناحية تجهيز الجِمال، ويقسمون تلك الفضلات قسمين: أَحدهما يكون بدلاً عن المتنبل والعاجز، والثاني: يكون لحمل الفقراء والمشاة والعاجزين، ولحمل المياه ووضعها في ساقة الركب وجوانبه، لسقيا العطشان واللهفان وإِغاثتهم، إِذ لا قدرة لهم على حمله رغبةً في ثواب الله تعالى، وحسن الثناء من عباده بحيث أَن يجتهدوا في إِيصال البر والخير لوفد الله تعالى، فلا يحصل لفرد من أَفرادهم أَدْنَى ضرر، إِلاَّ وأَمير الركب يتكفل بإِزالة ضرره بمعونته تعالى، لأَنه راعٍ وكل راعٍ مسؤول عن رعيته. وقد عكس هذا الموضوع والمحمول، والأَمر فيه أَشهر من البرهان على ما نقول، وصارت القضية الكلية جزئية، أَو مفردة ليس فيها معية، وأَعجب من ذلك أَمر السحابة السلطانية السليمانية، المجهزة بركب الحاج في كل عام، وعدتها مئة حمل لمأْكولات الفقراء وسقايتهم، ولحمل العيَّان والمنقطع والعاجز، وتكفين أَمواتهم ومواراتهم، التي قصد مولانا السلطان سليمان، عين ملوك الزمان، بوقفها سبيلاً للّه تعالى، رغبة في ثوابه، وحسن المثوبة من الله تعالى، وجعلها معينة للفقراء الآفاقية، وتسامعوا بها من كل ناحية، ورغبوا في الحج لكون أن يحصل لهم من الرفق بها ما يتوصلون به في تلك القفار إِلى تلك الأَقطار، ويعودون بعد حجهم إِلى بلادهم والديار، وتوارَدُوا من أقطار الأَرض طمعاً في ذلك، وأَقبلوا إِلى الحج من كل فَجٍّ، فحيل بينهم وبين ما يشتهون منها، وفيها طمع المتكلمون عليها، وتواطؤوا بالكلية على منع مستحقيها، موجهين في ذلك أَوْجُهاً من أنواع الكذب والزيف، ومَن تردد إِليهم لطلب ما يستعين به منها أكثروا له من الوعد والتسويف، فلم يمنَعْ حصولُها قَطُّ فقيراً من السؤال، ذهاباً وإِياباً وإِن سُئلوا عن حالهم فيها أكثروا من التأَسُّف وأبدوا كمداً واكتئاباً. فلقد ينقطع العيَّان ليلاً ويصير مطروحاً بالأَرض بين العقوب، وفي جوانب الركب، وأقدامه متورمة، لا يستطيع الحركة، على

الغاية من المشقة والجهد والبلاء، وهو يصيح صياح الموت من آلامه، ويستغيث: يَا أُمَّةَ محمد ﷺ مَنْ يرحمني ويركبني لله تعالى؟! فلا يُغاث ولا يُجاب ولا يُلتفت إليه، ولا يكون عند ولاة السحابة ولا غيرهم في حساب، ولقد مرّ أمير الركب بالرجعة في سنة ثمان وخمسين وتسع مئة عند التوجه من المدينة المنورة على فقراء انقطعت من شدة، وماتت متفرقة من ذي الْحُلَيْفَة إلى جبل مُفَرِّح، وهم مطروحون بالأرض عرايا، وعلى أطراف الجبال، وتَحْتَ أُمّ غيلان، وبعضهم مكشوف العورة، ذكر لي بعض الحجاج ممن أثق بقوله إنه أحصاهم تسعة وعشرين نفراً، ومرَّ عليهم أميرُ الحاج، والشعراء بالرباب من ورائه فتركهم على حالهم، ولم يعبأْ بأحوالهم من غير نكير، في ذلك ولا مُشِير من مأمور، ولا أمير، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإنما يطمعون فيركبون الأقوياء الذين يتقون لسانهم، والذين لا يخافون أن يقولوا منكراً من القول وزوراً، والمتوجهين الذين لم يكن حجهم مبروراً ولا سعيهم مشكوراً، ومن يُعْطِهم مبلغاً على ركوبه، ومَن يتقونه في مأكوله ومشروبه، هذا والباعة لا تنقطع من جوانب السحابة وأحوالها غير صالحة ولا مستطابة.

والقاعدة التي كانتْ أُمراء الحاج مستمرين عليها إلى صدر من زمن الدولة العثمانية، وإلى نَيِّفٍ وأربعينَ وتسع مئة في مجموع عدة الجِمال، لكفاية المهم الشريف، هي الزيادة على الألف إلى خمس مئة، وست مئة بعدها، ومن ذلك ما اشتمل عليه حاسب جِمال الأَمير سليمان (دوادار) سليمان باشا عام أربعين، وكان عدد النفر ست مئة جمل من أَعلاهَا وأَغلاها وكان عدد الشعارة يزيد عن الأَلف، ودون ذلك بيسير جمال الأَمير سنان يوسف الحمزاوي بعد والده، فكانت تزيد على الأَلف وأربع مئة، منها النفر الكبار خمس مئة جمل، والباقون هجن وشعّارة. وأما من دونها بعدهما من الأُمراء فيزيدون عن الأَلف كالأَمير جانم كاشف الفيوم وغيره.

والمصطلح عليه الآن المتداوَل مع وجود الضرر بقلّته أن لا تزيد الجِمال على ثمان مئة وخمسين، بل تنقص قليلاً، منها نفر من ثلاث مئة إلى خمسين بعدها، والباقون شعّارة، ما عَدَا ما جهزه الأَمير عيسى بن إسماعيل أمير عربان بني عونة بالحبيرة في سنة ثلاث وستين، فإنه سافر بأَلف وأربع مئة جمل، من الجِمال المعتبرة قدراً وثمناً.

ثم ما كفاهم قلة الجِمال حتى ركنوا إلى خستها، وقلة أثمانها، فإنه لما تداول بيع الجِمال، ونقلها من ديوان أمير إلى غيره باختلاف الأُمراء، على توارد السنين، صار المعزول ينتخب أحسن الجِمال المبيعة، ويدخرها لنفسه، ويشح بها على غيره أو يبيعها بعد ذلك للرعايا بأَغلى القِيَم، فلا يفضل لذلك الأَمير المتولي بعده إلا ما بقي من رذايل

الحاصل، ثم إن المتولي أيضاً لا يشتري ما بقي من الجِمال إلا بدون ثمن تلك وقدودها، فيكون حالة المتجدد قليل العداد والسداد وهَلِمَّ جرًا. ثم إنهم مع قلّة الجِمال وضعفها يُحَمِّلونها مقداراً زائداً عن قدرتها حتى أنهم ليحملون القوائد مع قِلّتِها عن العادة، عجْزاً لما ذكرنا وبيَّنّا. ولذلك كثيراً ما تتسحب رجال النفر الخدامةُ بطريق الحجاز الشريف، لعدم حال الاستقامة، فلا يفضل من تلك الجِمال إلاّ كلُّ شديد، ومَن رزقه الله العمر المديد، فينبغي أن يتنبّه أمير الركب ذو المعقول التام لذلك فإنه من الضروريات.

وأما البيان لما تَحْمِلُ الجِمالُ من الأَحمال، على حكم الاختصار في هذا الزمن، والاقتصار، فمن ذلك محمل أصناف المأكولات، وتسمى في العرف عند العَكّامة بالسَّنيْح، وفي اللغة التركية يقولون (الكِلار) ـ بكسر الكاف ـ فأَقل ما يكون مُعَدًّا من جِمال النفر لحمله بما فيه من حمل قِرَب سقَايَة جماعته وخدَمته، مئة جمل، منها اثنان لحمل العيدان، وهما كالطليعة له، و(الباش) واثنان للمسطحات وهما أيضاً للزينة، ومنفعة لشاد السنيح، ولحمل أسبابه، وباقي ذلك من (الحوائج خاناه)، والمزاود، والأَقفاص والخيش الْمُعَبَّأ، وجِمال السقّائين به، ومنها لحمل قِرب السقّائين والماء، وأسباب السقاية، وكان ذلك إلى آخر سنة اثنتين وأربعين وتسع مئة، مئتين وعشرين جملاً، وجملة القِرَبِ أَلفٌ وستٌّ مئة قِرْبَة، والذي عليه غالب الأُمراء الآن مئة ونيف بقليل، وعدة الْقِرَب ـ كما ذكرناه في المقاطعة ـ ثمان مئة قربة، ما هو جديد ست مئة، وما هو مستعمل مئتان، وتفصيل الأَحمال: فما هو لجماعة الكملية الذين هم تحت اللِّواءِ على الْهِجْنِ ستة أحمال، ولجماعة الجراكسة ومَن معهم سبعة، ولسقاية الخيول والبغال بالإسطبل ثلاثون، وللسقائين (البوايك) وهم أهل السبق لحفر الآبار وموارد المياه، لأَنهم يتقدّمون الركب للفحص عن المياه والحفر، وتنظيف الحفائر، والاستعداد لورود الْقِرب والجِمال، اثني عشر جملاً، ولجماعة السقّائين بالدار، وهم الذين عليهم العمل في الصباح والمساء لتفرقة الماء لأَهل العوائد المعيَّنة من البيوتات وغيرهم خمسون جملاً، ولجماعة الخزَّازين جملان، ولسقاية (الشحت) ـ وهو التابع لركاب أمير الحاج أينما سار لسقايته ومَن معه ـ جمل.

والباقون من جِمال النفر لأَهل التفاريق، ولحمل الأَسباب الخاصة، فمن ذلك لِمَحَفَّة ركاب المخدوم أربعة، وللخزائن المشتملة على مال الصُّرَرِ والأَوقاف والودائع، وما عساه أنْ يكون لأَمير الحاج من نَقْد وغيره من الشيء النفيس، ثلاثة جِمال.

والخزائن عبارة عن ستة صناديق مجلّدة، من صناعة أهل الروم، يحيط بها قفل كبير، مع سلسلة جامعة لهم لا تُفَكّ إلا ساعة المسير، وتُجمع السلسلة بالقفل عند الإقامات وعدم التحميل.

ولحمل أصناف (الطشت خاناه) من ملبوس الأَمير والعوائد المشتملة على القفطانات، المعبَّر عنها في اللغة العامية بِالْخُلَع، على اختلاف أنواعها، والجوخ المخيوط للعربان، والملاليط والشاشات ـ وغير ذلك كما بيَّنّاه في بابه ـ اثنا عشر جمل، ولحمل أصناف ما يجهز بـ(الشراب خاناه) من ثلاثة إلى اثنين، ولحمل أصناف (الزردخانة) من لبوس الخيول والزرد والخوذ وغير ذلك من أصناف الإحراقات، من ثمانية جِمال إلى سبعة، ولحمل عامة أصناف الخيم، وآلاتها وما يحتاج إليه الفرّاشون عشرون جملاً إلى ما دونها، ولحمل نحاس المطبخ وجميع أسبابه، ومواهيه وصناديقه وطَبَالِيِّهِ، من ثمانية إلى سبعة، ولحمل مشاعل الضَّوْئِيَّةِ والحديد والأَحطاب، والدُّهْنِ المعبًا ضمن المواهي، وجميع أسبابها مع الغشامة من ثمانية وعشرين إلى ما دونها بقليل، ولحمل السروج الخاصة، وأسباب (الركاب خانة) جملان، ولحمل المخبز الحديد وآلة العجين، والخبز ثلاثة، و(للدوادار) جمل، وللمباشرين ـ إن كانا اثنين ـ جملان وإلاً فواحد، وللقبّاني والجرائحي لحمل شُقْدُفِهِمَا جمل، لكل واحد شِقٌّ، وباقي ذلك لحمل الحريم إن كان، ولِمَا يطرأُ ويتجدد من مهمات أمير الركب.

وأما القوائد، وهي من الأُمور اللازمة التي لا عدول عنها، وشرحها: أنَّ القطارَ يَكون عِدَّتُهُ حال السفر ثمانيةً، والقِيَدة التاسع، ومنفعته أنه عون للثمانية لما يعجز، أو عساه أن يُتَنبِلَ، ولحمل خرج الجِمال الذي ضمنه جرايته وثوبه، فله بالقيدة استئناس فإذا فقدها، وكان قريباً من القاهرة شرد سريعاً.

وأما عدة القطار في حال الإقامة فستة جِمال.

وأما جِمال الشعارة والهجن، وهي الجِمال الصغار القدود عن النفر، فالهجن منها الخاصة وهي التي تحمل أكوار الزينة ومركوب الأَمير، وأكثر ما جُعِلَ لذلك ثمانون هجناً، منها لحمل الأَكوار المزركشة والمنقّشة ستون، والباقي من ذلك للهجانة، وأقل ما يفعل من ذلك كان ثمانية وعشرين هجيناً، منها للأَكوار إحدى وعشرون عن سبعة نوب، والباقي للهجانة، ولِنُوَّاب المقدم ـ ويقال لهم النوابة ـ أربعة لركوبهم وللبابا ـ السائر في ركاب الأَمير أينما توجه ـ هجين، ولشراب داره هجين، وللشعراء اثنان.

ولمركب العسكر المنصور على حكم ما هو متداوَل الآن: فلجماعة الكملية بحكم عدتها ثلاثون هجيناً، ولجماعة الجراكسة ـ فيما فيه (نوباجية) العقبة، والأَزلم ـ ستون هجيناً على عددهم، وما هو لمركب مماليكي الأَمير وما عساه أن يكون من مضافاته وأتباعه، ومَن يختاره من (التفكجية) إن كان، فأَربعون هجيناً تقديراً ولجماعة

(الجاويشية)، وهما نفران عادة قديمة يكونان بصحبته من القاهرة خارجاً عن المتوجه صحبة الحمل من البحر، فلهما مع هجانهما جمل زائد، ولأَسبابهما أربعة، ولـ(كواخي البلكات) الأَربعة عن الركبان على جِمال النفر بالأُجرة السلطانية أربعة، ولجماعة (الطبول خانة). أما الرومية فثمانية وهجانان فتلك عشرة، وأما المصرية فخمسة، والهجان، وأقل ما يكون لـ(لدوادار)، ولجماعته الخاصة به ثلاثة، ولكاتب الديوان إِنْ كانَ من جانب السلطنة جملان، وإلاَّ فجمل، ولكاتب أمير الحاج جمل، ولجماعة الإسطبل عشرة، وهم (مهتار)، و(ركاب داريان)، و(سلاحوري)، و(رختوان)، ومن السواس خمسة، ولجماعة (الأَوجاقية) وجملتهم أربعون، لكل نفر فرس يقوده، وجمل يركبه، ولجماعة القوَّاسة وهم أَربعون، لكل نفر جمل، وللمبشِّرين بالدار على عدتهم لكل واحد جمل، إِن كانوا من أهل العوائد المستمرة، كعبد المجيد ابن الشيخ علي، عُرِفَ بأَبي حلاوة، وأخيه، ولـ(لزردكاش) جمل، وللنفطية وهجانهم ثلاثة، ولنجار السَّنِيح جمل، ولجماعة الهجانة بخدمة الكملية، والجراكسة، والمعدة الكريم والمضافات، لكل ثلاثة أنفار من العسكر هجان، وله جمل لركوبه، ولهجان الخزانة جمل، وللبياطرة جملان، وللسمسار في الغلال والكيّالين اثنان، وللمؤذنين والإِمام وهجانهم أربعة، وللزفوري - وهو السَّيَّافُ - جمل، وباقي ذلك لجماعة الشعَّارة يتسلمهن من المقدم عدةٌ من الخولة، ولا ينبغي أنْ تزاد عدتهم على أربعة إِن كان المقدم منفرداً، ولا على ستة إِن كانا اثنين.

ثم اعلم أنَّ هذا المقدار من الجِمال في غاية الحصر على الكفاية، وليس فيه فضلات، ولا لركب الفقراء وللصدقة، فمَن كان قصده خيراً فليزدْ في عددها بقدر اختياره، فمَن زاد زاد الله في حسناته.

ذكر ما وقع وتقدّم في أَثمان الجِمال المنقولة من دواوين الأُمراء، من التعيين والعدة والتفصيل فنقول

أما ثمن الجِمال عند انتقال الإِمرة فيزيد وينقص، بحسب حسن الجمال وقوتها، ورتبة البائع، والمشتري، ومنزلتهما من الدولة. فالأَثمان الواقعة في الصدر الأَول عن الجِمال المثمنة في ذلك الزمان، فالبيع كان يصدر فيها على حاصل يتضمّن الجِمال المنقاة المعتبرة في الْفدِّ والقوة والقدرة على الحمل الثقيل، وهي مبتاعة في الأَصل بأَثمان تليق بها.

وأما في زمننا هذا فغالب الأُمراء لا تتغالى في أَثمانها، وإنما قصدهم وجود العدد في الجملة سواء كان لها سداد أم لا.

ونحن نذكر ما وقع في الأَثمان ملخصاً من ستة ست وثلاثين إلى تاريخ هذا المؤلف. فمن ديوان الأَمير تنم ناظر الدشايش، إلى ديوان الجمالي يوسف الحمزاوي في سنة ست وثلاثين وتسع مئة في الثاني من شهر ربيع الآخر، عدة الجِمال ست مئة وأربعة وستون جملاً منها من النفر الكبار مئتان واثنان وسبعون، ومن الشعارة ثلاث مئة واثنان وتسعون جملاً، والثمن الذي وقع عليه العقد عن كل جمل نفر مع شعارة لا يَتَمَيَّزَانِ، مئتان وثمانون نصفاً، ومن الجمالي يوسف الحمزاوي إلى مصطفى كاشف الغربية في سنة ثمان وثلاثين وتسع مئة، عدة الجِمال سبع مئة وخمسة وتسعون جملاً، منها نفر كبار ثلاث مئة واثنان وسبعون، وشعارة أربع مئة وثلاثة وعشرون، سعر كل جمل مع بعضهما النفر على الشعارة، ثلاث مئة وستون نصفاً، ومن ديوان الأَمير مصطفى كاشف الغربية إلى الأَمير سليمان في الثالث من ربيع الآخر سنة أربعين، عدتها خمس مئة واثنان، النفر مئتان وتسعة وأربعون، والشعارة مئتان وثلاثة وخمسون، ثم كُلّ جملٍ مع بعضه مئتان وخمسون نصفاً، ومن ديوان سليمان (الكيخية) إلى الجمالي يوسف الحمزاوي أيضاً في ثالث شهر شعبان المكرم سنة إحدى وأَربعين، عدة الجِمال ثماني مئة وثلاثة نفرها مئة وسبعة وثلاثون جملاً، والشعارة ست مئة وستون جملاً، ثمن كل جمل مع بعضه مئتان وسبعون نصفاً، ومن ديوان يوسف الحمزاوي إلى مصطفى كاشف الغربية، وثمن ذلك بالديوان الشريف على يد قاسم المغربي، في غيبة الأَمير يوسف بالمملكة الرومية في ولاية خسرو باشاة، بحكم تَمَرُّدِ الأَمير قاسم المغربي وجَوْرِهِ وعسفه، في سنة اثنتين وأربعين وتسع مئة، سعر الجمل النفر خمس مئة نصف، والشعارة ثلاث مئة نصف، ومن ديوان مصطفى كاشف الغربية إلى ديوان جانم من قصروه في سنة ست وأربعين وتسع مئة، وعدة الجِمال ست مئة. نفرها مئتان وثماني عشرة، وشعارتها ثلاث مئة واثنان وثمانون، سعر جمل النفر ثلاث مئة، والشعارة مئتان وخمسون، ومن جانم إلى أيدين في سنة اثنين وخمسين، وعدتها خمس مئة واثنا عشر، نفرها مئتان وإحدى وثلاثون، سعر الجمل ثلاث مئة نصف، والشعارة مئتان وإحدى وثمانون، سعر كل جمل مئتان وإحدى وثمانون، ومن أيدين إلى حسين كاشف الفيوم والبهنساوية، في سنة ثلاث وخمسين وتسع مئة، سعر النفر من الفضة ثلاث مئة وثمانية وعشرون نصفاً، والشعارة مئتان وخمسة وعشرون، ومن الأَمير حسين إلى مصطفى باشا في

مستهل شوال سنة [....][١] جملة الجِمال سبع مئة وسبعة عشر جملاً، سعر النفر من الذهب الجديد ثمانية، والجمل الشعارة من الذهب الجديد خمسة ونصف دينار، ثم تأَخَّر لمصطفى باشا من عادة إِمرة الحاج بعد ذلك عند حسين المذكور فوق الثلاثة أكياس، قطعها الأَمير حسين في كلفة الجِمال في المدة السابقة عن إِقامتهم بالربيع، ودهانهم وثمن البرسيم، وأُجرة قصاصين، وثمن أَتبَانٍ وفول لعلوفتهم (؟)، وجوامك غلمان الجِمال وجراياتهم لمدة أولها صفر الخير، وآخرها غرّة شوال سنة أربع وخمسين، ومن مصطفى باشا إِلى محمود تابع داود باشاه في ثامن عشر رمضان سنة سبع وخمسين، بعد إِقامة مصروف الجِمال عن كلف العلف والربيع والدهان، كما تقدّم عن مدة أولها صفر الخير وآخرها غرة شوال سنة سبع وخمسين وتسع مئة، ومبلغ ذلك خمسة وسبعون ألف نصف، وأما ثمن الجِمال خاصة فسعر النفر من الذهب سبعة، والشعارة خمسة من الذهب.

ومن ديوان الأَمير محمود إِلى إِبراهيم بن عيسى باشا مما فيه كلفة الجِمال عن مدة أولها صفر الخير وآخرها ثالث رجب الفرد سنة تسع وخمسين، سعر النفر كل جمل بتسعة دنانير من الذهب، والشعارة كل جمل بستة من الذهب ونصف أشرفي.

ومن ديوان إِبراهيم إِلى ديوان مصطفى باشا بعد ربيع الجمال، على ذمة إِبراهيم المشار إِليه، والتسليم في مستهل ربيع الآخر، سعر الجمل النفر سبعة من الذهب، والشعارة خمسة من الذهب.

وأما بقية الابتياعات من دواوين الأُمراءِ وأثمانها، فعلى ما سنذكره، ونذكر ما قَرُبَ، لا ما بَعُد، لئلاً يطول الكلام، فخير الكلام ما قلَّ ودلَّ:

فمن ديوان الأَمير حسين إِلى ديوان مصطفى باشا على يدي، ومصطفى (أغا الجاويشية)، ويحيى (جاويش) بأَمر داود باشا والأَمير أحمد ناظر الأَموال، وكتابته للأَصناف، وثمنها بيده، وهي من الأَكوار المكملة القماشات منها ما هو مزركش أربع عشرة، وما هو من المخمل والقطيفة وغيره أربعة وعشرون قماشاً، ثمن ذلك من الفضة الجديدة ثمانية وثلاثون ألف نصف، وثمن الميثرة الخرجية المستجدة الإِنشاء بحكم زيادة الثمن ثلاثون نصفاً، والمستعملة عشرون نصفاً، وذلك بالأَسعار الغالبة، والقديمة عشرة أنصاف، والشبكة الغزلية الجديدة بثلاثة أنصاف، والوشاح الجديد كل

---

(١) بياض في الأصل.

زوج بتسعة من الفضة، البديد المكفي بنصفين، الحجر الجلد بنصف وعثماني، السلسلة الخرجية بنصف، اللبَّاد المستعمل بنصفين، الوشاح المستعمل بسبعة أنصاف، الزكايب الشعر الحيود (؟) كل حمل باثني عشر نصف وعثماني، المستعمل بسبعة أنصاف، كل حمل الدشت بأَربعة أنصاف، العباءة البلدية الجديدة كل واحدة بأَربعة أَنصاف، المسح الشعر لعمل حداجتين شعاري بستة أنصاف، الحداجة الشعارية وبطانتها بخمسة أنصاف وعثماني، القتب الشعاري بنصف وعثماني، الحصرة من النوار (؟) كل واحدة باثني عشر نصف وعثماني، بطانة الحداجة الشعاري بنصفين، القبة من الملحم الجديدة مكفية بآلاتها بمئة وخمسة وعشرين نصفاً. البهنة الواحدة (للفراشخاناه) بستة أنصاف، الشلايت المستعملة كل واحدة بعشرة أنصاف، نحاس المطبخ سعر الرطل بأَربعة أنصاف وعثماني، ودونه بأَربعة، المزاود الجدد كل حمل بأَربعين نصفاً بغير تكفية الحمل، المزاود القديم المكفي بستة وثلاثين نصفاً، الخيش الرَعباني المستعمل كل حمل بسبعة أَنصاف، المسطح كل حمل بثمانين نصفاً، (الحوائج خاناه) الجدد سعر الحمل ثمانون نصفاً، والمستعمل بسبعين، القطار ميز (؟) الزجاج سعر القنطار ستون نصفاً، طشوت الجرايات سعر الرطل أَربعة أَنصاف.

ومن ديوان مصطفى باشا إِلى ديوان الأَمير (محمود الكيخية) في سنة سبع وخمسين وتسع مئة بمعترفي أيضاً ـ بأَمر علي باشا، وبحضور شعبان (جاويش) السلطان، والأَمير سليمان المقاطعجي ـ فمن ذلك قماش أَكوار مزركشة مختلفة لعدة أَربعة عشر قماشاً، ومن المخمل وغيره إِحدى وعشرون، والأَكوار الخشب عدتها إِحدى وأَربعون، منها بفضة إِحدى وعشرون، والباقون (؟) بالدهان الساذج، ثمن ذلك أَربعة وثلاثون أَلفاً، وأَربع مئة نصف، وبيعة ثانية قماش أَكوار مزركشة، عدتها تسعة ثمنها ثلاثة عشر أَلف نصف، المياثر الخرجية جديد ومصلح، بسبعة عشر نصفاً، الكور الخشب المدهون كل واحد بدينار من الذهب الجديد، وشاحات مكفية غالبها قديمة، كل زوج بتسعة أَنصاف. الحجر الجلد بنصفين، البديد الجديد بأَربعة أنصاف، الزكائب الشعر الجديد، كل حمل بثلاثة عشر نصف، المصلح بسبعة أَنصاف، الحداجة المكفية بثمانية أَنصاف. القالب والشبكة بنصف، الْعبِيُ البلديُّ كل زوج بعشرة أَنصاف، اللباد الرومي للهجين كل واحد بسبعة أَنصاف، (الحوائج خاناه) المستعملة كل حمل بثمانين نصفاً، أَقفاص مخيَّشة كل حمل بثلاثة عشر نصفاً، جلد طومار لتغطية الأَقفاص كل واحد بإِحدى عشر نصفاً، عِكَكٌ مستعملة كل واحدة بأَربعة أَنصاف، قُبَبٌ خرجيات مستعملة كل واحدة بتسعين نصف، سروج طلابي

بآلاتها كل سرج ثمنه تسعون نصفاً، لبوس خيول من الجوخ الْمُلَوَّنِ والقطيفة القديم سعر الواحد خمسة من الذهب، لبوس خيول قمصان منقّشة كل واحد ثمنه من الذهب أَربعة، محفة وآلاتها وثوبها الثمن عنها من الفضة أَلفان ومئتان، سحابة السَّنِيح مستعملة، ثمنها أَلف نصف، جوخ العربان المخيوط من عباءة رومي ملون، كل واحدة ثمنها أَربعة وثلاثون نصفاً.

ومن ديوان محمود إِلى ديوان الأَمير إِبراهيم بن عيسى باشا في سنة تسع وخمسين بمعرفتي، وحضور قاضي الجيزية، أَكوار قماش مزركشة عدتها عشرون، ومعها مياثر دشت مستعملة عشرة، ثمن ذلك سبعة وثلاثون أَلفاً وسبع مئة نصف، الكور الخشب الخرجي ثمنه ستة وثلاثون نصفاً، الميثرة الخرجية القديمة من غير تصلحي بثمانية أَنصاف، السرج الكامل الاحتياج بخمسين نصف، نحاس المطبخ سعر الرطل خمسة أَنصاف ومن النقرة عشرة، المحفَّةُ وآلاتها بأَلف نصفاً، سحابة السنيح من الدشت ثمنها أَلف نصف، القبة المكفية بسبعين نصفاً، لبوس الخيول كل واحد ثمنه من الذهب ثلاثة (حوائج خاناه) مستعملة سعر الحمل سبعون نصفاً (خشاكوين الشراب خانة) ثمنه ستون نصفاً، زوامل (الطشت خانة) كل حمل ثمنه خمسون نصفاً.

ومن ديوان الأَمير إِبراهيم بن عيسى باشا إِلى مصطفى باشا في سنة ستين وتسع مئة لم ينقل سوى قماش الأَكوار المزركشة، وعدتها عشرون، ثمنها مع تكفيتها بأَكوارها ثلاثون أَلف نصف. وأَما الأَكوار الخرجيات بمياثرها سعر كل كور بآلته ستة وعشرون نصفاً ـ والله الموفق ـ.

الفصل الثالث

في ذكر ما كانت عليه ولاية إِمرة الحاج من الاعتبار والمهابة، واعتناء مَن تقدّم من الملوك، وفي صدر من الدولة المظفرة بها، وتصريف هذا المهم في كل حالة مستطابة، والتغالي في حسن القيام بحال الفقراء، وسماحة النفوس، لا المبالغة إِلى كل نفيس من مركوب، ومأْكول، وملبوس. فنقول:

لما كان فرضُ الحجِّ إِلى البيت العتيق أَحَدَ أَرْكان الإِسلام، ومن شعائره الظاهرة المتعلق فعله بالأَبدان، كما نصّ على ذلك العلماء الأَعلام، توجهَتْ نحوه النفوس والقلوب، وبذلوا في القيام بإِظهار شعائره كُلَّ محبوب ومرغوب، وأَجَلُّوا رتبة القائم بهذا المهم نيابة عن السلطان، ومُكِّنَ من التصرُّف في مهمات هذا المنصب السَّنِيِّ بأَعلى درجات الإِمكان، واهتم الأَوَلُونَ بترتيب أَطْلاَبِهِ على كل هيئة فاخرة، وزينة

شهيرة بِهِمم غير متوانية ولا قاصرة، على نظام ملوكي يقارب السلطنة في بيوتاتها، وأَتباع وحفَدة قد أَخذوا بأَزِمَّةِ المعالي في جميع جهاتها، وبالغوا في بذل الأَموال لقصد الشهرة، وإِرهاب المفسدين، ورتبوا لأَرباب الأَدراك على سلوك تلك الطرقات رواتب يسمو ذكرها، ويكثر قدرها ويبين، لا لِخَوْفٍ من شرورهم، ولا لعجز من مقدورهم، وإِنَّما ذاك ليكثر الأَمن بالرِّفد، وتحصل العمارة للوفد، وينمو خير الجالب من كل جانب، وترد طوائف العربان في كل محل ومنهل ومكان، للتَّسبُّب على الحجاج من الأَغنام والسمن والأَلبان، وسائر ما يحصل به الرفق مقصداً جميلاً، وتأسيساً جليلاً. قال العلامة، ابن فضل الله في كتابه «المسالك والممالك»: فيخرج الركب الشريف من القاهرة على أَتم رؤية باهرة بالمحمل السلطاني، والنظام الفلاني، والسبيل المسبل، والخير المُكَمَّل، للضعفاء والفقراء والمنقطعين، والماء والزاد والأَشربة والأَدوية والعقاقير والدرياقات والمعاجين، والأَطباء والكحّالين، والجرائحية والمجبِّرين، في أَكمل زيٍّ، وأَتَمّ أُبَّهَة، بالأَعلام والطبول والكوسات السلطانية والأَدِلأَءِ، والأَئمة والمؤذنين والأُمناء، والمجهزين للموتى، والأُمراء والجند والقاضي والشهود والدواوين، بطليعة وساقة وضَوْئيَّة، في أَوائل الركب وأَوسطه وآخره، كل هذا ليسهل الطريق إِلى بيت الله الحرام، وزيارة أشرف المرسَلين محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وإِذا نزلوا منزلاً، أو رحلوا مرحلاً دقّت الطبول والكوسات، ونُقرت النقاقير والبوقات، لِيُؤذَنَ الناسُ بِالرَّحيل والنزول، ويحصل بهذا الاستعداد والتأَهُّب فلا يعتاق أحدٌ فيبقى عرضةً لأَنْ يُؤْذَى أو يُتخَطَّف، ثم إِذا سَرَوا ليلاً أَو نهاراً يمشي وراءهم من الجند مَن يحفظ ساقتهم من لصوص العرب، وقطّاع الطريق، ثم إِذا نزلوا منزلاً كانت الأُمراء والجند على يقظة لمهاجم يهجم، أو مخالس يختلس، فإِذا أَمْسَوْا دار الطوف على الركب من خارجه بزفة تشتمل على أضواء كثيرة، توقد في المشاعل، ويركب معها جند على الخيل، ويمشي معها رجال بالسلاح، ويُجْهَرُ النداء بإِعلام أهل الركب بِأَيِّ أَرْض نزلوا، وفي أي درك من العرب وصلوا، ويوصيهم المنادي بالاحتراز، وبما يستعدُّون لرحلتهم وما يصلحهم في ذلك المكان لأَمر سفرهم، فمَن رأى ذلك من نظارة العرب أَجَلَّهُ وهابه، وعلم بتيقُّظ أهلِ الركب لأمورهم، ورأي أهل الشوكة فيهم فانكف طمعه وانقطع أمله، خصوصاً وما رتبه الملوك لقبائل العربان في الطرق، رسوماً على الخزائن السلطانية، وجهزوا في خزانة المحمل الشريف من النقود والخلع والمرتبات والجوخ والأَصواف، والشاشات، لشيوخهم وأكابرهم، عادة جارية لا تنقطع في كل سنة، ولا يتوقف صرف هذه

الخلال الحسنة، فإذا نزلوا على أرض قوم خرجت مشايخهم لتلقِّي المحمل السلطاني، وقبلت الأَرض، وعَقِبَ (الصنجق) المنصور، وخُفَّ جمل المحمل الشريف، في خدمة أَمير الحاج، طاعة للسلطنة الشريفة، وأودعوا من أهلهم وذوي قراباتهم، وأهل المراتب فيهم أُناساً في السلاسل، ووكلوا بهم مَن يحفظهم، ويستمرون على هذا إلى أن يخرجوا من أرضهم، فيطلق سراحهم، ويعجل مراحهم، ويخلع عليهم، وتوصل إليهم رسومهم، وإنما يعمل هذا بهم لاحتمال أَنْ يُؤْخذ شيء للحاج فيطلبون به، ويكونون رهائن عليه. فلا يستطيع أحد أن يتجاسر أو يتعرّض الحاج بِأَذِيَّةٍ، وربما تبع الحاج قوم من غير أرض ذلك القوم وسرقوا، فيحتاج هؤلاء أن يتبعوهم ويستعيدوا منهم الأَخِيذَة بعينها أو الثمن عنها، وجرى هذا غير مرة فصار للحاج بهذا أمن عظيم على أنفسهم وأموالهم.

ولما ثبّت الله تعالى قواعد هذه الدولة الشريفة (الخندكارية)، وأشرقت أنوار معدلتها بهم مظفرية ـ أمدّ الله تعالى أَيامها، وشدّ بأَطناب المجرّة خيامها ـ دانت لها الأُمم، ووفدت عليها العرب من كل جهة خصوصاً ما زِيد في مرتباتهم وإنعاماتهم في الأَيام الكافلية خاير بك فإنه جدّد لها بمعرفته المرتبات، وقابلها بالإِحسان والصلات، وفصل لها الصوف والجوخ والملاليط، وعيّن لها الشاشات، ومنحهم لمَّا قابلوه كُلَّ إكرام، وعادوا من عنده بالجوائز والإِنعام، فزادوا رغبة في الوفود على السلطنة، وسُرَّتْ قلوبهم بإنعاماتها المعنعنة، ووردوا إليها لتقبيل أعتابها، وتكحيل الجفون بتراب أبوابها، ورأوا من الصدقات (الخندكارية) والإِنعامات السلطانية المظفرية ما أغناهم وكفاهم، وشاهدوا من مهابة هذه الدولة ما منعهم وردعهم، وسكن في قلوبهم من خَوْفِ سطواتها ما لا يخرج، واستقَرَّ في صدورهم من عظمتها ما لا يتزحزح ولا يبرز، فصاروا يخرجون إلى الحجاج إذا دخلوا في أرضهم ونزلوا ببلادهم نهاراً جهاراً، بالكلإ والغنم واللبن والسمن والعسل والعلف والجِمال للبيع والكراء، وتقام الأَسواق في كل منْهل ماء، وفي كل مكان، والحجاج في غاية الطمأْنينة والأَمن والدعة كأَنهم قعود في بيوتهم في وسط مدينة ذات أسوار وأغلاق، ومرافق وأسواق، بل أكثر أمْناً وأوسع رزقاً، لتولي أهل تلك الأَرض لحِراستهم واستعدادهم طول السنة للبيع عليهم في ذلك الوقت المقدّر المعلوم، فكثرت الرغبة في الحج، وقصدوا إليه من كل مكان وفج، واشتاقوا إلى العجِّ والثج، وإلى تَعَهُّدِ تلك الأَماكن الشريفة، والأَرض المطهّرة المنيفة.

ذكر المقريزي في كتابه «المواعظ والاعتبار» نقلاً عن كتاب «الذخَائر» أن المنفق

كان على الموسم في كل سنة تسافر فيه إلى الحج القافلة مئة ألف دينار، وعشرين ألف دينار، منها في الطيب والحلوى والشمع راتباً في كل سنة عشرة آلاف دينار.

ومنها: نفقة الوفد الواصلين إلى الحضرة أربعون ألف دينار، ومنها في ثمن الجرايات والصدقات، وأُجرة الجِمال ومعونة مَن يسير من العسكرية وأمراء الموسم وخدمة القافلة وحفر الآبار ونحو ذلك سبعون ألف دينار، وأن النفقة كانت في أيام اليازوري الوزير قد زادت في كل سنة وبلغت إلى مئتي ألف دينار ولم تبلغ النفقة على الموسم مثل ذلك في دولة من الدول.

قلت: ولقد كان الأَمر على ذلك فيما بلغنا عن الدولة الجركسية فيما يصرف لجهات الحرمين، وعلى المهم من ديوان السلطنة، ومن ديوان أمير الحاج. وأدركت جانباً من ذلك في صدر الدولة المظفرية، منها في ولاية جانم الحمزاوي لهذه الإِمرة فإن حساب نفقته على المهم من ديوانه خاصة ـ بما فيه عادته من الخزائن السلطانية الشريفة ـ بلغ إلى مئة وثلاثين ألف دينار، واشتمل مبلغ مصروف سليمان (كيخيا) سليمان باشا كما شرحنا على مئة وخمسين ألف دينار، وكذلك الجمالي يوسف الحمزاوي وأشباههم. وذلك خارج عما يصرف لجهات الحرمين الشريفين من خزائن السلطنة الشريفة بالمملكة الرومية وبمصر والشام وحلب، فإن ذلك قدر وافر إلى الغاية، من ذلك الصَّرُّ الرومي المجهز بدفتر من المملكة الرومية قدره من الذهب الجديد نَيِّفٌ وثلاثون ألف دينار، والمنفق المختص بالخزانة المصرية عما يصرف على يد أمير الحاج خاصة من مال الديوان السلطاني اثنان وثلاثون كيساً عن ذلك أشرفية بالحساب القديم ثمانون ألف دينار، وإنما تقهقرتْ أحوال هذا المهم، وتغيّر غالب ما ذكرناه بدواوين أُمراء الحاج في هذا الزمن بولاية مَن لا يستحق هذا المنصب الجليل، ومن رغبته في النسبة إليه فقط واعتماد التحصيل، والسعي إليه ببذل الأَموال من كل لئيم ورذيل، ليترقَّى به إلى المناصب العالية من غير نظر إلى مراعاة أحواله بالكلية، أو ولاية بعض الأَماثل وأعيان الأَكابر الذين قصدهم جمع المال وتأصيله، وقطع عوائد هذا المهم وتحصيله، فيقصدون الجمع من كل باب من أبوابه، من غير نظر إلى عمارته، بل يتعمّدون هدم قواعده، ولا يكونون من أنصاره ولا أحزابه، ويرغبون في التحصيل من التَّرحيل والصَّرِّ وبيع الحمول، ويقصدون المتجر لا الإِمرة، على ما هو حالة غالب أهل هذا الزمان، إلا ما شَذَّ من أهل العقول، وَبِسَبَبِ نِيَّاتهم وأفعالهم السقيمة، قدْ رُدَّتْ أحوال فاعل ذلك إلى الذل والصغار فليست له حالة مستقيمة، وقد بلغنا من الأَكابر والمشيخة والمتقدمين في السن أن هذه الإِمرة كانتْ في القديم من الزمان، إذَا عُيِّنَت

لأَمير من الأُمراء يَعُدُّهَا كالمصادرة من السلطان، ويُمِده في تلك الولاية بأَموالها وهداياها غالب الأَكابر والأَعيان؛ ولم يكن يعهد في تلك الأَيام والسنين ضبط محصول ولا مبيع على آلاف ولا مئتين، فلهاذ كان هذا المهم على قوانينه، والناس مغْمورة به وبعوائده وأفانينه. فلقد حكى لي القاضي الأَجل شمس الدين محمد العبادي كاتب الخزانة الشريفة أنه لما توجه في خدمة أستاذه الأَول وهو الأَمير طقطباي نائب القلعة في الدولة الجركسية على مهم الحاج الشريف حصل له من الخير والإِنْعام ما يستحي من ذكره لكثرته، ولما عاد من الحج وصل إِليه من الأُمراء مع أستاذه مع ما كان يصل إِلى أُستاذه من جنس الكسوة والثياب ما جمعه في بقش عديدة، فأَين ذاك من هذا الزمن؟ وأين تلك المحاسن من تَجَرُّعات هذه الغصص وتوالي المحن؟ فغاية ما يفعله أمراء الحاج الآن من الشهرة ما يصدرون به أطلابهم للعرض على الباشة، ورؤية العامة في يوم الزينة مرور الأَكوار المزركشة، والسروج المحلاة بالذهب والفضة، عند التوجه إِلى البِركة، والبروز من المدينة، فهم وإِن تستَّروا بهذه الشهرة في المصروف، فقد ارتكبوا المحرم وأثموا بفعل المحظور شرعاً، كما هو منقول ومعروف، فقد حرّم الشارع استعمال الذهب والفضة على الرجال، فلا يجوز استعمال شيءٍ منه إِلا ما استثناه الشارع من الفضة للرجال كالخاتم وحِلْيَة السيف، واخْتُلِف في حلْيَة المِنْطَقَة، وأما حِلْيَة السكين فلا تجوز لأَنه إِنما جوّز ذلك في حلية السيف للأَثَر، ولهذا منع من حلية حمائل السيف، وأما الجوشن والخوذة والخفُّ والزأن فحكمه حكم المنطقة.

قال القاضي أبو يعلى: ويتوجه أن يخرج على رواية واحدة بالمنع، وقال: أما حلية الدواة والمِحْبرة والمقلمة فكله محرّم، لأَنها آلة تنقل وتحول، وكذلك اللِّجام والثفر والسرج وما يكون على الدابة فهو محرم، ولا يجوز للرجل أن يتحلَّى بشيءٍ من الذهب، وإِن قَلَّ، وإِنْ تحلَّى أَثِمَ وفيه الزكاة، كما تجب الزكاة في الفضة أيضاً إِلا عند الحاجة والضرورة، وهو الموضع الذي لا يقوم مقامه غيره، مثل أَنْ جُدِع أنفُهُ فاتخذ أنفاً من ذهب، أو ربط أسنانه بالذهب عند الضرورة، فمثل ذلك قد فعله الناس، فسرج الهجين المسمى بالكور وآلَتُهُ المزركشة حرام، والمتخذ لها عاص وفيها الزكاة. وقد حجّ رسول الله ﷺ وهو أشرف المرسَلين على رَحْلٍ رَثٍّ وقطيفة لا تساوي أربعة دراهم وقال: «اللهم اجعلها حجة لا رياء فيها ولا سمعة»[1]. وكذلك حجّت خلفاؤه رضي الله عنهم من بعده.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المناسك [٢/ ٩٦٥] ح [٢٨٩٠].

قال الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: رأيتُ عمر بن الخطاب يطوف بالكعبة، وعليه إزار فيه إحدى وعشرون رقعة فيها من أدم.

وقال أبو عثمان النهدي: رأيت عمر يرمي الجمرةَ وعليه إزار مرقوع بقطعة جراب، ولما حجّ قال: كم بَلَغَتْ نفقتنا يَا يَرْفَأُ؟ قال: ثمانية عشر ديناراً يا أمير المؤمنين. قال: ويحك أَجْحَفْت بِبَيت مال المسلمين.

ولأنَّ المقصد الأَعظم من الحج غفران الذنوب التي أعظمها ارتكاب المحرمات، فَتَوَجُّهه إلى بيت الله الحرام متصفاً بهذه الصفات السابقة مُبَاينٌ لما قصَدَه إن كان قصده المغفرة، وقد قال شريح: الحاج قليل، والركبان كثير.

وقال بعض التابعين: رُبَّ مُحْرِمٍ يقول: لَبَّيْكَ اللهم لَبَّيْك، فيقول الله له: لا لَبَّيْكَ ولا سَعْدَيك، هذا مردود عليك، قيل له: لِمَ؟ قال: لعله اشترى ناقة بخمس مئة درهم ورحلاً بمئتي درهم ومفرشاً بكذا وكذا، ثم ركب ناقته ورَجَّل شعره، ونظر في عِطْفيه، فذلك الذي يُرَدُّ عليه.

ومن هنا اسْتُحِبَّ للحاج أن يكون أشعث أغبر، شعر لبعضهم:

إِنِّـي لأَعْـجَـبُ مِـنْ قَـوْم ذوي طَـلَـلٍ ... لَـوْلاَ الـثِّـيَـابُ لَـمَـا كَـانُـوا مِـنَ الـنَّـاسِ
اسْتَعْمَلُوا جَيِّدَ الصَّابُوْن إِذْ دَرنَتْ ... والْعِـرْضُ أَوْسَـخُ مِـنْ سِـرْبَـال رَوَّاسِ
لاَ بَـارَكَ الله فِـي الـدُّنْـيَـا وَلَـذَّتِـهَـا ... فَـالْـحُرُّ وَالـنَّـذْلُ فِـي الـدُّنْـيَـا بِـمِـقْـيَـاسِ

وقيل: إكمال القمصان علامة النقصان، وأثواب السفهاءِ مكانس الأَسواق، وأَثواب الفقهاء إلى أنصاف الساق، وشَرُّ الثياب ما بلغ التراب كِبْراً، وخيرها ما نقص عن الْكَعْب شِبْراً.

قال ابن الحاجّ في «مدخله»: وينبغي التحفظ من هذه البدعة التي يفعلها كثير ممن ينتسب إلى العلم، من تفصيل لباسهم من طول الكم والاتِّساع والكبر الخارج عن عادة الناس، فيخرجون به عن حَدِّ السمت والوقار، ويقعون بسببه في المحذور المنهي عنه ـ ثم قال بعد كلام ـ: ولما دخل محمد بن واسع سيِّد الْعُبَّادِ ـ رحمه الله في زمانه ـ على بلال بن أَبي بُرْدَةَ أمير البصرة وكان ثوبه إلى نصف ساقه قال له بلال: ما هذه الشهرة؟ قال ابن واسع: أنتم شهرتمونا، هكذا كان لباس مَن مضَى، وإنما أنتم طَوَّلْتمْ ذيولكم، فصارت السنة بينكم بدعةً وشهرة ـ ثم قال بعد كلام ـ: ألاَ ترى إلى ما ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين لبس ثوباً فوجد كُمَّيْهِ يزيد على أطراف أصابعه، فطلب شيئاً يقطعه به، فلم يجد، فأَخَذَ حَجَراً وأَلْقَى كمَّه عليه ثم

أَخَذَ حَجَراً آخر فجعل يَرُضُّه، حتى قطع ما فضل عن أصابعه، ثم تركه كذلك حتى خرجت الخيوط معه ونزلته، فقيل له في خياطته فقال: رأيت رسول الله ﷺ فعل بثوب كذلك، ولم يَخِطْه بعد حتى تقطّع الثوب. انتهى. وقال عمر رضي الله عنه: كل جديد من غَزْل الدِّيْدَان، يبليه الجديدان، والمروءة الظاهرة في الثياب الطاهرة.

لاَ تَنْظرَنَّ إِلَى الثِّيَاب فَإِننِي ... خلق الثِّيَاب مِنَ الْمُرُوءَةِ كَاسِي

قال الأَحْنَفُ رحمه الله: أَخرَجَنا عمرُ رضي الله عنه في سريَّة إِلى العراق وفارس، فأَصبْنا من ثياب فارس وخراسان، فحملنا منها واكتسينا، فلما قدمنا على عمر رضي الله عنه أعرض وجهه عنَّا، وجعل لا يكلمنا، فاشتدَّ ذلك علينا فشكونا إِلى ولدِهِ عبد الله فقال: قد رأى عليكم لباساً لم يلبسه رسول الله ﷺ ولا الخليفة من بعده رضي الله عنه، فأَتينا منازلنا فنزعنا ما كان علينا، وأتينا في الصفة التي يعهدها منا فقام فسلَّم على رجل رجل وعانق رجلاً رجلاً، حتى كأَنه لم يَرَنا قَبْل. ورأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً على رجل ثوبين رفيعين، فَعَلاَهُ بالدُّرَّةِ.

قال ابن القاسم: وبلغني أنَّ عمر رضي الله عنه قطع كمَّ رجلٍ إِلى قدر أصابع كَفَّيْهِ، ثم أعطاه فضلَ ذلك وقال له: خذ هذا واجعله في حاجتك، وقال الإِمام محمد بن إِدريس الشافعي رضي الله عنه:

عَلي ثِيَاب لَوْ تُبَاع جَمِيْعُهَا ... بِفِلْسٍ لَكَانَ الْفِلْسُ مِنْهنَّ أَكْثَرَا
وفِيهِنَّ نَفْسٌ لَوْ يُقَاسُ بِبَعْضِهَا ... جَمِيْعُ الْوَرَى كَانَتْ أَجَلَّ وأَخْطَرَا
فَإِنْ تَكُن ألأَيَّامُ أَزرَتْ بِبِزَّتِي ... فَكَمْ مِنْ حُسَامٍ فِي غِلاَفٍ مُكَسَّرَا
وَمَا ضَرَّ نصْلَ السَّيْفِ إِخلاق غِمْدِهِ ... إِذَا كَانَ عَضباً حَيْث أَنفَذتَه بَرَا

وعن أَسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: كان كمُّ قميص رسول الله ﷺ إِلى الرُّسْغ، وكان ﷺ لا يتأَنَّقُ في ملبس، وكان يلبس الخشن من الكرابيس قيمة قميصه ثلاثة دراهم إِلى عشرة أو أقل. وعُوْتِب عليٌّ رضي الله عنه في إِزار مرقوع فقال: يقتدي به المؤمن، ويخشع له القلب - أي الموقن -.

وقيل لأَبي موسى الأَشعريِّ - رحمه الله، وكان إِذ ذاك أمير الكوفة -: إِنَّ أقواماً يتخلّفون عن الجمعة بسبب ثيابهم، وما بِهِمْ من بأس؟ فلبس عباءة فصلّى فيها بالناس وقال: قال رسول الله ﷺ: «البذاذة من الإِيمان»[1] قالها عليه السلام ثلاثاً، والبذاذة

(١) أخرجه أبو داود في الترجُّل [٤/ ٧٤] ح [٤١٦١]، وابن ماجه في الزهد [٢/ ١٣٧٩] ح [٤١١٨].

ترك مداومة الزينة وهي صفة الزاهدين المتواضعين، والمراد به التواضع في اللباس، ولبس ما لا يُؤَدِّي إلى الخيلاءِ، والثياب ذوات الألوان، لباسُ النّساء والغلمان.

وعن عبد الله بن شدَّاد قال: رأيت عثمان بن عفان رضي الله عنه يوم الجمعة على المنبر، عليه إِزار عدنيٌ غليظٌ، ثمنه أربعة دراهم أو خمسة ورَيْطَةٌ كوفية مُمَشَّقة. وكان عمر رضي الله عنه خشِنَ الملبس والمطعم، يلبس الصوف، ويرقع الثوبَ بالأَدِيمِ، ويشتمل البعاءة، ويركب الحمار مُعْرَوْرياً، والبعير مخطوماً بالِلّيف مُرَحَّلاً بالشعر، مع عظم هيبته.

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان بين كَتِفَي عمر رضي الله عنه ثلاث رقاع من أدم.

وروي أنَّ المسلمين لما حاصروا بيت المقدس في السنة السادسة عشرة وطال حصارُهم، قال لهم أهلها: لا تتعبوا فلن يفتحَهَا إلاَّ رجل نحن نعرفه، له علامة عندنا، فإِن كان إِمامكم فيه تلك العلامة سلّمناها له من غير قتال، فأَرسل المسلمون إِلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخبرونه بذلك، فركب عمر رضي الله عنه على جمل، خطامه لِيْفٌ ورحله، ومعه غلامُه يعاقبه في الركوب نوبة بنوبة، وقد تزوّد شعيراً وتَمْراً وزيتاً، وزاده تحته، وعليه مُرَقَّعَةٌ، ولم يزلْ يطوي القفار الليل والنهار إِلى أنْ قَرُبَ من بيت المقدس، فتلقاه المسلمون، وعليه إِزار وخفَّان وعمامة، وهو آخِذٌ برَسَنِ راحلته، يخوض الماء قد خلع خُفَّيْه، وجعلهما تحت إِبطَيْه، وقالوا له: يا أمير المؤمنين ما ينبغي أَنْ يَرَى المشركون أَمِيرَ المؤمنين في هذه الهيئة، ولم يزالوا به حتى ألبسوه ثوباً أبيض، وأركبوه فرساً، وفي رواية برْذَوْناً ليرهب العدو، فلما أن استوى عليه ومشى به داخله شيءٌ من العجب، فنادى بأَعْلَى صَوْته: أَقِيْلُوا عُمَرَ عَثْرَتَه، أقالكم الله عثرتكم، فنزل ورجع إِلى مُرَقَّعَتِه فلبسها، وركب جمله، ثم سار على هيئته إِلى أن وصل، فلما رآه المشركون من أهْل الكتاب كَبَّرُوا وقالوا: هذا هو!! وفتحوا له الباب، فقال: بالإِيمان اعتززنا، وفي رواية: نحن قوم أعزّنا الله بالإِسلام، فلا نطلب العزَّ من غيره.

وخطب عباس على المنبر وعليه إِزار عَدَنِي ثمنه أربعة دراهم أَو خمسة. رواه الطبراني، وكان عثمان رضي الله عنه مع ترادف الغنائم وكثرت الفتوح لا يلبس إِلاَّ الصوف والمُسُوْح، ومات عمر رضي الله عنه، وعليه من الدَين ثمانية وعشرون ألفاً ما أكل منها خَبِيْصاً، ولا لبس قميصاً، بل كانت جبتُهُ مرقَّعَةً بالجلود، وبابه من جريد، وإِنما أنفقها في سبيل الخير لا غير، وقد فُتحت عليه كنوز كِسْرَى، وجبته ترقع

بالجلود وخطام بعيره من حبل ليف، ومسكنه بباب من جريد، وقبض ﷺ في كساءٍ ملبّد، وإزار غليظ، كما روينا في «الصحيحين» وكان عليه السلام يوم بني قريظة على حمار مخطوم بحبل من لِيْف، عليه إكَافٌ، ورُوي أنَّ ثياب عمر بن عبد العزيز التي كان يَخْطُبُ بها وهو أمير المؤمنين قُوِّمت باثني عشر درهماً وكانت قُبَاء، وعمامة وقميصاً وسَرَاويْلَ، ورداء وخفين وقلنسوة.

قال ابن الحاجِّ في «مدخله»: وقد كان السلف رضي الله عنهم يقتصرون على أَدْنَى ثوب.

وقال أبو طالب المكي في كتابه «القوت»: ومما أحدثوه من البدع لبس الثياب الكثيرة الأَثمان، وقد كان السلف رضي الله عنهم ثوب أحدهم من سبعة دراهم إلى عشرة دراهم، وكانوا لا يجاوزون هذا الثمن إلاَّ نادراً أو كما قال. ـ ثم قال بعد كلام طويل ـ: وكذلك العمامة والْعَذَبَة، وقد كان العلماء قديماً إذا نظروا إلى الْمُتْرَفِيْنَ قد خرجوا إلى مكة حجّاجاً زُوَّاراً يقولون: لا تقولوا خرج فلان حاجًّا ولكن قولوا: خرج مسافراً. وقال ابن مسعود رحمه الله: في أواخر الزمان يكثر الحاجُّ بلا سبب، ويهون عليهم السفر، ويُبْسط لهم الرزق، ويرجعون محرومين مسلوبين، يَهوي بأَحدهم بعيرُه بين القفار والرمال، وجارهُ مأسور إلى جنبه ما يواسيه ببصلة، تَبًّا له ما أَجهله!

وعن مجاهد قال: قلنا لابن عمر رضي الله عنهما: أَيُّ حجاج بيت الله الحرام أفضل وأعظم أَجْراً؟ قال: مَن جمع ثلاث خصال نِيَّةٌ صادقة، وعقل وافر، ونفقة من حلال. ومن حديث أَنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يأْتي على الناس زمانٌ تَحِجُّ أَغنياؤهم للنزهة، وأَوساطهم للتجارة، وقُرَّاؤهم للرياء، وفقراؤُهم للمسأَلة»[1].

وقيل: إن هذه الأَبيات أَول شعر قيل في العرب:

لَـمَّـا رَأَيـت مُـنَـادِيْـهِـمْ أَلَـمَّ بِـنَـا ... شَـدَدتُ مِـئْـزَرَ إِحْـرَامـي وَلَـبَّـيْـت

وَقُلْت لِلنَّفسِ: جِدِّي الآنَ واجْتَهِدي ... وَسَـاعِـدِيْـنِـي فَـهَـذَا مَـا تَـمَـنَّـيْـت

لَوْ جِئْتُكُمْ قَاصِداً أَسْعَى عَلَى بَصَرِي ... لَـمْ أَدِّ حَـقًّـا وأَيُّ الْـحَـقِّ أَدَّيْـت؟!

ومن كتاب «القوت»: أَن رجلاً جاء يودّع بشرَ بْنَ الحارث وقال له: قد عزمت على الْحَجِّ أَفَتَأْمُرني بشيء؟ قال له بشرٌ: كم أَعددت للنفقة؟ فقال: أَلفي درهم، قال:

---

(١) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد [١٠/ ٢٩٦]، والديلمي في مسنده [٨٦٨٩/ ٤٤٤].

فأَيُّ شَيْءٍ تبتغي بحجك نزهَةً أَوِ اشْتياقاً إِلى البيت أو ابتغاءَ مرضاة الله؟ قال: ابتغاء مرضاة الله تعالى، قال: فَإِنْ أَحببه رضَا الله وأَنت في منزلك وتنفق أَلْفَيْ درهم، وتكون على يقين من مرضاة الله أَتفعل ذلك؟ قال: نعم، قال: اذهَبْ فَأَعْطِها عشرة أَنْفسٍ: مَدِيْنٍ يقضي دَيْنه، وفقيرٍ يرمُّ شَعَثَهُ، ومُعِيْلٍ يُحيي عياله ـ وعَدَّله العشرةَ ـ وقال له: وإِن قَوِيَ قلبك أَن تعطيها لواحدٍ فافعل، فإِنه أَبَرُّ من مئةِ حجةٍ بعد حجة الإِسلام وأَفضل، قُم فأَخرجْهَا كما أَمرتك. فقال: يا أَبا نصر سَفَري أَقوى في قلبي. فتبسّم بشر رضي الله عنه وقال له: المال إِذا جُمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس أَن تقضي به وطراً، وتسرع إِليه تظاهراً ـ يعني بأَعمال الصالحين ـ وقد آلَى اللّهُ تعالى على نفسه أَنْ لا يقبل إِلاَّ أَعمال المتقين.

وقد روى الأَزرقيُّ في «تاريخ مكة» قال: حدثني جدي قال: حدثنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج عن خصيف عن مجاهد أَنه قال: حَجَّ موسى عليه السلام على جمل أَحمر فَمَرَّ بالروحاء وعليه عباءتان قطوانِيَّتان مُتَّزراً بإِحْدَاهُما مُرْتَدِياً بالأُخرى، فطاف بالبيت ثم طاف بين الصفا والمروة، فبينما هو بين الصفا والمروة إِذْ سمع صوتاً من السماء وهو يقول: لبيك عبدي وأَنا معك، فخرَّ موسى ساجداً.

وبروايته أَيضاً عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: صلّى في مسجد الْخَيْفِ سبعون نَبِيًّا كلهم مخطمون باللِّيف، فقال مروان بن معاوية: يعني رواحلهم.

وعن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر بصِفَاحِ الرَّوْحَاء ستون نبيًّا، إِبِلُهُمْ مخطَّمَةٌ بالليف.

وروي عن رسول الله ﷺ أَنه قال: «قد مَرَّ بِفَجِّ الروحاءِ ـ أَو قال: لقد مرّ بهذا الفجّ ـ سعبون نبيًّا على نوق حُمْرٍ، خطمها الليف، ولبوسهم العباءة وتلبيتهم شتى، منهم يونس بن مَتَّى»[١].

وقال رجل لابن عمر: ما أَكْثَر الحاج؟! قال: لا بَلْ ما أَقَلَّهُم! ثم رأَى رجلاً على بعيرٍ رحله رثّ، خطامه حبل، فقال: لعل هذا.

وحكى سِبْطُ بن الجوزي في ترجمة عبد الله بن المبارك قال: كان عبد الله بن المبارك يحج ومعه أَحمال وصناديق، وخدم كثير، فنزلوا منزلاً عن مرو، وكان مع بضع خدمه قَبَجة، فماتتْ فأَلقاها الخادم على الكناسة، وشرعوا في الرحيل، وتجهيز

(١) لم أجده في مظانه والتقصير منّا.

الأثقال، وابن مبارك واقف على دابة له ينتظر المسير، فنظر إلى جوَيْرية تُخْرجُ رأسها من باب صغير، وترجع لعلها تجد فرصة لكي لا يراها أحد، فتغافل ابن مبارك عنها، فخرجت في إزار ليس عليها قميص ولا مقنعة، فحملت الْقَبَجَة، ودخلت الدار تَعْدُو، فقال عبد الله لغلامه: اذهب إلى هذا الباب، واسأل عن الجارية وَلِمَ أَخَذَتِ الْقَبَجَةَ؟ فجاء الغلام فطرق الباب، فخرجت الجارية فسألها فسكتت، فَأَلَحَّ عليها، وجاء ابن المبارك فسألها فقالت: أنا وأُخْتٌ لي في هذه الدار ليس في منزلنا إلا إزار واحد، إذا لبسته بقيتْ أُخْتِي عريانةً، فهو كسوتنا وفراشنا. فقال: أَليس لكم قيم؟ فقالت: لا والله كان أبونا رجلاً موسراً، فظلمنا وغصبنا على أموالنا، وبقينا بحال تحل لنا الميتة، فرقَّ لها عبد الله بن المبارك وقال لغلامه: الحق فَرُدَّ الأثقال، وقال لوكيله: ما معك من النفقة؟ قال: أَلف دينار. قال: اعزل منها عشرين ديناراً تكفينا إلى مَرْو، وصَبَّ الباقي في إزار هذه الجارية، ففعل الغلام، وعاد إلى مَرْو، فقيل له: ما الذي رَدَّك؟ فقال: استقبلنا ما هو أفضل من الحج. وفي رواية: ونَزَع الله عن قلبي شهوة الحج في تلك السنة، وعدتُ إلى بلدي وأَقمت حتى جاء الناس من الحجّ، فخرجت أَتلقاهم، فجعلت كل مَن أَقول له: قبل الله حجك يقول: وأَنت قبل الله حجك! وأَكثر عليَّ الناس، فَبِتُّ مُفَكِّراً فرأَيت رسول الله ﷺ في المنام، فقال لي: يا ابن المبارك لا تعجبْ فإنَّك أَغْنيْت ملهوفة من ولدي، فسأَلت الله أَنْ يخلقَ على صورتك مَلَكاً يَحِجُّ عنك إلى يوم القيامة، فهو يحج عنك فإن شئت أَنْ تَحِجَّ، وإن شِئْتَ لا تحج، وذكر أَن بعضَ الأَساكفة جمع بدمشق ثمان مئة درهم للحج بها، فتوجه ولده إلى جاره لحاجة، فعاد إليه وهو يبكي، فقال له: ما الذي يبكيك؟ قال: دخلت عليهم وهم يغرقون لحماً قدْ طبخوه فلم يطعموني منه؛ فقام أَبوه وقرع على جاره الباب، وكان له عليه إِدْلال، فلما خرج إليه لامَهُ على ذلك، فدمعت عينا الرجل وقال: حيث اطلعتم على الحال وقلتم، فلا بُدَّ منْ كشفه: إنَّ لنا ثلاثة أَيام لم نأْكل شيئاً فرأَيت أَن الميتةَ تَحِلُّ لَنا وهي خير من السؤال، فخرجت فطلبت الميتة وأَخذت من لحمها شيئاً وهو الذي نطبخه، وقد كرهتُ أَن أُطعم ولدك منه وها هو حاضر على النار، فلما علم الإسكافُ حقيقة ذلك قال: يا نفس هذا حَجُّك؛ وحمل إليه ثمان مئة درهم بتمامها فتوسع حاله، فلما كان عشية عرفة رأى ذو النون المصريُّ رضي الله عنه في منامه قائلاً يقول له: أَتُرى يا ذا النُّوْنِ هذه الرحمة التي نَزلَتْ على أَهل الموقف؟ نزلت لأَجل رجل تَخَلَّف عن الحج وحجّ بقلبه، فوهب الله له أَهل هذا الموقف، فقال ذو النون: ومَن هذا الرجل؟ قال: أَسكافي يسكن دمشق اسمه فلان، فقصده ذو النون وطلبه حتى ظفره به وزاره.

فمن تمام الحج وقبوله أَن لا يُقْصد به رياء ولا سمعة ولا مباهاة ولا مفاخرة ولا خيلاء، ويكون قصده وجه الله ورضوانه، ويبذل للفقراء والمحتاجين برَّهُ وإِحسانه، ويتواضع في حجه ويستكين. ودعوى إرهاب المفسدين بما حرم فعله الشارع لا وجه له، إِنما يسوغ ذلك بما أَحله وجوّزه الشارع صلوات الله وسلامه عليه.

وقد بَيَّنَّا ما كان عليه الأَنبياءُ والخلفاءُ الراشدون عند إِرادة أَفعال النُسك، فلو أَركب عيَّاناً أَو أَطعم جائعاً أو سقي عطشان، كان ذلك هو المطلوب كما كان ذلك سجية لمَن تقدّم، ومقصداً حسناً لمَن قبل الله أَفْعاله ولم يتندّم، ولا يخفى على كل ذِي لُبٍّ ما في امتثال الأَوامر واجتناب النواهي من الهيبة والجلالة والإِرهاب لكل مجرم ومُفْسِد وضِدٍّ، فالذي كان عليه المتقدمون من مكارم الأَخلاق وبذل المجهود في إِيصال البرِّ إِلى كل محتاج وفقير وعاجزٍ وعيَّان في ذلك الدرب بالإِنفاق، وإِعطاء عوائد الأَدراك لتسهيل الطرق، والمفاخرة بالتوسعية على الفقراء على الإِطلاق، قد منعه غالب أمراء الحاج في زماننا، واقتصروا في أَفْعالهم على الشهرة والزينة، وقنعوا من الإِمرة بالاسم، وبدَّلُوا الحسنات بالإِثم، فيا لها من خسارة وغبينة.

* * *



الباب الخامس

وهو لبُّ الكتاب، وسجْعُ طائره المستطاب، في ذكر المنازل والمناهل محلاً بمحل، وما يلتحق بذلك، وفيه فصول:

الفصل الأول

في مسافة ما بين مكة المشرفة وغيرها من البلدان المتواردة على الأَسماع وذكر تعاريج الطرق والبُرُدِ والفراسخ وما يتعلق بذلك فنقول:

اعلم أَنه لا خلاف في مقدار الميل بين القدماء والمحدثين، قالوا كلهم: إنَّ الميل هو ست وتسعون أَلف إِصبع كل أَصبع ست شَعِيْرات معتدلات، ملتصقات بطنها إِلى ظهر الأُخرى، وذلك عند القدماء ثلاثة آلاف ذراع، كل ذراع اثنان وثلاثون أَصبعاً، فهم متفقون عليه معنى، مختلفون عليه لفظاً..

والذي عليه العمل الآن قول المتأَخرين، وكل ثلاثة أَميال فرسخ، وكل أَربعة فراسخ بريد، وسيأْتي ما بين مكة وغيرها من البلدان من الفراسخ.

ولا بُدَّ منْ ذكر مقدمة في تعاريج الطريق، وهو غالب طرق الناس لعوارض تعرض بين المكانين، حتى إِن هذا ليكون فيما هو داخل أَسوار المدن، بل تتلاصق الدار بالدار ظهر واحدة إِلى ظهر أُخرى، فلو خرق الجدار بينهما لكان بعدما بينهما عرض الجدار، والمسلوك بينهما بعيد من خارج، يمشي الماشي من درب إِلى درب آخر يقطع مداهما حتى يصل إِلى تلك الدار وليس بينها إِلا عرض الجدار.

قال العلامة ابن فضل الله في كتابه «المسالك والممالك»: واعلم أَنه لو سافر المسافر من جهة لأُخرى على الطريق القاصد والسَّمْت المستقيم لبلغ قصده في أَقرب مدى، ولكنه يأْخذ من طريقه تارة يميناً وتارة شمالاً بتعاريج للضرورات المقتضية للتعريج، إِما بأَن يكون قُدَّامه جبل شاهق، أَو واد عميق أَو هُوَّة لا تبلغ أَو مقفر، أَو مكان معطش أَو خطر مخوف، أَو ما هذا حكمه، فيأْخذ المسافر في طريقه على

تعريجات يبعد بها عن الطريق ويشطُ المزار وإذا تأَمَّل المسافر بعين الفكر رأى الأَمْرَ على ما قلناه.

وقال ابن سعيد في كتابه «المغرب»: ولو أَنَّ المسافر سافر من مصر إِلى طريق الأَنْبار إِلى بغداد إِلى خوزستان إِلى فارس إِلى كرمان إِلى سجستان إِلى السند وما تاخمه من بلاد التتار إِلى الصين إِلى صين الصين فإنه لا يبرح في الإِقليم الثالث، أَلا ترى أَنَّ المسافرين يسيرون من مصر إِلى بغداد على الشام والجزيرة في نحْو ثلاثة أَشهر أَو أَكثر، ولو سلكوا على طريق الأَنبار قطعوا إِليها من مصر في نصف شهر، وعلى هذا فَقِسْ، وما ترك السُّفَّارُ سلوك تلك الطريق القاصرة وعدلوا إِلى هذه البعيدة إِلا لموجب عظيم، وهو المرور على المدن في العمارة المتّصلة والأُنس بالناس، ومن مدينة إِلى مدينة، ومن قرية إِلى قرية.

قال الإِمام العلامة ابن فضل الله: ولقد رأَيت على هذا شاهداً بالعيان في مسافة مدِّ النظر بل رمية السهم، أَو حَذفَة الحجر، مما يدرك بمجرد النظر لا بالعلم والتفكير، وهو أَنّ المسافر في قرى مصر يرى القريَة التي يقصدها إِلى جانبه بحيث أَنه جنب بعض المواضع يمكنه أن يحدِّث أَهلها، وهو لا يصل إِليها إِلا بتعاريج كثيرة، ودورات بعيدة، لإِقامة الجسور على أَراضيها، لأَجل سقياها بماء النيل زمان ركوبه على البلاد، فالمسافر يمشي راكباً على ذلك الجسر وهو دائر معه بأَرض البلد جميعها حتى يصل إِليها، ولا يقدر على الخروج عنْها وقصْد القرية إِنما مستقيماً زمان الماء لوجود الماء، وفي غير زمان الماء، لما يحدث لتلك الأَرض بعد الماء من التوعُّر العظيم والشقوق التي لا يثبُتُ خفٌّ ولا حافر ولا قدم، ولقد يمشي المسافر المجدُّ في صعيد مصر يوماً كاملاً، ثم يشرف من ربوة على المكان الذي يسافره يومه كله فيجده قريب المدى، لا يتسع فيه مجال النظر، مما لا يكون مداه على الطريق المستقيمة أَكثر من ربع نهار أَو ما يقارب ذلك بأَزيد أَو أَنقص، بحسب كثرة التعاريج وقلتها مكان دون آخر، وهذا منْ قوص إِلى الفسطاط نحو عشرين يوماً في البر الغربي العامر بالقرى، ومسافة ما بينهما في البر الشرقي لا تزيد على الثمانية أَيام لقلة القرى ذوات التعاريج به، قال: وحدثني طليطلة وكان والياً على الصعيد أَن بين قوص والفسطاط في البر الشرقي طريقاً لا يزيد على أَربعة أَيام، ولكنها ممنوعة السلوك لما اقتضى ذلك.

والحجاج من دمشق في طريقهم تعريجات كثيرة، ومسافات زائدة عن سواء الطريق، لأَن الركب يخرج من دمشق ويسير في التوجه على زرع على بُصْرَى، على

زَيْزَا على الكرك، على معان، على عقبة الصوان، على تَبُوك على الْعُلاَ، على المدينة الشريفة النبوية ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ إلى مكة المعظمة ثم يأْخذ إلى دمشق عائداً من مكة إلى المدينة الشريفة إلى العلا، إلى تبوك، إلى عقبة الصوان إلى معان إلى زيزا إلى دمشق، ولا يمر على الكرك ولا بُصْرى ولا زرع، ويأْخذ هذه المسافة في العود في أَقل من تلك المسافة في التوجه بقليل، فإنَّ الأَخذ على زرع على بصرى إلى زيزا دورة، والأَخذ من زيزا على الكرك إلى معان دورة. وللحجاج طريق أَقصر من هذا كان الطريق عليها قديماً، وهو على صرخد على تيْماء إلى المدينة النبوية، وهي أَقرب من هذه بنحو ستة أَيام، ولولا قصد زيارة النبي ﷺ وزيارة مسجده المكرم لم تكن المدينة طريقاً لهم بل كانت طريقهم من تيماء إلى الجحفة، وهي أَقرب من هذه بنحو خمسة أَيام، فهذه خمسة عشر يوماً زائدة في المسافة بين دمشق ومكة المشرفة، ولو سافر إليها الركب على الجدد القاصد لكانت المسافة بين دمشق ومكة المشرفة اثنين وعشرين يوماً، وهذا بين المدينة ومكة على طريق الحجاج عشرة أَيام أَو أَزيد، ولها طريق آخر يسمى الدرب الماشي ومسافته خمسة أَيام وهو بمقدار النصف، فانظر إلى هذا التفاوت في التعريجات. وما حمل الحاج على سلوك الطريق البعيدة إلاَّ لاتِّصال المدن في جانب من طريق الاستزادة لزاد نَقَص، أَو قضاءِ حاجة نُسِيَتْ، قبل اقتحام البَرّ، وملاقاة وجهه المغبر.

قلت: وأَخبرني مَن أَثق به من العربان أَنَّ من المدينة الشريفة إلى منزلة أَكرة طريق مسافته قريبة جدًّا، والحامل على عدم السلوك منه في الرجعة قصد الركب إلى الينبع وإلى الحوراء لأَجل ورود المياه والمناهل، ولما يحتاج إليه من الزاد والعليق بالينبع، ولقضاء مآربه من تلك القرى، وكذلك لطريق مكة مسلك آخر غير الدرب المعتاد، ترد منه العربان والرواحل، ويُسَمَّى عندهم درب الظهر ـ بفتح الظاء والهاء ـ لو سلك الحاج منه كان أَقرب من الطريق المعتاد بكثير، إلا أنه لما كان كثير الوعر في بعض المواضع ضَيِّقاً عُدِل عنه إلى الطريق المعتاد.

وإذا تأَملت بعض الطرقات والمنازل تجد لها مخارس توصلك المنزلة في أَقرب وقت من الطريق المسلوك.

وقال أَبو عُبَيْد البكريُّ رحمه الله في كتابه «المسالك والممالك» أيضاً: والطريق من مدينة النبي ﷺ إلى مصر على الجادة من المدينة إلى ذي خشبٍ إلى السُّوَيْدا إلى البزوة إلى سُقْيَا يَزيد، إلى بَدا يعقوب عليه السلام إلى ضباء إلى النبك والصَّلاَ، إلى عَيْنُونَة، إِلَى مَدْيَنَ، إلى أَشراف الْبَعْل، إلى وادي الغراب، إلى حَقْلٍ، إلى مدينة أَيلة

إلى بطن نخر إلى قبر أَبي حميد - وهو وادي القباب - إلى القلزم إلى جُبِّ عميرة إلى مصر. انتهى كلامه.

قال ابن فضل الله: وفي طريق الحجاج من مصر تعريج عظيم، يخرجهم من مصر إلى أَيلة من بلاد الشام مسافة ثمانية أَيام، يأْخذ جنباً عن طريقهم إلى مكة المشرفة، ومن أَيلة تبدأُ استقامتهم على الطريق إلى مكة، وما ذاك إلاَّ لاعتراض بحر القلزم وقطعهِ بين مصر والحجاز. قال: ومن أَخبار العرب أَنَّ تَأَبَّطَ شَرًّا صعد جبلاً ليجتني عسلاً فأَتى قوم من أَعدائه، فأَخذوا عليه خناق الطريق، ولم يكن إلى الجبل سبيل إلا منه، فلما رآهم أَيقن بالقتل أَو بالأَسر، وطاف يرتاد له منزلاً فلم يجده له، ورأَى صفًّا صَلْداً يزلق ففرَّغ أَوطابه، وكان قد مَلأَها، فذاب الْعَسَل على الصفا، وشدَّ الأَوطابَ على بطنه وفَخذَيْه، وانسحل على متن الصفا، حتى نزل إلى الأَرض سالماً، ولم يصبه شيء، وأَعداؤه لا يعلمون بما فعل، فنجا منهم. ويقال: إنه كان بين منزله وبين موقفهم على السبيل نحو يومين لِمَن يسير، وفي فعلة تأَبَّطَ شَرًّا هذا يقول:

إذا الْمَرْءُ لَمْ يَحْتَلْ وَقَدْ جَدَّ جِدُّهُ ... أَضَاعَ وقَاسَى أَمْرَهُ وَهْوَ مُدْبِرُ
وَلكِنْ أَخو الْحَزْم الَّذِي لَيْسَ نَازِلا ... بِهِ الْخَطْبُ إلاَّ وَهوَ لِلْقَصْدِ مُبْصِرُ
فَذَاكَ قَرِيْعُ الدَّهْر مَا عَاشَ حُوَّلٌ ... إِذَا سُدَّ مِنْهُ مِنْخِر جَاشَ مِنْخِرُ
أَقُول لِلَحْيَانِ وَقَدْ صَفِرَتْ لَهُمْ ... وطابِيْ وَيَوْمِي ضَيِّقُ الْجِحْرِ مُعْورُ
هُمَا خطَّتَا: إِمَّا إِسَارٌ ومِنَّةٌ ... وَإِمَّا دَمٌ وَالْقَتْل بِالْحُرِّ أَجْدرُ
وأُخْرى أُصادِي (؟) النَّفْسَ عَنْهَا وإِنَّهَا ... لَموْرِدُ حَزْمٍ إِنْ فَعَلْت وَمَصْدَرُ
فَرَشْت لَهَا صَدْري فَزَلَّ عَنِ الصَّفَا ... بِهِ جُؤْجُؤٌ عَبْلٌ وَمَتْنٌ مُخَصَّرُ
فَخالَطَ وجْهَ الْأَرْضِ لَمْ يَكْدَحِ الصَّفَا ... بِهِ كَدْحَة فَالْمَوْتُ حَيْران يَنْظرُ
فَأُبْت إِلى فَهْم وَمَا كُنْتُ آيِباً ... وَكَمْ مِثْلُهَا فَارَقْتُهَا وهْي تَصْفِرُ

قال العلامة ابن فضل الله في كتابه «المسالك والممالك»: واعلم أَن بين مكة والمدينة الشريفتين مئة ميل واثني عشر ميلاً، وهي سبعة وثلاثون فرسخاً وثلث فرسخ، ومكة جنوبها نَصْباً.

وبين مكة والقدس الشريف ثمان مئة ميل وأَربعون ميلاً، وهي مئتا فرسخ وثمانون فرسخاً ومكة جنوبها بشرق، وبين مكة وفسطاط مصر ثمان مئة ميل وأَربعة وخمسون ميلاً، وهي مئتا فرسخ وأَربعة وثمانون فرسخاً وثلثا فرسخ، ومكة جنوبها بشرق.

وبين مكة ودمشق مدينة الشام سبع مئة ميل، وثمانية وعشرون ميلاً، وهي مئتا فرسخ واثنان وأَربعون فرسخاً وثلثا فرسخ، ومكة شرقها بجنوب. وبين مكة وبغداد ست مئة ميل واثنان وأَربعون ميلاً، وهي مئتا فرسخ وأَربعة وعشرون فرسخاً، ومكة غربها بجنوب.

وبين مكة وتعِزَّ أَربع مئة ميل وستة وسبعون ميلاً، وهي مئة فرسخ وثمانية وخمسون فَرْسخاً وثلثا فرسخ [ومكة شرقها] بشمال، وبين مكة وزبيد أَربع مئة ميل وستة وسبعون ميلاً وهي مئة فرسخ وثمانية وخمسون فرسخاً وثلثا فرسخ، ومكة شرقها بشمال.

وبين مكة والأَحساء ثلاث مئة ميل وثلاثة وثلاثون ميلاً، وهي مئة فرسخ وأَحد عشر فرسخاً، ومكة غَرْبها نصْباً.

وبين مكة وبلاد مَهْرَةَ خمس مئة مِيل، وثمانية عشر ميلاً، وهي مئة فرسخ واثنان وسبعون فرسخاً وثلثا فرسخ؛ ومكة غربها بشمال.

وبين مكة والطائف أَربعون ميلاً، وهي ثلاثة عشر فرسخاً وثلث فرسخ، ومكة غربها بشمال قليل. فهذه أُمَّهاتُ المدن التي تُقصد مكة منها، ويليها من الجهات التي تقصد مكة منها غير هذه، فبين مكة والبصرة ست مئة ميل وعشرة أَميال، وهي مئتا فرسخ وثلاثة فراسخ وثلث فرسخ، ومكة غربها بجنوب.

وبين مكة والكوفة خمس مئة ميل وعشرة أَميال، وهي مئة فرسخ [وسبعون فرسخاً، ومكة جنوبها بغرب.

وبين مكة وعَدَن خمس مئة ميل، واثنان وعشرون ميلاً، وهي مئة فرسخ وثلاثة وأَربعون فرسخاً، ومكة غربها بشمال.

وبين مكة وظفار أَربع مئة ميل، وتسعة وعشرون ميلاً، وهي مئة فرسخ] وثلاثة وعشرون فرسخاً، ومكة غربها بشمال، وبين مكة وعيذاب مئة ميل، وأَربعة وعشرون ميلاً، وهي أَربعة وسبعون فرسخاً وثلثا فرسخ، ومكة شرقها ببعض تحريف إِلى الجنوب.

وبين مكة والطور ثمان مئة ميل، وهي مائتا فرسخ وستة وستون فرسخاً وثلثا فرسخ، ومكة شرقها بجنوب. وبين مكة والبلقاء إِحدى مدن الشام الدنيا إِلى الحجاز ست مئة ميل وثمانون ميلاً، وهي مئتا فرسخ وستة وعشرون فرسخاً وثلثا فرسخ ومكة شرقها بجنوب. فهذه أَقرب الجهات التي تقصد مكة منها من سائر الأَقاليم.

وأَما بقية مشاهير البلاد التي يُحتاج أَن يُعَرّف ما بينها وبين مكة شرّفها

الله تعالى، فاعلم أَن بين مكة والموصل سبع مئة ميل وأَربعة وثمانون ميلاً، وهي مئتا فرسخ وواحد وستون فرسخاً، ومكة جنوبها بِغَرْب.

وبين مكة وأصفهان تسع مئة ميل وأربعون ميلاً وهي ثلاث مئة فرسخ وثلاثة عشر فرسخاً وثلثا فرسخ ومكة جنوبها بغرب، وبين مكة والسلطانية وهي التي تسمى قديماً بتغرلان، أَلف ميل وأَربعة وستون ميلاً وهي ثلاث مئة فرسخ وأَربعة وخمسون فرسخاً وثلث فرسخ ومكة جنوبها بغرب.

وبين مكة وتوريز أَلف ميل ومئة وثمانون ميلاً وهي ثلاث مئة وستون فرسخاً ومكة جنوبها بغرب. وبين مكة ونيسابور أَلف ميل ومئة ميل وثمانية وأَربعون ميلاً وهي ثلاث مئة فرسخ واثنان وثمانون فرسخاً وثلثا فرسخ، ومكة جنوبها بغرب.

وبين مكة وهراة وهي المسماة الآن على أَلسنة العجم هري، أَلف ميل وثلاث مئة وأَربعة وأَربعون ميلاً، وهي أَربع مئة فرسخ وثمانية وأَربعون فرسخاً ومكة غربها بجنوب.

وبين مكة وبلخ أَلف ميل وخمس مئة ميل وتسعون ميلاً، وهي خمس مئة وثلاثون فرسخاً، ومكة غربها بجنوب.

وبين مكة ومَرْو الشَّاهجان أَلف ميل وثلاث مئة ميل وهي أَربع مئة فرسخ وثلاثة وثلاثون فرسخاً وثلث فرسخ، ومكة غربها بجنوب.

وبين مكة وغَزْنَة أَلف ميل وسبع مئة وثمانية وثلاثون ميلاً، وهي خمس مئة وتسعة وسبعون فرسخاً وثلث فرسخ، ومكة غربها بجنوب.

وبين مكة وهُرْمز أَلفا ميل وسبعون ميلاً، وهي ست مئة وتسعون فرسخاً وثلث فرسخ ومكة غربها بجنوب.

وبين مكة وكابل أَلف ميل وست مئة ميل واثنان وأَربعون ميلاً، وهي خمس مئة فرسخ وسبعة وأَربعون فرسخاً وثلث فرسخ، ومكة غربها بجنوب، وبين مكة والملتان أَلف ميل، وست مئة واثنان وخمسون ميلاً، وهي خمس مئة وخمسون فرسخاً، ومكة شمالها بغرب.

وبين مكة ودِلّي ثلاثة آلاف ميل ومئتا ميل وعشرون ميلاً، وهي أَلف وثلاثة وسبعون فرخساً وثلث فرسخ، ومكة غربها بجنوب.

وبين مكة وتانة أَلف ميل وأَربع مئة ميل وأَحد عشر ميلاً، وهي أَربع مئة فرسخ وسبعون فرسخاً وثلث فرسخ، ومكة غربها بشمال.

وبين مكة وكنبايت أَلف وثمان مئة ميل وستة أَميال، وهي ست مئة فرسخ وفرسخان، ومكة غربها بجنوب. وبين مكة وَالكَوْلَم ثلاثة آلاف ميل وسبعة مئة وثمانون ميلاً، وهي أَلف فرسخ ومئتا فرسخ، ومكة غربها بشمال.

وبين مكة وسَرَنْديب ثلاثة آلاف ميل واثنان وخمسون ميلاً، وهي أَلف فرسخ وسبعة عشر فرسخاً وثلث فرسخ.

وبين مكة والخنسا ـ وأَصل اسمها الخنسار ـ خمسة آلاف ميل وأَربع مئة وثمانية وثلاثون ميلاً، وهي أَلف وثمان مئة فرسخ وتسعة وعشرون فرسخاً وثلث فرسخ، ومكة غربها بشمال.

وبين مكة والزيتون أَلفا ميل وست مئة ميل وخمسة وثلاثون ميلاً، وهي ست مئة فرسخ وثمانية وسبعون فرسخاً وثلث فرسخ، ومكة غربها بشمال.

وبين مكة وخان بالق، ثلاثة آلاف وتسع مئة وأَربعة وثلاثون ميلاً، وهي أَلف وثلاث مئة وأَحد عشر فرسخاً وثلث ومكة غربها بجنوب. وبين مكة وقراقرم أَربعة آلاف وتسع مئة وثمانية وتسعون ميلاً وهي أَلف وست مئة وستة وستون فرسخاً، ومكة جنوبها بشرق.

وبين مكة وبلاصاغون أَلف وتسع مئة وأَربعة وسبعون ميلاً، وهي ست مئة وثمانية وخمسون فرسخاً وثلث فرسخ، ومكة غربها بجنوب وبين مكة وكاشغر كالتي قبلها.

وبين مكة وأسفيجان ألف وتسع مئة وأربعة أميال، وهي ست مئة وأربعة وأربعون فرسخاً، ومكة غربها بجنوب.

وبين مكة وفرغانة ألف وسبع مئة وأربعون ميلاً وهي خمس مئة وتسعون فرسخاً وثلث، ومكة غربها بجنوب.

وبين مكة وأطرار إِقليم الترك الخلص واسم مدينتها كور، ألف وثلاث مئة وتسعون ميلاً، وهي أربع مئة وثلاثون فرسخاً وثلث، ومكة غربها بجنوب.

وبين مكة وأشروسنة ألف وسبع مئة وثمانون ميلاً، وهي خمس مئة وثلاثة وسبعون فرسخاً وثلث، ومكة غربها بجنوب وبين مكة وبدخَشان ألف وسبع مئة وستة وخمسون ميلاً وهي خمس مئة وخمسة وثمانون فرسخاً، ومكة غربها بجنوب.

وبين مكة وترمذ ألف وخمس مئة وستة وتسعون ميلاً، وهي خمس مئة واثنان وثلاثون فرسخاً، ومكة غربها بجنوب.

وبين مكة وبخارى ألف ومئتان وثمانية وثمانون ميلاً وهي أربع مئة وثلاثون فرسخاً ومكة غربها بجنوب.

وبين مكة وسمرقند ألف وست مئة وثمانية وثلاثون ميلاً، وهي خمس مئة وستة وأربعون فرسخاً، ومكة غربها بجنوب.

وبين مكة وكركانج ـ أم إقليم خوارزم ـ ألف وثلاث مئة وخمسة وعشرون ميلاً وثلث، وهي أربع مئة وأحدُ وأربعون فرسخاً وثلث فرسخ تقريباً، ومكة غربها بجنوب وبين مكة والسراي ألف ومئتين وستة وأربعون ميلاً وهي أَربع مئة وخمسة عشر فرسخاً وثلث ومكة غربها بجنوب.

وبين مكة والبلغار ألفا ميل وستة عشر ميلاً، وهي ست مئة واثنان وسبعون فرسخاً، ومكة شرقها بجنوب.

وبين مكة والقرم ألف وخمس مئة وسبعون ميلاً وهي خمس مئة وثلاثة عشر فرسخاً وثلث ومكة شرقها بجنوب.

وبين مكة وطرابزون ألف وثلاث مئة وخمسون ميلاً وهي أربع مئة وخمسون فرسخاً، ومكة شرقها بجنوب.

وبين مكة وكسطمونية ألف وخمس مئة واثنا عشر ميلاً، وهي خمس مئة وأربعة فراسخ، ومكة شرقها بجنوب.

وبين مكة وشمصون ألف وأربع مئة وثمانية وعشرون ميلاً، وهي أربع مئة وستة وسبعون فرسخاً وثلثا فرسخ، ومكة شرقها بجنوب.

وبين مكة وقيسارية ألف ومئة وتسعون ميلاً، وهي ثلاث مئة وستة وسبعون فرسخاً وثلثا فرسخ، ومكة جنوبها بشرق.

وبين مكة وقونية ألف ومئتان واثنان وثلاثون ميلاً، وهي أربع مئة وعشرة فراسخ وثلثا فرسخ، ومكة جنوبها بشرق، وبين مكة والقسطنطينية ألف وست مئة وعشرة أميال، وهي خمس مئة وستة وثلاثون فرسخاً وثلثا فرسخ ومكة جنوبها بشرق.

وبين مكة وورومية ألف وتسع مئة واثنان وثلاثون ميلاً، وهي ست مئة وأربعة وأربعون فرسخاً ومكة جنوبها بشرق، وبين مكة وغرناطة ثلاثة آلاف ومئتان وخمسون ميلاً، وهي ألف وثلاثة وثمانون فرخساً وثلث فرسخ، ومكة شرقها بجنوب.

وبين مكة وإشبيلية ثلاثة آلاف وثلاث مئة ستون ميلاً، وهي ألف ومئة وعشرون فرسخاً ومكة شرقها بجنوب.

وبين مكة وقُرْطبة ثلاثة آلاف ومئتان وستة وسبعون ميلاً وهي ألف واثنان وتسعون فرسخاً ومكة شرقها بجنوب.

وبين مكة وأسفي ثلاثة آلاف وثلاث مئة وثمانية وثمانون ميلاً، وهي ألف ومئة وتسعة وعشرون فرسخاً وثلث ومكة شرقها بجنوب.

وبين مكة وسبتة ثلاثة آلاف ومئتان وعشرون ميلاً، وهي ألف وثلاثة وسبعون فرسخاً وثلث فرسخ، ومكة جنوبها بشرق.

وبين مكة ومراكش ألفان وست مئة واثنان وثلاثون ميلاً، وهي ثمان مئة وسبعة وسبعون فرسخاً وثلثان، ومكة شرقا بجنوب.

وبين مكة وفاس ألفان وأربع مئة وثمانية وأربعون ميلاً، وهي ثمان مئة وتسعة فراسخ وثلث فرسخ، ومكة شرقها بجنوب. وبين مكة وتلمسان ألف وسبع مئة وأربعة وسبعون ميلاً، وهي خمس مئة وثمانية وتسعون فرسخاً، ومكة شرقها بجنوب.

وبين مكة وتونس ألفان واثنان وسبعون ميلاً، وهي ست مئة وتسعون فرسخاً وثلثا فرسخ، ومكة شرقها بجنوب. وبين وغانة ألفان ومئتان وأربعون ميلاً، وهي سبعٌ مئة وستة وأربعون فرسخاً وثلثا فرسخ، ومكة شرقها بشمال.

وبين مكة ودُنْقُلة ست مئة وثلاثون ميلاً، وهي مئتان وعشرة فراسخ، ومكة شرقها بشمال.

وبين مكة وجيمي كذلك. وبين مكة وجرمي ألف واثنان وعشرون ميلاً ومكة شرقها بشمال.

وبين مكة وأوفات ألف ألف وثلاث مئة وثلاثون فرسخاً وثلث، ومكة شرقها بجنوب.

وبين مكة ومَقْدشو ألف ومئة وثمانية وأربعون ميلاً ومكة غربها بشمال.

وبين مكة وقانة ألف وأربع مئة وأحد عشر ميلاً، ومكة غربها بشمال.

* * *

الفصل الثاني

في ذكر ما بين مكة المشرفة ومصر والشام واليمن والعراق من المراحل على سبيل الاختصار وما يلتحق بذلك.

قال المسعوديُّ في «مروج الذهب»: تنازع الناس في اليمن وتسميته يَمَناً فمنهم مَن زعم أنه إنما سُمِّيَ يمناً لأنه يَمِيْنُ الكعبة، وسُمِّيَ الشامُ شاماً لأنه عن شمال الكعبة، وسُمِّيَ الحجازُ حجازاً لأنه حاجز بين اليمن والشام، نحو ما أخبر الله عزّ وجل عن الفرق الذي بين بحر القُلزُم وبَحْر الروم، بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ﴾ [النمل: ٦١] وإنما سُمِّيَ العراق عراقاً لمصب المياه إليه كالدِّجْلة والفرات وغيرها من الأنهار، وأنه مأخوذ من عراقي الدَّلْوِ وعراقي القِرْبة، ومنهم مَن زعم أنه إنما سُمِّيَ اليمن ليمنه والشام شاماً لشؤمه، وهذَا قول يُعْزَى لقطرب النحويِّ في آخرين من الناس، ومنهم مَن يرى أنه سُمِّيَ يمناً لأن الناس حين تفرقت لغتهم ببابل تيامن بعضهم يمين الشمس وهو التيمن، وبعضهم تشاءم فسمي هذا الاسم وقيل، إنما سُمِّي الشام شاماً لشامات في أرْضِه بيض وسود، وذلك في الترب والبقاع وأنواع النبات والأشجار وهذا قول الكلبي وقال الشرقيُّ بن الْقُطَاميِّ: إنما سُمِّيَ الشام شاماً بسام بن نوح، لأنه أوَّل مَن نزل وقطن فيه، فلما سكنت العرب تَطَيَّرَتْ أن تقوم سام فقالت شام بالشين وقيل: إن سَامَرًّا إنما سميت بهذا الاسم، لأنَّها سرور لمن رآها. انتهى كلامه[١].

وأما مصر فقال المقريزيُّ: قال قوم سميت بمصريم بن قوكائيل بن روابيل بن غرباث بن آدم، وهو مصر الأول.

وقيل: بل سميت بمصر الثاني وهو مصرائيل بن نقراوش الجبار بن مصريم الأَول، وبه سميت مصر بن مصر بن حام بن نوح، وذكر أبو الحسن المسعوديُّ أنَّ بني آدم لما تحاسدوا وبغى عليهم بنو قابيل بن آدم وركب نقراوش الجبار بن مصريم بن مركائيل بن غربال بن آدم عليه السلام في نيف وسبعين راكباً من بني غربان جبابرة كلهم يطلبون موضعاً من الأرض يقطنون فيه فراراً من بني أبيهم، فلم يزالوا يمشون حتى وصلوا إلى النيل، فأطالوا المشي فيه فلما رأوا سعة البلد وحسنه أعجبهم وقالوا: هذا بلد زرع وعمارة، وبنى نقراوش مصر وسماها باسم أبيه مصريم.

---

(١) انظر: مروج الذهب [١/ ٢١٢].

فلنرجع إلى ما نحن بصدده فنقول: إنما جمعنا بين هذه البلاد الأَربعة لأَن المحامل المشهورة في الإسلام إنَّمَا خرجت منها في الغالب، وهي مواقيت الركبان، كما أن ذا الحُلَيْفة والجُحْفةَ ويَلَمْلمَ وذاتَ عِرْق وقَرْنَ المنازل مواقيت للناس والحج، هُنَّ لأَهلهنَّ ولمن مَرَّ عليهن من غير أهلهن.

وقد خرج من مدينة حلب محمل في بعض السنين ـ كما قدمنا ذكره في أمراء الحاج على تعاقب السنين ـ ومن الكرك أيضاً، وذلك بحكم النُدور، فإن في الغالب أن أهل حلب إنما يحجُّون من الشام، وكذلك أهل الكرك وغيرهم ممن والاهم من أهل القرى والبلاد. وقد قدّمنا أنه لما كانت الخلافة الإسلامية في مدينة بغداد، وكرسيها في تلك الأَقطار والبلاد، ومُعَوَّلُ أقاليم الإسلام على ما يصدر ويرد منها، والولايات والأُمور الدينية والدنيوية إنما تنشأُ وتخبر بها عنها، كان المحمل العراقي في ذلك العصر والأَوان، أَجلَّ المحامل، كما لا يحتاج إلى البيان. وما يُجَهَّزُ من المحامل بممالك الإسلام صحبة حجيجهم فدونه في الرتبة والانتظام. فلما انقرضت دولة الخلافة في سالف الأَيام، وخلفهم الملوك والمتغلبون من الأَعيان والأُمراء على ذلك الإقليم، وآل أمر المحمل إلى ما تقدّم ذكره من المشاق على حجاجه، ومقاساة المكائد من أهل الفساد والعربان بطرقه وفجاجه، وتوالى فعلهم الذميم، وانقطع المحمل وتأَخر، لاضطراب ملوك العراق، واضطرار أهله لتوالي أهل الفساد والشقاق، فعادوا إلى العادة الأُولى وهو أنه لا يحج منهم إلا مَن جاء إلى دمشق وغيرها وحج.

وأما أهل اليمن فكان أكثر مَن يجيء منهم إنما يجيء في البحر، وأما مَن يجيء في البر فقليل مَّا هُمْ، لكثرة ما للعرب من التعرُّض لهم بالأَذى والضرر.

وذكر العلامة ابن فضل الله أَنه حكى له ثقاتٌ منهم أنه ينوب كل جمل يخرج من مدن اليمن مثل تعِزَّ أَوْ زَبِيْدَ، حتى يصل إلى مكة المشرفة مئة درهم، سواء كان حاجًا أو تاجراً أو معه شيء أو لا شيء معه، ومَن أَخَلَّ بدرهم منها في مكان عليه قسط منها فيه أخذ في ذلك المكان، فلا يسلك البر منهم لعظم هذا المؤدَّى إلاَّ مَن لا يبخل بماله، وله خوف شديد من ركوب البحر، وكان يأْتي في البر محمل ثاني، لا ينقطع، ثم صار يجيء مرة وينقطع أخرى ـ كما ذكرنا ذلك في تعاقب السنين في باب إمرة الحاج ـ.

وفي بعض أيام الجراكسة الأُول من سنة ثمان وثلاثين وسبع مئة فإنهم كانوا يجهزون (صنجقاً) مع الحجاج عوضاً عن المحمل ينصب مع (الصناجق) السلطانية

على عرفات؛ ثم انقطع ذلك دهراً، فلما ثبّت الله قواعد هذه الدولة الشريفة المظفرة السليمانية الخاقانية ـ أيّد الله دولتها وأبّدَ أيامها، وأعلى على فَرْق الْفَرْقَدَيْن ذكرها ـ ومدت في الممالك أطناب خيامها وشُيِّدت مباني ملك مولانا السلطان، على توالي الزمان، واستولت عساكره على أرض اليمن، وخفقت أعلام نصرته بِزبيْدَ وعدَن، وتوجه للنِّيابة عن السلطان في تلك الأَقطار، مصطفى باشا المعروف بينهم بالنَّشَّار، أعاد تَجْهيز المحمل اليماني بعد انقطاعه، وشفى غليل أهل تلك الدائرة من علل الشوق إلى بيت الله الحرام وأوجاعه، وأقام شعائره من (الصنجق) والطبول صحبة أمير وجُنْد قد أمروا باتباعه، وذلك في سنة تسع وأربعين وتسع مئة، فتداول وروده إلى مكة المشرفة بِحُجَّاجِهِ اليمانيين في كل سنة، واستمرتْ ـ ولله الحمد بدوام السعود لمولانا السلطان ـ تلك الخلال الحسنة، وخُلِّدت في صحائفه تلك الأُجور المضاعفة، كما تضاعفت له الحسنات في إحياء كل حميدة سابقة سالفة.

وأما المحمل المصري والشامي فسبيل لا ينقطع بعون الله تعالى، واهتمام مولانا السلطان بأُمورهما، وبذل أمواله الجليلة في حسن إقامة هذه الشعائر، والافتخار بأَن يُنْعَتَ بخادم الحرمين الشريفين في الدعاء له على المنابر والمنائر.

وقد ذكر هذه الطرق الأَربعة المسلوكة ومياهها المورودة العلامة ابن فضل الله في كتابه «المسالك والممالك» فلنذكرها هنا ونزيد ما يستحب مما هو كالطراز عند الاحتياج إليه في بابه، ثم نبسط الكلام على الطريق المصري بفوائد لا تجدها مجموعة في غير كتابنا، ولا تَعرَّض له أحد قبلنا في كتابه. وقصدنا إيراد الطرق جملة بما حَوَتْ، وما وعدنا بإيراده في منازل الطريق المصري يأتي إن شاء الله تعالى بطريقة عمّت فوائدها وهَمَتْ.

فنقول: أَوَّلُ هذه الأَربعة طريق مصر إلى مكة المشرفة. قال العلامة ابن فضل الله: واعلم أنَّ الركب يخرج من القاهرة مدينة مصر الآن فينزل البِرْكَة، مرحلة واحدة فيقيم عليها ثلاثة أيام أو أربعة. قلت: هذه الإقامة كانت مدتها المذكورة في زمنه، وأما في هذا الزمان فلا تنقص الإقامة بها عن خمسة أيام، ويرحل منها صبيحة اليوم السادس ـ كما سيأتي في كلامنا بعد ذلك ـ وربما زادت الإقامة عن الخمسة أيامل ضرورة توجب ذلك، قال: ويرد ماءَها وهو جفار عذب سائغ، ثم يرحل إلى السُّوَيْس، فيأْخذ إليها في خمس مراحل، ويرد ماءها، وهو ملح لا يكاد يسيغه الشارب، ويقيم بقية يومه ثم يرحل إلى (نَخْل) فيأْخذ إليها في خمس مراحل، ويرد ماءَها، وهو أعدل مما قبله ولا بكثير، وكلاهما مما عمله الأَمير المقدّم الكبير،

الجوكندار المنصوري أحد الأُمراء المشهورين ـ آجره الله تعالى ـ وجعل له بِركاً، واتخذ له مصانع، واستأجر أناساً تديرها، طول السنة، حتى تملأ البرك لأَجل الحاج في ورودهم وصدورهم، فيقيم الحاج بنخل بقية يومه، ثم يرحل إِلى أَيْلَةَ فيأْخذ إِليها في خمس مراحل، وفي آخرها على رَأْسِ أَيلَة العقبة العظمى المشقة الصعود والهبوط، المذكورة في أقطار الأَرض، وهي تؤخذ في مرحلة كاملة، فينزل الركب منها إِلى حجر بحر القلزم، ويمشي على حجره حتى يقطعه من الجانب الشمالي إِلى الجانب الجنوبي، وينزل عليه ويرد ماءَهُ ويقيم أربعة أيام أو خمسة. قلت: إِنَّ الإِقامة الآن بمناخ عقبة أيلة ثلاثة أيام من غير زيادة، إِلاَّ أن يكون سبق للركب مشقة عظمى من عطش، أو موت جمال أو غير ذلك، كما وقع ذلك في سنة ثمان وخمسين وفي سنة ستين وتسع مئة، فيقيم أربعة أيام للضرورة، ويكمل منها الظَّهْر والزاد، إِن كان محتاجاً، فإِنه مكان مقصود تأْتي إِليه أجلاب الشام، وتقام به الأَسواق العظيمة الممتدة المتشعبة، التي لا توجد في أمهات الأَقاليم وكبار المدن، ولعل أنه لا يعدم فيها موجود من الخيل والإِبل والغنم، والدقيق والشعير والعلف، وأنواع المآكِلِ والمشارب والمحامل والأَكوار والرحال والسلاح والقماش والفرش والأَمتعة، وغير ذلك، وأيام إِقامة الحاج بها أيام مواسم.

ثم يرحل إِلى حَقْل مرحلة واحدة ويرد ماءَها وهو أعذب ماءً من أيلة، وهو على ساحل بحر القلزم.

ثم يرحل إِلى بَرِّ مَدْينَ، ويأْخذ إِليها في أربعة مراحل ويرد ماء مغارة شعَيْب، وماؤُهَا ردِيءٌ قليل المنبع، وهي منسوبة إِلى شعيب عليه السلام، ويقال: إِنه الذي سقى عليه موسى عليه السلام غَنَم بنات شعيب، أقول: وصفه لماء المغار بأَنه رديء ينافيه ما هو عليه الآن من صدْق الحلاوة والخفة، وكثرة المُكثِ في الْقِرَبِ من غير تَغيُّر، حتى إِن من الناس مَن يحاكي به ماء النيل، وخصوصاً في زمن الأَمطار، فلعل الماء الذي كان في زمن العلامة ابن فضل الله من البئر والمصنع الذي كان بذلك الوادي أَوَّلاً كما بلغني، وأنه كان مورداً للحجَّاج، قلت: ثم بطل ذلك، وصار المنهل من ماء حفائر عَذْبة، مع صفاء اللون، وخفة الكون، وطول الانتفاع بمائها مع المكث في القرب كما هو مشهور، وبكونه فقاع (؟) الحاج مذكور. انتهى.

ثم قال: ويرحل إِلى عُيُون القَصَب، ويأْخذ إِليها في مرحلتين، ويرد ماءها، وهي عيون سارحة، ضعيفة المنبع، ينبت عليها القصب، وماؤُها لا يُسْتطاب وإِنْ كان عذباً، ويقيم يومه كله ويَجدُ بِهِ الحاجُّ هناك رفقاً للاغتسال وغسل القماش.

ثم يرحل إِلى النبك وتسمى المويلحة، وهو على ساحل القلزم ويأْخذ إِليه في ثلاث مراحل، ويرد ماءَها وهو ماء ملح رديء، لا يكاد يُسِيْغُهُ الشارب، ومَن شربه أفرط به الإِسهال لشدَّة ما به من الْبَوْرقية، والملح.

ثم يرحل إِلى الأَزلم، فيأْخذ إِليه في أربع مراحل، وهو ماءٌ لا يبعد مما قبله، وهنا يودع الحاج للمرجع بعض أزواده وعلف جِماله، في خان بناه الأَمير المقدم الكبير الحاج ال ملك (الجوكندار) أثابه الله، ووكل بحفظه أناساً أجرى لهم رزقاً عليه، وعمل هناك بئراً انتفع بها الناس.

ثم يرحل إِلى الْوجه، في خمس مراحل، وهو جفار في واد يسيح ماؤها لَيْلاً، ويشح نهاراً، يرد ماءه كأَنه ماء النيل والفرات، وكثيراً ما يحصل للحجاج على منزله العذب زحام، ويقع بينهم بسببه مشاجرات وخصام.

ثم يرحل إِلى أَكْرَى، ويسمى فم الضيقة، ويأْخذ إِليه في مرحلتين وهما أصعب ما في هذا الطريق، ويرد ماءه، وهو جفار نَبَّاع في مسيل واد بعيد المنتهى، ماؤه غزير سائغ.

ثم يرحل إِلى الْحَوْرَاءِ وهي على ساحل بحر القلزم، ويأْخذ إِليها في أربع مراحل، ويرد ماءَهَا وهو شبيه بماء البحر لا يكاد يشرب، وإِنما ترده الإِبل.

ثم يرحل إِلى نبط ويأْخذ إِليه في مرحلتين، وهو جفار عذب سائغ، يغسل صَدَأَ القلوب ببرد مائه فيرد ماءَه.

ثم يرحل إِلى ينبع فيأْخذ إِليها في خمس مراحل ويرد ماءه، ويقيم عليه ثلاثة أيام، ويصادف به أجلاب البر والبحر ويودع فيه.

ثم يرحل إِلى الدَّهْناءِ مرحلة واحدة، ويرد ماءها، وهو ماءٌ جار عذب وبها نخل وزرع.

ثم يرحل إِلى بدْر، فيأْخذ إِليها في ثلاث مراحل، ويرد ماءها، وهي مدينة حجاز (؟)، وبها عيون نضاخَة، وجداول متسلسلة، وأرض بمخضرّ الزرع مُبْقِلَة، ونخيل مِلْءُ الحدائق، وأشجار أخر قليل عددها، وبها الجار فرضة المدينة الشريفة فيرد ماءَهَا.

ثم يرحل إِلى رابغ ويأْخذ إِليها في خمس مراحل، ويرد ماءها، وهو ماء مملوح، وهي بإِزاءِ الجحفة، ميقات أهل الشام، وقد بقي لا يأْتي عليه إِلا أهل مصر ومَن حجّ معهم، منها يحرم الحج ويهلُّون بالتلبية.

ثم يرحل إلى خُلَيْص، فيأخذ إليها في ثلاث مراحل، ويرد ماءها، وقد عمل بها الأمير العالم أرغون الناصري ـ رحمه الله تعالى ـ بِرْكة ارتفق بها الحاج. ثم يرحل إلى بطن مَرٍّ، فيأْخذ إليها في ثلاث مراحل ويرد ماءه، ويتأَهب لدخول مكة المشرفة. وفي طريقه هذا بين خليص وبطن مَرٍّ يمُرُّ على عُسْفَانَ، وهو بئر ماؤها عذب سائغ شرابه.

ثم يرحل من بطن مر إلى مكة المعظمة مرحلة واحدة، ويقيم عليها ما يقدر له أن يقيم، ثم يرحل إلى مِنَى فيبيت فيها. ثم يرحل بعد إشراق الشمس على ثَبِيْر عملاً بالسنة، ثم مَن عمل بها نزل بِنَمِرة فصلّى الظهر والعصر مقصورتين يجمعهما في وقت الظهر. ثم أتى عَرفَة وعامتهم لا ينزل في منى إلا بعد عرفة، وبمنى وعرفة مياهٌ، وعرفة غاية التوجه ونهاية المقصد. ثم يعدو الركب إلى المشعر الحرام، ثم يرحل فينزل مِنَى، ويقيم ثلاثاً بمِنى، إلا مَن تَعَجَّل في يومين، ثم يرحل فينزل مكة ثم يرحل في منازله حتى إذا أتى إلى بَدْر سار مَنْ يزور منهم مدينة النبي ﷺ من بدر المقدمة الذكر، التي ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز، ونصر بها الله نبيه ﷺ، وفتح له الفتح الوجيز، وكان يومها أول مواقفه التي أَنعشت خفت الإسلام، وأَتْعسَتْ عقب الأَصنام، وهي قرية ذات نخل وماءٍ وزرع.

ثم يأْخذ الزائر منْها إلى الصفراء، في واد متصل أخضر، تتفجَّر عيونه وترف نخيله وتتراكم زروعه، وتتكاثف ظلاله، فيأْخذ إليه في مرحلة واحدة.

ثم يرحل إلى ذِي الْحُلَيْفَة، فيأخذ إليه في ثلاث مراحل، فيرد ماءَهَا.

ثم يرحل إلى المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام مرحلة واحدة، ويقيم عليها ما يُقَدَّرُ له.

ثم يرجع إلى الصفراء، ويأْخذ بين جبلين في فجوة تعرفُ بنَقْب عَليٍّ، حتى يأْتي الينبع في ثلاث مراحل، ثم يستقيم على طريقه إلى مصر.

وأما مَن لا يزور منهم فإنه من بَدْرٍ يأْخذ على طريقه التي أقبل فيها حتى يأْتي الدَّهْناء، ثم يأْتي الينبع.

قال العلامة ابن فضل الله، رضي الله عنه: فهذه هي طريق الركب المصري في الصدور والورود، ومسافاته المحررة بالسير المعتاد، ومياهه المورودة في أثناء هذه الطريق، وعلى جنباتها مواضع ماء منها ما هو مطر قد يوجد وقد لا يوجد، ومنها جفَارُ ماءٍ ضعيفة النبع، أو بعيدة عن قصد الطريق، ولا يُفْضي الركب إليها إلا

للضرورة، على أن قنن الجبال في غالب هذه الطريق لا تخلو من ماء مطر، ولكن لا اعتماد عليها، ولهذا لم أذكرها اكتفاءً بالجادة المقصودة الموروودة في كل حال.

وأما طريق الشام إلى مكة المعظمة: فاعلم أنَّ الركب يخرج من دمشق، فيشق قرى الشام، إلى أن يقطع عرض البلقاء، حتى يخرج إلى البر في التوجه، وهكذا يشقها في العود حتى يدخل دمشق.

فأَما في التوجه فإنه يخرج من دمشق فينزل الكسوة، وهي ذات نَهرٍ جارٍ ومرجٍ أفيح، فيقيم بها يوماً أو يومين.

قال الصلاح الصفديُّ رحمه الله تعالى في مؤلفه الذي سماه «حقيقة المجاز إلى الحجاز» عند حَجِّه في سنة خمس وخمسين وسبع مئة: كان خروج الركب في يوم الاثنين تاسع شوال، وخرج الصلاح إلى قبة يلبغا في عاشره، فأَنشد:

جِئْنا لِقُبَّةِ يلْبُغا ... وَالسَّيْلُ فِيها قَدْ طَغَى
وَكَأَنَّهُ مِنْ دَمْعِنَا ... صَبَّ الْمِيَاهَ وفَرَّغَا

قال: ثم إنا رحلنا إلى الكسوة فقال:

قَاسيت في الكسوة بَرْداً لَه ... علَى تَوَالِي ضَعْفِنا قَسوَه
فقلت: هذا عَجبٌ كَيفَ لاَ ... يَذْهَبُ شَرُّ الْبَرْدِ بالْكِسْوَه

قال ابن فضل الله: ثم يرحل فينزل الصَّنَمَيْن وفيه يقول الصلاح الصفديُّ رحمه الله:

يَا بِئْسَ يَوْم مَرَّ بالصَّنَمَيْن لِي ... جُرِّعْت فِيْه مرَارَة الآلام
لَوْ كَانَ فِي الصَّنَمَيْنِ خَيْرٌ يُرْتَجى ... ما كان يُلْعَن عَابِدُ الأَصْنَامِ

ثم إنَّ الركب رحل منها فَنَزَح عنها وقيل لنا: إن المنزلة بالمليحة، وفاح لنا من السفر أَطْيَبَ فيحة، وتأَلف الرفاق بعضهم بعضاً كما تألف الرسول ﷺ أَحَيْحَة، فأَعلمنا الركائب، وغَنِمْنَا غَفْلَةَ السحائب، لكن بَعُدَ المدَى علينا، وأَقبل جيش الظلام إلينا، ولم يَبْدُ لنا من المنزلة جدار، ولم يُبْد لَنَا القفر بدار فقلت:

شَكَى صِحَابِي أَذَى مَسِيْرٍ ... ظَنُّوْهُ لَمَّا اسْتَدَام صَيْحَهْ
فقلْت مُذْ صَبَّتِ الْغَوَادِي ... أَمْطَارَهَا ذابَت الْمُلَيْحَهْ

ثم إنا وصلنا مناخها ورأَينا إبطال آيةِ التعب وانتساخها، ثم أَسْرينا [مع] الرفاق

إلى بُصْرى، وقد رزقنا الله على السفر فتحاً ونصراً، ولما حللنا بُصْرَى ورأينا ما جُلِب إليها، وقُدِّمَ من المآكل الرائقة عليها قلت:

قَدْ ذمَّ بُصْرَى رَفِيْقِي في الْمَسِيْرِ لَهَا وَزَادَ مَا شَاءَ مِنْ عَتْبٍ وَمَا اقْتَصَرَا
وَصَارَ فِي النَّفْسِ شَيْءٌ عِنْدَ ذَاكَ وَمُذْ قَابَلْتُهَا قُلْت: بُصْرَى راقَتِ الْبَصَرَا

وقال ابن فضل الله: ثم يرحل من الصنَمين فينزل على زرع، ويقيم عليها يومين، ويكون قد أخذ من دمشق إلى زرع في ثلاث مراحل، ثم يرحل إلى بُصْرَى، ويأخذ إليها في ثلاث مراحل، ويقيم عليها ثلاثة أيام أو أربعة، ثم يرحل إلى الزرقاءِ فيأخذ إليها مرحلتين، ويقيم بها يوماً أو يومين.

وقال الصلاح: ثم سرنا من بُصْرَى بالركب، وقد أقلع عنّا ذلك الغيث السكْب، وحططنا الحمول برأس وادي عنتر فنزلناه قسراً، وباتت العيون وهي من السهر حَسْرى، وَأَدْلَجْنَا منه ونحن نحمد الله في أَمْن زائد، وخير لم يكن بينه وبين المزيد حائل ولا حائد، إلى أن وصلنا إلى الأَزْرق، ورأينا نهْرَهُ الذي توسّع جُوْدُ مائِهِ وتَخَرَّق، فقتل:

قُلْت وَقَد جِئْنَا إِلَى مَنْزِلِ الـ زَّرقاءِ وَالْمَحْرُوْمُ لَمْ يُرْزَقِ
لاَ تَرْجعِي يَا نُوْقُ عن مَكَّةٍ فَقَدْ سَقَيْنَاك مِنَ الأَزْرَقِ

وسرنا نَقْصُد منزلة سمنان، ونحن في غاية أَمْن وأَمان، فقلت:

قُلْتُ لِحَادِي رَكْبِنَا: سِرْ بِنَا إِنَّ الرَّخَا فِي هٰذِهِ الشِّدَّهْ
واقصُدْ بِنَا سَمْنَانَ تَلْقَ الْهُدَى فَمَا لَنَا فِي غَيْرِهَا زُبْدَهْ

قال ابن فضل الله: ثم يرحل إلى زيْزا فيأْخذ إليها في مرحلتين، ويقيم بها ثلاثة أيام أو أَربعة.

وقال الصَّلاَحُ: ثم اختلسنا المسير في الغلس، وشُقَّة الشرق قد كادت توارى من الشفق باللعس، لِنَصل إلى زِيزا بكرة ونقابل منها ما نحبُّ ولا نكره، وقلت:

قُلْتُ لمَنْ وَافَقَني في السُّرَى لَقِيْتَ تَكْرِيْماً وتَعْزِيْزا
سِرْ بي وَلَوْ كُنَّا على خُنْفُس لاَ بُدَّ لِي مِنْ أَنْ أرى زيْزَا

وقلت:

أَتَيْنَا إلى زيْزَاءَ بالْمَحْمل الَّذي لِرُتْبَتِهِ تَعْنو الْبُدُوْرُ الْكَوَامِل

وَقَدْ زَهَرَتْ تِلْكَ المَشَاعِلُ حَوْلَهُ فَقَال الدُّجَى يَا صُبْحُ لَوْنك حَائِل
وطَالَ ثَرَاهَا لِلثُّرَيَّا مُبَاهِياً وفَاخَرتِ الشُّهْبَ الْحَصَا والْجَنَادِل
سَدَدْنَا فَضَاهَا بالْمطايَا التي إذا مَشتْ تَتَهَادَى في ذراهَا الْمَحَامِل
وكانَتْ لهَا مِنَّا الغداة صَبيْحَةٌ لِبَهْجَتِهَا زُهْرُ النُّجُوم أَوَافِل

قال: ثم يرحل إلى الكرك، فيأخذ إليه في خمس مراحل، ويقيم في ظاهره على مكان يُعرف بالثَّنِيَّة، ثلاثة أيام أو أربعة.

وللشهاب أحمدِ بن أَبي حَجَلَةَ:

وَلِيْ فِيْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاع وَدَائِعٌ مِنَ الدَّمْع فِيْهَا لِلْوُفودِ وُرُوْدُ
أَتنْكِرُ مَا أَوْدَعْتهَا مِنْ مَدَامِعِي وحَادِي الْمَطَايَا سَائِقٌ وَشَهِيْدُ؟!

قال: ثم يرحل إلى الحِسَا، فيأخذ إليه في مرحلتين، وهو أَول ما بعد، لأَن جميع ما قبله قرى عامرة، ذات ماءٍ وأَسواق، ومعايش وجلابة، فيرد مَاءَهُ.

وللصَّلاَح الصفدِي:

قِيل الْحِسَا عَقَبَاتٌ بالْحَصَا فُرِشَتْ مِنْهَا محاجر فيْها الصَّبْرُ مُنْهَتِك
لا يحْسَب الركْبُ هَذَا مَحْجَراً وَعِراً بَدَا، فَمَا هُوَ إلاَّ لِلْحسَا حَسَك

ولَهُ في الْقَطران علمٌ على منزل هناك:

رُبَّ خِلٍّ في الرَّكْب قدْ قَالَ ظُرْفاً وَهْوَ فِي شِدَّةِ الْمَشَقَّةِ غاني
فِي عَذَابٍ مَنْ بالْحِسَاءِ تَغَدَّى وَتَعَشَّى في اللَّيْلِ بالْقطرَان

وله في الحِسا أَيضاً:

سِرْنَا بِرَكْبٍ فَضَّ خَتْمَ الْفضَا وَضَاقَ حَتَّى لَمْ يَجِدْ مَنْفَسَا
حَتَّى أَكَلْنَا الأَرْضَ أَكْلاً عَلَى ظَهْرِ الْمَطَايَا وَحَسَوْنَا الْحِسَا

وله في عَقَبَةِ الصُّوَّان:

لِي فِي الْحِسَا حالٌ يَشُقُّ سِمَاعُهَا فَحَدِيْثُهَا فيه أَذَى الآذان
فَإِذا نَزَلْتُ طَلَعْتُ في عَقَبَاتِهَا وضَرَبْتُ صِيْوَانيْ على صُوَّانِ

إلا أَنَّا وجدنا بها هدايا الكرك، وفواكه بلد الشوبك، التي أرسل منها وما ترك،

فأخذنا مَا راقَ وراج، ورحلنا منها ولم يُضِيء لنا من النجوم سراج، وطلبنا عُنَيْزَةَ منزلاً، وظننَّا أن فيها منهلاً، فقلت:

رَحلنَا الْمَطَايَا سَائِرِينَ إِلَى الْحسَا ... وكُلٌّ غَدَا مِمَّا يُعَانِيْهِ قَدْ كَلاً
فَكَمْ جَمَلٌ لَمْ يَبْقَ فِيْهِ تَجَمُّلٌ ... وكَمْ كَبْشُ حَرْبٍ فِي عُنَيْزَةَ قَدْ ذَلاً

وسرنا بعد ذلك والغاية مَعَان، وبالله المستعان، ومَعَان عند الحجاج أول الحجاز وآخره، ومنها موارده وإليها مصادره، وعندها يودع صاحبه المودع، ولهذا قِيل: ومن معان يرجع المودع، كما قيل في الدرب المصري: من الْبُوَيْب يرجع المودعون، ومنها تَضيق الأخلاق، وتتفرق الرفاق، وتَنْحَلُّ النياق ويَنحَلُّ وثاق الاتفاق، ويتسلّط الجمَّال والعكَّامُ على الحجاج، ويذلون لهما ذلَّ أَهْلِ الكوفة لِلْحَجَّاج، وقلت:

أَقول والرَّكْبُ في اضطِرَابٍ ... وَكُلٌّ سَارٍ في السير عان
قَدْ بَرَّحَ السَّيْرُ بالْمَطَايَا ... فَمَنْ مُعِيْنِي عَلَى مُعَان

وقال العلامة ابن فضل الله: ثم يرحل إلى معان، ويأْخذ إليها في مرحلتين، ويرد ماؤهَا ويقيم ثلاثة أيام، ثم يرحل إلى العقبة، وهي المعروفة بعقبة الصُّوَّان، ويأْخذ إليها في ثلاث مراحل ولا ماء بها وإنَّما مذكورة لشهرتها، وهي عقبة سهلة.

وللصلاح:

كم قَدْ فَكَكْنَا رَقَبَه ... لما اقْتَحَمْنَا الْعَقَبَهْ
وكَمْ لنا أُمْنِيَّه ... فِي حجّنا مُرْتَقَبَهْ

قال العلامة ابن فضل الله: ثم يرحل إلى ذات حَج، ويأْخذ إليها في مرحلتين وهي جفار عذب سائغ مستطاب، فيرد ماءه.

وفيها يقول الصلاح الصفدي:

سَلَكْنَا الْفَجَّ نَقْصُدُ ذَاتَ حَجٍّ ... بطُرْقٍ لِلْهِدَايَةِ مُسْتَقِلَّهْ
فَآثَارُ الْمَطِيِّ بِهَا بُدُوْرٌ ... وآثَارُ الْجِيَادِ بِهَا أَهِلَّهْ

ثم يرحل إلى تَبُوك، ويأْخذ إليها في أَربع مراحل، ويَرد ماءَها، ويقيم عليها يوماً يسْتَعِدُّ للمفازة الكبيرة، ويحمل من ماء تبوك، وهو ماءٌ يسرع فساده، إذا حُمِل، ويتغير طعمه، وتبوك هي التي غزاها رسول الله ﷺ وبها نخل قليل، يقام بها للحجاج سوق، قال مؤلف «تقويم البلدان»: تبوك بين الْحجر والشام، وبها عين ونخيل،

ويقال: إنَّ بها أَصحاب الأَيكة الذين بعث الله شعيباً إليهم عليه الصلاة والسلام ولم يكن شعيبٌ عليه الصلاة والسلام منهم وإنما كان من أَهل مَدْيَنَ، قال في «القانون»: وتبوك في البر على محاذاة مَدْين. أَقول: وتبوك في الشرق ومَدْيَن في الغرب. انتهى كلامه.

وقال الصَّلاحُ الصَّفَدِيُّ: ثم إنا أَثرنَا النِّياقَ بسَحَر، وكوكب الصبح للشرق نحر، وعملنا على أَننا نصبح في تبُوك، وقلنا للدليل: اعمل على ذاك ولو منعك المتخرمة (؟) أَو حاربوك، وخالِفْ مَن صدَّك عن هذا القصد ولو كان أَبوك. وأَخذ الركب في الاحتفال بحمل السلاح، وسلِّ السيوف وهزِّ الرماح، ونشر الأَعلام الملوَّنة، وسوق الجياد التي هي من الرياح مُكوَّنَة:

أَتَـيْـنَـا بـالـسِّـلاَحِ إِلَـى تَـبُـوك ... وَذْلِـك عَـادَةٌ صَـارَتْ فَـسَـارَتْ

دَخَـلْـنَـاهَـا بـإيْـمَـان صَـحِـيْـح ... دَيَاجي الشِّرْك مِنْهُ قد اسْتَنَارَتْ

لَـو أنَّ جـماعـةَ الـكفَّار فيـهـا اسْـ ... ـتجاشت نَحْونَا وبنا استجارتْ

ثم قصدنا عين تبوك، والجِمال من الهُزَال كالعنكبوت، وأَشباحها كالآل الذي يلوح على بُعْد في المهامه والمرُوْت. ولما وقفنا على عينها، ووفينا للعين منها حق دَيْنِها، استعبر مَنْ تَشَوَّق، واستكثر مَنْ تأَنَّى وتَأَنَّق، ولا أَقول تنَوَّق:

أَقُـول وفِـي الـرَّكَـائِـب مَـنْ بَـرَاه الْـ ... ـهَـوَى وَسِـواهُ حِـيْـنَ يَـرَاهُ حَـاكـى

إذا جَـاءَتْ تَـبُـوْكَ بِـنَـا الْـمَـطَـايَـا ... (تَـبَـيَّـن مَـن بَـكَـى مِـمَّـنْ تَـباكَـى)

ثم إنا فارقنا نخلها الطوال، وسرنا عن شماريخها العوال، بعدما ابْتَعَدْنَا للمفازة العظمى التي ذِكْرها يهول، وخبرها يجوب الآفاق ويجول، فملأْنا القرب والروايا، والخبايا التي في حنايا الزوايا. وسرنا على اسم الله والبركة، وقلنا: اللهم أَنْزل السكونَ على هذه الحركة، ونزلنا دون رؤوس الوادي، وحططنا بمنزلة لم يَبْدُ لنا مثلها في تلك البوادي.

وقيل: إنها تعرف بالمغارة، والمسافرون يخصونها بهذه الإشارة، ويزعمون أَنه دخلها سبعة من القلندرية عجزوا عن اللحاق بالركب فماتوا بها صبراً، فكانت لهم إلى يوم القيامة قبراً. لأَنهم هلكوا من الظمأ، ووجدوا من عدم الماء أَلماً، فلطف الله تعالى ونِمْنا بها مِلْءَ الجفون، وطافت على الركب كؤوس راحةٍ من راح ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ١٩﴾ [الواقعة: ١٩].

مَغارِمُ الرَّكْبِ أَضْحَتْ   مغنماً في الْمَغَارَهْ
والنَّاسُ مِنْ قَبْلُ كانُوْا   وَقُودُهَا وَالحِجَارَهْ

قال العلامة ابن فضل الله: ثم يرحل ويدخل المفازة الكبيرة إلى العُلاَ، إحدى مدن الحجاز، وبها ماء جارٍ ونخل وزرع، ويأْخذ إليها في اثنتي عشرة مرحلة، وهذه هي المفازة الكبيرة المضروب بها المثل.

وفيها يقول الصلاح الصفديُّ:

ولقد نزلنا في المفازة مَنْزلاً   قَدْ ضَمَّنَا فيه ونحن ظِمَاءُ
أَقبح به مِنْ مَنْزِلٍ مُسْتَوبل   هَانَ النُّضَارُ بِهِ وَعَزَّ الْمَاءُ

وله:

فِي جبَال الْعُلاَ لِمَن مَرَّ فيها   ورأى شَكْلها مَرَاءٍ غريبه
نَسَفَتها الرِّيَاحُ والغيب حَتى   بَرَزَتْ في تَشَكُّلات عَجيْبَهْ

وله أيضاً رحمه الله تعالى:

قَدْ جعَل اللّهُ مِنْ تَبُوكَ إِلى الْ   عُلا لِلْوَرَى مَفَازَهْ
رَاكِبُ تِلْكَ الطريْق عِنْدِي   كَأَنَّهُ رَاكِبُ الْجِنَازَهْ
لكنَّ لُطْفَ الإلٰهِ أَضْحَى   لِزَائرِ المُصْطفَى إِجَازَهْ

لأَنه لا يوجد فيها ماء إِلا بئر في وسط المفازة في مكان منه يُعرف بالوادي الأَخَيضر، وفم البئر ضيق لا يحمل نصب المساقي لسقاية الحجيج، ولا يعرف هذا البئر إلا بالوادي، فيقال بئر وادي الأُخيضر، واعتنى بعض التجار الشاميين بعمله وإِصلاحه، وأَما ما سوى هذا فهو مَوَاجن الأَمطار من بِرك عملت، وشعاب وقرارات أَودية يمينك، فيها فواضل المطر، وقد لا يوجد فيها وقد يوجد، والواثق بها مُغْتَرٌّ، ومن أَشهرها بركة المعظم، أَمر ببنائها الملك المعظم عيسى بن العادل ـ قدّس الله روحه ـ ومسيل الصَّاني وهو يسرة المتوجه إلى المدينة، ومنه الخبيب وهو شعب جبل على يمنة المتوجه، ومنه فويق وهو مسجد الورود، من عجائب الأَرض المقدسة، قصدته ووقفت عليه، وهو على يمنة المتوجّه، يسلك إليه من الرأس المشجَّر المعروف بديسة الأَثل، وصورتهُ أَن يُصعد إليه من نقب جبل متسع، حتى ينتهي فيه إلى رحبة فسيحة تظلها قمة الجبل، فيصعد فيه بدرج منحوت في ذيل ذلك الجبل، إلى أَن يصعد إلى مكان نُقر في الجبل، تكون سعته أَربع مئة ذراع طولاً في سنين

ذراعاً، وفي أثنائه مغارات منحوتة لا أعرف مقدارها، وقد قنى (؟) من هذا الجبل إلى هذا النقر وما فيه من المغارات وطرقت الطرق لمجاري الماء إليه، والذي أظنه أنه إذا امتلأ من مياه الأمطار يكفي أهل تهامة والحجاز سنة كاملة، قال ابن فضل الله: وردت أنا هذا الماء في توجهي إلى الحجاز سنة اثنتين وعشرين وسبع مئة، وكان يَتَفَيْهَقُ مِلْؤُهُ ماءً، فإذا وصل الركب إلى العلا أقام عليه يومين أو ثلاثة، وبه يودع الناس والحجاج أزوادهم للعوْد.

ثم يرحل الركب إلى هَدِيَّة، ويأخذ إليها في خمس مراحل ويرد ماءَهَا، وهو ماء رَدِيء مملوك مُبَوْرَقٌ، في مسيل واد يحفر به الحفار وعليه منابت السَّنَا، فمنْ شربه حصلت له قراقر وانطلق فؤاده (؟)، ورُبَّما أفرط ببعض شاربيه إفراطاً يحتاج معه إلى المعالجة بالمقَبِّضَات الممسكة، وقد يكون صالحاً عند انكشاف السيول، حتى يكون كبعض الأَنهر الكبار، وربما غرق فيه بعض السنين غَرْقَى، لاغترار مَن ينزل فيه، لأنه ينتهي إلى رمل، وفي بعض مواضعه تخلخل يشبه تخلخل السّبخ، وهذا المكان في أعلى الوادي المار إلى أكرى، المقدم ذكره في الطريق المصري.

ثم يركب الركب إلى عيون حمزة.

وفيها يقول الصلاح الصفديُّ رحمه الله:

أَنَخْنا قَبْلَ طَيْبَةَ نُوقَ رَكبٍ ... تَرَاهُ عَنِ الْمَعَايبِ قَدْ تَنَزَّهْ
وَلَوْ شِئْنَا اغْتَسَلْنَا مِنْ دُمُوعٍ ... تُكَاثِرُ بِالْبُكَا آبارَ حَمْزَهْ
وَصَبَّحْنَا المدينَةَ باحْتِفَالٍ ... لَهُ قَدْ يجنَحُ الرائي وَرَهْزَهْ
وأَتينَا حِمَى الْهَادِي بِذُلٍّ ... كُثَيِّرُ عَزَّةٍ مَا ذَاقَ عِزَّهْ
وَنِلْنَا مَطْلَباً أَمْسَى عَزِيْزاً ... غَنِيْنَا إذْ فَتَحْنَا منه كَنْزَهْ

ويأخذ إليها في خمس مراحل ويرد ماءَها، وهذه المسافة ما بين هَدِيَّة وعيون حمزة مسافة مشقة حصرة، هلك فيها الحجاج في سنين كثيرة، لمرور الحاج فيها بمواضع مشهورة بالعطب، منها العقبة السوداء ووادي العظام وأرض النخلتين، وهو المذكور في شعر الشعراء بالأَبْرَقَيْن، وقد تأتي مضايقَهُ سيول، إن لم يُتَحَرَّزْ منها بالنزول في سفوح الجبال والأنشاز العالية، وإلا ما يؤمن أَن تبادرهم بوادره، وتجتاحهم سيوله، فأما إذا كان القيظ منعتهم الجبال أَن يَسْتَرْوِحُوا بنسيم، وتقدّحت رماله وأَحجار الصُّوَّان به ناراً فتتوقد، وهبّت من فجاجه ريح السموم، فنشَّفَتِ الْقِرَبَ وأَهلكت الناس والإبل. وقد ذكرنا هذه المواضع العائدة منه (؟).

فإذا وصل الركب إلى عيون حمزة، تأهب لدخول المدينة الشريفة - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - وهناك يتمتع الزائر بطيب الملتقى، ويَبُلُّ شوقَهُ بمكان طالما عَلَّل القلبَ عنه بذكر الْعُذَيْب والنقا، ويقيم الركب في المدينة الشريفة ما يقدر له.

ثم يرحل إلى ذي الْحُلَيْفَةِ ويسميه الحاج بئر علي، وهو ميقات الحاج الشاميّ ومَن مرّ على المدينة، وهو على مرحلة منها، وبه آبار كثيرة بإزاء وادي الْعَقِيق، ومنه يحرم الحاج ويهلُّون بالتلبية.

ثم يرحل إلى الصفراء، ويأخذ إليها في ثلاث مراحل، ثم يشق هذا الوادي إلى بَدْر، يأخذه في مرحلة واحدة، ثم يلاقي الطريق المصرية، وليس فيما ذكرناه ماء إلا نابع ومواضع مياه الأَمطار توجد في مواضع وأَماكن ولكنها قليلة، ومما استجدَّ بين ذي الحُلَيْفَة والصفراء بئر في رأس وادي بني سالم، استجدها رجل يُعرف بابن الداية. قلت: هذه البئر هي الموجودة الآن التي تملأُ فيها الفسقية المعروفة بإنشاء الأَمير طاز، والعامة تغلط في هذه البئر ويسمونها بئر ذات العلم، ولم أَرَ لذلك صحة. انتهى.

وأَما ما يرده النفر القليل فلا تخلو منه قنن الجبال وشعابها.

ثم يرجع الشامي في العود آخذاً على طريقه هذه إلى المدينة الشريفة، فيمتاز على سائر الركبان بالزيارة مرتين، وتجديد العهد بمسجده وبه في التوجه والعود.

ثم يأْخذ على طريقه إلى الحسا فإذا أَتاها رحل منها إلى (زيْزَا)، وأَخذ إليها في مرحلتين.

ثم يرحل ويأخذ إلى دمشق، في ثلاث مراحل أَو أَربع لا يُعَرِّج فيها إلى بصرى ولا إلى زرع بل إما أن يأْخذ يساراً على أَذرعات أَو يميناً في الطريق الوسطى على تيما.

فهذه هي طريق الشام بمسافاته ومياهه الموردة، ومسالكه في التوجه والعَوْد على ما ذكره العلامة ابن فضل الله والصلاح الصفدي.

ولا بأْس أَن يُلْحَقَ ذلك بما حررته من المنازل والمراحل الشامية أَيضاً مما هو عليه السلوك الآن في زماننا، مما صححته من المقدم الأَجل حسن بن عيسى، مقدم الدرب الشامي، وهو أَن الذي عليه مسير الركب الشامي أَن الركب يرحل من الشام إلى قبة يَلْبغا عند المرجة، فيقيم الركب بها سبعة أَيام، ثم يرحل إلى المحل المعروف بقبة الحج، وهي قبة ومسيد القدم، وهو محل به أَنهار من الماء العذب، والإقامة به يومان، ثم يرحل إلى جسر الكسوة، وماؤه طيب، ويسمى النهر الأَعرج، ثم يرحل

إلى منزلة خان ذو النون، وبه نهر جارٍ، ثم يرحل إلى كُتَيبة - بالتصغير - وهناك رسم خان قديم وبه أَعين ماء وبذلك المكان يكون الجالب المتسبب على الركب كثير، ثم يرحل إلى الْمُزَيْريب، وبه قلعة مستجدة الإِنشاء، وبها جماعة من (الحصارلية) مستحفظون، وحوله القرى الكثيرة يجلبون منها للبيع على الوفد، والإِقامة بها سبعة أَيام، ثم يرحل منها أَول النهار لتقطير الركب من هذا المحل، فيسير بعد التقطير إِلى قرية أَذْرعات وهي عامرة آهلة آخر بلاد حوران، وبها آبار ماء، ثم يرحل منها إِلى حل يسمى خان المفرق، وهو خان قديم، وبه تلٌّ، وتلك المنزلة خالية من الماء، ثم يرحل إِلى الزَّرْقاء، وهي عين تجري، وبتلك المنزلة قصر شبيب على التل، ثم يرحل إِلى رأْس بلاطة، أَول بلاد البلقاء، وليس بها ماء، ثم يرحل من رأْس بلاطة فيمر على خان قياد سحراً، وينزل الركب وقت العصر بخان القطراني، وليس هناك ماء، ومن خان القطراني كان الركب قديماً ينزل بقرية قديمة تسمى اللجون، يقيم بها الركب ثلاثة أَيام، وينزل الكرك، وقد بطل ذلك من نحو ثمان سنين، وصار الركب ينزل بمنزلة الحسا، بها عيون ماء تجري، ومرج أَخضر، ويرد عليها الجالب للبيع على الوفد بالشعير والدجاج وغيره، ولا يقيم الركب بها، بل يرحل إِلى خان عُنَيزة، وهو منزلة لا يكاد ينقطع منها البرد شتاءً ولا صيفاً، وإِذا كانت العربان طيبة الخاطر من الحكام يأْتون بالمِيْرة والإِقامة للركب من قلعة الشوبك، وكذلك (الحصارلية) التي بها يحضرون للبيع والتسبب على الحاج، ثم يرحل إِلى منزلة معان، بها عيون تجري، ويأْتي إِليها الجالب في وقت دون وقت، ثم يرحل إِلى عقبة الصوان - ويسمونها الشَّيِّدِية، بياء تحتية مشددة وقبلها شين معجمة مشددة - ثم يرحل إِلى الطُّبَيْلِيَّة - بتشديد الطاء المهملة المرفوعة تصغير طبلية - وبالقرب منها تزويدة صَرَر - بصاد مهملة مفتوحة وراءين الأُولى منهما مفتوحة - وهي حفائر رمل، ثم يرحل إِلى ذات حج، وبها محل شريف يسمى التابوت، يذكرون أَن النبي ﷺ حفر بيده الشريفة ذلك الموضع، فنبع الماءُ وفاض، وبجانبه بركة قديمة البناء، وصلحت من نحو خمس سنين لسقاية الحاج، ثم يرحل إِلى قاع بُسَيْطَةَ، محل أَفيح، لا وعر فيه ولا ماء، ثم يرحل إِلى بركة تَبُوك، وهي بركة كبيرة وحولها عمارة ونخل وبالقرب منها بجانبها مورد ماء يسمى تبوك القديمة، التي بها غزاة النبي ﷺ فإِذا كان الركب كثيراً ورد إِليها للرواية، ثم يرحل إِلى الغار المعروف بالقرندلية، وتسمى عند عربان تلك المنزلة خشيم برك، ثم يرحل إِلى عقبة الأُخَيْضر، ثم يقطع العقبة، والمحطة بعد العقبة بجانب قلعة الأُخيضِر، وبوسط القلعة بئر، وخارجها ثلاث برَك ينقل إِليها الماء من

البئر على ظهور الجمال، ويرد إليها بعض الجالب بالحشيش والسمن والغنم، ثم يرحل فيمر على الصَّانِي ووادي أبي خُبَيْب ـ بالخاء المعجمة المرفوعة ـ وينزل إلى بركة المعظَّم، وهي محطة الركب بعد الأُخَيْضر، وهي بركة عظيمة تملأها السيول ماءً طيباً، ثم يرحل إلى الأقَيْرِع ـ تصغير أقرع ـ وشقِّ العجوز، ويوجد بتلك المنزلة الماء في بعض الأحيان من الأمطار، وفي بعضها لا يوجد، ثم يرحل إلى أبيار الْحِجْر ومدائن صالح بعد أن يَمُرَّ على مَبرك ناقة النبي ﷺ.

ذكر صاحب «تقويم البلدان» قال ابن حوقل: والحِجْرُ بين جبالٍ، على يوم من وَادي القرى أقول: ولم يحصل ذلك فإن بينهما أكثر من خمسة أيام قال: وكانت ديار ثمود الذين جَابُوا الصَّخْرَ بالواد قال: ورأيت تلك الجبال ومانحتَ منها كما أخبر الله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩] وتسمى تلك الجبال الأثالب بالثاء المعجمة أقول: وهي التي ينزلها حجاج الشام وهي عن الْعُلاَ بنصف مرحلة من جهة الشام وروي أن رسول الله ﷺ نهى عن شرب مائها. انتهى كلامه، ثم يرحل من أبيار الحِجْر إلى الْعُلاَ، منهل كبير، به قرية ونخل وبيع وشراء لكثرة الجالب إليه، وبه عيون ماءٍ، ويقيم الركب به يومين. ثم يرحل إلى مَطَارِيْن ـ بميم مفتوحة وطاء مهملة بعدها راء مكسورة ـ وهي أرض سهلة بالقرب من حفائر الزمرد، يمر عليها ويحط بالمنزلة المذكورة، ثم يرحل إلى شعب النعام، ويسمى عند العربان الدار الحمراء، وبالقرب من المنزلة تزويدة من المطر بالجبال، ثم يرحل إلى هَدِيَّةَ، بالقرب منها مسيرة يوم قلعة خَيْبر، وبهَدِيَّةَ تزويدة من ماء المطر، وأما ماءُ هَدِيَّةَ فمالح، لا يكاد يسيغه الشارب لشدة ملوحته، ثم يرحل بالفحلتين ـ بالفاء ـ تلُّ جبال وليس به ماء ولا مرعى، ثم يرحل إلى نقب علي، ووادي القرى وليس به ماء إلا ما يوجد من المطر، ثم يرحل من وادي الْقرى فيمر على وادي الْعَقِيق، ثم يمر على آبار حمزة، وبها زينة المحمل والأحمال، والمحطة المدينة المنورة ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ والإقامة بها للزيارة يومان، ثم يرحل إلى آبار عليٍّ، وهو ذو الْحُلَيْفَةِ، محل النسك والإحرام، ثم يرحل إلى قبور الشهداء ثم إلى الجُدَيِّدَةِ، ثم إلى بَدْرٍ وحُنَيْنٍ، ثم إلى قاع الْبَزْوَة، ثم إلى رابغ ثم إلى طارف قُدَيْد، ثم إلى خلَيْص، ثم إلى وادي الْمُنْحَنَا، ومنه يمرون من درب أبي عُرْوَةَ إلى وادي الزَّاهر وهو سبيل الجَوْخي، ثم يدخلون مكة المشرفة ـ شرَّفها الله وعظَّمها ـ.

وأما بالرجعة فالمنازل على حالها كما ذكرنا، والإقامة بالمدينة يومان، وبالْعُلاَ يومان، وفي تبوك عند حضور الملاقاة الشامية السلطانية يوم واحد، وفي الحسا

للملاقاة يوم، وفي الزرقاء لإقامة كبيرة حافلة جدًا يوم واحد، وإذا رحل الركب من أذرعات لا يمر على الْمُرَيْزيب وينزل بكتيبة، وكذلك اللجون لا يمرون به بالرجعة والله أعلم.

ولنذكر بعض ما قيل من الشعر في منازل الحاج الشامي غير ما قدّمنا ذكره.

فمما قاله العلامة شهاب الدين أحمد بن أبي حَجَلَة في كتابه «منطق الطير» وغيره ففي وادي القرى للشهاب رحمه الله تعالى:

رَأَيْت قرَى وَادِي الْقرَى في مَسِيْرنا ... وبُنْيَانها طوْبٌ وَمِنْ تَحْتِهِ حَجَرْ
وَلَمْ يَبْقَ فِيها ساكنٌ مُتَحَرِّكٌ ... وَلَيْس بها لِلْعَيْنِ مَاءٌ ولاَ أثَرْ

وله فيه:

أَوَادِي الْقرى، هٰذي الْقرَى أَيْنَ أَهْلهَا ... ومَاؤهُمْ فِيْها الذي كانَ مُنْصَبًا
أظنُّكَ لمَّا أنْ أكَلْتَ لحُومَهُمْ ... شَرِبْتَ عليْهَا الماءَ مِنْ بَعْدِهِم شرْبا

وللصلاح الصفديّ رحمه الله:

مَرَرْنَا بِوَادِي الْقرَى ضَحْوَةً ... وَدُسْنَا بِهِ الْمَهْمَهَ الأَغْبَرا
فأَمْطَرَنَا اللّهُ ذاكَ النَّهار ... فكانَ قِراناً بِوَادِي الْقرَى

وللشهاب في الراقصات:

أقامَ الراقِصات لَنَا سَمَاعاً ... بهِ رَقَصَتْ بِنَا كلُّ الْبقَاع
وهَامَتْ أُمُّ غيلان بشوك ... تَشقُّ بهِ الثِّيَابَ عَلَى السَّمَاع

وله في بئر الحِجْر:

مَرَرْنَا ببئر الحِجْر والدُّورُ حَوْلهُ ... تُكدِّرُ صافِي عَيْشِنا وسُرُورنا
دِيَارٌ عليها الْحُزْن يَبْدُو لأَنَّنا ... أُمِرْنا بأَنْ نبْكِي بها فِي مُرُورنا

وله فيها:

بالْحِجْر قوْمٌ مِنْ بَقايا مَنْ مَضى ... غلبَتْ عَلَيْهِمْ شقْوَةٌ وفسَادُ
فهمُ إذا سَرَقُوا وقامتْ صَيْحَةٌ ... ذهَبُوا كمَا ذهَبَتْ ثمُودُ وعَادُ

وله:

بأَرضٍ بها آثارُ ناقةِ صَالِحٍ ... بَنو صَخْرِ السُّرَّاق شرُّ قبيْل

لَئِنْ عُوقِبَ الماضونَ في عقْر ناقة ... فَكَمْ عَقَرُوا منْ ناقَة وفَصِيْل

وله في مفرش الرز:

مَرَرْنَا بِفَرْش الرُّزِّ نلتقط الْحَصَا ... وقَلْبي على مَيٍّ بهِ يَتَقَطَّعُ
عَشِيَّةَ مَا لي حِيْلَة غَيْر أَنَّني ... (بلَقْطِ الْحَصَا والخَطِّ في الرَّمْل مُوْلَعُ)

وله في الأُخَيْضر:

غَرَفْتُ طَعَامي بالأُخَيْضِر فَاغْتَدَى ... يُكَدِّرُ عَيْشِي رَمْلُهُ حِيْنَ يَرْكُدُ
فَما زالَتِ الزَّرْقاءُ يَبْيَضُّ وَجْهُهَا ... وَوَجْهُكَ يَا وَادِي ٱلأُخَيْضِر أَسْوَدُ

وله ـ رحمه الله ـ:

بَسَطْتُ الْخُطَا في السَّيْر نَحْوَ بُسَيْطَة ... وَلِلبُدْنِ في جُنْح الدُّجَا لَمَعَانُ
وإِن لاَنَ لِي الصُّوَّانُ عِندَ طُلُوعِهِ ... فإِني عَلَى صَعب الطريْق مُعَان

ومن «حقيقة المجاز إلى الحجاز» للصَلاح الصفديِّ في سمنان:

قلت لحادِي ركبنا سِرْ بنا ... إنَّ الرَّخا في هذه الشِّدَّهْ
واقصد بنا سَمْنَان تَلْقَ الْهُدىٰ ... فما لنا في غيرها زُبْدَهْ

وله في منيخر:

سرَيْنَا مِنْ مُنَيْخِر في هَوَاءٍ ... لَهُ بَرْدٌ عَلَى السَّاري يَشُقُّ
فَما فِي الرَّكب إلاَّ مَنْ تَرَاهُ ... لَه (جنك) (بتنبكه) تَدُقُّ

وله:

جئنا لِعَمَّارٍ وَلَم يُبْقِ ٱلأَذَى ... فينَا بَقِيَّةَ ما يُبَاعُ ويُشْتَرَى
فَلَو ابْنُ عمَّارٍ رآنا لَمْ يَقُل: ... (أَدِر الزُّجَاجَةَ فَالنَّسِيْمُ قد انْبَرَى)

وله في طبيلية:

نَحْن على مَائِدَةِ المُصْطَفَى ... مِنَ الْمَسَاكِين الطُّفَيْلِيه
وَرَكبُنَا إنْ سَار سَدَّ الْفَضَا ... فكيف تَحْوِيْنَا طَبَيْلِيَّهْ

وله في قاع الْبُسيْطَة:

سِرْنَا بركْبٍ كبيْرٍ ... لمْ يَقْطع السَّيْرُ خَيْطَهْ
كُنَّا بقاعات بَسْطٍ ... نَلْهُو بقَاع بُسَيْطَهْ

وله في تبوك:

رَأَيْتُ عَيْنَ تَبُوكِ فَرَاحَتِ الْعَيْنُ تَبْكِي
والدَّمْعُ شَاهِدُ وَجْدِي وَلاَ أُرِيدُ مُزَكِّي

وله في الأُخيضر:

عَبَرْنَا عَلَى وَادِي الأُخَيْضِرِ عِنْدَمَا حَثَثْنَا الْمَطَايَا واطْمَأَنَّتْ مَوَاكِبَهْ
وأَحْسَبُهُ أَن كَانَ أَخْضَرَ إِنَّمَا تَلَظَّى بِهِ صَبٌّ فَجَفَّتْ جَوَانِبُهْ

وله فيه:

لَمَّا ارْتَقَى الرَّكْبُ مِنْ وَادي الأُخَيْضِرِ فِي أَمْنٍ ومَنٍّ يُغَشِّي كُلَّ إِنْسَانِ
لَمْ نَشْكُ فِي سَيْرِنَا ضَيْماً وَلا ظَمَأً وصَانَنَا الله أَنَّا نَنْزِلُ الصَّانِي

وله في الأَسدة:

سَأَلْنَا: أَيْنَ مَنْزِلُنَا لِمَنْ أَضْنَى السُّرَى جَسَدَهْ
فَقَالَ أَمِيرُنَا أَسَدٌ وَمَنْزِل سَيْرِنَا الأَسَدَهْ

وله في الحاكة:

قُلْت وقدْ قَصَّرَ حادي السُّرَى بِنَا ومَدَّ الْبُعْدُ أَشْرَاكَهْ
نَحن مُلوكُ الأَرض في سَيْرِنا فكيفَ حَتَّى نَنْزِل الْحَاكَهْ

وله:

فِي ثَمَدِ الرُّوم وَحَضْبَائِهِ لِمَنْ رَآهُ عَجَب رَقَّصَا
كَمْ مَوْضِعُ فِيه حَصاً غَيْرُهُ وَهْوَ بِفَضْل الذكر قَدْ خُصِّصَا
وانْفَرَد الْفَخْرُ لَهُ وَحْدَهُ ولَيْسَ بالأَكْثَر مِنْهُمْ حَصَا

وله في مفرش الرز:

قدْ أَتى الرَّكْبُ مَفْرشَ الرُّزِّ لَيْلاً فَزَكَا مَنْزِلاً وَطَابَ مَحَلاً
واسْتَضَاءَ الْفَضَا بِزُهْرِ الدَّيَاجِي فَغَدا الرُّزُّ بالنُّجُوم مُحَلَّى

وله في مُدُن صالح:

قَدْ رَأَيْنَا مُدناً لِصَالِح تُعْزَى مِثْلَ ما جاءَ عِنْدَنَا فِي التِّلاَوَهْ
مدَّتِ الأَرْضُ بالْجِبَال خِوَاناً مَا عَلَيْها مِنَ النَّبَاتِ طَلاوَهْ

وَصُحُونُ الصُّخُور قدْ نَحَتُوْهَا فَعَلَيها مِنَ النَّحيْتِ حَلاَوَهْ
والْعَذَابُ الْمُذَاب قَدْ بانَ فِيْها وعليها من الْهَلاَك علاَوَهْ

وله في العُلا:

لَقَدْ بَعُدَ الْعُلاَ ونأى مَحَلاً وطالَ ونَحْنُ نَسْأَل عَنْ عَرِيْبهْ
وَيَا عَجَباً لَهُ يَزْدَادُ بُعْداً وَقَدْ قُمْنَا إلَيْهِ مِنْ جَنِيْبهْ

وله فيه:

لَما حَجَجْت وَحَجَّتِي لَمْ تُرض مَا بَيْن الملا
أَبْصَرْت قَذري خامِلاً لَمَّا دَخَلْت إلَى الْعُلا

وله فيه:

خَرَجْنَا نَحوَ طَيْبَةَ من دِمَشْقٍ بأَفْئِدَةٍ لِلُقْيَاهَا حِرَار
وَلكنْ فِي الْعُلاَ زدْنا اشْتِياقاً كَأن قُلُوبَنَا حُشِيَتْ بنَار
(وأَبْرَحُ مَا يَكُون الشوق يوماً إذا دَنَت الدِّيَارُ مِنَ الدِّيار)

وله في شعب النعام:

إلَى شِعْب النَّعام حَثَثْتُ صَحْبي عَلَى خُوْصٍ مَنَاسِمُهَا دَوَامِي
ضوامِر كالْقِسِيِّ مُعَطَّفَات بَرَاهَا سَيْرُهَا بَرْيَ السِّهَام

وله في قبر جلدك:

أَقُولُ لحادي الركْب نَبِّهْ عَلَى السُّرَى فإنَّ نُزُولَ الْحَيِّ في قَبْر جَلْدَك
ولا تَحْسَبي يا ناقُ مِنْ بَعْدُ أَنَّني أُخَلِّيْكِ لَوْ قَدَّيْتُ بالسَّيْرِ جلْدَكِ

وله:

قُلْت للسَّائِق الَّذي قَدْ تَوَانَى بمَطَايا عَلَى الدَّوَام دَوَامِيْ
سُقْ فكَمْ قَدْ مَحا ذُنُوباً كِبَاراً وَصِغَاراً مُرُوْرُنَا بالْقَطَامِي

وله:

أَتَيْنَا الرَّقْمَتَيْن وَقَدْ أَنَافَا عَلَى جَبَلٍ تَرَاهُ كُلُّ عَيْن
كَنُدْمَانَيْ جَذِيْمَةَ لَنْ يَزَالا عَلَى رَوْض السَّمَا مُتَنَادِمَيْن

وله في نَقْب عليٍّ:

حِينَ قَارَبْنَا الخُطَا مِنْ طَيْبَة صَارَ كُل بتلاقِيها مَلِي
وأَرَدْنا أَنَّنا نَدْخُلُها ففَتَحْنَا البَابَ مِنْ سَد علي

قال العلامة ابن فضل الله: وأما الطريق العراقي إلى مكة المشرفة:

فاعلم أنه يخرج الركب من بغداد إلى صَرْصَر مرحلة واحدة، ثم يرحل إلى فراشة ويأْخذ إليها في مرحلتين، ويرحل إلى شط النيل ويأْخذ إليه في مرحلة، ويرحل إلى الحلة ويأْخذ إليها في مرحلة واحدة.

ويرحل إلى بئر سلامة ويأْخذ إليها في مرحلتين، ويرحل إلى الكوفة ويأْخذ إليها في مرحلتين ويقيم فيها حتى يتكامل الناس، فإن الحاجَّ يخرجون إلى الكوفة جماعات ومثْنَى وفرادى، وفيها تجتمع فرقتهم، وتلتئم رفقتهم، وجميع ما بين بغداد والكوفة قرى عامرة، ومياه متصلة، وأسواق قائمة، وخيرات وافرة.

ثم يرحل الركب من الكوفة، فمنهم مَن ينزل مشهد الإمام علي رضي الله عنه، وهو عن الكوفة دون المرحلة، وإنما ينزل به مَن ينزل للتبريز إليه، استظهاراً على السفر، أَو لقصد زيارة ذلك المشهد المبارَك على ساكنه سحب الرحمة والرضا. ومنهم مَن لا ينزل إلاَّ القادسية وهي مرحلة كاملة من الكوفة، ويقيم الركب بها يوماً.

ثم يرحل إلى العُذَيْب ويأْخذ إليها في مرحلة واحدة وهي أَول منازل البر من هذا الطريق فيرد ماءها ويحمل منه لمفاوز البرّ.

ثم يرحل إلى الرحبة، ويأْخذ إليها في مرحلتين، ويَردُ ماءها.

ثم يرحل إلى سلمى ويأْخذ إليها في أربع مراحل ويَردُ ماءها.

ثم يرحل إلى واقصة، ويأخذ إليها في أَربع مراحل فيَردُ ماءها، وهي من أَشهر منازل الطريق العراقي، وفيها آبار وبرَك، ويكون قد مرّ على طريقه بالقرعا، وفيها بئران.

ثم يرحل إلى خاديت ويأْخذ إليها في أَربع مراحل، فيَردُ ماءها.

ثم يرحل إلى زرود ويأْخذ إليها في ست مراحل، ويَردُ ماءها.

ثم يرحل إلى الأَجْفر، ويأْخذ إليها في مرحلتين، ويَردُ ماءها.

ثم يرحل إلى مرشيت ويأْخذ إليها في ستّ مراحل، ويَردُ ماءها.

ثم يرحل إلى فنن (؟) ويأْخذ إليها في أَربع مراحل، ويَردِ ماءها.

ثم يرحل إلى تخت سليمان (؟) ويأْخذ إليه في أَربع مراحل، ويَردُ ماءها.

ثم يرحل إلى عاج ويأْخذ إِليه في أَربع مراحل، ويَردُ ماءه.

ثم يرحل إلى بويرات (؟) ويأْخذ إِليها في ثمان مراحل، ويَردُ ماءه.

ثم يرحل إلى ذات عِرْق ويأْخذ إِليها في ست مراحل، ويَردُ ماءها وهي ميقات العراقي فمنها يحرم الحاج ويُهلُّون بالتلبية.

ثم يرحل الركب إلى وادي نخلة، ويأْخذ إِليه في أَربع مراحل، ويرد ماءه ويستعد لدخول مكة، وهو من أَحسن وذْيان مكة وأَنضرها، وأَمتع في عين مَن تمتع بنظرها.

ثم يرحل إلى مكة المعظّمة، ويأْخذ إِليها في مرحلة واحدة.

قال العلامة ابن فضل الله رضي الله عنه: هذه طريق الركب العراقي في وقتنا هذا، ومنها كان يسير المحملُ العراقي في أَيام السلطان أَبي سعيد بهادر خان بن محمد خَرْبَنْدَه أَولجا يتو بن أَرغون بن أَبغا بن هولاكو بن تولي بن جنكزخان، وجعل الركب في سنةٍ طريقه على المدينة الشريفة، وأَخذ في طريقه إِليها من الأَجفر، فإِنه لما ورد ماءه وهو ماء عَذْبٌ طيب، ثم رَحل إلى سَمِيرا، وأَخذ إِليه في مرحلتين، وورد ماءَه، وهو ماءٌ ظاهر الحلاوة، لذيذ الطعم كأَنه ماء النيل أَوْ الفرات.

ثم يرحل إلى النُّقْرَة، ويأْخذ إِليها في مرحلتين، ويرد ماءها وهو ماء مملوح لا يستطاب، أَكثره لا تَرده الإِبل.

ثم يرحل إلى وادي الْعَرُوْس، ويأْخذ إِليه في خمس مراحل، وهو ماء عذب.

ثم يرحل إلى المدينة الشريفة ـ صلوات الله وسلامه على ساكنها ـ ويأْخذ إِليها في أَربع مراحل، وهذه هي الطريق التي كان الركب الراقيُّ يسلكها أَخيراً، وهي مذكورة في حجازيات شعراءِ ذلك الحين، وقد ذكرها الصَّرْصَرِيُّ ـ رحمه الله ـ في مدائحه.

وجميع المياه التي بين بغداد ومكة المعظمة عذبة سائغة إِلا الأَجفر وعاج، فإِنهما مملوحان، تردهما الإِبل وبعض الحاج.

ووقفت على رحلة لشخص من فضلاء المغاربة من أغرناطة رحلها بعد حجه من طريق المدينة المنورة إلى العراق، لا بأْس بذكرها هاهنا قال: كان الرحيل من المدينة المنورة يوم السبت ثان المحرّم سنة ثمانين وخمس مئة فنزلنا يوم الاثنين ثالث يوم، بوادي العروس، وهو مورد ماءِ حفائر في الأَرض، يحفرون عليها فينبع منها ماء عذب مَعِين، يُرْوي الحاج والجِمال كائنة مَّا بلغت، وصعدنا من وادي العروس إِلى أَرض

نجد، وخلفنا تهامة وراءنا ومشينا في بسائط من الأَرض ينحسر الطرف دون أَدناها، ولا يبلغ مداها وتنسمنا نسيم جد، وهواءَها الطيب، المضروب به المثل، فانتعشت النفوس والأَجسام ببرد نسيمه وصحة هوائه، ونزلنا يوم الثلاثاء رابع يوم من رحيلنا على ما يعرف بماء العُسَيلة، ثم نزلنا يوم الأَربعاء خامس يوم من رحيلنا على ماءٍ يعرف بالنُّقْرة، فيه آبار ومصانع كالصهاريج العظام، وجدنا أَحدها مملوءاً بماء المطر، يعمُّ جميع الوفد، ولم ينضب على كثرة الخلائق، قال صاحب الرحلة: وصفة رحيل الأَمير طاستكين العراقي بالحاج أن يسري من نصف الليل إِلى صبيحته، ثم ينزل إِلى أَول الظهر، ثم يرحل وينزل مع العشاء الآخرة، ثم يقوم نصف الليل، هذا دأبه، ونزلنا يوم الخميس سادس يوم من رحيلنا على ماء يعرف بالقارورة، وهي مصانع مملوءة بماء المطر، وهذا الموضع هو وسط أَرض نجد، وما أَرى في المعمور أَرضاً أَفيح بسيطاً، ولا أَوسع أُفُقاً، ولا أَطيب نسيماً، ولا أَصح هواءً، ولا أَمد استواءً، ولا أَصفى جَوًّا، ولا أَنقى تربةً، ولا أَنعش للنفس والبدن، ولا أَحسن اعتدالاً في كل زمن، من أَرض نجد، ووصف محاسنها يطول، والقول فيها يتسع، وفي يوم الجمعة السابع مع ضحوة النهار نزلنا بالْحاجر، والماء فيه في مصانع، وربما حفر عليه حفراً قريبة العمق يسمونها أَجفاراً، واحدها جفر، وكنا نتخوّف في هذه الطريق قلة الماء، لا سيما كثرة الجمع الوافر الذي لو ورد البحر أَنزفه، فأَنزل الله من سبح رحمته السيول، فصارت غدراناً، وصارت الوهاد مملوءة.

وفي يوم الجمعة بعده نزلنا ضحوة النهار بسَمِيْرَا، وهو موضع معمور، وفي بسيطها شبه حصن لطيف، به خلق كثير، مسكون، والماء به في آبار كثيرة لكنها زعاق، ومستنقعات وبرك، وتبيع العرب هناك على الحاج اللحم والسمن واللبن، وتبادَرَ الناسُ لشراء ذلك منهم بشقق من الخام يستصحبونها معهم لمشاراة الأَعراب، لأَنهم لا يبايعونهم إِلا بها، وفي ضحوة يوم السبت بعده نزلنا بالجبل الْمَخروق، وهو جبل في بيداء من الأَرض، في سفحه الأَعلى ثقب نافذ تخترقه الريح، ثم رحلنا من ذلك الموضع وبتنا بوادي الكروش على غَيْرِ مَاءٍ. ثم أَسرينا منه وأَصبحنا على فَيْدَ، يوم الاثنين، وهو حصن كبير بِبُرْجٍ مشرف في بسيط من الأَرض، ممتد حوله ربض، يطوف به سور عتيق البنيان، معمور بسكان من الأَعراب، يتعيشون مع الحاج في التجارات والمبايعات، وغير ذلك من المرافق، وهناك يترك الحاج بعض زادهم إِعداداً للرجوع، لأَنه نصف الطريق من بغداد إِلى مكة على المدينة ـ شرّفها الله تعالى ـ أَو أَقل بيسير، ولهم بها معارف، يتركون أَزودتهم عندهم، ومنها إِلى الكوفة اثني عشر

يوماً في طريق سهلة، طيبة، والمياه بها موجودة في مصانع كثيرة، وعادة أَمير الحاج العراقي أن يدخل إلى فيْد بِطَبْلٍ وزينة وتَعْبِئَة وأُبَّهَة إرهاباً للمجتمعين بها من الأَعراب، لِئَلاَّ يداخلهم الطمع فيهم، والماء بهذا الموضع كثير في آبار، تمدها عيون تحت الأَرض، ووجد الحاج فيها مصنعاً قد اجتمع الماء فيه من المطر، وفي هذا المحل يمتار الحاج من الأَغنام والأَعسال واللبن، ويشترون من الجِمال ما يحتاجون إليه، فأَقاموا به يومهم ذلك مرتاحين، وأَسْرَوْا نصف الليل على ترتيب سيرهم المذكور أَولاً، فنزلوا ضحوة يوم الاثنين الثامن عشر المحرم بموضع يعرف بالأُخيْضر، وهو المشتهر عندهم بموضع جَمِيل وَبُثَيْنَة الْعُذْرِيَّيْن، ثم رحلنا ظهر يوم الاثنين ونزلنا بالبيداءِ مع العشاء الآخرة، ثم أَسْرَينا منها ونزلنا ضحوة يوم الأَربعاء بزرود، وهي وَهْدَةٌ من الأَرض، فيها رمال منهالة، وبها خلق كثير، داخله دويرات صغار، وهو شبيه الحصن يعرف بهذه الجهات بالْقَصْر، والماء بهذا الموضع في آبار غير عذبة، ونزلنا ضحوة الخميس عشرين المحرم بموضع يعرف بالثَّعْلَبيةِ، وبها مبنى شبه الحصن، لم يبقَ منه إلاَّ الحلق؟ وبإزائه مصنع عظيم كبير الدور، من أَوسع ما يكون من الصهاريج وأَعلاها والمهبط إليه على أدراج كثيرة من ثلاث جهات، وكان فيه من ماء المطر ما عَمَّ جميع المحلة، وقام بهذا الموضع سوق اجتمع فيه الجمُّ الغفير من الأَعراب رجالاً ونساءً، فيه من الجِمال والأَغنام واللبن والسمن وعلف الإِبل، وكان سوقاً نافقاً، وبقي من هذا الموضع إلى الكوفة من المناهل الكبيرة التي تعم الناس ثلاثة وهي زُبَالَة وواقِصَةُ، والثالث منهل من ماء الفرات على مقربة من الكوفة، وما بين هذه المناهل مياه موجودة لكنها لا تعمُّ، وهذه الثلاثة المذكورة التي تعم الرجال الجِمال والناس، وشاهدنا من غلبة الناس على منهل ماء الثَّعْلَبيَّة أَمراً هائلاً لا يكاد يشابه مثله، بحيث مات من الرجال لشدة المزاحمة على الماء سبعة أَنفار، وفي يوم الجمعة بعده نزلنا بموضع يعرف ببركة المَرْجوم، وهي مصنع قد بُنِي له بيت يعلوه من الأَرض مصب يؤدي الماء إليه، على بُعْد، وأُحكم ذلك إحكاماً يدل على قدرة الاتساع وقوة الاستطاع، ولهذا المرجوم المذكور مشهدٌ على قارعة الطريق، وقد علا كأَنه هضبة شَمَّاء، وكلُّ مجتازٍ عليه لا بد أن يلقي عليه حَجَراً، ويقال: إن أَحد الملوك رَجَمَهُ لأَمْرٍ استوجب له ذلك والله أَعلم، وبهذا الموضع بيوت كثيرة للعرب يبادرون بما لديهم من مرافق الأَدَم يبيعونها على الحاج، وكان هذا المصنع مملوءاً من ماء المطر، فغمر الناس وعمّهم، وهذه المصانع والبرك والآبار والمنازل التي من بغداد إلى مكة من آثار زُبَيْدَةَ ابنة أَبي جعفر المنصور، زوج هارون الرشيد، وابنة

عَمِّهِ، انتدبت لذلك مدة حياتها، وجعلت في هذه الطريق منافع ومرافق، تَعُم وفد الله تعالى كل سنة من لدنْ وفاتِها إلى الآن، ولولا آثارها في ذلك لَمَا سُلِكَتْ هذه الطريق أثابها الله تعالى، وفي ضحوة يوم السبت بعده نزلنا بالشُّقُوق، وفيه مصنعين أَلفيناما مملوءَيْن ماءً صافياً عذباً، فأراق الناسُ مياههم وجدّدوا ملْئَهَا طيبة، واستبشروا بذلك، وأَحد هذين المصنعين صهريج عظيم الدائرة كبيرها، لا يكاد يقطعها السابح إلا عن جهد ومشقة، وكان الماءُ قد علا منه أزيد من قامتين، فتنعّم الناس في مائه سباحةً واغتسالاً وتنظيف أثواب، وكان يوم راحة من الأَسفار، ورحنا من ذلك الموضع المذكور وبتنا بموضع يعرف بالتَّنَانِير، وفيه مصنع مملوْءٌ ماءً وأَسرينا منه واجْتزنا سحراً بزبَالة، وهي قرية معمورة، وفيها قصر مشيد من قصور الأَعراب، ومصنعان للماء، وآبار، وهي من مناهل الطريق الشهيرة، ونزلنا عندما ارتفع النهار من اليوم المذكور بالهَيْثَمَيْن، وفيهما مصنعان للماء، ولا نكاد - بحمد الله - نَمُرُّ في موضع إلا والماء فيه موجود، وبتنا ليلة الاثنين الرابع والعشرين من محرم على مصنع ماء مملوءٍ، فاستقى الناس ليلاً، وهذا الموضع هُوَ دُوَيْنَ العقبة المعروفة بعقبة الشيطان، ومع الصباح من يوم الاثنين صعدنا العقبة، وليست بالطويلة الكَؤُوْد، ولكن ليس بالطريق وَعْرٌ غيرها، فهي شهيرة بهذا السبب، ونزلنا عند ارتفاع النهار على مصنعٍ دُون ماءٍ، وأجزنا مصانع كثيرة، وما فيها مصنع إلا وإِلى جانبه قَصْرٌ مَبْنِيٌّ من قصورِ الأَعراب، والطريق كلها مصانع. ثم نزلنا ضحوة يوم الثلاثاء بوَاقِصَةَ، وهي وَهْدَةٌ من الأَرض منفسحة، فيها مصانع للماء مملوءة، وقصر كبير، وبإِزائه أَثر بناءٍ، وهي معمورة بالأَعراب، وهي آخِرُ منزل من منازل الطريق وليس بعدها إلى الكوفة منهل مشهور، إلا مشارع ماءِ الفرات، ومنها إلى الكوفة ثلاثة أَيام، وبها يتلقَّى الحاجَّ كثير من أَهل الكوفة، ويجلبون إِليهم الدقيق والخبز والتمر، والأَدم والفواكه الحاضرة في ذلك الوقت، ويُهَنِّىءُ الناس بعضهم بعضاً بالسلامة، وبتنا ليلة الأَربعاء السادس والعشرين بموضع يعرف بلَوْرة، وفيها مصنع كبير، ووجده الناس مملوءاً فجددُوا الاستقاءَ، ثم أسرينا منها واجتزنا سحر يوم الأَربعاء المذكور بموضع فيه آثار بناء يعرف بالقرعة، وكان فيه أَيضاً مصنع ماء، ونزلنا ضحوة ذلك اليوم بموضع يُعرف بالمساجد، وكان فيه أَيضاً ثلاثة مصانع، واستقى الناس منها، وسقوا، وكثرت المصانع حتى كادت الكتب لا تحصرها، وبتنا ليلة الخميس بعده على مصنع عظيم مملوءٍ ماء، قال: ثم نزلنا ضحوة اليوم المذكور بمنارة القُرُون، وهي منارة في بيداء من الأَرض لا بناءَ حوله، قد قامتْ في الهواء كأَنه عمود مخروط من الآجُرِّ، تداخل

فيها من الخواتيم الآجُرِّيَّةِ مثمنة ومربعة، أَشكال بديعة، ومن غرائب أَمرها أَنها مجللة كلها قرون غزلان مثبتة فيها، وللناس في أَمرها خَبَرٌ يمنع ضَعْفُ سندهِ من إِثباته، وعلى مقربة من هذه المنارة قصر ذُو أَبراج مشيدة وبإِزائه مصنع عظيم وجد مملوءاً ماء، واجتزنا عشي يوم الخميس المذكور بالْعُذَيْبِ، وهو واد خصيب، وعليه بناء، وحوله فلاة خصيبة، فيها سرح للعيون، وفرجة وأُعْلِمْنا أَنَّ بمقربة منه بارنا (؟) ووصلنا منه إِلى الرحبة وهي بمقربة منه وفيها بناء وعمارة، ويجري الماء فيها من عين نابعة، في أَعلى القرية المذكورة، وبتنا أَمامها بمقدار فرسخ، ثم أَسرينا ليلة الجمعة الثامن والعشرين للمحرم نصف الليل، واجتزنا على القادسية وهي قرية كبيرة فيها حدائق من النخل ومشارع من ماءِ الفرات، وأَصبحنا بالنَّجَف، وهو بظهر الكوفة، كأَنه حَدٌّ بينها وبين الصحراء، وهو صلب من الأَرض منفسح، متسع للعين، فيه مواد استحسان وانشراح، ووصلنا الكوفة مع طلوع الشمس، من يوم الجمعة المذكور، وهي مدينة كبيرة عتيقة البناء، قد استولى الخراب على أَكثرها، فالغامر منها أَكثر من العامر، ومن أَسباب خرابها قبيلة خَفَاجَةَ المجاورة لها، وبناء هذه المدينة بالآجُرِّ خاصة، ولا سور لها، والجامع العتيق آخرها منها على شرقي البلد، ولا عمارة تتصل به من جهة الشرق، وهو جامع كبير، من الجانب القبلي منه خمسة أَبلطة، وفي سائر الجوانب بلاطان، وهذه البلاطات على أَعمدة من السواري الموضوعة من صُمِّ الحجارة، المنحوتة قطعة على قطعة، مفرغة بالرصاص، وهي في نهاية من الطول، متصلة بسقف المسجد، فتحار العيون في تفاوت ارتفاعها. قال: فما أَرى في الأَرض أَطول أَعمدةً منه ولا أَعلى سقفاً، ولهذا الجامع المكرم آثار كريمة منها بيت بِإِزَاء المحراب، عن يمين المستقبل القبلة، يُقال: إِنه كان مصلى إِبراهيم الخليل على نبينا وعليه أَفضل الصلاة والسلام، وعليه ستر أَسود، صوناً له، ومنه يخرج الخطيب لابساً ثياب السواد للخطبة بالناس، ويزدحمون على هذا الموضع تَبَرُّكاً به، وعلى مقربة منه مما يلي الجانب الأَيمن من القبلة محراب أَمير المؤمنين علي بن أَبي طالب، وفي ذلك الموضع ضربة الشقيِّ اللعين عبد الرحمٰن بن مُلْجِم، بالسيف، وفيه موضع مغار التنور آية نوح عليه السلام، وفي ظهره بيته الذي كان فيه، وفي ظهره بيت آخر يقال: إِنه كان متعبد إِدريس عليه السلام، ويتصل بهما فضاءٌ متصل بالجدار القبليِّ من المسجد، يقال: إِنه كان منشأً للسفينة، ومع آخر هذا الفضاء دار علي بن أَبي طالب رضي الله عنه والبيت الذي غسل فيه، ويتصل به بيت آخر يقال: إِنه كان بيتاً لابنة نوح عليه السلام، ذكر ذلك أَشياخ من أَهل البلد، وفي الجهة الشرقية من المسجد

بيت صغير، يُصْعَد إليه لقبر مسلم بن عقيل بن أَبي طالب، وهناك سقاية كبيرة من ماء الفرات فيها ثلاثة أَحواض كبار، وفي غربي المدينة على مقدار فرسخ منها المشهد المنسوب لعليٍّ بن أَبي طالب رضي الله عنه وحيث ركب ناقته وهو محمول عليها ميتاً، ويقال: إن قبره فيه مالٌ. ولم نَبِتْ بالكوفة سوى ليلة السبت، وفي غدائه رحلنا ونزلنا قريب الظهر على نهر منسوب من الفرات، والفرات من الكوفة على نحو نصف فرسخ، مما يلي الجانب الشرقي، والجانب الشرقي كله حدائق نخيل، ملتفة امتداد البصر، ورحلنا من ذلك الموضع وبتنا ليلة الأَحد سلخ المحرم بالقرب من الْحِلَّة، ثم جئنا يوم الأَحد إِلى الْحِلَّة، وهي مدينة كبيرة، عتيقة الوضع، مستطيلة، لم يبقَ فيها إِلا حَلَقٌ مستدير، وهي على شط الفرات يتصل بها من جانبها الشرقي ويمتد في طوله، ولهذه المدينة أَسواق حفيلة جامعة لمرافق المدينة، والصناعات الضرورية، وهي قويَّة العمارة كثيرة الخلق، متصلة بحدائق النخيل، داخلاً وخارجاً، فديارها بين حدائق النخيل، وأَلفيْنَا بها جسراً عظيماً، معقوداً على مراكب كبار، متصلة من الشط إِلى الشط، يحفُّ بها من جانبها سلاسل من حديد، كالأَذْرع المفتولة، عِظَماً وضخامة، مرتبطة إِلى خشب مثبتة إِلى كِلاَ الشطَّين، تدل على عظم الاستطاعة والقدرة، أَمر الخليفة بعقده على الفرات اهتماماً بالحاج، واعتناءً بسبيله، وكانوا قبل ذلك يعبرون في المراكب فوجدوا هذا الجسر قد عقده الخليفة في مغيبهم، وعبرنا الجسر ظهر يوم الأَحد المذكور، ونزلنا بشط الفرات، على مقدار فرسخ من البلد، وهذا النهر من أَغرب المياه وأَخفها، وهو كبير زخَّار، تَصْعدُ فيه السفن وتنحدر، والطريق من الحِلَّة إِلى بغداد أَحسن طريق وأَجلها، في بسائط من الأَرض وعمائر، تتصل بها القرى يميناً ويشقُّ هذه البسائط أَغصان من نهر الفرات، وللعين في هذه الطريق مَسْرح انشراح، وللنفس مراح انبساط وانفساح، والأَمن فيه متصل، ثم استهل صفر الخير ليلة الاثنين سنة ثمانين وخمس مئة ونحن على شط الفرات، بظاهر مدينة الحِلَّة، وفي ضحوة يوم الاثنين رحلنا واجتزنا جسْراً على نهر يسمى النِّيل، وهو نهر متشعب من الفرات، وكان عليه ازدحام، غرق بسببه كثير من الناس والدواب في الماء، قال: ومن مدينة الحِلَّة يتسلل الحاج أَرسالاً وأَفواجاً، فمنم المتقدم والمتوسط والمتأَخر، وحيث جاؤوا وشاؤوا في طريقهم نزلوا واستراحوا وأَراحوا، وسكنت نفوسهم من الاستعجال والقيام والرحيل، ومن جملة الدواعي لافْتراقهم كثرة القناطر المعترضة في طريقهم إِلى بغداد، فلا تكاد تمشِي مِيْلاً إِلاَّ وتجد قنطرة على نهر متفرع من الفرات، فتلك الطريق أَكثر الطرق سواقي وقناطر، وعلى أَكثرها خيام فيها رجال

يحرسون الطريق، اعتناءً من الخليفة بالحاج، وأَقام أَمير الحاج طاستكين بالْحِلَّة ثلاثة أَيام كعادة مَن تقدمه، إِلى أَن يتقدّم جميع الحاج ثم يتوجه إِلى حضرة الخليفة.

وفي عصر يوم الاثنين نزلنا بقرية تُعرف بالقنطرة، كثيرة الخصب كبيرة الساحة، متدفقة جداول الماء وارفة الظلال، بشجرات الفواكه من أَحسن الْقُرَى وأَجملها، وفيها قنطرة على فرع من فروع الفرات، كبيرة مُحْدَوْدِبَةٌ، يُصْعَدُ إِليها، وينحدر عنها، فتُعرف القرية بها، وتُعرف أَيضاً بحصن بشير، ورحلنا من القرية المذكورة سحر يوم الثلاثاء الثاني لِصفر، فنزلنا قائلين ضحوة، بقرية تُعرف بالفراش كثيرة العمارة يشقُّها الماء، حولها بسيط أخضر، جميل المنظر، قال: وقُرَى هذه الطريق من الحِلَّة إِلى بغداد على هذه الصفة من الحسن والاتساع، وفي هذه القرية التي هي حصن بشير خان كبير، محدق به جدارٌ عال، بشرفات صغار، ثم رحلنا منها ونزلنا عشي النهار بقرية تُعرف بزريران، وهذه القرية من أَحسن قرى الأَرض، وأجملها منظراً، وأَفسحها ساحة، وأَوسعها اختطاطاً، وأَكثرها بساتين ورياحين وحدائق ونخيل، وكان بها سوق تقصر عنه أَسواق المدن، وحسبك من شرف موضعها أَنَّ دجلة تسقي شرقها، والفرات يسقي غربها، وهي كالعروس بينهما، والبسائط والقرى والمزارع متصلة بين هذين النهرين الشريفين، ومن شرف هذه القرية أَنَّ بإزائها لجهة الشرق منها إِيوان كسرى، وأَمامها بيسير مَدَائِنُهُ، وهذا الإِيوان بناء عال في الهواء شديد البياض، لم يبقَ من قصوره إِلا البعض، فعايَنَّاها على مقدار الميل سامية مشرفة، وأَما المدائن فَخَرَابٌ اجتزنا عليها سحر يوم الأَربعاء ثالث صفر، فعايَنَّا من طولها واتساعها مرأًى عجيباً، وبشرق زريران مقدار نصف فرسخ مشهد سَلْمان الفارسي رضي الله عنه، والقرية على شط دجلة، وهي تعترض بين دجلة وبين المشهد الكريم المذكور. قال: وسمعنا بها أَنَّ هواء بغداد ينبت السرور في القلب، ويبعث الانبساط والأُنْس، فلا تجد فيها إِلاَّ جَذْلاَنَ طَرِباً، وإِنْ كان نازح الدار مغترباً، فلما حللنا بهذا الموضع وهو على مرحلة منها نفحتنا نوافح هوائها، ونقعنا الْغلَّةَ ببرد مائها، وأَحسسنا من نفوسنا على حال وحشة الاغتراب دواعيَ من الإِطراب، واستشعرنا بواعث فرح كأَنه فرحة الغُيَّاب بالإِياب، وهفت بنا محركات من الإِطراب أَذكرتنا معاهد الأَحباب، في ريعان الشباب، هذا للغريب النازح الوطن، فكيف للوافد فيها على أَهل وسكن؟!:

سَقى اللّهُ بَابَ الطَّاق صَوْبَ غَمَامَة وَرَدَّ إِلَــى ٱلأَوْطَـــان كـــلَّ غَـــرِيْـــبِ

قال: وفي سحر يوم الأَربعاء المذكور رحلنا من زيريران واجتزنا على مدائن

كِسْرى، وانتهينا إلى صَرْصَر، وهي أُخْت زريْرَان حسناً أَو قريباً منها، ويمر بجانبها القبليِّ نهر كبير، متفرع من الفرات، عليه جسر معقود على مراكب، تحفُّ بها من الشط سلاسل من حديد عظام، على الصِّفة التي ذكرناها في جسر الْحِلَّة، فعبرناه، واجتزنا القرية، ونزلنا قائلين، وبيننا وبين بغداد نحو ثلاثة فراسخ، وبهذه القرية سوق حفيلة، ومسجد جامع كبير جديد، وهي من القرى التي تملأُ النفوس بهجة وحسناً، وهذان النهران الجليلان دِجْلَةُ والفرات قد أَعْرَبَتْ شُهْرَتُهما عن وصفهما، وملتقاهما ما بين واسط والبصرة، ومجراهما من الشمال إلى الجنوب، ورحلنا من ذلك الموضع قبل الظهر يوم الأَربعاء، فجئنا بغداد قبل العصر، والمدخل إليها على بساتين، وبسائط يقصر الوصف عنها، فكانت مدة المسير من المدينة المنورة إلى بغداد دار السلام ستة وعشرين يوماً بالسير المعتدل، المريح للدواب والحجاج. انتهى ما ذكره صاحب هذه الرحلة وهو أَحمد بن محمد المغربي من أغرناطة، مع حذف في قليل من الأَلفاظ طلباً للاختصار.

قال العلامة ابنُ فضل الله في كتابه «المسالك»: والذي أَقوله أَنَّ طريق الحاج من جهة العراق كان قد أوحش من السالك، منذ أُخِذَتْ بغداد، وزالت الدولة العباسية وتزلزلت قواعد الخلافة، إلى أَن وقع الصلح بين السلطان الملك الناصر وبين السلطان أَبي سعيد بهادرخان بن خَرْبَنْدَهْ رحمه الله تعالى، فكتب إليه السلطان أبو سعيد يسأَله في فتح طريق العراق، وكتِبت المراسيم الناصرية إلى أُمراء آل فضل وقبائل عنين وطَيِّءٍ، وسائر العربان بأَن يفتح الطريق، ويسهل السبيل للحاج العراقي من بغداد إلى مكة المعظمة، وكتب إلى ملك العرب أَبي موسى مُهَنَّا بن عيسى فمَن دونه من أُمراء آل فَضْلٍ وسائر أمراء العربان ومشايخ القبائل على اختلاف شعوبهم وقبائلهم بهذه المقاصد، ورسم لأَمير آل فضل بأَن يجهز مع الركب العراقي بعض إِخوته يُمَاشيه من الكوفة إلى مكة المعظمة، ثم من مكة إلى الكوفة، ويتكفل بخفارته في الطرقات والمنازل، وكفِّ الأَيدي العاديَّة عنهم، فسارعوا إلى امتثاله وعملوا على حكم مثاله، فحجّ الركب العراقيُّ بخفارته تلك السنوات كلها، حتى تقضت بِوفاة السلطان أَبي سعيد، فانقطع ذلك المعروف، وتعطّل ذلك السبيل سنين، ولم يَعُدْ يحج أَحدٌ من تلك الآفاق، وسكان تلك الممالك إلا من دمشق، على ما كانوا عليه أَولاً فيسيرون في الركب الشامي تحت مَحْمَلِهِ، وسبيله المبرور، قال: ثم فُتِحَ لهم الطريق على مراد العرب، وحجُّوا بدون ذلك الزيِّ الكامل، والمعروف الشامل، وانقطعوا تارة وحجُّوا أُخرى. قلت: واستمر ذلك إلى زمن الملك الأَشرف قايِتْبَاي، في أَواخر القرن التاسع، ثم انقطعوا عن الحج لخوف سبيله، وإِلى آنِنَا لم يتكلم أَحد عند السلطان

سليمان ـ نابغة بني عثمان ـ في ترحيله، مع استيلاء ملكه على بغداد، وورود نوابه إلى تلك الأَقطار والبلاد، ولم يرد في الأَحيان إلاَّ طائفة بني جَبْرٍ، وقد يصحبها بعض العجم ببعض الأَصناف.

وفي سنة اثنتين وستين وتسع مئة في ولاية حمزة بن إسكندر لإمرة الحاج، ورد جمٌّ غفير من حاج العراق والبصرة وبغداد صحبة أَمير عليهم يسمى موسى النكرواني ابن أَخي الحاج فياض البغدادي، وكان بصحبته من القوَّاسةِ خمس مئة نفر، ومن الرماة بـ(الفتك) نحو أَربعين نفراً، وقاضٍ لأَهل الركب يسمى جمعة بن طبيب، وذكروا أَن أَمير الركب المذكور أَصرف جميع أُمور العسكر والمُهِم من ماله، ودخل مكة بعرضة لطيفة، ومعه طبل وزمر ولواء، وذكر لي بعض جماعته أَنَّ قصده أَنْ يحج في القابل بمحمل، فلم يتيسر له ذلك وسأَلت بعض خواصه عن السبب في تأْخير الحاج العراقي بالمحمل، فذكر لي أَنَّ السبب في ذلك عدم الأَمْن من الطرقات من عربان آل غزي وشخص من مفسدي العربان يدعى بابن عجل، ومن ابن حُمَيْد من عربان نجد، وانقضى من تلك السنة ذلك الركب بتلك الهيبة المذكورة إلى هذا الآن.

ذكر ما وقفت عليه من مؤلف لوزير السلطان إسماعيل ابن رسول ملك اليمن، أَلفه لأُستاذه، وهي فوائد تكون كالحاشية، في طريق الركب العراقي، لا بأْس بإيرادها هنا قال: عدد الأَميال والفراسخ والبرد والمشرفات بين الْعُذَيْب ومكة، قال: ـ اعلم أَيدك الله ـ أَنَّ البرد المنصوبة بين الْعُذَيْب ومكة سبعة وخمسون بريداً، وسبعة وخمسون مشرفاً، بين كل بريد ومشرف ستة أَميال، وهي فرسخاً (؟) من فراسخ العرب، وتشمل البادية من نخل الْعُذَيْب إلى الرأْيبين (؟) بمكة المعظمة على مئتين وعشرين فرسخاً، والمنصف تُوْز، وهو منهل وراء فَيْد بثمانية عشر ميلاً مكتوب على بابه: (هذا المنصف، فإن لم تقبل فارجع وَعُدَّ).

والمساجد والمشاهد بين الْعُذَيْب ومكة: مسجد سَعْد، ومسجد الرَّبَذَة وهي التي نُفِيَ إليها أَبو ذَرٍّ رضي الله عنه، ومسجد الحسين بن علي صلوات الله عليهما؛ وقبر الْعِبَاديِّ وليس بمشهد، وله حديث يطول.

والعقبات بينهما: عقبة واقصة، وهي عقبة إبليس، وعقبة الهردشة، وعقبة السويق، وعقبة الذباب، وعقبة الدرج.

وحبال الرمل بينهما: حبل زَرُوْد وهو أَطولها، والمربخ والفزير، والهبير، ومُضَرِّطُ البُخْت أَصعبها.

ثم قال: ولعلك تقول أيها القارىء المتصفح: إنَّ الذي شرحته مشهور متعالم، ومعروفٌ متدارك، وإنَّما يُذكر الغريب الشارد، فَما الأَمْرُ كما ذهب إليه وهمك، وزاغ فيه ظنك، فلو ترك الناس أَغراضهم من النظم والنثر، والجد والهزل اعتماداً على السابقين الأَولين لماتت الخواطر، وسقطت الهمم، ولكن لكل جديد لذة، ولكل حديث بهجة. انتهى.

قال العلامة ابن فضل الله: وأَما الطريق اليمانيُّ إلى مكة المعظمة فاعلم أَن الركب يخرج من تَعِزَّ، فينزل البئر وهي في ذيل الجبل، ويأْخذ إليها في مرحلتين ويرد ماءها.

ثم يرحل إلى وادي الحناء، ويأْخذ إليه في ثلاث مراحل ويرد ماءَهُ.

ثم يرحل إلى وادي الموز، ويأْخذ إليه في مرحلة واحدة، وهو وادٍ كثير الموز والشراب المسكر، وفيه العواهر، ويرد ماءَهُ.

ثم يرحل إلى زَبيد، ويأْخذ إليها في مرحلتين، وإنما يجيء إلى زبيد قصْداً لأَنها دار الملك، وبها يجتمع شُذَّاذُ الركب، ويتكامل.

ثم يرحل إلى حديدة زبيد، ويأْخذ إليها في مرحلتين، ويَرِدُ ماءَها.

ويرحل إلى المعازبة (؟) ويأْخذ إليها في أَربع مراحل، ويَرِدُ ماءَها.

ويرحل إلى فشال، ويأْخذ إليها في أَربع مراحل، ويَرِدُ ماءَها.

ثم يرحل إلى القَحْمَة، فيأْخذ إليها في أَربع مراحل، ويَرِدُ ماءَها.

ويرحل إلى جازان، ويأْخذ إليها في أَربع مراحل، ويَرِدُ ماءَها.

ويرحل إلى المهجم، ويأْخذ إليها في أَربع مراحل، ويَرِدُ ماءَها.

ويرحل إلى بياضة، ويأْخذ إليها في أَربع مراحل.

ويرحل إلى حَرَض فيأْخذ إليها في أَربع مراحل، ويَرِدُ ماءَها.

ويرحل إلى المحالب، ويأْخذ إليها في ست مراحل، ويَرِدُ ماءَها.

ويرحل إلى حَلِي بن يعقوب، فيأْخذ إليه في ست مراحل، ويَرِدُ ماءَه.

ويرحل إلى ترعة بني حازم، ويأْخذ إليها في أَربع مراحل، ويَرِدُ ماءَها.

ويرحل إلى مُلْتَقَى الواديَيْن، ويأْخذ إليه في أَربع مراحل، ويَرِدُ ماءَه.

ويرحل إلى الْحَسَبَة، ويأْخذ إليها في أَربع مراحل، ويَرِدُ ماءَها.

ويرحل إلى يَلَمْلَمَ، ميقات اليمن، ويأخذ إليه في مرحلتين، ويَردُ ماءَه، ويحرمون فيه ويهلُّون بالتلبية.

ويرحل الركب إلى البئر، فيأخذ إليه في أربع مراحل، ويَردُ ماءَه.

ويرحل إلى بئر علي، ويأخذ إليه في ثلاث مراحل، ويَردُ ماءَه.

ويرحل إلى مكة المشرفة، فيأخذ إليها في مرحلة واحدة. فهذه جملة ما يتعلق بطريق الركب اليماني.

وقد تمّ ما أردنا ذكره من الطرق الأربعة، ولنذكر بعض ما قيل في المنازل المصرية نظْماً، فمن ذلك للشيخ بدر الدين بن جَمَاعة:

دَعا النُّوْقَ داعِي الشَّوْق حِيْنَ دَعَاها ... فَلَبَّتْ وبَلَّتْ بالدُّمُوع خُطَاهَا

فَلا تَزْجُرَاهَا في الْمَسِيْر فَعِنْدَهَا ... مِنَ الشَّوْق مَا لَوْ خُلِّيَتْ لكَفَاهَا

نَسِيْرُ بِمَسْرَاهَا إِلَى أَرْض مَكَّة ... لِنَنْشُقَ مِنْها عَرْفَهَا وَشَذَاهَا

ونَنْهَل مِنْ تِلْك المواردِ نَهْلَةً ... فَنُطْفِي بِبَرْدِ الْمَاءِ حَرَّ جَوَاهَا

عَسَاها إِذَا جَدَّت تَجدْ رَاحَةً لها ... وتَمْحُو بحُسْن القَصْدِ قُبْحَ خَطَاها

لَقَدْ عَايَنَت في سَيْرِهَا كُلَّ شدَّةٍ ... تُكَابِدُهَا في صُبْحِهَا ومَسَاهَا

فَمن بِرْكَةِ الْحُجَّاج سَارَتْ يَحُثُّهَا ... منَ الشَّوْق حادِي الْعِيْس حِينَ حَدَاهَا

وقَدْ يَمَّمَت وَادِي الْبُوَيْب بعَزْمَةٍ ... لِتَحْمَدَ عِنْدَ الصُّبْح فِيْهِ سُرَاهَا

فَمَرَّتْ برَوْضِ الْكَبْشِ وَالزَّهْرُ ضاحكٌ ... مِنَ السُّحْب لَمَّا طَال فِيه ثَوَاهَا

مَرَاكِعُ مُوْسَى، والْمَصَانِعُ قَبْلَهَا ... أَتَتْ وَهَوَاهَا لِلسُّوَيْسِ دَعَاهَا

وَلَمَّا رَأَتْ وادِي الْقُبَاب تَبَادَرَتْ ... وَفي نَخلِ أَمْسَتْ وَطَابَ مَسَاهَا

وَفي السَّطْح أَمْسَتْ واسْتَقَرَّتْ هُنَيْهَةً ... وفي أَيْلَةَ الْفَيْحَاءِ كانَ ضُحَاهَا

إِلَى حَقْل سَارَتْ والغرام يَقُودُها ... وبَيْنَ جُرُوْفٍ ورْدُهَا ومُنَاهَا

لِوَادي عَفَان بَاشَرَتْ ثُم يَمَّمَتْ ... مَغارَ شُعَيْبٍ كَيْ يَزُوْلَ ظَمَاهَا

وقَرَّت عُيُوناً بالْعُيُونِ وَرَاجَعَتْ ... وقَدْ طَلَّقَتْ أَجْفَانُها لِكرَاهَا

ولا تَنْس وَادِي النَّبْكِ إِذْ نَزَلَتْ بهِ ... فَرَوَّتْ وسارتْ تَسْتَلِذُّ عَنَاهَا

وفي أَرْض سَلْمَى سَلَّمَتْ ثم يَمَّمت ... كَفَافَةَ تَكْفِيها شَدِيْدَ صَدَاها

وَفي أَزْلَم حَلَّتْ وَقَدْ طاب عَيْشُهَا ... وَمِنْها إِلَى ٱلإِسْطَبْل سَارَ خُطاهَا

ومِنْ بَعْدَها جاءَتْ إِلى الْوَجْه وارْتَوَتْ ... وسَارَتْ إِلَى أَكْرا وَطَابَ هَوَاهَا

وَيَا حَبَّذَا الْحَوْرَاءُ لِلرَّكْبِ مَنْزِلاً ... ومَنْ بَعْدِهِ نَبْطٌ يَفُوحُ شَذَاهَا
وفي يَنْبُع كانَ الْمَقَامُ، فَحَبَّذَا ... دِيارٌ لَعَمْرِي لا أُحِبُّ سِوَاهَا
وَأَمْسَتْ عَلَى الدَّهْنَاءِ والشَّوْقُ سَاقَهَا ... إلى نَحْوِ بَدْرٍ، والسُّرُوْرُ عَلاهَا
وَبِالْقَاعَةِ الْبَزْوَاءِ حَطَّتْ رِحَالَها ... وفي رَابغ لَبَّى الْحَجِيْجُ شِفَاهَا
وَأَرْض خُلَيْصٍ حبذَا ذَاكَ مَنْزِلاً ... بِهِ بَلَغَتْ كُلُّ النُّفُوسِ مُنَاهَا
وفي بَطْنِ مَرٍّ قَدْ نَزَلْنَا عَشِيَّةً ... وَمِنْ مكَّة لاحَتْ بُروق سَنَاهَا
وقَرَّتْ نُفُوسٌ كَانَ أَقْلَقَها النَّوَى ... وَزَالَ لَعَمْرِي بُؤْسُهَا وَشَقَاهَا
وَبَعْدَ ثَمَانٍ فَاسْتَقَلُّوا إِلَى مِنَى ... وَصَلُّوْا وَبَاتُوا سَاكِنِينَ رُبَاهَا
إِلى عَرَفَاتٍ بَعْدَ ذَاكَ تَوَجَّهُوا ... وحَطُّوْا بِهَا مُسْتَغْنِمِين دُعَاهَا
ولِلّهِ في جَمْع لَهُمْ لَيْلَة مَضَتْ ... فَمَا كَانَ أَحْلَى ذِكْرَهَا وَسَنَاهَا
فَصَلُّوْا وَسَاروا قاصِدِيْن إلى مِنَى ... وَمَا مِنْهُمْ إلا الْجِمَارَ رَمَاهَا
وضَحّوا الضَّحَايَا حَالقِيْنَ رُؤُوْسَهُمْ ... وعَادَ إِلَى تِلْكَ الْعُيُون كَرَاهَا
وبَعْدَ طَوَافِ الْبَيْتِ عَادُوا إِلَى مِنَى ... وكَمْ مِنْ أَمانٍ نَالَهُمْ بِمُنَاهَا
أَقَامُوا بِهَا مُسْتَوْطِنِيْنَ بِبَلْدَةٍ ... يَوَدُّوْنَ فِيْهَا لَوْ يَطول مَدَاهَا
وسَارُوْا إِلَى الْهَادِي وأَطْربَ سَمْعَهُمْ ... بذِكْرَاهُ حادِي العِيْس حِيْن حَدَاهَا
إلى بَدْر، عادُوا ثمَّ مِنْها تَوَجَّهُوا ... بقَصْدٍ إلى الصَّفْراءِ وقْتَ ضُحَاهَا
وَمِنْ بَعْد سَارُوا لِلْعَقِيْق وَهُمْ سَوا ... لِيَشْربَ حَيَّاهَا الْحَيَا وسَقَاهَا
هُوَ المصْطَفَى خَيْرُ الْبَرِيَّةِ أَحْمَدُ ... شَفِيْع الْوَرَى يِوْمَ الْقِيَامَةِ طٰهَ
كَفِيْلهُمُ وَالنَّارُ قَدْ أَحْدَقَتْ بِهِمْ ... فَأَوْهَى قِوَاهُمْ حَرُّهَا وَلَظَاهَا
إِلَيْكَ رسولَ الله يا مَنْ لِفَضْلِهِ ... جَمِيْعُ الْمَعَالِي كلُّهَا تَتَبَاهَى
ضيُوفٌ أَتَوْا يَبْغونَ جُوْدَكَ والْقِرى ... وحَاشَا وَكَلاً أَنْ يَخِيْبَ رَجَاهَا
مُرَادُهُمُ مِنْكَ الشَّفَاعَة في غَدٍ ... إِذَا أَسْمَعَ الداعي النُفوسَ دَعَاهَا
عَلَيْكَ صَلاَةَ اللّهِ مَا لاَحَ بَارِقٌ ... وَمَا طابَ مِنْ وَادي زَرُوْدَ صَبَاهَا
وآلِكَ والأَصْحَاب يَا خَيْرَ مُرْسَلٍ ... صَلاَةٌ يَعُمُّ السَّامِعِيْنَ نَدَاهَا

وهذه أرجوزة في أسماء المنازل المصرية أيضاً:

وهذه أرجوزةٌ وَجِيْزَهْ ... لِمَنْ غدَا في النَّظْم لا عَزيزَهْ
لأَنَّنِيْ وَجَدْتُهَا مُسَطَّرَهْ ... لَمْ يَعْزهَا لِنَاظِمٍ، مُنَكَّرَهْ

لِعَدَمِ الْبَيَانِ وَالْمَعَانِي … وَثِقَلِ الألْفَاظِ والْمَبَانِيْ
لَكِنَّنِي حَرَّرْتُها بِجُهْدِي … وَزِدتُّ فِي أَلْفَاظِهَا ما يُجْدِي
وَٱبْتَدَأَ النَّاظِمُ بِالْحَمْدِ كَما … قد قَرَّرَ الشَّارِع فِيما عُلِمَا
الحَمْدُ لله عَلَى الإحْسَانِ … مُيَسِّر الحجِّ على الإِنْسانِ
ثُمَّ الصَّلاَةُ مِنْ إِلٰهِ الْعَرْشِ … عَلَى النَّبِيِّ الهاشِمِيِّ القُرَشِي
مُحَمَّد المَبْعُوثِ من نَسْلِ مُضَرْ … أَفْضَلِ مَنْ لَبَّى وحَجَّ واعْتَمَرْ
وَآلِهِ وصَحْبِهِ ذَوِي الْعُلَى … مَا لاَحَ نَجْمٌ في السَّمَا أَوْ أَفَلاَ
وبَعْدُ فَاسْمَعْ عِدَّةَ المَنازِل … وَذِكْرَ ما فِيها مِنَ المَنَاهِل
أَوَّلُهَا فَبِرْكَةُ الْحُجَّاج … وأَرْضُهَا واسِعَةُ الفِجَاج
فَوَدِّعِ الأَهْلَ بِهَا عَشِيَّهْ … وَلِلْبُوَيْبِ اعْزِمْ بِصِدْقِ نِيَّهْ
مِنْها الطُّلَيْحَات وبَعْدُ الْمَفْرَحُ … فَامْشُوا إِلى أَرْضِ المقَاتِ وامْرَحُوا
وادخلْ إِلى عُجْرُودَ فيها تَلْتَقِي … مَاءً كَثِيراً يا أُخَيَّ فَاسْتَقِ
والماءُ في أَرْضِ السُّوَيْس قَدْ عُرِفْ … إِذَا رَحَلْتَ مِنْهُ بِتَّ الْمُنْصَرِفْ
وإِنْ أَتَيْتَ وادِيَ القِبَابِ … مِنْ بُكْرَةِ النَّهار بالأَصْحَاب
فَسِرْ ولاَ تَقْعُدْ بِقَدْرِ ذرَّهْ … وبِتْ مَعَ الرَّكْبِ بِرأس الثُّقْرَهْ
والرَّكْبُ إِنْ حُمِّلَ نِصْفَ اللَّيْل … يَقْطَعُ في ذَا السَّيْر رَحْلَتَيْن
فَسِرْ بِأَرْضِ التِّيْهِ سَيْراً مُعْتَدِلْ … تَشرب للماءِ الزُّلاَل مِنْ نَخَلْ
فَهْيَ إِذَنْ مَنْزِلَةٌ ضَوِيَّهْ (؟) … وسُوقُها أَجْبَانُهُ مَقْلِيَّه (؟)
لَكِنَّ فِيْهَا الْبَرْدُ يا فلان … تَهْتَزُّ مِنْ شِدَّتِهِ الأَبْدَان
وَكَمْ بِهَا مِنْ كُلِّ لِصٍّ سَارِق … يَضْرِبُ بِالْعَصَا عَلَى الْمَرَافِق
وأَرْحَلْ إِذَنْ مِنْها إِلَى الْفَيْحَاءِ … وبَعْدَهَا الآبَارُ لِلْعَلاَءِ
وبَعْدَ ذا عُرْقُوب رِجْلِ الْبَغْلَةِ … مِنْ بَعْدِها تأتي الجِفارات الَّتِي
تُعْرَفُ أُخْرَاهَا بِسَطْحِ أَيْلَهْ … يَبِيْتُ فِيْها الرَّكْبُ فَرْدَ لَيْلَهْ
وإِنْ نَزَلْتَ يا أَخي لِلْعَقَبَهْ … فلاَ تَسِرْ بِغَيْرِ مَاءٍ تَشْرَبُهْ
في زَمَنِ الْقَيْظِ وَفِي الضَّحويه (؟) … فإِنَّها أَخْبَارُهَا مَرْوِيَّهْ
فَدَرْبُها صَعْبٌ عَلَى الجِمَالِ … فِيْهِ النِّسَا تَمْشِي مَعَ الرِّجَال
واد بِهَا فَأَرضُهُ بَعِيْدَهْ … والخَلْق فِيْ أَجْنَابِها مَمْدُودَهْ
وَكُلُّ إِنْسَانٍ غَدَا يَقُولُ: … مِنَ الْمَسِيْر مَضْنِيْ النُّحُوْل

يقسم من غدتْ قواه تعبهْ تَاللّهِ مَا أطْولَهَا مِنْ سَلَبهْ

وذا يَقولُ: لَيْتَنِي لَمْ أُوْلَدْ وذَا يَظُنُّ أنَّ فِيْهَا يَخْلُدْ

وذَا يَقُولُ لَيْسَ مِنْهَا طَالِعْ كأنَّ فِيْهَا النَّارُ وَالْمَقَامِعْ

فَهِي إِذَنْ تُشْبِهُ يَوْمَ الْحَشْرِ والنَّاسُ مِنْ أَهْوَالِها فِي ذُعْرِ

مَا فِي طَرِيْقِ الحجِّ قطُّ مثلُها وَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا شَبِيْهٌ شَكْلُهَا

مَنْزَلَةٌ مَضْبُوطةٌ أيَّامُهَا لا تَخْتَلِفْ قَطُّ عَلَى أَعْوَامِهَا (؟)

وَإنْ نَزَلْتَ لِلْمَنَاخِ فاحْتَرِزْ مِنَ الْحُوَيْطَاتِ وكُنْ صَبًّا فَرِزْ؟

فَإِنَّهُمْ مِنْ أَخْبَثِ اللِّئَامِ أَهْلُ أذى عَلَى مَدَى الأَيَّامِ

جِهَادُهُمْ أَعْظَمُ عِنْدَ الله مع الْفِرَنْجِ يَا عَلِيَّ الْجَاهِ

مَنَاخُها أَخْبَثُ أرْضٍ في الدَّرَكْ في كُلِّ وَقْت يَقْصُدُوْن الْمُعْتَرَكْ

وماؤهَا كَالنِّيْل في التَّشْبِيْهِ مَا فِيهِ مِنْ شَكٍّ وَلاَ تَمْوِيْهِ

إِذَا حَفَرْتَ مِنْ جَنِيْبِ الْبَحْرِ مِقْدَارَ شِبْرٍ صَار مَاءً يَجْرِي

وَهُو عَلَى التَّقْدِيْر رُبْعُ الدَّرْب مَعْلُومُ هٰذَا عِنْدَ أَهْلِ الرَّكْب

فِي رَابعِ الأَيَّامِ مِنْهَا تَرْحَلُ قَصْداً لِبَيْتِ اللّهِ يَا مُفَضَّلُ

يَا مَا تَرَى فِي حَقْلَ مِنْ تَغْلِيْبِ وَاطْلعْ إِلَى الْجُزْفَيْنِ مِنْ قَرِيْبِ

مِنَ قَبْلِهِ ظَهْرُ الْحمارِ فَاتَّئِدْ فَهْوَ صُعُودٌ مُوْعِرٌ صَعْبٌ نَكِدْ

ثُمَّ مِنَ الْجُزْفَيْنِ تَأْتِي الشَّرَفَهْ ثُمَّ الْقُوَيْعاتِ تَلِيْهَا بِالصِّفَهْ

فَإِنَّهَا عِنْدَ الْمُرُوْر تذْكَرُ وَلَمْ تَكُنْ مَنْزِلَةً تَشْتَهِرُ

وفي الْمِظَلَّةِ الْمُعَشَّا يَحْصُل لُصُوصُهَا وَارِدَةٌ يَا رَجُل

وَادِيْ عَفَانٍ بَعْدَهُ الْمَغَارَهْ قَبْرُ الطَّوَاشي بَعْدُ بالإِشَارَهْ

وَأرْضُهُ بِأمِّ رُحَيْمٍ تَشْتَهِرْ ثَالِثَةُ الأَدْرَاك فَافْهَمِ الأَثَرْ

ثم الْعُيُون ويليها الشَّرْمَهْ عَسَاكَ تَفْهَم ما تريْدُ فَهْمَهْ

وبَعْدَهَا تَنْزل في الْمُوَيْلِحَهْ يَا رَبِّ أَصْلِحْ مَاءَهَا مَا أَمْلَحَهْ

وَوَسْمُهَا بالنَّبْكِ أَيْضاً يُذْكَرُ ومَنْ بَنَى خَاناً بها يَفْتَخِرُ

وتقطع [... ... ...[1] ... ...] فإنَّها مشقة من الوعر

وتَنْزل الْقَسْطَلَ ثمَّ بَعْدَهُ شَقّ الْعَجُوز في نِهارٍ قَصْدَهْ

---

(١) غير مقروء في الأصل.

يَسِيْرُ فيه الركْبُ بالنَّهَار　　　وَفِي ألإِيَابِ سَاعَةَ الأَسْحَارِ
كفافَةٌ فَمَاؤهَا غَزِيْرُ　　　وَدَامَةٌ سَلْمَا لَهَا تَزوْرُ
ألأزْلَمُ المشهورُ فيما حَكَمُوا　　　نصْف الطَّرِيْق هَكَذَا قَدْ قَسَمُوا
وأدخلْ لوادي عَنْتَرٍ تَرَى بهْ　　　مِن قَبْلِهِ سَمَاوَة تغشى بهْ
وأرْحَلْ مِنَ الاسْطَبْل لِلشُّرْنُبَهْ　　　والْعَلَمُ السَّعْدِي إِلَيْها نِسْبَهْ
أَرَاكَ في الْوَجْهِ مَعَ النَّهْدَيْن　　　مِنْ أَكْرَة تَبْكِي بدَمْع الْعَيْن
فإنْ يَسِيْل الْوَجْهُ فَالرِّيُّ عَجَبْ　　　وإنْ يَكنْ ما حلَ فاحْذَر الْعَطَبْ
ومَفْرشُ النَّعَام لاَ تَنْسَاهُ　　　مِنْ قَبْل أَكْرَةٍ يَكنْ مَمْشَاهُ
وَإن تُرِدْ تحفُ بالْمَسَرَّهْ　　　فَاضْرَعْ وَقلْ: رَبِّ أَصْلِحْ مَا أَكْرَهْ
آخر أَدْرَاك بَلِيٌّ إِنْ تَسَلْ　　　ومَاؤهَا فَلِلْبُطُوْن يُسْهِل
تَسِيْرُ منْهَا تَأْتِ بيرَ الْقَرَوي　　　والْحَنَكُ الْمَشْهُورُ فيما قدْ رُوي
وادْخُلْ إلى حُرَيْرَةٍ مُنْبَسِطا　　　تَأْتِيْكَ أَهْلُ يَنْبُع لِمَنْ سَطَا
مِنْ سارق بخَيْلِهَا مُلاَقِيَهْ　　　لدرك من كل لص وَاقِيَهْ
لِحَوْرَةِ جُزْ وَالْعَقِيْقَ فَاقْطَع　　　مِنْ مَاءِ نَبْطٍ فَانْبَسِطْ واشْرَبْ وَعِي
ثم الطَّرَاطِيْرُ الَّتي لِلرَّاعِي　　　في وَادِيَ النَّار تَرَى الأَفَاعِي
مِنْ بَعْدِهِ لِلْوَغر جُزْ تَلْقَى الْهَنَا　　　يَا رَبِّ بَلِّغْنَا وَجَمِّعْ شَمْلَنَا
يَسْتَروحُ الركْبُ بدَارَيْن الْبَقَرْ　　　وأدخلْ إِلَى يَنْبُعَ والْمَا والشَّجَرْ
فَأَرْضهُ مُخْضَرةٌ ويَانِعَهْ　　　أغْيُنُهَا جارِيَةٌ ونَابِعَهْ
وَهْوَ عَلَى مَا حَرَّرَتْهُ الْقُدَمَا　　　النِّصْفُ والرُّبْعُ وهَذَا عُلِمَا
وبَعْدَهُ تَدْنُوْ لَهُ الدَّهْنَاءُ　　　وَوَاسِطُ الْكَثِيْرَةُ الأَضْواء
فِيْ وَاسِط لِلشَّمْع كُنْ مُحابي　　　فَبَدْرُ فِيهَا نُضْرَةُ ألأَحْبَاب
وَعَدُّهَا لِعَالِج وَالْبَزْوَهْ　　　مِنْهُ إِلَى وَدَّانَ قَدْرُ سَرْوَهْ
وادْخُلْ إِلَى رَابغَ مَسْروراً فَرِحْ　　　وانْو لإِحْرَام هُنَاكَ وانْطَرِحْ
وخُذْ عَلَى الْجُحْفَةِ ميقات وَرَدْ　　　ثمَّ الجُرَيْنَات تلِيها بالْعَدَدْ
ثم قُدَيْدُ بَعْدُ يَا رَفِيْقي　　　من بَعْدِها تَرْقى إلى السويقِ
وفي خُلَيْصٍ سِرْ وَلاَ تُعَرِّج　　　مِنْ بَعْدِهَا تَأْتِيْ إلى الْمُدَرَّج
مِنْهُ إِلَى عُسْفَانَ ثُمَّ الْمُنْحَنَى　　　وبَطْن مَرٍّ بَعْدَهَا نَيْلُ الْمُنَى
تَسِيْرُ تَلْقَى مَسْجدَ الميمونَهْ　　　خَيْر النِّسَاءِ أُمِّنَا المصونَهْ

وبَعْدَهُ المَسَاجِدُ المشهورهْ … لأُمِّنَا عَائِشَةَ المذكُورَهْ

فَطِبْ إِذَنْ نَفْساً وقَرَّ يا أَخي … عَيْناً وتَأْتِيْ في سبيل الْجَوْخي

بمكة يفرحُ قَلْبُ المنكسِرْ … فكُلُّ مكْسُوْرٍ هُنَاك يَنْجَبِرْ

وَفِيْ مِنَى تُعْطى الْمُنَى ثُمَّ الأَمَلْ … لاَ سِيَّما عنْدَ الْوُقُوف بالْجَبَلْ

وَكُلُّ ذَنْبٍ لِلْعبَاد يُغْفَرُ … وعنْدَمَا الشَّمْسُ تغيبُ يُنْفَر

إِذَا رَحَلْتَ مُسْرعاً مِنْ عَرَفَهْ … فَاجْمَعْ حَصَا الْجمَار منْ مُزْدَلفَهْ

في المشْعَرِ الحرام صَلِّ الصُّبْحا … وَفي منَى للْهَدْي اعْمَدْ ذَبْحَا

واهْرَعْ إِلَى مكةَ للطَّواف … لأَنَّهُ فَرْضٌ بلا خِلاَف

وَفعْلُهُ رُكْنٌ مِنَ الأَرْكَانِ … فَانْهَضْ إِلَيْه وَدَعِ التَّوانِيْ

ويَرْجعونَ منْ منَى يُقيْموا … لَيَالياً يَا لَيْتَهَا تَدُوْمُ

لكنّها تَمْضي عَلَى لَمْح الْبَصَرْ … وَالْقَلْبُ منْ فرَاقهَا قَد انْكَسَرْ

وآخر الأَمر الوداع فاستمع … فَطُفح طَوَافَهُ وَسَافرْ تنْتَفعْ

وَارْحَلْ لقَبْر أَشْرَف الْبَريَّهْ … مُحَمَّدٍ أَزْكَى الْوَرَى ذُرِّيَّهْ

منْ أَرْض بَدْرٍ فَاسْتَمِعْ مَا يُجْرَى … يُعَرِّجُوْنَ في طَرِيْق الصَّفْرَا

وَتَرْتَحِلْ مِنْهَا إِلى الْجُدَيِّدَهْ … مِنْ بَعْدِهَا لِلْخَيْفَ سَيْراً رَيِّدَهْ

وزُرْ مَكَاناً جَاءَتِ الْغَزَالَهْ … لأَحْمَد خَيْر الْوَرَى مِثَالَهْ

إِيَّاكَ مِنْ خَيْف بني سالم إِنْ … أَتَيْتَه مِنْ حلْبص لاَ تَطْمَئِنْ

وكُنْ لَهُ الضَّاربَ بالْحُسَام … تَراهُ كَالْعِفْرِيْتِ فِي الظَّلاَم

فَدَاوم السَّيْرَ لِتَلْقَى رَشَدَا … مِنْ بَعْدِهَا تَأْتيَ قُبُوْرَ الشُّهَدَا

وَادِي الْعَقِيق بَعْدَهُ قَدْ شُهرَا … مِنْ قَبْلِهِ مُفَرَّح عَرِّجْ تَرَى

وَاقْصُدْ رَسُولَ الله خَيْرَ مُرْسَل … إِذَا وَصَلْتَ نَحْوَ آبَار عَلِي

واقْر السَّلاَمَ أَشْرَفَ الْعِبَادِ … بِطَيْبَةٍ خَيْر نَبيٍّ هَادِي

مُحَمدٌ الْمَبْعُوْثِ مِنْ تِهَامَهْ … مِنْ بَيْن كِتْفَيْهِ الكِرام شَامَهْ

صلَّى عليه اللّهُ ذُو الجلالِ … وْالآلِ والأَصحابِ ذِي الأَفْضَالِ

مَا نَاحَ طَيْرٌ فوقَ أَوْرَاقِ الشَّجَرْ … وغَرَّدَ القِمْرِيُّ شَجْواً في السَّحَر

* * *

الفصل الثالث

في ذكر الأَدْراك وطوائف العربان، منزلاً بمنزل، ومنهلاً بمنهل، وإِيراد ما يفتح الله به من معنى اسم تلك المنزلة، وما فيها من المياه وصفتها، وما فيها من المخَارِس، والمياه القريبة منها غير موارد الحاج التي تتوارد عليها العربان وما يقرب من حِسْمَا، واختلاف ما ورد في أَسماء بعض المنازل كَحَذْرَةِ دَامَةَ وأَم الْبُسَيْس، وما قيل في كل منزلة من الشعر، إِن تَيَسَّرَ، وصفة النزول والرحيل، ومدة الإِقامة بالدار، وفي كَمْ درجة، وإِيراد بعض الوقائع الواردة في بعض المحلات، وما فيها من تجديد عمارة أَوْ فِسْقِيَّة أَو صالح مدفون، وترجمته، وترجمة المعمر إِن تَيَسَّر، وإِيراد ما تيسر من معنى اسم تلك المنزلة، والسبب في تسميتها كَبَدْرِ وَحُنَيْنِ، فنقول:

هذا الباب عقدناه لمقاصد مهمات: معرفة المنازل والمراحل، وحدود الأَدراك بالطرقات ذهاباً، وإِياباً، ومقدار مدة الرحلة، وفي كم درجة، ومدة الإِقامة بالدار، وفي كم درجة، والتنبيه على فوائد ومقاصد، وأَسماءِ الْبَدَنَات من طوائف العربان، وغير ذلك، مما لا يوجد ـ بعون الله ـ في غير هذا المؤلَّفِ بهذه الطريقة. ومَنْ طالع كتابنا فقد كشف له ما كان مُغيَّباً عنه فرآه بعين الحقيقة. وإِنْ مَنَّ الله بالفسحة في الأَجل، ويَسَّرع الفراغ من اشتغال يكُفُّ عن العمل، نَظَمْتُ المنازل والمراحل، وجَلَوْتُ أَبياتها بشذرات ينشرح لها صدر الأَمل، فلنذكر ما تَيَسَّر نثراً، ونضرع إِلى الله في الإِمداد والتيسير سرًّا وجهراً.

اعلَمْ وفقك الله لطاعته أَن الدرب المصري ينقسم إِلى أَرباع ومناهل ومنازل، فأَرْباعه ذهاباً وإِياباً تِسعةٌ بما فيه مسافة طريق المدينة الشريفة إِلى الينبع، وتسمَّى عند العامة بالدَّوْرَةِ، ومُدَّتُها في مقدار رُبْع.

والمناهل تارةً تكون مناهل الأَرباع وهي الكبرى، وتارة تكون عبارة عن موارد المياه بالطريق، وهي دون ذلك، وسَتَقِفُ على ذلك جميعه مفصلاً.

وقد ضَبَط هذه المنازل بعض المتقدمين، وهو الشيخ العلامة مُحِبُّ الدين بن العطار في سنة ست وستين وثمان مئة في عدة وُرَيْقَات مختصرة إِلى الغاية، فجعل منازل الطَّلعة بمناهلها فقط معدودة على الأَربعة أَرباع ثمانية وخمسين منزلةً، وجملة الساعات لمسافة الطلعة على المنازل المذكورة أَربع مئة وأَربعة وخمسون ساعة ومثلها بالرجعة، وجملة ساعات الدَّوْرَةِ ثلاثة وتسعون ساعة، فيكون جملة ما ذكر من الساعات على الدرب المصري ذهاباً وإِياباً أَلف ساعةٍ وساعةٍ.

وتفصيل ما ذكره الشيخ محبُّ الدين لِلأَرْباع:

الرُّبْعُ الأَوَّلُ: من صحراء القاهرة الْمُعِزِّيَّةِ خمس عشرة منزلة، ساعاته مئة وإِحدى وعشرون ساعة.

الربع الثاني: من عقبة أَيْلَةَ ثلاث عشرة منزلة، أَوْ أربع عشرة، ساعاته ثمان وتسعون.

الربع الثالث: وابتداؤه من الأَزْلَم، ست عشرة منزلة، ساعاته مئة وإِحدى وثلاثون ساعة.

الربع الرابع: وهو من الينبع إِلى مكة المشرفة، أربع عشرة منزلة، ساعاته مئة وأَربع ساعات.

وأَما الدورة فَمَجموع ساعاتها ثلاث وتسعون ساعة، فمجموع ذلك أَلف ساعة وساعة كما ذكرنا، مع أَنَّ سير الجِمال يزيد وينقص، فيكون ذلك تقريباً لا تحديداً، هذا ما حرره الشيخ محب الدين.

وأَما ما حَرَّرْتُهُ في سنة خمس وخمسين وتسع مئة بمنكابين مُحَرَّرَيْن الأَول على يد الشيخ محمد أَبي شعرة الميقاتي. والثاني على يد المَقَرِّ العالي مصطفى باشا زبيد سابقاً، وأَمير الحاج في تلك السنة، وتحرير ذلك ذهاباً وإِياباً مع المقابلة بين المناكيب، وعمل الفكرة في التحرير وضبط ذلك صباحاً ومساءً، فكان ما حررته ذهاباً وإِياباً بما فيه طريق المدينة الشريفة على ما أَذكره مبيناً.

أَما الطلعة فأَربعة أَرباع، ساعاتها أَربع مئة وأَربعة وعشرون ساعة وثلثان من ساعة، ومنازلها أَربعة وخمسون منزلة لا غير، عن ذلك بحكم الدرج ستة آلاف وسبع مئة وسبعون درجة، وفي الرجعة مثلها.

وأَما طريق الزيارة المسماة بالدورة، فساعاتها إِحدى وثمانون ساعة، منها مسافة الطلعة تسع وثلاثون ساعة وثلث، ومسافاتها بالرجعة اثنتان وأَربعون ساعة، فكان جملة الساعات بالدرب المصري ذهاباً وإِياباً بما فيه الدورة تسع مئة وثلاثين ساعة، وجملتها بالاختصار ذهاباً وإِياباً: المنازل بالطلعة أَربع وخمسون منزلة، وهي:

الأُولى: من القاهرة إِلى البركة، ومقدارها خمس وسبعون درجة.

الثانية: بالقرب من الْبُوَيْب خمسون درجة.

الثالثة: الدار الحمراء درجها خمس وسبعون.

الرابعة: مَقْرح عويبد، درجها مئة وستون.

الخامسة: عُجْرُود، درجها: مئة وخمسة.

السادسة: المنصرف ودرجها مئة وأَربعون.

السابعة: وادي القباب، درجها مئة وعشر.

الثامنة: ثغرة حامد، درجها خمس وخمسون.

التاسعة: رأس التنِّيْهِ، درجها خمس وستون.

العاشرة: بالتِّيْهِ، درجها مئة.

الحادية عشرة: نَخْل، ودرجها مئة وخمسون.

الثانية عشر: الفيحا، درجها سبعون.

الثالثة عشر: آبار العلائي درجها مئة وخمسون.

الرابعة عشر: الْمُنَيْدِرة، درجها خمس وتسعون.

الخامسة عشر: السَّطْح، درجها مئة وثمانون.

السادسة عشر: مناخ الْعَقَبَة، درجها مئة وخمسة، وقد تمّ الرُّبْعُ الأَول.

السابعة عشر أول الربع الثاني: ظَهْرُ الْحِمار: مئة درجة.

الثامنة عشر: وادي عَفَان، درجها مئتان وستون درجة على غير عادة.

التاسعة عشر: الْمظَلَّة، درجها تسعون.

العشرون: مغارة شُعَيْبٍ، درجها مئة وثلاثون وعادتها في غير هذه السنة دون ذلك.

الحادية والعشرون: قَبر الطَّوَاشِي ودرجها سبعون درجة.

الثانية والعشرون: عُيُون الْقَصَب، ودرجها مئة وستون.

الثالثة والعشرون: الشُّرْمَةُ، وهي خمس وسبعون درجة.

الرابعة والعشرون: الْمُوَيْلح وهي مئة وأربعون.

الخامسة والعشرون: دار السلطان، وهي مئة وخمس وعشرون.

السادسة والعشرون: سيدي مَرْزُوق، وهي مئة وعشر.

السابعة والعشرون: ألأَزْلم، وهي مئة وسبعون درجة، وهي آخر الربع الثاني ومراحله إِحدى عشرة مرحلة وأَول الثالث.

الثامنة والعشرون: تَلْبَةُ، وهي مئة وستون درجة.

التاسعة والعشرون: الشُّرُنْبَةُ، وهي مئة درجة.

الثلاثون: بقرب الْوَجْهِ، عند عدم الماء به، وهي مئة وأَربعون.

الحادية والثلاثون: مَفْرَشُ النَّعَامِ، وهي مئة وخمس درج.

الثانية والثلاثون: أَكْرَه، وهي مئة وثمانون درجة.

الثالثة والثلاثون: بِئْرُ الْقَرَوِي وهي مئة وثلاثون.

الرابعة والثلاثون: حربان، وهي مئة وسبعون درجة.

الخامسة والثلاثون: الْحَوْرَاءُ، وهي مئة درجة.

السادسة والثلاثون: صُحَيْنُ الْمَرْمَرِ، وهي مئة وثلاثون.

السابعة والثلاثون: نَبْطُ، وهي مئة وثلاث درج.

الثامنة والثلاثون: وَادِي النَّار، وهي مئة وخمس.

التاسعة والثلاثون: الْوَعْرَاتُ، وهي مئة وخمسون درجة.

الأَربعون: جَبَلُ تَمَا، وهي خمس وتسعون درجة.

الحادية والأَربعون: الينبع، وهي خمس وخمسون درجة، وهو آخر الربع الثالث، مراحله أَربع عشرة مرحلة.

الثانية والأَربعون: آخر الْمَحَاطِب، وهي أَول الربع الرابع مئة وثلاثون درجة.

الثالثة والأَربعون: واسط، خمس وتسعون درجة.

الرابعة والأَربعون: بَدْرٌ، تسعون درجة.

الخامسة والأَربعون: قاع الْبَزْوَة، مئة وعشرة درج.

السادسة والأَربعون: الْقَاعُ الكبير، مئة وأَربع وخمسون درجة.

السابعة والأَربعون: البُسْتان، وهو مئة وعشرة درج.

الثامنة والأَربعون: رَابغ، مئة وخمس درج.

التاسعة والأَربعون: الْجُرَيْنَاتُ، وهي مئة درجة.

الخمسون: طارفُ قُدَيْد، وهي مئة وخمسون درجة.

الحادية والخمسون: خُلَيْصُ، وهي سبعون درجة.

الثانية والخمسون: جبل الْمُنْحَنَى، وهي مئة وعشرون درجة.

الرابعة والخمسون: وادي الزَّاهر ـ ويعرف الآن بسبيل الْجوخي ـ وهي مئة وخمسون درجة، عنها ساعات أَربع مئة وأَربعة وعشرون وثلثان من ساعة.

وأما الزيارة المعروفة طرقها بالدَّوْرَة: من بَدْرٍ إلى المدينة المنورة ـ على ساكنها أَفضل الصلاة والسلام ـ رحلاتٌ عدتها خمس، درجها خمس مئة وأَربعون درجة، ساعاتها تسع وثلاثون وثلث من ساعة، **الأُولى**: مِنْ بَدْرٍ إلى الصفراء، تسعون درجة، **الثانية**: الْجُدَيِّدَة، ثمانون درجة، **الثالثة**: فِسْقِيَّةُ طَازْ، مئة وعشرون درجة، **الرابعة**: مَلَل مئة وأربعون، **الخامسة**: المدينة مئة وستون درجة.

وأَمَّا من المدينة المنورة إلى الْجُدَيِّدَة، درج عدتها أَربع مئة وخمس عشرة، ساعات، سبع وعشرون وثلثان من ساعة، ومن الْجُدَيِّدَة إلى فِسقِيَّة مرسلة خمس وستون درجة، ومنها إلى رملة بني نحو (؟) مئة وخمس وثلاثون درجة، ومنها إلى آخر الرمل مئة وعشرون درجة، ومنه إلى الينبع خمس وأَربعون، فجملة ساعات رُبْع الدورة إِحدى وثمانون ساعة وثلث.

ومسافة الرَّجعة كالطَّلْعَة، ساعاتها أَربع مئة وأَربع وعشرون وثلثان من ساعة فيكون مسافة السفر بالدرب الشريف المصري ذهاباً وإِياباً ساعات عدتها سبع مئة وثلاثون وثلثان من ساعة.

وأَما تقسيم الأَرباع ـ على أَن في بعض المراحل تُجْعَل الاثنتان واحدة ـ فهي ما نذكره:

الربع الأَول: من صحراء القاهرة إلى عقبة أَيْلَة، وهو قليل الماء والشجر، مراحله ست عشرة مرحلة، ساعاته مئة واثنتا عشرة ساعة وثلث من ساعة، يكون عن ذلك بحكم الدَّرج أَلف وست مئة وخمسة وثمانون درجة.

الربع الثاني ـ وهو أَقصر الأَرباع ـ: إِحدى عشرة منزلة وهو أَكْثر مياه من الذي قبله، وشجره كثير إلى الغاية، ساعاته خمس وتسعون وثلث من ساعة، عنها بحكم الدَّرج أَلف، وأَربع مئة وثلاثون درجة.

الربع الثالث: وهو من الأَرباع المعطشة إِن لم يكن بالوجه ماء، وأَطولها وأَوحشها، مراحله أَربع عشرة مرحلة، ساعاته مئة وخمس عشرة ساعة، عنها أَلف وسبع مئة وخمس وعشرون درجة.

الربع الرابع: لطيف مأنوس، مراحله ثلاث عشرة مرحلة، ساعاته مئة واثنتان، عنها أَلف وخمس مئة وثلاثون درجة.

وأَما الدورة فإحدى وثمانون ساعة وثلث كما ذكرنا، ما هو مسافة الطلعة من بَدْر وحُنَيْنٍ تسع وثلاثون ساعة وثلث، والمسافة من المدينة إلى الْجُدَيِّدَة سبع عشرة ساعة وثلثان، ومن الْجُدَيِّدَة إلى الينبع أَربع وعشرون ساعة وثلث.

فقد عرفت أَن ما حررناه ينقص عن تحرير الشيخ محب الدين العطار سبعون ساعة وثلث، فقد تبيّن أَن ما كتبناه وحررناه أَضْبط في التحرير، وأَفصح في التقرير، وأَصح وأَوضح للماهر النِّحْرير، وسنذكر ذلك مفصلاً مُبَيَّناً محلاً بمحل، مع فوائد هي في هذا الباب كالفرائد، وفوائد لتحلية هذه المنازل كالقلائد، فنقول:

الربع الأَول: من صحراء القاهرة إلى مناخ عقبة أَيْلَة، منازله ست عشرة منزلة، ساعاته مئة واثنتا عشرة ساعة وثلث، عنها أَلف وست مئة وخمس وثمانون درجة وهو ربع طويل قليل الماء والشجر، ومسافته ثمانية أَيام، والتاسع في مناخ أَيْلَة، فينبغي أَن يُعْتَنى فيه بِخِفَّةِ الحمل عن الجِمال، وحسن التعقيب وضبطه، والرفق بالسير، وذلك لأَنَّ الجِمال على ابتداء سيرها مثقلة باللحم والشحم، فإذا ثَقُلَتْ بالْحَمْل أَيضاً ولم يُرْفَقْ بها في السير مع قلة الماء في هذا الربع، كان ذلك سبباً لهلاكها، خصوصاً في أَول سيرها من البِرْكَة إلى منزلة عُجْرُود، على غير تعقيب ولا ترتيب وفي رمل الْمُنْصَرَف فليتنبه لذلك.

والذي كان عليه المتقدمون في اليوم المعيَّن لخروج المحمل من القاهرة إلى الرَّيْدَانِيَّة ثم إلى بِرْكة الحاج هو اليوم الثامن عشر من شهر شوال، ثم إِنَّ بعض أُمراء الحاج لم يوافق سفره يوم من الأَيام التي لا يحب ابتداء السفر فيه لعلة الأَيام، فيجعل ذلك يوم التاسع عشر وهو نادر، ومقدار المسير إلى البركة من صحراء القاهرة - ومَبْدَأُها الباب والخان الذي أَنْشأَه داود باشا - خمس ساعات، وكانوا في القديم يخرج المحمل من القاهرة بزينة فينزل بالمَحَلِّ المعروف بالرَّيْدَانِيَّة يقيم به يوماً وليلة، ثم يرحل إلى البركة، فبطل ذلك قديماً، واستمر أَمير الركب من حين خروجه من القاهرة لا ينزل إلا بالبركة، وطريقها فضاء، وحصباء ورمل.

وبالبركة نخلٌ كثيرٌ، وبعض سُكَّانٍ وبيوتٍ، بجوار زاوية الشيخ الصالح المعتقد إِبراهيم المتبولي، وبها فسقيَّةٌ قديمة للماء، عمرها عظيم الدولة في زمن الملك المؤيَّد والملك الأَشرف برسباي، هو عبد الباسط بن خليل الدمشقيُّ، وابتدأَ في عمارة ذلك

في شهر شوال سنة ثمان وعشرين وثمان مئة، وأَنشأَ بجانبها بئراً وبستاناً، ثم استجدّ المقامُ العالي داود باشا ـ تغمّده الله برحمته ـ بالبركة في نَيِّف وخمسين وتسع مئة حوضاً يشتمل على محراب للصلاة ومعرفة القبلة، ولواوين يجلس عليها المسافرون للاستراحة من التعب، في ضمن عمارة عالية يراها المسافر من بُعْد، أَحْسَنَ في عمارة ذلك ما شاء، وحصل به نفع كبير ـ أثابه الله تعالى ـ وذكر لي صاحبنا الخوليُّ زين الدين بالسواقي السلطانية أَنَّ أَصل هذا الحوض بئر كان اشتراها الخوليُّ زين الدين بن شهاب الدين بن علي المذكور، يقال إِن أَصْلَهُم من المغرب، وأَنشأَ بجانبها بئراً أُخرى، وحوضاً كبيراً طوله ستة وسبعون ذراعاً، وجعل بجانب ذلك بستاناً وسبيلاً، فمرّ داود باشا على ذلك الحوض والبئرَيْنِ، في بعض مُنْتَزَهاته، فرأَى قافلةً وردت من السويس تستقي من الحوض، وكان الوقت حارًّا فطلب ماءً من السبيل فشرب منه، وأُعْجِب به، فسأَل عن مالكه فَأُخْبِرَ أَنَّه للخولي زين الدين، فطلبه منه هبةً فذكر أَنه امتنع من إِعطائه، وأَنه وقف، وأَنه أَذن له أَن يعمر به ما شاء، فأَنشأَ به إِيواناً مستطيلاً وفسقية ومحرابين، وعقوداً عالية، واستمر منهلاً للواردين والمسافرين ـ أَثابه الله تعالى ـ.

قلت: وقد اتَّفق في البستان الذي بجانب هذا الحوض المستجد الإِنْشَاء، في زمن داود باشا، نزاع كبير بين الخولي زين الدين و(كيخية) داود باشا، وهو الأَمير أَحمد مملوك المشار إِليه، وعتيقه المشهور بحاجي كيخية، فادعى الخولي أَنَّ البستان له، وأَنه زرعه، وليس لداود فيه ملك ولا وقف، فأَحضر حاجي أَحمد كيخية الواقف مكتوبَ وَقْفِهِ، فَأُحْضِرَ السِّجلُّ وكُشِف عن تاريخ ذلك منه، وَوُجد للسجلِّ نسخةٌ عند صاحبنا الشيخ العلامة عز الدين المجولي الشافعي، مشمولة بخط ابن شعبان قاضي إِقليم المحلة والغربية ـ كان ـ فتنازع المدعي والمدَّعَى عليه، والشاهد المذكور لدى قاضي مصر، هو برويز جلبي مملوك إِبراهيم باشا الوزير الكبير، فركب وكشف بنفسه على المحل، ورأَى الحدود، وفحص عن ذلك، فثبت عنده ملك داود باشا لذلك قبل وقفه له، وإِنما الخولي زين الدين كانَ عاملاً له في الزراعة، وأَنشأَ الشجر، وجعله ناظراً عليه فقط، فحطَّت رتبةُ زين الدين الخوليّ بمقتضى ذلك عند بعض الأَكابر، ونُسب إِلى دعوى الزور وما لا يملك، وذلك في أَواخر ربيع الآخر سنة خمس وستين وتسع مئة.

ويُنْصَب بالبركة سوق كبير، فيه من الجِمال، والحمير، والبغال، وأَنواع الملابس المعدة للسفر، وما يحتاجه المسافرون من المركوب، والملبوس، والمأكول،

بحيث أَنَّ مَن أَراد ابْتِداء السفر من البركة يتهيَّأُ له سائرُ ما يحتاجه من أَسبابه، وينتظم بها سائِرُ أَحوال الركب، والإِقامة بها خمسة أَيام، والرحيل منها سَحَرَ يوم السادس، إلا في النادر لضرورة أَوْجَبَتْ ذلك.

وذكر المقريزيُّ في كتابه «المواعظ والاعتبار» أَنه كان يقال لها بركة الْجُبِّ، فإِنَّه قال: هذه البركة في الجهة البحرية من القاهرة على نحو بريد، عُرِفَت أَولاً بِجُبِّ عُمَيْرَةَ، ثم قيل لها: أَرض الْجُبِّ وعُرِفَتِ الآنَ ببركة الحاج، لأَجل نزول حاج البَرِّ بها عند سيرهم من القاهرة وعند عودهم، وبعض مَن لا معرفةَ له بأَحوال أَرض مصر يقول: جُبُّ يوسف، وهو خطأٌ لا أَصل له، وما بَرِحَتْ هذه البركة مُنتَزَهاً لملوك القاهرة.

قال ابنُ يونس: عُمَيْرَةُ بن تميم بن جزو التُّجيبيُّ، من بني القرنا، صاحب الجُبِّ المعروف بجُبِّ عُميرة في الموضع الذي يبرز إِليه الحاج من مصر لخروجهم إِلى مكة.

وقال ابْن مُيَسرِ: كان من عادة أَمير المؤمنين المنتصر بالله في كل سنة أَن يركب على النُّجُبِ مع النِّساءِ والحشم إِلى جُب عميرة، وهو مَوْضع نُزْهَة، بِهَيْئَةِ أَنه خارجٌ إِلى الحج على سبيل الهزو والمجانَة، ومعه الخمر في الروايا، عوضاً عن الماء ويسقيه للناس.

وقال القاضي الفاضل في حوادث المحرم سنة سبع وسبعين وخمس مئة: وفيه خرج السلطان - يعني صلاح الدين يوسف - إِلى بركة الْجُبِّ للصيد، ولعب الْكُرَة، وعاد إِلى القاهرة في سادس يوم من خروجه، وذكر من ذلك كثيراً عن السلطان صلاح الدين، وابنه الملك العزيز عثمان، وما برح الملوك يركبون إِلى هذه البركة لصيد الكراكي ورميها.

قال المقريزي: وأَدركنا هذه البركة مراحاً عظيماً للأَغنام التي تعلفها التركمانُ حَبَّ القُطن وغيره من العلف، فتبلغ الغاية من السمن، حتى أَنه يُدْخَلُ بها إِلى القاهرة محمولة على الْعَجَل، لعظم جثتها وعجزها، لثقلها عن المشي، وكان يقال: كبش بركاوي. ثم قال: وبركة الحاج اليوم أَرباب أَدراكها قوم من العرب يعرفون ببني صيرة.

قال الشريف محمد بن أَسعد الجواني في كتابه «الجوهر المكنون في معرفة القبائل والبطون» بنو بطيخ بطن من لخم وهو ولد بطيخ بن بعال بن دعجان بن

عميت بن كليب بن أَبي الحارث بن عمر بن رميمة بن حدس بن أريش بن إِراش بن جزيلة بن لخم وفخذها بنو صيرة بن بطيخ، ولهم حارة مجاورة للخطة المعروفة بكوم دينار السايس، وصيرة في خندف وفي قيس ونزار.

وأَقول: إِن المتعارف الآن مما توارثه الخلفُ عن السلف أَن للبركة دركَيْنِ؛ فمناخ الركب ومبركه ومحل نزوله و(الوطاق) دركه على متولي الحرب السعيد المسمى في الدولة الرتكية بـ(الصوباشاه) ولهذا يتقدّم خروجه إِلى البركة يوم رحيل الخيام والفرّاشين، ويسمى في الْعُرف بالْمُدَوَّرة من باب تسمية الشيء باسم صفته لأَن المدورة صفة لموصوف، وهي الخيمة الخاصة المسماة بالتُّنُورَة، فيستمر للحراسة واليقظة على مناخ الركب، إِلى أَن يَبْدَأَ رحيل الركب فيحضر إِلى أَمير الحاج لوداعه، وله عادة حينئذ عند نهاية خدمته قفطان مذهب، فينعم عليه به ويلبسه، ويودع أَمير الركب بعد أَن يؤكد عليه في الوصية بالمودعين، إِن كان الوقت قابلاً لذلك، ويتوجه (الصوباشاه) إِلى القاهرة، وهذا الدرك جُزْئِيٌّ باعتبار مبرك الحاج فقط في هذا المحل.

وأَما الدرك الكليُّ المشهور فهو على أَمير عربان الْعائد بالشرقية، وعلى جماعته، وابتداؤه من أَول صحراء القاهرة وخان داود باشا، إِلى الحمام، وهو بجانب البحر الملح، محل زينة أَمير الحاج بعد نزوله من عقبة أَيْلَةَ، وإِلى هنا ينتهي حَدُّ درك الأَول.

ثم لَمَّا استولت بنو عطية على الدرك، وغلبوا عليه، وكثر فسادهم واشتهر عنادهم، بعد أَن كانوا عربان حَمْل إِمْرَة الحاج من القاهرة إِلى عقبة أَيْلَةَ، ولم يقدر أَمير العائد على دفعهم، وكفهم عن الركب، وتوالت مفاسدهم بالسرقة والتخطُّف في هذا الربع الأَول، وأَعظم محل فيه، وأَخبث محل في الدرب المصري نَقْبُ الْعَقَبَةِ، لضيقه، واختلاف طرقه، وتمكن العربان من الفساد فيه بالأَذَى والنهب، فقرر معهم أَمير العائد جباية في كل سنة، يدفعها لهم في نظير خفارتهم للنَّقْبِ خاصة، وحَدُّ ذلك من السطح إِلى الحمام، فوافقوه على ذلك، وتسلّموا منه المبلغ المذكور، والتزموا بخفارة النقب لصعوبته وعسر سلوكه، وتمكن المجرمون منهم فيه بالأَذى للوفد ما لا يمكنهم في غيره إِلاّ بعسر وتيقُّظ، فلما وقع الاتفاق على ذلك برهة طمع العائد في أَكثر من الحدِّ المتَّفق عليه، وادَّعوا أَنهم إِنما دفعوا المبلغ على خفارة الركب من نَخْل إِلى الحمام، وتنازعوا فيما بينهم، واختلفوا، فبنو عطية ينكرون دعوى العائد، ويعترفون بأَن أَول حدهم السطح، والعائد يقولون: من نَخْل، وتلاشى بهذا المقتضى أَمر الصائع بين نَخْل والسطح، فإِن أَمير الحاج من نَخْل يُلْبَس أَمير العائد تشريفاً ويعود بجماعته وخيله منها

إِلى القاهرة، ويصير ما بين نخل إِلى السطح بغير خفير ولا صاحب درك ـ وسيأْتي ذكر ذلك أَيضاً في محله ـ فلنرجع إِلى مدة الإِقامة بالبركة والرحيل منها فنقول: إِنَّ العادة المستمرة أَن يقيم الركب ببركة الحاج خمسة أَيام ـ كما قدمنا ذكره ـ إِلا أَن يطرأَ أَمر ضروريٌّ معوق لزيادة يوم في بعض السنين، لأَجل الضرورة، فيتأَخر الركب ذلك اليوم ولا يعتمد على مثل ذلك؛ وقدّمنا أَن أَمير الحاج لا بُدَّ وأَنْ يراعي أَحوال الجمالة، ويسأَل عن أَحوالهم واعتدالها، وكفايتهم من العليق والجِمال، فإِنَّ في ذلك الراحة لأَمير الحاج وللجِمال وللرعية، فإِذا توجه يوم الثامن عشر من القاهرة يكون العادة في رحيله من البركة أَذانَ الفجر من صبيحة اليوم الثالث والعشرين، هذا هو المعهود المتعارف في صدر من الدولة الجركسية وإِلى زمننا هذا.

وينبغي لأَمير الحاج أَنْ لا يرحل من البركة ليلاً، ففي ذلك من الفساد والمضار ما لا يخفى، فإِنه قد يَتَسَحَّبُ من الجِمالة والغلمان ممن لا يكون على اعتدال للسفر، فيكون الليل ساتراً ومعيناً لهم على ذلك، فقد وقع من ذلك أَن تسحب الجِمال بجماله ليلاً ولم يشعر به الركاب وأَصبحوا بأَحمالهم بلا جِمال، فعادوا إِلى القاهرة، وقد يُخْشَى على المودعين أَيضاً من التعرُّض لهم، إِذا رحل الركب ليلاً وتركهم، فإِن ذلك الموضع في أَوان الحاج مقصود من أَهل الأَذى والفساد، وبالجملة فالرحيل من البركة ليلاً غير المعتاد، والتأْخير بها إِلى أَن تشرق الشمس غير المعتاد أَيضاً، لئلا تصير جميع الرحلات المستقبلة مسبوقة إِلى مناخ عقبة أَيْلَةَ خصوصاً ما ذكرنا من سِمَن الجِمال، وثقل الحمل ففيه ما لا يخفى من المشقة، وأَحسن ما يفعله أَمير الحاج أَنْ يعلن بالرحيل أَذانَ الفجر. ويستمر هو بالبركة إِلى طلوع الشمس، ليتناهَى تَوَجُّهُ الركب ورحيله على اعتدال، فإِنْ قصر أَحد من الجمالة عن جمله أَو حصل لأَحد من وفده ضرورةٌ ساعدهم على إِزالتها، ورحل هو حينئذ.

وبِرْكَةُ الحاج مَحَلُّ وداع الأَحباب، ومفارقة الأَتراب، وأَخذ الدموع في الانسكاب، والقلوب في الاضطراب، وتأْكيد الوصية من المحب بالتعريف عن أَخبار أَحبابه ضمن الكتاب، وما أَلطف قول البدر بن يوسف الذَّهبِي:

وبِمُهْجتِي الْمُتَحَمِّلُونَ عَشِيَّةً　　وَالرَّكْبُ بَيْنَ تَلازم وَعِنَاق
وَحُدَاتهُمْ غَنَّتْ حِجَازاً بَعْدَ مَا　　غَنَّتْ وَرَاءَ الركْب في عُشَّاق

وللشهاب أَحمد بن أَبي حَجَلَة:

وَلَمَّا اعْتَنَقْنَا لِلْوَدَاعِ عَشِيَّةً　　عَلَى بِرْكَةِ الْحُجَّاجِ وَالدَّمْعُ يُسْكَبُ

فَرُحْنَا وَقَدْ جُزْنَا الْبُوَيْبَ لأَنَّهُ إِلَى وَصْل مَنْ نَهْوَاهُ بَابٌ مُجَرَّبُ

زين الدين عمر بن الحسام:

وَلَمَّا اعْتَنَقْنَا لِلْوَدَاعِ عَشِيَّةً وفي الْقَلْبِ نِيْرَانٌ لِفَرْطِ غَلِيْلِهِ
بَكَيْت وَهَلْ يُغْنِي الْبُكَا عند هَائِم وَقَدْ غَابَ عَنْ عَيْنَيْهِ وَجْهُ خَلِيْلِهِ

ولبعضهم:

وَدَّعْتكُمْ فَرَجَعْت بَعْدَ وَدَاعِكُمْ نَدِماً أَعَضُّ مِنَ الْفِرَاق أَنَامِلِي
أَمَّا التَّصَبُّرُ بَعْدَكُمْ فَعَدِمْتهُ ومِنَ التَّشَوُّق والْغَرام أَنَامِلِي

غيره:

لَوْ كُنْتَ سَاعَةَ بَيْنِنَا مَا بَيْنَنَا وَرَأَيْتَ كَيْفَ نكَرِّرُ التَّوْدِيْعَا
لَعَلِمْتَ أَنَّ مِنَ الدُّمُوعِ مُحَدِّثاً وَعَلِمْتَ أَنَّ مِنَ الْحَدِيْثِ دُمُوعا

غيره:

وَلَمَّا اعْتَنَقْنَا لِلْوَدَاعِ وَدَمْعُهَا عَلَى خَدِّهَا يُفْشِي الصَّبَابَةَ وَالْوَجْدَا
بَكَتْ لؤلؤاً رَطْباً فَفَاضَتْ مَدَامِعِي عَقِيْقاً فَصَارَ الْكلُّ في نَحْرِهَا عِقْدَا

غيره:

لاَ تَحْسَبُوا أَنِّي بَخلْت بِمَدْمَعٍ يَجْري دَماً يَوْمَ الْفِرَاق حَقِيْقا
أَنَا مَا بَخلْت وكَانَ دُرًّا قَبْلَ ذَا أَيَجُوز بُخْلِي حِيْنَ صَارَ عَقِيْقا

غيره:

ولَمَّا بَدَا التَّوْدِيْعُ مِمَّن أُحِبُّهُ وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ أَنْ تُزَمَّ الرَّوَاحِلُ
بَكَيْت وَأَبْكَيْتُ الْعَوَاذِلَ رَحْمَةً وَحَسْبُكَ مَنْ تَبْكِي عَلَيْهِ الْعَوَاذِلُ

وللصلاح الصفدي:

لَمَّا اعْتَنَقْنَا لِوَدَاعِ النَّوَى وَكِدتُ مِنْ حَرِّ النَّوَى أُحرِقُهْ
رَأَيْت قَلْبِي سَارَ قُدَّامَهُ وأَدْمُعِي تَجْرِي وَلاَ تَلْحَقُهْ

وله أيضاً:

وَلَمْ أَنْسَ إِذْ وَدَّعُونِي ضُحَى وقد مطر غُيُوثُ الْبُكَا
وبِتُّ بِحَالٍ يَسُرُّ الْعِدَا أَمَامِي وفائِي، وَعَيْنِي وَرَا

وتلطَّف مَن قال مختاراً ترك الوداع:

عَاقَنِي عَنْ حَلاوَةِ التَّشْيِيع مَا أرَى مِنْ مَرَارَةِ التَّوْدِيْع
مَا يَفِي أُنْسُ ذَا بِوَحْشَةِ هَذَا فَرَأَيْتُ الصَّوَابَ تَرْكَ الْجَمِيْعِ

وقال الشيخ زينُ الدين بنُ الورديّ:

مَنْ كَانَ مُرْتَحِلاً بِقَلْب مُحِبِّهِ يَوْماً فَإِنَّكَ رَاحِلٌ بِجَمِيْعِي
وَأَنَا الَّذِي تَرَكَ الْوَدَاعَ تَعَمُّداً مَنْ ذَا يُطِيقُ مَرَارَةَ التَّوْدِيْعِ؟

وعكس هذا المعنى مَن تمنَّى الوداع فقال:

أَرَأَيْتَ مَنْ يَرْضَى بِفُرْقَة إِلْفِهِ أَنَا قَدْ رَضِيْتُ لَنَا بأَنْ نَتَفَرَّقَا
حَتَّى أَفُوز بِقُبْلَةٍ فِي خَدِّهِ عِنْدَ الْوَدَاع ومِثْلِهَا عِنْدَ اللُّقَا

ولبعض كُتَّاب الغرب في وداع مَن ركب البحر، وتلطّف:

قَدْ قُلْتُ إِذْ سَارَ السَّفِيْنُ بهم والْبَيْنُ يَنْهَبُ مُهْجَتِي نَهْبَا
لَوْ أَنَّ لِي مُلْكاً أَصُولُ بِهِ لأَخَذْتُ كُلَّ سَفِيْنَة غَصْبَا

وقال علاءُ الدين بنُ سالمٍ مُوَقِّعُ غزَّة:

سَارَتْ سَفِيْنُهُمُ بِأَبْحُر مُقْلَتِي وَتَتَبعُوا (؟) فَتَجَمَّعُوا رَكْبَا
لَوْ كُنْتُ أَمْلِك حَبْسَ فَيْضِ مَدَامِعِي لأَخَذْتُ كُلَّ سَفِيْنَة غَصْبَا

ولبعضهم:

فَوَا عَجَبَا مِمَّنْ يَمُدُّ يَمِيْنَهُ إِلَى إِلْفِهِ عِنْدَ الْوَدَاعِ فَيُسْرِعُ
ضَعُفْت عَن التَّوْدِيع حيْنَ أَرَدْتُهُ فَوَدَّعْتُهُ بالْقَلْب والْعَيْن تَدْمَعُ

غيره:

وَمُوَدِّع يَوْمَ الْفِرَاق بِطَرْفِهِ شَرِقٌ مِنَ الْعَبَراتِ مَا يَتَكَلَّمُ
مُتَلَفِّت نَحْوَ الحَبِيْب بغُصَّة لاَ يَسْتَطِيْعُ ودَاعَهُ فَيُسَلِّمُ

وكان الرحيل من البركة في سنة خمس وخمسين وتسع مئة، وقت طلوع الشمس من يوم السبت ثالث عشري شهر شوال، فسار إلى القرب من الْبُوَيْب، فكان مسيره إلى قبل الظهر، بسبع وعشرين درجة، خمسين درجة لدخول (الصنجق) من غير العادة. والعادة أكثر من ذلك وتكامل الركب بالدار إلى الظهر.

وأما صِفَةُ الْبُوَيْب فهو مَضيقٌ بين جبلين صغيرين، وشرفة وتلُّ رَمْل مستطيل يميناً، وباب الشيء أَوَّلُهُ، وهو ما يتوصَّلُ منه إليه، وعند المترددين على هذا الطريق أَنَّ له بَابَيْن، هذا وبابٌ آخر مناخ عَقَبَةِ أَيْلَةَ، وهو بناء على قُبَّة جبل، في أول دَوَّار حَقْلٍ كأنه شارة إلى أَنَّ هذا أَوَّل المفازة من حَدِّ مصر، وللأديب إبراهيم المِعْمَار:

رَأَيْت فِيْ دَرْبِ الْحِجَازِ مَاشِياً … مُمَيِّلاً عِنْدَ الْبُوَيْبِ الرَّقَبَهْ

مُنْطَرِحاً بَيْنَ الرِّجَال بَاكِياً … يَقُولُ: مَا أَطَالَهَا مِنْ سَلَبَه (؟)

وَدَمْعُهُ مِنَ الْعُيُون وادياً … وَوَجْهُهُ مِمَّا يُقَاسِي عَقَبَهْ

وكان المسير أذان الظهر إلى دار المعشة بالدار الحمراء، فكان مدة سيره إلى المغرب خمساً وسبعين درجة، وأقام بالدار إلى بعد العشاء بأربعين درجة، وسافر فَمَرَّ على الطُّليحات، وقطع المصانع ـ جمع مصنع ـ وهو علم على ما صُنِع هناك لأَن يكون مَوْرداً للحجيج ولم يتمَّ عمله، ويشتمل على فَسْقِيَّة عميقة معطلة، وبئر خراب، ذُكِر أنه لما انتهى الحفر إلى هذا الحدِّ سمع من داخلها قائلاً يقول: أَقصروا عن العمل فليس هنا ماء، هكذا قيل. وسار إلى القرب من مقرح عويبد فكان مدة سيره إلى بعد الشمس بعشر درج مئة وستين درجة، وكان الصواب دون هذا المسير، لأنه لم يكن مورد ماء فيجهد الجِمَالَ، لوروده مع أنها على باكورة السير والتعب بعد الراحة، وأقام بدار المغداة ثلاثين درجة، وسار قبل الظهر بخمس وثلاثين درجة، فقطع الوعر الذي تُسَمِّيه العامة المقات، ولهم فيه اختلاف لا أَصل له، وهو أَول مَحْجَر يوجد بالدرب المصري، ومراكع موسى، ويقال: إن هناك عمود مكتوب عليه: (الداخل لهذه البرية مفقود، والخارج منها مولود) أي في حكمهما، واستمر في سيره إلى أن كان وصول (الصنجق) إلى عجرود قبل المغرب بثماني درج، وكان مدة سيره مئة وخمس درج.

قال صاحب «القاموس» في اللغة: الْعَجَرَّدُ الخفيف السريع، والغليظ والشديد، والْعَنْجَرِدُ: المرأة السليطة، أَو الخبيثة، أَو السَّيِّئَةُ الْخُلُق[1].

والسويس قريب منه، بندر القاهرة إلى بحر الْقلزم.

وبعجرو خان جديد، إنشاء السلطان المرحوم أبي النصر قانصوه الغوري، على يد الأَمير الكبير خاير بك المعمار، أَحد مقدمي الأُلوف في سنة خمس عشرة وتسع مئة؛ بعد الخان الذي كان به قديماً، إنشاء الحاج بلك الجوكندار، وأَصلحه

(١) انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي [١/ ٣١٠]، مادة [العجرد].

الناس من بعده، وبه بئر وساقية، وكان به أَربع فساقي أَصلها إِنشاء السلطان الملك الناصر حسن، وجُدِّدت بعد ذلك، ثم جُعلت الفساقي اثنتين، واستجدّ في الدولة المظفرية فسقية ثالثة وهي على ذلك إِلى الآن، وعدتها ثلاث، وماء هذا المورد مالح جدًّا لا يكاد يسيغه الشارب، وأَدْرَكْتُ حصول معطشة للركب في هذا المورد لقلة الاعتناء بِمَليء بركه في سنة ثمان وثلاثين وتسع مئة، فحصل للركب ضرر بالغ، بحيث أَنني رأَيتُ الفقراء ينشفون الفساقي بِخِرَقٍ ويمصُّونَها، وينصب به سوق يؤتى إِليه من بُلْبَيْس والسويس، فإِنه قريب منه، غَرْبِيُّهُ بِلحف الجبل، بجانب البحر الملح، وبه خان أَيضاً، وهو الآن بَنْدرٌ كبيرٌ، جدد في ولاية سليمان باشا، والأَمير جانم الحمزاوي للعمائر المتوجهة إِلى إِقليم الهند، واليمن، والحجاز، وما والى تلك الجهات والبلاد، وبه (قبطان) وأُمنَاء وكتبة، وقبانية، من جانب السلطان، لمهمات عمل المراكب وتجهيز العساكر إِلى إِقليم اليمن، ولتجهيز حمل إِمرة الحاج والحجاج فترادف انصلاح المراكب عند سفرها منه مراراً عديدة.

وأَما للمهمات السلطانية المتوجهة لجهة اليمن وغيره، فتلك المهمات من أَشد الأَعوان على خراب مصر، وتَغَيُّرِ أَحوالها، ولو لم يكن سوى القبض على الرعية من الفلاحة، والغلمان، والأَعراب عند تجهيز المراكب ليكونوا قَدَّافِيْنَ، وجمعهم في الحبوس غصباً، وتجهيزهم في السلاسل والقيود إِلى بندر السويس على أَسوإِ حال، ولم يستطع أَهاليهم، ولا أَولادهم شيئاً من أَمرهم، لكفى ذلك، وشرح ما تجدد من ذلك يطول.

وهذا المنهل أَول المناهل من بِرْكة الحاج، ومنه تفترق الطرق إِلى ثغرة حامد، فمن عجرود إِلى الثغرة من طريق القباب ثلاث مراحل، وإِن قصد مبعوق فمرحلة، وإِن قصد عيون موسى فمرحلة، ومنها إِلى الثغرة مرحلتان.

قال القاضي أَبو العباس السُّرُوْجيُّ في مناسكه: وصفة عيون موسى أَنها كوم مرتفع بأَعلام، يوجد الماء بأَعاليه، ولا يوجد بأَسافله، وإِن أَخذ السالك من طريق قلعة صدر فهو وعر، وفيه بُعْد ومشقة، ولا يسعه (؟) الركب العام، والطرق الأَربعة المتفرقة تجتمع في ثغرة حامد. انتهى.

وبالقرب من عجرود ماء حفائر عذب، كان في عمارة ومصانع يسمى عند العرب أَبو حماطة ـ بفتح الحاء المهملة والميم بعدها أَلف وطاء وهاء للسكت ـ وبالقرب منه أَيضاً ماءٌ طيب، يقال له الْمُشَاش، معروف.

ومن ابتداء السير من عجرود يكون الترتيب والتَّعْقِيب في زمننا، وإلا فقد قَدَّمْنَا أَنَّ أَول مَن عقب الحجاج عند رحيلهم من البركة الأَمير جمال الدين (الاستادار) عندما استقر ولده شهاب الدين أَمير المحمل في سنة تسع وثمان مئة.

وملخص ما قدّمنا ذكره في بابه: أَن الركب يبيت بعجرود، ويتقدّم أَمر أَمير الحاج لجماعته وخدمته بتفرقة العليق والجرايات اليومية، المعبر عنها بالوَجْبة، سحراً على المشاعل، ويَأْمر بكتابة أَكابر الركب، وعدد جِمال كل منهم، ويجعل لكل من الأَكابر محلاً معيناً، ويرحل من عجرود طلوع الشمس، ويجمع الركب من الطليعة إِلى الساقة، ويضبط أَطرافه ونواحيه بجماعة من العسكر، ويأْذَنُ للأَكابر الذين عَيَّنَهُم بالتقدم مع بعضهم على قُطُرٍ معلومة، بعد الدليل والفرّاشين والسقّائين أَوّلاً فأَول، ويضبط عدة جِمالهم، ثم يليهم (الزردخانه) والمطلب وما قدمنا ذكره مفصلاً وحاصله: أَن يكون الأَكابر الأَعيان تجاه الركب بعد الدُلَلاَء، وركب أَمير الحاج الخاص به والتجار وأَصحاب الحمول والأَموال في قلب الركب، والفلاَّحة ورعاع الناس آخره، ثم يسير حتى يمر على السَّبَخَة وبعض الأَعلام، ففي سنة خمس وخمسين [وتسع مئة] كان مسيره إِلى القرب من المنصرف بعد المغرب بخمس درج مئة وأَربعين درجة لدخول (الصنجق)، وكانت هذه الرحلة مشقة لطول سيرها وثقل الجِمال بالحمل، فبات تلك الليلة بدار المعشاة إِلى قبل الفجر بثلاثين درجة، وهذه هي العادة في تلك الرحلة لراحة الجِمال، ولاستقبال السير المتعب في ذلك الرمل المشق، مع أَن المحلَّ أَيضاً غير مأْمون من سرّاق بني عطية، ولاستيلائهم على هذا الربع، وجانب من الذي بعده، فقد يختلطون بأَهل الركب وعليهم ثياب بيض وعمائم، ويختلسون الجِمال ليلاً، خصوصاً وقت الرحيل من تلك المنزلة، فلا يَظنُّ مَن يراهم إِلا أَنهم أَصحاب الجِمال، ولقد اتفق في سنة ثلاث وخمسين وتسع مئة لصاحبنا القاضي درويش والرمي، قاضي المحمل في تلك السنة، أَنه حَمَّلَ جِماله وأُوْقِفت بين المقاطر لانتظار قطار المحمل، فسُحبت بجملتها من بين المقاطر، ولم يظهر لها خبر مطلقاً، وأُلزِمَ أَميرُ العائد بثمنها وما معها، والمرحلة المذكورة، وما بعدها رمل كثير، وفضاء وحدرات وأَعلام وحجارة وَجُوَرٌ.

قيل: إِن الإسكندر حين فتح باب المندب ووصل البحر إِلى الحجاز إِلى أَن أَوصله بالسُّوَيْس أَراد حفر هذه الْجُوَر ليمشي البحر ويوصله بالطينة فيخلط مع البحر الشامي، لكن خشي دخول الفرنج فأَعرض عن ذلك.

وللصلاح:

إِيَّاكَ والرَّمْل لاَ تَنْقُلْ بِهِ قَدَمَا فَإِنَّهُ فِي أَدِيْمِ ٱلأَرْضِ كَالْبَهَقِ
وكُلّ هَضْبِ كَرَأْسٍ شَابَ مِنْ كِبَرِ تَشِيْنُه سَبْخَةٌ فِي مَفْرَقِ الطُرقِ

وله:

أَقُولُ وَحَرُّ الرَّمْلِ قَدْ زَادَ وَقْدُهُ وَلَيْسَ إِلَى شَمِّ النَّسِيْمِ سَبِيْل
أَظُنّ نَسِيْمَ الْجَوِّ قَدْ مَاتَ وانْقَضَى فَعَهْدِي بِهِ في الشَّامِ وَهْوَ عَلِيْلُ

وله:

كَأَنَّ هِضَابَ الرَّمْلِ لَمَّا تَدَحْرَجَتْ بِأَيْدِي رِيَاحِ الْجَوِّ حِيْنَ تَبِيْن
جَبِيْنٌ لِبَعْضِ الرُّوْمِ أَبْيَضُ وَاضِحُ وَمَا دَرَجَتْهُ الرِّيْحُ فِيْهِ غُضوْن

وله:

مَن حَرَّمَ الْغَمْضَ عَلى مُقْلَتِي فِي رَمْلِ مِصْرَ عِنْدَ طِيْبِ الْغَلَسْ
وَخَالَفَ الْعَادَةَ فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّ الَّذِيْ فِي الرَّمْلِ يَمْشِي نعَسْ

وله وقد ثارت السواقي:

لاَ أَنْسَ وقد كَتَبْتُ لَيلاً مَا كِدتُ مِنَ الْهَوَى أُبَسْمِل
الْبَرْق برمل مصر سمعي (؟) والرِّيْحُ علَى يَدِي ترَمّلْ (؟)

وكان الرحيل قبل الفجر بثلاثين درجة، فسار ونزل من عقبة المنصرف، واستمر إلى أن قطع وادي القباب وغدا بالشَّيَحَةِ، آخِر الرمل، بشين مثلثة مشددة مفتوحة بعدها ياء تحتية مفتوحة أيضاً وحاء مهملة كذلك.

وهذه الدار أَول مَن غَدَّى بها ونزلها في الدولة المظفرية المرحوم جانم الحمزاوي في سنة إحدى وثلاثين، وهي أَول المحجر بعد الرمل، وكان مدة سيره إلى قبل الظهر بعشرين درجة لدخول (الصنجق) مئة وعشر درج، وإنما سمي بوادي القباب لقباب مَبْنِيَّةٍ، وكله رمل صعود وهبوط، وتلال، وشقيف جبل، وذكر أبو عبيد البكري في كتابه «المسالك»: أَن وادي القباب يُعرف قديماً بقبر أَبي حُمَيد.

ومَبْعوقُ برأس وادي القباب عند الْجُرَيْنات، وهذه الرحلة في الغالب من المشقات على الجِمال خصوصاً في زمن الصيف وشدة القيظ، والإِقامة بها للمغداة قليل جدًّا، وكانت الإِقامة في تلك السنة بالدار ثلاثين درجة إلى بعد الظهر بعشرة درج وسار إلى ثغرة حامد ـ اسم رجل من الْعُربان، كان قاطِناً بها فصار اسمه علماً

عليها، والثغرة في اللغة[١] فكان المسير إلى قبل المغرب لست درج، خمساً وخمسين درجة لدخول (الصنجق) وطريقها مَحَلَّةُ وَعْر، بين جبال وصعود وهبوط ومضيق، وشقيف جبل.

وبالقرب من الثغرة مسيرة ـ بَرِيْدَين مورد ماء للعربان يسمى الطُّوال ـ بألِف ولام في أَوله وطاء مشددة مضمومة، وواو بعدها مخففة وألف ولام آخر الحروف.

والعادة أَن الركب يبيت بهذه المنزلة أَيضاً كما قدّمنا ذكره.

ويكون أَمير الحاج على يقظة من مهاجم أَو مُخْتَلِس، كما وقع ذلك كثيراً.

وفي سنة سبع وثلاثين ولاية المعز الجمالي يوسف الحمزاوي تعرّضت بنو عطية لجِمال السقّائين بآخر الثغرة، فأَخذوها وما عليها من القِرَب، وكانت عدداً وافراً لأَمير الحاج والرعايا، فلذلك صارت أُمراء الركب تستعد عند مرور الركب على ذلك المخرس ببعض الخيول والفرسان، ويَتأَهَّبُون لحراسته وحفظه، إِلى أَن يمر الركب، وكان الرحيل منها قبل الفجر بثلاثين درجة إِلى بعد الشمس بعشرة درج، وكانت مدة المسير خمساً وستين درجة، وغَدَّى برأس التِّيْهِ، وهو فضاء مطلق، يُمناه الطُّوْر، ويسراه الْعَرِيْش.

وبالتِّيْهِ بالقرب من جبل حسن، على مسيرة بريد ونصف من دار المعشة عين ماء يجري، تسمى صَدَر ـ بفتح الصاد المهملة والدال ـ.

والتيه محل المشقة في زمن البرد لشدته به، وفي زمن الْحَرّ لقلة الماء ووقوع العطش، فليتيقظ لذلك بالاحتراز على الماء في الصيف، وللعلامة شهاب الدين بن أَبي حَجَلَة:

رَعَى اللّٰهُ ظَبْياً بِالصَّرِيْمِ إِذَا بَدَتْ   حُشَاشَةُ قَلْبِي الْمُسْتَهَامِ رَعاها
إِذَا مَا بَدَا وَالتِّيْهُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ   تَحَجَّبَ عَنِّي بِالدَّلَالِ وَتَاهَا

وهو قاع فيّاح، لا ماء به ولا نَبْت، ويسمى بروض الجمل، كأَنَّهمْ تلمحوا بهذه العبارة إِلى راحة الجمل من مشقة الوعر وصعوبة المحجر، والمشي على شقيف الجبال، والصعود والهبوط، وارتاض بمشيه في طريق مستقيمة، وسلوكه في هذه الباحة العظيمة.

(١) هكذا في الأصل.

وقال أَبو عبيد البكري في «المسالك» بعد ذكر أَيلة: ثم تسير مرحلتين في فحص التِّيْهِ الذي تاه فيه بنو إسرائيل، حتى تُوافي ساحل البحر بموضع يقال له بحر فاران، وهو البحر الذي غَرِق فيه فرعون، ومن هناك إلى القلزم مرحلة، وإنما نُسِب هذا البحر إلى فاران وهي مدينة من مدن العماليق على تَلٍّ بين جبلين، فيه نُقُوْبٌ كثيرة لا تُحْصَى، مملوءة أَمواتاً، وفي سفح أَحد الجبلين بيعة للنصارَى، وحصن عليه سور من حجارة، ذو شرفات وأَبواب من حديد، داخله ماء عين عذب، وعلى العين (درابزين) من نحاس لِئَلاَّ يسقط فيه أَحد، وقد أُجْري ماؤها في قَنِيٍّ رصاص، إلى ما حوالي الدير من الكروم والأَشجار، ويقال: إن على هذه العين كان شجر العليق الذي آنَسَ موسى عنده النار، وعلى خطوات من هذا الدير أَول العقبة التي يُصْعَد منها إلى طور سَيْنَاء وهي ستة آلاف وست مئة وستون مرقاة، قد نُحِتَتْ ودُرِّجَتْ في الصخر، فإذا قطعت تلك المراقي صِرْتَ إلى مُسْتَوى من الأَرض، فيه أَشجار وماء عذب وهناك كنيسة على اسم إيليا النبي ﷺ والتِّيْهُ هذا أعربعون فَرْسخاً في مثلها، وأَوَّل حَدِّه ما بين قبر أَبي حُمَيْد وأرض نخر، وفيه مات موسى وهارون عليهما السلام وبطن نخر هي نخل منهل الحاج المعروف. انتهى كلامه.

وكانت الإقامة بالدار أَربعين درجة، ليتكامل الركب، وسار قبل الظهر بخمس وعشرين درجة فعدَّى راحل ورحيل، وهو علم على جبل يشبه عند رؤيته من بعد برحل الجمل، وعَشَّى بالقرب من آخر التِّيْهِ، فكان السير إلى وقت المغرب لدخول (الصنجق) مئة درجة وأَقام بالدار إلى بعد العشاء بأَربعين درجة، وسار إلى وادي نَخْل ـ على وزن فعل ـ فكان المسير إلى بعد الشمس بخمس درج مئة وخمسين درجة، وهي المنهل الثاني يصلونها في سادس يوم من البِرْكة، وأَرْضُها وطريقها محجر أَبيض، ورمل لطيف، ويسمى بطن نَخْر ـ بنون مفتوحة بعد خاء معجمة مكسورة، ذكرها أَبو عبيد البكري فقال ـ: وبطن نَخْر قرية ليس بها نخل ولا شجر، يسكنها نفر من الناس، ويقال له بطن نخل باللام آخر الحروف بدل الراء لسوافي تَسْفى على الناس فيه تراباً رقيقاً، كأَنما قد نُخِلَ بمنْخلٍ.

وبها خانٌ إنشاء السُّلطان قانصوه من بئر بردي الغوري، على يد الأَمير الكبير خاير بك المعمار، أَحد المقدمين في سنة خمس عشرة وتسع مئة وبه (حِصَار) و(نُوْبَاجِيَّة) من الترك والقواسة، كعجرود.

وكان الخان ضيِّقاً فعرض صاحبنا الصدرُ الأَجل زين الدين خولي السواقي السلطانية أَمْرَهُ على كافل المملكة المصرية علي باشا في سنة تسع وخمسين

وتسع مئة، فأَمره بتوسعته من مال السلطان، وأَمر بصرف ما يحتاج إِليه من الخزانة، فتوجه إِليه وصحبته جماعة من المعمارية وقدر وافر من الْمُؤون، واجتهدوا في توسعته في أَيسر مُدَّة، فزاد فيه زيادة بطوله وجاء في غاية الحسن.

وزين الدين هذا كان أَبوه شهاب وعمه جمال الدين رأْس الخولة بالسواقي السلطانية، على نمط أَشباههم من الخولة في سائر أَحوالهم، ونَشَأَ زين الدين على فقر وفاقة، وتقتير كثير، وكان مُبْعَداً من أَقاربه، فلما مات عمه جمال الدين، وطَعَنَ أَبوه في السن احتاج إِلى مساعدته، فساعده بهمة وعزم وحسن سيرة، مع بذل الطعام لكل وارد عليه من عربان بني عَطِيَّةَ وغيرهم، فقصدته العربان، وتسامعوا بحسن سيرته فيهم واشتهر ذكره بعد أَن كان خاملاً، وتقرّب من السلطنة، وخدم الأَعيان، وقصد الزراعة وأَكْثَرَ منها، واهتمَّ بها، واستأْجر طيناً سلطانيًا بإِقليم الجيزية وغيره، ونَمَا ذكره وحُمدت سيرته في مَلْءِ الفساقي المذكورة بمنهلي نخل وعجرود، وترقى بواسطة خدمته لمن يكون كافل الديار المصرية، وناظرِ أَموالها وتردد إِلى (صَناجقها) وأَكابرها وهاداهم، وبذل معروفه لكل وارد عليه، واتَّسعت دائرته، وقوي عزمه وتعدّى طَوْرَ أَبيه وجَدِّه، في عُلُوِّ الهمة والمروءة، ومحاباة الناس، فصار يجالس أَكابر المملكة، بعد أَن كاد الفقر أَن يوقعه في التهلكة، وعُدَّ من الأَعيان الذين سوّدهم الزمان بغير برهان، ومن الذين يتطاولون في البنيان، ولقد حكي لي أَن مرتبه بمنازِلِه في كل يوم من الدقيق الْحُوَّارَى لعمل الخبز الفرصة خمس عشرة من البطط، وَقِسْ على ذلك غيره، مع ضيق أَحوال أَهل مصر والقاهرة في معايشهم ووقوف أَحوالهم وتعطل مكاسبهم في هذا الزمان، واستيلاء حكام القاهرة على ما بِأَيْديهم شيئاً بعد شيء كما لا يخفى على ذي لُبٍّ، ولي به صُحْبَةٌ وأُنْسٌ أَحسن الله عاقبته.

وبنخل ثلاث برك وكانت أَربعة فتعطلت منها واحدة أَصل إِنشائها لسلار، وبئران إِحداهما بساقية، والأُخرى بسُلَّم، وينصب لها سوق كبير، يؤتي لها من قطيا، وأَفران، ومنها يرجع الخولي زين الدين بعد نهاية سقاية الحاج إِلى القاهرة، ويرجع بصحبته العاجز والمنقطع والْعَيَّانُ من أَهل الركب، وله عادة على أَمير الركب لِمَلْءِ المنهلين ثلاثة من القفاطين المذهّبة الخاصة. واستجدّ له في سنة ستين وتسع مئة بالرجعة قفطان رابع، وله ولجماعة السوّاقين والخفراء بالمنهلين من الجوخ المخيوط ثمانية وعشرون جوخة ومن الملاليط عشرة، ومن السكر المكرر خمسة عشر رأْساً، ومن الحلوى المجامع كذلك. ولما حج الأَمير عيسى بن إِسماعيل أَمير عربان بني عونة بالبحيرة في سنة ثلاث وستين أَنعم عليه بخمسة قفاطين من المذهبات الغاليات

الأَسعار، ومن الجوخ الكرزي والشِشيني العال أَربعين جوخة، ومن السكر قنطارين، خارجاً عن الملاليط والحلوى المعتاد، ولم يكن لوالده وعمه عادة من ذلك سوى قفطانَيْن من المنقش الدون، ومن الجوخ المفصل بديوان القلعة عشرة، ومن الملاليط والسكر والحلوى، والعجلوني الأَصفر من كل صنف كذلك. وإِنما زيدت له هذه الزيادات وفخمت لوجاهته وقربه من الدولة بالنسبة إِلى أَسلافه.

ومن هذا الحد أَيضاً يرجع أَمِير الْعَائد بخيله إِلى القاهرة، زاعماً أَن هذا آخر دركه، وبنو عَطِيَّة لا يقرونه على هذا القول، وله قفطان مذهّب عند رجوعه من هذا المحل إِن كان الحج سليماً من الضوائع، وله في نظير الخفارة أَقطاع سلطانيةٌ يستغلها كالدُّلَلاءِ.

وبالقرب من نخل تقدير بريد حَفائر تُسمى عند العرب الْرُّوَاد - بتشديد الراء وضمها مع فتح الواو وتخفيفها - وبالقرب منها أَيضاً، تزويدة صَدَر، وهي مشهورة، ومنهل نَخْل يميل مياؤُهُ إِلى العذوبة، إِلا أَنه ثقيل في البطن، وربما أَورث الاستكثار منه أَمراضاً باطنة كالاستسقاء، وفي نخل - في الغالب - ينتظم حال الركب ويعتدل القطار ويستقيم أَمر ذلك؛ وللصلاح الصفديّ في مليحة في مَحَارَةِ:

رَأَيْت فِي الرَّكْبِ وَجْهَ خَوْدِ ... جَوْهَرُهُ رَايِقُ النَّضَارَهْ
مِنْ أَجْلِ ذَا مِحْمَلُ الْمَطَايا ... يَعْرِفُهُ النَّاسُ بِالْمَحَارَهْ

وله في مليح على كُوْرٍ:

بِنَفْسِي مَلِيْحاً حُسْنُهُ رَاحَ حُجَّةً ... وَقَدْ حَجَّ في رَكْبٍ كراكب ديجور
كَبَاقَة رَيْحَانٍ عَلَى ظَهْرِ نَاقَةٍ ... وَإِلاَّ كَبَدْرٍ في هِلاَلٍ مِنَ الْكُوْرِ

زين الدين أَبو بكر بن العجمي:

قُمْتُ لَهُ لَمَّا امْتَطَى نَاقَةً ... وقسته لِلْبَدْرِ وَالْغُصْنِ حَاز
يَا قَاصِداً بالْحَجِّ غَنَّى النَّوَا (؟) ... عَرِّجْ عَلَى الْعُشَّاق قَبْلَ الْحِجَاز

وكانت الإِقامة بها في سنة خمس وخمسين وتسع مئة إِلى قبل الظهر بخمس درج ستين درجة، وسار إِلى وادي الْفَيْحَاء، فكان مسيره إِلى قبل المغرب بعشر درج لدخول (الصنجق) سبعين درجة.

وبالقرب منه وادي القريص أَيضاً أَرض متسعة وحصا كثير، وقبله حدرة، وقال أَبو العباس السروجي: إِن وادي الْقريص هو بعد الفيحاء بالقرب من أَبيار العلائي.

وكانت الإِقامة بالدار إِلى بعد العشاء بأَربعين درجة، وسار إِلى أَن غَدَّى حدرة وادي القريص، بالقرب من أَبيار العلائي، فكان مسيره لبُعد الشمس بخمس أَو عشر تقريباً مئة وخمسين درجة، وهو محلٌ أَفيح، قبله حدرة كبيرة، وبئران أَحدهما لبيدرة والثانية للعلائي، وفسقية وحوش وقبتان، وفي بعض الأَحيان يوجد بالفسقية ماء متغير من بقايا الأَمطار، ولطول مكثه لا يُنْتَفَعُ بِهِ، وكانت إِقامته بدار المغداة خمساً وعشرين درجة إِلى أَن أَناخ الركب بالقرب من عراقيب البغلة، بمحل يقال له الْمُنَيْدَرَة ـ بضم الميم وفتح النون بعدها ياء تحتية ساكنة ودال وراء مفتوحتان ـ وكان مدة سيره خمساً وتسعين درجة، والعراقيب جمع عرقوب، والعراقيب عَصَبٌ غليظ فوق عقب الإِنسان، ومن الدابة في رجلها بمنزلة الركبة في يدها. قال في «الصحاح»: العرقوب من الوادي موضع فيه انْحِناءٌ كبير، وقال الْفَرَّاءُ: ما أَكثر عراقيب هذا الجبل وهي الطرق الضيقة في مَتْنه، وتَعَرْقَبْتُ إِذا أَخذت في تلك الطرق، وقال في «القاموس»: العرقوب ما انْحَنَى من الوادي، وطريق في الجبل. والعراقيب خياشيم الجبال أَو الطريق الضيقة في متونها، وتعرقب مسلكها.

وأَقام بدار المعشاة ثمانين درجة، فإِن العادة أَن يبيتوا بها إِلى الفجر، وسار من المنيدرة فقطع العراقيب، وهي عقبة صغيرة ومحجر، وصعود، وهبوط، مما أُصلح ذلك وسهلت طرقه بأَمر السلطان قانصوه الغوري، على يد الأَمير خاير بك المعمار أَحد المقدمين ـ أَثابه الله تعالى ـ واستمر في مسيره حتى مَرَّ على الأَرض البيضاء والجفارات، وكان وصول (الصنجق) إِلى السطح قبل العصر بخمس درج، ومدة سيره شيلةً واحدةً عنها رحلتان، مئة وثمانون درجة، والعادة أَنه يرحل من أَبيار العلائي إِلى العراقيب فيبيت بها إِلى قبل الفجر بأَربعين درجة، ويسير إِلى الجفارات يُغَدِّي بها بعد الشروق بثلاثين درجة، ومدة سيره تسعون درجة، ويقيم بها عشرين درجة ويرحل إِلى السطح، ومدة سيره تسعون درجة أَيضاً، هذا هو السير المعتاد وهو أَرْفَقُ بالوفد والجِمال.

وبالقرب من عراقيب البغلة مقدار نصف بريد بئر تُسَمَّى ثمد الحصى.

وبالقرب من سطح العقبة مقدار ثلث بريد مورد ماء يُسَمَّى القطار ـ بالقاف المثناة، والطاء المشددة المفتوحة بعدها أَلف وراء مهملة ـ والجفارات اسم لحفائر وجور بالطريق كجفارات الحاكة.

وسَطْحُ العقبة: قاع أَفْيَح، ويوجد بأَرضه ماء المطر في أَوقات، ينزل الركب بآخره بالقرب من رأْس النَّقْب، ويستعد للنزول منه.

والعادة أَنَّ أَمير الركب يبادر إِلى دخول السطح في وقت يسع تجهيز جمال الشعارة والربائع ومَن معهم قبل الركب، ومعهم فرقة من العسكر مستعدة بالسلاح، وفرقة من الرماة ليخف على بقية الركب كثرة الازدحام، ويكون بصحبتهم مَن يثق به أَمير الحاج من مشايخ الدرك إِن كانوا على الطاعة، ويبيت غالب الركب وأَمير الحاج بالسطح إِلى طلوع الفجر.

وفي سنة خمس وخمسين أَقام إِلى قبل الفجر بثمان درج، وسار بعد أَن فرق المشاة من العسكر الرماة على رؤوس الجبال والمخارس يميناً وشمالاً، ونزل الركب وأَمير الحاج و(دواداره) يسهلون طرق العقوب في المضايق مع حفظ الساقة بالعسكر والقوّاسة، فكان غالب الركب بمناخ العقبة أَذان الظهر، تكامل بقية ذلك بعده.

وذكر ابن العطار في مؤلفه أَن مقدار النزول من النقب إِلى المناخ سبع ساعات وكان هذا النقب على الغاية من الضِّيق والوعر، والصعود المشق السلوك إِليه فأَصلحه الملوك السالفة أَولاً منهم الملك الناصر محمد بن قلاوون فإِنه أَصلحه مرتين، والسلطان الملك الأَشرف قانصوه الغوري، على يد الأَمير خاير بك المعمار حتى سهل أَمره يسيراً. فلما كانت ولاية المرحوم داود باشا في نيف وأَربعين وتسع مئة جهز المرحوم محمد جلبي ناظر الأَموال إِلى عقبة أَيلة، وكشف عما يحتاج إِليه ذلك النقب من الإِصلاح الكُلّيِّ، وصحب معه أَكابر المعمارية وصَوَّرَ صورَة تلك الأَرض ومسالكها في أَوراق عُرِضَتْ على داود باشا ثم جهزت إِلى حضرة مولانا السلطان سليمان، وعرض عليه أَمر العمارة، وتقدير الاحتياج لكمال الإِصلاح فبرز الأَمر الشريف السلطاني بعمل ذلك، وعين أَمين من الأَروام، صحبة القاضي أَبي المنصور أَحد أَعيان الكتَبة، وهذا المُهِمُّ كان سبباً لكتابته بالديوان السلطاني في الغلال، واستمر على ذلك إِلى أَن توفي قتيلاً على يد فتاه، وجُهِّزَتِ المعماريةُ والآلات وما يُحتاج إِليه، بحيث أَنهم قاموا بالنقب لإِتقان هذه العمارة وقطع الجبال بالمعاول لتوسعة الطرق بهمّة ملوكية، وعزيمة خاقانية، إِلى أَن تكامل ذلك في مدة تزيد عن السنة فصار مسلكاً حسناً، ومرتقاً هَيْناً، وطريقاً لَيِّناً، بعد أَن كان ذلك النقب من أَشق المسالك وأَعظم المهالك.

وذكر العلامةُ المقريزيُّ في كتابه «المواعظ والاعتبار» فقال: وادي أَيْلَة ـ على وَزْنِ فَعْلة ـ مدينة على شاطىء البحر فيما بين مصر ومكة، سميت بِأَيْلَةَ بنتِ مَدْيَنَ بن إِبراهيم عليه السلام. وأَيْلَةَ أَوَّلُ حَدِّ الحجاز، وقد كانت مدينة جليلة القدر على ساحل البحر الملح، بها التجار الكثيرة، وأَهلها أَخلاط من الناس، وكانت حَدَّ مملكة

الروم في الزمن القديم، وعلى ميل منها باب معقود لِقَيْصر يأْخذون هناك المكس، وبين أَيْلَةَ وبين القدس ست مراحل، والطور الذي كلّم الله عليه موسى على يوم وليلة من أَيْلَةَ، وكانت في الإسلام منزلة لبني أُمية، وأكثرهم موالي عثمان بن عفان، وكانوا سقاة الحاج وكان بها متاجر وأسواق عامرة وكانت كثيرة النخل والزرع، وعَقَبَةُ أَيْلَةَ لا يصعد إليها مَن هو راكب، وأَصْلَحَها فاتن مولى خُمارَوَيْه بن أَحمد بن طولون، وسَوَّى طريقها، ورَمَّ ما استهدم منها، وكان بأَيْلَةَ مساجد عديدة وبها كثير من اليهود يزعمون أَن عندهم بُرْدُ النبي ﷺ وأنه بعثه إليهم أَمَاناً وكانوا يخرجونه برداً عَدَنِيًّا ملفوفاً في الثياب، قد أُبرِزَ منه قدر شبر فقط. ويقال: إنَّ أَيْلَةَ هي القَرْية التي ذكرها الله تعالى في الكتاب العزيز، حيث قال: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [الأعراف: ١٦٣] إلى آخر الآية، وقد اخْتُلِف في تعيين هذه القرية فقال ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة وَالسُّدِّيُّ هي أَيْلَةَ، وعن ابن عباس أَيضاً أَنها مدائن بين أَيْلَةَ والطور، وقال قتادة وزَيد بن أَسلم: هي ساحل من سواحل الشام بين مَدْيَنَ وعَيْنُونَةَ، وقيل: إنَّ أَيْلَةَ أَصلها (ايليايلة) وقد وقع ذكرها في التوراة كذلك. وذكر المسعودي أَن يوشع بن نون عليه السلام حارب السَّمَيْدعَ بنَ هرمز بن مالك ملك الشام ببلاد أَيْلَةَ نحو مَدْيَنَ وقتله، واحتوى على ملكه وفي ذلك يقول عوف بن سعيد الجرهمي:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْعَلْقَمِيَّ بْنَ هُرمُزٍ … بِأَيْلَةَ أَمسَى لَحْمُهُ قد تَمَزَّعَا

تَدَاعَتْ عليه مِنْ يَهُوْدَ جَحَافِلٌ … ثَمَانِيْنَ أَلْفاً حَاسِرِيْنَ وَدُرَّعَا

وهي أَبيات كثيرة.

وقال ابن إسحاق: فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك أَتاه يحنة بن روبة صاحب أَيْلَةَ، فصالحه وأَعطاه الجزية، وكتب له كتاباً، وكان ذلك في سنة تسع من الهجرة، ولم تزل مدينة أَيْلَةَ عامرة آهِلَةً، وفي سنة خمسة عشر وأربع مئة طرق عبد الله بن إدريس الجفريُّ أَيْلَةَ ومعه بعض بني الجرَّاح ونهبها، وأَخذ منها ثلاثة آلاف دينار وعدة غلال، وسبَى النساءَ والأَطفال، وفي سنة ست وستين (وخمس مئة) أَنشأَ الملك الناصر صلاح الدين يوسف مراكبَ مفصلة، وحملها على الجِمال، وسار بها من القاهرة في عسكر كبير، لمحاربة قلعة أَيْلَةَ، وكان ملكها الفرنْجُ، وامتنعوا بها، فنازلها في ربيع الأَول، وأَقام المراكب وأَصلحها، وطرحها في البحر، وشحنها بالمقاتلة والأَسلحة، وقاتل أَهل قلعة أَيْلَةَ في البر والبحر، حتى فتحها في العشرين من

ربيع الآخر، وقتل مَن بها من الفرنج وأَسرهم وأَسكن بها جماعة من ثِقَاتِه، وأَقواهم بما يحتاجون إِليه من سلاح وغيره، وعاد إِلى القاهرة في آخر جمادى الأُولى، وفي سبع وسبعين وصل كتاب النائب بقلعة أَيْلَةَ أَن الراكب على تَحَفُّظ وخوف شديد من الفرنج، ثم وصل الأبرلس لعنه الله إِلى أَيْلَةَ وربط العقبة وسيّر عسكراً إِلى ناحية تبوك، وربط جانب الشام لخوف من عسكر يطلبه من الشام أَو مصر، فلما كان في شعبان من السنة المذكورة كثر المطر بالقلعة بِأَيْلَةَ حتى صارت بها مياه استغنى بها أَهلُ القلعة عن ورود العين مدة شهرين، وتأَثَّرَتْ بيوت القلعة لتتابع المطر، ووهنتْ لضعف أَساسها، فتداركها أَصحابها وأَصلحوها، وكان إِلى جانب أَيْلَةَ مدينةٌ عظيمة جليلة يقال لها عيصون. انتهى ما قاله المقريزي.

وقال أَبو عبيد البكري في كتابه «المسالك والممالك»: إِنَّ أَيْلَةَ قرية كبيرة، فيها أَسواق ومساجد وفيها كثير من يهود ويزعمون أَن عندهم بُرْد النبي ﷺ وأَنه وجّه به إِليهم أَماناً لهم، وهم يظهرونه بُرْداً ملفوفاً في الثياب، قد أُبرزَ منه مقدارُ شِبْرٍ لِئَلاّ تدنِّسُهُ الأَيْدِي، وروى أَبو حميد الساعدي في خبر غزوة تبوك أَن صاحب أَيْلَةَ أَهدى النبيَّ ﷺ بغلة بيضاء وكساه بُرْداً ومن أَيْلَةَ تسير إِلى العقبة التي لا يصعدها راكب لصعوبتها، ولا تقطع إِلا في طول اليوم لطولها. وقال صاحب «تقويم البلدان».. وأَيْلَةَ كانت مدينة صغيرة وكان بها زرع يسير، وهي مدينة اليهود الذين جُعل منهم القردة والخنازير، وهي على ساحل بحر القلزم، وعليها طريق حاج مصر، وليس بها زرع، وكان بها قلعة في البحر فَأُبْطلت، ونقل الوالي إِلى البرج في الساحل. انتهى كلامه.

قُلْت: وقد استجدّ بها النخل الذي على ساحل البحر وبعض حدائق بالوادي والساحل، وجميع ذلك لبني عَطِيَّةَ الْحُوَيْطَات، وإِنما لقبوا بذلك لما بنوه من بعض الحيطان على النَّخْل، ولغيرهم منه جانب يسير استجده بعدهم، والجميع من بني عَطِيّة.

وفي كتاب «عجائب البلدان» المسمى «الخريدة»: عقبة أَيْلَةَ قرية صغيرة على جبل عالٍ، صعب المرتقى يكون ارتفاعه والانحدار منه يوماً كاملاً، وهي طرق لا يمكن أَن يجوز فيها إِلا رجل واحد، وعلى جانبها أَودية بعيدة الْمَهْوَى. انتهى.

أَقول: وصفتها أَنَّ الركب يَبْتَدِىء بالنزول في أوعار وصعود وهبوط، إِلى أَن ينزل إِلى الدار الحمراء، المسماة بلون تربتها، ثم يصعد منها إِلى حدرة طويلة وعرة،

وفيحاء حمراء ثم فيحاء بيضاء. وشَقيف جبل، يساراً، وتحته واد عميق ومضيق، ثم صعود وحدرة تسمى الحلزون، إلى أن ينزل بآخرها إلى فيحاء حمراء متسعة يستريح الركب بها يسيراً، ثم عقبة وحدرة وأَودية كبار ويُرَى البحر، ثم يصعدون بين جبال سُوْد، ثم يهبطون إلى الفضاء والبحر، وتسمى هذه العقبة قنطرة البحر الملح، إلى أن يَحُطَّ الركب في الطلعة بين ساحل البحر والجبل من أَيْلَةَ في اليوم التاسع من يوم الرحيل من البِرْكة، وفي مستهل القعدة غالباً، وفي الرجعة يَحُطّ بساحل البحر بعد أن يَمُرَّ على جميع النخل ويجعله وراءه.

وللصلاح الصفدي في رؤية هلال ذي القعدة:

هِـلاَلُ ذِي الْـقَـعْـدَةِ أَبْـصَـرْتُـهُ وَقَـدْ تَـوَجَّـهْـنَـا إِلَـى الْـحَـجَّـةِ
كَـأَنَّـهُ حَـزَّةُ بِـطِّـيْـخَـة صَـفْـرَاء أَوْ شُـقَّـةُ أُتْـرُجَّـةِ

وقال:

انـظُـرْ هِـلاَلَ ٱلأُفُـقِ فـي جَـوِّهِ بِـالْـجَـانِـبِ الْـغَـرْبِـيِّ إِذْ خَـيَّـمَـا
كَـأَحْـمَـقٍ أَفْـرَطَ فـي جَـهْـلِـهِ بِـفِـتْـرِهِ بَـاتَ يَـقِـيْـسُ الـسَّـمَـا

وللشهاب ابن أَبي حَجَلَة:

حَـبَـالِـصَـةُ الْـحُـجَّـاجِ زَادُوا بِـأَيْـلَـة فَكَمْ ضَيَّقُوا صَدْراً بِهَا في الْمَضَايِقِ
وَكَـمْ حَلَقُوا فِيْهَا الذُّقُوْنَ لأَنَّهُمْ يَـجِـيْـئُـوْنَ فـيـهـا الـنـاسَ مِـنْ كُـلِّ حَـالِـقِ

وله أَيضاً:

إِذا لاَحَ لِي من سَفْح أَيْلَةَ بَحْرُهَا غَدَوْتُ وَلِي مِنْ دَمْعِ عَيْنَيَّ أَبْحُرُ
وَكَـمْ سَـائِرٌ مِـثْـلِـي يَـهِـيْـمُ صَـبَـابَـة يَقُوْدُ بِهَا الْجَمَّال وَالدَّمْعُ يَقْطُرُ

ولأَبي عبد الله الفيوميِّ:

يُـقَـاسِـي رَكْـبُـنَـا نَـصَـبَـه وَنَـالَ الْـقَـلْـبُ مَـا طَـلَـبَـهْ
وَأُطْـلِـقْـنَـا مِـنَ الْـعَـقَـبَـهْ وَمَـا أَدْرَاكَ مَـا الْـعَـقَـبَـهْ

ولنذكر أَمر الدَّرَكِ وتقسيمه بالنقب والمناخ فنقول:

وأَمَّا أَمر الدَّرَك وتقسيمه فاعلم ـ وفقك الله لطاعته ـ أَنَّ درك النقب من السطح إلى جانب البحر الملح حيث المحل الذي يزين به أمير الحاج (وطاقه) عند دخوله، ومحطته بالمناخ، ويعرف قديماً بالحمام، إما لكون أن هذا المحل كان به حمام

قديم، أَو لأَجل أَن بعض الحجاج عند نزوله من النَّقْبِ يغتسل هنا من أَوساخه، والأَول أَقرب، فإِني رأَيت في يد الشيخ شاهين بن حسين بن نجيعة بن هرماس بن مسعود شيخ بني عَطِيَّة الْوُحَيْدَات، مربعة قديمة من الملوك السالفة، يذكرون حَدَّ الدَّرَك كما ذكرته، وغايته إِلى الحمَّام.

وينقسم درك النقب المذكور على أَربعة أَقسام لأَربع بَدَنَات من بني عطِيَّة فيكون أَرباعاً:

الربع الأَول: لمشايخ الوحيدات، يقبض ذلك الشيخ عمر بن شاهين بن حسين وعبد الله أَخوه ومَن تبعه، وعمر المذكور في زمننا عين هذه الطائفة، وهو الذي يقبض جميع المبلغ من العائد بيده، ويفرقه لأَربابه، وتارة لا يرضى بقية الشركاءِ بقسمته من يده، لأَنه يَتَنفَّلُ عليهم بقسم خامس له من المئتي دينار، فيكون له خمسان وللباقين ثلاثة أَخماس، وحَضَرْتُهُ في عام من الأَعوام قسمها على هذا الشرح، فلم يعجب بقية أَهل الدرك ذلك، ولم يُذْعنوا له فيها.

ومن الوحيدات حسن بن ندال وأَولاده، وأَولاد الفقير عيد وعميرة ومَن معهم، وجماعات كثيرة، وحصة هذه الطائفة على طريق الاعتدال الربع، فكيون خمسين ديناراً، وعلى ما ادَّعاه عمر بن شاهين خمسان من المئتي دينار، وقد قدمنا ذكر ذلك قريباً.

والقسم الثاني: لطائفة المساعِيد من بني عطية، ومن أكابرهم عتيق بن مسعود بن دغيم، وعليان بن مشور، وعمران بن حويران (من الحوارنة).

والقسم الثالث: لطائفة الرُّتَيْمات من بني عطية، منهم محمود بن رافع وغنام ورفقتهم.

والقسم الرابع: لطائفة الترابين من بني عطية أَيضاً، منهم سلمان العديسي، ومحمد بن عجرمة (الأَسود) وأَولاده، وونيس ورفقهم، لا يتميز قسم عن قسم في المبلغ إِلا ما ادَّعاه عمر بن شاهين استطالة عليهم. وأَما المناخ وَحَدُّهُ من جانب البحر محل زِيْنَةِ أَمير الحاج إِلى بُوَيْب العقبة وهو البناء الذي على قُنَّةِ الجبل، وكان المبشرون يصعدون إِليه في مرورهم بأَعلامهم، ويذكرون في الذهاب ما معناه أَنَّ الحاج قد دخل المفازة من بابها وأَغْلق ما وراءه فلا يفتح إِلا إِذا عاد، وكان الشيخ محمد عُرف بأَبي جريدة المبشر يواظب على ذلك، ويَعده كالرتبة له، وكان دركه لطائفة بني شاكر الحجر، يُدْعَوْن بأَوْلاد راشد، ويقال لهم المراشدة، ويشاركهم في

ذلك طائفة من بني عطية الكرك، تُسَمَّى بالكعابنة، واستمروا على ذلك إِلى نَيِّفٍ وأَربعين وتسع مئة في ولاية المرحوم جانم من قصروه لإِمرة الحاج، فلما استولى جماعة الحويطات على المناخ وكثر عددهم ونما نخلهم واشتهروا بالفساد، ولم يرتدعوا بقتلِ بعضهم، وشاركهم في ذلك المفسدون، المتوسمون لملاقاة الركب في كل سنة، لأَن الحاج يقيم بهذا المناخ ذهاباً وإِياباً ستة أَيام، ويرد عليه طوائف العربان من غَزَّةَ والشوبك وحِسْمَا، وغير ذلك من البلاد مع قلة عدد بني شاكر وانقطاع طائفة الكعابنة عنهم، وقلة المعلوم في نظير خفارة هذا المحل الكثير الضوائع، فعجزوا عن القيام بحفظ الدرك، واستولت الحويطات على المناخ، ولم يقدروا على دفعهم، وكثر ضررهم بالنخل، ومن جوانب الركب، وصارت تلك البقعة وطناً للحويطات، الجِيْل الذي قد جُبِلوا على الفساد وأذى العباد، واتفق أَنه لما ولى الأَمير جانم من قصروه لإِمرة الحاج في سنة ست وأَربعين (وتسع مئة) وكان ذلك قبل الشروع في عمارة النقب، وتسهيل طرقه، فتأَخر نزول الركب خصوصاً أَنَّ أَمير الحاج سبق نزول الحاج إِلى المناخ، واعتمد على بعض جماعته مع الركب به فلم يجد الركب مَن يُسَهِّل طرقهم ويقف لتسهيل العقوب على العادة، فاستمر بهذه الواسطة ينزلون من النقب شَيْئاً بعد شيء إِلى الليل، ففزعت بَنُو عطية بالنخل، وجوانب الركب، وبالطرقات تنهب وتُعَرِّي، والصياح متزايد من كل جهة من الحجاج، وكثرت الغوغاء على أَمير الحاج بسبب إِهماله لمثل ذلك، فلما أَصبح طلب مشايخ الحويطات بالأَمان، فلما حضروا إِلى عنده طَيَّبَ خواطرهم وأَوعدهم بكل جميل، وحضر مؤلف هذا الكتاب وقاضي المحمل إِلى مخيمه، وأَشهد عليهم بالقيام بالدرك، ورتَّبَ لهم من ماله من الفضة أَلفي نصف، وقرر لهم أَيضاً ما كان لبني شاكر من ديوان السلطنة وهو من الفضة ثمان مئة وخمسة عشر نصفاً، وجعل لهم ما كان لبني شاكر من الجوخ المخيوط والشاشات والملاليط، وزادهم عليه من ديوانه وأَشهد على نفسه بدفع هذا القدر في كل سنة، ودفع لهم ذلك فداهنوه إِلى أَن عُزِلَ بعد تنظيف النقب، في سنة اثنين وخمسين بولاية الأَمير أَيدين الرومي للإِمرة في تلك السنة، فدفع لهم نصف القدر في الطلعة، وذكر أَنه يعطي باقيه في حالة الإِياب بعد الصعود إِلى السطح، ولم يفعل ذلك عند عوده، ثم ولي بعده الأَمير حسين كاشف الفيوم والبهنساوية، وكان من الفروسية بمكان، فاتفق أَنهم تعرّضوا لبعض الحجاج بالنقب وسلبوه، فلما نزل أَمير الحاج إِلى المناخ وقت المغرب لبس لاَمَةَ حَرْبِهِ وخرج ومعه المشاعل والطوف من (الوطاق)، كأَنه يريد حراسة الركب ليلاً، فلم يشعر عربان الحويطات إِلاَّ وقَدْ فاجأَهم

في بيوتهم كَبْساً، وأَطلق فيها النار ليحرقها فهربت الرجال، فأَدرك منهم ثلاثة من أَعيانهم فقطع رؤوسهم، واحترق بعض الأَطفال في المهد، وأَحاط على نَيِّفٍ وسبعين امرأَة منهم غير الأَولاد، وأَتى بهم صحبة الترك إِلى خان عقبة أَيْلَةَ، فحبسهم بها، فكفُّوا وعَفُّوا مدة إِقامته بالمناخ، ولم يسمع بسارق ولا صارخ مطلقاً، ولم يعطهم في تلك السنة الدرهم الواحد، ورحل ولم يُعطهم شيئاً، وترك نساءهم وأَولادهم بالخان، إِلى أَن تكلم معه بعض أَصحابه في الإِفراج عنهم لكونهم نساءً وصبيانً، فجهز رسولاً من عنده بمكاتبة إِلى (باش الخان) يأمره بإِطلاقهم، فَأُطلِقوا ولم يَضِعْ لأَحد في ولايته بهذا الدرك ولا غيره عقالُ بعير، ثم ولي إِمرة الحاج بعده مصطفى باشا فلم يعطهم من ذلك شيئاً. واستمر الأَمر على ذلك وشرهم وفسادهم لا ينقطع ولا يمتنع.

والحويطات أَصحاب درك المبشر المتوجه بالمكاتبات إِلى القاهرة، وسأَل نجدي بن بسام شيخ أَولاد عمران من الحويطات الأَمير يوسف الحمزاوي أَن يكتب له مرسوماً بتقرير عادة على كل مبشر، فبرز أمره بذلك في سنة إِحدى وأَربعين، وقرر على مَن يتوجه من طريق الشام بالكتب مئتي نصف من الفضة، وَبلا كُتُب: ثة وهم قسمان:

القسم الأَول: آل عمران ويسمون أَولاد عمران، شيخهم نجدي بن بسام، وعتيق بن سباح، ومنهم أَولاد مدلج، وأَولاد حميد.

والقسم الثاني: العلاوين: شيخهم عويضة، ومنهم أَولاد عوض، وأَولاد سالم، وأَولاد التمار، وأَولاد سليمان، وأَولاد غافل، وأَولاد فراج، وأَولاد رافع، وأَولاد أَحمد، وأَولاد عيد.

والبدول: منهم أَولاد عاصي، وأَولاد جبر، وأَولاد حسين، وأَولاد معروف.

السويعديون: منهم سريع بن عيسى وأَعدادهم متوافرة وشرورهم متظاهرة.

وأَما بنو عطية فهم طوائف كثيرة، ونذكر ما تيسّر منهم.

فمنهم العَمَارِيْن ـ بعين مهملة مفتوحة، وميم مفتوحة وراء مهملة مكسورة، بعدها ياء مثناة تحتية ساكنة ونون آخر الحروف ـ منهم أَحمد بن هضيبة، ومحمود بن هلال، وغريب، ودَرَّاج بن حجاج، ومحمد بن بدين، المقتول على يد قيت الداوودي (دوادار) أَمير الحاج في سنة ست وخمسين وتسع مئة، وهم خفراء نَخل، ويلوذون بالخولي زين الدين من جهة خان نخل ومَلْءِ الفساقي، والقيام معه في ذلك.

ومنهم التَرَابِيْن ـ بألف ولام للتعريف وتاء مفتوحة مثناة وراء مهملة كذلك بعدها باء موحدة مكسورة وياء تحتية ساكنة ونون آخر الحروف ـ يختصون بثمد الحصى، والفيحاء، ووادي العراقيب، وآبار العلائي نزولاً وطرقاً، وليس لهم مقرر أصالة، إلا الربع من خفارة عقبة أَيْلَةَ كما قدّمنا ذكره.

وقد ذكرنا بقية عربان درك النقب ونعيدهم هنا لفائدة، وهو أن عربان الوُحَيْدَات ـ بواو مضمومة وحاء مهملة مفتوحة بعدها ياء ساكنة ودال مفتوحة وتاء مثناة آخر الحروف ـ وشيخهم الآن عمر بن شاهين بن حسين، والمقرر لهم قديماً على درك الخان القديم الذي كان بناه الظاهر بيبرس وهُدِم في الأيام الغورية، وأُعيد بناؤه جديداً على يد الأمير خاير بك المعمار في سنة خمس عشرة وتسع مئة وقدرها اثنان وأربعون ديناراً ونصف دينار، وتسمى في عرفهم النجيعية، لأنها قررت في زمن جده نُجيعة بن هرماس بن مسعود، وفي نسبته إلى هذه الجدود خِلاف بين أهل السِّنّ من عربان بني عطية، ويسمى الدرك عن هذه أيضاً بدرك الباب.

والضَّبة: أي باب الخان ـ وهي مستمرة المصرف إلى تاريخه ـ ولم يكن لهذه الطائفة قديماً غير هذه الصرة، ثم قُرِّرَ والده شاهين بن حسين بن نجيعة في الدولة المظفرية على يد الأمير المرحوم خاير بك ملك الأُمراء، المكنّى به عن نيابة الديار المصرية في مرتب بطريق الإنعام، لا عَلَى درك، وقدره مئتان وخمسون ديناراً، واستمر مدة، ثم من بعده لأولاده إلى تاريخه، ثم لما ولي الأمير المعظم محمد جلبي ناظر أموال الديار المصرية، وتوجه للكشف على عمارة النقب ـ كما قدمنا ذكره ـ كان عمر بن شاهين من المخصوصين بالتردد إلى بابه بالقاهرة، فاعتنى به وقرر له من الخزائن السلطانية لنفسه وأولاده خمس مئة دينار إنعاماً أيضاً، لاَ على درك، فَبِسَبَبِ انفراده في هذا التقرير تشوشتْ خواطر بقية أصحاب درك النقب، لكون أنهم ليس لهم إلا ما ذكرنا من المقرر على العائد، وأمّا من ديوان السلطنة فليس لهم درهم واحد، وكثر حسدهم ظاهراً وباطناً، وهم على ذلك إلى تاريخه، فصار مقبوض الشيخ عمر بن شاهين بن حسين بن نجيعة بن هرماس بن مسعود في كل سنة، أشرفية صغيرة تسع مئة واثنين وتسعين ديناراً ونصف دينار، منها ما يَخُصُّ رفاقه عن ثلاثة أرباع درك نقب أَيْلَةَ من مقرر العائد وباقي ذلك له ولأخيه عبد الدايم، ولبقية إخوته وذويه.

وأما عربان المساعيد: فهم أصحاب دَرَك مُبَشِّر الحاج في العود، منهم عتيق بن مسعود بن دغيم، وعيسى قريبه، وعليان بن مشور بن دُغيم ولهم عن درك الباب.

والضَّبة بخان عقبة أَيْلَةَ قديماً سبعة وأربعون ديناراً ونصف دينار، وهي مستمرة الصرف إلى تاريخه، ثم قرر لمسعود بن دغيم في الأيام المظفرية إنعاماً عليه من غير دَرَك، خمسون ديناراً، واستمرت بيد ولده من بعده.

واعلم أَن درك مُبَشِّر الحاج لهذه الطائفة، فمتى جَهَّزَ أَمير الركب مُبَشِّرَهُ إلى القاهرة بالعود ولم يدفع لهم عادتهم ويرضي خاطرهم على ذلك كان توجهه على خطر كبير ـ كما اتفق مثل ذلك مراراً عديدة ـ وعاد (الجاويش) وهو مسلوب ومجروح، ولم يقدر على التوجه منهم.

وأَمان عربان الرتيمات فليس لهم مقرر أَصالةً، وإِنَّما لهم ربع الدرك في النقب على العائد لا غيره، وهم رابع الأَقسام في درك النقب.

ومن أَعيان بني عطية طائفة الرُّشَيْدات، وأَدركت منهم أَعياناً من أَهل القوة والفروسية وعدة الخيول والعدد الوافر، منهم نعيم بن رمان وكان متعيناً منهم وصالح بن مدلج وأَولاد فريح، فأَفناهم الموت والقتل في الوقائع والحروب لشراسة أَخلاقهم، وبقيت منهم بقية ليست كالأَولين، منهم عيسى بن نعيم بن هاني، وعمه محمد بن هاني ولد الجارية، وهارون بن فريح، وهم أَوسع دركاً من غيرهم من بني عطية، ولهم المقرر أَصالةً من بُوَيْب مناخ عقبة أَيْلَةَ إلى مغارة شعيب، إلى المحل المعروف بِكُبَيْدَةَ بعدها، وهو آخر حَدِّ بني عطية، ومنه أَول حد بني عقبة وسيأْتي ذلك في بابه.

ومنهم طائفة الحوارين وأَصلهم حضري: منهم عمران بن حويران وهو شريك لعتيق بن مسعود في درك الباب والضبة بخان عقبة أَيْلَةَ.

ومنهم الأُحَيْوَات، منهم أَولاد أَبي سنينة، أَصحاب درك الدِّلاَلَة على المِيَاهِ والأَحْطَاب، من عَقَبة أَيْلَةَ إلى شَرَفَةِ بني عطية، ولهم مقرر قديم من الخزائن السلطانية عشرة دنانير.

ومن بني عطية طائفة السوارِكَة، وهم أَهل عَزْمٍ واختلاس من الركب، ولهم بعض الخيول الأَصايل، ولتوارد فسادهم بالركب لا يُقابَلون أُمراء الحاج، فإِنهم كانوا أَصحاب سواقة مغارة شُعيب، لسقاية الحاج، ولهم مرتب إلى الآن، يقبضه لهم عيسى بن نعيم وقدره عشرون ديناراً مستمرة الصرف على يد الرشيدات. وكان منهم جساس بن سليم السواركي.

الجبارات ـ بجيم معجمة مضمومة وباء موحدة مفتوحة بعد راء وتاء مثناة آخر الحروف ـ: ليس لهم درك ولا مقرر.

والعميرات من أَولاد عياد.

والقديريات من جماعة نعيم بن رمان بن هاني.

والرزيقات والحديرات والسماسمة من أولاد سعيد.

والمناضير ـ بضاد معجمة مكسورة ـ.

والترومة (؟) والمعازي النازلون بحسما.

والكعابنة بنو عطية الكرك، أصحاب درك المناخ، منهم سلام بن بيض وإِخوته سليم، وسلامة ورفقهم.

والسلالمة من أولاد معروف، أهل فساد في الشهرة، يتبعون الركب للاختلاس والأَذَى، من مغارة شُعَيب، وبعدها في الغالب.

والمعاريف من لفيف بني عطية.

والخرص ـ كالسعادنة وأولاد عياد ـ وقد عرفت أهل الدرك منهم.

والسَّوَاقَةُ والدِّلاَلَةُ وما عدا ذلك منهم أعداد، وعداد، وشرور وفساد..

وبعقبة أيلة آبارٌ منها في داخل الخان واحدة، وماؤها عذب سايغ من بناء السلطان الغوري مع الخان، وفي الخارج بئْران، داخل النخل، وماؤهما عذب وهما منهل الحاج، وبئران خارج النخل حيث الفضاء، وماؤهما دون ذلك، يسمونها آبار العرب، وكل مَن أراد الماء بقُرْبه هناك فليحفر من الأَرض مقداراً قريباً، يَرَى ماءً عذباً أحسن من ماء الآبار، وتختلف الحفائر في العذوبة فبعضها أَحْلَى من بعض وأَعذب والله أعلم.

ومدة الإِقامة بالمناخ ثلاثة أيام بيوم الدخول إِليه في الذهاب، ومثلها في الإِياب.

وفي رجوع الحجاج والتجار إِليها جرت العادة أن صاحب المكس الملتزم بماله إِمَّا أن يحضر بنفسه أو يجهز مَن يعتمد عليه إِليها ومعه المفتش والظلمة والأَعوان، للفحص على القماش والبهار، وما عساه أن يحضر صحبة أهل الركب، فيُفتِّشُوْن، ويَضبطون سائرَ ما يحضر صحبة الحجاج من ذلك، ويكتبونه بدفاترهم، عند وصول القافلة عجرود، يحوشون للحمل هناك بالعنف والشدة، ويستمر صحبة المكّاسة إِلى خان العادل وترتيبه خارج القاهرة فيعوق هناك، إِلى أَن يأْخذوا الْعُشْرَ من كل صنف إِذا أنصفوا، فلما ولي الرجل الصالح علي باشا على مصر أمر في عام سبع وستين

صاحب المكس أن يُعْفِيَ تجار درب الحاج من نصف العشر إكراماً لهم، ويؤخذ منهم نصف العشر فقَطْ، وجهز مثالاً إلى أمير الحاج بعقبة أيلة يأمره بإظهار النداء بذلك لجماعة التجار، ففعل ذلك وكثر الدعاء من الوفد، وعقب ذلك موته في سادس صفر الخير عام ثمان وستين.

وينصب بالمناخ سوق كبير، فيه من البضائع والفواكه ما لا يوجد في غيره، وقد يتفق فيه في بعض الأوقات من كثرة الفواكه والثمار، والزبيب، والقراصيا، واللوز الْغزّي، والرمان، والعنب والتفاح والكمثري، والجوز المجلوب من غزّة، والكرك والشوبك والقدس والطور، ما لا يوجد في غيره إلا بأعلى ثمن، ويجلب إليها صحبة الركب الغزي والباعة منها: الدبس، والدقيق، والشعير، والزيت، والشيرج، وبها الأغنام واللبن، والحشيش لعلوفة الجِمال، والتمر الصادق الحلاوة الحسن الرؤية، والعسل النحل، وتباع بها المحكات المأخوذة من البحر الملح، ورأيْتُ بها ملحاً أبيض نقياً في شكل قوالب السكر، يباع بسوقها زمن المواسم، لا يشك مَن رآه أنه سكر طبرزذ، فسأَلت عن صناعته فأُخبرت أنه طلٌ ينزل ليلاً، فتوضع القوالب الفخار في سطوح الخان ليلاً، وتصبح مملوءةً جامدة وتباع، وهذا من غريب ما يحكى، ويوجد بها الخيل والبغال والحمير والجِمال والمحاور والشقادف وسائر ما يحتاج إليه الركب والرجال الخدامة.

وأيلة آخر حد مصر وأول الحجاز، وبالجملة فهو منهل عَذيُّ على أهل الركب يحصل لهم به ومنه غاية الرفق من كل مطلوب، حتى ما يلبسه البردان من الفرو الغزاوي، والبشوت وغير ذلك.

ولقد مرّ لنا في هذا المنهل طيب أوقات، ونعم وخيرات، سارت وصارت في زمننا هذا من أعداد السمر والحكايات، مع أمراء أماثل سادة، وأخيار ينتظمون في سلك السيادة والسعادة.

ثُمَّ انْقضتْ تِلْك السِّنُونُ وأَهْلُها فكأَنَّها وَكأَنَّهُمْ أَحْلامُ

ولله عاقبة الأُمور.

الربع الثاني: وهو أَقصر الأَرباع، منازله إحدى عشرة منزلة، وهو أكثر مياه من الذي قبله، وشجره كثير إلى الغاية، ساعاته خمس وتسعون وثلث من ساعة، عنها بحكم الدرج ألف وأربع مئة وثلاثون درجة، وبه دَرْكان وبعض الثالث.

الأَول: للرشيدات من بني عَطِيّة، وأوله من الْبُوَيْب، وهو البناء الذي على قنة

جبل بآخر المناخ، وقد تقدّم ذكره، وآخره المحل الذي يدعى عند العربان بكبَيْدة - تصغير كَبدة - وهي بآخر مغارة شعَيْب، يسير الركب منها قليلاً إلى أرض حَصْبَاء في لون الحمرة إلى السواد، ورأيت في الدفاتر القديمة أنه كان يحاذي هذا المحل شجرة صدر فكانوا يحَدُّوْنَ نهايته إلى السدرة.

والثاني: درك بني عُقْبَةَ، وأوله يحاذي آخر كبَيْدَة، وأول المحل المعروف بطَيِّ الناشر، وهي أرض بيضاء فيحاء، في درك عربان المناصير، الحسينات من بني عقبة - بالصاد المهملة المكسورة - ثم بعد المناصير درك الحرشة من بني عقبة ثم درك الْعَمْرو، منهم، ثم درك الخرشة الشواريق منهم، ثم درك العطيشات أيضاً، ثم درك المسالمة منهم، ثم درك المناصير الرقيعات منهم، وهم آخر الدرك، وآخره تحت حدرة دَامَة، فإذا نزل الركب من حدرة دامة كان في أول دَرَك بَلِيٍّ.

ففي سنة خمس وخمسين سارت الشعارة من مناخ عقبة أَيْلَةَ قبل الفجر بخمس وأربعين درجة، وتبعهم الركب بعد خمس درج من غير العادة، والعادة وقت الفجر فسار إلى قبل الظهر بخمس عشرة درجة لأَول الركب، ودخل (الصنجق) قبله بعشرٍ إلى ظهر الحمار بعد أن مرّ على دوَّار حقل.

قال صاحب «القاموس»: الحِقل بالكسر: الهودج، والحقيل الأَرض التي لا تبلغ أن تكون جبلاً وموضع، والحوقلة القارورة الطويلة العنق، وسرعة المشي، ومقاربَة الخطو والإِعياء والضَّعف والنوم والإِدبار، والحاقول [سمك أخضر طويل، واسم ساحل تيما][1] بجانب البحر[2]. انتهى.

وبحقل في آخره حدرتان: اليمنى أوسع من اليسرى، والعادة القديمة أَنْ يُغَدِّيْ الركب بآخر حَقْلٍ لأَجل التَّزَوُّد من الماء، وفي بعض السنين في نَيِّف وأربعين شرب بعض أهل الركب من الماء المذكور فحصل لهم خلل في عقولهم، وبعضهم يتَفاوت في ذلك وأقاموا على ذلك نحو ثلاثة أَيام وعوفوا من ذلك، فيقال: إن تلك الحفيرة المشروب منها كان بها نوع من النبات يسمى الداتورة (؟) خالط أجزاء الماء فحصل منه ذلك، لأَني رأيته في بعض السنين كثر نباته في الأَرض من الشَّرَفَة إلى البويب، وإلى البركة المعروفة بالجبِّ كثيراً، وأفلح في تلك السنة في بعض تلك الأَراضي حتى صارت كالبساط الأَخضر الربيعي.

---

(١) ما بين المعكوفين من القاموس ولا بد منها. انظر: القاموس المحيط [٣/ ٣٤٨].
(٢) انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي [٣/ ٣٤٨].

وبالقرب من دَوَّار حَقْل تقدير ربع بريد بئر تسمى مَبْرَك ـ بفتح الميم وسكون الباء الموحدة وراء مهملة بعدها مفتوحة وكاف ساكنة ـ.

وبحقل أيضاً وادٍ يطلع إلى حِسْمَا.

ومُدَّة السير إلى ظهر الحمار مئة درجة، وهو فضاء فوق علوة، يُصْعَد إليه من حدرة طويلة كثيرة المحجر، وبجانبها أُخرى، وهما مُتْعبان للجِمال والرجال.

وللصلاح الصفدي في ركوب الْمَحارة:

رَكِبْتُ في مَحَارَةٍ ... وَسْطَ الْهَوَا مُعَلَّقَهْ
كَأَنَّنِي فُسْتُقَةٌ ... فِي قِشْرِهَا مُلَقْلَقَهْ
رَأْسِيَ سِنْدَانٌ لَها ... وَسَقْفُها لي مِطْرَقَهْ
أُدَقُّ كُلَّ لَحْظَةٍ ... دَقًّا بِغَيْرِ شَفَقَهْ
كَيْفَ الْخَلَاصُ بَعْدَمَا ... وَقَعْت وَسْطَ الْبَوْتَقَهْ؟!

وله أيضاً:

مَحَارَتِي شُغْلِي بِهَا ... طُوْلَ الْمَدَى كَمَا نَرَى
إِلَى الثُّرَيَّا صَاعِداً ... وهَابِطاً إِلَى الثَّرَى

وله:

مَحَارَتِي قَدْ زَادَ بي هَزُّهَا ... وَمَخْضُهَا قَدْ عَظمَتْ شِدَّتهْ
فَقلْت: مَخْضٌ طَيِّبٌ كَوْنهُ ... زِيَارَتي لِلْمُصْطَفَى زُبْدَتُهْ

وله:

لَمَّا تَكَرَّر لُبْثِي فِي الْمَحَارَةِ أَيَّـ ... ـاماً قلائلَ واسْتَحْيَيْتُ مِنْ مَلَلي
رَفَضْتُ فِيهَا تَوَالي ذَمِّ شِيْعَتِها (؟) ... ولم أَخَفْ بَعْدَهَا مِنْ وَقْعَة الْجَمَل

وللشهاب ابن أَبي حَجَلَة:

الرَّكْبُ مِثْلُ بَلْدَةٍ ... طَرِيقُهَا مُطَرَّقَهْ
فَكَمْ بِهِ مَحَارَةٌ ... تَلُوحُ مِثْلَ الطَّبَقَهْ
مِنْ حَوْلِهَا محفَّةٌ ... كَقَاعَةٍ مُعَلَّقَهْ

وللسراج الورّاق:

بَاتَ عَيْشِي عَلَى الْمَحَا رَةِ عَـيْـشـاً مُـنَـغَّـصـا
مَـخَـضَـتْـنِـي فَـلَـوْ غَـدَا بـي زُبْـدٌ تَـخَـلَّـصـا
رَائِـحـاً جَـائِـيـاً بِـهَـا وكَـذَا عَـادَةُ الْـخُـصَـا

والعادة إن غدَّى الكرب بظهر الحمار أقام مقدار ثلاثين درجة، ثم يسير إلى بين الْجُرْفَيْن، فيعشِّي به، ومدة سيره خمس وخمسون درجة، ويقيم إلى بعد العشاء بخمسين درجة، ويسير إلى شَرَفَة بني عطية، فيغدِّي بها برأس وادي عَفَان ـ بتخفيف الفاء ـ ومدة سيره مئةٌ وثلاثون درجة، هذا ما فيه راحة الجِمال، والجمَّال، خصوصاً ما تحويه هذه المراحل وتشتمل عليه من المشقات المشهورة، واستقبال الأَيام المسماة بالسُّتَّعَشْرية إلى الينبع.

وأما في سنة خمس وخمسين فأَقام بظهر الحمار إلى بعد العصر ـ من غير عادةٍ ـ خمساً وخمسين درجةً، وسار قبل المغرب بعشرين درجةٍ شَيْلَةً واحدةً، فقطع عُشَّ الْغُراب ـ وهو جبلٌ صغيرٌ، يمر عليه الركب في وسط الطريق بين الجبال ـ وغَدى مع طلوع الشمس بآخر الحدرة التي هي أول وادي عفَان، فكان المسير إليها في مئتين وستين درجة، ومثل ذلك من أَخبث السير وأرداه، كما لا يخفى على ذي لُبٍّ، ويَمُرُّ في بَيْن الْجُرْفَيْنِ على حدرات بشاطىء البحر الملح، وجروف تراب ثم يدخلون الوادي يساراً.

والشَّرَفَةُ كالزلاَّقة المبنية، مسطحة يساوي منتهاها سطح عقبة أيلة، ووادي عَفَان ـ بتخفيف الفاء المفتوحة وضم العين المهملة قبلها ـ.

وبهذه الرحلة من المياه الوارد عليها العربان، فبالقرب من بين الْجُرْفَيْن مقدار نصف بريد، حَفِيرة تسمى الْحُمَيْضَة ـ بحاء مهملة مضمومة وميم مفتوحة بعدها ياء ساكنة وضاد معجمة مفتوحة وهاء ـ.

ومن الشرفة بمقدار ثُلثي بَرِيْد حَفِيرة تسمى الْبوارة ـ بباء موحدة بعدها واو مفتوحة وراء كذلك وهاء ساكنة للوقف ـ.

وبرأس عَفَان عند قَبْر السَّفاف مقدار نصف بريد، حَفيرة جفار تسمى وُجَيْرَا ـ بواو مضمومة وجيم مفتوحة بعدها ياء تحتية ساكنة وراء مهملة مفتوحة ـ.

وبهذه الشرفة تضرب الأَمثال، في شدة المشاق للجِمال، ويقال: لا حَجَّ إلاَّ بعرفة، ولا جمَال إلاَّ بعد الشرفة، لكن مشقتها العظمى على الجمال في الرجعة وللصلاح في مرحلة متعبة:

قُلْتُ إذْ كَلَّتِ الْمَطَايَا ومَلَّتْ … مِنْ سُرَاهَا وفِيْه وَهْنٌ وَهُوْنُ
لا تُراعِي التَّقْصِيْرَ مِنْك تُرَاعِي … إنَّ هَـذَا يَـهُـوْلُ ثُـمَّ يَـهُـوْنُ

وبَرْدُها زمنَ الشتاء شديدٌ جدًّا، وفي أيام الاعتدال لا تخلو من البرد، وأتذكر في أواخر السنين من ولاية المرحوم جانم من قصروه، وقع بالرجعة في هذا المحل برد شديد في غير زمنه، بحيث أنه أوقف حال السائرين لشدته، ولقد وقع لي وكنت راكباً بغلةً فلم أملك نفسي على ظهرها من شدة البرد، فوقعت إلى جانب شجرة، ولا زلْتُ جالساً إلى أن طلعت الشمس وتضاحَى النهار، وافْتُقِد من تَنَبَّلَ في ذلك اليوم من الجِمال فكان يزيد على الألَف جمل..

وللصلاح الصفديّ:

قَدْ فَتَّ هَذَا الْهَواءُ الصَّعْبُ في عَضُدِي … وَأَوْهَنَ الْبَرْدُ جِلْدِي إذْ وَهَى جَلَدِي
فَلَوْ أَتَانِي الْوَرَى حَتَّى أُبايعهُمْ … عَلَى الْخِلاَفَة مَا امْتَدَّتْ لِذَاك يَدِيْ

وأقام أمير الحاج في تلك السنة بالدار ستين درجة، وسار قبل الظهر بخمس عشرة درجة فمرّ على قَبْر السَّفاف، وهو رجل من بني عُقْبَةَ، قاتل الحجيج ونهبهم، فقتل هو ومَن معه ورُجم قبره، فهم يرجمونه إلى الآن، فعشَّى بالقرب من المظلّة، بدار الرجعة، أذان المغرب، وكان بينه وبين دار المعشى المعتاد خمس عشرة درجة، ومدة سيره لدخول (الصنجق) تسعون درجة، وبالقرب من المظلة تقدير ثلث بَرِيْد حَفِيرةٌ تسمى القُصَيْر ـ بضم القاف المثناة بعدها صاد مهملة مفتوحة وياء مثناة تحتية ساكنة وراء مهملة ـ وأما المخارس إلى حِسْما فعند عُشّ الْغُراب مَخرس، وعند قبر السَّفَّاف بوادي عَفَان مخرس أيضاً، وعربان الحُويطات من بني عَطِيَّة تتبع هذا الدرك في الغالب لِلأَذَى والفساد، خصوصاً من قِلَّة خفارته، بذهاب فرسان الرُشَيْدات بالموت كما قدّمنا، وما بقي منهم ففي قلة، مع سعة الدرك وطول مدته وغير الحويطات كَهُمْ في ذلك.

والعادة في الإقامة بها إلى بعد العشاء بخمسين درجة، ففي سنة خمس وخمسين أقام إلى بعد العشاء بأَربعين درجة وسار إلى مغارة شُعيب ـ عليه أزكى الصلاة والسلام ـ فكان مسيره إلى قبل طلوع الشمس بأَربع عشرة درجة مئة وثلاثين درجة، لدخول (الصنجق) ووقف الدليل عند دخول الحاج مضيق الدار نحو عشر درج، وإلاَّ فعادتها الأَصلية مئة وعشرون درجة، وبها شجر الْمُقْل كثير، ومن الأَحطاب ما لا يُقَدَّر قدره، لكثرة ما بها من شجر أُمّ غيلان وشوك السعدان، واستجد

بها نَخْلٌ لبني عطية، فإن المتقدمين في السن ذكروا ذلك، وأنه لم يكن بذلك المحل فيما تقدّم نخل مطلقاً.

وأراد مصطفى باشا في أول ولاياته السوابق أن يُحْرق هذا النخل لشدة غيظه وحنقه منهم، فأَطلق النارَ فيه ليغيظهم بذلك، فأَشار عليه بعض الحاضرين بمجلسه ذلك أن يكف عنه ففعل.

والمغارة بالجبل يتحصل بها الماء من الأَمطار، وكان موردها في القديم للوفد بِئْراً بِساقية وفسقية، وطبقة بِقُبَّة، ورأيت المغارَ سُفْلِيًا مُتَّسِعاً، وبه منفذ صغير ثان، من جانب الساقية، والساقية بالطوب الأَحمر، وبئرها واسعة المقدار، ولها حظير مبني بالآجُرّ، وبالساقية بيت لخزن التبن ومحل للسواقي، وتجاه ذلك بناءٌ بالآجُرِّ شبه مسجد، ويظهر لي أنه كان مُسَقَّفاً، فإني رأيت بصدره سُلَّماً لطيفاً معقوداً، يُصْعَدُ منه إلى سطحه، وللساقية مجراة بالأَرض طويلة، من الحجر النحيت الأَبيض، تَصُبُّ في فسقية كبرى، في مقدار فسقية بركة التي بأَرض الزيارة (؟) يشبه أنه كان منهلاً جليلاً، ورأيت في البناءِ عدة من التواريخ المنقوشة في ألواح من الحجر، قرأتُ في بعضها اسم السلطان قايتباي، ويظهر لي أنه جَدَّدَ بابَها، وتاريخاً داخلاً عن الأَول، يظهر لي أنه نُقش في نَيِّفِ وثمان مئة، فإني جهدت للبيان عن المكتوب فيه فغلبني رثاثته لقدمه، ولم أُفَسِّر منه سوى إنشاء مولانا المقام الشريف السلطان، ولعله برسباي، ورأيت هناك آثار سور مبني بقطع من الحجر الأَبيض الصغير، مستطيلاً على طرف الجبل، ومن داخل السور هيئة خَنْدَق محفور لطيف، والبناء ماش على طرف الجبل، إلى مسافة كبيرة، ولعله كانت هناك قرية لطيفة وبها سلطان (؟) والله أعلم بذلك.

ورأيت هناك حُفَراً كثيرة بالإِبْزيم وما علمنا السبب لذلك، وسواقيها طائفة من بني عطية يدعون بالسواركة، ولهم عشرون ديناراً من ديوان السلطنة، فلما منح الله هذا المحل كثرةَ الماء الطيب، وفتح الله تعالى على وَفْدِه بحسن الرواء منه، فاستغنوا عن ذلك المورد بماء الحفائر الحلوة، المعادلة لماء النيل في الحلاوة والخفة، وعدم التغير بطول المكث في الْقِرَب، استمرت الدنانير تصرف لجماعة السواركة كما قدّمنا ذكر ذلك.

ومن غريب ما وقع في هذا المورد في عام سبع وستين وتسع مئة أن الركب ورد الماء ضَحْوَةً عليه، فبمجرد أن شربت الجِمال من الحفائر توعكت وضعفت، فمنها ما سقط ميتاً على الحفيرة، ومنها ما وقع فيه الفناء الْوَحِيُ بعد ساعة، واستمر

الحال على ذلك بهذا المورد حتى أوجب أن الركب أقام بهذه المنزلة في الطلعة يومين وليلة، لعجزه عن الرحيل، ولم يُشاهَدْ مثلُ ذلك قبله، ثم أَثَّرَ الماءُ في بعض الحجاج فحصل لهم الموت الوحي، وكان الوقت صائفاً فأعان وجود الحر والهواء الحارِّ على ذلك في الجِمال وبعض الرجال، ورفع الله ذلك عن وفده بعد أيام قلائل.

وأرض مَدْيَنَ بشاطىء البحر، على يوم من المغار، بها أشجار وكروم وحدائق، ويُزْرع بها بعض الفواكه كالتفاح، والبطيخ الأَخضر، وحُمِل إلينا من تفاحها وبطيخها مراراً عديدة، وفي المغارة شجر عظيم من الجانب الغربي يسمى الأَيكة، ذكر ذلك السروجي الحنفي في «مناسكه» واشتقاق مدين من مَدَنَ بالمكان، إذا قام به ومنه المدينة، والمُدن، والمدائن، لكثرة إقامة الناس بها وسكناها.

وقال صاحب «تقويم البلدان»: مَدْيَنُ مدينة خراب، على ساحل بحر القلزم، محاذية لتبوك، على نحو ست مراحل منها، وبها البئر التي استقى منها موسى لسائمة شُعَيْب.

ومَدْيَن اسم القبيلة التي كان فيها شُعيب، ثم سُمِّيت القرية بهم، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥].

قال ابن سعيد: ويكون عرض البحر عن ساحلها نحو مجرا، وفوق ذلك المكان مسامت لِلْقُصَيْر من الجانب الغربي. انتهى كلامه.

وفي كتاب «عجائب البلدان»: أَنَّ مدينة مَدْيَن على ساحل بحر القلزم، وهي خراب، وبها البئر التي استقى موسى عليه السلام لغنم شُعَيبْ منها، وهي الآن معطلة.

وذكر أبو عبيد البكري في كتابه «المسالك» أن ضَبَا ـ بضاد معجمة مفتوحة وياء موحدة كذلك ـ محل بالقرب من مَدْيَن وأنه مرفَأٌ لِلسُّفُن مأمون، وفيه آبار عذبة، وشجر الْمُقْل فيه كثير. وبين ضبا وبين مَدْيَنَ جبال شامخة متكايدة، وبقرب مَدْيَن البئر التي استقى منها موسى عليه السلام قد بُنِيَ على أفنيتها بيت من صَخرٍ، فيه قناديل معلقة وبها كَهْفٌ يُسَمَّى كهف شعيب، وهو الذي كان يُؤْوي إليه غنمه ـ فيما ذكروا ـ وفي الجبال التي بين ضبا، وهذا الكهف بيوت منقورة في صخور، قد حُفِرَتْ في البيوت قبور، وفي تلك القبور عظام بالية، كأَمثال عظام الإِبل كِبَراً، مقدار كل بيت عشرون ذراعاً أو نَحْوها، ولتلك البيوت روائح خبيثة، لا يدخل الداخل فيها أو يُمْسِكَ بأَنفه لشدة النَّتَن، يقال: إنه لما أخذهم عذاب يوم الظُّلَّة دخلوا فيها

فهلكوا، وبقُرْب هذه البيوت وما يليها تلال تراب عظيمة قيل: إنها كانت مواضع عامرة فَخُسِف بها، قال: ومع يهود مَدْيَن كتابٌ يزعمون أن النبي ﷺ كتبه لهم، وهم يُظْهرونه للناس حتى الآن، وهو في قطعة من أَدَم قد اسوَدَّتْ لطول مَرِّ الزمان عليها إلا أن خَطَّها بَيِّنٌ، وفي آخرها: (وكتب علي بن أبي طالب) رضي الله عنه غير معرب، وقيل: إنه بخط معاوية بن أبي سفيان، وتَسير منْ مَدْيَنَ في جبال شاهقة حتى تُفْضِي إلى جبل شامخ عن يمين الطريق، فيه كُوَّةٌ منقورة في الصخرة حيث لا يصل واصل، ولا يرقا راق، تزعم أعرابُ تلك الناحية أنه كان بَيْتاً لساحرة، تأوي إليه، ثم لا تزال تسير، والجبال مَيامِنُكَ، والبحر بيسارك، حتى تُفضِي إلى فُرْجة كالباب تسير إلى أيلة. انتهى ما قاله.

وللشهاب بن أبي حجلة:

حَثَثْنَا الْمَطَايَا نَحْوَ مَدْيَن في السُّرَى ... وَوَادِيْ عَـفَـان طـافِـحٌ بـالـركـائـب
وَلَـمَّـا رَأَيْـتُ الـمُـقْـلَ والْـعَـيْـن حـوْلـه ... رَأَيـت عَـجـيْـبـاً فـي فُـنُـون الْـعَـجَـائـب

وله:

وَلَـمَّـا وَرَدْنَـا مـاءَ مَـدْيَـنَ بُـكْـرَةً ... وَجَدتُ عَلَيْه النَّاسَ يَسْقُوْنَ بالْقِرَبْ
فَأَطْرَبَ حَادِي الرَّاقِصَاتِ مَسَامِعِي ... كما أَطْرَبَ التَّشْبِيْبُ مِنْ أَعْيُنِ الْقَصَبْ

وبالقرب من المغار مقدار نصف بريد، حفيرة تسمى الْكُوْز ـ بكاف مضمومة وواو بعدها زاي معجمة ـ.

وكانت الإِقامة بها إلى قبل الظهر بعشرة درج إلى انتهاء الرَّيِّ، ولم يبقَ على المياه أحد يستقي إلا بعض الربائع، فسار منها قليلاً، ومَرَّ على كُبَيْدة ـ اسم لأَرْضٍ حصباؤها من الحمرة إلى السواد تشبيهاً بلون الكبد، وهي آخر درك الرُّشَيْدَات من بني عطية ـ واستقبل دَرَكَ بني عُقْبَةَ، فمرَّ على طَيِّ الناشر، وهي أَرض فيحاء، بيضاء صاحب دركها الآن ايتلي (؟) بن عقاب بن سليمان الأَعرج من المناصير، وإِخوته وأَولاده، فسار عنها إلى أَن عَشَّى بالقرب من الدار المعتادة المعروفة بأُم رُجَيْم ـ بضم الراء المهملة وفتح الجيم المعجمة بعدها ياء تحتية وميم ـ المشهورة عند عامة الحجاج بقبر الطَّوَاشِيِّ، فصارت الدار لدفنه بها كالعلم عليها، وكان مسيره إلى قبل المغرب بخمس عشرة درجة سبعين درجة، والعادة خمس وثمانون درجة للدار الأَصلية التي قَصَّرَ عنها بخمس عشرة درجة.

ودَرَكَ هذا المحل لطائفة من بني عُقْبَةَ تدعى الْخَرَشة.

والْخُرَشَةُ بدنات عديدة متفرقة، هؤلاء يُعرفون من بينهم، بالنِّجادات أَولاد نِجاد العشرة، وهم جماعات متعددة يقوم بالدَّرَك في كل سنة شخص منهم بالنوبة، يخدم أَهل الركب في دركه، ويقبض المعلوم المرتب له بديوان الذخيرة ويتوجه، والسنة التي بعدها تكون لغيره من أَقاربه وطائفته.

وبالقرب منها مقدار ثلثي بريد، عَيْنُ ماءٍ تجري تسمَّى هُرْم - بضم الهاء وسكون الراء وميم بعدها -.

ومن أُمِّ رُجَيْم إلى حِسْمَا مقدار نصف يوم وكانت الإِقامة بها إِلى بعد العشاء بثلاثين درجة، ثم سار إِلى عُيُون الْقَصَب ثُلْثِ طريق مكة، إِلى بعد الشمس بعشرة درج، فكان مدة سيره مئة وستين درجة لتأَخُّره عن دار قبر الطواشي بخمس عشرة درجة، وعادته للعيون مئة وأَربعون درجة من الدار الأَصلية التي تأَخر عنها. ودركها متعدد لأَقوام متفرقة يأْتي ذكرها مفصلاً.

واعلم أَنَّ أَول دَرَك بني عقبة من كُبَيْدة - المتقدم ذكرها - فيمر على طيِّ الناشر، وهو درك ايتلي الأَعرج المنصوري الحسيسي - بضم الحاء المهملة - ونهايته أَول أُمِّ رُجَيْم، ومن أُمِّ رُجَيْم إِلى المحل المعروف بِمثَالَة - بباء موحدة وميم مكسورة أول الحروف وثاء مثلثة مفتوحة، وبعدها لام مفتوحة وهاء للسكت - لأَيْتلي بن فاضل من أَولاد نجاد العشرة ورفقته من نِجادات الْخَرَشَة، ومن مِثَالة إِلى حدرة عُيُون الْقَصَب درك فينان بن صدر الدين حسن بن سلمة، من بني عُقبة الْعمرو، ويسمى دركه بالْقَرْقَف - بقافين بينهما راء مهملة ساكنة - وهو مضيق عيون القصب، وكان الركب أَولاً يسير منه إِلى العيون، ثم في بعض الأَيام الجركسيَّة تمرَّدَ صاحبُ الدرك لاختلاف بينه وبين أَمير الحاج، فحمل إِلى هذا المضيق الشوك والحطب، وأَجَّجَهُ ناراً، ليمنع الركب من سلوكه، إِلى أَن يُرْضُوا خاطره بترتيب صُرَّة له، وعادة، فكان لهم من ورائه طريق إِلى العيون أَفيح، لا مضيق به ولا شدَّة، على جانب البحر وهو الطريق الآن، فسار الركب منه إِلى العيون، وتداولته ألأُمراءُ بعد ذلك، وتركت تلك الطريق المسماة بالْقَرْقَف، من ذلك التاريخ فإِنه مضيق بين جبلين.

ومن حَدْرة عُيون الْقَصِب إِلى المحل المعروف بوُدَيِّ النار - تصغير وادي - ينقسم إِلى أَقسام:

القسم الأَول: البحر، وهو لطائفة كثيرة من بني عُقْبة، تدعى المسالمة، أَصحاب درك البحر وهم جمعان بن رفيع بن عصيلة، وأَولاده سَبع وإِخوته،

ونجدي بن أَبي بكر بن نَجْدي وأَولاده علي بن نجدي ومَن معهم، كما سيأْتي بيانه عند ذكر بدناتهم.

والقسم الثاني: جانب البحر من البر، وهو درك نَجْدي بن أَبي بكر بن نَجْدي من المسالمة، ويشاركه في ذلك بعض المسالمة.

والقسم الثالث: من جانب الجبل، ومَبْرك الحاج، وذلك درك عَمْرو بن عامر بن داود، أَمير بني عُقْبَة الْعَمْرو، المتاريك العوامر، والمزايدة وأَولاده، وله على ذلك المرتبات الوافرة، من الخزائن العامرة الغامرة، والتَّشاريف السلطانية، والخلع المنوعة السنية، ويشاركه في ذلك أَيضاً شوَيْمي بن حسين بن عيسى بن سويط من بني عُقْبَة المناصير الحسيسات، وأَولاده.

وليس لبني عقبة العَمْرو، المذكورين درك في البحر، ولا في جانبه مطلقاً، إِنما ينفرد المسالمة بذلك فقط، وسيأْتي ذكرهم مفصلاً.

والقسم الرابع: درك مَجْرَى عيون القصب داخل الوادي، وتسمى عند أَهل الدرك الْمُغَيْسِل ـ تصغير مغسل لكثرة غسل الركب ثيابهم في ذلك المحل ـ وهو درك فينان بن عتيق بن داود بن رسال، وله مرتب يختص به على الدرك.

وحيث قسمنا هذا الدرك إِلى أَقسامه فنشرع في ذكر بدنات العربان من بني عقبة:

أَما المسالمة فهم أَصحاب دَرْك البحر، ولهم من البر جانب البحر فقط بعيون القصب، وبَدَنَاتُهم كثيرة، وحَدُّ دركهم من جزيرة عَيْنُونة المتصلة بالبحر إِلى ما جاوز قبر الشيخ مرزوق الكُفَافي، وإِلى القرب من حَذْرَة دامة، آخر درك بني عُقْبَة، ومصطلحهم الذي توافق عليه آباؤهم وأَسلافُهم من القديم، وتوارثه الخلف عن السلف في درك البحر، وما يَنْصَلِحُ به من المراكب فينقسمون في الدرك أَثْلاثاً لكل ثلث سنة، يستولي ذلك الثلث على ما يكون في تلك السنة المتعلقة به من الكَسْر، إِنْ كان أَوْ عدمه، لا يَتَعدَّى هذا الْحَدَّ قوم على رفاقهم من ثلث آخر، فالثلث الأَول لطائفة من المسالمة تدعى الهشايمة، منهم مِلْعِبُ بن محمد بن هُشَيْمة، وإِخوته محمد، وعمر، وملجام، وأَولادهم ومَن معهم، ويشاركهم في هذا الثلث طائفة النجادة منهم نجدي بن أَبي بكر بن نجدي، وغدير بن علي بن نجدي، وأَبو بكر ومَن معهم من النجادة.

والثلث الثاني: لطائفة تدعَى المقارنة: منهم مُعَزِّي بن سياح بن مجري بن

مقرن بن عصيلة بن حسن بن غملاس بن مجري بن مسلم وهو الذي ينسب إِليه طائفة المسالمة، فيقال لهم المسالمة، ومسلم بن عقال.

وعقال هذا أَبو طائفة يقال لها العقالات، وهو أَصل من أصول بني عقبة جد الْعَمْرو، المناصير والمسالمة، وعقال بن عمرو.

وعمرو، وهو والد العمرو، الذين شيخهم الآن عمرو بن عامر بن داود، وعمرو بن سياح.

وسياح أَبو طائفة الخرشة من بني عقبة، والزبدة والعمرو، ووالد سياح محمد.

ومحمد والد آل إِبراهيم، والمساعيد من بني عقبة.

وعُقبة والد بني واصل، وبني عطية، وبني شاكر الحجر، والفُقَعة وبني واصل حميدة.

ويشارك معزي في الثلث الثاني أَحمد بن سبع بن مجري.

وعربان البحيرات من المسالمة منهم: تركي بن عيسى، ومتيريك بن متروك بن بحير.

والثلث الثالث: لطائفة القيايضة من المسالمة، وهم جمعان بن رفيع بن عقيلة وأَولاده، وأَخوه كليب، وأَولاده، ولميلم وموسى كردوس وأَولادهما ومَن يشركهم.

وطائفة المسالمة تجمع بَدَناتٍ كثيرة، ونذكر ما تيسّر منها فنقول:

النجادة منهم نَجْدي بن أَبي بكر وغدير، وأَبو بكر ورفقهم.

الكثايرة منهم: عبيد بن رزق ومَن معه.

الجمامزة: منهم فريع بن سنان.

والشعيبات: منهم عمر بن سفيط وأَولاده.

السريحات بالسين المهملة: منهم موسى كردوس.

السعد: منهم حميد بن سعيد ومحمود أَخوه، وولد عمهم مزيد بن محمد.

الْبُحَيْرات ـ بالباء الموحدة المضمومة ـ: منهم تركي بن عيسى، ومتيريك بن متروك بن بحير.

العُوَضَات ـ بضم العين المهملة وفتح الواو ـ: منهم سليم بن جوهر.

السُّمرات ـ بضم السين المهملة ـ: منهم موسى بن عمر بن حريز.

المراشدة: منهم شُتَيْوي بن جبر بن مرشد.

العُضَيلات: منهم جمعان بن رفيع وأَولاده.

الحسنات ـ بالسين المهملة ـ هذا ما يتعلق بالمسالمة.

وأما أصحاب درك الْبَرِّ بعيون الْقَصَب فنذكر ذلك على التفصيل أَيضاً.

فَحَدُّهُ طولاً من آخر القرقف، الذي هو مضيق عيون القصب، تحت الحدرة إلى المحل المعروف بوُدَيِّ النار ـ تصغير الوادي ـ وحَدُّهُ عَرْضاً من جَزيرة عَيْنُونَةَ المتصلة بالبحر، إلى قبر الشيخ برهان الدين إبراهيم الأَبْناسي إلى نهاية مجرى العيون، وقد رأَيت بالدفاتر القديمة السلطانية أَن شُويمي بن حسين من المناصير خاصَّةً يتصل دركه عن الركب الأَول فقط في الدولة الجركسية إلى الْمُوَيْلح، وأَما في زمننا فلا يشارك أَهل المويلح ولا يشاركونه لأَن الركب الأَول قد بطل.

وأَما بدنات بني عقبة فمنهم المتاريك العوامرة.

والمزايدة شيخهم الأَمير عمرو بن عامر بن داود، وهو عين هذه الكتِيبة جميعها، وله المرتبات الوافرة، والهبات المتظافرة.

المناظير: الحسيسات، منهم شويمي بن حسين.

المناصير: الشوابكة، منهم مشعل الأَعمى.

المتاريك: العطيشات، منهم حسن بن شهوان.

المناصير: الرُّقَيْعات، منهم أَولاد حبشي بن سياح، فواز وإِخوته.

اللَّعب ـ بلام مشدّدة ـ: عربان الحمل من لفيف المناصير.

بنو واصل حميدة: منهم ثابت، وتركي الأَعور.

السريرات: منهم فينان صاحب القرقف.

البركات: منهم سحيم بن زايد.

المكاثرة: منهم غانم بن عمري.

المعاريف: عربان الحمل، منهم موسى بن نصار، وخويطر آل إبراهيم، وهم آل عيسى، منهم يونس الحطام.

آل عمرو: جماعة عيون القصب.

النُّفَيْعَاتُ: منهم يونس بن عسكر من آل عيسى.

الحبول ـ بضم الباء الموحدة ـ.

المفضلات: منهم رحمة، وعزيز ولد أم الطرف.

الدُّحَيْلات: منهم زعيتر بن حميدي.

الفضلات: منهم أحمد بن عاصي.

الحصنة: من آل عيسى.

جرينت: من آل موسى.

وآل يزيد: منهم ناصر بن سعيد، وعمر بن نحيلة بن مصرية آل محمدية من الجرينت شيخهم عليان بن دعر أبو عباتين.

الضميدات: منهم محمود الضميدي.

الفتينات: من المتاريك.

الزبدة: منهم حجير بن رميم.

الزيادات: منهم شماس الزعيري.

العمارات: من آل إبراهيم.

المغايثة: من الضميدات.

المناصير: اللعب، منهم فارع الطويل.

الكلابنة من الحسنة: منهم حماد بن فرحان، وجماع بن مغامس، وجوعان.

المغربيين: من الضميدات الحسنة، منهم يوسف بن محمد بن منصوبة.

بنو مهدي: منهم عيسى بن حماد.

وأما المساعيد من بني عُقْبة فَمنهُمْ بدنات كثيرة وفروع غزيرة، فلنذكر منها عشرين بدنة، ومنهم أُمراء أَصحاب مرتبات لاتّقاءِ شُرورهم، لا عَلَى دَرَكٍ، وهم أَولاد الأَمير سعيفان أمير الدَّرْبَيْنِ، ومنزلهم الكَرْك، وحوالي القدس والخليل، وهم الأَمير مرعب وإِخوته قضيب وبديع وجماعتهم، وعادتهم يحضر منه أَو من جماعتهم مَن يقابل أَمير الحاج بعقبة أَيْلة، في الذهاب، فيقبض ما هو معين له بالدفتر السلطاني، ويتوجه فلا يعود إِلا في السنة المستقبلة كذلك.

وبدناتهم على ما نذكره:

النجادية: شيخهم الأَمير مرعب بن سعيفان.

العساسفة: من الهويدفية، منهم محمد بن حميد.

الحياجات: ربَاعة مرعب آل شطي، منهم زعر بن مغْقل.

الجوادرة: منهم عنيز المسعودي.

المغايثة: منهم حجاج.

المواهرة: منهم بكر بن أَبي بكر، وطوق بن طلحة، وقراد وأَخوه.

الشرشيدية.

النجادية: منهم شكم بن صعب ومرعي أَبو مخطوم.

الدويسات والهبر: منهم زويد.

البراغشة: منهم أحمد بن بذال.

الهويدفية: منهم علوي.

الصنَّاع ـ بتشديد النون ـ منهم عبيد بن كحيل.

العساكريَّة ـ بالياء المثناة التحتية المشددة ـ.

النضرة: منهم درع.

النويجعية ـ بنون مشددة وبعد الواو ياء مثناة ساكنة وجيم مكسورة ـ منهم كلاب.

القُيوس ـ بقاف مثناة بعدها ياء مثناة تحتية ـ منهم مياس.

الحوَّة ـ بحاء مهملة وواو مشددة مفتوحة ـ منهم زبن سعيدة.

الحطاطبة: منهم مربط.

وأَما بقية بدنات بني عقبة، فسنذكر كلَّ أَحد ممن بقي ذكره في محل دركه.

فلنرجع إِلى ذكر عيون الْقَصَبِ فنقول: يصلونها في اليوم الرابع من العقبة والبحر الملح قريب منها، وربما تَرْسِي عليها بعض الزعائم، لبيع الغلال على أَهل الركب، يجلبونه وغيره من الدقيق والمأْكولات من بندر الطور، وماؤها المورود خارج من وادي، جارٍ على نَخِيل أَخْضر، وقصب فارسي، وشجر من المقل، ولذلك هو سريع التغير إِلى العفونة، يصلح للغسل والاستعمال.

والعادة الآن أن الركب يقيم بها إِلى قبل الظهر بعشر درج ويرحل، وذكر ابن العطار أَن الركب كان يبيت بها غالباً في زمنه.

وذكر المقريزيُّ ما يدل على ذلك فإنه قال في تاريخه «السلوك في دول الملوك»: أَن في شهر القعدة سنة أَربع وثلاثين وثمان مئة استجدّ بطريق الحجاز في المنزلة المعروفة بعيون القصب بِئر احتفرتْ بإشارة القاضي زين الدين عبد الباسط، فعظم النفعُ بها وذلك أَنني أدركتُ بعيون القصب ماءً يخرج من بين الجبلين يسيح على وجه الأَرض فينبت منه من القصب الفارسي وغيره شيْء كثير، ويرتفع في الماء حتى يتجاوز قامة الرجل في عرض كثير، فإذا نزل الحاج عيون القصب أَقاموا يومهم على هذا الماء، فيغتسلون منه ويتبرّدون، ثم انقطع هذا الماء وجفَّتْ هذه الأَعشاب، فصار الحاج إِذا نزلوا هناك احتفروا حفائر يخرج منها ماءٌ رَدِيْءٌ إذا بات في الْقِرَب ليلةً واحدةً نَتِنَ فأَغاث الله العباد بهذه البئر، وخرج ماؤها عذباً. انتهى كلامه.

وأَقول: قد أَعاد الله تعالى تلك المياه الجارية، والأَقصاب والنخيل على أَحسن عادة، وما أَدركنا هذا المحل من باكورة العمر إِلا على هذه الصفة، ولا شاهدنا أَهل الركب يحفرون شيئاً من الحفائر، ولا يجنحون إِليه مطلقاً، والبئر المذكورة موجودة الآن، ولا نَفْعَ بها إِلا إِذا نزحت العيون لطول السنين.

وأَما تغيُّر الماء بسعرة فهو على ذلك بواسطة ما يكدره من المنابت، ونزلنا في هذا الوادي كثيراً وتكرر تَرَدُّدُنَا إِليه في أَوقات حسنة مذكورة، مع أُمراء وسادة، أَوقاتها بالخيرات موفورة، وجُلب إِلينا في هذا المحل مراراً عديدةً من الأَسماك الطريَّة التي تُصَاد بساحل البحر، وهناك صيّادون في قوارب لطاف لذلك، ومن بَيْض السمك وهو كصفرة بيض الدجاج، وفي قدره ومثاله، يُطْبَخ ويؤكل، ومن الأَغنام السمان، واللبن والسمن والعسل النحل، والبطيخ الكبار القدر الحسن الطعم، والتفاح المجلوب من قرية مَقْنا، والعنب في بعض الأَحيان والتمر. وأَما في زمن الحر الشديد فذلك الوادي لا يكاد أَن يوصف بما يمر به على الركب من شدة المشقة لكثرة هوائه الحارِّ المهلك، الْمُنَشِّف للقِرَب، القاتل لمَن أَراد الله انقضاء أَجله من المشاة والفقراء وأَهل التعب.

وقد ذكرت بعد ذلك مفرقاً في تعاقب السنين.

ومحطة الركب في الذهاب فوق الحدرة، وفي الإِياب تحت الحدرة بالقرب من قبر الشيخ إِبراهيم الأَبْناسي الشافعي، وهو في ضمن قبة عالية مبنية فوق جبل، وبها أَيضاً قبر عامر بن داود والد عَمْرو بن عامر صاحب درك المنزلة، ثم في عام سبع وستين وتسع مئة حصل للحاج ـ وكان في زمن الصيف ـ هواءٌ حارٌّ وعطش ولهيب، أَعقبه موت بعض الحجاج فَجْأَةً، فتوفيت زوجة أقطوه (دوادار) الحاج من الأُمراء

الجراكسة، وهي بنت قانصوه، ساقي السلطان الغوري، وأُمُّهَا في وقت واحد، بالطلعة فَحُمِلتا من منزلة مَغْدا الحاج أيضاً، ودفنتا جميعاً داخل القبة، وعُمل لهما شواهد من الأَحجار هناك، والله أعلم.

وبعض الناس يقولون قبر الشيخ عبد الرحيم الأَبناسي، وإنما هو إبراهيم بن موسى بن أَيوب، الشيخ برهان الدين الأَبناسي، ذكره المقريزي في «درر العقود الفريدة في تراجم الأَعيان المفيدة» فقال: ولد سنة خمس وعشرين وسبع مئة تَخْميناً، وبرع في الفقه، وتصدَّى للإفتاء والتدريس عدة سنين، فانتفع به كثير من الناس، وحدّث عن الواداياشي بـ«الموطأ» وعن جماعات كثيرة، وأَخذ الفقيه عن الشيخ عبد الرحيم الإسنائي، والشيخ ولي الدين الملوي، وبُنِي له زاوية خارج القاهرة، وانقطع إليه جماعات كثيرة من أَهل الريف طلاب العلم، فكان يعود عليهم بالْبرِّ، وكان رقيقاً لين الجانب، بشوشاً متواضعاً تُرْجَى بركته، وكان يكثر من الحج، ومن أَمره أَن طلبه الأَمير الكبير برقوق لقضاء الشافعية، عوضاً عن برهان الدين بن جماعة، فوعده وقتاً يأْتيه، ثم توجه إلى خلوته، وفتح المصحف لأَخذ الفأْل منه، فأَول ما ظهر له قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣] فتوجه من وقته إلى مِنْيَةِ السيرج، واختفى بها، حتى ولي البدر محمد بن أَبي البقاء، وولي مشيخة الخانقاه الناصرية سعيد السعداء، ومات بطريق الحجاز وهو عائدٌ من الحج والمجاورة، في يوم الأَربعاء ثامن المحرم سنة اثنتين وثمان مئة بمنزلة كُفَافَة، فحُمل إلى المويلح، وغُسل وكُفِّن، وصُلِّي عليه يوم تاسوعاء، وحُمل إلى عيون القصب فدُفن في هذا الموضع على مَمَرِّ الحاج في يوم الجمعة.

وترجمهُ الحافظ السخاوي في تاريخه فقال: هو إبراهيم بن موسى بن أَيوب البرهان أَبو إسحاق وأَبو محمد الأبناسي ثم القاهري المصري، المفتي الشافعي الفقيه، ولد في أَول سنة خمس وعشرين وسبع مئة بأَبناس، وهي قرية صغيرة بالوجه البحري من مصر، وقدم القاهرة، وهو شابٌّ، فحفظ القرآن وكتب وتفقَّه بالأَسنوي وَوَلِيِّ الدين الملوي، وغيرهم في الفقه والعربية والأُصول، وتخرّج بالعلاء مُغَلْطَاي، وسمع الحديث على الواداياشي، والميدومي، ومحمد بن إسماعيل الأَيوبي، وجماعة كثيرين، يطول تعدادهم، بالقاهرة، ومكة، والشام. وتَقَدَّم قديماً، وتَصَدَّى للإفتاء والتدريس دهراً، ولبس منه غير واحد الخرقةَ بلباسه لها من البدر أَبي عبد الله محمد بن الشرف أَبي عمران موسى، والزين مؤمن بن الهمام والسراج الدومراني، بسند نسبته إلى أَبي العباس البصير، الذي جمع الشيخ مناقبه، ودرس بمدرسة السلطان

حسن، وبالآثار النبوية، وجامع المقس مع الخطابة به وغيرها، وولي مشيخة سعيد السعداء مدة، واتخذ بظاهر القاهرة في المقس زاويةً، فأقام بها يحسن إلى الطلبة، يَحُثُّهُمْ على التفقه، ويرتب لهم ما يأكلون، ويسعى لهم في الأرزاق، حتى كان أكثر فضلاء الطلبة بالقاهرة من تلامذته، ووقف بها كتباً جليلة، ورتّب درساً وطلبة، وحبّس عليها رزقه ونحو ذلك، وممن أخذ عنه الولي العراقي والجمالُ ابن ظهيرة وابن الجزري، والحافظ ابن حجر والعز محمد بن عبد السلام المنوفي، وآخر مَن تفقه به الشمس البشبيشي، والزين الشنواني، كل ذلك مع حسن الأخلاق وجميل العشْرَة، ومزيد التواضع، والتقشف والتعبُّد، وطرح التكلُّف، وحسن السمت، ومحبة الفقراء بحيث أنه قلَّ أن ترى العيون مِثْلَه[1].

وذكره العثماني في «الطبقات» فقال: الورع المحقق مفتي المسلمين، شيخ الشيوخ بالديار المصرية، ومدرس الجامع الأزهر، له مصنفات، يألفه الصالحون وتُحِبه الأكابر، وفضله معروف، وللناس فيه اعتقادٌ، وقد حجّ كثيراً، وجاور وحدّث هناك، وأقرأ ثم رجع فمات في الطريق في يوم الأربعاء ثامن المحرم سنة اثنين وثمان مئة بمنزلة كُفَافة، فحُمِلَ إلى المويْلِحَةِ ثم حُمِلَ إلى عيون القَصَب، فَدُفِنَ بها، وقبره بها يَتَبَرَّكُ به الحجيج، وعُمِلت له قبة.

قال الشمس السخاوي: قد زرته، وأَصل القبة لبهادر الجمالي النصاري أمير الحج، كما قرأته على لوح قبره، وأنه مات في رجوعه من الحج في ذي الحجة سنة ست وثلاثين وست مئة، وقبل الدخول إليها مكان آخر وأظنه محل دفن الشيخ ولا قبة تعلوه، ورثاه الزين العراقي بأبيات دَالِيَّة.

قال: ومن مناقبه ما حكاه الشهاب أحمد الأَسلمي نزيل الجيزة وأحد فضلائها، وهو من تلامذته أنه سمعه يقول للبلقيني: إنه سمع كلام الموتى في قبورهم، وأنه كان في البقيع من المدينة فوقف عند قبرٍ جديدٍ للسؤال عن صاحبه فقال له شخصٌ كان يقرأ عليه من قبا: يا سيدي لِمَ تقفُ عند قبر هذه الرافضية قال: فرأيت البلقيني احْمَرَّ وجهه، ونزلت دموعه، وقال: آمنت بذلك، وناهيك بهذه القصة في جلالته.

وينزل الركب في هذا الدرك في حالة الذهاب والإِياب نهاراً، فيغدّي به، وفي الغالب في الإِياب ينزل على الأشاير.

---

(١) انظر: الضوء اللامع [١/ ١٧٢] بتصرف من المصنف.

والمرتبات على هذا الدرك أكبر مرتب في هذا الدرب، ولصاحب دركه وهو الآن الشيخ عمرو بن عامر بن داود أمير بني عُقْبَة المتاريك العوامرة، وأولاده صالح وهو أكبرهم، وسبيتان، وفواز وإخوتهم، فله لنفسه ولأولاد إخوته وأقاربه من الأشرفية القديمة ألف وتسع مئة وثمانية وأربعون ديناراً ونصف دينار، وله ثَمَن قفطان من أمير الحاج خمسة عشر ديناراً، ما يخص أقاربه من ذلك أربع مئة دينار والباقي من القدر المذكور له، ولهم من الجوخ المخيوط بديوان القلعة وأمير الحاج ما عدته خمس وأربعون جوخة، غير الملاليط والعجلوني والسكر، والمجامع الحَلْوَى، والدقيق والعليق لركابهم، والقيام بواجبهم إلى توجههم، وذلك خارج عما يقبضه لِصهورته أولاد سلامة بن فواز عرف بجُغَيْمَانَ بطريق الوكالة عنهم، والضمان بما يأتي منهم، إنعاماً لهم في كل سنة ألف دينار.

وأما بقية أرباب الدرك والمرتبات بهذا المحل فجماعة كثيرون، ولكل منهم ما يخصُّهُ بالديوان السلطاني غير ما ذكرناه.

ذكر عربان بني لام المفارجة:

وهم طوائف عديدة، وخيولهم كثيرة، منهم آل سليم، وهو آل بيت يعمر، وآل محمود، وآل سالم، وآل قني، منهم آل فوّاز شيخهم جغيمان، وآل حسن، وآل عياض القاطنون بحِسْما.

آل صقر: منهم آل دغمان، وآل شيهان، وآل طليحة.

آل فيين (؟): منهم آل سهيل، آل زيان، آل حماد، آل مسعود، آل واصل، آل واجد.

وبنو لاَم غير هؤلاء كثيرون، وطوائفهم متعددة، ودربهم الشام، وما والاها، وسبب هذا المرتب لهم ما قَدَّمنا ذكرَه، عند خروج سلامة بن فواز على الركب في سنة ست وعشرين وتسع مئة.

وأما عادة المبشِّر لطائفة بني عُقْبَة، فهو على ما أذكره، ما هو لطائفة العمرو، ستة دنانير، وما هو لطائفة العطيشات مثل ذلك، فيكون المجموع اثني عشر ديناراً، وما ألطف قول بعضهم في مُشَبِّب وفيه حسن الاستعارة.

هَوَيْتُهُ مُشَبِّباً ... جَمَالُهُ بَرَّحَ بي

تَيَّمَ قَلْبي بالْحِجازِ ... مِنْ عُيُوْنِ الْقَصَبِ

وللقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر:

كَتَبْتُ لَكُمْ من أَعْيُنِ الْقَصَبِ الَّتِي جَرَى فِي نَوَاحِيْهَا بِذِكْرِكُمْ طَرَبْ
فإِنْ أَطْرَبَ التَّشْبِيْبُ فِيهَا بِذِكْرِكُمْ فكَمْ أَطْرَبَ التَّشْبِيْبُ منْ أَعْيُنِ الْقَصَبْ

ولأبي عبد الله الفيومي المكي:

ودَمْعَة فِي الْعُيُونِ يُهْدِي وُرُوْدَهَا الْبَسْطَ لِلصُّدُوْرِ
لاَ تَعْجَبُوا إِنْ حَلَتْ مَذَاقاً فَإِنَّهَا دَمْعَةُ السُّرُوْرِ

وكانت الإقامة بعيون القصب في سنة خمس وخمسين إلى قبل الظهر بعشرة درج، وسار قليلاً فغدّى في وُدَيِّ النار، آخر درك العيون [ودرك عمرو بن عامر] واستمر سائراً إلى الشَّرْمة - بالشين المفتوحة - وهي درك حسن بن شهوان وأولاده ومَن معه من بني عُقْبَة العمرو، العطيشات، وإنما سميت بذلك لأَنَّ الشرمة اسم عين تجري بالقرب منها من باب تَسْمية المحل باسم الحالِّ، فكان سيره إلى المغرب خمساً وسبعين درجة، وكان نزوله دونَ الدار المعتادة لأَنَّهُ قصر عنها بِنحو عشر درج أَو أكثر تقريباً، وصفتها أَودية، ثم شاطىء البحر وأراضي مصطحبة، وآخر دَرَك الشرمة محل يقال له عند العربان الشُّوَيْكة - تصغير شوكة - وذكر ابنُ العطار أَنَّ اسم هذه المنزلة الصلاهِي (؟).

وبالقرب من الشرمة جِدًّا بمسافةٍ قليلةٍ عين ماءٍ تجري تسمى رأس تَرْيَم - بتاء مثناة مفتوحة وراء مهملة ساكنة وياء تحتية مفتوحة بعدها ميم - وبدار مُعَشَّة الشرمة بالقرب منها مخرس إلى حسما، يسمى سَدْر - بفتح السين المهملة بعدها دال ساكنة مهملة -.

وقبله بالقرب من عينونة مخرس يسمى يَرْنَب - بفتح الياء المثناة التحتية وسكون الراء ونون مفتوحة بعدها -.

وكانت الإقامة في سنة خمس وخمسين إلى بعد العشاء بأَربعين درجة، وسار إلى المويْلح، ويسمى النَّبْك عند أهل الدرك - بتشديد النون الموحدة من فوق - يسير إليها أَوَّلاً بين جبال وكهوف وحدرات متعددة ومحاطب شجر، وكان وصوله قبل الشمس بخمس درج، ومدة سيره مئة وأربعون درجة، لدخول (الصنجق) والمحطة بجانب البحر الملح، وبها صيادون للسمك في قوارب لطاف، ويجلب إليها الدقيق والفول والفاكهة من الطور في جلاب، صحبة النصارى، للبيع على الحجيج كالعيون، ويحصل بذلك رفق للركب، ويوجد بها الحشيش لعلوفة الجِمال والأَغنام في الغالب،

تجلبه العربان، والسُّرَّاق بها كثير خصوصاً ليلاً لكثرة محاطب الشجر، وأكثر ذلك في حالة الإياب، فقد شاهدنا ذلك كثيراً، ومرَّتْ لنا أوقات في كتابة وقائع الحجيج بهذه المنزلة بالرجعة متعددة، فليتنبه لذلك أمير الركب.

وجبل الشَّار، بها، ويُرَى من يومين متقدماً ومتأخراً.

والظاهر أَنَّ المنزلة سميت باسم مائها المورود قديماً، فإن الشيخ محب الدين العطار قال: وبها بئرانِ قليلة الحلاوة للحاج آل ملك.

وأقول: فإن المويلح وصف للماء تصغير مالح، وهو كذلك عند قلة الأَمطار.

وأما عقب السيول فيميل إلى العذوبة يسيراً لكنه ثقيل.

وأما آل ملك فهو صاحب الجامع الذي في خارج باب النصر، وهو الأَمير سيف الدين، أصله مما أُخِذَ في أيام الملك الظاهر من كسب الأبلستين لما دخل إلى بلاد الروم، في سنة ست وسبعين وست مئة، وصار إلى الأَمير سيف الدين قلاوون، وهو أمير قبل سلطنته، فأَعطاه لابنه الأَمير علي، ولا زال يترقى في الخدم إلى أن صار من كبار الأُمراء المشايخ، ورؤوس المشورة في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، وولي نيابة حماة ثم ولي نيابة السلطنة بقلعة الجبل، فأَول شَيْءٍ بدأ به أن بعث والي القاهرة إلى خزانة البنود فكسر ما فيها من أواني الخمر، وكان الناصر محمد قد أسكن بها الأُسارَى المأسورين عند مجيْئِهِ من الكرك، فكثر عددهم وأكثروا من اعتصار الخمر، حتى بلغت جرار الخمر الذي اعتصروه في سنة واحدة اثنين وثلاثين ألف جَرَّة، وتظاهروا ببيع الخمر، فقصدهم أهل الفسوق من الرجال والنساء والمردان، وصارت خانَةً يعلن فيها بأَنواع الفواحش من الزنا، واللواط والقمار، وشرب الخمر، وانْفَسَد بها كثير من نساء الناس وأولادهم، ولم يقدر أحدٌ على إنكار ذلك، فنزل إليها الوالي والحاجب وأزالوا ما كان بها من الفساد، وهدموها كلها، واشترى الأَمير قماري أرضها فحكرها وبنيت بها الدور، وزال بذلك فساد كثير، ومنع من نصب الخِيم على شاطيء النيل، وكانت من أعظم المفاسد، فانكفَّ الناس عن التظاهر بالمعاصي في ولايته، إلى أن تولى الكامل شعبان فأَخرجه إلى دمشق نائباً، ثم ولَّى صَفَد نائباً بها في آخر ربيع الآخر، سنة سبع وأربعين وسبع مئة، ثم سأَل في الحضور إلى مصر، فرسم له بذلك، فلما وصل إلى غَزَّة أمسكه نائبها، وجه إلى الإسكندرية في السنة المذكورة فَخُنق بها، وكان خَيِّراً فيه دِيْنٌ وعبادة، يميل إلى أهل الخير والصلاح وله آثار بطريق الحجاز من جملتها هذان البئران، وبهما للوفد نفع

كثير، خصوصاً في الرجعة عند عدم الماء بأرض الْوَجْه، وطول المسافة في عدم الماء الذي يسوغ شُرْبه.

ومن المتجددات في مناهل درب الحاج ما عرض في أمره وأمر به الباشا المفخم علي أغا عند ولايته باشا بالديار المصرية، في عام سبع وستين وتسع مئة. فَجهز صاحبنا الأمير قيت بن عبد الله الداوودي (كِيخية) جماعة العساكر الجراكسة، وأحد الأُمراء الأَعيان الموصوف بالفروسية والشجاعة والهمة، وهو من مماليك المرحوم السلطان قانصوه الغوري إِلى عمارة (حصار) كبير، ومعقل خطير يكون بالمويلح، مَوْئلاً ومعقلاً لحفظ أموال التجار والرعايا، ورَدْعاً لأَهل الفساد والبلايا، يكون مُرَبَّعاً، مساحته من الجهات الأَربع دائراً خمس مئة ذراع العمل، من كل ناحية مئة وخمسة وعشرون ذراعاً، فتوجه في السنة المذكورة، وصحبته فئَةٌ كثيرة من العساكر المنصورة، من كل (بلك) طائفة، وجُهِّزَتْ إِليه المعمارية والآلات، والمدافع، وما يحتاج إِليه من المأكولات والأَسباب، برًّا وبحراً، وعُيِّنَتْ له أَغْرِبة بجانب ساحل المويلح، لنقل ما يحتاج إِليه ذهاباً وإِياباً، وطلب مشايخ الأَدراك وأعيانها للحراسة، والمعاونة على هذا المهم، وشرع في وضع الأَساس على القياس المشروح، فَتَمَّ دائرُ الأَساس، وعقد الباب وأربعة أبراج بدائرة من كل جانب واحد، وعدة ما يوضع فيها من المدافع سبعة وأربعون مدفعاً، وبداخله حواصل ومنافع، في بقية سنة سبع وستين، بحيث لما توجه الركب شاهد هذا البناء والترتيب، ثم اعتنى المعمار بحفر الآبار هناك فحفر قَيْتُ المذكور بئراً وجعلها وقفاً لمولانا (الخنداكار) الأَعظم، وبنى بئراً ثانية وجعلها وقفاً له، ثم لما توجه الأَمير عثمان بن أزْدمر باشا أميراً على الركب في تلك السنة أمر ببناء بئر ثالثة ففُعل ذلك، ثم قبل عود الركب إِلى المويلح وجدها فَرَغَتْ، فوقفها على المسلمين، فتمّ بها خمسة آبار، وذكر لي قيت المعمار أنه يريد يحفر بئْراً داخل القلعة، فيصير هناك قديماً وحديثاً ستة آبار، وشربت من ماء المتجددات فرأيته عذباً سائغاً شرابه.

وذكر لي أيضاً أنه بعد فراغ (الحصار) يريد أن يبني خاناً لطيفاً كالذي في نخل، وعجرود، لودائع أهل الركب، وصارت المويلح من أَجَلِّ مناهل الحجاز ـ أثابه الله تعالى ـ لكن لم يَبْنِ الخان الثاني اللطيف، واقتصر على الأَول، فإِن فيه كفاية لأَنه (حصار) كبير، به نفع للخزن والحماية، وبه (طبلخاناه) رومية، تضرب على بابه بكرة وعشية كغيره.

وبالقرب من المويلح بمسافة قليلة مورد يدعى عين الْوَايِلِي ـ بفتح الواو وياء

مثناة تحتية مكسورة ولام بعدها كذلك ـ وبها مخرس إِلى حِسْمَا، وأصحاب الدرك بها في زمننا أولاد الشيخ شمعون بعد والدهم، وهو شمعون بن أبي بكر بن شاروق من أكابر مشايخ الخرشة، الشواريق الرُّشيدات، من بني عقبة، وعاش دَهْراً إِلى أن ارتعش رأسه، وكان له بي إِلمام في الدرب، وأولاده أبو بكر، وهو أكبرهم، وعبد الله وهو أَلْسَنُهُمْ، وجريبيع وسعيدان، وسالم وحمود، وحمد وحامد وعبيد الله وعبيد، وجملة ذلك عشرة أنفار، ولكل نفر أولاد.

ومن بدنات الخرشة المشهورة: النشانشة أولاد سعد: منهم سعيفان بن شمعون.

الرشيدات: منهم سلامة بن منجد وغصن ولده وإِخوته وأولادهم، وهم أصحاب المرتَّب بديوان القلعة المنصورة، يقبضون ذلك، أَو مَن يحضر منهم من ملاك الكرك والشوبك وغزة إِلى عَقبة أيلة بالطلعة، ويعودون، وهو إِنعام من غير دَرك، كأَولاد سعيفان.

المفضلات: منهم رحمة بن عزيز.

المساعدة: منهم حسن بن عاصي.

السروات: منهم حصين بن يغنم.

البريكات: منهم حسين بن عريق.

المباركات: منهم حميد بن حجير.

الفريعات: منهم سرحان بن ذيب.

الغويطات: منهم سليمان بن مرشد.

الذِّيبة: منهم أولاد صباح.

النجادات: منهم مرشد بن عطيفة وعيد بن برجس وجبر بن وقاد.

أولاد نجاد العشرة: أصحاب درك أم رُجَيْم.

المناجدة: منهم سلامة بن منجد بن غصن، وولده المتقدم ذكرهما.

العمران: منهم هلال بن عون.

الحوارين: أولاد أبي بكر.

العجينيين: منهم بسيط وغريب بن رَبيع.

وماء هذا المورد لا يكفي الحاج عند وروده بسرعة حتى يحصل لهم الريُّ التام

العام، فلذلك كانت الإقامة عادة للاستقاء من المورد بقية النهار، وصَدْراً من الليل.

ففي سنة خمس وخمسين أقام إلى بعد العشاء بخمسين درجة، وسار فَغَدَّى الموضع المعروف بدَبة، وهو آخر درك المويلح.

ومَرَّ على الحدرات والوعرات والعقبات والعراقيب المعروفة بوادي الطبق، وجبل الأَشياف، وكانوا قديماً ربما يُغَدُّون به، ويسمونه وادي الأَشياف، لأَن أحجار ذلك الجبل إذا انكسرت في ذلك الوادي تصير شِبْهَ الأَشْيَاف ألواناً وصفة.

ومرحلة الطبق متعبة لما فيها من الصعود والهبوط والمضايق والعراقيب، ولكثرة المشقات الحاصلة من مرور الركب بوادي الطبق، ومرَّ في هذه السنة على المحل المعروف بطَيِّ الكبريت، وهو جبل مشرف رفيع الرأس، يُرَى بعد مجاوزته في صدر البرية، وجاوزه وغَدَّى بدار السلطان قايتباي ـ رحمه الله تعالى ـ وهي المستجدة في زمنه حيث نزل بها عند توجهه إلى مكة، وبطلت المنزلة بوادي الأشياف، أو بطيِّ الكبريت من حينئذ.

وكان المسير إلى دار السلطان قبل شروق الشمس بخمس درج، مئة وخمسة وعشرين درجة، يسيرون بين محاطب شجر ومحاجر وعتَاتِير عليها، وإذا سالت تلك الأَرض يعسر سلوكها جدًّا على الجمال والرجال والركبان، لأَن هناك سَبْخَة نديَّة من ماء البحر الملح، وإذا جاء السيل أزلقها جدًّا وعجن أرضها، فيعسر فيه السلوك على خُف الجمل وحافر البهيمة، وقد جربنا ذلك مراراً.

وبالقرب من دار السلطان وادي القسطل، سُمِّيَ به لقسطل يرى (؟) يوجد به أحياناً، وبالقرب منه مسافة قليلة مورد للعربان يدعى البيضاء ـ بباء مفتوحة تحتية موحدة تليها ياء ساكنة وضاد معجمة مفتوحة ـ.

وقبلها بالقرب من طي الكبريت عين تجري تسمى دار الْمُعَرش ـ بتشديد الراء المفتوحة ـ.

وبالقرب من دار السلطان مخْرس إلى حسما يدعى الْخُرَيْطة ـ بخاء معجمة مضمومة وراء مفتوحة بعدها ياء ساكنة وطاء مهملة مفتوحة وهاء للسكت ـ وبالقرب من حدرة دامة مخْرس أيضاً.

وذكر ابن العطار في مختصره: أن الركب يرحل من المويلحة إلى وادي الأَشياف مرحلة، وجعلها خمس ساعات، ومنه إلى القسطل منزلة، وعَدَّهَا الحادية عشر من العقبة ثم قال: وهي نصف مرحلة، ولم يذكر طَيَّ الكبريت.

وأما دار السلطان فَمُسْتَجدَّةٌ بعده ـ كما استجدّ نزول الحاج بمِنَى بالقرب من بيت الشريف أمير مكة أيضاً ـ من زمن الأَشرف قايتباي كما تقدّم ذكره، وهي دار الركب الآن فَيُغَدِّي بها، ويرحل قبل الظهر بأَربعين درجة، فيمر على وادي القسطل وحدرة، على شَقِيف جبل، وهو المشهور بشَقّ العجوز ـ وله نظير في درب الحاج من الشام ـ يمشون فوقه وتحته بالوادي، وبأوله ذهاباً طريق قليلة المسالك والزحام، لكنها يصعد إِليها من الجبل الذي على يمنة السالك، ويستمر صاعداً إِلى أن يهبط إِلى جانب البحر الملح، وهي مشقة السلوك على المحاير والأَحمال، ثم يَمُرُّون على جور كبار ومحجر، وفي بعض الأَحيان مخايض البحر الملح، ويمرون من الحدرة التي هي آخر المضيق إِلى فضاء بجانبه البحر الملح، وبعض الأَحيان توجد بعض المراكب إِمَّا مارَّةً أَوْ راسية على الشاطىء، واستمر إِلى قبر الشيخ الصالح المعتقد مرزوق الكُفَافي ـ أعاد الله علينا من بركته ـ وهو بشاطىءِ البحر، وعليه حظير من الخشب، تزوره المارّة عليه، ويقرؤون عند قبره سورة الفاتحة، ويدعون بما أحبوا.

وهناك موقف مُبَشِّري الدار، لأَخذ النُّذُوْر، وبعض الحجاج من العامة يكسرون على قبره أواني الزُّجاج المملوءة بماء الورد الممسَّك، يحملون ذلك بصحبتهم من القاهرة لذلك، ويعتقدون التبرُّك بمثله، وهو من الإِسراف الذي لا طائل تحته ولا ثواب، فلو دفع ثمن ذلك لفقير ومنقطع في ذلك المحل، وقصد به الثواب والتبرُّك بزيارة قبر الشيخ كان أولى.

وفي سنة تسع وخمسين جَدَّدَ الأَمير فايق من داود باشا ـ وهو (باش) الملاقاه الأَزْلَمِيَّة ـ على قبر الشيخ وصندوقه ستارةً فَسُرقَتْ، ثم جددها في سنة ستين أيضاً، وأوصى بها أصحاب الدرك.

وبالقرب منه كُفَافَةَ، مورد لتزويدة أهل الرَّكْب، وسَلْمَى داخل الوادي، بها آبارٌ حلوةٌ لآل ملك ـ المقدّم ذكره ـ.

وهي أبعد من كفافة بنصف مرحلة تقديراً، ولا يحملون الماء من ثَمَّ إِلا تزويداً، وللشيخ ناصر الدين بن مِيْلَقِ حين ورد سَلْمَى وكان حصل لهم عطشٌ شديد تبرُّكاً بشعره قال:

شَكَرْنَا لِسَلْمَى حِيْنَ دَارَتْ كُؤُوْسُهَا	عَلَيْنَا وَكَانَ الشُّكْرُ مِنْ بَعْضِ سُكْرِنَا
سَكِرْنَا لَدَيْها بارْتِشَافِ رُضَابِهَا	فَعِشْنا بذاكَ السُّكر من بَعْدِ مَوْتنا
ونادَى لسانُ الْحَال فِي حُبِّهَا اغْنَمُوا	طَهُوْرِيَ فَالأَزْلاَم رِجْسٌ بُعَيْدَنَا

وله في كفافة:

كَفَتْنا أَكُفٌّ من كُفَافَة أكْفأَتْ   عَلَيْنَا زُلالاً من غُيُوثِ نَدَاها

فَلِلّهِ ذاك الْغَيْث كَمْ عَمَّ ظامِئاً   وكَمْ ظَمِئَتْ مِنْهُ كُبُودُ عِدَاها

رَعَى اللّهُ رَاحَاتٍ لِرَاحَتِنا أَتَتْ   أراح بهَا يَجْلُو الْقُلُوبَ صَدَاهَا

وأما الأَدراكُ من دار السلطان إلى آخر درك بني عقبة، فسنذكرها قريباً.

وكان مدة المسير من دار السلطان إلى الشيخ مرزوق إلى بعد العصر بعشرين درجة، مئة وعشر درج، لدخول (الصنجق) فعشّى بجوار قبر الشيخ مرزوق ـ أعاد الله من بركاته ـ واستراح وأقام إلى بعد العشاء بأربعين درجةً، وسار إلى أَنْ قطع حَذْرَة دَامَة، وتسمى أيضاً أُمَّ الْبُسَيْس أو عقبته، على كلا الوجهين، ووصل الأَزْلَمَ بعد الشمس بخمس عشرة درجة، واعلم أن من المحل المعروف بدَبَّة المويلح إلى المحل المعروف بدار السلطان دَرْكُ جماعة من عطيشات بني عُقْبة، منهم حميد بن محمد بن مغامس وحماد ورفقهم، والمقررُ لهذا الدرك تَافِهُ القدر، ومن دار السلطان إلى المحل المعروف بشَقّ العجوز إلى القسطل درك طائفة من المسالمة من بني عُقْبَة، منهم علي بن كتيلة وأولاده، وسبع بن جمعان ورفقهم، ومن القسطل إلى حدرة دامَةَ حَدّ درك بني عُقْبَة، من بَليّ، درك المناصير الرقيعات، منهم فواز وإخوته أولاد حبشي بن سياح بن مصاول بن العجيل. وأما الشيخ مرزوق الكفافي فهو [....][1].

وقد علمت أن آخِرَ انتهاءِ درك بني عُقْبة يكون ابتداءَ دَرَك بَليّ، وحَدُّه من تحت حدرة دامة، وبَلِيُّ هم أولاد شهاب الدين أحمد بن ثُعَيْلِب ـ تصغير ثَعْلب ـ وانتهاء دركهم إلى أَكْرَى، فمن حَذْرَة دامة إلى المحل المعروف بتِلْبَةَ، درك فشيعة بن سالم بن عريفطة، وجبار بن إدريس، وكلاهما من أصحاب درك الْعُتَيْبَات، وعربان الجعافرة من بَليّ ومَنْ معهم داخلون في هذا الدرك إلى تِلْبَة ـ بكسر التاء الفوقية وسكون اللام بعدها موحدة ـ ومن تِلْبةَ إلى إسْطَبل عَنْتر والفيحاء ووادي الأَرَاك إلى المحل المعروف بكِبْرَةَ ـ بكسر الكاف وسكون الباء الموحدة بعدها راء مكسورة مهملة وهاء ـ درك جماعة الغدايرة من بَليّ، وهم: شاهين بن أحمد بن غدير، وصُبيح ـ بضم الصاد ـ وحسن أولاد سلامة بن غدير، وأولاد دبوب، ومَن معهم.

ومن كِبْرَةَ أوّلُ حدِّ الْوَجْه فمنه إلى المحل المعروف بفشيغة الوجه، درك

---

(١) بياض في الأصل.

جلاس بن نصار بن جماز، وولده حميد، وعمر بن أحمد بن نصير، وسالم وحسن أولاد علي بن نصير، من بَليِّ الأَحَامدة، ومن فشيغة الوجه إلى مفرش النعام إلى أَكْرَى درك عمران بن خليفة بن عمران، وأبوه، ومشايخ السلمات، وأحمد بن بيض.

وأما أَكْرَى فالهِيْشُ الذي بها، وهو محلُّ الماء والحفائر، والأَثْل الذي هناك، درك أولاد قناع بن علي من جعافرة الشَّنابلة ومَن معهم، ومناخ الركب أكْرى فقط دَرك عَمْرو بن سبع بن غنام وأولاده من بَليِّ الْجَوَاهِرة، وسيأتي ذلك مفصلاً في أبوابه، لأَنَّ ذِكْر الشَّيْءِ مجملاً، ثم ذكره مفصلاً أوقع في النفس، وأثبت في الفهم والحفظ فنقول:

وأما **الربع الثالث** - وهو من الأَزْلَم إلى الينبع - فهو من الأَرباع المعطشة، إن لم يكن بالوجه ماءٌ، وأطولها وأوحشها، مراحله أربع عشرة مرحلة، ساعاته مئة وخمس عشرة ساعة، عنها ألف وسبع مئة وخمس وعشرون درجة.

والأَزْلَمُ - قال في «القاموس»: الزَّلَم - مُحَرَّكَةً - قِدْحٌ لاَ رِيْشَ عليه، وسِهَامٌ كانوا يستقسمون بها في الجاهلية - الجمع أَزْلاَمٌ وزلمتا [العنز[1] زنمتاها] ويقال لِلْوَعِل وللدَّهْر الشديد الكثير البلاَيا، وزَلَم أَخْطأ، وازدَلَم أَنْفَهُ اسْتَأْصله، ورَأْسَهُ قَطَعَهُ، والزَّلَمُ نَبَات لاَ بزْرَ لَهُ، ولا زهر[2].

وإنَّما سُمِّي هذا المحل بهذا الاسم لخباثة أرضه وسباخته وكثرة أفاعيه، وملوحة مائه جدًّا، وقلة نبات الأَرض به، خصوصاً زمن الْمَحْل، والمشقَّات الحاصلة للوفد بشرب مائه، وبُعْدِ المسافة عن الماء العذب السائغ منه ذهاباً وإياباً وغير ذلك، وهو نصف طريق مكة، يصلون إليها في سابع يوم من العقبة، وكان العادة السابقة أن يَتَغَدَّى الركب تحت حَدْرة دامَةَ، ويسير نحو ثلاثين درجة إلى الأَزْلم، وهو فضاء بين جبال محيطة به، وبه أربعة آبار من الماء المالح جدًّا لا يكاد يُسِيغه الشارب، ويوجد بجُدُرهَا أوراق السَّنَا الْمُسْهل، وكان بها خانٌ خراب لِلنَّاصر محمد بن قلاوون، فَهُدِمَ في ولاية السلطان قانْصُوه الغوري، وأُعِيد جديداً في سنة ست عشرة وتسع مئة على يد الأَمير خُشْقَدَم، أحدِ الأُمراء العشرات، وهو المتولي لقتل الجازاني بمكة، لما كان باشا بها.

وهذا الربع كالربع الأَول، ومدته ثمانية أيام، ويوم التاسع يكون الركب بالينبع في صَبيحته.

---

(١) زيادة لا بد منها من القاموس المحيط [٤/ ١٢٤].

(٢) انظر: القاموس المحيط [٤/ ١٢٤] [مادة: الزلم] بتصرف.

ومن الأَزلم طريق إِلى زاعم وقبقاب، في عرض الوادي مقدار رَحْلَة، وقَدَّرَها ابنُ العطار بسبع ساعات من الأَزلم وبه آبار ماء عذب.

ومن الأَزلم إِلى أَكْرَى أيضاً طريق مُتَّسِعٌ حسن السلوك، يسمى عند العربان دَرْب أَبي الْقَرَاز، اسم لحفائر ماءٍ حُلْوة، تروي الحاجَّ، ويُسْتَغْنَى بها عن ورود ماءِ الْوَجْه.

وبهذا الطريق أيضاً منهل يسمى أُمّ الطِّين، وهي دون أبي الْقَرَاز في الكِفَايَة، وهذه الطريق أطول مسافة من المعْتاد مقدار مرحلة، وذكرها ابن العطار في مختصره، وذكر أنه سلكها، وهذا الطريق مشهور يتداوله السلوك من العربان. وأما الحجاج في مروره فلا أعلم أَنَّهم مَرُّوا، وإِنما تَذْكُرُ مشايخ الدرك ذلك لبعض الأُمراء، فلا يرون سلوكه، إِمَّا جساً (؟) وخوفاً من السُّرَّاق، وهو تَوَهُّمٌ لا أَصْل له، أو لاعتيادهم الطريق المسلوك.

ذكر المقريزي في «السلوك»: أَنَّ في سنة أربع وثلاثين وثمان مئة حَفَرَ الأَميرُ شاهينُ الطويل بئْرَيْن، بموضع يقال له زَاعِم وقبقاب، وذلك أَنَّ الحاج كان إِذا وَرَدَ الْوَجْهَ تارَةً يَجدُ فيه الماءَ وتارة لا يجده، فلما هلك الناسُ من العطش في السنة الماضية بعث السلطان لشاهين هذا ـ كما تَقَدَّم ذكره ـ فحفر البئرين بناحية زاعم، حتى لا يحتاج الحاجُّ إِلى ورود الوجه، فيروي الحاج منها، وعَمَّ الانتفاع بها، وبطل سلوك الحاج على طريق الوجه من هذه السنة. انتهى كلامه.

قلت: وقد عدم الماء أيضاً من أبيار الوجه بالكلِّية، لشدة توالي الْمَحْل، وعدم الحياء بهذا الوجه، وامتنع المطر بتلك الأَرض مطلقاً، من مدة تزيد على عشر سنين، بحيث أَنَّ أهل تلك الأَودية جميعاً من العربان تَرَحَّلُوا عنها وتفرّقوا في البلاد، وغالبهم نزل بريْف مصر، ولا يكاد يُوجد بتلك الأَرض بعد الركب أحدٌ، لشدة الْمَحْل، وتزايد بالينبع جدًّا حتى هلكت الماشية، وعجفت الجِمال، وعجزوا عن نقل حَبِّ الدَّشيْشة إِلى المدينة المنورة لذلك، وقلَّ الماء بالعيون التي بتلك الأَراضي ـ ولله الأَمر ـ إِلى أَنْ منَّ الله وله الحمد بتوالي الأَمطار في أواخر سنة ثلاث وستين وفي سنة أربع وستين، فاخْضرَّت الأَرضُ، وأَعْشَبَتْ، وصَلُحَ حال الحجاز والقرى التي حوله، وفي طريقه، وسال وادي الوجه بعد ذلك الْمَحْل، ولله الحمد.

وبخان ألأَزْلم (نوباجيَّةٌ) من الترك والقوّاسة كغيره، وفيه تُحْفَظ ودائع أهل الركب بالرجعة، ورأيت (الباشا) به يَأْخُذُ معلوماً على الودائع، وأفحشُ ذلك في سنة

ستين وتسع مئة ولاية مصطفى باشا، وصاروا أيضاً يُغَالطون الحجيجَ ببعض الودائع، فكثرت الشكْوَى في تلك السنة، وذكروا لأَمير الركب أَنَّ هذا الخان وما قبله وَقَفه السلطانُ الغوريُّ على مصالح الوفد وخَزْن ودائعهم، وجعل فيه دقيقاً لمأْكولات مَن يرد عليه من المنقطعين، وأبناء السبيل بطول السنة، ولم يُعَيِّنْ لذلك معلوماً مطلقاً، ولا أَذنَ في أخذه فطلب أَميْرُ الحاج (الباش) وأغلظ عليه، وطلب قاضي المحمل وشهودَه، ومُؤَلِّفَ هذا الكتاب، لتحرير ما أخذه (الباش) من الوفد، فكان شيْئاً لَهُ قدر وافر، فأَعاده لأَربابه، وأذن لهم بأَخذ نصف واحد من كل اسم فقط، فإِنهم كانوا يأْخذون بحسب ما يَسْنَحُ لهم على كل اسم، هذا ما وقع في تلك السنة، وأقول: إِنهم إِنما يأْخذون الجعالة إلاَّ عَلَى حفظ أسباب الحجاج من جماعة الخان، فإِذا تَراضوا على أكثر مما عَيَّنَهُ مصطفى باشا في تلك السنة كان جائزاً، فإِنه في مقابلة عمل، وحفظ درك الأَسباب والله أعلم.

وأَرْضُ الأَزلم سَبخَةٌ، قليلة النَّبْت، كثيرةُ الأَفاعي رَديَّتُها، وأتذكر أَنني جلست أكتب على ضَوْء الشمع، في سنة إِحدى وأربعين ولاية الأَمير يوسف الحمزاوي، فقصدني أَفْعَى غريبة الشكل، في طول الذراع، وأغلظ من الساعد، بوجه مُدَوَّر كبير، به عينان كالمسْمارَيْن، وبرَأْسها ذؤَايتان من الشَّعَر يميناً وشمالاً، من فوق قَرْنَيْن لطاف كالْمَعْز، فَقَرُبَتْ منّي لأَجل الضَّوْء، لأَن له إِليه مَيْلاً، فرآها الغلمان، فأَسرعوا، وطرحوا عليه طَشْتاً كبيراً وأسباباً، وتَحَيَّلوا على قتلها فَقُتلَتْ، وطيْفَ بها الركب للتعجب من شكلها.

وللصلاح في معنى ذلك:

وَحَيَّة أَرْض أَقْفَرَتْ جَنَبَاتُهَا ... إِذَا مَا مَشَتْ في رَمْلَة تَتَدَرَّجُ
فَأَقْبحْ بأَرْض ضَبُّهَا مَاتَ بالظَّمَا ... وجَدْوَلُ أَفْعَاهُ بِهَا يَتَمَوَّجُ

وله في لصّ سرَق حماراً من الركب:

وَلِصٍّ كَانَ وَسْطَ الرَّمْل لَمَّا ... أَخَذْنَاهُ وَقَدْ سَرَقَ الْحمَارَا
غَدا بالْقَطْعِ لَيْسَ لَهُ يَمِيْنٌ ... وَمَا تَرَكَ الْقُطُوْعُ لَهُ يَسَارَا

وعرْبَانُ بَليٍّ أصحابُ الدَّرَك، طوائفُ كثيرة، فنذكر ما تيسّر منها: أَمَّا أصحاب درك الأَزلم فمنهم بَليٌّ الأَحامدة.

والأَحامِدَةُ بدنات، منهم: الخرشان، والركبان، والغدايرة، منهم: شاهين بن أحمد بن غَدِير وأولاد عمه، والعتيبات كفشيغة بن سالم، وجبار بن إِدريس بن

غديف، والسلمات: كعمران بن خليفة بن عمران، وآل هِلال، والقردانيات. ومن عربان بَليٍّ جميعُ مَن تقدّم من عربان الْحَمْل عند ذكر بَليٍّ فلا نكرره هنا، ومنهم العرادات بالعين المهملة، والمواهيب، والوابصة، والبركات، والجواهرة، والسباعات، والحصنة، والكحلة، وبنو سعيد المحصنة، والقرعان، وبنو مخلد، والمكاحلة، والبامات، والسُّحَمَة، والمباذر.

وبالقرب من حَذْرَة دامَةَ قبل الأَزْلم حفيرة ماء حُلْو، من فوق المحل المعروف عند العربان بدَبَّة رُزَيْقَةَ ـ براء مضمومة وزاي مفتوحة وياء بعدها ساكنة وقاف مفتوحة ـ وتُسَمَّى هذه الحفيرة نُوَيْبِعَة، من النبع تصغير نابعة، والماضي منه نَبَعَ.

وألأَزْلَمُ من المناهل الكبار المُعَدَّةِ لاستعداد المحتاج من الْحُجَّاج، ويُنْصب به سوق كبير، تجمع فيه الباعة ما حملته من الزاد والعليق وغيره للبيع على الحجيج، خصوصاً بالرجعة عند حضور جماعة الملاقاة بما معهم من البضائع والمأكولات، إلا أنَّ الإِقامةَ به بمقدار زائد عن الحاجة لا طائلَ فيه، لتَضَرُّر أهل الركب بشدة ملوحة مائه، خصوصاً في زمن شِدَّة الْمَحْلِ وعدم الأَمطار، واتفق في سنة خمس وخمسين وتسع مئة ساعةَ نزول الركب بوادِيه أَنْ هَلَّ من المطر بواديه، وسَال حتى شاهدته بَحْراً يجري تجاه باب الخان كالنهر والخليج، فملأَتْ منه أهلُ الركب قِرَبَهُمْ، وروت منه بهائِمُهُمْ وجِمالهم، ففي تلك السنة كانتِ الإِقامةُ بالوفد يومين على ذلك الماء الصافي، والمنهل العذب المصافي، وسار بعد العشاء بثلاثين درجة إلى رأس وادي تِلْبَةَ، بالقرب من سَمَاوَةَ ودَخَاخِيْن، بعد طلوع الشمس بعشر درج، فكان مدةُ سيره مئةً وستين درجة.

وفي تلك الجهات من المياه القريبة فبالقرب من تِلْبَةَ ثلاثُ مياه:

الأول: ألأُبَيِّضُ ـ بهمزة مضمومة وياء موحدة تحتية مفتوحة مشددة ولام ساكنة وياء مثناة تحتية ساكنة وضاد معجمة ـ.

والثاني: يُسَمَّى العَلْيَاء ـ بعين مهملة مفتوحة ولام ساكنة وياء مثناة تحتية مفتوحة ـ.

والثالث: يُسَمَّى الْمُغَيْرَاء ـ بضم الميم وغين معجمة مفتوحة، بعدها ياء ساكنة وراء مفتوحة ـ.

وبالقرب من دار المغداة بعد الرحيل من الأَزْلَم في الذهاب قريباً من تِلْبَةَ من جهة المشرق، عيْنٌ حلْوةٌ، تجري، تُسَمَّى الشَّغْبَيْن ـ بكسر الشين المثلثة المشددة

وسكون العين بعدها باء موحدة تحتية مفتوحة، وياء ساكنة ونون آخر الحروف ـ.

ومن جهة المغرب حفيرة تسمى بقَّاك ـ بباء مفتوحة وقاف مفخمة مَشُوْبة بالكاف ـ.

وبالقرب من وادي السماوة (؟) والدخاخين بموضع يُعرف عند العرب بدرب الشلوح نَحْو بريد ونصف، حفائر تدعى قَبْقاب.

وبالقرب من سَمَاوَة والدخاخين مخْرس إلى جِسْمَا.

وأقام أمير الحاج بالدار إلى قبل الظهر بخمس وثلاثين درجة، فكانت مدة الإقامة اثنين وثلاثين درجة، وسار إلى أن قطع إسطبل عَنْتَر، وهو: فضاءٌ صغير بين جبال ووعر، وحدرات ومضيق، ويُرَى البحر من أماكن منه، ويَمُرُّ على مكان يُسَمَّى بحَرَامِل، بين جبال وَعْرَة، إلى أن عَشَّى بأَرض الشُّرُنْبَة والعلم السَّعْدِي، فكان سيره إلى قبل المغرب بخمس عشرة درجة لدخول (الصنجق) مئة درجة.

وأرض الإسطبل بها الحرامية والسُّرَّاق، وبها نُهبَ الركبُ الْغَزَّاويُّ سنة إحدى وأربعين وثمان مئة، وفيه يقول الصَّلاَح:

رَكْبُ الحجاز تَراه إذَا مَشَى يَتَبَخْتَر
كَمْ فِيْه عَبلَةُ رِدْفٍ تَخَافُ وَادِيَ عَنْتَرْ
إذَا رَنَتْ لِمُحِبٌ صَالَتْ عَلَيْه بِأَبْتَرْ
ولَيْس يَحْمِي الْمُعَنَّى لَوْ بالدُّرُوْعِ تَسَتَّرْ

وبالقرب من إسطبل عنتر من جهة الْمَشْرق نَحْو ثُلُثَيْ بريد عين ماءٍ تجري، تسمى المِسْمَاة ـ بميم أولى مكسورة وميم ثانية مفتوحة بينهما سينٌ مهملة ساكنة ـ.

وبالقرب من مَضِيق الإسْطَبْل حفائِرُ ماءٍ حلو، تسمى النخيرة وأُمَّ الطين.

فَأُمُّ الطين: حفيرة كبيرة من شرقي الجبل الأَحمر، الذي تراه من الإسطبل، والنخيرة حفيرتان من غربيِّه.

و(الشُّرُنْبَةُ) طرطور جبل، من أول وادي الأَراك عند الذهاب ودركها لجماعة من الغدايرة منهم مشعل بن شامان بن غدير ورميح بن شبانة بن رميح.

وأما وادي الأَرَاك ففيه شجر أَخْضَر، يُنْبت الأَراك، وفي وسطه جبل كان عليه حصن مبني وفيه يقول الشهاب بنُ أبي حَجَلَةَ:

أَيَا وادي ألأَرَاك حَوَيْتَ حُسْناً أَرَاكَ قَد افْتَخَرْتَ به، أَرَاكَا

أَرُوحُ وَقَدْ خَتَمْتَ عَلَى ضَمِيْرِي بِحُبِّكَ أَنْ يَمُرَّ بِهِ سِوَاكَا

وأصحاب درك إسطبل عنتر فهم: شاهين بن أحمد بن غَدير، وصبيح وحسين أولاد سلامة بن غدير ومَن معهم عن الإسطبل والفيحاء، ووادي الأَراك إلى كبرة، أول حَدِّ الوجه.

ومن المخارس إلى أرض حسْمَا بالقرب من الإسطبل من وراء موضع يقال له الصَّفحة ـ بصاد مشددة مفتوحة بعدها فاء ساكنة وحاء مهملة مفتوحة ـ والعادة أن يقيم الركب خمسين درجة بعد العشاء، ويرحل، ففي سنة خمس وخمسين أقام أربعين درجة، وسار إلى أن غَدَّى بالقرب من الوَجْه والرحبة، ولم يَنْزل الوجْهَ لعدم وجود الماء به، فكان مسيره إلى قبل الشمس نحو خمس درج، مئةً وأربعين درجة، وأقام بدار المغداة أربعين درجةً، إلى قبل الظهر بثمان وثلاثين درجة، وسار فمرَّ على الْوَجْه والرحبة، وقطع النَّهْدَيْن، وعشَّى بأول مفرش النعام، فكان سيره إلى قبل المغرب بعشر درج لدخول (الصنجق) مئة وخمس درج. ولنتكلم على ذلك باختصار فنقول:

أما المسير إلى الوَجْهِ والرَّحبة فإِنَّهُ يسير في فضاء ومضيق وعر وجبال إليه، والْوَجْهُ الوادي، وبه آبارٌ حلوة، أصلحها آل ملك المتقدم ذكره، ثم أمر بإصلاحها في الدولة العثمانية الوزير الكبير المعظم إبراهيم باشا في سنة إحدى وثلاثين وتسع مئة، على يد المرحوم جانم الحمزاوي، فجهزت المعمارية إلى ذلك الوادي في وسط السنة الثانية، وأقامتْ لذلك الإصلاح شُهُوْراً على يد الشهاب أحمد الأزبكي الأَمين على العمارة، ورتَّبَ الوزيرُ لأَصحاب الدرك على تنظيف هذه الآبار وحراستها وتسهيل طُرُقها من مالٍ وَقَفَهُ مرتَّباً قدره في كل سنة أربع مئة دينار، مستمرَّة الصرف، تحمل من الخزائن السلطانية على يد أمير الحاجِّ في كل سنة لا تنقطع ولا تمتنع.

وأما الرحبة ففيها البئر المالح، وأصحاب الدَّرَك من مشايخ بَليٍّ الأَحامدة، وأكابرهم وهم الشيخ جلاس بن نصار بن جماز، وأولاده، وعمر بن أجود بن نصير وأولاده وإِخوته، وسالم وحسن أولاد علي بن نصير ومَن معهم، ولهذا الوادي زمنَ السيول والأَمطار محاسنُ ومعاهد، وأوقات وآثار، تُنَشِّقُ بذكرها المسامع عند وروده، وطيب أوقات تلهج بها أَلسنَةُ وُفُوْده، فهي في ذلك المنهل كالْغُرَرِ والفَرائد، ولا تزال الأَلسنةُ رطبةً بتذكُّر تلك المعاهد، لأَنَّ مياهه أطيب مياه الدَّرْب وأعذبها وأخفَّها وأحلاها، وللشعراء في هذا المنهل أقوال فلنذكر منها ما تيسّر فللشهاب أحمد بن أَبي حَجَلَة:

أَيَا سَادَةً فِي الْوَجْه فُزْت بِقُرْبِهِمْ وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الْقُرْبَ يُؤذن بِالْبُعْد
سَرَيْتُمْ إِلَى أَكْرَى فَشَرَّدتُمُ الْكَرَى وخَلَّفْتمُو في الْوَجْه دَمْعِيْ عَلَى خَدِّيْ

ولصاحبنا الشيخ الإِمام العلامة قطْب الدين النَّهروالي المكي مفتي الحنفية بها:

أَقوْل وَوَادي الْوَجْه سَالَ منَ الْحَيَا وقَدْ طَابَ فيْه لِلْحَجيْجِ مَقَامُ
عَلَى ذٰلكَ الوجه الْمَليْحِ تَحيَّةٌ مُبَارَكَةٌ مِنْ رَبِّنَا وسَلاَمُ

ولصاحبنا الشيخ أبي بكر الْيُتَيِّم المكيّ وقد غاب عنه محبُوبُه:

تَذَكَّرْت بِالْحَوْرا وقَدْ عَمَّها الْحَيَا مُحَيَّا حَبِيْبٍ أَحْوَرٍ عَزَّ قُرْبُه
فَقلت وَقَدْ شَاهَدتُّ في الْوَجْه حُسْنَه: رَعَى الله ذَاكَ الْوَجْه وَجْهاً أُحِبُّه

ولصاحبنا العلامة نور الدين بن الجزار الشافعي رحمه الله تعالى:

وَلَمَّا رَأَيْت الْوَجْه سَالَ منَ الْحَيَا وَقَدْ طَابَ فيْه لِلحَجيْج مَقَامُ
وَعَايَنْتُ رَكْبَ الحجِّ حَلَّ بسَفْحه وقَدْ ضُربَتْ في جَانبيَهْ خيَامُ
ومَدَّ إِلى الْغَيْث الْهَطُوْل أكُفَّهُ فَجَاد عَلَيْه بِالْعَطَاءِ غَمَامُ
فَقُلْتُ عَلَى الْوَجْه الْمَليْح تَحيَّةٌ مِنَ الله ما سَحَّ الرُّبَا وَسَلاَمُ

وللشيخ برهان الدين القِيراطي:

أَتَيْتُ إِلَى الْحِجَازِ فَقُلْتُ لَمَّا تَبَدَّى وَجْهُهُ لِيْ وَارْتَوَيْتُ
وَكَمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَجْهٍ مَلِيْحٍ وَلٰكِنْ مِثْلُ وَجْهِكَ مَا رَأَيْتُ

ولَهُ عند عدم الماء به:

أَقُوْلُ وَقَدْ جِئْنَا إِلَى الْوَجْهِ جَمْعُنَا عِطَاشٌ وكُلٌّ حارَ فِيْهِ رَجَاؤُهُ
إِذَا قَلَّ مَاءُ الْوَجْه قَلَّ حَيَاؤُهُ وَلاَ خَيْرَ فِي وَجْه إِذَا قَلَّ ماؤُهُ

ولأَبي عبد الله الْفَيُّومي:

وَلَمَّا وَجَدْنا الْوَجْهَ عِنْدَ وُرُوْدِهِ خَلِيًّا مِنَ الْمَاءِ الْفُرَاتِ فِنَاؤُهُ
زَممْتُ مَطِيِّيْ ثم قُلْتُ: تَرَحَّلُوْا فَلاَ خَيْرَ فِيْ وَجْه إِذَا قَلَّ مَاؤُهُ

والْعَرْجَا بين الْوَجْه والنَّهْدَيْن وَادٍ خَلْف طريق الحجاج، ذكروا أنه كان به مياه قديمة من حفائر تحت النَّهْدَيْنِ بيسير، وله درك مبلغه في القديم مئة دينار، ما هو على الركب الأَول أربعون ديناراً، وباقي ذلك على المحمل، وكان صاحبُ الدرك

قديماً سليمانَ ابن سلطان من جعافرة الشنابلة، فاختلف مع جماعته من العربان، وترافعوا إلى الأَمير أنسباي حاجب الحجاب، أمير الحاج إذ ذاك في الدولة الجركسية، فجعلها مرتَّباً لاَ دَركاً، فاستمرَّتْ على ذلك، ثم في الأيام المظفرية قرر له ملك الأُمراء خاير بك على المبلغ المذكور زيادة ستين ديناراً إنعاماً، فصار المقدر مئة وستين ديناراً، وهو الآن يصرف لأَولاده وإِخوته ومَن معهم وهم: موسى بن سليمان ابن سلطان، وعشيش أخوه، وأولاد عيسى بن سليمان ابن سلطان، وهم: سليمان وسلطان وعامر وسالم ورحيل.

وقال السروجيُّ الحنفيُّ في «مناسكه»: والعرجا اسم ماءٍ على جانب الوادي، بينه وبين الوجه مرحلة، يوجد فيه الماء في بعض الأَزمنة. انتهى. وفوق عن الوجه ـ نحو نصف بريد ـ ماءٌ يسمَّى الْكُرَّ ـ بفتح الهمزة وضم الكاف وتشديد الراء ـ وبالوجه مخرس إلى حِسْمَا.

وأما النَّهْدَيْنِ فهما جَبَلاَن صغيران متقابلان، على صورة النهدين في الوضع.

وقد جمع الدَّرْبُ المصريُّ مِن صفات الذوات الآدَمِيَّة والحيوانية: الوَجْهَ والعيون والحنك والنهدين، ومن البهيمة: عُرْقُوبَ البغلة، وظهر الحمار. وأَمَّا مفرش النعام ـ ويُسَمَّى بركة أَكْرَى ـ يسيرون إِليه في مضايق وحدرة وَعْرة كبيرة، وهناك جبلا النَّهدين، ثم فضاء يُرَى منه البحر، ثم مضيق، وحَدْرَةٌ كبيرة، ثم فضاء واسعٌ ومَرْعَى، وهو درك مشايخ السلمات من بَلِيٍّ، منهم عمران بن خليفة بن عمران، وأحمد بن بيض وجماعتهم، وحَدُّ دركهم من فشيغة الوجه إِلى مفرش النعام إِلى أَكْرَى.

وبالقرب من مفرش النَّعام نحو نصف بريد، ماءٌ يُسَمَّى سَفَان ـ بسين مهملة، بعدها فاء مفتوحتين ونون آخر الحروف ـ.

وكانت الإِقامة بالدار إِلى بعد العشاء بثلاثين درجة، وسار إِلى أَنْ قطع مفرش النعام، ووصل إِلى وادِي أَكْرَه، شَيْلَةً واحدة، فكان المسير إِلى بعد الشمس بعشرين درجة، مئة وثمانين درجة، لدخول (الصنجق) وذلك لموجب عدم الماء بالوجه وخوف العطش، في طول المدة، وإِنما كانتْ مئةً وثمانين درجة لأَنَّ الرحلة السابقة لم تكن بالمفرش، وإِنما كانت بالقرب منه بنحو الثلاثين درجة أَو أَكثر، لأَنَّ المسافة من أرض المفرش إِلى أَكْرَى من تسع ساعات إِلى عشر، بحسب سير الجِمال فإِنه يختلف.

وأَكْرَى حَدُّ أُرضٍ بَليت من جُهَيْنَةَ، وهو فضاءٌ واسع، ومرعى، وماؤها حفائر

جفار غير سائغة، وهي مختلفة منها ما هو مالِحٌ جدًا، ومنها ما هو دونه، وإذا لم تكن الأَرضُ سائلةً من المطر فالملوحةُ متزايدةٌ، وبِالضِّدِّ، وتزعم الْجمَّالَةُ أَنَّ ماءَهَا خبيث لشرب الجِمال، وليس بصالح، وأنه يَضُرُّها بخلاف ماء الأَزلم.

وأَكْرَهُ أرضها مُدَوَّرَةُ الشكل، كالكرة، فلعلَّ ٱسْمَهَا مُشْتَقٌّ من شكلها، وغَيَّرَتْهُ العامَّةُ بأَلفاظها.

قال في «القاموس»: الأُكْرَةُ بالضم لُغَيَّة في الكُرَة، والْحُفْرَةُ يجتمع فيها الماء فَيُغْرَفُ صافياً، والأَكْر وَالتَّأَكُّرُ حَفْرُها، ومنه ٱلأَكَّارُ لِلْحَرَّاثِ، الجمع أَكَرَةٌ كأَنَّهُ جَمْعُ آكِر، في التقدير.

وأَرْضُها رَدِيَّةٌ سَبَخَةٌ، وأفاعِيْها قتَّالةٌ في الغالب، وبمناخِها دركان: فَالأَثْلُ وَمَحَلُّ الحفائر - ويسمى الْهِيْش - درك جعافرة الشنابِلة.

منهم: أولادُ قناع، ومناخ الركب فقط درك عُمر بن سَبُع بن غنام، وأولاده من بَلِيٍّ الجواهرة، وهو غاية درك عُرْبان بعلِيٍّ، ومن أَكْرَى إِلى طرف الْحَنك بِغَيْر دَرك، وطرف الحنك فقط درك تركي بن شوفان من عبيد بني حسن، ويدعى ابن رقطية، ومنه إِلى المحل المعروف بالْحُرَيْرة، وهو الحدرة السوداء أول درك الشريف أمير الينبع، إِلى مناخ الركب بالينبع.

وأما المياه فبالقرب من أَكْره حَدِّ بليٍّ من جُهَينة مقدار نصف بريد حفائر، تسمى الضِّيْقَة - بتشديد الضاد المكسورة، وياء بعدها [قاف] مثناة فوقيَّة مشوبة بالكاف -.

وبالْقُرْبِ من طرف الحنك نحو ثلثي بريد، عَيْنُ ماءٍ تجري، تسمى خُفَّ - بخاء معجمة مضمومة بَعْدَهَا فاء مشددة -.

وبالقرب من بئر الْقَرويِّ نحو نصف بريد، عَيْنٌ تجري أيضاً، تسمى الضُّحِيَّ - بضاد معجمة مشددة مكسورة وحاء مهملة مكسورة أيضاً وياء مثناة تحتية مشددة آخر الحروف - وبالقرب من أَكْرَى محلٌّ يُدْعَى الوفدية، مخرس إِلى حسْما، وبأَكْرَى مخرس ثان، وبالقرب من الْعقيق، أول المضيق من الطلعة من يسار الركب مخرس إِلى حسما، وخرج منه بَنُو لاَمٍ على الركب في سنة ثلاثين وتسع مئة ولاية الأَمير جانم الحمزاوي، ولم يظفروا منه بطائل، ولحافظ العصر الشيخ شهاب الدين بن حَجَرٍ بلَّ الله ثَرَاهُ:

أَحِبَّتَنا لا تَنْسَوْا الْوُدَّ مِنْ فَتىً ... قَرِيْحِ حَرِيْقِ الْجِسْمِ مُقْلَتُهُ عَبْرَى
تَذَكَّرَ في أَرْضِ الْحِجَازِ دِيَارَكُمْ ... فَلَمْ يَتَأَنَّسْ بِالْعَقِيْقِ وَلاَ أَكْرَا

وكانت الإِقامة بأَكْرَى يوماً وليلة، وسار إِلى طارف الْحَنَك، والماضي من الشمس عشر درج، قبل الظهر بخمس وستين درجة فكان مسيره إِلى أن قطع الحنك، وهو فضاء واسع كبير، وطارف جبل صغير (؟) يُرَى على ميسرة الركب ذهاباً وهو المسمى بالحنَك، وكان المعشَّى بالقرب من حدرة بئر القروي، قبل المغرب بخمس عشرة درجة، مئة وثلاثين درجة لدخول (الصنجق) حدرة ومرعى وآثار عمارة بغير ماء في البئر.

وعربان الْعَنَزَة يأتون من حوالي المدينة الشريفة، وحدودهم من طرف الحنك من الجهة القبلية إِلى المدينة الشريفة إِلى آبار عليٍّ، إِلى جبل مُفَرِّح، وربما يتبع الحاجَّ نَفَرٌ منهم في الأَحْيان من أَكْرى.

والعنزة بَدَنَاتٌ منهم حَجَّاج وجُبارة، والمصاليخ وبشْرٌ وَولْد علي، والشَّمْلاَن، والعمارات والسُّبَعة ـ بسين مهملة بشدَّة مضمومة ـ والسحالين (؟) وبنو سليمان، والطَّوالعة والجَلاَس ـ بفتح الجيم المعجمة واللام ـ والْحسَنَة والفدْعان والشراعبة ووهب.

وأقام إِلى بعد العشاء بخمس وعشرين درجة وسار إِلى أَن مَرَّ على بئر القرويِّ والمحاطم وبئر القروي هذا، يقال: إِنه كان ماءً لبني هلال في الأَعصر الماضية، وعَفَتْ واندرستْ على طول الدهر.

وحكي أن الشريف عرار بن عجل بن رُميح، وزير صاحب مكة نزل هناك في بعض السنين وأمر عَبيده بحفر هذا البئر، وقصد الكشف عن أمرها، فحفروا فيها إِلى أن ظهرتْ لهم أرضٌ نَديَّةٌ، وإِذا ببعض العبيد الذين يحفروني قول: أطلعوني فقد قُتلت، فأصعدوه إِلى فم البئر، وإِذا به ميت مكسور العنق، فيقال: إِنَّ الجن عُمَّارَ البئر قتلته، فأَمر الشريف بإِبطال الحفر، وتركها على حالها.

وغَدَّى بعد الشمس بخمس عشرة درجة، بالقرب من وادي حزبان، وكان مسيره مئة وسبعين درجة، وهو فضاء بطريقه محاطب وشجر، وعَقَبة سَوْدَاءُ الحجر وعرة، تُدعى الْحُرَيْرَة ـ تصغير حَرَّة بفتح الحاء ـ ومنها تحضر ملاقاةُ جماعة صاحب الينبع بخيولهم ورجالهم، صحبةَ مَنْ يعتمد عليه، والغالب في زمننا يكون (الباش) عليهم الشريف مُعَزِّي ولد أخيه، لأَجل حراسة الوفد، وعادته قفطانٌ أوسط، إِما من النبك المذهب، أو من السرنك العال، ولجماعته من الجوخ المخيوط أربعة، ومثلها من الملاليط، ولهم العليق لخيولهم، والمأكولات من السَّنيح لرجالهم، والسكر والْحلوَى لكبيرهم، ومكارم الأَخلاق، على ما جرت به العوائد.

والإِقامة بدار المغدة بوادي حَزبان خمس وعشرون درجة، وسار قبل الظهر بخمسين درجة إلى الحوراء، فكان مدة مسيره لدخوله إليها مع (الصنجق) مئة درجة، والوصول قبل المغرب بثلاثين درجة.

قال في «الصحاح»: الحوراء: الْكعبَّةُ الْمُدَوَّرَة، وقرب المدينة وهو مَرْفَأُ سُفُن مصر.

وهي قرية من قرى الحجاز تُبَاع بها الْعَجْوةُ، وبها قوارب لِطَافٌ، بها جماعة لصيد السمك، وهي بساحل البحر، وماؤُها حفائر جفار غير سائغٍ، والعامَّة يقولون:

(إِذا وصلت الحوراء عَبِّي لنَجْوك جُوْرة)

لأَنه يُسَهِّل البطن لشدة ملوحته، ويَعْذب يسيراً في بعض الأَحيان إِذا سال الوادي، والمراكب المتوجهة إِلى الحجاز تستقي منها، وبها شجر الأَراك أيضاً.

وفي كتاب «عجائب البلدان»: الحوراء: قرية صغيرة، وبها معدن البرام، ويُحمل منها إِلى سائر أقطار الأَرض، وشُرْبُهم من آبار عذبة، وهي على ساحل بحر الْقُلْزُم.

وبدار الركب في الذهاب عَلْوَةٌ بها قبور جماعة من أعيان الركب، منهم المقدم الكبير محمد بن العظمة، انتقل بالوفاة بالْحُرَيْرَة، وحُمِل في مَحَفَّة أمير الحاج إِلى هنا فَدُفن بهذه العلوة، وعلى قبره لوح من الحجر منقوش فيه تاريخ وفاته واسمه، أحضره محمد بن العظمة، ولده من مكة ليكون تاريخاً لوفاته ورَسْماً لِقَبْره.

وسلطان بن جويلي بن عامر من أمراء عربان البحيرة، وهو قريب عيسى بن إِسماعيل، وأخوه عامر توفي في سنة خمس وخمسين وتسع مئة. وتأَخر أمير الحاج بهذه الدار لوفاته ليلة كاملة.

وبها جماعة من المماليك الجراكسة السلطانية مَدْفونون بجوارهما.

والحوراء من مناهل الحجاز. وفي سنة تسع وأربعين وتسع مئة ولاية المرحوم جانم من قصروه، أَحْضَروا إِليه (البلاصية) وَحْشاً أبيض الباطن، أَسود الظاهر له صماخ بلا أُذُن، أكبر من الكلب بيسير، نتن الريح يسمى الظرِبان ـ بالظاء المعجمة ـ فضرب ظهره بالسيوف الحادَّة فلم تُؤَثِّر في جلده، إِلى أن ضرب على جلد بطنه الأَبيض فأَثَّر فيه وقتله.

ودَرَكُ الحوراء كما قدّمنا ذكره من جملة درك أمير الينبع إِلى مناخ الينبع. ولأَبي عبد الله الفَيُّومي:

يَا مَنْهَلَ الْحَوْرَاءِ ذَكَّرْتَنِي بِالنِّيلِ لَوْ لَمْ تَنْقَضِ فَوْرَا
بَيْتِي على شَاطِئِهِ مَحْمَلي وَالأَنْهُر الجارية الْحَوْرَا

وله في نَبْط والحوراء وأَكْرَى:

رَوِّ مِنْ نَبْطَ مَطِيَّي واسْقِنِي ثم تَوَجَّهْ
وَدَعِ الْحَوْرَا فَإِنِّي صِرْتُ أَشْنَاها وأَكْرَهْ

حكى المقريزي في «السلوك»: أن في ليلة السبت خامس عشر القعدة سنة ثلاث وثلاثين وثمان مئة ظهر للحاجِّ وهم سائرون من جهة البحر الملح كوكبٌ يرتفع ويعظم، ثم يفرغ منه شرر كبار، ثم اجتمعوا فلما أصبحوا اشتدَّ عليهم الحرُّ فهلك من المشاة ثم من الركبان عالم كبير، وتلفَ من جِمالهم وحميرهم عددٌ وافر عظيم، وهلك أيضاً في بعض أودية ينبع جميع ما كان فيه من الإبل والبقر والغنم، كلُّ ذلك من شدَّة الحر والعطش.

وبالقرب من الحوراء حفيرة تسمى الرُّكْزَة ـ بضم الرَّاء المهملة المشددة بعدها كاف ساكنة ـ ماؤها طيب.

وبالقرب من الْعُقَيْقِ نحو ثلث بريد ماءٌ يسمى لُبُوْبُ ـ بلام مفتوحة بعدها عين مهملة ساكن وبَاءَيْن موحدتين، الأُولى منهما مضمومة بينهما واو ـ.

وبات الركب تلك الليلة بالحوراءِ ـ كما تقدّم ـ ورحل منها بعد طلوع الشمس بخمس عشرةَ درجة، وسار إلى أن قطع العقيق وصُحَينَ الْمَرْمَر، وبعضهم يسميه عَنْهل، وغَدَّى بالدار المعتادة بِصُحَيْن المرمر، وعشَّى، فكان مدة سيره مئة وثلاثين درجة إلى قبل المغرب بثلاث عشرة درجة لدخول (الصنجق).

والعقيق ـ بالتَّصْغير ـ من مضايق الحجاز المشتهرة، ومن أمثال العامة المهملة: (إِنْ عُدتُّ لك يا عُقَيِّق لقبني (؟) بالعتيق) ومما يُعد من الصنيع الكبير والمانَّة على العامة مع بعضها: (أنت حملتني بالعقيق) إِذَا عدّد له معروفاً أو ذكر له صَنِيْعاً.

وبه شجر البَيْلسان البرِّي، وأخذناه من رؤوس جباله مِراراً، يَمُرُّ الركب به في مضيق وجبال وعرة، وفيحا ومضيق منحدر، وعقبة وحدرة وواد يسمى وادي الْعُقَيِّق، وحُمِل من هذا المحمل في سنة نَيِّف وأربعين وتسع مئة شجر البلسان، ومن مَدْرج الإِمام عثمان رضي الله عنه، ومن حوالي فساقي مكة المشرفة إلى القاهرة المحروسة، مغروساً في الطين، الموضوع في شقادف من الخشب المتقنة، المحكمة الصنعة،

بخولي يسقيه، ويقوم عليه إلى أن زُرع بِغَيْط الْبلسان، بأَرض الْمَطَرِيَّة، وذلك بإشارة الرئيس الكبير، بدرِ الدين القوصوني الطبيب لداود باشا، وكان عدة الشجر المنقول ستين شجرة.

ولابن رحاب من قصيدة:

يَا رَعَى اللّهُ جِيْرَةَ الْجَرْعَاءِ وقِبَاباً عَهِدتُّهَا بِقُبَاءِ
وسَقَى وَادِيَ الْعَقِيْقِ غَمَامٌ مِنْ رُبُوْعٍ تَرْبُو عَلَى الأَنْوَاءِ
كَمْ قَطَعْنَا بِهَا لَيَالِيَ وَصْلٍ بِدَوَامِ اللِّقَا، وطِيْبِ الْهَنَاءِ
يَنْبَعُ الدَّمْعُ بِالْعَقِيْقِ وتَهْمِي مِنْ جُفُونِي لِلْمُقْلَةِ الْحَوْرَاءِ

وصفة صُحَيْنِ المرمر: أرض مستديرة كالكُرَة، ذاتُ رمل أبيض غزير، كثيرة الأَفاعي، وفي الغالب يكون لونُها بلون رَمْل أرضها، وخصوصاً في الْكَوَادي، حول النَّبت الذي به، وبها ثقوب لسكناها.

وكانت الإقامة به إلى بعد العشاء بثلاثين درجة، وسار إلى وادي نَبْط، وبعضهم يسميه الْمُغَيْرَة، فكان مسيره إلى قبل الفجر بخمس وعشرين درجة مئة وثلاث درج.

وهو منهل من المناهل المشهورة، والمياه المذكورة، به ثلاث آبار من الماءِ الحلو الطيب للحاج آل ملك، وتعطلت إحداها فعَمرها وجدَّدها المقام المفخم، والباشا المعظم، مدبر أحوال العالم مصطفى أمير الحاج في سنة ست وخمسين وتسع مئة، وحفر ماءَها ونظّفها وحمل إليها الحجارة، والنورة من الينبع، وجَهَّزَ إليها الفَعَلَةَ والمعْمَاريَّةَ، وأصرف عليها مبلغاً له صورة إلى أن عادتْ أحسنَ ماءً من رفاقها، وأغزر من بقية الآبار التي بنبط، ونقش تاريخ عمارتها في لوح من الحجر، موضوع بسفح الجبل، بالقرب منها، أثابه الله تعالى.

ثم في عام سبع وستين وتسع مئة كتب علي باشا مصر إلى الشريف دَرَّاج بن هجَار لعمارة آبار وادي نَبْط وتنظيفها، فإنَّه بعد تنظيف مصطفى باشا مَرَّ السيل والرمْلُ على الآبار فَقَلَّل ماءَها، وعادت المشقَّةُ من قلَّة الرواء العام للحجيج، فقام دَرَّاجُ في ذلك بقلبه وقالبه وهمته، وتوجه بنفسه إليها، وصحب معه من المعمارية والنورة والآلات من الينبع بما فيه كفاية، وأصرف على تنظيف الآبار مبلغاً له جزمٌ، ووجد بئراً رابعةً مندرسةَ الآثار، فحفرها، ورَمَّ عمارتها المتهدمة من داخلها، فعادت حسنة غزيرة الماء، وصار في هذا المورد أربع آبار فعَمَّ النفعُ بها، وبنا مقابِل الآبار من جانب الجبل صفةً عالية يجلس عليها مَن يريد الجلوس، وذكر لي كاتِبُهُ جمَّاز بن

مقبول الينبوعي لما ورد إلى مصر بأوراق مَصْرف العمارة أنَّ جملة ما صُرف على عمارة الآبار ستُّ مئة دينار من الذهب ونَيِّف، وكانَ حضر بذلك لتعرض على الباشا، فوجده قد مات في سادس صفر سنة ثمان وستين فعاد بأوراقه إلى الينبع.

وللوفد بهذه الآبار رفْق كبير، وخصوصاً إذا لم يكُنْ بالوجه ماءٌ فإنَّ الحاج لا يرد على ماءٍ حلوٍ طيّب بعد مغارة شعيب عليه السلام إلا منها بعد المويلح الآن.

وفي زمن المطر يَصِير بالوادي الذي به الآبار المذكور نجيل أخضر.

ويباع بنَبْط الشواء المعمول في التنُّوْر والعجوة والبطيخ والفجل مجلوباً من الينبع.

ومغارة نَبْط حَدُّ جُهينَةَ من بني حسن، يصل إليها رابع عشر يوم من عقبة أيلة، في مضايق وحدرة، وشجر الأَثل بها كثير، وأصحاب درك سقايتها بنو حَسَّان، منهم محمد بن حميدي وتريم ورفقهم.

وطوائف عربان جُهَيْنَةَ بتلك النواحي كثيرون، منهم الطوائف المذكورة في باب الحمل، ومنهم بدنات أُخر يسكنون البر من جُهَيْنة، كالمقابلة والفوائدة وعَنَمَة، والعقب وبديل وبنو حسان ورشم، وخميس والعوامرة وقُوْفَة، وعقيل وغيرهم مما لم نذكرهم.

وللشهاب أحمد بن أبي حَجَلَة:

مَغَارَةُ نَبْط أَخْصَبَ اللّهُ أَرْضَهَا ... وَلاَ زَالَ يَهْمِي بالْمِيَاهِ بِهَا الْجَوُّ
يُقَالُ لَهَا بَحْرُ الْحِجاز لأنَّها ... بِهَا الْمَاءُ مِثْلُ الْبَحْر لٰكِنَّهُ حُلْوُ

وله أيضاً رحمه الله:

جِئْنَا مَغَارَةَ نَبْط وَالْمِيَاهُ بِهَا ... لِلْوَارِدِيْنَ بِهَا فِي الْحَجِّ مَا شَاؤوْا
فَلَمْ نَردْ بَعْدَ صَافِي مَائِها ثَمَداً ... فِي الدَّرْب حَتَّى بَدَا فِي يَنْبُعَ الْمَاءُ

ولأبي عبد الله الفَيُّومي:

رَوِّ مِنْ نَبْطَ مَطِيِّي ... وَاْسْقِنِي ثُمَّ تَوَجَّهْ
وَدَع الْحَوْرَا فَإِنِّي ... صِرْتُ أَشْنَاهَا وأَكْرَهْ

وكانت الإِقامة بِنبط إلى قبل الظهر بخمسين درجة، ثمانية وسبعين درجة، وسار إلى أن مَرَّ على طراطير الراعي، وغَدًّا الدار المعتادة، وهي آجل (؟) وغداها بخمس عشرة درجة، وعَشَّى بالقرب من وادي النَّار، فكان المسير إلى قبل المغرب

بثمان درج، مئةً وخمسة، والطريق بين جبال وبعضهم يسمي المنزلة بطرطور الراعي وبعضهم بالأَباطح ـ جمع أبطح ـ وللشهاب أحمد بْن أبي حَجَلَة:

مَـرَرْتُ بـوَادي الـنَّـار والـلَّـيْـلُ مُـقـبـلٌ　　وقَدْ مالَ جَفنُ الْعَيْن والْغَمْضُ للصُّلْح

فَلَمَّا اخْتَفَى طُرْطُوْرُ رَاعيْه في الدُّجَا　　تَوَلَّيْتُ رَعْيَ النَّجم عَنْهُ إِلَى الصُّبْح

وله:

أَسيْرُ بوادي النَّار والْقَلْبُ في الْحَشَا　　يـكَـادُ لـريْـحِ هَـبَّ فـيْـهِ يَـذُوْبُ

وَلَـوْلاَ نَـسِيْـمٌ هَـبَّ مِـنْ نَـحْـو طَـيْـبَـة　　لَـمَـا كَـانَ عَـيْـشِـيْ فِـي هَـوَاهُ يَـطِـيْـبُ

وأقام إِلى بعد العشاء بثلاثين درجة، وسار إِلى أن قطع وادي النَّار، بَيْنَ جبال ورمل مُغْبَرٍّ ووعر.

والمرور به في النهار وخصوصاً زَمَن القيظ مُشِقٌّ جدًّا.

ومَرَّ على الْخُضَيْرَاء من أعمال الينبع، وقطع ثلاثَ وَعْرَات، وغَدَا بجانب الجبل الأَحمر، في مكان أفيح، قبل الشمس بخمس درج لدخول (الصنجق) فكان مدة مسيره مئةً وخمسين درجة. وأقام بدار المغداة خمساً وثلاثين درجة، وسار قبل الظهر بأَربعين درجة إِلى أن قطع بقية الْوَعْرَاتِ كُمَّلاً، وعددها سبع كبار ويليها دُونها سبع أُخَر، وتسمى هذه المرحلة بالسبع وعرات، وبالمحاطب أيضاً لكثرة الشجر بها.

وقيل: لأَنَّ أهل الينبع يجمعون منها حطبهم، ومن هذه الوعرات ثلاث كبار، ومضايق وحجارة كبار، وحدرات، والمنزلة المعتادة بعد المحاطب.

وفي تلك السنة مَرَّ على المنزلة المعتادة التي هي دَارَيْن البقر، وعَشَّى بوادي تَمَا ـ بتاء مثناة مفتوحة بعدها ميم وألف ـ بالقرب من جبل الزينة، مكان أفيح، ويسمى وادي الفجرة أيضاً، بجوار جبل كبير، قبل المغرب بعشرين درجة لدخول (الصنجق) فكان مدة سيره خمساً وتسعين درجة، وجرت العادةُ بحضور أمير الينبع، للسلام على أمير الحاج بهذه الدار، في نفر قليل ويعود، وفي هذه الليلة تكون الإِشارات ثلاثاً:

إِحداها: بدار المعشاة، بوادي الفجرة أو بوادي تَمَا أَوْ بدارين البقر.

والثانية: بجبل الزينة لنزول أمير الحاج وأهل المحامل للزينة من ثم.

والثالثة: بالينبع لنزول أهل السبق والفرّاشين بخيامهم، ومَن يتبعهم من السوقة على ما جَرَتْ به العادة.

وكانت الإِقامة في سنة خمس وخمسين بوادي تَمَا إِلى قبل الفجر بخمسين درجة، وسار فكان سيره إِلى جبل الزينة أربعين درجة قبل الفجر بعشر درج.

ولدخول الحاج إِلى الينبع خمساً وخمسين درجة من وادي تَمَا، وذلك في صبيحة يوم الجمعة حادي عَشْرَ ذي القعدة سنة خمس وخمسين.

والعادة حضور أمير الينبع بخيوله الملبسة، ورجاله وزينته، وأعلامه وطبله، في هيئة جميلة إِلى القرب من جبل الزينة، وينزل عن فرسه عند الملاقاة، فتُبسط له سجادة من عمل الروم كبيرة، تكون مُهَيَّأَةً صحبة غلمان (الطشت خاناه) فيستقبل القبلة ويصلي ركعتين هو ومَن معه، وعادته وولده وقريبه سنقر (؟)، وقاضي الينبع ثم بعد الصلاة يلبس التشريف السلطاني المجهز من الديوان الشريف صحبة أمير الحاج، وينعم أمير الحاج من عنده على ولده وقريبه وقاضي الينبع بثلاث تشاريف من المخمل المذهّب، والقاضي دونهم في ذلك، ثم يتقدّم أمير الينبع يُقبِّل خُف جمل المحمل طاعة للسلطنة الشريفة، وانقياداً لأَوامرها المنيفة، ويركب فرسه ويساير أَميرَ الحاج، ويجتمع عساكره مع العسكر الذين بصحبة أمير الحاج، ويسيرون في ذلك الموكب الجليل إِلى المخيم بالينبع، فيترجلُ أمير الينبع عن فرسه وكذلك مَن معه، ويجلسون في مخيم أمير الركب، لسماع الحكم المجهز إِليه على يد أمير الحاج، ومعظم ما فيه: حسن القيام بتلقّي أمير الحاج وأهل الركب، والاجتهاد في حراسة الركب، بحيث أن لا يضيع منه عقالُ بعير، وإِجراء أمير الحاج على أتم العوائد، والتأْكيد في هذا المعنى. فيقرأه صاحبُ الديوان على أمير الينبع، بحضور الْمَلأِ الذين يحويهم ذلك المجلس، ويأْخذ حُكْمَهُ، ويتوجه بموكبه إِلى داره، وهذا هو المصطلح الذي أدركنا مَن تقدَّمَنَا عليه، ثم يشرع أمير الحاج ساعة وصوله وجلوسه في تجهيز جماعة من ثِقاته إِلى الزيارة الشريفة النبوية، صحبة دليل، وله عادة على ذلك من الفضة مِئَةُ نِصْفٍ كبيرة، وجوخة مخيوطة، وهذه الزيارة لمَن تأَخر في الإِياب بالينبع بمصالح أمير الحاج، وحراسة حمل التجار، ومَن لا يزور من أهل الركب لحفظ أسبابهم كما هو معلوم.

ويَنْبُع ـ بالفتح ثم السكون وضم الموحدة وإِهمال العين ـ مضارع نَبَعَ الماءُ أي ظهر، وهي من نواحي المدينة على أَربعة أيام منها، وإِنَّما أُفردَتْ عن المدينة في الأَعْصُر الأَخيرة، سميت به لِكثرة ينابيعها، قال بعضهم: عددت بها مئةً وسبعين عيناً، ولما أشرف عليها عليٌّ رضي الله عنه ونظر إِلى جبالها قال: لقد وُضِعَتْ على نَقًى من الماء عظيم.

قال السيد السمهودي في «تاريخ المدينة النبوية»: وسكانها جُهَيْنَةُ وبنو لَيْثٍ والأَنصار، وهي في زمننا لبني حسن العلويين، وروى ابن أبي شَيْبَةَ أن عمر بن الخطاب أقطع عليًا ينبع، ثم اشترى عليٌ إلى قطيعة عمر أَشْياءَ. وروي أيضاً عن كُشْدِ بن مالك الْجُهنِيِّ قال: لما نزل طلحةُ بن عبيد الله وسعيد بن زيد عليَّ بالْمِنْجَار، وهو موضع بين حَوْرَة السُّفْلَى وبين مَنْخُوس، على طريق تُجَّار الشام، يترقبان عِيْرَ أبي سفيان، فأَجارهما كُشْدُ فلما أخذ رسول الله ﷺ يَنْبع أقطعها لِكُشْدِ فقال: إنّي كبيْرٌ، ولكن أقطِعْها لابْن أَخِي، فقطعها له، فابتاعها منه عبد الرحمٰن بن سعد الأَنْصاريُّ بثلاثين ألف درهم، فخرج عبد الرحمٰن إليها فأَصابه سافِيها وريحُها، فاسْتَوْبَأَهَا ورَمِدَ بها، فَقَذَرَها. وأقبل راجعاً فلحق عليّ بن أبي طالب دون يَنْبُعَ فقال: من أين جئت؟ قال: من ينبع، وقد سيّبتها، فهل لك أَنْ تبتاعها؟ فقال علي: قد أخذتها بالثَّمَن. قال: هي لك، فكان أول شَيْءٍ عمله عليٌّ فيها الْبُغَيْبِغَة. وعن عمار بن ياسر قال: أقطع النبي ﷺ عليًا بِذِي الْعُشَيْرَةِ من ينبع، ثم أَقطعه عمر بعدما اسْتُخْلِفَ إليها قطيعة، واشترى عَلِي قطيعة، وكانت أموال عَلِي بِيَنْبُعَ عيوناً متفرقة تصدق بها، وروى أحمد بن الضحاك أن أبا فُضَالة خرج عائِداً لِعَلِي بِيَنْبُعَ وكان مريضاً فقال له: ما يسكنك هذا المنزل؟ لو هلكتَ لَمْ يَلِكَ إلاَّ الأَعْرَابُ، أعرابُ جُهَيْنَة، فاحْتَمِلْ إلى المدينة فإن أصابك قَدَرٌ وَلِيَكَ أَصْحابُكَ. فقال علي: إنِّي لستُ بميِّتٍ من وجعي هذا، إنَّ رسول الله ﷺ عهد إليَّ أن لا أموت حتى أضرب ثُمَّ تُخْضَبَ هذه ـ يعني لحيته ـ من هذه ـ يعني هامته ـ.

ومَسْجِدُ الْعُشَيْرَةِ معروف ببطن ينبع، وهو مسجد القرية التي ينزلها الحاجُّ المصريُّ بيَنبع، في وُروده وصدوره. والعين اليوم الجارية عنده لكن لا يُعْرَفُ بهذا الاسم، وروى ابن زُبَالَةَ عن علي بن أبي طالب أنَّ النبي ﷺ صلَّى في مسجد ينبع بعين بَوْلاَ. قال المجد: وهذا المسجد اليوم من المساجد المقصودة المشهورة، والمعابد المشهورة المذكورة، تُحْمَلُ إليه النذور، ويُتقرب إلى الله تعالى بالزيارة له والحضور، ولا يخفى على النفس المؤمنة ما هناك من روح ظاهر على ذلك المكان، وأُنس يشهد له بأَنه حضره سيد الإِنس والجان.

وبها مياه عديدة أشهرها الآن عَيْن البركة، وعَيْن علي رضي الله عنه.

وقال صاحب «تقويم البلدان»: والينبع مدينة بالقرب من المدينة، وورد ذكرها في الحديث، قال ابنُ سعيد: والينبع بها عيون وحفير وحِصْن، وهي منازل بني الحسن رضي الله عنه، وبها فرضة على البحر على مرحلة منها، قال ابنُ حَوْقل:

وينبع حصن به نخيل وماء وزرع، وبها وَقْفٌ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يتولاَّه أَوْلادُه، وبقرب يَنْبُعَ جَبَلُ رَضْوَى مُطِلٌّ عليها من شرقيِّها، ومن رَضْوَى يُحْمَلُ حَجَرُ الْمِسنِّ إلى سائر الأقطار، وبينه وبين المدينة سَبْعُ مراحل. قال: ورَضْوَى جبلٌ مُنيف ذُوْ شِعَابٍ وأَوْدِيَة، قال: ورأيته من ينبع أخضر. قال: وأخبرني مَن طاف في شعابه أنَّ به مياهاً كثيرة، وهو الجبل الذي زعمتْ طائفةٌ يُعرفون بِالْكَيْسَانِيَّةِ أنَّ محمدَ بن عليّ - المعروف بابْنِ الْحَنَفِيَّة - يقيم به. من «المشترك». انتهى كلامه.

وينبع آخر الربع الثالث من أرباع الحجاز، يدخلونه ضُحَى يوم السادس عشر من عَقَبَة أَيْلَةَ، وبها مياهٌ جارية ونخيل وزرع، وبها الآن جامعان معطَّلان من الخطبة، وغالبُ أهل القرية على مذهب الزَّيْدية، والجامعان إنشاءُ الشريف هلمام بن أجود من أُمراء الينبع في سنة اثنتين وخمسين وثمان مئة وأَذانهم: (حَيَّ عَلَى خَيْرِ العمل).

وينبع عين جارية حلوة من خارج البلد، مشرقها؛ فَتَمُر بالمدينة، وتُمِدُّهَا عيون أخرى إلى غربي المدينة، وداخلها سوق به بعض دكاكين وصاغة، وحوانيت يَفْرش بها التجار أنواع القماش أيام الموسم، للبيع على أهل القرية والواردين إليها، وبها الحدائق والخانات والأفران والبيوت، وقد خربتْ ودثرتْ منها أماكن كثيرة جدًّا، وليس لها الآن باب يتوصل إليها منه إلا آثار بابٍ خراب ذُكِرَ لي أنه كان في القديم يسمى باب المشانيق، وقد أنْشَأَ بها صاحبُنا السيد الشريف دَرَّاجُ بن هِجار بن مُعِزَّي ابن دَرَّاج بن وُبَيْرٍ أميرُها بيتاً حسناً، وبجانبه دار أخرى لسكنى ولده الكبير السيد الشريف علي المدعو دُغَيْلِيْب، في سنة تسع وخمسين وتسع مئة، وَبيَّضَهُ بالنُّورَةِ من داخله وخارجه، ولم يكن بالينبع الآن دارٌ أحسن منها.

وينصب بخارجها أيضاً أيام الموسم سوق فيه من المأكولات والدقيق والفول والبضائع والعليق مما يبيعه السوقة الذين هم أهل القرية، والذين هم صحبة الحاج، وبهذه القرية يَدع أهل الركب ودائعهم إلى العود في بيوت الثقات من أهلها.

وقاضيها الآن صاحبنا الشيخ برهان الدين إبراهيم بن يحيى بن محمد بن عبد الوهاب بن شمس الدين محمد بن أحمد بن زَبَالة - بفتح الزاي - الشافعي.

وليس بالقرية فيما يظهر لي شافِعِيٌّ من أهل السنة والجماعة غير وذويه، فإن غالب أهل قرى الحجاز على مذهب الزَّيْدِيَّة يَسْتبيحون دماءَ الشافعية، وليس بقرية من قراهم جامع بمِئْذَنَة يقام فيها شعار الدين، ويعلن فيها بالأذان مطلقاً، إنما يوجد في بعضها المساجد بلا مِئْذَنة.

وعلى مَرْحلة من الينبع، البندر الذي بساحل البحر الملح غَرْباً، وبه خان و(حصار) و(نوباجية) وجماعة الشريف يأْخذون المكس الذي يسمونه الزَّالَّة من أهل المراكب المارة بهذا البنْدر، وهي عادة لأَمير الينبع، يستعين بها على مصروف إِمرته، وقدرها لكل حِمْلٍ من أيِّ صنف كان ثمانية أَنْصاف سُليمانية، وللبندر حاكم من جانب أمير الينبع، وكاتب لضبط ذلك، وعلى أمير الينبع عوائدُ ومصاريف لجماعة أمير الحاج، على لبس التشريف في كل سنةٍ، بطريق المكارمة، وحسن القيام بخدمة السلطنة، ورعاية مَن يَردُ من جانبها لا بمُقَرَّرات سلطانية، وهي لجماعة الدُّلَلاَءِ بالركب خمسة وعشرون دِيْناراً قديمة، وصرفت على يد وزيره بزيادة إِلى ستين ديناراً، ولـ(دوادار) أمير الحاج ثلاثون ديناراً، وصُرفت ليد يشبك من داني من الجراكسة ولمَن بعده خمسون ديناراً بطريق المكارمة، ولـ(لخازندار) خمسة وعشرون ديناراً، وللمباشرين بشرحه، ولقاضي المحمل وشهوده عشرةُ دنانير، ولـ(لجاويشية) خمسة عشر ديناراً، ولشادِّ المطبخ وخَوَلَة الأَغنام ومَن معه عشرون ديناراً، ولحامل (الصَّنجق) عشرة، ولشادِّ المحمل وأتباعه عشرة، وللمتوجهين من جانب أمير الحاج بعادته من الهدية إِليه ثلاثون ديناراً، وتفصيل ذلك: فللتركي المقدّم خمسة عشر ديناراً، ولغلمان (الطشت خانه) و(الركاب خانه) اثنا عشر ديناراً، وللسرَّاجين ثلاثة دنانير فيكون جملة ذلك ثلاثين ديناراً، ولبواب أمير الحاج المسمى بـ(القابجي) في اللغة التركية أربعة دنانير.

وأما بقية جماعة أمير الحاج ويسمون في عرف أهل الينبع (البيوتيون) وجملة ما لهم عادة مئةُ دينار، وتفصيلها: لشادِّ السِّنِيح ومقدم الْعَكَّامَة عشرة دنانير، ولشاد الماء ورؤساء السقَّائِين عشرة، ولغلمان (الطشت خانه) ولـ(لزردخانه) أربعة دنانير ونصف دينار، ولمقدم الضَّوْئِيَّة والْمُبيِّتِيْنَ ثلاثة دنانير ونصف دينار، ولجماعة (الزردخانة) من (الزردكاش) والنَّفْطِية ستة دنانير، ولـ(لطبلخاناه) الرومية أربعة دنانير، وللمصرية ديناران، ولجماعة الفرّاشين خمسة دنانير ولـ(أستادار) المطبخ وجماعة الطبّاخين عشرة دنانير، ولـ(لأمر آخورية) جميعها عشرة دنانير، وللسعاة ديناران، ولـ(لسلاخورية) ثلاث دنانير، وللهجانَة الخاص جميعها سبعة دنانير، وللإِمام والمؤذِّن باقي ذلك، وهذا جميعه بطريق المكرمة كما قدمنا.

ولأَبي عبد الله الْفَيُّومي في يَنْبع وبَدر:

إِنْ كَانَ قد قُضِيَ الْفِرَاقُ وَصَدَّنِيْ ... عَنْكُمْ حِجَازٌ من نَوى لاَ يُدْفَعُ

فَأَنَا الَّذِي دَمْعي الْعَقِيْقُ وحَاجِريْ ... يَا بَدْرُ بَعْدَ الْبعْدِ عَنْكُمْ يَنْبُعُ

وأهل الركب يستبشرون بالقرب من أُمّ القرى عند وصولهم إلى الينبع، فمنهم مَن يجتمع مع أحبابه وأصحابه عند العيون والحدائق والنخل التي هناك، ويطبخون النّبات المعروف بالملوخية، ويأكلون بمسرة وهناء، وللشهاب بن أبي حَجَلة:

وَفِتْيَان صِدْق مَا الْبدُوْرُ سِوَاهُمُ ... قَطَعْتُ بهم كَالْبَدْر أُفْقَ الْمَنَاهِلِ
وَوَاخَيْتُهُمْ في الزَّاد أَوْفَى أُخُوَّة ... ورَاضَعْتُهُمْ في المَاءِ ثَدْيَ الْمَنَاهِلِ

وبالينبع من المأكولات الأغنام، والسمن، والعسل النحل، والتمر اللُّبَان، والدّجاج، والإوزُّ يوجد قليلاً، والملوخية، والباذنجان، والليمون، والفجل، والمخلل والبلح، وما عدا ذلك مجلوب مع الحاج أو من مكة.

وفي غالب أوقات إقامات الركب بالينبع تَهُبُّ ريح شديدة، ويثور عليهم من سوافي الرمل والتراب ما تضيق به النفوس، وتغلق له القلوب، وتَضْعف به الأبصار، ويتمنّى المسافرُ سرعةَ رحيله منها، خصوصاً في زمن استواءِ البلح، وفي أوقات محررة عند أهل القرية، ولذلك نظير موانع الإحرام وسيأتي ذكرها.

والينبع من المناهل الكبار، يصل إلى أمير الحاج بها ما جهزه من حمولة، واحتياجه، ليأخذ منه ما يكفيه إلى مكة المشرفة، وما يحتاجه لطريق الزيارة الشريفة، ولرجوعه منها إلى الأزلم، وما فاض عن ذلك يُباع للتوسعة على الْمُقَوِّمِيْنَ والحجاج، ليحصل الرفق لوفد الله تعالى، خصوصاً إنْ كفّ أمير الحاجّ عن الباعَة من أهل القرية، ولم يمنعهم من البيع إلاَّ بعد فراغ ما عنده ليكون سَبَبَاً لرخاء الأَسعار بها، خلافاً لما يفعله بعض الطمّاعة من أُمراء زماننا الذين لا أخلاق لهم فيكون سبباً للغلاء والقحط.

وفي يَنْبُعَ عدة خُيُوف يقال إنها نحو الستين خيفاً منها ما هو سُكْنى بني إبراهيم وغيرهم. منها الضيِّقة ـ بضاد معجمة مكسورة، مشددة بعدها ياء ساكنة وقاف مفتوحة ـ.

وخيف حُسَيْن والْبَثْنَةْ ـ ببَاء تتحتية مفتوحة وثاء مثلثة بعدها ونون مفتوحة تليها ـ.

والْعُيَيْنة ـ بعين مهملة بعدها ياء مثناة تحتية مفتوحة وأخرى مثلها ساكنة ونون مفتوحة ـ.

والبقَاع ـ مفرده بُقْعة ـ ومَدْسُوس ـ بميم مفتوحة بعدها دال ساكنة وسين مضمومة ـ.

والنُّجَيْلُ ـ بنون مشددة مضمومة وجيم مفتوحة بعدها ياء ساكنة ولام آخر الحروف ـ والْيَسِيْرَةُ، وعين حسن، وعين حسين، وعين علي، والْفَجَةُ بفاء وجيم بعدها، وخَيْفُ عَيْن جَدِيد والْجديدة، وعين خارف (؟) وشَعْثَا ـ بشين معجمة مفتوحة وعين مهملة بعدها وثاء مثلثة مفتوحة آخر الحروف ـ وعين عَليٍّ أيضاً، وعين عَجْلان، والجابرية ـ من المجابرة بالجيم ـ وعين السكبيَّة من السكب، وخيف ابن عبد الله، وعين عبد الله، والمزرعة من الزرع، وعُيَيْنَةُ، والنَّوَى، والْمُهْرانية، وخيف دَرَّاج، والْعُشَيْرَة، والْمُبَارك، من البركة، والبَرَكة.

وأما بنو إبراهيم فطوائف، منهم الصَّفَحَةُ ـ بصاد مهملة مشددة مفتوحة بعدها فاء مفتوحة أيضاً وحاء كذلك ـ وهذه البدنة تنقسم إلى أربع طوائف، وهم الشرفاء، والعوالي، والجميعات، والصراصرة، ومنهم ابن شاكر وهُوَ يمل وعامر بن مبارك منهم قعود بن عمر، والمعالقة منهم حضري بن معتق.

ومنهم طائفة تُدْعَى الموال وبدنات هذه الطائفة أربع، وعددهم وافر نحو نصف بني إبراهيم، وهم: الرياحين، منهم سعيد بن تيمس (؟) والثقافة وأهل البقاع ـ ومن الأولى ناصر الثقفي ـ ومن الثانية حميد بن مانع وقومه.

ومنهم طائفة السيابسه (؟) وهم أقسام: أهل الزيادة نازلين بالسُّوَيق، قرية من قرى الينبع، وأهل الدَّهْنا، وهي القرية المعروفة يمرُّ الحاج عليها إلى واسط، منهم محمد بن دواس وولده ودعان، وجبارة بن سليمان، المهاينة بألف ولام بعدها ميم وهاء، وهم نازلون بالسُّوَيْق أيضاً منهم مشعل بن راجح وعائدة بن ثاقب، ومنهم الكِثْرَانُ ـ بكاف مكسورة بعدها ثاء مثلثة ساكنة وراء مفتوحة ـ وهم نازلون بالسُّويق أيضاً، منهم محمد بن حسان وخلف الله بن رجب.

ومن بني إبراهيم طائفة يقال لها القرون ـ جمع قرن ـ وهم أربع بدنات منهم الكبشة شاهين وولده، والقَمَامِزَة ـ بقاف مفتوحة بعدها ميم وألف فاصلة بعدها ميم ثانية مكسورة وزاي مفتوحة وهاء آخر الحروف ـ من شيوخهم هودن بن علي، وذوي محمد منهم زيد، والشريرات منهم محمد ورفقته.

وعادة الإقامة بها لراحة الحجاج والجمال ثلاثة أيام، ويتوجه إلى مكة المشرفة فيرحل من الينبع، ويستقبل الرُّبْعَ الرابع، وهو لطيف، ومراحله مأنوسة، وعدتها ثلاث عشرة مرحلة، ساعاته مئة واثنتان، عنها ألف وخمس مئة وثلاثون درجة من الينبع.

وكان الرحيل منها في سنة خمس وخمسين بعد العشاء بسبعين درجة في الليلة المسفرة عن اليوم الرابع والعشرين من شهر ذي القعدة إلى مكة المشرفة، فمرّ على الدَّهْنا، وكانت السَّبَخَة مَاطرةً، فحصل للوفد بسبب ذلك مشقة وعناء، وغدًا بآخر المحاطم من غير العادة، بعد الدار المعتادة بعشرين درجة فكان مسيره مئة وثلاثين درجة.

والدَّهنا بلد سيدي الشيخ العارف بالله تعالى أحمد البدوي، وكانت قرية عامرة، يسكنها بنو إبراهيم قديماً، وكان بها بيوت ومساجد وحدائق وأشجار، وعيون جارية حلوة، يتزوّد منها الحجاج عند مرورهم، فلما سعَوْا في الأَرض الفساد، وبالغوا في أذى وفد الله والعباد، وأكثروا من الشقاق والعناد، وكانوا عصبة مع الشريف ابن سَبُع لأَذى الوفد المصريِّ والشامي، واتَّفق لهم ما قدمنا ذكره حتى آل أمرهم إلى أن برز أمر السلطان الْغوريُّ بتجهيز العساكر لقطع جادرتهم على يد الأَمير خاير بك، أحد المقدمين، وقطعتْ رؤوسهم وعُمِلتْ مصاطب، ثم عقب ذلك توالي الْمَحْل على تلك القرية فخربتْ وغارتْ تلك العيون، وجَفَّتْ تلك الأَشجار، وصارت مثلاً من الأَمثال، وسمراً من الأَسْمار، وكانت أخرَى بقوله عزَّ وجل: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ﴾ [النحل: ١١٢] الآية. وبالدهناء شجر محاطبٍ بكثرة، ينبغي أن يكون الدليل على يقظة في مسيره وقت ضَوْءِ القمر، وفي بعض السنين يَمرُّ الركب على المحاطب من الْعُلوِّ صَوْبَ القرية، فيكون أسهل وأقصر مدة في سيره.

وأصحاب الدرك بها الآن طائفة من بني إبراهيم الصيارف، يدْعَون الْعَيَايشة ـ بياءين مثناة تحتية ـ منهم محمد بن دواس والقوادحة أيضاً.

وكانت الْمَغْدَاة بمحل بعد الدَّهْنَا، يسمى مَفْرح الْعذيْبَة، فأَقام به إلى قبل الظهر بأَربعين درجة، وكان الماضي من الشمس أربعين، وسار إلى أن أناخ بمنزلة واسط، وتسمى الْعُذَيْبة أيضاً، وكان مسيره إلى بعد العصر بخمس عشرة درجة، خمسة وتسعين درجة لدخول (الصنجق)، وهي فضاءُ واسع قرْبها كثيبٌ من الرمل، وجبال صغار.

قال السيد في كتابه «وفاء الوفاء»: واسط أطم لبني خدْرَة، وأطم آخر لبني خزيمة رهط سعد بن عُبَادة، وآخر لبني مازن بن النجار، وموضع بين ينبع وبدر، وجَبَلٌ تَنْتَطِحُ سيول الْعَقِيْق عنده ثم يفضي إلى الجثجاثة، وفيه يقول كثَيِّرُ عَزةَ:

أَقَـامُـوا فَـأَمَّـا آل عَـزَّة غـدْوَةً فَـبَـانـوا وأَمَّـا وَاسِـطٌ فَـمُـقِـيْـمُ

فعشَّى الركب بها.

ولأَهل الركب في تلك الليلة عادة لا تنقطع، وبدعَةٌ لا تمتنع، لم يَدلَّ على فعلها دَليل من كتاب، ولا جَاءَتْ بفعلها سُنَّةٌ، ولا ورد بها خطاب، وغاية ما فيها الإِسراف في إِيقاد الشموع، يجعلونها في الرِّحَالاتِ والأَقتاب، والمحامل، استبشاراً بقربهم من المحلِّ الذي كان به نصْرة سيد المرسَلين ﷺ وتأْييده بالملائكة كما سيأْتي ذكره قريباً.

وكانت الإِقامة إِلى بعد العشاء بخمسين درجة، والعادة أن يكون سبعين، وسار فكان سَيْرُهُ من واسط إِلى بَدْرٍ وحُنَيْن قبل الفجر بخَمْس وعشرين دَرَجَة، تسعين درجة.

وأما حدود الدَرَكِ فمن الينبع إِلى الدَّهْنا لمحمد بن دواس ورفقته.

ومن الدهنا إِلى المحل المعروف بِالْعُذَيْبَة إِلى الحدرة الرمل التي ينحدر منها الركب إِلى بَدْرٍ وحُنَين، المسماة بالأَبْرَقَيْنِ، في درك عربان زبَيْد الشام منهم حمدان بن زهير بن سالم ومَن معه، ومن الأَبْرَقَيْنِ إِلى آخر بَدْرٍ وحُنَيْنٍ إِلى المحل المعروف بالصَّفْحة، دَرَكُ الشُّرَفاء البدريِّين ـ أهل بَدْر ـ منهم سالم بن عامر بن هبة، وعامر بن خضير، وحسين بن محمد بن مخدم، وعبد الله بن جري ورفقهم.

ومن الصَّفْحة ـ بصاد مهملة مشددة مفتوحة بعدها فاء ساكنة وحاء مهملة مفتوحة وهاء آخر الحروف ـ يَعُوْدُ درك زبيد الشام أيضاً، ويستمرُّ هذا الدرك إِلى المحل المعروف ببستان القاضي فهو آخر درك زُبَيد الشام، وينعتون أيضاً عند أهل الحجاز بِزُبَيْد المِسْدَاد، رباعة حمدان، وزُبَيْد ـ بضم الزاي وفتح الباء الموحدة ـ والمِسْداد بكسر الميم وفتح الدال الأُولى وسين مجزوم بعد الميم طوائف متعددة منها: ذوي أحمد، وذوي علي، وذوي سالم والجُليدات، والقنافذة والمشاهير، وذوي غانم.

وبدر: من المناهل الحجازية، وحُنَيْنُ أمامها، وليست المرادة في الآية.

والطريق إِلى بَدْرٍ يسيرون أولاً في فضاء ثم مضيق رمل ثم وعر بين جبلين الشرقي رمل، والغربي مختلط حجر ورمل، يُسَمَّيان بالأَبْرَقَيْنِ، وهما مشرفان، ثم ينزلون من جسر طويل كان حدًّا بين المسلمين والكفار في غزاة بدر.

ويبدو مسجد الغمامة، وهو موضع ٱلأَرِيْكَةِ التي كان رسول الله ﷺ جالساً عليها يُشْرف على القتال، والغمامة مظللة عليه.

وقال السيِّدُ في «تاريخ المدينة»: إنه كان الْعَريش الذي بُنِيَ لِرَسول الله ﷺ يوم بدر عنده، وهو بقرب بطن الوادي بين النخيل، والعين قريبة منه، وبقربه في جهة القبلة مسجدٌ آخر يسميه أهل بدر مسجد النصر.

وقيل: إن المسجد موضع حوض النبي ﷺ يوم الغزوة في شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة، وخلفه مغرباً عَنْه قبورُ الشهداء من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين وسيأتي ذلك مشروحاً.

وأما محطة أهل الركب ففيها نخل وبيوت، وعين ماء تجري، والفسقية الكبيرة التي بها والقبة التي عليها يروي منها الحاج، ويفضل عنهم، مُسْتَجدَّة الإِنشاء بأمر السلطان قانصوه الغوري، على يد علاء الدين ابن الإمام ناظر الخواص الشريفة في سنة خمس عشرة وتسع مئة، ورتب لها في تلك السنة مرتَّباً من ديوان السلطنة الشريفة يصرف للإِشراف بها عن الدرك ومَلْءِ الفسقية، واستجد بها السيد الشريف نجم الدنيا والدين أَبُو نُمَيٍّ بن بركات، أمير الأَقطار الحجازية مَسْجداً حسناً في نَيِّفٍ وخمسين وتسع مئة.

وبالجملة فَبَدْرٌ من البقاع المشرفة بالآثار النبوية، ومنها التزود والمرور إلى المدينة المنورة المصطفوية، وبها كان نصرة النبي ﷺ على أهل الكفر والنفاق، وإِمداده بالملائكة على خيول بُلْقٍ مسومين سابلين العذباتِ بالاتِّفاق، وبها البقعة التي ضَمَّتِ الشُّهَداءَ الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة، والمحل الذي آوى تلك الأَجساد الشريفة، الذين دَأَبُوا مع نبيهم لإِقامة هذا الدين وإِظهاره بنفوس زاكيَّة مُطْمَئِنَّة.

وفي «الدُّرّ المنثور» للجلال السيوطي عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] أخرج أحمدُ وابنُ حِبَّانَ عن عياض الأَشعري، قال: شهدت اليرموك وعلينا خمسة أُمراء: أبو عبيدة، ويزيد بن أبي سفيان، وابنُ حَسَنَة، وخالد بن الوليد، وعياض، وليس عياض هذا، قال: وقال عمر: إذا كان قتالٌ فعليكم أبو عبيدة فكتبنا إِليه: إنه جاش إِلينا الموت، واستمددناه فكتب إِلينا: إنه قد جاءني كتابكم تستمدوني، فإِني أَدُلُّكُمْ على مَن هو أَعزُّ نَصْراً، وأحضَر، اللّهُ عزَّ وجل، فاستنصروه فإِنَّ محمداً ﷺ قد نُصِر يوم بدر في أقلَّ من عددكم، فإِذا جاءكم كتابي هذا فقاتلوهم ولا تراجعوني. فقاتلناهم فهزمناهم أربع فراسخ[١].

وأخرج ابن المنذر عن علي بن أبي طالب قال: بَدْرُ بئْرٌ[٢].

(١) انظر: الدر المنثور [٢/ ١٢٢].
(٢) انظر: الدر المنثور [٢/ ١٢٣].

وفي «تارخي المدينة» للسيد: بدر ـ بالفتح ثم السكون ـ بئر حفرها رجل من غِفَارٍ اسمه بَدْر بن قريش بن مَخْلد بن النضر بن كنانة، وقيل: بدر من بني ضَمْرة سكن ذلك الموضع فنسبَ إليه ثم غلب اسمه عليه، ويقال: بدر اسم البئر التي بها، سميت بذلك لاستدارتها أو لصفاء مائها، فكان البدر يُرَى فِيها، وحكَى الواقديُّ إنكارَ ذَلِك كُلِّه، عن غير واحد من شيوخ بني غِفَار، قالوا: إنما هي ماؤُنا ومنازلنا وما ملكها أحدٌ قطُّ يقال له بَدْر، وإِنَّمَا هو عَلَمٌ عليها كغيرها من البلاد.

وأخرج ابن أبي شَيْبَةَ وعَبْدُ بن حُمَيد وابنُ جَرير وابنُ المنذر وابن أبي حاتم عن الشعبي قال: كانت بَدْرُ بئراً لرجل من جُهَينة يقال له بدر، فسميت به[1].

وأخرج ابن جرير عن الضحاك، قال: بَدْر ماءٌ عن يمين طريق مكة بين مكة والمدينة[2].

وللصلاح الصفدي:

أَتَيْنَا إِلَى الْبَدْر الْمُنِيْر مُحَمَّد نُجِدُّ السُّرَى حَتَّى نَزَلْنَا عَلَى بَدْر

فَهَذَا بَدِيْع لَيْس فِي اللَّفْظِ مِثْلُهُ وهَذَا جنَاسٌ لَيْس في النَّظْم وَالنَّثْر

الفصل الرابع

في مختصر غزاة بدر؛ ومَن بها من الشهداء، وذكر مسجد الغمامة، وغير ذلك من الفوائد

وكانت في رمضان يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة مضت منه سنة اثنتين من الهجرة، وهي أول حرب حضرها رسول الله ﷺ، وهي الغزوة التي أعزّ الله بها الدين وأعلى كلمة المؤمنين. قيل: إن رسول الله ﷺ سمع بأَبي سُفْيَانَ صَخْر بن حَرْبٍ مقبلاً من الشام بِعِيْرٍ عظيمة فندب رسول الله ﷺ إليها، وقال: «هذه عِيْرُ قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها فلعل الله أن يُنْفِلَكُمُوها»[3] فانتدب الناس فَخفَّ بعضهم، وثَقُل بعض، وذلك أنَّهم لم يظنُّوا أن رسول الله ﷺ يلقي حرباً. وكان أبو سفيان استنفر حين دَنَا من الحجاز، وجعل يتجسس الأَخبار، ويسأَل من لَقِيَ من الركبان، خوفاً على أموال الناس، حتى أصاب خبراً

(١) انظر: الدر المنثور للسيوطي [٢/ ١٢٣].
(٢) انظر: الدر المنثور للسيوطي [٢/ ١٢٣].
(٣) أخرجه الطبري في تاريخه [٢/ ٤٢٧].

من بعض الركبان أنَّ محمداً قد استنفر أَصْحابَهُ لك لِعيْرك، فحذَّر عند ذلك، واستأجر ضَمْضَم بْنَ عَمْرِو الغفاريّ، فبعث به إلى مكة، وأمره أن يأْتيَ قريشاً يستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أنَّ محمداً قد عرض لها في أصحابه[١].

وكانت عاتكةُ بِنتُ عبد المطلب قد رأتْ قبل قدوم ضَمْضَمَ رُؤْياً أَفْزَعَتْهَا، فبعثتْ إلى أخيها العباس بن عبد المطلب، وقالت: يا أخي قد رأيت الليلة - واللّهِ - رؤياً قد أَفْزَعَتْنِي وتَخَوَّفت أن يدخل بها على قومك شَرٌّ مصيبة، فاكتمْ عَلَيَّ ما أحدثك، قال لها: ما رأيت؟ قالت: رأيت راكباً قد أقبل على بعيرٍ له، حتى وقف بالأَبْطح ثم صرخ بأعلى صوته: أَنِ انْفِرُوا يا آل غُدْرٍ إلى مصارعكم في ثلاثٍ. وأرى الناس قد اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد الحرام والناس يتبعونه، فبينما هم حوله إذ مَثَلَ بَعِيْرُهُ على ظَهْر الكعبة، ثم صرخ بأعلى صوته بمثلها: انفروا يا آل غُدْرٍ إلى مصارعكم - في ثلاث - ثم مَثَلَ به بعيرُهُ على أَبي قُبَيْس، فصرخ بمثلها، ثم أَخذَ صَخْرَةً فأَرسلها فأَقبلَتْ تهوي حتى إذا كانَتْ بأَسفل الجبل ارْفَضَّتْ[٢] فما بَقِي بيتٌ من بيوت مكة إلا دخله منها فِلْذَةٌ، قال العباس: إنَّ هذه لرؤيا عجيبة، فأَنْتِ فاكْتمِيها، ولا تظْهريها لأَحَد، ثم خرج العباس فلقِيَ الوليدَ بنَ عُتْبَةَ، وكان له صَدِيقاً، فذكرها له واستكتمه إِيَّاها، فذكرها الوليد لأَبيه عُتْبَةَ، فَفَشَى الحديث حتى تَحَدَّثَتْ به قرَيْش، قال العباس: فغدوت أطوف بالبَيْتِ، وأبو جهل بن هشام ورهط من قريش يتحدثون برؤيا عاتكة، فلما رآه أبو جهل قال: يا أبا الفضل إذا فَرَغْتَ من طوافك فأَقْبِلْ إلينا، فلما فرغت أَقبلت إليه، حتى جلست معهم. فقال لي أبو جهل: يا بَنِي عبد المطلب متَى حدثتْ فيكم هذه النَّبِيَّة. قال: قلت: وما ذاك؟ قال: الرُّؤْيَا التي رأَتْ عاتكة. قال: قلت: وما رأَتْ؟ قال: يا بَنِي عبد المطلب أما رَضِيْتُمْ أَنْ تَتَنَبَّأَ رجَالكم حتى تَتَنَبَّأَ نساؤكم؟ وقد زعمتْ عاتكة في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاث. فسنتربّص بكم هذه الثلاث فَإِنْ يك ما قَالَتْ حقًّا فسيكون، وإِن تَمْضِ الثلاث ولم يكنْ من ذلك شَيْءٌ نكتب عليكم كتاباً: أنكم أَكْذَبُ بَيْت في العرب. قال العباس: فوالله ما كان منّي إليه نَكِيْرٌ إلاَّ أَنّي جَحَدتُ ذلك، وأنكرت أن تكون رأَتْ شيئاً. ثم تفرّقنا فما بقيتِ امرأَةٌ من بني عبد المطلب إلا أَتَتْنِي فقالت: أَقْرَرْتمْ لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم، ثم يتناول النساء وأنت تسمع، ثم لا يكون عندك غيرةٌ لما تسمع؟ قال: قد والله فعلْت، ما كان مني إليه من نكيرٍ، وأَيْمُ اللّهِ لأَتَعَرَّضَنَّ له فإِنْ عاد لأَكفينكنَّه، قال: فغدوت

---

(١) إلى هنا أخرجه الطبري في تاريخه [٢/ ٤٢٧ - ٤٢٨].
(٢) أي تفرقت.

في اليوم الثالث من رُؤْيَا عاتكة وأنا مُغْضَبٌ، أرى أنْ قدْ فاتني منه أَمْرٌ أُحِبُ أَنْ أُدركه منه، فدخلت المسجد فرأيته، فوالله إِنّي لأَمْشِي نَحْوهُ أتعرضه ليعود لبعض ما قال، فأَقَعَ فيه، وكان رجلاً خفيفاً إِذْ خرج نَحْو باب المسجد يَشْتَدُّ، فقلت: ما له لعنه الله؟! فإذا هو قَدْ سمع صوتَ ضَمْضَم الْغِفَارِيِّ، وهو يصرخ ببطن الوادي: يا معشر قريش اللَّطِيْمَةَ اللَّطِيْمَةَ[١]!! أَموالكَم قد تعرَّضَ لها محمد في أَصحابه، لا أُرى أَنْ تدركوها، الْغَوْثَ الْغَوْثَ!

قال: فشغلني عنه وشغله عني ما جاء من الأَمر، فنفر الناس سِرَاعاً وقالوا: أَيَظُنُّ محمدٌ وأَصحابه أَن تكونَ كَعِيْر ابْن الْحَضْرَمِيّ، كَلاً والله ليعلمنَّ غير ذلك! فكانوا بين رَجُلَيْن: إِما خَارِجٌ أَوْ باعثٌ، ولم يتخلَّفْ من أَشرافها أَحدٌ إِلاَّ أَبو لهب بن عبد المطلب، فبعث مكانه العاصِي بن هشام[٢].

وكان أُمَيَّةُ بن خَلَف قد أَجمع على القعود، وكان شيخاً ثقيلاً، فأَتاه عقبةُ بن أَبي مُعَيْط، وهو جالس في المجلس، بين ظَهْرانيِّ قومه بمِجْمَرَة فيها نَارٌ يحملها، حتى وضعها بين يديه، ثم قال: يا أَبا عليّ اسْتَجْمِرْ فإِنَّما أَنْتَ من النِّساء[٣]!

وخرج رسول الله ﷺ في أَصحابه وكانوا ثلاث مئة وثلاثة عشر[٤] رجلاً.

المهاجرون منهم سبعة وسبعون رجلاً، والأَنصار مئتان وستة وثلاثون رجلاً، وصاحبُ رَايَةِ رسول الله ﷺ عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه، وصاحبُ راية الأَنصار سعدُ بن عُبادة[٥].

وعلى[٦] السَّاقة[٧] قيس بن أَبي صَعْصَة.

وكان خروجه ﷺ من المدينة لليال مضت من شهر رمضان، فسار حتى إِذا كان قريباً من الصَّفْرَاء بعث بَسْبَسَ بْنَ عَمْرو الْجُهَنيَّ وعَدِي الْجُهَني إِلى بَدْرٍ يَتَحَسَّسَانِ الأَخبار، فلما كان ببعض الطريق بوادٍ يقال له ذَفرَان يَمِينَ الصفراء نزل، وأَتاه الخبر

---

(١) هي الإبل التي تحمل البز والطيب.
(٢) إلى هنا أخرجه الطبري في تاريخه [٢/ ٤٢٩ ـ ٤٣٠].
(٣) أخرجه الطبري في تاريخه [٢/ ٤٣٠].
(٤) وهو مروي عن البزار وابن عباس. أخرجهما الطبري في تاريخه [٢/ ٤٣١].
(٥) أخرجه الطبري في تاريخه عن ابن عباس. انظر: تاريخ الطبري [٢/ ٤٣٠].
(٦) أي وجعل على الساقة.
(٧) وهي مؤخرة الجيش.

عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم عن قريش، فقام أَبو بكر ثم عمر رضي الله عنهما فقالا فأَحْسَنَا، ثم قام المقدادُ بن عَمْرٍو رضي الله عنه فقال: يا رسول الله امْضِ لما أَمَرَكَ اللّهُ، فوالله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﷺ: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذْهَبْ أَنتَ وربُكَ فقاتلا إِنَّا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سِرْتَ بنا إِلى بِرْكِ الغماد ـ يعني مدينة الحبشة ـ لجالَدْنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له[١].

ثم قال ﷺ: «أَشِيروْا عليَّ أَيها الناس» وإِنَّما يريد الأَنصار، فقال له سعد بن مُعاذ رضي الله عنه: والله لَكَأَنَّا تُريد يا رسول الله؟ قال: «أَجَلْ» قال: فإنا قد آمنَّا بك وصدَّقناك، وشهدنا أَنَّ ما جئْتَ به هو الحق، وأَعطيناك على ذلك عهودَنَا ومواثِيقَنَا على السمع والطاعة، فَامْضِ يا رسول الله لما أُمِرْتَ، فوالذي بعثك بالحق لو اسْتَعْرَضتَ بنا هذا البحر فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ معك وما تخلَّف منا رجلٌ واحد، وما نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بنا عدوَّنا غداً إِنَّا لَصُبُرٌ عند الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء لعلَّ الله أَنْ يُريَك ما تَقَرُّ به عَيْنُكَ فَسِرْ بنا على بركة الله.

فَسُرَّ رسول الله ﷺ ونَشَّطَهُ ذلك القول، ثم قال: «سيروا على بركة الله وأَبْشِروا فإِن الله عزَّ وجلَّ قد وعدني إِحْدَى الطائِفتين والله لكأَني أَنْظُرُ إِلى مصارع القوم الآن» ثم ارتحل رسول الله ﷺ من ذَفِرَانَ حتى انتهى قريباً من بَدْرٍ، فنزل [قريباً من بدر فركب هو ورجلٌ من أصحابه][٢].

فلما أَمْسَى بعثَ عليَّ بنَ أَبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أَبي وقاص، في نفرٍ من أَصحابه إِلى بَدْرٍ، يكشفون له الخبر، فأَصابوا راويةً لقريش فيها أَسْلَمُ غلام بني الْحَجَّاج وَعَريض أبو يسار غلام بني العاصي، فأَتوا بهما رسول الله ﷺ فقالا: نحن سُقَاة قريش، بعثونا لنسقيهم الماء، فكره القوم خَبَرَهُما، ورَجوا أَن يكونا لأَبي سفيان، فضربوهما، فلما أَذْلَقُوهُما قالا: نحن لأَبي سفيان، فتركوهما. وركع رسول الله ﷺ وسجد ثم سلَّم وقال: «إِذا صَدَقاكُمْ ضربتموهما وإِذا كذباكم تركتموهما؟ صدقا والله إِنهما لقريش»، أَخبراني أَين قريش؟ قالا: هُما وراء الكَثِيب

---

(١) إلى هنا أخرجه الطبري في تاريخه [٢/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥].

(٢) زيادة ليست في الأصل من موضع التخريج يتم بها المعنى، وإلى هنا أخرجه الطبري في تاريخه [٢/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥].

الذي تَرَى، بالْعَدْوَة القُصْوَى، والكثيبُ الْعَقَنْقَلُ فقال رسول الله ﷺ: «كم القوم»؟ قالا: كثير، قال: «ما عِدَّتُهُمْ»؟ قالا: لا ندري، قال: «كم يَنْحَرُون كل يوم»؟ قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً [قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ القوم ما بين التسعمائة والألف][(١)] فقال رسول الله ﷺ: «فمَن فيهم من أَشرافهم»؟ قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأَبو البختري بن هشام، وحكيم بن حِزام، وزمعة بن الأَسود، وأَبو جهل بن هشام، وأُميَّة بن خلف، وفلان وفلان[(٢)]، فأَقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: «هذه مكة قَدْ أَلْقَتْ إِليكم أَفلاذَ كَبِدِها»[(٣)].

وأقبلت قريش حتى نزلوا الْجُحْفَةَ، ورأى جُهَيْمُ بن الصلت رُؤْياً فقال: إِني رأَيت فيما يرى النائمُ وإِني لبين النائم واليقظان، إِذ نظرت إِلى رجل أَقبل على فَرَس، حتى وقف ومعه بعير له، ثم قال: قتِلَ عُتْبةُ بنُ ربيعة، وشيبةُ بن ربيعة، وأَبو الحكم بن هشام، وأُمَيَّةُ بن خَلَف، وفلان وفلان، يعدد رجالاً ممن قتل يومئذٍ من أَشراف قريش، ورأَيْتُهُ قد ضرب في لَبَّةِ بعيره، ثم أَرسله في العسكر فما بقي خِبَاءٌ من أَخبية العسكر إِلا وأَصابه نَضْحٌ من دمه. وبلغت أَبا جَهْلٍ فقال: وهذا أَيضاً نبيٌّ آخر من بني عبد مناف، سيعلم غداً مَن المقتول إِنْ نَحْنُ التقينا.

فلما رأى أَبو سفيان أنه قد أَحْرَزَ عِيْرَهُ أرسل إِلى قريش: أَنتم إِنَّما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأَموالكم، وقد نجَّانا الله فارجعوا، فقال أَبو جهل لعنه الله: والله لا نرجعُ حتى نَردَ بَدْراً، وكان بَدْرُ مَوْسِماً من مواسم العرب[(٤)].

ونزلت قريش بالْعُدْوَةِ القُصْوَى وبعث الله سبحانَهُ السَّمَاءَ فأَصاب رسول الله ﷺ وأَصحابه منها مَا لَبَّدَ لهم الأَرض ولم يمنعهم من المسير، وأَصاب قريشاً منه ما لم يقدروا معه على المسير.

وخرج رسول الله ﷺ يُبادرهم الماءَ، حتى أَتى أَدْنى ماءٍ من القوم فنزلوا عليه، ثم أَمَرَ بالْقُلُب فَغُوِّرَتْ، وبَنعى حوضاً على القليب الذي نزل عليه فَمُلِىء ماءً، ثم قذفوا فيه الآنِية[(٥)].

---

(١) زيادة من موضع التخريج لا بد منها لتمام المعنى.

(٢) وتكملتهم: نوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث بن كلدة. انظر: تاريخ الطبري [٢/ ٤٣٧١].

(٣) أخرجه الطبري في تاريخه [٢/ ٤٣٦ ـ ٤٣٧].

(٤) أخرجه الطبري في تاريخه [٢/ ٤٣٨ ـ ٤٣٩].

(٥) أخرجه الطبري في تاريخه [٢/ ٤٣٩، ٤٤٠].

وقال سعد بن معاذ رضي الله عنه: يا رسول الله نبني لك عَريشاً من جَريد، تكون فيه ونعِدُّ ركائِبك، ثم نَلْقى عدوَّنا فإن نَحْنُ أعزَّنا الله، وأظهرنا على عدونا، كانَ ذلك ما أحْبَبْنا، وإن كانت الأُخرى جَلَسْتَ على ركائبك حتى لحقتَ بمَن وراءنا من قومنا، وقد تخلَّف عنك أقوام ـ يا نبي الله ـ ما نحن بأشَدَّ حُبًّا لك منهم، ولو ظنُّوا أنك تلقى حَرْباً ما تخلّفوا عنك، يمنعك الله بهم، يُنَاصِحُونَكَ، ويجاهدون معك. فَأَثْنى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير، ثم بُنِيَ للرسول ﷺ عَرِيْشٌ فكان فيه، وقد ارتحلت قريش حين أصبحتْ، وأَقبلتْ، فلما رآها رسول الله ﷺ قال: «اللهم هذه قريش قد أقبلتْ بخُيلائِها وفَخْرها تُحَادُّك وتُكَذِّبُ نبيَّك ورسولك اللهم فَنَصْرَكَ الذي وعدتني، اللهم فَأَحْنِهِم الغداة» فلما نزل الناس أقبل نفر من قريش حتى وَرَدُوا حَوْضَ رسول الله ﷺ منهم حكيم بن حزام، فإنه لم يُقْتَل، نَجَا على فرس له يقال له الْوَجِيْه، وأسلم بعد ذلك وحَسُنَ إسلامه، وكان إذا اجتهد في يمينه قال: والذي نَجَّاني يوم بَدْرٍ[1].

ثم خرج عَبْدُ الأَسد المخزوميُّ، وكان رجلاً شرساً سَيِّىءَ الأَخْلاق، فقال: أُعاهد الله لأَشْرَبَنَّ من حوضهم، أو لأَهْدِمَنَّهُ أَوْ لأَمُوْتَنَّ دونه، فلما خرج عرضَ له حمزةُ بن عبد المطلب رضي الله عنه، فلما التقيا ضربه حمزةُ فَأَطَنَّ قَدَمَيْهِ بنصف ساقه، وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تَشْخَبُ رِجْلاَهُ دَماً، ثم حَبَا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن يَبُرَّ يمينه، واتبعه حمزةُ حتى قتله في الحوض، ثم خرج بعده عُتبةُ بنُ رَبيعة بين أَخيه شيبة وابنه الوليد، حتى إذا فصَلَ من الصَّفِّ دَعا إلى المبارزة، فخرج إليه فتيةٌ من الأَنصار ثلاثة نفر عَوْفُ ومُعَوِّذُ ابْنَا عَفْرَاء، وعبد الله بن رواحة، فقالوا: مَن أَنتم؟ فقالوا: رهط من الأَنصار، قالوا: ما لنا بكم من حاجة، ثم نادَى منادِيهم: يا محمد أَخْرِجْ إلينا أَكْفَاءَنَا من قومنا، فقال رسول الله ﷺ: «قُمْ يا حمزة بن عبد المطلب، قُمْ يا عبيدة، قُمْ يا علي بن أَبي طالب»، فلما قاموا ودنوا منهم، قالوا: مَن أَنتم؟ قال عبيدة: عبيدة، وقال حمزة: حمزة، وقال علي: علي. فقالوا: نعم أَكْفَاءٌ كِرَامٌ، فبارز عبيدةُ ـ وكان أَسنَّ القوم ـ عتبةَ بنَ ربيعة، وبارز حمزةُ شيبةَ بنَ ربيعة، وبارز عليٌّ الوليدَ بْنَ عتبة، فأَمَّا حمزةُ فلم يَمْهلْ شيبةَ أَن قتله وأَما علي فلم يُمْهل الْوليدَ أَن قتله، واختلفَتْ بين عُبيدة وعُتبة ضربتان كلاهما أَثْبَتَ صاحبَه، فكرَّ عليٌّ وحمزة بأَسيافهما على عُتْبَةَ فقتلاه، واحتملا صاحبهما عُبَيدة فجاءا به إلى أَصحابه وقد قُطعت رِجْلُهُ ومُخُّها يسيل، فلما أَتوا بعبيدة إلى رسول الله ﷺ، قال: أَلَسْتُ شهيداً يا رسول الله؟ قال: «بَلَى»

(١) إلى هنا أخرجه الطبري في تاريخه [٢/ ٤٤٠ ـ ٤٤١].

قال عُبيدة: لو كان أبو طالب حيًّا لعلم أني أحقُّ بما قال منه حيث يقول:

ونُسْلِمُهُ حَتَّى نُصَرَّعَ حَوْلَهُ ... ونَذْهَلُ عَنْ أَبْنَائِنَا والْحَلائِلِ(١)

ثم تزاحف الناس ودَنا بعضهم من بعض، وأمر رسول الله ﷺ أن لا يَحْمِلُوا حتى يأمرهم، وقال: «إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنَّبل» ورسول الله ﷺ في العريش ومعه أبو بكر رضي الله عنه(٢).

وقد استقبل القبلة يدعو ويقول: «[اللهم أنجز لي ما وعدتني](٣) اللهم إنْ تهلك هذه العصابةُ من أهل الإسلام لا تُعْبَدُ في الأَرض» فلم يزل كذلك حتى سقط رداؤه، فأَخذ أَبو بكر فوضع رداءَهُ عليه، ثم قال له: كفاك الله يا نَبيَّ الله بأَبي أَنْتَ وأُمِّي بعض مناشدتك لِربِّك، فإنه سَيُنْجز لك ما وَعَدك، فأَنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾(٤) [الأنفال: ٩] وخفق رسول الله ﷺ خَفْقَةً وهو في العريش ثم انتبه، فقال: «يا أَبا بكر أَتاك نصرُ الله، هذا جبريل آخِذٌ بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النَّقْع»(٥) ثم خرج رسول الله ﷺ فحرَّضَهُمْ ونفل كل امْرِىءٍ منهم ما أَصاب. وقال: «والذي نفسُ محمدٍ بيده لا يقاتلهم اليومَ رجلٌ فَيُقتل صابِراً محتسباً مُقْبلاً غَيْرَ مُدْبِر إلا أدخله الله الجنة»، فقال عُمَيْرُ بن الْحُمام أَخُو بني سَلِمَةَ، وفي يده تَمراتٌ يَأْكُلُها: بَخٍ بَخٍ، فما بيني وبين أَنْ أَدْخُلَ الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟! ثم قذف التَّمراتِ من يده، وأَخذَ سيفه، فقاتل القوم حتى قُتِل وهو يقول:

رَكْضاً إِلَى اللّهِ بِغَيْرِ زَادِ ... إِلاَّ التُّقَى وعَمَلِ الْمَعَادِ

والصَّبْرِ في اللّهِ عَلَى الجِهَادِ ... وكُلُّ زَادٍ عُرْضَةُ النَّفَادِ(٦)

وقال عوفُ ابنُ عَفْرَاء: يا رسول الله ما يُضْحِكُ الرَّبَّ من عَبْدِه؟ قال: «غَمْسُهُ يَده في الْعَدُوِّ حَاسِراً» فنَزَعَ دِرْعاً كانت عليه فَقَذَفَها، ثم أَخذ سيفه فقاتل حتَّى قُتِلَ(٧).

ولما التقى الجمعان، ودَنا بعضهم من بعض قال أَبو جهل: اللهم أَقْطَعُنَا

(١) إلى هنا أخرجه الطبري في تاريخه [٢/ ٤٤٥ ـ ٤٤٦].
(٢) إلى هنا أخرجه الطبري في تاريخه [٢/ ٤٤٦].
(٣) زيادة من موضع التخريج.
(٤) أخرجه الطبري في تاريخه [٢/ ٤٤٧].
(٥) أي الغبار. انظر: القاموس المحيط [٣/ ٨٧] [مادة: النفع].
(٦) انظر: تاريخ الطبري [٢/ ٤٤٨].
(٧) أخرجه الطبري في تاريخه [٢/ ٤٤٨ ـ ٤٤٩].

للرحم، وآتانا بما لا نعرف، فأَحِنْهُ الغداةَ، فنزل قوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩][1] الآية.

ثم إنَّ رسول الله ﷺ أخذ حَفْنَةً من الحصباء فاستقبل بها قريشاً ثم قال: «شَاهَتِ الوجوه» ثم نفحهم بها فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] ثم قال لأصحابه: «شُدُّوا» فكانت الهزيمة فقتِل مَنْ قُتِل من صناديد قريش، وأُسِر مَن أُسِرَ منهم فلما وضع القومُ أَيْدِيَهُمْ يَأْسِرُوْنَ ورسول الله ﷺ في العريش وسعد بن معاذ رضي الله عنه مُتَوَشِّحُ السَّيْفَ، في نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ﷺ، يخافون عليه شِدَّةَ العدوِّ، رأى رسول الله ﷺ في وجه سعد بن مُعاذِ الكراهية لما يصنع الناس، فقال: «كأَنَّك كرهت ما يُصْنَع بالمشركين» فقال: نعم يا رسول الله، وكان الإِثْخَانُ بِالقتل أَعْجَبَ إِلَيَّ من اسْتبقاءِ الرجال[2].

وقاتلتِ الملائكَةُ يوم بَدْرٍ، فحكى رجل من بني غفار قال: أَقبلتُ أَنا وابنُ عَمٍّ لي حتى صعدنا في جبلٍ يُشرفُ بنا على بَدْر، ونحن مشركان، ننتظر الواقعة وعلى مَن تكون الدائرة، فننهب مع مَن ينهب، فبينما نحن في الجبل إِذْ دَنَتْ مِنَّا سحابةٌ فسمعنا منها حَمْحَمة الخيل فسمعت قائلاً يقول: أَقْدِمْ حَيْزُوم: فأَمَّا ابن عَمِّي فانكشَفَ قِنَاعُ قلبه فمات مكانه، وأما أَنا فكدتُ أَهلك فتماسَكْتُ[3].

وقال رجل من بني مازن ـ وكان شهد بَدْراً ـ إِني لأَتبع رجلاً من المشركين يوم بَدْر لأَضربه إِذْ وقع رأْسُهُ من قبل أَن يصل إِليه سيفي، فعلمتُ أَنه قد قتله غيري[4].

وقال ابن عباس: كانت سِيما الملائكة يوم بَدْرٍ عَمَائِمَ بيضَاء وقد أَرسلوها على ظهورهم، ويوم حُنَيْنٍ عمائِمَ حمراءَ، ولم تقاتل الملائكة في يوم من الأَيام سوى يوم بَدْرٍ، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عَدَداً ومَدَداً لا يَضْرِبُونَ[5].

ورسول الله ﷺ يقول: «اللهم لا يُعْجِزَنَّك» ـ يعني أَبا جهل ـ فكان أَول مَن لقيه معاذ بن عَمْرِو بْن الْجَموح ـ قال معاذ: فسمعت القوم ـ وأَبو جهل في مثل الْحرَجَةِ وهم يقولون: أَبو الحكم لا يُخْلَصْ إِليه. فلما سمعتها جعلته من شأني،

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه [٢/ ٤٤٩].
(٢) انظر: تاريخ الطبري [٢/ ٤٤٩].
(٣) أخرجه الطبري في تاريخه [٢/ ٤٥٣].
(٤) أخرجه الطبري في تاريخه [٢/ ٤٥٣].
(٥) أخرجه الطبري في تاريخه [٢/ ٤٥٤].

فصمدتُ نحو، فلما أَمكنني حملت عليه، فضربته ضربةً أَطَنَّتْ قدمَهُ بنصف ساقِه، فوالله ما شبَّهْتُهَا حين طاحَتْ إلاَّ النَّوَاةَ تطيح من تَحْتِ مِرْضَخَةِ النَّوَى، حين تُضْرَبُ بها. قال: وضربني ابنُهُ عكرمة على عاتقي، فطرح يَدِي، فتعلَّقَتْ بجِلْدةٍ من جنبي، وأَجهضني القتالُ عنه ولقد قاتلتُ عامَّةَ يومي، وإني لأَسْحبُهَا خلفي، فلما آذَتْني جَعَلْتُ عليها رِجْلي ثم تَمطَّيْتُ بها حتى طَرَحْتُها، ثم عاش معاذٌ بعد ذلك حتى مات في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ثم مَرَّ بأَبي جَهْلٍ وهو عَقِيرٌ، مُعَوِّذُ ابنُ عَفْراء فضربه حتى أَثْبَتَهُ وتركه وبه رَمَقٌ، وقاتلَ مُعَوِّذُ حتى قُتِلَ في سبيل الله ـ رحمه الله تعالى ـ. ومَرَّ ابنُ مسعود رضي الله عنه بأَبي جهل، وقد أَمر رسول الله ﷺ أَنْ يُلْتَمَس في القتلى وقال: «انظروا إِنْ خَفِيَ عليكم أَمرُه في القتلَى إلى أَثَر جُرْح بركبته فإني ازدحمتُ أَنا وهو يوماً على مَأْدَبَةٍ لعبد الله بن جُدْعان، ونَحْنُ غلامان، وكنت أَشَبَّ منه بيسيرٍ، فدفعته فوقع على ركبتيه فَجُحِشَ في إحداهما جَحْشاً لم يزل أَثَرُهُ به بَعْدُ» فقال عبد الله بن مسعود: فوجدته بآخرِ رَمَقٍ، فعرفتهُ فوضعتُ رجلي على عنقه، وكان قَدْ ضَبِثَ بي مرة بمكة، ولَكَزَني، ثم قلتُ: هَلْ أَخزاك الله يا عدو الله؟! قال: ومماذا أَخزاني؟ أَعمد من رجلٍ قتلتموه لِمَن الدائرة؟! قلت: للّه ولرسوله[1].

وقيل: إنه قال له أَبو جهل: يا رُوَيْعِيَ الغنم لقد ارتقيت مُرْتَقىً صَعْباً قال: ثم احتززتُ رأْسه، ثم جئتُ به إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله هذا عدو الله أَبو جهل، فقال رسول الله ﷺ: «الله الذي لا إله غيره»!!، وكانت هذه يَمِيْنُ رسول الله فقلت: نعم والله الذي لا إله غيره! ثم أَلقيت رأْسه بين يدَي رسول الله ﷺ فحمد الله عزَّ وجلَّ[2].

وقال رسول الله ﷺ لأَصحابه يومئذ: «إني عرفت أَنَّ رِجَالاً من بني هاشم قد أُخْرِجُوا كُرْهاً لا حاجة لهم بقتالنا، فمَن لقي منكم أَحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومَن لقي منكم العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنَّما خرج كرهاً» فقال أَبو حُذَيْفَةَ بْنُ عتبة بن ربيعة: أَنقتل آباءَنا وإِخوانَنا وعشيرتنا ونتركُ العباس؟ أَما والله إن لقيته لأُلْجمنَّه بالسيف، فبلغتْ رسول الله ﷺ فجعل يقول لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «يا أَبا حَفْصٍ أَلاَ تَسْتَمِعُ إِلَى قولِ أَبي حُذَيْفة: أَضْرِبُ وَجْهَ عَمِّ رسول الله»؟ ﷺ فقال عمر: يا رسولَ الله دَعْني فَلأَضْرِبْ عنقَهُ بالسَّيْف، فوالله لقد نَافَقَ، فقال عمر: فوالله إنَّه لأَوَّلُ

(١) إلى هنا أخرجه الطبري في تاريخه [٢/ ٤٥٤ ـ ٤٥٥].
(٢) أخرجه الطبري في تاريخه [٢/ ٤٥٥ ـ ٤٥٦].

يوم كَنَّاني رسول الله ﷺ بأَبي حفص، وكان أَبو حذيفة رضي الله عنه يقول: ما أَنا بآمِنٍ من تلك الكلمة التي قُلْتُ يومئذٍ، ولا أَزالُ خائِفاً إِلى أَنْ يُكَفِّرَهَا الله عني، فَقُتِل يوم الْيَمَامَةِ شَهِيداً في خلافة أَبي بكر رضي الله عنه.

ولما أَلْقوا قَتْلَى المشركين في الْقَلِيبِ وَقَف رسول الله ﷺ وقال: «يا أَهْل القليبِ هَلْ وَجَدْتُم ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حقًّا، فإِنِّي وجدتُ ما وعدني ربي حقًّا»؟ فقال له أَصحابه: يا رسول الله أَتُكَلِّمُ قوماً مَوْتى؟ قال: «لقد علموا أَنَّ ما وعدهم ربهم حَقٌّ»[(١)].

وفي رواية: أَنه قال عليه الصلاة والسلام: «ما أَنتم بِأَسْمَعَ لِما أَقُولُ منهم، ولكنهم لا يستطيعون أَن يجيبوني»[(٢)].

وجمع رسول الله ﷺ الأُسارَى وكانوا أَربعةً وأَربعين[(٣)]، ومن القَتْلَى مثل ذلك، وكان في الأُسَارَى العبّاسُ بن عبد المطلب رضي الله عنه فَرَوَى ولدهُ عبدُ الله قال: لما أَمْسَى القومُ من يوم بَدْر والأُسَارَى محبوسون في الوثاق، بات رسول الله ﷺ ساهِراً أَوَّل لَيْلهِ، فقال له أَصحابه: يا رسول الله، ما لك لا تنام؟ قال: «سمعت تَضَوُّرَ العبَّاس في وِثاقه» فقاموا إِلى العباس فأَطلقوه، فنام رسول الله ﷺ[(٤)].

وقال رسول الله ﷺ لعمه العباس حِين انتهَى به إِلى المدينة: «يا عبَّاس افْدِ نَفْسَك، وابْني أَخِيك عقيل بن أَبي طالب، ونَوْفَلِ بن الحارث، وحَلِيْفك عُتْبَةَ بْن عمرو بن جحدم، فإِنك ذُوْ مالٍ»، فقال: يا رسول الله إِني كُنْتُ مُسْلِماً، ولكنَّ القومَ استكرهوني قال: «الله أَعلم بإِسلامك إِن يكن ما تقول حقًّا فالله يجزيك به، فأَما ظاهر أَمرك فقد كان علينا فَافْدِ نَفْسَكَ»، وكان رسول الله ﷺ قد أَخذ منه عشرين أُوْقِيَّةً من ذَهَب، فقال العباس: يا رسول الله احسبها لي في فِدائي، فقال: «لاَ، ذَاكَ شَيْء أَعطانا الله منك» قال: فإِنَّهُ ليس لي مال، قال: «فَأَيْنَ المال الذي وضعته بمكة، حين خرجْتَ عند أُمِّ الفضل ابنةِ الحارث ليس معكما أَحد، ثم قلتَ: إِنْ أُصِبْتُ في سفري فللفضل كذا، ولعبد الله كذا، ولقثم كذا، ولعبيد الله كذا»؟ فقال: والذي بعثك بالحق ما عَلِمَ بهذا أَحدٌ غيري وغيرها، وإِني أَعلم أَنَّكَ رسولُ الله. ففدى نفسه وابنَ أَخيه وحليفَهُ[(٥)].

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه [٢/ ٤٥٦].
(٢) أخرجه الطبري في تاريخه [٢/ ٤٥٦ ـ ٤٥٧].
(٣) أخرجه الطبري في تاريخه [٢/ ٤٥٩].
(٤) أخرجه الطبري في تاريخه [٢/ ٤٦٣].
(٥) أخرجه الطبري في تاريخه [٢/ ٤٦٥ ـ ٤٦٦].

قِيلَ: أَوَّلُ مَن قدم مكة بِمُصابِ قريش الْحَيْسُمَانَ بنَ عبيد الله الخزاعي، فقالوا: ما وراءك؟ قال: قتِل عُتْبَة وأَبو الحكم، وأُميةُ بن خلف وفلان، وجعل يُعَدِّدُ أَشْرَاف قرَيْش. فقال صفوان بن أُمية ـ وهو قاعد في الحِجْرِ ـ: والله أن يعقل هذا فسلوه عني، فقالوا: ما فعل صفوان بن أُمَيَّة؟ قال: هو ذاك جالسٌ في الْحِجْرِ، وقد والله رأيت أَباه وأَخاه حين قُتِلا.

وحَـدَّث أَبـو رافـع مـولـى رسـول الله ﷺ، قـال: كـنـت غُـلامـاً لـلـعـبـاس بـن عبد المطلب، وكان الإِسلام قد دخلنا أَهل البيت، وأَسلمتْ أُمُّ الفضل، وكان العباسُ يهاب قومه ويكره أَن يُخالفهم، وكان يكتم إسلامه، وكان ذَا مالٍ، وكان أَبو لهب عَدُوُّ الله قد تَخَلَّفَ عن بَدْر، وبعث مكانه العاصِي بنَ هشام بن المغيرة، وكذلك صَنَعوا لم يتخلف أَحدٌ إلاّ بعث، فلما جاء الخبر عن مُصابِ بَدْرٍ منْ قريش كبته اللّهُ وأَخزاه، ووجدنا في أَنفسنا قُوَّةً وعِزَّةً، وكنت رجلاً ضعيفاً أَعْمَلُ الْقِدَاح وأَنحتُها في حُجْرَة زمزم، فوالله إِني لجالس فيها أَنْحَتُ القِداح، وعندي أُمُّ الفضل جالسة، وقد سَرَّنا ما جاءنا من الخبر، إذْ أَقْبَلَ الفاسقُ أَبُو لهبٍ، يجرُّ رجليه بِشَرٍّ، حتى جلس على طُنُبِ الحُجْرَة، وكان ظهره إِليَّ فبينما هو جالس إذْ قال الناس: هذا أَبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم، فقال له أَبو لهب: هَلُمَّ إِليَّ يا ابْنَ أَخِي أَخبرني كيف كان الناس؟ قال: لا شيءَ والله ما هو إِلاَّ أَنْ لقيناهم فَمَنَحْنَاهُم أَكْتَافَنَا يَقْتُلُونَ، ويَأْسِرون كيف شاؤُوا وأَيْمُ الله مع ذلك ما لُمْتُ الناس، لقينا رجالاً بِيْضاً على خَيْلٍ بُلْقٍ بين السماء والأَرض ما تليق شيئاً ولا يقوم لها شيء. قال أَبو رافع: فرفعتُ طُنُبَ الحُجْرَةِ بيدي، وقلتُ: تِلْكَ الملائكة، فرفع أَبو لَهَبٍ يَدَهُ فضرب وجهي ضربةً شديدةً، فشاورته فاحتملني فضرب بي الأَرض، وبرك عليَّ يضربني، وكنت رجلاً ضعيفاً، فقامت أُمُّ الفضل إلى عَمُوْد من عَمَدِ الحجرة، فضربته به ضربة فلقتْ في رأسه شجَّةً منكرة، وقالت: تَسْتضعفه أَنْ غابَ سَيِّدُهُ؟ فقام مُوَلِّياً ذليلاً، فوالله ما عاش بعدها سبع ليال حتى رماه الله بِالْعَدَسَةِ، فقتلته، فلقد تركه ابناه ليلتين أَو ثلاثاً لم يَدْفِناهُ حتى أَنْتَنَ في بيته، وكانت قريش تَتَّقي العدسة كما يتَّقي الناس الطاعون، حتى قال رجل من قريش: ويحكما ألا تَسْتَحْيِيَان؟ إنَّ أَباكم قد أَنْتَنَ في بيته أَلا تَدْفِنَانه؟ قالا: نَخشَى هذه القرحة، قال: فَانْطلقا، وأَنا معكما فما غسلوه إلا قَذْفاً بالماء عليه من بعيد ما يَمَسُّوْنَهُ، ثم احتملوه بأَعْلَى مكة على جدارٍ، وقذفوا عليه الحجارة حتى واروه.

ورَوَتْ عائشةُ رضي الله عنها قالت: لما بعثَ أَهلُ مكة في فداءِ أَسْرَاهم بَثَتْ زينبُ بنتُ رسول الله ﷺ في فداء زوجها أَبي العاص بنِ الربيع بقلادة لها، وكانت

خديجةُ أَدخلتها بها على أَبي العاص حين بَنى بِهَا، فلما رآها رسول الله ﷺ رَقَّ لها رِقَّةً شديدةً وقال: «إنْ رأيتم أَنْ تطلقُوا لهَا أَسِيرها وتردُّوا عليها الذي لها فافعلوا» فقالوا: نَعَمْ يا رسول الله، فأطلقوه، وردُّوا عليها الذي لها[١].

وقال صاحب كتاب «المشارق»: كان لِواءُ رسول الله ﷺ أَبْيَض، ورَايتُهُ سَوْدَاء من مُرْط لعائشة مُرَحَّلٍ.

وكان فيمن أُسر يوم بَدْرٍ العباسُ بنُ عبد المطلب، وعَقِيل بن أَبي طالب، وكانا خرجا كارِهَيْن، ونوفلُ بن الحارث بن عبد المطلب، وعقبة بن أَبي مُعَيْط، والنَّضْرُ بن الحارث بن كلدة، فقتلهما رسول الله ﷺ بالصَّفْراءِ، وأَسْلم العباسُ، وأَمر عقيلاً فأَسلم، ولم يسلم من الأُسارى غيرهما، وممن قتلَ عليُّ بن أَبي طالب يومئذ العاصِي بن سعيد بن العاصي، ونوفل بن خويلد أخا العوام، وقتل عمر بن الخطاب خالَهُ العاصِي بن هشام بن المغيرة، وقتل حمزة شَيْبَة بن ربيعة، وقتل عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب عُتْبَةَ بن رَبيعة وقَتَل عَمْرُو بن الجموح الأَنصاريُّ أَبَا جَهْلِ بن هشام.

وعدة مَن قُتِلَ من المشركين خمسون رجلاً، وأُسِر أَربعة وأَربعون رجلاً.

واستشهدَ من المسلمين أَربعةَ عشرَ رجلاً منهم أَبُو عُبَيدة بنُ الحارِث تأَخَّرتْ وفاته حتى وصل إِلى الصَّفْراء.

وقد آنَ أَن نَلْوِيَ عِنَان القلم فنقول: والعادةُ أَنَّ أَميرَ الحاج يَخْزِن بِبَدْرٍ في الذهاب جميعَ ما يحتاج إِليه عند العود، لاِبتداء الزيارة الشريفة من الينبع من المأكولات والعليق، والشمع المجهَّز إِلى الحجرة الشريفة النبوية، والحضرة الجليلة المصطفوية، على ساكنها أَفضل الصلاة والسلام.

وبِبَدْر أَمْرَان مُستَمِرَّانِ في الغالب لا نَعْلَمُ سببهما:

الأَول: أَنه لا يزال يُسْمَعُ عند مرور الركب بين ٱلأَبْرَقَيْنِ، ونزوله من الحدرة في الغالب، وبالخصوص ليلة الجمعة صوتٌ غريبٌ، كالطَّبْل، وسمعته مراراً عديدة، وفي بعضها أَشدَّ من بعض، ولم أَرَ في الأَثر ما يدل على بيان ذلك إِلا ما نقله السيد السمهودي في «تاريخ المدينة» عن المرجاني، أَن رسول الله ﷺ شهد بَدْراً بسيفه الذي يُدْعَى العضْب، وضربَتْ فِيها (طَبْلخاناه) النصر، فهي تُضرَبُ إِلى قيام الساعة.

والثاني: أَنَّ في كل سنة في الغالب ـ بقدر الله تعالى ـ يَغْرَق نفر من الحاج، إِمَّا

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه [٢/ ٤٦٨].

من المصري أَو من الشامي في الذهاب أَو في الإِياب، وقد يتفق الْغَرَقُ بعد الإِيذان بالرحيل فيقال: إِنَّ البركة بها سُكَّانٌ من الجان يحصل منهم ذلك ويكونون سَبَباً للغرق، ويقال غير ذلك والله أَعلم بحقيقة ذلك.

وعربان صُبْح كثيراً ما تَتَعَرَّضُ للوفد بِبَدْرٍ ليلاً، ولهذا كان ورودها في ضوء النهار أَحسن، وأَولى في الأَمان من ظلمة الليل، فإِن عُرْبان صُبْحٍ المذكورين أَذَاهم مُتَّصِلٌ بأَهل الركب من الينبع إِلى حيث يصلون في التَّتَبُّع وتجاه القَرية وادي الصفراء.

ومنها ـ أَيْ من بَدْرٍ ـ لرابغ أَربع مراحل، وفي سنة خمس وخمسين (وتسع مئة) كانت الإِقامة بالدار إِلى بعد الشمس بثلاثين درجة، وسار بين جبال بَدْرٍ، والجبل الأَيمن به فلج قيل: صلَّى فيه النبيُّ ﷺ وليس بصحيح، كما نبّه عليه القاضي عِزُّ الدين بْنُ جَماعَةَ في منسكه، ثم بمضيق وَعْرٍ ورملٍ، وبعده فضاء خَضِرٌ واسع، ومرَّ على الرملة المسماة بعالج، وفيها يقول الصَّلاحُ الصَّفدي:

فـيْ وَسْطِ رَمْـلَـةِ عَـالِـجِ ... عَـجـيْـبَـةٌ أُبـيْـنُـهَـا
حَـيَّـاتُـهَـا الـتِّـبْـرُ غَـدَا ... بَـيَـاضُـهـا يَـشِـيْـنُـهَـا
رَأَيْـتُ فِـيـهَـا حَـيَّـةً ... أَشْـبَـهَ لِـي تَـكْـوِيْـنُـهَـا
مِـفْـتَـاحَ عَـاجٍ أَبْـيَـض ... أَسْـنَـانُـهُ قُـرُوْنُـهَـا

وحطَّ بأَول القاع المسمى بقاع الْبَزْوَة، والقاع اسم لكل مكان واسع مستوٍ من الأَرض.

قال في «القاموس»: القاع أَرض سهلة مُطْمَئِنَّةٌ، قد انفرجت عنها الجبال والآكامُ، وجمعها قِيَعٌ وقِيْعَةٌ، وقِيعان وأَقْوَاع[1].

ويسمى طرف الْجَنْحَا، والخبت، فكان سيره إِلى قبل المغرب لدخول (الصنجق) وغدَّى الدار المعتادة مئة وعشر درج، وفيه يقول الصَّلاحُ الصَّفَدِيُّ:

قَد سَلَكْنَا الْقَاعَ الْمَدِيْدَ الذي أَضْـ ... ـحَى مُضَافاً دُوْنَ الْبقَاعِ لِبَزْوَهْ
فَـهْـوَ قـاعٌ لاَ نَـبْـتَ فِـيْـهِ تَـرَاهُ ... عَـيْـنُ سَارٍ وَكَـمْ لَـنَا فِـيْـهِ سَـرْوَهْ

وَأَقَامَ إِلى بعد العشاء بأَربعين درجة، وسار إِلى أَن مَرَّ على القاع الكبير، وغَدَّى بعد الشمس بعشر درج فكان المسير مئة وأَربعاً وخمسين درجة، والعادة مئة وأَربعون،

---

(١) انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي [٣/ ٧٤] [مادة: قاع].

لاختلاف سير هذه السنة، وهو فائق عن المعتاد، وتسَمَّى غَيْقَةَ ـ بالفتح ثم السكون ثم قاف وهاء ـ: موضع بساحل البحر، قرب الْجار، يصبُّ فيه وادي ينبع، ورَضْوَى قاله عَرَّام، وقال السكونيُّ: هو ماءٌ لبني غِفَارٍ، وقال ابنُ السِّكيت: غَيْقة أَحساءٌ على شاطىء البحر فوقَ الْعُذَيْبَة.

وتسَمَّى أَيضاً بوجه (؟) يمرون بفضاء، وباليسار جبل الْقُرُوْد، وهم السُّرَّاق بها تشبيهاً بالقرود، أَوْ لأَنَّ بها قروداً على الحقيقة أبرني بذلك أَهل الدرك به، وللصلاح الصفديِّ:

مَرَرْنَا بقَاعِ الْبَزْوَةِ ٱلأَفْيَحِ الَّذِي عَلَيْهِ صَرِيْحُ الذَّمِّ راحَ حَبِيْسَا
وكَانَ بِهِ لِلْمَاءِ قَذْرٌ وعِزَّةٌ وكانَ بِهِ قَذْرُ الْحَشِيْشِ خَسِيْسَا
فَسِرْنَا بِهِ يَوْمَيْنِ وَالثَّالِثُ انْقَضَى وَقَدْ أَذْهَبَتْ فيه النُّفُوسُ نَفِيْسَا
وكَمْ زَيْلَعٌ وَافى وَمُوْسَى بكَفِّهِ لِيَنْحَرَ في وَسْطِ الْمَفَازَة عِيْسَا

وأقام بدار الْمغداة خمساً وعشرين درجة، وسار، والباقي للظهر خمس وأربعون أو خمسون، إِلى أَنْ مَرَّ على الحدرة، وبئرِ الشريف نجم الدين أَبِي نُمَي بن بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان، أمير مكة ـ فسَّحَ الله تعالى في مدته ـ وبستان القاضي، وعشَّى بعد البستان بِشَيءٍ يسير، فكان مَسِيره إِلى قبل المغرب بعشر درج، مئةَ وعشر درج، فوق الحدرة، وتسمى عقبة وَدَّانَ، قال السَّيدُ في تاريخه: ودَّان ـ بالفتح ودال مهملة مشددة آخره نون ـ: قريةٌ من نواحي الْفُرُع، لضمرة وغفار وكنانة، على ثمانية أميال من ٱلأَبْواء أكثر نصيْب من ذكرها، ومِنْهُ قوله:

أَقُولُ لِرَكْبٍ قَافِلِيْنَ عَشِيَّةً قِفَا ذَاتِ أَوْشَالٍ، ومَوْلاكَ قَارِب
قِفُوا أَخْبِرُوْنِي عَنْ سُلَيْمَانَ إِنَّنِي لِمَعْرُوْفِهِ مِنْ أَهْلِ وَدَّانَ رَاغِبُ
فَعَاجُوا فَأَثْنَوْا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوح سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ

وقال أَبو زَيْد: ودَّانُ من الْجُحْفَة على مرحلة، وبينها وبين الأَبْواء سِتَّةُ أميال، وبها ـ كان أيام مُقَامي بالحجاز ـ رئيسٌ لبني جعفر بن أبي طالب، ولهم بِالْفُرْعِ وسايَةَ ضِيَاعٌ وعشيرة، وبينهم وبين الْحَسَنِيِّيْنَ حروبٌ، ولم تزل كذلك حتى استولت طائفة من اليمن تُعرف ببني حَرْبٍ على ضِيَاعهم.

والبستان بعد الفضاء، محاطب شَجَرِهِ يختفي فيه الركب بحمله، ويرى منه البحر على بُعْدٍ، وهُوَ آخِرُ دَرَكِ زُبيدِ الشام، وأول حَد درك زُبَيْد الْيمن، وحدُّه من بستان القاضي إِلى الحدرة، والمضيق الذي هو آخرُ وادي العُمْيَان، وأول وادي مَر الظهران، ومن شيوخهم شهاون بن مالك بن رومي، وأولاده، داهش وعلي وإِخوتهما، وكان الدرك

قديماً مقسماً بين جماعات بمعاليم معلومة، منهم البشريون، العصيفيون، وبنو سليم، فاستولت أولادُ رومي على الدرج جميعه، وهم في الحقيقة من باطن السيد الشريف أبي نُمَيٍّ بن بركات الآن بعد حروب اتفقت لهم مع سلفه، إلى أَنْ أَذْعَنُوا بالطاعة له كما هو مشهور بتلك الأَقطار. وللصَّلاَح وقدْ جَدَّ فِي السير ليلاً:

إنَّ السَّرَى أغمض أجْفَانَنَا وَلِلنُّجُومِ الزُّهْرِ إطْرَاق
واللَّيْل بَحْرٌ قَدْ غَدَا شَرْقُهُ وَمَاؤُهُ بِالصُّبْحِ رَقْرَاق
وشَجَّةُ الْفَجْرِ بِرَأْسِ الدُّجَا بِالشَّفَقِ الْمُحْمَرِّ سِمْحَاق

وأقام إلى بعد العشاء بأَربعين درجة، وسار إلى رابغ الإحرام، فكان المسير إلى قبل الفجر لدخول (الصنجق) مئة وخمس درج، والوصول إليها في المحاطب والفضاء يوم الرابع من الينبع.

وذكر لي جماعةٌ من مقدمي الجمالة وأعيانهم أنهم شاهدوا مِرَاراً في رحلة القاع إلى رابغ، ليلاً عند انفرادهم بالسبق غُولاً من الجانّ في صفة ضَوْئِيٍّ يحمل مِشْعَلاً، يُضِلُّ به مَن يَنْفَرِدُ بالسبق، ولا يزال يجري يَمْنَةً ويُسْرَةً إلى أَنْ يطلع الفجر، فيلقي النار من المشعل، ويتوجه ويختفي عن العيون، وأجمع مَن رآه أَنَّ فِعله ذلك ليس فيه هداية لسائر بل بِضِدِّ ذلك.

وهي بجانب البحر، بها حفائر تارة يكون ماؤها بوجود المطر في غاية العذوبة، وتارة عند عدمه يميل إلى الملوحةِ يَسِيْراً، وبها قرية وسَبِيلُ ماءٍ، وعشَشٌ ومزارع، وأهلها زمن الموسم يَتَسَبَّبُون على الحاجِّ فيبيعون الحشيش للعلف والأَغنام والحطب والبطيخ في أوانهِ والشَّوِيِّ.

ومحل ميقات الإحرام الْجُحْفَةُ، وهي تقابلها يساراً صَوْبَ الجبل، وأمامها قليلاً، وهي ميقات أهل مصر ولأَهل الشام من طريق تَبُوْك، وقال صاحب «المطالع»: هي قرية جامعة بِمنبر، على طريق المدينة من مكة، وهي مَهْيَعَةُ، وإنَّما سميت الْجُحْفة لأَنَّ السيل أجحفها، وهي على ستة أميال من البحر، وثماني مراحل من المدينة، وقيل نحو سبع مراحل من المدينة وثلاث من مكة؛ وفي «وفاء الوفاء» للسمهودي: الجحْفة ـ بضم وسكون الحاء المهملة ـ: أحد المواقيت، قرية كانت كبيرة، ذاتُ مِنْبر، على نحو خمس مراحل وثلثي مرحلة، من المدينة، وعلى نحو أربع مراحل ونصف من مكة، وكانت تسمى أَوَّلاً مَهْيْعَة كمعِيشة ـ بالمثناة تحت، ويقال لها مَهْيَعَةَ ـ كَمَرْحلةَ اسم للجحفة.

قال الحافظ المنذريُّ: لما أخرج العمالِيْقَ بَنِي عَبِيْلَ إِخْوةَ عادٍ من يَثْرِبَ نزلوها فجاءه سيل الْجُحَاف ـ بضم الجيم ـ فجحفهم وذهب بهم، فسميتْ حينئذ الجحفة، وقال عياض: سُمِّيت الجحفة لأَنَّ السيولَ أجحفَتْها وحملت أهلَها، وقيل: إنما سميت بذلك من سنة سيل الْجُحَافِ سنة ثمانين لذهاب السيل بالحاجض وأمتعتهم كما قدّمنا ذكر ذلك في توالي السنين.

ولم يكنْ بالْجُحْفَةِ الآنَ آثارٌ تُعرف، سوى مسجد بقيت آثاره بالأَرض، مررت عليه مراراً.

ولأَبي عبد الله الفيوميِّ:

لَمْ أَنْسَ بِالْجُحْفَةِ يَوْماً غَدَا   عَقْلِيَ مِنْ أَهْوَالِهِ زَائِغ
يَوْمٌ لُحُوْمُ الْخَلْق فِيْه اشْتَوَتْ   مِنْ حَرِّهِ وانْقَلَبَتْ رَابِغ

الفصل الخامس

في الإِحرام من رابغ، وما يجب شرعاً من المناسك والمحظورات

اعلم أنَّ ميقاتَ المسافر من مصر والشام والمغرب منزلة رابغ، وهي مسامِتَةٌ للميقات المشروع المعروف بِالجحفة.

وميقات أهل المدينة ذو الحليفة، وهو المكان الذي بالقرب من المدينة الشريفة، المعروف بأَبيار عليٍّ، بينه وبين المدينة ستة أميال أو سبعة.

وميقات أهل اليمن يَلَمْلَمُ.

قال صاحب «المطالع»: جبل من جبال تهامة على ليلتين من مكة.

وميقات أهل نَجْدٍ قرن المنازل(١)، ويقال له أيضاً قرن الثعالب، وهو على يومٍ وليلةٍ من مكة ـ وهو بفتح القاف وإِسكان الراء ـ ومن المشرق: ذاتُ عِرْقٍ ـ بكسر العين وسكون الراء ـ: منزلٌ معروفٌ من منازل الحاج يحرم أهل العراق بالحج منه(٢)، سمي بذلك لأَن فيه عِرْقاً، وهو الجبل الصغير.

---

(١) انظر: المغني لموفق الدين [٣/٢٠٦].
(٢) انظر: المغني لموفق الدين [٣/٢٠٧].

وقيل: العِرْقُ من الأَرض سبخة تنبت الطرفاء.

وهذه المواقيت لأَهلها ولمَن مَرَّ عليها من غير أهلها[١].

ومَن لم يكن طريقه على ميقات، فإذا حاذَى أقرب المواقيت إليه أحرم[٢]، فإن لم يُحاذِ ميقاتاً أحرم عن مكة بمرحلتين[٣]، فمَن مرَّ بالميقات مُريداً للنُسُك لم يَجُزْ لَهُ أن يتعداه إلا محرماً إلاَّ إنْ مَرَّ لقتالٍ مُبَاحٍ لأَنَّ النبي ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه الْمِغْفَرُ، أَوْ لحاجةٍ تتكرر كالْحطَّاب ونَحْوِه لأنَّا لو ألزمناه الإحرام لأَفْضَى إلى أَنَّه لا يزال محرماً فيشقُّ ذلك عليه[٤].

ويجوز الإحرام قبل الميقات ولو من دويرة أهله[٥]، لكن الأَفضل الإحرام من الميقات، لأَنَّ النبي ﷺ وأصحابه أحرموا من الميقات وتبعهم أهلُ العلم على ذلك، ولا يفعل النبيُّ ﷺ إلاَّ الأفضل، ولأَنه بالإحرام تَعَرَّض لفعل المحظورات، وفيه مشقَّةٌ على النفس، فَكُرِهَ، كالمواصلة في الصيام[٦].

فإنْ تجاوز الميقات غَيْرَ مُحْرِمٍ ثم أحرم صَحَّ، وعليه الفِدْيةُ، وجوباً مستقرًّا لأَنَ الدم وجب بهتك حرمة الميقات[٧].

والإحرام عبارةٌ عن نِيَّة النُسك والتلبُّس به، فمتى فعل ذلك صار محرماً وإن لم يجتنب محظوراته، ولو أراد بعد ذلك رفضه لم يكن له ذلك.

ويُسَنُّ لمَن أراد الإحرامَ أن يغتسل ويتنظَّف، ويتطيّب في بدنه دون ثياب إحرامه، ويزيل ما في بدنه من الشَّعَثِ والرائحة، ويستحب حلق شَعْرِ العانة ونَتْفُ الإبط، وتقليم الأظفار ونحو ذلك، لأَنه أَمْرٌ يُسَنُّ له الاغتسال أشبه الجمعة، ويُسَنُّ له الطِّيْبُ لأَنه مكان يجتمع الناس فيه كالجمعة والعيدين[٨].

والحائض والنُّفَساء ومَن حدثه دائمٌ كغيرهم في اسْتِحْباب الغسل وغيره، فإنَّ

---

(١) انظر: المغني لموفق الدين [٣/ ٢١٤].
(٢) انظر: المغني لموفق الدين [٣/ ٢١٤].
(٣) وهذا مرجعه الاحتياط والاجتهاد. انظر: المغني [٣/ ٢١٤].
(٤) انظر: المغني لموفق الدين [٣/ ٢١٨].
(٥) ويصير محرّماً بالإجماع. نقله ابن المنذر. انظر: المغني [٣/ ٢١٥].
(٦) انظر: المغني لموفق الدين [٣/ ٢١٥ ـ ٢١٦].
(٧) انظر: المغني [٣/ ٢١٧].
(٨) انظر: المغني لموفق الدين [٣/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦].

النبي ﷺ أَمَرَ عائشة أن تغتسل عند الإهلال وهي حائض، وثبت أنه ﷺ أمر أسماءَ بنحتَ عُمَيْس وهي نفساء أن تغتسل عند الإحرام[١].

ومَن لم يقدر على الماء استحب له التيمم[٢]، ويَتَجَرَّدُ الرجل عن المخيط في إزار ورداء، والأَفضل أن يكونَا أَبيضينِ جديدين أو مغسولينِ[٣].

ويُباح للمرأة لبس المخيط وأصناف الثياب والحليّ والْخُفّ والاختضاب، ويحرم عليها التَّبَرْقُعُ والتَّنَقُّب ولبس الْقُفَّازَيْنِ، وهي جلود تفعل في اليدين، فإن فعلتْ شيئاً من ذلك فعليها الفدية[٤].

والسنة أن يُحْرِم عقيب صلاة مكتوبة أو نافلة، إن لم يكن وقت كراهة[٥].

والأَنْساك التي يحرم بها الإنسان ثلاثةٌ: الإِفْرَادُ والْقِرَانُ والتَّمَتُّعُ، ويجوز للإنسان الإحرامُ بكل واحد منها، لكن الأَفضل عند إمامنا أحمد رحمه الله التمتُّع ثم الإفراد ثم القران، والإفراد أفضلُ عند مالك والشافعي رضي الله عنهما، والقِرَانُ أفضل عند أبي حنيفة رضي الله عنه[٦]. فالإِفْرادُ أَنْ يُحرِم بالحج وحدَهُ، فإذا فرغ منه أحرم بالعمرة من أَدْنَى الْحِلِّ[٧].

والْقِرانُ أن يَجْمَع بين الحج والعمرة في الإحرام من الميقات، أو يكون قد أحرم بالعمرة مفردةً، ثم يُدخِلُ الحج عليها قبل الطواف، فتدخلُ أفعالُ العمرة في الحجِّ، فلو عكس ذلك لم تصح عمرته[٨].

والتَّمَتُّع أن يحرم بالعمرة في أشهر الحج ثم يفرغ منها ويتحلّل ثم يحرم بالحج من سَنَتِه من مكة[٩].

---

(١) انظر: المغني لموفق الدين [٣/ ٢٢٥، ٢٦١].
(٢) هو قول القاضي أبي يعلى لأنه غسلٌ مشروعٌ فناب عنه التيمم كالواجب. والجمهور على عدم سنيّته. انظر: المغني [٣/ ٢٢٥].
(٣) انظر: المغني [٣/ ٢٢٦].
(٤) انظر: المغني [٣/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦].
(٥) انظر: المغني [٣/ ٢٢٩].
(٦) انظر: المغني [٣/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣].
(٧) انظر: المغني [٣/ ٢٣٢].
(٨) انظر: المغني [٣/ ٢٣٢].
(٩) انظر: المغني [٣/ ٢٣٢].

فإذا أراد الإنسان الإحرام بواحد من هذه الأَنساك نواه بقلبه، قائلاً بلسانه: اللهم إني أريد النسكَ الفلانيَّ فيسِّرْهُ لي، وتَقَبَّلْه مِني[١].

ويَشْتَرِط فيقول: وإنْ حَبَسَنِي حابسٌ فَمَحِلِّيْ من حيثُ حَبَسْتَنِي[٢].

فإن أطلق نِيَّةَ الإِحرام من غير أن يُعَيِّنَ نُسُكاً انعقد إِحرامُهُ، وله بعد ذلك صرفه إِلى أَيِّها شَاء[٣].

ويُسْتَحَبُّ للمحرم أن يقول: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لاَ شَرِيْكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إنَّ الْحَمْدَ والنِّعْمَةَ لَكَ والْمُلْك، لاَ شَرِيْكَ لَكَ، لَبَّيْكَ إِلَهَ الْخَلْقِ، لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ، والْخَيْرُ بِيَدَيْكَ والرَّغْبَاءُ إِلَيْكَ والعَمَلُ، اللَّهُمَّ لَكَ أَحْرَمَ نَفْسِي وَشَعَرِيْ وبَشَرِيْ ولَحْمِيْ وَدَمي. اللَّهُمَّ إِنِّي نَوَيْتُ الْحَجَّ فَأَعِنِّيْ عَلَيْه وتَقَبَّلْهُ مِنِّي، اللهم صَلِّ على مُحمد، وعلى آل محمد كما صَلَّيْتَ على إبراهِيمَ وعلى آلِ إبراهيم إِنَّكَ حَمِيدٌ مجيدٌ. ويدعُو لِنفسه ولِمَن أراد بِأُمور الدنيا والآخرة. ويكثر من التلبية كُلَّمَا عَلاَ نَشَزاً أَوْ هبط وادياً، وإِذَا الْتَقَتِ الرِّفاقُ، وإِذَا غَطَّى رَأْسَهُ نَاسِياً، وفي دُبُرِ الصلاة المكتوبة.

ولا يلبِّي في حال الطواف والسعي لاختصاصهما بما سيأْتي بعد.

ومَعْنى لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ قال الْفَرَّاءُ: معنى لَبَّيْكَ: إجابَةٌ إِليك، ومنه التلبية بِالْحَج وثُني يُريد إجابة بعد إجابةٍ ونَصْبُهُ على المصدر، وقال بعضهم: معناه: إِلْبَاباً بِكَ أَي إِقامة لك ولُزُوْماً، وهو مأْخوذ من قولك: لَبَّ بالمكان، وأَلَبَّ إِذا أَقام به.

قال الراجز:

لَـبَّ بِـأَرْض مَـا تَـخَـطَّـاهـا الْـغَـنَـمْ

وقال أَبو عبيدة عن الخليل بن أَحمد أَنه قال: أَصلها من أَلْبَبْت بِالمكان، وإِذا دَعَا الرجل صاحبه أَجابه لَبَّيْكَ فكأَنه قال: أَنا مُقِيم عنْدَك، ثم وكَّد ذلك بِسَعْدَيْكَ أَي إِقامة بعد إِقامة، وحكي عنه أَيضاً أَنه قال: أُمٌ لَبَّةٌ أَيْ مُحِبَّةٌ عاطِفَةٌ، فإِن كان كذلك فمعناه: إِقبال عليك ومحبة لك.

وأَنشد الطوسيُّ:

وَكُـنْـتـم كَـأُمِّ لَـبَّـةٍ طُـعِـنَ ابْـنُـهَـا ... إِلَـيْـهَـا فَـمَـا ردَّتْ إِلَـيْـهِ بِـسَـاعِـدِ

(١) انظر: المغني [٣/ ٢٣٩].
(٢) انظر: المغني [٣/ ٢٤٣].
(٣) انظر: المغني [٣/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠].

ويقال: هو مأْخُوذٌ من قولهم: دَارِي تَلُبُّ بِدارك، فيكون معناه اتِّجاهِي إليك وإقبالي على أمرك.

وسَعْدَيْكَ: معناه أَسْعَدَكَ اللّهُ إسعاداً بعد إسعاد، وهو في الكلام بمعنى قولك: حَنَانَيْكَ، والحَنَانُ الرحمة، قال الفرَّاءُ: ولم نسمع لسعدَيْكَ بِوَاحِد، وروى القاضي الْمُعَافى النَّهروانيُّ في كتابه «الجليس والأنيس» قال: حدثنا أَبو بكر قال: حدثني أَبي قال: حدثنا عبد الله بن عَمْرو، قال: حدثنا سعد بن اليمان، قال: حدثنا ابن صفوان قال: لما حجَّ أَبُو نُوَاسٍ لَبَّى فقال:

إِلٰهَنَا مَا أَعْدَلَكْ ... مَلِيكُ كُلِّ مَنْ مَلَكْ
لَبَّيْكَ قَدْ لَبَّيْتُ لك ... مَا خَابَ عَبْدٌ سَأَلَكْ
أَنْتَ لَهُ حَيْثُ سَلَكْ ... لَوْلاَكَ يَا رَبُّ هَلَكْ
لَبَّيْكَ إِنَّ الْحَمْدَ لَكْ ... والْمُلْكَ لا شَرِيكَ لَكْ
كُلُّ نَبِيٍّ وَمَلَكْ
وكُلُّ مَنْ أَهَلَّ لَكْ ... سَبَّح أَوْ صَلَّى فَلَكْ
لَبَّيْكَ إِنَّ الْحَمْدَ لَكْ ... والْمُلْكَ لاَ شَرِيكَ لَكْ
يَا مُخْطِئاً مَا أَغْفَلَكْ ... عَجِّلْ وَبَادِرْ أَجَلَكْ
واخْتِم بِخَيْرٍ عَمَلَكْ ... لَبَّيْكَ إِنَّ الْحَمْدَ لَكْ
والْمُلْكَ لا شَرِيكَ لَكْ

ويَحْرُمُ على المحرم عَقْدُ النكاح له أَو لغيره[١]، والوطْءُ في الفرج أَو غيره، والاستمناءُ والتقبيل واللمس، وابتداء النظر، واستدامته بشهوة، فإن وَطِيء في الفرج فسد نسكه[٢]، وإن باشر دونه فَأَمْنى لم يَفْسُدْ ولزمه لكل منهما بدنة إن كان حَجًّا[٣]، وشاةٌ إنْ كان عُمْرَةً[٤].

ويَحْرُمُ عليه تَغْطيةُ رأسِهِ أَو بعضه كأُذُنَيْهِ[٥]، ولبسُ الْمَخِيط في جميع بدنه،

(١) انظر: المغني [٣/ ٣١١].
(٢) انظر: المغني [٣/ ٣١٥].
(٣) انظر: المغني [٣/ ٣٢٢].
(٤) انظر: الشرح الكبير لابن أبي عمر المقدسي [٣/ ٣٢٠].
(٥) خلافاً للإمام الشافعي في إباحة ذلك. انظر: المغني [٣/ ٣٠٢].

حتى في يديه بِقُفَّازَيْنِ أو غيرهما، أَوْ رِجْليه بِخُفَّيْن أو غيرهما[١]، إلاَّ النَّعلين ونحوهما[٢]، فإن عدم الإِزار أو النَّعْلَيْنِ فله لبس السراويل، والخُفَّينِ بحالهما ولا شيء عليه[٣].

ويحرم عليه قطع شعره، ويجب في الشعرة الواحدة مُدُّ بُرٍّ، وفي الشعرتَيْنِ مُدَّانِ، وفي الثلاث فصاعداً دَمٌ أو إطعامُ ستَّةِ مساكين أو صيام ثلاثة أيام[٤].

ويحرم عليه ابتداءُ الطيب وتَعَمُّد شمِّهِ، أَيُّ طيب كانَ، كالمسك والعنبر والكافور، وشَمُّ الدهن المطيَّبِ، وأكل ما فيه طِيبٌ تظهر رائحته أو طعمه، وله شَمُّ الشِّيح والإِذْخِرِ ونَحْوهما[٥].

ويحرم عليه قتلُ صَيْدِ الْبَرِّ المأكولِ، وما تولَّدَ منه ومن غيره، واصطياده وتملُّكه، والإِعانَةُ على صيده بدلالة أو صياح أو إشارة، أو إِعَارَة آلَة، أو أَكْلُ لحمه، إلا أن يصيده حلالٌ لا لأَجْله، وإن أحرم، ومعه صيدٌ لزمه إرساله، ويجبر عليه إن امتنع من إرساله[٦].

ويُبَاحُ لِلْمُحْرِمِ قتلُ ما صال عليه، ولو كان صيداً، ولا يضمنه[٧] وقتل ما كان مُضِرًّا بِطَبْعِهِ كَسَبُع وذئْبٍ وفأرة وكَلْبٍ عقور، وحيَّة وعَقْربٍ. وله قتل براغيثَ لا قَمْلَ وصِئْبَانَ، وقيل: إنَّ البراغيث كالقمل. فإن قتل القمل فلا شيء عليه[٨].

ولَهُ أَن يحتجم ويفتصد ويَبُطَّ الْجُرْحَ، وله قلع الضِّرْس، وشُرْبُ الدواء[٩]، والكحل بغير مطيب[١٠].

ويُكْرَهُ التَّزَيُّنُ، وله أَن يغتسل ويغسل لحيتَهُ ورأسه بسدرٍ وخِطْمِيٍّ[١١]، وَلَهُ

---

(١) انظر: المغني [٣/ ٢٧٢].
(٢) انظر: المغني [٣/ ٢٧٥].
(٣) انظر: المغني [٣/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣].
(٤) انظر: الشرح الكبير [٣/ ٣٣٠].
(٥) انظر: المغني [٣/ ٣٠٠ ـ ٣٠٢].
(٦) انظر: المغني [٣/ ٢٨٦ ـ ٢٨٩].
(٧) انظر: المغني [٣/ ٣٤٠].
(٨) وروي عن الإمام أحمد فيمن قتل قملة قال: يطعم شيئاً. انظر: المغني [٣/ ٢٦٨].
(٩) انظر: المغني [٣/ ٢٧٨].
(١٠) انظر: المغني [٣/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧].
(١١) انظر: المغني [٣/ ٢٦٩].

الاستظلال بالشجر والخِيم، والأَفضل تركه، لا الاستظلال بالمحمل على المذهب وعليه الفِدية[١]، ولَهُ أَكل الفاكهة وشَمُّها كالتفاح والسفرجل والخوخ والأُتْرُجِّ[٢].

وإِنْ كَرَّرَ محظوراً من جنسٍ مثل إِنْ حَلَق أَو لَبِس أَو قَلَّم أَو تطيَّبَ أَو وَطِيء أَو غيرها، ثم أعاده ثانياً قبل التفكير فكفَّارةٌ واحدة نَصًّا[٣] غيرَ صيدٍ، تابع الفعل أَو فَرَّقَهُ[٤]، فظاهره لو قَلَّمَ ثلاثة أظفارٍ في أَوقات قبل التكفير يلزمه دَمٌ، وصرَّح به القاضي[٥].

وإِنْ فعل محظوراً من أَجناس فلكل واحد فِدَاءٌ[٦].

وعنه: فدية واحدة إِن اتَّحدَتْ كفَّارته، وإِلا تَعَدَّدَت[٧].

وإِن حَلَق أَو قلَّم أَو وَطِيء، أَو قتل صَيْداً عامداً أَو غيره أَو مكرهاً فعليه الكفارة[٨].

وإِنْ لَبِس أَو تطيَّب أَو غطَّى رأْسه ناسِياً أَو جاهلاً فلا كفارة نَصًّا. صَحَّحَهُ المنَقِّحُ[٩].

ويُسْتَحَبُّ لأَمير الركب أَن يجتهد في سيره ليدخل إِلى رابغ سحراً أَو مع الشمس بأَنْ يبادر الرحيل من بَدْرٍ ليكون معه فسْحة للدخول إِلى رابغ في وقت فيه فسحة لِيُؤَدُّوا هذه العبادة في سعة من الوقت، ويحصل لهم الإِحرام على حالة الطمأنينة والكمال، ولا يرحل بهم منها إِلا بعد صلاة الظهر.

وفي سنة خمس وخمسين (وتسع مئة) أَقام بها إِلى بعد الشمس بخمسين درجة من غير العادة، فإِنه سار قبل الظهر بثلاثين درجة ومرَّ على الْجُرَيْناتِ كلها وعَشَّى، وكان سيره لدخول (الصنجق) قبل المغرب بعشر درج مئة درجة، والعادة ثمانون درجة.

---

(١) وهو اختيار الخرقي وروي عنه عدم وجوبها. انظر: المغني [٣/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣].
(٢) انظر: المغني [٣/ ٢٩٣].
(٣) انظر: الشرح الكبير [٣/ ٣٤٢].
(٤) انظر: الشرح الكبير [٣/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣].
(٥) انظر: الشرح الكبير [٣/ ٣٤٢].
(٦) انظر: الشرح الكبير [٣/ ٣٤٣].
(٧) انظر: الشرح الكبير [٣/ ٣٤٣].
(٨) انظر: الشرح الكبير [٣/ ٣٤٣].
(٩) انظر: الشرح الكبير [٣/ ٣٤٤].

والْجُرَيْنَاتُ: كِيمَان رَمْلٍ متفرقة في أرض مستوية، وتلك التِّلال والأَجْران على خط وضَبْطٍ وتَمَوُّج يَقُول مَن رآها: إنها وُضِعت بمقدار لا تَخْتلط بما حولها من الأَرض الصَّماء، ولا يضرها مرور الرياح ولا يكدرها.

وللصلاح الصفدي:

هٰذِي بَيَادِرُ رَمْلٍ ... تُرْوَى الأَعَاجِيبُ عَنْهَا
الرِّيحُ طُولَ اللَّيَالي ... تَسْفِي وتَكْتَالُ مِنْهَا
وَالْوَضْعُ لَمْ يَتَغَيَّرْ ... وشَكْلُهَا لَمْ يَخُنْهَا

وأَقام إلى بعد العشاء بثلاثين درجة، وسار إلى طَارِفِ قُدَيْدٍ ـ اسم لجبلٍ بالقرب من قُدَيدٍ كَرُبَيْرٍ ـ قرية جامعة بين مكة والمدينة كثيرة المياه. قاله البكريُّ. وكان مسيره لبعد الشمس بخمس درج لدخول (الصنجق) مئة وخمسين درجة.

والمحطة واسعة كثيرة المرْعَى والحشيش، أيام المطر، وفيها محاطب فَيُغَدِّي ويتَهيَّأُ لعقبة السَّوِيْق، ومن العوائد المتقدمة أَنَّ أُمَرَاء الحاج يبادرون بتجهيز السقَّائين لنصب الحيضان الجلد الكبار بِسحائبها أسفل الحدرة الكبرى ـ العقبة ـ ويملؤونها من السكر المذاب لسقاية الحاج، فيعمون بذلك الكبير والصغير والغنيَّ والفقير، ويعدون ذلك من مكارم الأَخلاق وسعة الإِنفاق، ومن الفرح بالوصول إلى القرب من أُمِّ الْقُرَى، والاستبشار بتلك المعاهد المكرمة التي بُعِث منها خَيْرُ الْوَرَى وآخر مَن أَدركناه أَوسع العمل في ذلك، وعَمَّ الوفود برُّهُ بما هنالك فأَسْقَى بهذا المحل مئة رأس من السكر المذاب، غيرِ ما فرَّقهُ ونثره بِبِرْكَة خُلَيْصٍ ـ كما قدمنا ذكره ـ الأَمير سليمان تابع سليمان باشا، والمقر الجماليُّ يوسف الحمزاوي مِنْ بعده، وبعض الأُمراء يتعدَّى الثلاثين رأْساً، وبعضهم دون العشرين، وغالبهم الآن إنْ ملأَ الأَحواض ماءً قراحاً عَدَّهُ صَنِيْعاً، وبِرًّا وَسِيعاً.

وكانت الإقامة بالدار في سنة خمس وخمسين (وتسع مئة) ثمانية (؟) وعشرين درجة، وسار إلى أن مَرَّ على عقبة السَّوِيْق، المعترضة في الجبل الكثيرة الرمال والوعر، من باب تسمية المحلِّ بواقعة الحال، وهي سُقْيَا السَّوِيْق والسكر بها.

ومنزلُ خَلَيْصٍ فضاءٌ واسع كثير الأَنس، وبه حصن على جبل، ومُزْدَرَعاتٌ وخُضَرٌ وبطيخ وبعض كرم، وأَشجار ليمون، وبه الأَغنام والحشيش لعلف الجِمال.

وكان مسيره لدخول (الصنجق) بعد الظهر بعشرين درجة إلى سبعين درجة.

وخُلَيْصُ قال الأَسدِيّ: عين غزيرة كثيرة الماء، وعليها نخل كثير وبركة ومشارع ومسجد لرسول الله ﷺ.

وقال الأَسديُّ أيضاً: من قديد إلى عين ابن بُزَيع ثمانية أَميال وشَيءٌ، وهي خليص، وذكر آباراً كثيرة بقُدَيْد. قال: وعقبة خليص بينها وبين خُلَيْصٍ ثلاثة أميال وهي عَقَبَةٌ مَقْطَع حَرَّة تعترض الطريق، يقال لها ظاهر الترعة والشجر ينبت في تلك الحرَّة، وعند الحرَّة مسجد لرسول الله ﷺ، فيكون حينئذ لرسول الله في تلك المسافة مَسْجِدَان: عند حرة عقبة خُلَيْص مسجد، وعند العين المسماة بخليص مسجد. ذكره السيد السمهودي في «تاريخ المدينة».

وخُلَيْصُ من المنازل التي أَشرق في تباشير الدَّياجِي صباحُها، وطاب بنزولها المقيل والْمراح فَعَمَّ بِرُّهَا وصَلاَحُها، وتزوَّد من صوبها وصَيِّبِها ما لاح عليهم فلاحُها، ومنح الله فيها وبها وَفْدَهُ من عَيْنِها الصافية زُلاَلاً غَدَقاً، ومن أَغنامها وبطِّيخِها ما طاب غذاء وحسن مُرْتَفَقاً، وقد خلص فيها الوفد من مشقَّات عقبة السَّوِيْق، ومقاساة شدة الهول بنزولها ما لا يحمل الحيوان شدَّته ولا يطيق، رمل ينزل فيه الجمل إلى الركبة، وتُحقِّقُ النكباءُ إنْ مرت به حلولَ النكبة، من شدة التزاحم، وكثرة التلاحي والتلاحم، وعدم التعاطف والتراحم، وللصلاح:

يَقُولُ سائقُ رَكْبِي وَلاَتَ حِيْنَ مَنَاص
لَقَدْ بُلِيْنَا بِدَرْب بِطُوْلِ يَوْم الْقِصَاصِ
فَقُلْتُ: جِيءْ بِيْ خُلَيْصاً وَابْشِرْ بِحُسْن الْخَلاَصِ

وله: وقد مرت عليه ظِباؤها في حالة الإِحرام:

فَرَّتْ ظِباءُ الْقَاعِ قُدَّامَنَا ونَحْنُ بِالإِحْرَامِ فِي هَجْعَهْ
حَتَّى نَجَتْ سالِمَةً في الْفَلاَ وَلَمْ يَكُنْ فِيْنَا بِهَا نَجْعَهْ
قُلْت لَهُمْ قُوْلُوْا لَهَا إنْ تَكُنْ نَاشِطَةً: تَلْبَثْ إِلَى الرَّجْعَهْ

وللشهاب أَحمد بن أَبي حَجَلَة:

حَثَثْنَا الْمَطَايَا مِنْ خُلَيْص عَشِيَّةً وطَرْفِي إِلَى أُفْقِ السَّمَاء تَرَدَّدَا
ولَمَّا بَدَا فِيْهِ الْهِلاَلُ لِنَاظِرِي ذَكَرْتُ جَبِيْنَ الْعَامِرِيَّةِ إِذْ بَدَا

وقد جُدِّدَتْ عَيْنُ خُلَيْصٍ، وأُصلحتْ في سنة أَربعين وتسع مئة وأُصْلِحَت البركةُ التي بها بعد خرابها وتلاشيها، وكان الإِصلاح على يد أَمِين جُدَّة، وعمل بجانبها قُبَّةً

لطيفة في غاية الأُنْس، تشرف على البِرْكَةِ، وأولُ مَن أَنشأ هذه البِرْكَةَ لسقاية الحاج أَرغون النائب، وسنذكر بعض ترجمته باختصار، وأتذكر نزول الركب فيها في سنة ثمان وثلاثين وتسع مئة فإِذا البركة خراب متلاشية، والعين نازحة وحصل للركب بواسطة ذلك غاية المشاقّ في تلك الرحلة، ولما عُرِضَ أَمرُ ذلك على السلطان سليمان، عَيْنِ ملوك الزمان، من بني عثمان ـ لا زالت صدقاته الشريفة بأَيدي كرام بررة مرفوعة، ومَبَرَّاتُهُ المنيفة للوافدين بهذا الدَّرْب وآل الحرمين الشريفين غير مقطوعة ولا ممنوعة ـ فبرز أمره الشريف بعمارة العين وإِصلاحها، وتجديد عمارة البركة على أكمل حالةِ صَلاحها، وذلك في ولاية سليمان باشا نائبه بمصر، وأُقيم عليها نَفَرٌ من عسكر جُدَّة، يدعى بخير الدين الرومي شاذًا على العين، بجامكية وجراية، لا يظعن عنها شتاءً ولا صَيْفاً، ولا يقصر في تنظيفها وحراستها رَبيعاً ولا خَريفاً، وتزوج امرأَة من ذوي رُوْمي، وأَولدها ولداً ذكراً، واستمرَّ هذا المورد من أَجَلِّ الموارد الحجازية، ومن أَلطف البقاع الجليلة المكيَّة، ولما حجّ الوزير الكبير لطفي باشا ـ وهو من صهورة السلطان بعد عزله من الوزارة العظمى ـ في سنة نيف وأَربعين وتسع مئة توفي أَحد أَعيان مماليكه الخاصة بهذه المنزلة، فدفع إِلى خير الدين شاد العين مئة دينار من الذهب الجديد ليبني على قبره بناءً ويتصدّق بالباقي من ذلك، فأَدار على قبره بناءً، وبيّضه بالنورة، ثم بنى لنفسه بَيْتاً يشتمل على حوش كبير، ومجلس، وبَوَّابَة حسنة، واستمر يسكنها والدار ظاهرة في خُلَيْص، ولنا بخير الدين المذكور صُحْبَةٌ، وتوفي في سنة اثنين وستين وتسع مئة، واستقر ولده من امرأَة من ذوي مالك بن رومي عِوَضَهُ، في هذه الخدمة رحمه الله تعالى.

وبخُلَيْصٍ مزارٌ، مدفون به رجل يماني مشهور بالصلاح، والبركة في ضمن بناء بالقرب من البركة وله خادم، وهو مجاور للقبور التي بتلك المحل، وزرنا قبره مراراً.

وأَما أَرغون النائب (الدوادار) الناصري فهو نائب السلطنة أَحد المماليك المنصورية قلاوون، اشتراه صغيراً لولده الملك الناصر محمد، فرُبِّي معه ولاذ به حتى في توجهه إِلى الكرك، فأَنعم عليه بالإِمرة في شوال سنة تسع وسبع مئة وقَدَّمَهُ إِلى أَن خلع عليه، وعمله نائب السلطنة بمصر، بعد بيبرس المنصوري، فسار أَحسن سيرة، وحجّ في سنة خمس عشرة (وسبع مئة) وخلص كثيراً من الناس من شدائد، كان السلطان أَراد أَن يُنْزلها بهم، وخلف السلطان في غيبته للحج، من أَول ذي القعدة إِلى أَن قدم في المحرم سنة عشرين ومشى من مكة إِلى عَرَفَة، وقضى الحج ماشياً على قدميه بسكينةٍ، في هيئة الفقراء، ومات بمدينة حلب، ليلة السبت ثامن عشر شهر ربيع

الآخر سنة إحدى وثلاثين وسبع مئة عن بضع وأربعين سنة، وله ترجمة كبيرة اختصرتها جدًّا.

وكانت الإقامة بخُلَيْصٍ إلى بعد العشاء بأربعين درجة والعادة ستون، وسار فمرّ على مُدَرَّج عثمان رضي الله عنه وبئر وادي عُسْفان، وغدَّى بأول الدِّيْسَة - اسم لمحل نبت كثير - بعد الشمس بعشر درج فكان مدة مسيره مئة وخمساً وأربعين درجة، يسيرون من خُلَيْصٍ في الفضاء في محاطب إلى الدِّيْسَةِ، واللصوص هناك بكثرة، ثم يدخلون مُدَرَّجَ الإمام عثمان، والعامة ينسبونه للإمام علي رضي الله عنه، وهو كثير الوعر، صعب المسلك، وبه مضايق إلى بئر عُسْفَان، بها ماءٌ عذب سائغ شرابه، يقال إن النبي ﷺ شرب منه، يتزوّدون منها، وربما يسمون المنزلة به.

وعُسْفَانُ - بالضم ثم بالسكون وبالفاء - كانت قرية جامعة بين مكة والمدينة على نحو يومين من مكة، سميت بذلك لعسف السيول فيها، وذكر الأَسديُّ بها آباراً وبرَكاً وعَيْناً تُعرف بالعولاء.

وبعد عسفان منزلة العقلة (؟) التي صلّى بها النبي ﷺ صلاة الخوف حين كان العدو في جهة القبلة. ويجب على أمير الركب أن لا يَمُرَّ بوَفْد الله تعالى في مُدَرَّج عثمان في الذهاب والإيهاب إلا نهاراً لما فيه من كثرة الوعر، وصعوبة المسلك وتعاريج الطرق.

وفيه يقول الصَّلاحُ الصفديُّ:

طَوَيْنَا الْفَلاَ نَبْغِي الْوُصُوْل لِمَكَّة فَنَاحَتْ عَلَيْنَا الْوُرْق مِنْ عَذَب الْبَان

وَكَمْ مُدْرَجٌ قَدْ رَاحَ فِي كَفَن الْبلاَ لِيَوْم التَّلاقِي فِي مُدَرَّج عُثْمَان

وبه شَجَر البلسان البريِّ، وبعضهم يقول: إنه البشام، يوجد كثيراً في رؤوس الجبال، وفي أماكن منه.

وأَقام بدار المغداة عشرين درجة، وسار في فضاء نَيِّر ونُوْرٍ وشجرٍ إلى أن مَرَّ على طَارف الْمُنْحَنى ويُسمى عند الدُّلَلاَءَ طارف الْبَرْقا، وعشَّى بالْقرب من جبل الْمُنْحَنى. وكان مسيره إلى قبل المغرب لدخول (الصنجق) بخمس درج، مئة وعشرين درجة.

وللشهاب بن أَبي حَجَلَة:

أَسِيْرُ وَلِيْ شَوْقٌ إِلَى أَرْض مَكَّةِ لَهُ فِي الْحَشَا وَالْقَلْب مَرْسَى وَمَرْسَخُ

إِذَا مَا بَدَتْ لِي شَامِخَاتُ جِبَالِهَا فَإِنِّي عَلَى أَهْلِ الْبَسِيطَةِ أَشْمَخُ

وبهذه المنزلة في هذا الزمن يحضر السيِّدُ الشريف جازان ولد أَخي الشريف أَبي نُمَيٍّ أَو أَحد أَقاربه في بعض التَّجَمُّل لملاقاة أَمير الركب والسلام عليه.

وكانت العادةُ السابقة أَن تكون ملاقاتُهُ بوادي مَرِّ الظهران.

وللقادم من جانب الشريف قُفطَانٌ مذهَب، وحسن الرعاية، وتجهيز الغداءِ أَو العشاء من خاص المأكولات، وأَنواع الحلاوات والسكر المكرر، ويستمر صحبة أَمير الحاج؛ فأَما قبل تاريخه فكان حَدُّهُ الْعُمْرَةَ، ومساجدَ أُمِّ المؤمنين عائشة، ومن هنا يحضر الشريف صاحب مكة في خيل كثيرة، لملاقاة أَمير الحاج، والسلام عليه أَوَّلَ العمرة، ويتوجه الشريف إِلى مكة، وينزل أَمير الحاج بالزاهر، يبيت به، ويدخل مكة ليلاً بمشاعله وفَوانيسه للطواف، وفي صبيحة ذلك النهار تكون العرضة المشهورة ويحضر الشريف صاحب مكة للبس تَشَارِيْفِهِ في موكب جليل بـ(صناجقه) وأَعلامه وطبوله. وقد بطل ذلك من سنة ثمان وخمسين وصار يستمر الشريف جازان صحبة أَمير الحاج إِلى وادي الزاهر، فإِذا نزل هناك فارقه وتوجه ثم يحضر بعده الشريف عِجْلُ بن عَرَار بن عِجْل، وزيرُ مكة في بعض الخيول، أَو أَحد أَعيان جماعة الشريف، للسلام على أَمير الحاج في الزاهر ويعود، ثم في صبيحة ذلك يحضر الشريف صاحب مكة بعسكره ويقف راكباً بعيداً من (الوطاق) ويرسل يطلب القفاطين المعتادة فيلبس ما يخصه وهو راكب، ثم يلاقيه أَمير الحاج راكباً فيسير معه يسيراً ثم يتوجه الشريف من جهة الشُّبَيْكة إِلى منزله، ويستمر أَمير الحاج يسير وحده إِلى أَن ينزل بمحله، إِما إِلى المدرسة وهو العادة، أَو إِلى (الوطاق) بالمعلاة، وفي سنة خمس وخمسين كانت الإِقامة بجبل الْمُنْحَنَى بالقرب منه عشرين درجة، وسار فقطع (جَبَل الْعُمْيَان) سُمِّي بذلك لكثرة مَن يحضر هناك من فقراء مكة وغالبهم من العميان للسؤال من الحاج وطلب الصدقة، وجرتْ عادة كل جماعة منهم إِشعال النيران حولهم، ويجلسون جماعة كباراً وصغاراً، ولكل حَلْقَة شخص يترجم بما معناه أَنَّهُمْ مستحقون للصدقة، وأَنَّ فعلها لمثلهم من أَفضل القربات عند الله تعالى ويساعِدُهُ مَن حوله بقولهم بلسان واحد: يا الله! ويجلسون بهذا المحل عند ورود الحاج إِلى مكة وعند صدوره منها.

وكانَ نزول أَمير الحاج إِلى وادي مَرِّ الظهران ليلاً، واستمر سائراً إِلى وادي الزَّاهر عند سبيل عبد الباسط المعروف بسبيل الْجَوْخِي، شَيْلَةً واحدة، وكان مسيره

مئة وخمسين درجة ودخوله بعد الشمس بخمس درج، والمسير إليه من بطن مَرّ، ويسمى الوادي الزَّاهر. يسيرون في محاطب وفضاء، ومضيق وَعْرٍ بَيْنَ جَبَلَيْن، وهو آخر دَرَك ذَوي رُوْمي، ثم القرية بعده، حدائقُ وعيونٌ وبُنْيَانٌ ومسجد، وعين كبيرة، ويقابلها أَبو عُرْوَةَ - قَرْيَة أُخرى مثلها - منزلة الشامِيِّين، ويسمى وادي مَرٍّ بالْجَمُوم أَيضاً، وعند أَهل الحجاز وادي فاطمة، ومنه إلى مساجد السيدة عائشة رضي الله عنها بعد مسجد السيدة ميمونة رضي الله عنها بسَرف، ثم أَعلام الحرم بالأَرض والجبال، وهو مكان عُمْرَة التَّنعِيم، وبينه وبين مكة فَرْسَخٌ. ساعة ونصف، فيمرون على مضيق الثَّنِيَّة إلى وادي الزاهر [عند سبيل الجوخي وهو سبيل المرحوم عبد الباسط فيحطون للاستراحة] ويغتسلون لدخول مكة والسنة المبيت بذي طُوَى ثم يدخلون صبيحة ثاني يوم على العادة إلى مكة المشرفة بعد تزيين المحامل ولبس التَّشاريف السلطانية وهما لأَمير مكة قفطانان: أَحدهما من المخمل الأَحمر أَو الشطمة المذهّب به أَزْرَارٌ من الفضة المطلاة عدتها ستة. والثاني من الشيب الأَعلى المُفرَّى بالسمور الطرش، ولوزيره قفطان مذهّب، ولقاضي مكة شَيْب أَعلى، هذا ما يحمل من الخزائن السلطانية لمكة المشرفة، وأَما من خزانة (الطشت خانة) الأَميرية فلأَخي الشريف أَمير مكة قفطان خاص مذهّب وفي سنة ستين وتسع مئة أُلْبسَ السيد الشريف بَشِير - أَخو أَمير مكة الصغير - قفطانُ شيبٍ ثانٍ تكريماً من غير عادة.

ولمكة طريقان: بابُ الشُّبَيْكَةِ بالْجَادَّة، وباب المِعْلاَةِ بعد الثَّنِيَّتَيْن، وحَذْرَةِ باب المعلاة، فيدخلون من هذا الباب أَعلامهم وطبولهم، وينزل أَميرُ الحاج بالمدرسة الأَشرفيَّة قايتباي ويتوجه الشريف إلى منزله.

ويتفرّق الحاج بمكة في البيوت والسرح وبالأَبطح، وللشهاب بن أَبي حجلة:

وَلَـم أَنْـسَ إِذْ وَافَيْـتُ مَكَّـةَ بُكْـرَةً ... ودَمْعِي مِنَ الْمِعْـلا بِهَـا يَتَحَـدَّرُ
طَوَيْتُ إِلَيْها شُقَّةَ الْبِيْدِ في السُّرَى ... وأَنْوَارُهَا مِنْ ذِيْ طُوَى لي تُنْشَرُ

وله:

بَـذْل كُـنُـوْزِ الـدَّمْـع فـي مَـكَّـة ... يَغْلِبُ بَذْلَ الْمَالِ في الْغَالِبِ
فَكَيْف أَخْشَى في الْوَرَى مَهْلَكاً ... وَمَطْلَبِي شِعْبُ أَبي طَالِبِ

الفصل السادس

في ذكر مكة المشرفة وأسمائها ومعاهدها، وحدود الحرم وذرعه على سبيل الاختصار، وذكر شيء من حال إمرتها ونسب صاحبها الشريف أَبي نُمَيّ بن بركات، وبعض الوقائع وغير ذلك.

قال صاحب «نُزْهة العيون»: مكة المشرفة، وتسمى بَكَّة، فإنها في وادٍ قد حَفَّ به الجبالُ منها الأَخْشَبَانِ، وهما قُعَيْقِعَانُ، وأَبُو قُبَيْس، وفاضح، وثَوْر، وحِراءُ، وثَبِير، ونافخة، والمطابخ، والفلق، والْحُجُون. وطولها من المعلا إلى المسفل وهو من المشرق إلى الشمال نحو ميل. وعرضها من أسفل جياد إلى قُعَيْقِعَان نحو ثلثي ميل، وحَدُّ البقعة التي حرّمها الله تعالى من طريق المدينة على ثلاثة أَميال، ومن طريق جُدَّة على عشرة أَميال، ومن طريق الطائف على إِحْدَى عشر ميلاً، ومن طريق العراق على ستة أَميال، ومن طريق اليمن ستة أَميال، وفي جهة كل طريق عَلَمٌ مَبْنيٌّ يتميز به الحرم عن غيره، ويقال: إن هذه الأَعلام من بناء عدنان لما خاف أَنْ تُجْهَلَ حدودُ الحرم، وهو محيط بمكة شرّفها الله تعالى.

نُكْتَةٌ غَرِيبَة، ذكرها أَبو بكر بن دريد في «أَماليه» عن ابن عباس قال: خرج آدمُ عليه السلام من الجنة ومعه الْحَجرُ الأَسود، وكان أَشدَّ بياضاً من الثلج فوضعه على أَبي قُبَيْس، فكان يُضيء بالليل كأَنه القمر فحيث بلغ ضَوْؤُهُ كان من الحرم، وكان بعضُ ما يُضيء أَشدَّ من بعض، ولهذا جاء الحرم بَعْضه أَمَدُّ من بعض، فحيث امتد ضوْءُ الحجر كان من الحرم، ومعنى تحريم هذه البقعة أَنْ لا يُخْتَلى خلاها ولا يُعْضَدُ شجَرُها، ولا يُنَفَّرُ صيدُها، وليس بمكة ماءٌ مشروب غير زمزم، وإِنَّما شُرْبُ أَهْلها من القنوات التي أَجرتها زُبَيْدةُ من المكان الذي يُعرف بِالْمُشَاش، فإذا خرج منها فأَودية وآبار وحوائط نَخْل وزرع، وفي وسطها بيت الله الذي تَعَبَّدَ القلوب بِحُبِّه، وجعله مثابةً وأَمْناً لِعَبْد فَرَّ إِلى الله من ذنبه.

ولِمَكة مَخَالِيفُ نَجْدية وتهامية:

فالنجديَّة الطائف وهي على قنة جبل يسمى غزوان، وكانت من قبل تسَمَّى وجَّا، ومنها تمتازُ مكة سائر الفواكه، والبقول، وقرن المنازل، ونَجْرانُ، ومَرُّ الظهران، وتسمى في عصرنا بَطْنَ مَرٍّ، ومَرُّ اسْمُ الْقَرْيَة، والظهرانُ اسم الوادي، وعُكَاظ، وتُرَبَةُ، وتَبَالة، وبَيْش ـ بفتح الباء ـ هكذا ضبطه الحازمي، وفرّق بينه وبَيْن بَيْش الذي من مخاليف اليمن، والجحفة والمهجرة وكُتُنَةُ والسَّراة.

والتهامِيَّة: ضَنْكَان ـ بالضاد المعجمة ـ وعشم، وعَكٌ، ورُهَاط، ووادي نَخْلَة، وعُسْفان.

ولها سواحل، وهي جُدَّةُ مدينة عامرة آهِلة، بها منازل متقنة البناء وحصن، وبينها وبين مكة مرحلة كبيرة، لا بُدَّ لسالكها أن يبيت بمكان يُسَمَّى حَدَّة ـ بالحاء المهملة ـ وحث، وحَلْي، ويُسَمَّى حَلْيَ بن يعقوب، ينزل الناس بها في أَخْصَاص، والسُّوَيْق (؟) وهي خراب ليس بها ساكن في عصرنا، والسُّقْيَا وهي مَرْسَى لا غير.

قال العلامة الفاسيُّ المؤرِّخُ: مكة المشرفة بلدة مستطيلة كبيرة، تسع من الخلائق ما لا يحصيهم إلاَّ اللّهُ تعالى، في بطن واد مُقَدَّس، والجبال محدقة بها، كالسُّور لها[١].

وذرع مكة ـ شَرَّفها الله تعالى ـ من باب المعلاة إلى باب الماجن أربعة آلاف ذراع، وأربع مئة ذراع واثنان وسبعون ذِراعاً ـ بتقديم السين على الباء ـ بذراع اليد، وذلك على خط الرَّدْم والمسعى وسوق العلاَّفة، ومن باب المعلاة إلى الشُّبَيْكَة مثل ذلك بزيادة مئتي ذراع وعشرين ذراعاً باليد وذلك في الطريق المشار إليه[٢].

ومن الجبال المحدقة بمكة المشرفة أَخْشَبَاها، وهما أبو قُبَيْس والأَحمر المقابل له وقيل: أبو قيس وقُعيقعان، والأَخشب الجبل الغليظ، وفي تسميته أقوال: أحدها أنه مُسَمَّى باسم رجل من إياد، وذكر الوراق أنه يقال له أبو قبيس وقابوس وشيخ الجبال[٣].

وبمكة أبنية كثيرة، وعين جارية وآبار غالبها مُسَبَّل، وبرك مسبلة وثلاث حمامات وكان بها ستة عشر حماماً[٤].

ولمكة أسماء كثيرة، قال صاحب «مسلاة الحزن»: بكة بالباء: لأَنها تَبُكُّ أعناقَ الجبابرة أي تُذِلُّها.

وقيل: لأَن بعضهم يصلي ويَمُرُّ بين يَدَيْ بعض.

وقيل: لازدحام الناس في الطواف يَبُكُّ بعضهم بعضاً، وقيل: إنَّ الباء تبدل من الميم، كضَرْبِ لازمٍ وضرب لازب.

---

(١) انظر: العقد الثمين [١/٢٨].

(٢) انظر: العقد الثمين [١/٢٩].

(٣) انظر: العقد الثمين [١/٢٩].

(٤) انظر: العقد الثمين [١/٢٩].

وقال إبراهيم النخعي ويحيى بن أبي القاسم: بكة اسم لموضع البيت، ومكة للقرية.

وقال زيد بن أسلم ومجاهد: بكة اسم للكعبة وللمسجد، ومكة اسم لما حوله.

وقال يحيى بن أبي القاسم: بكة اسم للحرم كله، وقيل: بالباء للكعبة، وسميت مكة لأَنها تمكُّ الذنوب، أي تذهب بها.

وقيل: لقلة مائها.

وقيل: لأَن الناس تَؤُمُّها من كل مكان، كأَنها تجذبهم إِليها.

وقيل: لأَنها تمكُّ الجبار والفاجر ومَن ظلم فيها، أي تهلكه وقيل: تجهد في أهلها.

ومن الخواص: إِذَا كُتِبَ على الجبين بالدم: مكة وسط الدنيا، والله رؤوف بالعباد - وفي لفظ آخر - وكتب بعدها ثلاث دالات على هذه الصفة، انقطع دَمُ الرُّعاف.

وسُمِّيتْ أُمَّ القرى لأَنها أقدمها وأعظمها شأناً.

وقيل: لأَن فيها بيت الله. واسمها البلد، والبلد في اللغة صدر القرى.

واسمها القرية، والقرية القديمة، وقرية الحمس، والبلدة، والبلد الأَمين، والبلد المأمون، والبلد الحرام لحرمتها، وبلد الله لإِظهاره لها، وخِيرة الله لاختيارها لِبَيْته، وفاران عن ياقوت الحموي، وصلاحِ كَقَطَامِ، وصلاحٌ بالتنوين، والسلام والسلامة لأَمْنِها، والعذراء، ونادر - بالنون والباء - ونادِرة، والوادي، والبحر، والباسَّة لأَنها تَبُسُّ مَنْ أَلْحَدَ فيها أي تحطمه، والنسَّاسة، والنسناسة في معناه، أي تنسُّهُ وتطرده، وقيل: لقلة مائها، والنَّسُّ اليُبْس، وسبوحة، وكَوْثَى، والعرش، والعريش، والعروش، والقادس، والمقدسة، والقادسية، من التقديس وهو التطهير من الذنوب، والرأس لشرفها، والطيبة لطيبها، والحرم، والمسجد الحرام لقوله عزّ وجل: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١] والمعطشة، وبَرَّة والرِّتاج، والناشة - بالنون والشين المشدَّدتين - أي تَنُشُّ مَن يُلْحد عنها في الدنيا والآخرة، والنَّشاشة من معناه، والسيل، والعروض، والثنية، والمحرمة، والحرمة - بالضم والكسر - وحرم الله، وقيل: لأَن الله تعالى لما خاطب السموات والأَرض بقوله: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] أول مَن أجابه أرض الحرم فلذلك حَرَّمها؛ ذكره السُّهَيْليُّ: والتايبة، وبساف، والمكان، ومَعَاذ، فمن ذلك ثمانية أسماء في القرآن سماها بها الرحمٰن، تنبي بعلوِّ الشأن، وهي بكة ومكة والبلد والبلدة والبلد الأَمين والقرية

وأم القرى ومعاذ، وقيل: إنَّ لها من الأَسماء: قرية النمل، ونقرة الغراب والله أعلم بالصواب، وأما كُنَاها فأُمُّ رحم، وأم راحم، وأم الرحمٰن، وأم صُبْح، وأم كَوْثَى، وكثرة الأَسماء تدل على شرف المسمَّى، فهي ذات الأَسماء والكُنَى والأَلقاب.

وبها الكعبة الشريفة ذات الخال والسِّرّ، وَرَبَّةُ الوشاح، والْبُرْقُع والنِّقَاب. قال الله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧] الآية ورفعها على سائر بيوته إلى المحل الأَسْنَى، وفَضْلُهَا لا شك فيه ولا نزاع، إذ هو ثابت بالكتاب والسنّة والإجماع، وهي البيت العتيق سمي به لأنه أُعْتِقَ من الجبابرة في سالف الزمان، أَو لأَنه أُعْتِق من الغرق في الطوفان، أو لكرمه على الله، أو لأنه لم يَجْر عليه ملك أحد من خلق الله، أو لأَنه خُلِق قبل الأَرْضِ بأَلفي عام.

وقال أبو بكر الواسطيُّ رحمه الله: إنما سُمِّي عَتيقاً لأَنه مَن طاف به صار عتيقاً من النار:

طُوبَى لِمَنْ طافَ بالْبَيْتِ الْعَتِيْق وَقَدْ لَـجَـا إِلَـى الله فِـي سِـرٍّ وَإِجْـهَـار
فَكُلُّ مَنْ طَافَ بالْبَيْتِ الْعَتِيْق نَجَا حَـقًّـا وَقَـدْ رَاحَ مَـعْـتُـوْقـاً مِـنَ الـنَّـار

والعتيق النجي من العيوب، ولذلك سمي به الصدِّيق رضي الله عنه، وسُمِّيَتِ البِكْرُ عاتقاً لأَنها ناجية من الافتضاض، وبه سمي العتق لنجاة العبد من الاسترقاق، وفي الآخرة من النار.

وذكر في «الشِّفَا» أنَّ كِنانة قتلوا رجلاً وأضرموا عليه النار فلم تعمل فيه، وبقي أبيضَ البدن، فقيل: لعله حجَّ ثلاث حجج قالوا: نَعَمْ، فقد روي أنه مَنْ حجَّ حجة أَدَّى فرضه ومَن حجَّ ثانية دايَنَ ربَّه، ومَن حجَّ ثلاث حجج حرم الله شعره وبشره على النار، وقد ذكرنا ذلك أيضاً في أول المؤلَّف.

وسُمِّي بالبيت الحرام، وبيت الله، وقبلة الإسلام، جعله الله قياماً للناس، ودعامةً للدين وأساس، وفرض الحجَّ إليه على كل مسلم، وأوجب عليه أن لا يدخل مكة إلا وهو محرم، شَرَّفَهُ بإضافته إلى نفسه، كما نطق به الكتاب، وجعل زيارته حجاباً بين العبد والعذاب، فمَن حجَّه أو زاره، مَحَا الله ذنوبه وأوزاره.

قال علي رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ للعبادة ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ أي كثير الخير والبركة والسعادة ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ حُفِظ من المشركين ﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩٦] أَثَرُ قدمه في الصخر، وبقاؤه إلى آخر الدهر.

قيل: الناظر في الكعبة كالمجتهد في العبادة في غير مكة من البلاد.

وروي: أنه يَعْدِل عبادة سنة، وأنَّ مَن نظر إليها خرج من ذنوبه كيوم ولدته أُمُّهُ(١).

روي عن النبي ﷺ أنه قال: «تُفتح أبواب السماوات وتُستجاب دعوة المسلم عند رؤية الكعبة»(٢):

قِفُوا واْجْتَلُوا مِنْ كَعْبَةِ الله مَنْظِراً ... فَمَا لِفَوَاتٍ مِنْهُ فِي الدَّهْرِ تَعْوِيْضُ
وَقَدْ لَبِسَت سُوْدَ اللِبَاس تَوَاضُعاً ... وكُلُّ لَيَالِينَا بِأَنْوَارِهَا بِيْضُ

وعن عطاءٍ قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: النظر إلى الكعبة محض الإيمان.

وعنه رضي الله عنه قال: النظر إلى البيت عبادةٌ، والناظر إلى البيت كمنزلة الصائم القائم، الدائم المخبت، المجاهد في سبيل الله تعالى.

وعن سعيد بن المسيب رحمه الله قال: مَنْ نظر إلى الكعبة إيماناً وتصديقاً خرج من الخطايا كيوم ولدته أمه.

وقيل:

يَا كَعْبَةَ الله إنَّ رَبِّي ... آيَاتُهُ فِيكِ بَيِّنَاتْ
وَحَيْثُ مَا كُنْتِ يَا مُنَايَ ... فَلِي إِلَى وَجْهِكِ الْتِفَاتْ

وقال غيره:

يَا كَعْبَةَ الْحُسْن كَمْ مِنْ عَاشِقٍ قتِلا ... شَوْقاً إِلَيْكِ وَرَامَ الْوَصْلَ مَا وُصِلاَ
يُمْسِي ويُصْبحُ مَحْزوناً وَمُكْتَئِباً ... وَيَهْجُرُ الأَهْلَ والأَوْطَانَ والطَّلَلاَ
لَوْلاَكِ مَا سارَتِ الرُّكْبَانِ مِنْ طَرَب ... كَلاً وَلاَ قَطَعَتْ سَهْلاً وَلاَ جَبَلا
وَلاَ رَأَتْ كُلَّ ضِيقٍ فِيْكِ مُتَّسِعاً ... كَلاً وَلاَ خَفَّ عَنْهَا كُلُّ ما ثَقُلاَ
بَاعُوا النُّفُوسَ رَخِيصاً في هَوَاكِ وَمَا ... تَغْلُو النُّفوسُ بوَصْلِ مِنْكِ إِنْ حَصَلاَ

---

(١) وأخرج الديلمي عن عائشة: النظر إلى الكعبة عبادة، والنظر إلى وجه الوالدين عبادة، والنظر في كتاب الله عبادة. انظر: كشف الخفاء [٢/٤٣٦]، [٢٨٥٨].

(٢) روي عن أبي أمامة مرفوعاً «تُفتح أبواب السماء ويستجاب الدعاء في أربعة مواطن: عند التقاء الصفوف في سبيل الله، وعند نزول الغيث، وعند إقامة الصلاة، وعند رؤية الكعبة» عزاه الحافظ الهيثمي للطبراني قال: وفيه عفير بن معدان وهو مجمع على ضعفه. انظر: مجمع الزوائد [١٠/١٥٨].

ومن أسماء البيت: الكعبة، سمّي بذلك لتكعبه قبل هدمه، وقيل لتربيعهِ، قاله مجاهد، وهي لغة عربية وقال مقاتل: لانفرادها عن الأبنية وقيل: لارتفاع قدرها.

وبادر ومادر: لَمْ أَرَ لَهُمَا ضبطاً، والبنية وبنية إبراهيم، والدوار، والبيت القديم، وقبلة الإمام، والمسجد الحرام لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ [البقرة: ١٤٤، ١٥٠] وغير ذلك من الأسماء وهو أعظم من أن يُشرَّف بها وله أسماء أضافها الله تعالى إلى نفسه، فصار أجلَّ محلِّ قدسه، بدليل قوله تعالى في الكتاب المبين ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [البقرة: ١٢٥] وهو أول بيت وُضِع، وأَجَلُّ بيت رُفع، أي عُظِّم، مَلْجأُ الخائف، وملاذ الطائف، وحِمى الباد والعاكف، قُبلت عنده توبة آدم، وحجَّته الأَنبياء والرسل ومحمد ﷺ.

ومن آياته وشرفه ما ذكره ابن هشام في «سيرته»: أنَّ الماء لم يعمل في البيت المعظم حين الطوفان، ولكنه قائم حولها وبَقِيتْ هي في هذا الماء. وأنَّ نوحاً قال لأَهل السفينة وهو يطوف بالبيت: إنكم في حرم الله وحول بيته فأَحرموا، ولا يَمَسنَّ أحدٌ مرأة، وجعل بينهم وبين النساء حاجزاً فتعدَّى حامُ فدعا نوح أن يُسَوِّدَ لَوْنُ بَنِيه.

وقيل: في سبب دعوة نوح على حام غير هذا.

وذكر يحيى بن سلام عن ابن عباس قال: أول مَن عاذَ بالكعبة حوت صغير من حوت كبير، فعاذ منه بالكعبة، وذلك أيام الطوفان.

ومنها: كونه بواد غير ذي زَرْع، والأَرزاق من كل قُطرٍ تُجْلب إليه من قريب ومن بعيد.

ومنها: أنَّ الطير لا يعلوه وإن علاه طائر فإنَّما ذلك لمرض به يستشفى بالبيت.

ومنها: ما ذكره أبو القاسم العتيقي من المالكية قال: سمعت أنَّ الحرم يعرف بأَن لا يجيء سيل من الحلِّ فيدخل الحرمَ، وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: فُضِّلَتْ مكة المدينة من وجوه:

أحدها: وجوب قصدها للحج والعمرة وهما واجبان لا يقع مثلهما في المدينة.

الثاني: إن المدينة فُضِّلَتْ لإقامته ﷺ فيها بعد النبوة عشر سنين فمكة أقام فيها بعد النبوة ثلاث عشرة أو خمس عشرة.

الثالث: إنْ فُضِّلَته المدينة لكثرة الطارقين من عباد الله الصالحين فمكة أكثر طارقاً، فيها سعى من الأَنبياء والمرسلين آدم فمَن دونه من الذين حجُّوها.

الرابع: التقبيل والاستلام ضرب من الاحترام وهما مختصان بالركن، ولم يوجد مثل ذلك في المدينة.

الخامس: أنَّ الله تعالى أوجب علينا استقبالها عند الحاجة.

السادس: أن الله تعالى حرّم علينا استدبارها واستقبالها عند الحاجة.

السابع: أن الله تعالى حرّمها يوم خلق السموات والأرض.

الثامن: أن الله تعالى بَوَّأَهَا لإبراهيم وابنه إسماعيل، ومولداً لسيد المرسَلين صلوات الله عليهم أجمعين.

التاسع: أن الله تعالى جعلها حرماً آمِناً في الجاهلية والإسلام.

العاشر: لم يدخلها أحد إلا بحج وعمرة وجوباً أو ندباً.

الحادي عشر: قال فيها عزّ وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [التوبة: ٢٨].

الثاني عشر: أنه اغتسل لدخولها فهو مسنون. انتهى.

أنشدني شيخنا علامة العصر شرف الدين موسى الأرميوني الحطابي، المالكي من لفظه لنفسه في سنة ثلاث وثلاثين وتسع مئة قال: قلت بمكة في حال الطواف:

رُجُوعاً إِلَى المَوْلَى فهذَا زَمَانُهُ ... وَطَرْحاً عَلَى الأَبْوَاب هَذَا مَكَانُه
وَطُفْ حَوْلَ بَيْتِ الله لِلْعَفْو رَاجياً ... وتُبْ وَاسْأَل الْغُفْرَان هَذَا أَوَانُه
فَمَنْ جَاءَ هَذَا الْبَيْتَ يُرْجَى قَبُولُهُ ... ومَنْ خَافَ مَكْرُوهاً فَفِيْه أمانُهُ
لما أَنَّهُ بَيْتُ الْكَرِيمِ ومَنْ أَتَى ... فِنَاءَ كَرِيمٍ لَمْ يَفُتْه حنانه

ومن آداب الطواف إخلاص النية، وحفظ اللسان عما يؤدي إلى النقصان، وأن لا يميز محادثة المخلوق، والميل إليه، والاشتغال به عن ذكر خالقه، وأن لا يلتفت إلى غيره وهو بين يديه، فإن ذلك أبعد عن الربح، وأقرب إلى الخسران.

وقال بعض أهل العرفان:

يَا مَنْ يَطوفُ ببَيْتِ الله بالْجَسَدِ ... وَالْجسْم فِي بَلَدٍ والرُّوْحُ في بَلَد
مَاذَا فَعَلْتَ ومَاذَا أَنْتَ فَاعِله؟ ... مُبَهْرجٌ فِي التُّقَى لِلْوَاحِدِ الصَّمَدِ
إنَّ الطَّوَافَ بلاَ قَلْبٍ وَلاَ بَصَرٍ ... على الْحَقِيقَة لا يَشْفِي مِنَ الْكَمَدِ

وذكر الإمام الْغَزَاليُّ رحمه الله تعالى في «الإحياءِ» في فضل الإقامة بمكة

كراهتها عن وُهَيْب بن الورد المكي رحمه الله تعالى قال: كنت ذات ليلة عند الكعبة في الحِجْر أُصَلِّي، فسمعت كلاماً بين الكعبة والأَسْتَار، يقول: إلى الله أشكو ثم إليك يا جبريل ما أَلْقَى من الطائفين حولي من تفكههم في الحديث، ولغوهم ولهوهم، لئن لم ينتهوا عن ذلك لأَنْتَفضنَّ انتفاضةً ترجع كلُّ حَجَرٍ مني إلى الجبل الذي قلع منه. انتهى.

يَطوفون بالْبَيْتِ الْعَتِيْق تَقَرُّباً إِلَيْكَ وَهمْ أَقْسَى قلوباً مِنَ الصَّخْر

وفي قوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥] قال الرازي: فيه دلالة على أنَّ الطواف للغرباء أفضل، والصلاة للمقيمين أفضل.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله ليباهي بالطائفين الملائكة»[١] وقال عليه الصلاة والسلام: «أكرم سكان السماء الذين يطوفون حول بيته»[٢].

وقال رسول الله ﷺ: «مَن طاف أُسبوعاً في المطر غفر له ما سلف من ذنوبه»[٣].

وهل يُمنع الشرب من ماء السيل النازل من الميزاب تحت (؟) الْحِجْر، لأنه من ذَهَبٍ، واستعماله له حرام؟! الظاهر الجواز لأنه إذا تلقَّاهُ بيده وشرب، فقد خرج عن حكم الشرب في آنية الذهب، كما قالوا فيمن أراد استعمال ماءِ الورد من مَرَشٍّ ذَهَبٍ أو فضة أن يسكبه في يده ثم يستعمله منها.

وأنشدني شيخنا السيد الشريف موسى الحطابي الأَرميوني المالكي من لفظه لنفسه حالة طوافه بالبيت:

ظَفِرْتُ مِنَ الطَّوَاف ببَيْت رَبِّي بأَوْقَاتٍ لَهَا في الْقَلْب حَظْوَهْ
فَمَنْ لي بالْخُلوصِ ولَوْ لِشَرْطٍ؟ وَمَنْ لي بِالْقَبُولِ وَلَوْ لِخَطْوهْ

أَيضاً لنفسه:

بِالْوِرْدِ مِنْ مَنْهَلِكُمْ مَا ازْدَدْتُ إِلاَّ عَطَشَا

---

(١) تاريخ أصبهان [٢/ ٢٦٢].

(٢) لم أجده.

(٣) انظر: التذكرة [٧٢].

وَحُـبُّـكُـمْ أَقْـلَـقَـنـي وَقَـدْ حَشَا مِنِّي الْحَشَا
وَمَـا تَـشَـاؤُوا فَـافْـعَـلُـوا فِـي عَـبْـدِكُـمْ لاَ مَـا يَـشَـا
لاَ يَـنْـثَـنِـي عَـنْ حُـبِّـكُـمْ كَـمَـا عَـلَـيْـهِ قَـدْ نَـشَـا
يَـا رَب صَـلِّ دَائِـمـاً عَـلَـى أَجَـلِّ مَـنْ مَـشَـى
مُـحَـمَّـدٍ وَصَـحْـبِـهِ مَـا دَامَ صُـبْـحٌ وَعِـشَـا

وحَرَمُ مكّة ـ شرَّفها الله تعالى ـ وما أَطاف بها، وأَحاط بها من جوانبها، جعل الله حكمه حكمها في الحرمة، تشريفاً لها. وسبب تحريمه على ما قيل: إنَّ آدم عليه السلام خاف على نفسه حين أُهْبط إِلى الأَرض فبعث الله تعالى ملائكته لحراسته، فوقفت في موضع أنصاب الحرم من كل جانب، فصار ما بين آدم وموقف الملائكة حَرَماً وقيل غير ذلك في سبب تحريمه.

وقال العلامة البدر الزركشيُّ الشافِعي في كتابه «إِعلام الساجد»: إِن أَول مَن نصب حدود الحرم إِبراهيم عليه الصلاة والسلام، ثم إِنَّ قريشاً قلعوها في زمن النبي ﷺ فشقَّ ذلك عليه، ثم إِنهم أَعادوها، وجدّدها النبي ﷺ.

قال البزار في «مسنده» حدثنا بشر بن معاذ ومحمد بن موسى المريسي قالا: حدثنا فضيل بن سليمان، قال: حدثنا عبد الله بن عثمان بن خُثيم عن محمد بن الأَسود بن خلف عن أَبيه أَنَّ النبي ﷺ أَمر بأَن تجدد أَنصاب الحرم عام الفتح، وقال مالك: وعمر بن الخطاب هو الذي نصب معالِمَ الحرم بعد أَن بحث عن ذلك.

وحدُّهُ من طريق المدينة يقال: على ثلاثة أَميال من مكة، وقيل: أَربعة، ومن طريق اليمن على ستة أَميال، وقيل: سبعة عند أضاءَةِ لِبْنٍ، ومن طريق الطائف على طريق القرفة العِراق على ثنية جبل المقطع على سبعة أَميال، وقيل: ثمانية، ومن طريق الْجِعرانَةِ في شعب أَبي عبد الله بن خالد على تسعة أَميال، ومن طريق جُدَّة بمنقطع العسكر (؟) على عشرة، وقال مالك: والحديبية إِلى الحرم، وقيل غير ذلك.

وقال ابْنُ سراقة في كتابه «الأَعداد»: والحرم في الأَرض موضع واحد، وهو مكة وحولها ومسافة ذلك ستة عشر ميلاً في مثلها، وذلك بَرِيْدٌ واحد وثلث على الترتيب، وعن مجاهد أَنَّ هذا الحرم حرم حذاه من السموات والأَرضين السبع، وصحّ عن رسول الله ﷺ أَحاديث تقتضي أن الله عزّ وجل حرّم مكة يوم خلق السموات والأَرض وأَنه لا يُخْتَلى خلاها، ولا يعضد شجرها ولا ينفُر صيدها، ولا تلتقط لقطتها إِلا لِمُعَرِّف. قوله: ولا يعضد شجرها، هل يمنع أَخذ السواك من شجر الحرم؟ فنقل

عن الشافعي رحمه الله أنه جوَّزَ أَخذ السواك من فروع الشجرة كما جَوَّزَ أَخْذَ ورقها وثمرها للدواء إِذا كان لا يغيرها بل يخلف، والإِجماع على إِباحة الإِذْخِرِ، لورود استثنائه في الخبر، ومن تنفير صيد مكة أن يُصاح عليه فينفر، وقد منع الله تعالى الصيد في الحرم، وقطع الشجر وجعله حرماً آمِناً لا يُخْتَلَى خلاه، ولا يعضد شجره ولا صيده ينفر، وقال تعالى في أَشرف كتبه: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠].

وعن مجاهد قال: كان يحجُّ من بني إِسرائيل مئة أَلف فإِذا بلغوا أَنصاب الحرم خلعوا نعالهم ثم دخلوا الحرم حفاةً، تعظيماً له.

فإِن قيل: ما الحكمة في تحديد الحرم؟ أُجيب بوجوه:

أَحدها: التزام ما ثبت له من الأَحكام وتبيين ما اختص به من البركات.

الثاني: أَن الْحَجَرَ الأَسود لما أُتِيَ به من الجنة كان أَبيض مستنيراً أَضاءَ منه نور فحيث ما انتهى ذلك النور كانت حدود الحرم، وهذا معنى مناسب والأَمر فوق ذلك.

الثالث: أَنه أَنوار موضوعة من العالم الأَعلى رباني، وسِرٌّ رُوْحاني، توجه إِلى تلك البقاع وتذكر أَهل المشاهدات أَنهم يشاهدون تلك الأَنوار واصلة إِلى حدود الحرم، ولها منار ينبع منها، ويكون عنها في الحرمين والأَرض المقدسة.

وفي «غريب القرآن» أَنَّ أُم القرى أَجل البلاد وهي مكة.

وفي الحديث أَن خير بلدة على وجه الأَرض وأَحبها إِلى الله تعالى مكة[١].

وفي آخر: مكة خير بلاد الله[٢].

وفي غيره: وأحب أَرض الله إِلى الله[٣].

وروي أَن النبي ﷺ لما خرج منها وقف على الْحَزْوَرة فاستقبل الكعبة وقال: «والله إِني لأَعلم أَنك أَحب بلاد الله إِليَّ، وأَحب أَرض الله إِلى الله عزّ وجل، وأَنك خير بقعة على وجه الأَرض وأَحبها إِلى الله عزّ وجل، ولولا أَن أَهلك أَخرجوني منك ما خرجتُ»[٤].

---

(١) لم أجده.

(٢) لم أجده.

(٣) عزاه الحافظ الهيثمي لأبي يعلى قال: ورجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد [٣/٢٨٦].

(٤) أخرجه الترمذي في المناقب [٥/٧٢٢] ح [٣٩٢٥]، وقال: حديث حسن غريب صحيح. وابن ماجه في المناسك [٢/١٠٣٧] ح [٣١٠٨]، والدارمي في المناسك [٢/٣١١] ح [٢٥١٠].

وروي أَنه لما عاد رسول الله ﷺ إِلى مكة استقبل الكعبة وقال: «إِنك لخير أَرض الله تعالى، وأَحب بلاد الله إِليَّ، ولولا أَنِّي أُخْرِجْتُ منك ما خرجت».

هٰذِي الدِّيَارُ التي قَلْبُ الْمُحِبِّ بهِ ... شَوْقٌ إِلَيْهـا وَتـذْكَـارٌ وأَشْجَانُ
وأَنَّـةٌ وحَـنِـيْـنٌ كُـلَّـمَـا ذُكِـرَتْ ... وَلَـوْعَـةٌ وَشَـجًـى مِـنْـهُ وأَحْـزَانُ

وأَخرج الترمذيُّ رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنه أَن رسول الله ﷺ قال لمكة: «ما أَطيبك من بلد وأَحبك إِليَّ ولولا أَن قومي أَخرجوني منك ما سكنت غيرك»[(١)].

وأَخرج ابن ماجه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: رأَيت رسول الله ﷺ بالكعبة وهو يقول: «ما أَطيبك وأَعطيب رائحتك، ما أَعظمك وأَعظم حرمتك»[(٢)].

وهي في الفلك المتوسط من الدنيا، والشمس في الفلك الرابع المتوسط، والمعدة في الفلك الرابع من الأَنفس، والشمس ممدة لما فوقها وما تحتها، وكذلك المعدة ممدة لما فوقها وما تحتها من الجسد، ووسط كل شيء أَحسنه كما قيل:

لَوْ لَم يَكُنْ وسط الأَشياءِ أَحْسَنَهَا ... ما اخْتَارَتِ الشَّمْسُ مِنِ أَفْلاكِهَا الْوَسَطَا

وروي عن عكرمة أَنه قال: في ليلة النصف من شعبان يُبْرَمُ أَمر السنة وتنسخ الأَحياء من الأَموات، ويُكْتب الحاج فلا يزاد ولا ينقص منهم أَحد.

أَحِـنُّ إِلَـى زِيَـارَةِ حَـيِّ لَـيْـلَـى ... وَعَـهْـدِي مِـنْ زِيَـارَتِـهـا قَـرِيْـبُ
وكُنْـتُ أَظُنُّ قُرْبَ الـدَّار يُطْفِـي ... لَـهِـيْـبَ الـشَّـوْق فـازْدَادَ الـلَّـهِـيْـبُ

ومن خصائص الحرم أَنه لا يدخله أَحدٌ إِلا متواضعاً خاشعاً متذللاً، مكشوف الرأْس متجرداً عن لباس الدنيا، بخلاف غيره من البقاع ومنها: أَنه سبحانه وتعالى أَقسم به في موضعين من كتابه فقال: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴿٣﴾﴾ [التين: ٣] وقال: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴿١﴾﴾ [البلد: ١] أَي أَقسم لأَن لاَ في هذا الموضع عند النحويين صِلَةٌ، ومنها: أَنه سبحانه وتعالى أَضافه لنفسه في قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: ٢٦] وناهِيك بهذه الإِضافة المنوهة بذكره، المظعمة لشأْنه، الرافعة لقدره، وهي السرُّ في إِقبال قلوب العالمين عليه، وعكوفهم لديه.

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب [٥/٧٢٣] ح [٣٩٢٦] وقال: حديث حسن غريب.
(٢) أخرجه ابن ماجه في الغش [٢/١٢٩٧] ح [٣٩٣٢].

أَطُوفُ بِه والنَفْسُ بَعْدُ مَشُوقَةٌ إِلَيْهِ وَهَلْ بَعْدَ الطَّوَاف تَدَانِي
وأَلْثُمُ مِنْهُ الرُّكْنَ أَطْلُبُ بَرْدَ مَا بِقَلْبِيَ مِنْ شَوْقٍ وَمِنْ هَيَمَان
فَوَاللَّهِ مَا أَزْدَادُ إِلاَّ صَبَابَةً ولاَ الْقَلْبُ إِلاَّ كَثْرَةَ الْخفقَان
فيَا جنَّةَ الْمَأْوَى ويَا غايَةَ الْمُنا وَيَا مُنْيَتِيْ مِنْ دُوْن كُلِّ أَمَانِي
أبت غلباتُ الشَّوْق إلاَّ تقرُّباً إِلَيْكِ فمَا لِي بالْبعَادِ تدَانِي
وما كان صَبْري عَنْكِ صَدَّ ملامة وَلي شاهِدٌ مِنْ مُقْلتي ولِسَانِي
دَعَوْت اصْطِبَاري عَنْكِ بَعْدُ أَو البكا فلبَّى الْبُكا والصَّبْرُ عَنْكِ عَصَانِي
وَقدْ زعَمُوا أَنَّ الْمُحِبَّ إذا نأى سَيَبْلى هَواهُ بَعْدَ طُول زمَان
ولَوْ كان هذا الزَّعْمُ حقًّا لكان ذا دَوَاءَ الْهوَى في الناس كُلَّ أَوَان
بَلى إِنَّه يبْلى التَّصَبُّرُ، والْهوَى بغَيْر زمَام قائِد وعِنَان
أَتاكَ عَلى بُعْدِ الْمَزار وَلَوْ وَنتْ مَطِيَّتُهُ جَاءَتْ بِهِ الْقَدَمَان

ومنها: أنه سبحانه وتعالى عطف القلوب والأَفئدة إليه دون غيره من البلاد، فهي للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد، فهو أَولى بقول القائل:

مَحَاسِنُهُ هَيُولَى كُلِّ حُسْنٍ وَمَغْنَاطِيْسُ أَفْئِدَةِ الرِّجَال

ولهذا أَخبر سبحانه وتعالى أنه مَثابة للناس، أَي يثوبون إليه على تعاقب الأَعوام من جميع الأَقطار، ولا يقضون منه وطراً بل كلما قربوا منه ازدادوا شوقاً.

لاَ يَرْجِعُ الطَّرْفُ عَنْها حِيْن يُبْصِرُهَا حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهَا الطَّرْفُ مُشْتَاقَا

والسِّرُّ في هذا التَّوَقَان دعاءُ الخليل عليه السلام في قوله: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وما يروى أَنَّ الله تعالى يلحظ الكعبة في كل عام لحظة في ليلة نصف شعبان. فعند ذلك تَحِنُّ إليه قلوب المؤمنين.

وقيل: سبب الشوق أنه أَخذ الميثاق من بني آدم، ثم من بنيهم، وهذا متفرّع إلى «حب الوطن من الإيمان»[١].

---

(١) قال الصاغاني: موضوع، وقال في المقاصد: لم أقف عليه، ومعناه صحيح. انظر: كشف الخفاء للعجلوني [١/ ٤١٣ ـ ٤١٤].

ومنها روي في حديث: وعد هذا البيت أَن يحجه كل سنة ست مئة ألف، فإن نقصوا أَكملهم الله بالملائكة[١].

ومنها: أَنه روي أَن الكعبة تُحشر كالعروس المزفوفة، ومَن حجّها تعلّق بأَستارها حتى تدخله الجنة[٢].

ومنها: أَنها منذ خلقت لم تَخْلُ من طائف يطوف بها من جنٍّ أو إِنسٍ أو ملكٍ. وعن بعض السلف أَنه خرج في يومٍ شديدِ الحرِّ فرأى حيَّةً تطوف وحدها. ذكره ابن الصَّلاح من الشافعية.

ومنها: أنها أَرْضٌ هي مهبط الوحي والتنزيل، وموطنٌ تردَّدَ فيه جبريل، ومقرُّ السيدة هاجر، ومنشأُ ولدها نبي الله إسماعيل، ومزار أَبيه إِبراهيم الخليل، إِلى أَن أَمره الرب الجليل ببناء بيته الحرام، وهو أَول بيت وُضع للأَنام، فتحيّر أَو تخيّر مكاناً يبني فيه فأَرسل الله له سحابةً تهديه، وأَمره أَن يحفر الأَساس حَدَّ ظِلِّها الظَّليل، وكان المعين له في البناء جبريل وميكائيل، وأَنزل من الجنة المقام الذي فيه آيات بينات، فكان يرتفع به إِلى حيث يبني إِلى أَن كمل البيت بغير مراقي ولا (أَساقيل) وأَذَّنَ عليه في الناس بالحج فأُجِيْبَ من الأَصلاب والأَرحام بالتلبية في أَقوى دليل.

ثم الحجر الأَسود الذي هو يمين الله في الأَرض يصافح به مَن أَمَّهُ من عباده، من غير تشبيه ولا تمثيل، يشهد يوم القيامة لمَن وافاه من حقير وجليل، كم قُبَلٌ فيه يعقبها عليه سُجود للعاكفين والوفود، عنده تُسكب العبرات وتذهب الحسرات، أَنزله الله من الجنة أَبيض من اللبن، فسوّدت خطايا بني آدم، ولولا أَن مَسَّهُ المشركون لأَبرأَ الأَكْمَه والأَبرص والأَجذم، ولم تزل هذه الأُمة بخير ما دام فيها، إِلى أَن يرفعه جبريل في آخر الزمان.

وهي أَقرب الأَرض إِلى السماء وأَعلاها، وأَشرف البقاع وأَسماها، جعل بها بيته الذي أَضافه إِلى نفسه، وفضّله على محل قدسه، فمَن عظَّمه عظم في عينه، ومَن صغَّره صغر في عينه، فيا له من بيت شريف، قالت الملائكة لآدم عليه السلام حين أُهبط من الجنة وحَجَّه: بُرَّ حجُّك يا آدم، قد حججنا هذا البيت قبلك بأَلفي عام.

وأَيُّ بلد وفد إِليه من النبيين والمرسَلين والملائكة المقرّبين، والعلماء العاملين،

---

(١) لم أجده.

(٢) لم أجده.

والأَولياء والصالحين، والإنس والجن، والخلق من سكان السموات والأَرضين، ما وفد لهذا البلد الأَمين، ويكفيه من الشرف الأعلى أَنَّ الله أَمرنا بالصلاة فيه بقوله عزّ وجل: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

وبه سقط رأس النبي ﷺ وأَصحابه السادة الأَعلام، ومنشؤه ومختنه، وموطنه ومبعثه.

ويحفُّ بالكعبة سبعون أَلف ملك على الدوام، ويحجُّ إِليها في كلّ عامٍ في الجاهلية والإِسلام، وتُغفر فيها الذنوب، وتُقبل التوبة ممن يتوب.

المقام بها سعادة والخروج منها شقاوة، ليس بها موضع قدم قلَّ ولا جلَّ إِلا وعلاه ملك مقرّب، أَو نبي مرسَل، مَن مشى فيها على العيون لم يكن مغبون، لو جعل تربها كُحْلاً لكان للعيون جلاء، يضاعف فيها العمل ويسعف بمَأْمُولِهِ كل ذي أَمل، واختص حرمها من الفضل بجمل، لا يدخلها أَحد إِلا بإِحرام من الميقات، ولا يُكره الصلاة فيه في وقت من الأَوقات، ولا يكون الفداء والهدي إِلا فيه، ومَن نذر المشي إِليه لزمه أَن يقتفيه، ولا تلتقط لقطته، ومَن قتل فيه خطأً غلظت ديته ولا يدخله كافر بنص القرآن، ولا يحرم حاج فيه بالعمرة إِلا في صورة الْقِرَان، وحُقَّ لها أَن تعظم عرصَاتها ورحابها، وتلثم ربوعها وقبابها، وتقبل جدرانها، وتنسم نفحاتها، وتمرغ الخدود في أَعتابها، إِذ أَول أَرضٍ مَسَّ جسد النبي ﷺ ترابُها، الإِرادَةُ فيها إِلحاد، فكيف بمَن عدل عن الحق أَو حاد، إِذا كان بمجرد الإِرادة يذيقه الله العذاب الأَليم زيادة، فهل يسوغ لكامل مبارزة ربه بالعصيان في هذا البلد العظيم الشأن، الذي هو محل التوبة وموطن طلب الغفران، أَما يَتَّعِظ بما وعد الله به في التنزيل حيث قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل: ١] إلى آخر الآية. أَما عَلِمَ دعوة إِبراهيم الخليل حيث قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] و﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ١٣٥] وأنه تعالى قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥] وقال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [القصص: ٥٧] وقوله على لسان رسوله: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ [النمل: ٩١] قال عليه السلام: «مَن كان له من نفسه واعظٌ كان عليه من الله حافظ»[1].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية [٧/٣١٨].

وذهب جماعةٌ من العلماء إلى أن السيئات تضاعَف بمكة كما تضاعَف الحسنات، وممن قال ذلك مجاهد وابن عباس، وأَحمد بن حنبل، وابن مسعود وغيرهم لتعظيم البلد(١).

وسُئل ابن عباس عن المقام بمكة فقال: ما لي ولبلد تضاعف فيه السيئات كما تضاعف الحسنات، وحمل ذلك منه على مضاعفة السيئات بالحرم، ثم قيل: تضعيفها كمضاعفة الحسنات بالحرم، وقيل: بل كخارجه، ومَن أَخذ بالعمومات لم يحكم بالمضاعفة، قال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وقال النبي ﷺ: «مَن هَمَّ بسيئة وعملها كُتبت له سيئة واحدة»(٢).

ومن الدليل على العقاب بالْهَمّ بالسيئة وإِن لم يفعلها قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

قال العلامة الزركشي: ولهذا عَدَّى فِعْل الإِرادة بِالباء، ولا يقال: أَردت بكذا إِلاَّ لما ضمنه المعنى بِهَمَّ، فإِنه يقال: هممت بكذا، وهذا مستثنى من قاعدة الْهَمّ بالسيئة وعدم فعلها، كل ذلك تعظيماً لحرمته، وكذلك فعل الله بأَصحاب الفيل أَهلكهم قبل الوصول إِلى بيته.

وقال أَحمد بن حنبل: لو أَن رجلاً همّ أَن يقتل في الحرم أَذاقه الله العذابَ الأَليم، ثم قرأَ الآية.

وقال ابن مسعود: ما من بلدة يُؤَاخذ العبد بالْهَمّ قبل الفعل إِلا مكة، وتلا هذه الآية، وقد كَرِهَ جماعةٌ من السلف المجاورة بمكة، وحكي ذلك عن أَبي حنيفة وغيره من العلماء المحتاطين(٣) لمعانٍ ثلاثة:

أَحدها: خوفاً من التقصير في حرمتها والتبرُّم واعتياد المكان والأُنس به، وذلك يجرُّ إِلى قلة المهابة والتعظيم، ولهذا كان عمر يأْمر الحاجَّ بالرجوع إِلى أَوطانهم، ويمنع الناس من كثرة الطواف بالبيت، وقال: خشيت أَن تُنْتَهك حرمةُ هذا البيت، بخلاف الذي يقدم زائراً، ثم يذهب فإِنه يهاب المكان ويعظمه أكثر من القاطنين، وبمثل هذا نهى السلفُ عن الكلام في ذات الله تعالى.

---

(١) انظر: مناسك النووي [ص٤٤٣، ٤٨٢].

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق [١١/ ٣٣١] ح [٦٤٩١]، ومسلم في الإِيمان [١/ ١١٧] ح [٢٠٤/ ١٢٨].

(٣) انظر: مناسك الشيخ النووي [ص٤٤٣].

[**الثاني**: خوف الملل][1] لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٢٥] أي يثوبون إليه ويترددون مرة بعد أُخرى، لا يقضون منه وطراً.

الثالث: الخوف من ركوب الخطايا والذنوب بها فإن ذلك محظورٌ، وبالأَحرى أَن يورث مقت الله تعالى لشرف الموضع.

وذهب الإمام أَحمد والشافعي وغيرهما إلى استحباب المجاورة بها لما يحصل بها من الطاعات التي لا تحصل في غيرها[2].

وَنَحْنُ الْمَوَالِي في الْبلاد جَميْعهَا وَفي حَيٍّ لَيْلَى مِنْ أَقَلِّ عَبِيْدهَا

وفي الأَزْرَقيِّ أَنَّ الرجل كان يلقى قاتل أَبيه وأَخيه في الكعبة، في الحرم في الشهر الحرام فلا يتعرَّض له.

ومن تعظيمها أَن احتكار الطعام للبيع فيها إلحاد[3]، وهذا يُروى عن عمر وابنه. ومن تعظيمها ما روي عن عمر رضي الله عنه: لأَن أُخْطىءُ سبعين خطيئة برُكْبَةَ أَحبُّ إِليَّ من أَن أُخطىءَ خطيئة واحدة بمكة.

ومن ذلك: أَن الشيخ أَبا عمرو الزجاجي أَحد كبار مشايخ الصوفية رحمهم الله تعالى بمكة، أَقام بها أَربعين سنة، لم يَبُلْ ولم يتَغوَّطْ في الحرم.

وجاء في النجاة من الذنوب بالالتجاء إلى الحرم حديث لجابر فمنه: نجاة أَبي رُغَالٍ والد ثقيف، بما أَصاب قوم ثمود بعقرهم الناقة، فلما خرج من الحرم أُصيب، وهذا الحديث في مسلم وغيره، وعن عبد الله بن عدي بن الحمراء رضي الله عنه أَنه سمع رسول الله ﷺ وهو على راحلته بالْحَزْوَرَة بمكة يقول لمكة: «والله إِنَّك لخير أَرض الله، وأَحب أَرض إِلى الله تعالى ولولا أَني أُخْرِجْت منك ما خرجت» أَخرجه الترمذي وصححه[4]، وأَخرجه ابن حبان في «صحيحه»[5].

ولأَبي عبد الله الفيُّومي:

---

(١) زيادة ليست في الأصل، لعله كما أثبتناها.

(٢) واختار الشيخ النووي الاستحباب إلا أن يغلب على ظنه الوقوع في الأمور المحذورة وغيرها. انظر: مناسك النووي [ص٤٤٣].

(٣) أخرجه أبو داود في المناسك [٢/ ٢١٩] ح [٢٠٢٠] من حديث يعلى بن أمية مرفوعاً.

(٤) في المناقب [٥/ ٧٢٢] ح [٣٩٢٥].

(٥) في الحج [ص٢٥٣] ح [١٠٢٥/ موارد الظمآن].

أَخلاَّيَ في أُمِّ الْقُرَى زَمَنَ الْقِلَى نَفَتْ سِنَتي مُذْ أَثْبَتَتْ خَطَّ عَبْرَتي
فَللّه كَمْ سَحَّتْ مِيَاهُ مَدَامِعي عَلَى فَقْدِ بَطْحَاءِ الْحِجَاز وَمَكَّةِ

قال العلامة الفاسي: والصلاة في المسجد الحرام تفضل على الصلاة في غيره بمئة أَلف[(١)]، وفي بعض الطرق: تفضل بمئة صلاة، وفي بعضها: بألف صلاة[(٢)].

وقد حسب النقَّاش المفسر فضل الصلاة في المسجد الحرام على مقتضى تفضيل الصلاة فيه على غيرها بمئة أَلف صلاة، فبلغت صلاة واحدة في المسجد الحرام عُمْرَ خمسٍ وخمسين سنة وستة أَشهر وعشرين ليلة، وصلاة يوم وليلة وهي خمس صلوات في المسجد الحرام عمر مئتي سنة وسبع وسبعين سنة، وتسعة أَشهر، وعشر ليال، وهذا الفضل يَعُمُّ الفرض والنفل.

وذكر العلامة بدر الدين الزركشي في كتابه «أَحكام المساجد» أَن حرم مكة كالمسجد الحرام في المضاعفة المذكورة وقال: جزم به الْمَاوَرْدِيُّ وتبعه النوويُّ في «مناسكه» ونقله صاحب «البيان» عن الشريف العثماني، وهو بناء على أَن المسجد الحرام في الخبر المراد به جميع الحرم، وفي رواية ابن ماجه «وصلاته بمكة بمئة أَلف»[(٣)] ولا يختص التضعيف بالصلاة، بل وسائر أَنواع الطاعات كذلك، قياساً على ما ثبت في الصلاة.

ونقل عن ابن جرير الطبري وبعضِ الظاهرية أَنه لا يجوز الصلاة في الكعبة لا فرضاً ولا نفلاً، وإِمامنا أَحمد رضي الله عنه منع الفرض وجوَّز النفل[(٤)].

وقال مالك رضي الله عنه: لا يصلي الفرض ولا السنن ويصلي فيها التطوع، فإِنْ صلَّى فيها الفرض أَعاد في الوقت[(٥)].

وحجته قوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤] وهي قبالته، ومَنْ صلَّى في جوف الكعبة لم يقابلْ شطرها لأَنه يكون مستقبلاً للبعض، مستدبراً للبعض، ولا يحصل كلها قبالته إِلا أَن يكون خارجاً عنها، وإِنما جاز ذلك في النافلة لأَنَّ استقبال الكعبة فيها غير واجب.

---

(١) عزاه الحافظ العجلوني لأحمد، وابن ماجه، والطبراني. انظر: كشف الخفاء [٢/ ٣٥].
(٢) أخرجه مسلم في الحج [٢/ ١٠١٣] ح [٥٠٨/ ١٣٩٤].
(٣) أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة [١/ ٤٥٠، ٤٥١] ح [١٤٠٦].
(٤) انظر: المغني لموفق الدين [١/ ٧٢١].
(٥) انظر: الكافي لابن عبد البر [١/ ١٩٩].

ومذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه وأبي حنيفة وغيرهما الجواز فرضاً ونفلاً[(١)].

وقد روى البخاريُّ ومسلم عن بلال أن رسول الله ﷺ دخل البيت وصلَّى فيه ركعتين[(٢)].

وروى أحمد في «مسنده» وابن حبان في «صحيحه» عن ابن عمر أخبرني أُسامةُ بن زيد أن النبي ﷺ صَلَّى في الكعبة بين الساريتين[(٣)].

وروى الدارقطني في سننه عن ابن عباس أنه ﷺ دخل البيت وصلَّى ركعتين[(٤)].

ومذهب إمامنا أحمد رضي الله عنه أنه لا تصح الصلاة على ظهر الكعبة، كما لا تصح في جوفها لفرض، إلا إذا وقف على منتهاها بحيث أنه لم يبقَ وراءه شيء منها[(٥)]، وأما النافلة والنذر فتصح فيها وعليها إذا كان بين يديه شيء منها، شاخص متصل بها، والحِجْرُ منها، وقدره ستة أذرع وشيء، فيصح التوجه إليه والنفل فيه، والفرض فيه كداخلها على المذهب، وقال ابن حامد وابن عقيل من الحنابلة: لا يصح التوجه إلى الْحِجْر، وقاله أبو المعالي في المكي. انتهى. وعن النبي ﷺ قال: «مَن حجّ من مكة ماشياً حتى يرجع إليها كتب الله له بكل خطوة سبع مئة حسنة من حسنات الحرم»، فقال بعضهم لابن عباس: وما حسنات الحرم؟ قال: كلُّ حسنةٍ بمئةِ أَلف حسنة[(٦)].

وروي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن مات بمكة فكأنما مات في سماء الدنيا»[(٧)].

وأما فضل أهل مكة فمن حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: بعث رسول الله ﷺ عَتَّابَ بنَ أَسِيْد على مكة فقال له: «هل تَدْري على مَنْ أبعثك؟ إلى أَهل الله».

---

(١) انظر: المغني لموفق الدين [١/ ٧٢١].

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة [١/ ٥٩٦] ح [٣٩٧]، ومسلم في الحج [٢/ ٩٦٦] ح [٣٨٨/ ١٣٢٩].

(٣) أخرجه مسلم في الحج [٢/ ٩٦٦] ح [٣٩٠/ ١٣٢٩].

(٤) أخرجه الدارقطني في سننه [٢/ ٥٢] باب: صلاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الكعبة.

(٥) انظر: المغني [١/ ٧٢١].

(٦) أخرجه البيهقي في الكبرى [٤/ ٣٣١]، والحاكم في المستدرك [١/ ٤٦٠ ـ ٤٦١]، والطبراني في الكبير [١٢/ ١٠٥].

(٧) لم أجده، والذي وجدته: «مَن مات في بيت المقدس فكأنما مات في السماء» أخرجه البزار عن أبي هريرة. انظر: كشف الخفاء [٢/ ٣٧١].

وفي رواية: «فاستوصِ بهم خيراً»[١] يقولها ثلاثاً.

وفضل مكة ثابت في القرآن العظيم كثير، وفي السنّة الشريفة، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «إن هذا البيت دعامة الإسلام ومَن خرج يَؤُمُّ هذا البيت من حاجٍّ أَو معتمر، كان مضموناً على الله عزّ وجل إِنْ قبضه أَن يدخله الجنة، وإن ردَّهُ أن يردَّهُ بأَجر وغنيمة»[٢].

وللشهاب أَحمد بن أَبي حَجَلة:

سأَلنَاكَ كَشفَ الضُّرِّ في السِّرِّ والْجَهْر ... بحُرْمَة هذا الْبَيْتِ يا مُسْبلَ السّتْر
فحُرْمَتُهُ أَنْتَ العليمُ بقَدْرِها ... ونَحْنُ مَعَ الآباءِ في عَالَم الذَّرِّ

وأَما فضل الحجر الأَسود فكثير وقد قدمت ذكر فضله في مواضع من هذا الكتاب، ونذكر هنا أَيضاً ما تيسّر:

فعن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الْحَجَرَ والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة، طمس الله نورهما ولولا أَن طمس نورهما لأَضاء ما بين المشرق والمغرب» أَخرجه ابن حبان[٣] في «صحيحه» والترمذي[٤].

ومن فضائله أَنه يشهد يوم القيامة لمن استلمه بحق، وفضائله كثيرة، وعن ابن عمر رضي الله عنهما أَن النبي ﷺ قال: «مَسْح الْحَجَر الأَسود والركن اليماني يحط الخطايا حطًّا» أَخرجه ابن حبان[٥].

وأَخرج الترمذي رحمه الله، أَنَّ ابن عمر رضي الله عنهما كان يزاحم على الركنين، فقيل له في ذلك فقال: إِن أَفعل فإِني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ مسحهما كفَّارة للخطايا»[٦].

أَقُولُ وَقَدْ زُوحِمْتُ عَنْ لَثْم أَسْوَدِ ... مِنَ الْبَيْتِ إِنْ تُحْجَب فَمَا السِّرُّ يُحْجَبُ

---

(١) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة [٢/ ١٥١] باب: ما ذكر من أهل مكة أنهم أهل الله عزّ وجل.

(٢) عزاه الحافظ الهيثمي للطبراني في الأوسط، قال: وفيه محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير وهو متروك. انظر: مجمع الزوائد [٣/ ٢١٢].

(٣) في الحج [ص٢٤٨] [١٠٠٤/ موارد الظمآن].

(٤) في الحج [٣/ ٢١٧] ح [٨٧٨]، وقال: حديث غريب. والإمام أحمد في مسنده [٢/ ٢٨٦] ح [٧٠١٦].

(٥) في الحج [ص٢٤٧] ح [١٠٠/ موارد الظمآن].

(٦) أخرجه الترمذي في الحج [٣/ ٢٨٣] ح [٩٥٩] وقال: حديث حسن.

فَـإِنَّـك مِـنَّـا بـالْـمَـحَـلِ الَّـذِي بِـهِ ... مَـحَـلُّ سَـوَادِ الْـعَـيْـن أَوْ أَنْـتَ أَقْـرَبُ

قال الفاسي وغيره: هذا في حق الرجال، وأما النساء فلا يستحب ذلك لهنَّ إلا في خلوة، ويُكره لهنَّ مزاحمة الرجال على ذلك. وللصلاح الصفديّ:

إِلَى سَيِّدِ الأَحْجَار فِي الْحَرَم الَّذِي ... قَضَى الْخَالِقُ الْبَارِي بتعْظِيم شَانِهِ

حَثَثْنَا مَطَايَا الشَّوْق والسَّوْق في الْفَلا ... فَـجَـاءَتْ بِـنَـا إِنْـسَـانَ عَـيْـن زَمَـانِـهِ

وله رحمه الله تعالى أيضاً:

تَـقْـبِـيْـلُ ذَاكَ الْـحَـجَـر ٱلأَسْـوَدِ ... يَـصُـدُّ عَـنِّـي حَرَّ قَـلْـبِي الـصَّـدِي

في الْكَعْبَةِ الْغَرَّاءِ خَالٌ من النَّـ ... ـدِّ عَـلَـى صَـفْـحَـةِ خَـدٍّ نَـدِي

وروي أن الركن اليماني بناه رجل من اليمن اسمه أُبيُّ بن سالم فسمي به. وأنشد فيما يشهد بتسميته:

لـنـا الـرُّكْـن مـن بَـيْـتِ الإِلـه وراثَـةً ... بـقـيَّـةَ مَـا أَبْـقَـى أُبَـيُّ بـن سـالِـم

قال العلامة الفاسي في كتابه «العقد الثمين»: وللكعبة آيات بينات:

منها: بقاء بنائها الموجود الآن وهو لا يقتضي أن يبقى هذه المدة، ومن المعلوم ضرورة أن الريح والمطر إذا تواليا أياماً على بناء خرب، ومن المعلوم ضرورة أن الكعبة المعظمة ما زالت الأرياح العاصفة والأمطار الكثيرة المهولة تتوالى عليها منذ بُنِيَتْ، وإلى تاريخه، ولم يحدث فيها بحمد الله تعالى تغيير أدّى إلى خللها[١].

قلت: وهي إلى زمننا هذا على تلك الصِّحَّة وتماسك البناء، وقد قدّمنا في أول الكتاب عند الاختلاف في عمارة سقف البيت أنَّ بعض العلماء أفتى بأن الكعبة قائمة بيد القدرة ولا يجوز هدم شَيء منها إلا إن سقط بنفسه.

ومن آياتها حفظها ممن أرادها بسوءٍ، وهلاك مَن أرادها بذلك، كما وقع لأصحاب الفيل وغيرهم[٢].

ومن الآيات الظاهرة أن طائرين أقبلا في زمن الجاهلية كأنهما نَعَامَتَان يسيران كل يوم بريداً إلى أن وصلا مكة فوقعا على الكعبة، وكانت قريش تطعمهما وتسقيهما، وكانا إذا خفّ الطواف نزلا فطافا حوله، فإذا كثر الناس طارا إلى الكعبة،

---

(١) انظر: العقد الثمين [١/ ٧١].

(٢) انظر: العقد الثمين [١/ ٧١].

فمكثا على ذلك شهراً أَو نحوه ثم ذهبا، وكان الناس يرون ذلك عجباً.

لاَ تُنْكِرُوا حَالَ الطَّوَافِ تَبَخْتُرِي وتَـمَـايُـلـي سُـكْـراً بـغَـيْـر شَـرَاب
قَدْ كُنْتُ بالذِّكْرَى أَهِيمُ فَكَيْفَ بي عِـنْـدَ الْـوُقُـوف بـمَـرْتَـع الأَحْـبَـاب

وفي «إتحاف الورى»: أَن جملاً طاف بالكعبة بحضرة جماعة من العلماء، وذلك في حوادث سنة خمس عشرة وثمان مئة. وفي جمادى الآخرة منها كان جمل الفاروقي أَحد الجمَّالة بمكة يُحَمِّلُهُ فوق طاقته فهرب منه إِلى المسجد، ولم يزل يطوف بالبيت إِلى أَن أكمل ثلاثة أَسابيع، والناس يريدون إِمساكه وإِخراجه فلم يقدروا عليه، وكلما قرب منه أَحد دَقَّهُ بِفِيه فتركوه، فجاء إِلى الحجر الأَسود فقبّله ساعة، ثم ذهب إِلى مقام الحنفية فبرك تجاه الميزاب، ثم بكى ساعة، وأَلقى نفسه على الأَرض فمات، وحُمل إِلى ما بين الصفا والمروة ودُفن هناك.

وأَما صفة الكعبة: فإِن أَرضها مرخمة برخام ملون، وكذلك جدرانها. قال الفاسي: وأَول مَن رخم ذلك الوليد بن عبد الملك بن مروان فيما ذكر الأَزرقي. وفيها ثلاث دعائم من ساج على ثلاثة كراسي وفوقها ثلاثة كراسي، وعلى هذه الكراسي ثلاث حوايز من ساج، ولها سقفان بينهما فرجة، وفي السقف أَربع روازن للضوء نافذة إِلى أَسفلها، وفي ركنها الشاميِّ درجةٌ يصعد منها إِلى سطحها. وعدد درجها ثمان وثلاثون درجة، وسقفها الأَعلى مما يلي السماء مرخَّم برخام أَبيض ويكنف سَطحها إِفريزٌ مبني بحجارة، ويتصل بهذا الإِفريز أَخشابٌ فيها حلَقٌ من حديد تُربط فيها كسوة الكعبة[١].

وأَما ذرعها فقد ذكره الأَزرقي[٢] وابن جماعة.

وقال التقي الفاسي رحمه الله تعالى: وحررت أَنا ذلك، فكان من سقفها الأَسفل إِلى أَرضها سبعة عشر ذراعاً ـ بتقديم السين ـ ونصف ذراع إِلا قيراطاً في الجهة الشرقية، وكذلك باقي الجهات، إِلاَّ أَنَّ الجهة الشامية تنقص عن الشرقية نصفاً إِلاَّ قيراطاً، والجهة الغربية تنقص عن الشرقية قيراطين واليمانية تزيد على الشرقية ثُمْنَ ذراع، وعرضُ الجهة الشرقية على التقريب ثمانية عشر ذراعاً وسدس، والجهة الشامية على التقريب أَيضاً أَربعة عشر ذراعاً إِلا قيراطين، والجهة الغربية ثمانية عشر ذراعاً

---

(١) انظر: تاريخ مكة [١/ ٢٨٨].
(٢) انظر: العقد الثمين للفاسي [١/ ٥٣].

وسدس ذراع، واليمانية أربعة عشر ذراعاً وثلث ذراع، وطول فتحة الباب من داخله مع الفياريز ستة أَذرع، وطولها من خارجه بغير الفياريز ستة أذرع إلا ربع ذراع. وذرع فتحة الباب من داخل الكعبة مع الفياريز ثلاثة أذرع وثلث إلا قيراطاً، وطول كل من فردتَي الباب ستة أَذرع إلا ثمن، وعرض كلٍّ منهما ذراعان إلا ثلث[1].

وأما ذرعها من خارجها فإنَّ من أعلى الشاخص في سقفها في الجهة الشرقية إلى أَرض المطاف ثلاثة وعشرين ذراعاً وثمن ذراع، وكذلك الجهة اليمانية والجهة الغربية إلا أَنَّ الغربية تنقص ثمن ذراع.

وأَما الجهة الشامية فتنقص عن الشرقية واليمانية ربع ذراع، وعرض الجهة الشرقية أَحد وعشرون ذراعاً وثلث ذراع، وكذلك الغربية بزيادة ثلث ذراع.

وأَما الجهة الشامية فعرضها ثمانية عشر ذراعاً إلا ربع ذراع، وكذلك اليمانية بزيادة نصف ذراع إلا قيراطين، ومن عتبة باب الكعبة إلى أَرض الشَّاذَرْوَان تحتها ثلاثة أَذرع ونصف، وارتفاع الشَّاذَرْوَان تحتها ربع ذراع وقيراط[2].

والذراع الذي حرر به الفاسي المؤرخ هو الذراع الحديد المستعمَل في القماش بالقاهرة.

وأَما شَاذَرْوَان الكعبة فهو الأَحجار الملاصقة بها التي فوقها بناء مُسَنَّم مرخَّم في الجدر الشرقي والغربي واليماني وفي الجانب الشرقي حجارة بناء عليها شاذروان. وأَما الأَحجار التي تلي جدار الكعبة الشامي فليست شاذَرْوَاناً يكون موضعها من البيت بلا ريب والشاذروان هو ما نقصته قريش من عرض أَساس جدار البيت حتى ظهر على الأَرض كما هو عادة الأَبنية. وطول الشاذروان في السماء ستة عشر إصبعاً، وعرضه ذراع[3].

وأول مَن حلَّى الكعبة المعظمة في الجاهلية ـ على ما قيل ـ عبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ. وأَما في الإسلام فقيل: الوليد بن عبد الملك بن مروان، وقيل: أَبوه عبد الملك، وقيل: عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما، وحلاها الأَمين العباسي والمعتضد بالله العباسي وأُم المقتدر بالله، والوزير الجواد، والملك المجاهد صاحب اليمن، قلت: والسلطان الملك المظفر سليمان أَحد ملوك بني عثمان[4].

---

(١) انظر: العقد الثمين للفاسي [١/ ٥٣ ـ ٥٤].
(٢) انظر: العقد الثمين للفاسي [١/ ٥٤].
(٣) انظر: العقد الثمين للفاسي [١/ ٥٤ ـ ٥٥].
(٤) انظر: العقد الثمين [١/ ٥٦].

وأَما كسوتها: فقال العلامة الزركشي في «أَحكام المساجد»: يجوز ستر الكعبة بالحرير لأَن ذلك يحرم على الرجال فقط.

وقال الغزالي في «فتاويه» ولا بأس بحلية المصحف بالذهب والحرير ما لم ينسب إِلى الإِسراف، هذا كله في إِلباس الكعبة.

وقال في «الإِحياء» تزيين الحيطان لا ينتهي إِلى التحريم، إِذ الحرير يحرم على الرجال، وما على الحيطان ليس منسوباً إِلى الذكور، ولو حرم هذا لَحَرم تزيين الكعبة، بل الأَولى إِباحته لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٢] لا سيما في وقت الزينة، إِذا لم يتخذه عادة للمفاخرة، وأن يحل أَن الرجال ينتفعون بالنظر إِليه.

قيل: لا يحرم على الرجال النظر إِلى الديباج فيما يلبسه الجواري، فالحيطان في معنى النِّساء، وأَما سائر المساجد ففي إِلحاقها بالكعبة احتمال للشيخ عز الدين بن عبد السلام. انتهى ملخصاً.

وأَما صفة كسوتها فإِنها كُسِيَت في الجاهلية والإِسلام أَنواعاً من الكُسَى، ومن ذلك الديباج الأَبيض الخراساني، والديباج الأَحمر الخراساني والديباج الأَصفر، وكسيت في خلافة الناصر العباسي كسوة خضراء وسوداء، واستمرت تُكْسى السوداء حتى الآن، وفيها طراز أَصفر، وكان قبل ذلك أَبيض[١].

وقد غير ذلك الطراز الحرير الأَصفر في نيِّف وخمسين وتسع مئة بأَمر مولانا السلطان على يد نائبه علي باشا بمصر، بالمزركش الفضة، المخايش بالذهب، فكان من أَحسن ما صنع من الاحتفال بشأن الكعبة المعظمة.

وأُحدث في كسوة الكعبة من الجانب الشرقي جاماتٌ منقوشة بالحرير الأَبيض، في سنة عشر وثمان مئة، ثم تُرك ذلك، ثم أُعيد، ثم تُرك في سنة خمس وعشرين وثمان مئة، كذا قال الفاسي في تاريخه. وكسيت ثياباً من القطن مصبوغة بالسواد لأَنها عُرِّيَتْ من ريح عاصفة هاجت بمكة في سنة ثلاث وأَربعين وست مئة، وأَول مَن كساها من ملوك الترك بمصر الظاهر بيبرس في سنة إِحدى وستين وست مئة. انتهى ما ذكره الفاسي[٢].

(١) انظر: العقد الثمين [١/٥٨].
(٢) انظر: العقد الثمين [١/٥٨ ـ ٥٩].

وفي «مسلاة الحزن» لصاحبنا المرحوم تقي الدين العزي: ويقال أول مَن كساها الثياب خالد بن جعفر بن كلاب، وروي أنَّ لَطِيمة (؟) كسيت في الجاهلية نمطٌ من ديباج فأرسلت به إلى الكعبة فبسط عليها، وكستها نتيلة بنت حباب، أُم العباس بن عبد المطلب بن هاشم الديباج والحرير، وكساها النبي ﷺ الثياب اليمانية، وكستها قريش حين بنتها، وكساها أبو بكر الصدِّيق رضي الله تعالى عنه، وكساها عمر بن الخطاب رضي الله عنه قباطي من مصر، وكساها عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه القباطيَّ والبرود اليمانية. وروي أن معاوية بن أَبي سفيان رضي الله تعالى عنه كساها كسوة قباطي وكسوة ديباج، وكساها يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الديباج الخسرواني، وكذلك عبد الملك بن مروان، وكذلك كساها عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما حين فرغ من بنائها القباطي والحبرات، وكان المأمون بن هارون الرشيد يكسوها ثلاث مرات في السنة: الديباج الأحمر يوم التروية، والقباطي يوم هلال رجب الفرد، والديباج الأبيض يوم سبعة وعشرين من رمضان، ولما كساها الأُمراء صار يكسوها الفقراء. وكساها حسين الأَفطس كسوتين من خَزٍّ رقيق، إحداهما صفراء والأُخرى بيضاء، وكُسيت أيام الحاكم الْعُبيدي الديباج الأَبيض، وكُسيت كسوة صفراء في مبدإِ خلافة أَبي جعفر المنصور العباسي، ثم كُسيت في زمنه كسوة سوداء، فاستمرت تُكسى الديباج الأَسود، وما أَحسن ما قاله المهلهل الدمياطي:

يَرُوْقُ لي مَنْظِرُ الْبَيْت الْعَتِيْق إِذَا ... بَدَا لِطَرْفِيَ في ٱلإِصبَاح وَالطَّفَل
كَأَنَّ حِلْيَتَهُ السَّوْدَاءَ قَدْ نُسِجَتْ ... مِن حَبَّةِ الْقَلْب أَوْ مِنْ أَسْوَدِ الْمُقَل

وفي سنة تسع وخمسين وست مئة حجّ المظفر يوسف ابن رسول صاحب اليمن، وكسا الكعبة المشرفة، ولم يكسها ملك من ملوك اليمن بعد تُبَّع غيره ولا بعد الخلفاء العباسيين أَيضاً، واستمر يكسوها عدة سنين مع ملوك مصر، وأول مَن كساها من ملوك مصر بعد بني العباس الظاهر بيبرس سنة إحدى وستين وست مئة ومن سنة سبعين وسبع مئة صارت الكسوة سوداء تُعمل من الوقف الذي وقفه السلطان الملك الصالح إسماعيل ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون وهو قرية بضواحي القاهرة في طرف القليوبية، وكساها السلطان حسن من داخلها كسوة طويلة، وكان قبلها كسوة المظفر يوسف صاحب اليمن، وفي سنة ثلاث وثمانين وثمان مئة أَرسل الملك الأَشرف قايتباي كسوة لداخل البيت، فأُخرج ما كان فيه وكُسِيت. وكساها السلطان الملك المظفر سليمان مِنْ داخلها مرَّات: منها في نَيِّف وعشرين وتسع مئة، وفي سنة أَربعين، وكنت جالساً داخل البيت الشريف مع المعلمين الذين يكسونَ والسادة السَّدَنة

من بكرة النهار إلى العصر في ظل الله وأَمنه، أعادني الله إلى مثل ذلك بمنِّه ويُمْنِه، وفي سنة ستين أو السنة التي قبلها، وأما كسوته للبيت من خارج فلم تزل بحمد الله على لونها الأَسود، متواصلة، والمثوبة من الله تعالى له إن شاء الله حاصلة.

أَسْتَارُ بَيْتِك حَبْلٌ مِنْك وَقَدْ عُلِّقْتُهَا مُستجيراً أَيُّها البَاري
وما أظنك لما أن عَلِقْتُ بها خَوْفاً من النَّار تدنيني من النارِ

غيره:

سْتَارُ بَيْتِك أَمْنُ الْمُسْتَجِيْر وَقَدْ عُلِّقْتُهَا طامعاً في الْعَفْو يَا بَارِي
وَقَدْ نَزَلْتُ بِبَيْتٍ قَدْ أَمَرْتَ بِأَنْ نَأْتِيهِ لِلأَمْن في الْعُقْبى مِنَ النَّارِ
وأَنَّنِي جَارُ بَيْتٍ أَنْتَ حَافِظُهُ فَارْحَمْ جوَاري كَمَا أَوْصَيْتَ بِالْجَارِ

واخْتُلِف في جواز بيع ستور الكعبة فقال العلامة الزركشي في كتابه «أَحكام المساجد» قال أَبو الفضل بن عبدان من أَصحابنا: لا يجوز قطع شيءٍ من سترة الكعبة، ولا نقله، ولا بيعه، ولا شراؤه، ولا وضعه بين أَوراق المصحف، ومَن حمل شيئاً من ذلك لزمه رده بخلاف ما يتوهمه العامة، ويشترونه من بني شيبة، وأَقرَّه الرافعيُّ على ذلك، وكذا قال الإمام أَبو عبد الله الحليمي: لا ينبغي أَن يؤخذ شيء من كسوة الكعبة. وقال ابن القاصّ: لا يجوز بيع أَستار الكعبة. وقال ابن الصلاح: الأَمر فيها إلى الإمام يصرفه في بعض مصارف بيت المال منعاً وعطاءً. واحتج بما رواه الأَزرقي في كتاب «مكة» أَنَّ عمر بن الخطاب كان ينزع كسوة البيت كل سنة فيقسمها على الحاج. قال في «الروضة» وهو حسن متعين لئلاً يتلف بالبلاء[1].

وروى الأَزرقي أَيضاً عن ابن عباس وعائشة رضي الله عنهما أَنهما قالا: تباع كسوتها، ويُجعل ثمنها في سبيل الله، والمساكين وابن السبيل. قالا: ولا بأْس أَن يلبس كسوتها مَن صارتْ إليه من حائض وجنب وغيرهما. وكذا قالت أُمُّ سليم، وذكر ابن أَبي شيبة عن ابن أَبي ليلى وسُئِل عن رجل سرق من الكعبة فقال: ليس عليه قطع.

وفي «خزانة الأَكل» (؟) للحنفية لا يأْخذ شيئاً من أَستار الكعبة ما يسقط منها إلى القوَّام، ولا بأْس بأَن يشتري منهم، وأَخرج البخاري عن أَبي وائل، قال: صليت إلى شيبة بن عثمان في المسجد الحرام. قال: وجلس إليَّ عمر بن الخطاب مجلسك

(١) انظر: روضة الطالبين [٣/١٦٨].

ذا. فقال: لقد هممت أن لا أترك فيها صفراء ولا بيضاء إلا قسمتها - يعني الكعبة - فقلت له: كان لك صاحبان فلم يفعلا، رسول الله ﷺ، وأبو بكر، هما الميزان اقتدِ بهما[١]. قلت: ويحتمل جواز بيع الكسوة العتيقة للانتفاع بثمنها قياساً على بيع الحصر الموقوفة على المسجد إذا بليتْ إذْ في تركها حينئذ الضياع لها، والله أعلم.

قال التقي الفاسي: وأما وقت فتحها في الجاهلية فيوم الاثنين والخميس والجمعة، وأما في الإسلام فيوم الجمعة، وكانت تُفتح يوم الاثنين، وتُفتح في أوقات أُخر من كل سنة، منها في بكرة الثاني عشر من ربيع الأول، وفي بكرة ثاني عَشْرَي رجب الفرد لغسلها، وفي بعض أيام الموسم في الثمان الأُول من ذي الحجة الحرام، وفي لياليها، وذكر المحبُ الطبري: أنه لا يحل منع أحد من دخول البيت، ودخول الكعبة يثاب عليه.

ففي «سنن البيهقي»، و«الأوسط» من طريق عبد الله بن المؤمَّل عن ابن محيصن عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنه يرفعه: «مَن دخل البيت دخل في حسنة، وخرج من سيئة، وخرج مغفوراً له»[٢] ولدخوله آداب ككف البصر من غير تأمُّل جدرانه وسقوفه، ودخوله بخضوع وخشوع، وغير ذلك، وينبغي أنه يدخله مَرَّات، مرة يصلي فيه ركعتين، ومرة يصلي فيه أربعاً، ومرة يدعو فقط لاختلاف الروايات في ذلك، وحمله المحققون على دخوله مرات.

وقال أبو الوفاء بنُ عقيل الحنبلي في كتابه «الفنون»: وقع لي تأمُّلاتٌ في الحج، منها الصلاة بين عمودَي البيت إلى أربع جهات إلى هذا، واستدبرت الآخر، وعَوْدِي لاستقبال ما استدبرت، وإلى ما يلي الظهر، وإلى ما يلي الصدر، لتكون الموافقة حاصلة فقد صحّ أنه عليه الصلاة والسلام صلّى بينهما، ولم أعلم كيف صلّى. انتهى.

وفي «الصحيحين» من حديث بلال أنه جعل عمودين عن يساره، وعموداً عن يمينه وثلاثة أعمدة وراءه[٣].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده [٣/ ٥٠١] ح [١٥٣٨٨ - ١٥٣٨٩].

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى [٥/ ١٥٨]، وعزاه الحافظ الهيثمي للطبراني في الكبير والبزار بنحوه، قال: وفيه عبد الله بن المؤمل، وثقه ابن سعد وغيره وفيه ضعف. انظر: مجمع الزوائد [٣/ ٢٩٦] ولم أجده في الأوسط.

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة [١/ ٦٨٨ - ٦٨٩] ح [٥٠٥]، ومسلم في الحج [٢/ ٩٦٦] ح [٣٨٨/ ١٣٢٩].

وفي رواية للبخاري: عموداً عن يساره، وعمودين عن يمينه[١]. قال البيهقيُّ: وهو الصحيح[٢].

وفي رواية أَبي داود: صلَّى وبينه وبين القبلة ثلاثة أَذرع[٣].

ومنها: أنه يستحب الغسل لدخول الكعبة كما يستحب الغسل لدخول الحرم.

وأَما المُلْتَزم فهو ما بين الكعبة، والحجر الأَسود، والدعاء فيه مستجاب.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: إن الملتزم هو ما بين الركن والباب المسدود وهذا هو المتعوذ، وهو موضع الشقَّة الثالثة من الكسوة، ويُسمى ذلك الآن المستجار، وهذا الملتزم، ويستجاب بهما الدعاءُ بصحة اللَّجاءِ وقوة الرجاء:

إِلَـهَ الْـخَـلْـق قَـدْ عَـظـمَـتْ ذُنُـوبـي ... فَـسَـامِـحْ مَـا لِـعَـفْـوكَ مِـنْ مُـشَـاركْ

أغـث يـا سـيـدِيْ عَـبْـداً فَـقِـيْـراً ... أَنَـاخَ بِـبَـابِـكَ الْـعَـالـي ودَاركْ

قال العلامة الفاسي: والمستجاب ما بين الركن اليماني، والباب المسدود في دبر الكعبة، والدعاء فيه مستجاب أَيضاً، والْحَطِيم ما بين الحَجَر الأَسْود، ومقام إِبراهيم، وزمزم، والْحِجْرُ ـ بسكون الجيم ـ وقيل إِن الْحَطِيم هو الموضع الذي فيه الميزاب، وسُمِّي بالحطيم لأَن الناس كانوا يحطمون هنالك بالأَيمانِ، فقلَّ مَن دعا هنالك على ظالم إِلا هلك، وقلَّ مَن حلف هنالك آثِماً إِلا عُجِّلَتْ عقوبته، وقيل في سبب تسميته بالحطيم غير ذلك.

وأَما بقية المواضع التي يستجاب فيها الدعاء فكثيرة منها ما هو مذكور في رسالة الحسن البصري لأَنَّ فيها: أَنَّ الدعاء يستجاب في خمسة عشر موضعاً أَولها عند الملتزم، وتحت الميزاب، وعند الركن اليماني، وعلى الصفا، وعلى المروة، وبين الصفا والمروة، وبين الركن والمقام، وفي جوف الكعبة، وبمنى، وبجمع، وبعرفات، وعند الجمرات الثلاث، ومن المواضع: خلف المقام والطواف، وعند الحجر الأَسود، وباب بني شيبة، وباب إِبراهيم، وباب النبي ﷺ المعروف الآن بباب الجنائز[٤].

---

(١) هذه رواية الإسماعيلي عن مالك، قال ابن حجر: ووافق إسماعيل بن القاسم، والقعنبي، وأبو مصعب، ومحمد بن الحسين، وأبو حذافة، وكذا الشافعي وابن مهدي في إحدى الروايتين عنهما. انظر: فتح الباري [١/ ٦٩٠].

(٢) انظر: فتح الباري [١/ ٦٩٠].

(٣) أخرجه أبو داود في المناسك [٢/ ٢٢٠] ح [٢٠٢٤].

(٤) انظر: العقد الثمين للفاسي [١/ ٧٧].

وأَما مقام الخليل عليه السلام فهو الْحجَرُ الذي وقف عليه الخليل عليه السلام لما بنى الكعبة، وقيل: لما أَذَّنَ بالحج، وقيل: لما غسلت زوجة ابنه إسماعيل رأسه[١]. وقد ذكره الله تعالى في كتابه الكريم فقال جلّ وعلا: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] وقال رسول الله ﷺ: «الحجر والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة، ولولا أَنَّ الله طمس نورهما لأَضاء ما بين المشرق والمغرب»[٢].

واختلفوا في أَول مَن وضعه في مكانه هذا على ثلاثة أَقوال:

الأَول: أَنه النبي ﷺ.

الثاني: أَنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الثالث: أَنه غيْره رضي الله عنه.

وقيل: إِنه هو موضعه في زمن الجاهلية، وزمن سيدنا رسول الله ﷺ، وزمن أَبي بكر الصدِّيق، وزمن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وهو الذي جزم به الفاسيُّ المؤرخ في تاريخه، ولم يذكر غيره. قال الفاسي: ومقدار ارتفاعه من الأَرض نصف ذراع وربع ذراع، وأَعلى المقام مربع من كل جهة نصف ذراع، وربع ذراع، وموضع عرض القدمين ملبّس بفضة، وعمقه من فوق الفضة سبع قراريط، والذراع المشار إِليه ذراع الحديد، وأَول ما حُلِّي المقام في ولاية المهدي في سنة إِحدى وستين ومئتين، وفي خلافة المهدي سنة ست وخمسين ومئتين، والمقام الآن في قبة من حديد ثابت فيها، والقبة ثابتة في الأَرض، وهي بين أَربعة شبابيك من حديد، وفوق الشبابيك قبة من خشب مبني فوقها[٣].

وعن مجاهد قال: يأْتي الركن والمقام يوم القيامة، كل واحد منهما مثل أَبي قُبَيْسٍ، يشهدان لمَن وافاهما بالموافاة[٤] ولابن أَبي حَجَلة:

يَا سَائِلِي عَنْ مَقَامي في الْمَقَامِ عِشَا ... جَلَوْتُ كَأْسَ مُدَامٍ عِنْدَ مُغْتَبِقِ

لله بَرْقٌ بِهِ أَمْسَيْتُ أَرْمُقُهُ ... لَمْ يَبْقَ فيَّ وَلاَ فِيْهِ سِوَى الرَّمَقِ

---

(١) انظر: العقد الثمين [١/٧٧].

(٢) تقدّم تخريجه.

(٣) انظر: العقد الثمين [١/٧٧].

(٤) عزاه الفاسي للأزرقي. انظر: العقد الثمين [١/٧٨].

والْحِجْرُ هو ما بين الركن الشامي الذي يقال له العراقي، والركن الغربي، وهو عَرْصَةٌ مرخّمة لها جدار منقوش على نصف دائرة[١].

وعن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأبي هريرة رضي الله عنه: «يا أَبا هريرة إِنَّ على باب الْحِجْر مَلَكاً يقول لمن دخل فصلّى ركعتين: مغفوراً لك ما مضى فاستأنف العمل، وعلى باب الْحِجْرِ الآخر ملك منذ خلق الله الدنيا إلى يوم يرفع البيت يقول لمَن صلّى وخرج: مرحوماً إن كنت من أُمة محمد ﷺ تقيًّا»[٢] وفيه قبر إِسماعيل عليه السلام مع أُمه هاجر، وقيل: إنه في الحطيم. وللصلاح:

طَوَى فـي طَـوَافـي الله لـيْ مِـنْـهُ لَـذَّةٌ إِذَا نُـشِـرَتْ بَـشَّـرْتُ عُـمْـرِيَ بـالْـيُـسْـر
وَكَـمْ حَسَـنـات فَـاضَ في الْـحِـجْـرِ دَرُّهَـا وسَالَ بِهَا الْمِيْزَابُ حَتَّى امْتَلا حِجْرِي

قال العلامة تقي الدين الفاسي رحمه الله تعالى: وأَما المواضع التي صلّى فيها رسول الله ﷺ حول الكعبة:

الموضع الأَول: خلف مقام إبراهيم عليه السلام.

الثاني: تلقاء الْحَجَرِ الأَسود على حاشية المطاف.

الثالث: قريباً من الركن الشامي مما يلي الْحِجْر ـ بسكون الجيم ـ.

الرابع: عند باب الكعبة.

الخامس: تلقاء الركن الذي في الحِجْرِ من جهة المغرب جانحاً إلى جهة المغرب قليلاً بحيث يكون باب المسجد الذي يقال له اليوم باب الْعُمْرَةِ خلف ظهره.

السادس: في وجه الكعبة.

السابع: بين الركنين اليمانيين.

الثامن: الْحِجْر[٣].

وأَما ذرع المسجد الحرام غير الزيادتين فذكره الأَزرقي باعتبار ذراع اليد، وحرّره العلامة الفاسيُّ بذراعِ الحديدِ[٤]، ومنه يظهر تحريره بذراع اليد فكان طوله من جدره الغربي إلى جدره الشَرقي المقابل له ثلاث مئة وسبعة وخمسين ذراعاً وثمن ذراع،

---

(١) انظر: العقد الثمين للفاسي [١/ ٧٩ ـ ٨٠].
(٢) عزاه الفاسي للفاكهي. انظر: العقد الثمين [١/ ٨٠].
(٣) انظر: العقد الثمين [١/ ٨١ ـ ٨٢].
(٤) انظر: العقد الثمين [١/ ٨٥].

بالحديد، ويكون ذلك بذراع اليد أَربع مئة ذراع وسبعة أَذرع، وذلك من وسط جدره الغربي الذي هو جدر رباط الخوزي إلى وسط جدره الشرقي عند باب الجنائز يَمُرُّ به في الحجر ملاصقاً به لجدار الكعبة الشامي، وكان عرضه من جدره الشامي إلى جدره اليماني مئتي ذراع وسبعة[1] وستين ذراعاً بذراع الحديد، يكون ذلك بذراع اليد ثلاث مئة وأَربعة أَذرع وذلك من وسط جدره القديم عند العقود إلى وسط جدره اليماني فيما بين الصفا وباب أَجياد، يَمرُّ به فيما بين مقام إبراهيم والكعبة، وهو إلى المقام أَقرب، وذراع المسجد الحرام الآن مُكَسَّراً مئة أَلف ذراع هكذا قال الأَزرقي. وأَما ذَرْعُ زيادة دار الندوة فهو أَربعة وسبعون ذراعاً ـ بتقديم السين ـ إلاَّ ربع ذراع بالحديد، وذلك من جدر المسجد الكبير إلى الجدر المقابل له الشامي منها، وعنده باب منارتها[2] هذا ذرعها طولاً. وأَما ذرعها عرضاً فسبعون ذراعاً ـ بتقديم السين ـ ونصف ذراع، وذلك من سوط جدرها الشرقي إلى وسط جدرها الغربي. وأَما زيادة باب إبراهيم فذرعها طولاً تسعة وخمسون ذراعاً إلاَّ سدس ذراع، وذلك من الأَساطين التي في وزان جدر المسجد الكبير إلى العتبة التي في باب هذه الزيادة. وأَما ذرعها عرضاً فاثنان وخمسون ذراعاً وربع ذراع، وذلك من حد حائط رباط الْخُوزي إلى جدر رباط رَامَشْت[3].

وعدد أَساطين المسجد الحرام غير ما في الزيادتين فأَربع مئة أسطوان [وتسعة وستون أسطوانة في جوانبه الأَربع، وعلى أبوابه من داخله وخارجه تسعة وعشرون أسطوانة][4] فيصير الجميع أَربع مئة أسطوانة وستة وتسعين أسطوانة، وهذه الأَساطين رخام إلا مئة وتسعة وعشرون أسطوانها فإنها حجارة منحوتة إلا ثلاثة أَساطين فهي آجُرٌّ مجصص. وفي صحن المسجد حول المطاف أَساطين، وهي اثنتان وثلاثون أُسطوانة. [وعدد أساطين زيادة دار الندوة فستة وستون أسطوانة حجارة منحوتة][5] وعدد أَساطين زيادة باب إبراهيم سبعة وعشرون أُسطوانة حجارة منحوتة.

وعدد طاقات المسجد الحرام بما فيه الزيادتين خمس مئة وتسعون طاقاً، والطاقات هي العقود التي على الأَساطين.

وأَما عدد الشرافات فخمس مئة، وبضع وعشرون شرافة وسبعة أَنصاف شرافات.

---

(١) في العقد الثمين [١/ ٨٦]: وستة.
(٢) في العقد الثمين [١/ ٨٦]: مغارتها.
(٣) انظر: العقد الثمين [١/ ٨٦].
(٤) زيادة من العقد الثمين [١/ ٨٧] ليست في الأصل، لا بد منها لصحة المعنى.
(٥) زيادة من العقد الثمين [١/ ٨٧].

وأَما عدد أَبوابه فتسعة عشر باباً ـ بتقديم التاء ـ تفتح على ثمانية وثلاثين طاقاً[١].

وأَما زمزم فأَول مَن أَظهرها جبريل عليه السلام سُقْياً لإِسماعيل عندما ظَمِىءَ، وذكر الفاكهيُّ أَن إِبراهيم الخليل عليه السلام حفر زمزم بعد جبريل عليه السلام ثم عقبه عليها ذو القرنين، وقد غيبت بعد ذلك زمزم، لاندراس موضعها، ومنحها الله تعالى عبد المطلب جَد النبي ﷺ لكرامته، فحفرها بعد أن أُعْلِمَتْ له في المنام بعلامات استبان له بها مَوْضِعُهَا فلم تزل ظاهرة حتى الآن[٢].

ولزمزم فضائل مروية عن النبي ﷺ، منها: «خير مَاءٍ على وجه الأَرض ماء زمزم» أَخرجه ابن حبان والطبراني[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أَن النبي ﷺ كان إِذا أَراد أَن يُتْحف الرجل بتحفة سقاه من ماءِ زمزم[٤].

ومنها أَنه لما شربَ له[٥].

وقد شربه جماعة من السلف والخلف لمقاصد جليلة فنالوها، فهي هَزْمَة جبريل، وسُقْيا نبيِّ الله إِسماعيل، المنوه لها بالذكر والتبجيل، في القرآن والتوراة والإِنجيل، تنبع من الجنان، والتضلُّع منها براءة من النفاق لأَهل الإِيمان، وبركتها ظاهر على ممرّ الأَزمان:

وَلَيْلٍ ببَطحَاءِ الْحِمَى قَدْ غنِمْتهُ ... وطَائِر أُنْسي بالْهَنَا قدْ ترَنَّمَا

وَطَافَ بكَاسَاتِ الأَمَاني ودُنَا ... فطيِّبَ عَيْشِيْ في الْمَقَام وَزَمْزَمَا

وكان يَسْتَهْدِي من مائها النبيُّ المختار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إِنها شراب الأَبرار، وقال رسول الله ﷺ: «رحم الله أُمّ إِسماعيل لو تركت زمزم ـ أَو قال ـ لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً»[٦].

---

(١) انظر: العقد الثمين [١/ ٨٧ ـ ٨٨].

(٢) انظر: العقد الثمين [١/ ٩٠].

(٣) عزاه الحافظ الهيثمي للطبراني في الكبير قال: ورجاله ثقات، وصححه ابن حبان. انظر: مجمع الزوائد [٣/ ٢٨٩].

(٤) عزاه الفاسي لشرف الدين الدمياطي بسنده وقال: إسناده صحيح. انظر: العقد الثمين [١/ ٩٢].

(٥) أخرجه الدارقطني من حديث ابن عباس، وحسّنه الحافظ العراقي. انظر: العقد الثمين [١/ ٩٢ ـ ٩٣].

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده [١/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨] ح [٣٣٨٩] بلفظ [لولا أنها عجلت] بدل [لو لم تغرف].

غنِمْنا عِنْدَ بَيْت اللّهِ عَيْشاً وقمْنا في مَقام هنا أَمِيْن
ودَارَ بِمَاءِ زمْزمَ لي نَدِيْمٌ وطاف لنا بكأسٍ مِنْ مَعِيْن

غيره:

لِزمْزمَ نَفْعٌ في الْمِزاج وَقوَّةٌ تزيدُ عَلى مَاءِ الشَّبَاب لِذِي فتْكِ
وَزمْزمُ فَاقَتْ كلَّ ماءٍ بطِيْبِها ولَوْ أَنَّ مَاءَ النِّيْل يَجْري عَلى الْمِسْكِ

وروي أنها طعام طعْم وشفاء سُقْم:

شَفيْت يَا زمْزمَ دَاءَ السَّقِمْ وأَنْت أَصْفى مَا تعَاطى النَّدِيْمْ
وَكَمْ رَضِيْع لَك أَشْوَاقُهُ إِلَيْك بَعْدَ الشَّوْق مِثْلُ الْفطِيمْ

وقد فضل مائها على ماء الكوثر، حيث غسل منه القلب الشريف الأَطهر:

يَا زمْزمَ الطَّيِّبة الْمَخْبَر يَا من عَلت قدراً عَلى الْمُشْتري
رَضِيْعُ أَخْلاَفِكِ لاَ يَشْتهي فِطَامَهُ إلاَّ لَدَى الْكَوْثر

فهي أَشرف الآبار وأسماها، ولها من جميل الأَسماء: زُمّ زُمّ مكررة بضم الزاي وتشديد الميم وإِسكانها وهو أَول أَسمائها، وزمزم وتكتم، وزمازم، وركضة الملك، والقادم، وهَزْمة جَبْرائِيل، وبَخْثة إِسماعيل، وسيدة، وبركة وبشرى، ومباركة وبرَّة، ونعمة وعونة وعصمة ومغذية ومروية، وكافية وشافية وعافية، وصافية وصفية ورضية، وروي أَنَّ عين سلوان تزورها كل سنة ليلة النصف من شعبان، ويختلط ماؤها بمائها فتفيض رأْيَ العين.

بِاللّهِ قولُوا لِنِيْل مِصْرِ بِأَنَّنِي عَنْهُ فِي غِنَاءِ
بِزمْزمَ الْعَذْب عِنْدَ بَيْتٍ مُخلَّق السِّتْر بِالْوَفَاءِ

غيره:

يَا سَائِقاً عَنِّي النِّيَاقَ وَزَمَّمَا أَبْشِرْ فَقَدْ جِئْتُ الْمَقَامَ وَزَمْزَمَا
كَمْ كنْتَ تَذْكرُ مِنْ مَنَازل مَكَّةٍ وَتَقولُ: إِنَّ بِهَا الْمُنَى والْمَغْنَمَا
بَرِّدْ بِمَاءِ سِقَايَةِ الْعَبَّاس مَا كَابَدْتُهُ طوْلَ الطَّرِيْق مِنَ الظَّمَا
وانْهَضْ وَهَرْولْ بَيْنَ مَرْوَةَ والصَّفَا وادخلْ إِلَى الْحَجَر الشَّرِيْف مُسَلِّمَا
وَمَقَامُ إِبْراهِيم زرْهُ مُبَادِراً وَبِحِجْر إِسْمَاعِيلَ صَلِّ مُعَظِّمَا
وَانْظُرْ عَرُوْسَ الْبَيْتِ يُجْلَى حُسْنُهَا لِلنَّاظِرِيْنَ فَلُذْ بِهَا مُسْتَغْنِمَا

فَهْيَ الَّتي ظَهَرَتْ فَضَائِلُهَا فلا ... تَخْفَى وَهَلْ يَخْفَى سَنَا قَمَرَ السَّمَا؟
وَمِنَ الْعَجَائِب أَنَّهَا مَحْرُوسَةٌ ... والصَّيْدُ فِيهَا لاَ يَزالُ مُحَرَّمَا
والطَّيْرُ لا يَعْلُو عَلَى أَرْكَانِهَا ... إلاَّ لِيُشْفَى إِنْ غَدَا مُتَأَلِّمَا
يَخْتَالُ في حُلَلِ السَّوَاد وبابهَا ... بالنُّور دَامَ مُبَرْقَعاً ومُلَثَّمَا
هِيَ كَعْبَة الْمَوْلَى الْكَريم وكُلُّ مَنْ ... وَافَى إِلَيْهَا حَقُّهُ أَنْ يُكْرَمَا
مَا منهمُ إلاَّ ذَلِيلٌ خَاضِعٌ ... بَاك عَلَى زَلاَّتِهِ مُتَنَدِّمَا
يَا رَبِّ قَدْ وَقَفت بِبَابِكَ عُصْبَةٌ ... يَرْجُونَ مِنْكَ تَفَضُّلاً وَتَكَرُّما
ذَا طَالِب فَضْلاً وَذَا مُتَنَصِّل ... مِمَّا جَنَاهُ مِنَ الذُّنُوب وقَدَّما
فاقْبَلْهُمُ، وأَنِلْهُمُ مِنْك الرِّضَا ... وتَجَاوَز اللَّهُمَّ عَنْ مَنْ أَجْرَمَا

ولزمزم آيات منها أنه يُقْتات بماء زمزم، ولهذا لا يجوز الاستنْجاءُ بِهِ، ومنها أنه لِما شُرب له، وقد جاء ذلك من طريق صحيحة[1].

ومنها أَن الله تعالى خصّه بالملوحة ليكون الباعث عليه الملح الإيماني ولو جعله عذباً جدًا لغلب الطبع البشري، ولهذا يُرَدُّ على أَبي العلاء المعَري قوله:

لَكَ الْحَمْدُ أَمْوَاهُ الْبلاَدِ بأَسْرهَا ... عِذَابٌ وَخُصَّتْ بِالْمُلُوحَةِ زَمْزَمُ

ومنها أَنَّ الله تعالى يعظم ماءَها في الموسم ويكثره كثرة خارقة لعادة الآبار وتحلو، وقد شوهد ذلك.

ومنها أَنه يُرْوى أَنَّ مياه الأَرض العذبة ترفع قبل يوم القيامة غير زمزم.

قال ابن سفيان: العين التي تلي الركن من زمزم من عيون الجنة، حكى الجاحظ في كتابه «المحاسن والأضداد» عن أَبي عبد الله القرشي عن رجل صديق، قال: دخلت بئْرَ زَمْزَمَ فإذا أَنا بشَخص ينزع الدَّلْوَ مما يلي الركن فلما شرب أَرسل الدَّلْوَ فأَخذتهُ وشربت فَضْلَتَهُ فإذا هو سَوِيْقُ لَوْزٍ، لَمْ أَرَ أَطْيَبَ منه، فلما كانت القابلة في ذلك الوقت دخل الرجل، وقد أَسبل ثوبه على وجهه، وقد نزع الدلو فشرب منه، ثم أَرسله فأَخذته فشربت فَضْلَتَه فإذا هو ماءٌ مَضْرُوبٌ بالعسل، لم أَرَ قَطُّ شيئاً أَطْيَبَ منه، فأَردت أَن آخُذ طرف ثوبه، فأَنظر مَن هو ففاتني، فلما كان في الليلة الثالثة قعدتُ قبالة زمزم في ذلك الوقت فجاء الرجل، وقد أَسبل ثوبه على وجهه، فنزع الدلو

(١) وقال ابن الصلاح في نكته إنه صحيح. انظر: العقد الثمين [١/ ٩٣].

وشرب، ثم أَرسله فأَخذته، وشربت فَضْلَته، فإذا هو أَطيب من الأَول، فقلت: يا هذا أسأَلك بالله رب هذه البنية مَن أَنت؟ قال: تكتمه عليَّ حتى أَموت؟ قلت: نعم، قال: أَنا سفيان الثوري وكانت تلك الشربة تكفيني إِلى مثلها لا أَجد جوعاً، ولا عطشاً.

وللشيخ شهاب الدين بن أَبي حَجَلَةَ:

لِـزَمْـزَمَ بِـئْـرٌ غَـدَا مَـاؤُهُ ... بِـبَـرْدِهِ يُـطْـفِـيءُ حَـرَّ ٱلأُوَامْ
تَـزْدَحِـمُ الـنَّـاسُ عَـلَـى شُـرْبِـهِ ... وَالْـمَـنْـهَـلُ الْـعَـذْبُ كَـثِـيْـرُ الـزِّحَـامْ

ذكر بعض متجددات بالحرم:

ففي سنة اثنتين وعشرين وثمان مئة في زمان المؤيد شيخ، عمرت ظلة المؤذنين عمارة حسنة، ووسعت الحيضان، وفي زمن الأَشرف قانصوه الغوري أُصلحت وأُزرَ الحطيم الرخام الأَبيض والأَسود لما عُمِّرَ الْحِجْرُ، وغُلِّفت قبة الظلة بأَلواح الرصاص، وفي سنة ثلاث وثلاثين وتسع مئة غُيِّر (دارابزين) الظلة بأَحسن منه، وبُيِّضت من داخلها وخارجها.

وعُمل لدائر بيت زمزم طراز مذهَّب، وكُتب فيه اسم مولانا السلطان الملك المظفر سليمان نخبة آل عثمان.

وكان بجانب زمزم بركة العباس التي كان يسقي الحجيج منها النبيذ، وخلوة له يجلس فيها وولده من بعده، وقيل: إِنها عمرت هي وقبة الفرّاشين في زمن الناصر العباسي، وقيل: إِنه جددهما لا غير. وفي رواية أَن عبد الله بن الزبير هو الذي نَحَّا السقاية إِلى موضعها اليوم. رواه مسلم بن خالد، وفي سنة سبع وثمان مئة سُدَّ باب الخلوة المذكورة، وجعل موضعها بركة وفي جدرها بزابيز وفوقها خلوة بشبَّاك إِلى الكعبة، وشباك إِلى جهة الصفا.

وفي سنة سبع عشرة وثمان مئة هُدمت الخلوة والبركة إِلى الأَرض، وعُمِّر هناك سبيل، وعُمِل له شُبَّاك من جهة البيت وشُبَّاك من جهة الصفا، عَمَّر ذلك المؤيد شيخ، وعُمِّرت سقاية العباس في سنة سبع وثمان مئة لما تخربت قبتها، وكانت من خشب، ثم عُملت بالحجر الشُّمَيْسِي المشهور، وعُمل على الحوضين شُبَّاكان، وعُمل لهما بزابيز من نحاس للشرب، وعُقدت قبتها بالآجُرِّ، وبُيِّضت، وذلك في زمن الأَشرف قايتباي في عشر التسعين وثمان مئة، وبينها وبين الحجر الأَسود ما يزيد على ثمانين ذراعاً بنحو نصف ذراع.

وأَما الأَساطين التي حول المطاف فاثنتان وثلاثون أُسطوانة، كانت أَربع عشرة

منها حجارة منحوتة عواميد رقيقة، والباقي آجُرٌّ مجصص، عملها الناصر محمد بن قلاوون في سنة ست وثلاثين وقيل: ولده الناصر حسن في سنة تسع وأربعين وسبع مئة، وقيل: بل جدّدها، وكانت قبل ذلك كلها أَخشاباً كالأَساطين عُملت للاستضاءة بعد العشرين وسبع مئة، ثم ثَارَتْ ريحٌ أَلقتها، وجُدِّدت وجُعل لها أَخشاب ممدودة تُعلَّق بها قناديل الاستضاءة، وذكر الأَزرقي رحمه الله أَنه كان حول المطاف عشرة أَعمدة من صفر، يستصبح عليها لأَهل الطواف بعث بها الواثق العباسي، ورَوَى أَن أَول مَن استصبح لأَهل الطواف عقبة بن الأَزرق الغساني جَدُّهُ، وأَما الموجود الآن فهو من عمل السلطان سليمان بن عثمان نصره الله تعالى فإِنه كما قدّمنا ذلك، في سنة اثنين وثلاثين وتسع مئة عوضها أَعمدة من نحاس مشدودة بعمد الحديد من جوفها، مسبوكة بالرصاص، وبينها أَخشاب ممدودة مغلّفة بصفائح النحاس الأَصفر، تعلَّق فيها قناديل الاستضاءة، وجاءت حسنة، أثابه الله تعالى.

وأَما المنبر فأَول مَن خطب بمكة على منبر صغير معاوية بن أبي سفيان وهو منبر على ثلاث درج، قدم به من الشام، واستمر إِلى أَن حجّ هارون الرشيد فأَهدى له عامله بمصر منبراً بتسع درجات فعمل مكانه، وحمل الأَول إِلى عرفة، ثم أَمر الواثق العباسي بعمل منبر بمكة، ومنبر بمِنَى بعرفة، وذكر الفاكهيُّ أَن المستنصر بن المتوكل العباسي لمَّا حجّ في خلافة الله جُعِلَ له منبر يخطب عليه بمكة، ثم عمل وزير المقتدر منبراً واحترق، وعمل منبر في دولة الأَشرف شعبان سنة ست وستين وسبع مئة وبعث الظاهر برقوق بمنبر سنة سبع وتسعين وسبع مئة، وأَرسل المؤيد شيخُ مِنبراً في سنة ثماني عشرة وثمان مئة، ودرجة للكعبة وأَرسل الظاهر خشْقَدَم سنة ست وستين وثمان مئة منبراً، وجعل له أَربعة أَعلام، وهو أَطول مما كان قبله بثلاث درجات، وعمل له كسوة سوداء توضع عليه سائر الأَيام وتُنزع يوم الجمعة، وكان في أَول عشر الثلاثين وثمان مئة للمنبر كسوة يُكْسَى بها قبل الصلاة، وتُنزع بعدها.

وكان الخطيب يلبس السواد المرسوم بالذهب، ويتعمّم به أَيضاً، ويتطيلس بشرب، ويمشي بين يديه ساعٍ بيده عمود مخروط أَحمر، قد رُبط في طرفه مرس من الأَديم المفتول، رقيق طويل، في طرفه عذبة صغيرة ينفضها تعلو في الهواء فتأْتي بصوت عال، يسمع من داخل الحرم وخارجه، كأَنه إِيذان بوصول الخطيب، لا يزال إِلى أَن يقرب من المنبر، ويسمونها المفرقعة، وبين يديه رئيس المؤذنين بالسيف على عاتقه، فيدفعه له في باب المنبر، فيضرب بنعله في الدرجة الأُولى والثانية والثالثة، ويعود من الصلاة بالمفرقعة كالأَول.

وعمل السلطان قانصوه الغوريُّ منبراً في سنة عشرين وتسع مئة، ودرجاً للكعبة وأَمَّا الموجود الآن فهو ما رسم بعمله مولانا السلطان المظفر سليمان بن عثمان نصره الله تعالى في ولاية نائبه بمصر داود باشا، في نيِّف وخمسين وتسع مئة، ثم غُيِّر في عام خمس وستين وتسع مئة بمنبر من الرخام المبني في الأَرض بصناعة الإِتقان والإِمكان، وبطل المنبر الخشب من حينئذ.

وأَمَّا المقامات ففي سنة سبع وثمان مئة عُملت للمقامات الثلاث عقود من آجُرٍّ، وبُيِّضت بالجص، وعُمل مقام الحنفي بأَربع عضادات من الحجر المكي، وسُقِّف بالساج المدهون، وعُمِل له محراب يعلوه رفرف فأنكر ذلك جماعة من العلماء منهم شيخ الإِسلام سراج الدين عمر البلقيني الشافعيُّ، وولده قاضي القضاة جلال الدين، وقضاة القضاة بمصر، أَفْتَوْا بهدمه، وعمل زين الدين الفارسكوري الشافعي في ذلك تأْليفاً حسناً، ورسم السلطان بهدمه فتعرّض له مَن أَبطل عزمه عن ذلك من الحنفية، وأَفتى ببقائه ثم هدم سقفه الأَمير سودون المحمدي في سنة ست وثلاثين وثمان مئة، وعَمَّرَهُ أَتقن مما كان، ثم في سنة خمس عشرة وتسع مئة لما هدم خاير بك المعمار الْحِجْرَ أَخذ رخامَه فَرشَهُ في أَرض المقام، وأَزَّرَ به من داخله وخارجه جهة المحراب. ثم في سنة نيِّف وعشرين وتسع مئة هدم السلطان سليم مقام الحنفية إِلى أَساسه، وعمر عوضه قبة من الحجر المنحوت على أَربع عقود كبار، قصدوا بذلك القوة والإِمكان، ولم يلتفتوا إِلى إِشغال المكان.

ثم في سنة اثنتين وثلاثين وتسع مئة هدم المظفر سليمان بن سليم بن عثمان نصره الله تعالى مقامَي المالكي والحنبلي، وعمر كل واحد منهما على أَربعة أَعمدة من الحجر المكي، يعلو ذلك سقف من خشب الساج، مزخرف مذهّب، ثم أَمر السلطان سليمان نصره الله تعالى بهدم مقام الحنفية وعمارته على ما هو عليه الآن في ولاية داود باشا نائبه بمصر على يد الأَمير وشكلدي نائب جدة رحمه الله تعالى.

وفي سنة اثنتين وثلاثين وتسع مئة عمر السلطان سليمان بن عثمان منارة باب عليٍّ بعد أَنْ هُدِمتْ إِلى الأَرض، وعُمرت بالحجر الشُّمَيْسِي، وعُمِّر أَيضاً باب بني شيبة المعروف بباب السلام بالحجر الشُّمَيْسِي وزخرفه بالذهب، وعمل أَبوابه، وجعل بظاهره بسطة مفروشة بالبلاط تمنع الركاب من الوصول إِلى الباب بدوابهم، وغلّف منارة باب العمرة من أَسفلها إِلى أَعلاها بالآجُرِّ والجصِّ والجبس، وجاءت حسنة، وبيض باقي المنابر، وظاهر زمزم وقُبَّتي العباس، الشرابي، وزيادة دار الندوة، وعمر الموالد، عمارة حسنة وبيّضها، والله الموفق.

ذكر ولاية مكة المشرفة في الإسلام إلى هذا التاريخ

فنقول: لما فتح الله تعالى على رسوله ﷺ مكة المشرفة استخلف عليها عتاب بن أَسِيد بن أَبي العيص به أُمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأَموي، أَميراً على مَن تخلّف عن النبي ﷺ من الناس حين خرج إلى حُنَيْن، وذلك في العشر الأُول من شوال سنة ثمان من الهجرة، واستمر إلى أن مات[١].

وولي مكة المحرز بن حارثة بن ربيعة بن عبد العزَّى بن عبد شمس، نيابة عن عتاب في سفرة سافرها[٢].

ثم وليها بعده في أَول خلافة عمر رضي الله عنه ثم قنفذ بن عمير بن جدعان التيمي، ثم نافع بن عبد الحارث الخزاعي، ثم خالد ابن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي[٣].

ثم علي بن عدي بن ربيعة بن عبد العزَّى بن عبد شمس، ثم خالد بن العاص السابق[٤]، ثم الحارث بن نوفل السابق، وعبد الله بن خالد بن أَسِيد، وهو ابن أَخي عتاب، وعبد الله بن عامر الحضرمي، ثم أَبو قتادة الأَنصاري حارس رسول الله ﷺ، ثم قُثم بن العباس بن عبد المطلب[٥].

ثم عُتبة بن أَبي سفيان، ومروان بن الحكم بن العاص، وسعيد بن العاص، وابنه عمر بن سعيد المعروف بالأَشدق[٦].

والوليد بن عتبة بن أَبي سفيان بن حرب، وعثمان بن محمد بن سفيان الأَموي، والحارث بن خالد بن العاص المخزومي، وعبد الرحمٰن بن زيد بن الخطاب العدوي ابن أَخي عمر رضي الله عنه، ويحيى بن حكيم بن صفوان بن أُمية الجمحي[٧].

ثم ولي مكة عبد الله بن الزبير بن العوام[٨]، ثم الحجاج بن يوسف الثقفي،

---

(١) انظر: العقد الثمين [١/ ١٦١].
(٢) انظر: العقد الثمين [١/ ١٦١].
(٣) انظر: العقد الثمين [١/ ١٦٢].
(٤) ودامت ولايته إلى أن عزله منها الخليفة علي عليه السلام. انظر: العقد الثمين [١/ ١٦٢].
(٥) ودامت ولايته إلى أن قُتل علي عليه السلام. انظر: العقد الثمين [١/ ١٦٢].
(٦) انظر: العقد الثمين [١/ ١٦٢].
(٧) انظر: العقد الثمين [١/ ١٦٢ ـ ١٦٣].
(٨) وذلك بعد موت يزيد بن معاوية. انظر: العقد الثمين [١/ ١٦٣].

والحارث بن خالد بن العاص المخزومي، وخالد بن عبد الله الْقَسْري، وعبد الله بن سفيان المخزومي، وعبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أَسِيد المقدم ذكر أبيه، ومسلمة بن عبد الملك بن مروان، ونافع بن علقمة الكناني، ويحيى بن الحكم بن أَبي العاص[١].

والإِمام العادل عمر بن عبد العزيز بن مروان، ثم خالد بن عبد الله القسري[٢]، ثم [خالد بن عبد الله القسري][٣] ثم طلحة بن داود الحضرمي، ثم عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أَسِيد[٤].

ومحمد بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن أَبي بكر الصدِّيق، وعروة بن عياض بن عديٍّ النوفلي، وعبد الله بن قيس بن مخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف، وعثمان بن عبد الله بن سراقة العدوي[٥]. ثم عبد الرحمٰن بن الضحاك بن قيس الفهري، ثم عبد الواحد بن عبد الله النَّصري - بالنون -[٦].

ثم إِبراهيم بن هشام بن إِسماعيل المخزومي، ثم أَخوه محمد بن هشام، ثم نافع بن علقمة الكناني[٧].

ثم وليها عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز. ثم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك. ثم أَبو حمزة المختار بن عوف الخارجي بالتَّغَلُّبِ بعد الحج، في سنة تسع وعشرين ومئة[٨].

ثم ولي مكة في خلافة أَبي العباس السفاح أَول الخلفاء العباسيين، عَمُّهُ داود بن علي بن عبد الله بن عباس، ثم زياد بن عبد الله الحارثي، ثم العباس بن عبد الله بن معبد بن العباس بن عبد المطلب[٩].

---

(١) انظر: العقد الثمين [١/ ١٦٣].
(٢) انظر: العقد الثمين [١/ ١٦٣].
(٣) زيادة من العقد الثمين [١/ ١٦٣].
(٤) انظر: العقد الثمين [١/ ١٦٣].
(٥) انظر: العقد الثمين [١/ ١٦٤].
(٦) وهؤلاء في خلافة يزيد بن عبد الملك بن مروان. انظر: العقد الثمين [١/ ١٦٤].
(٧) انظر: العقد الثمين [١/ ١٦٤].
(٨) انظر: العقد الثمين [١/ ١٦٥].
(٩) انظر: العقد الثمين [١/ ١٦٥].

ثم السَّرِيُّ بن عبيد الله بن الحارث بن العباس بن عبد المطلب[١].

ثم محمد بن الحسن بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أَبي طالب. ثم عبد الصمد بن علي عَمُّ المنصور. ثم محمد بن إبراهيم الإمام[٢].

ثم جعفر بن سليمان، ثم عبيد الله بن قثم بن العباس[٣].

ثم الحسين بن علي بن الحسين بن الحسن بن علي بن أَبي طالب، ثم محمد بن عبد الرحمٰن السفياني، ثم أَحمد بن إسماعيل بن علي بن عبد الله بن عباس[٤].

وذكر قاضي القضاة ابن خلدون في تاريخه، فقال: إنه لما انقرض سكان مكة من قريش، ولم يبقَ فيها إلا أَتباع بني حسن أَخلاط من الناس، ومعظمهم موالٍ سود من الحبشة والزيلع، ولم تزل العمال عليها من بني العباس وشيعتهم، والخطبة لهم إلى أَن اشتغلوا بالفتنة أَيام المستعين والمعتز، وما بعدهما. فجرت الرئاسة فيها لبني سليمان بن داود، وهو أَول مَن خطب لنفسه منهم بالإمامة سنة إحدى وثلاث مئة، وخلع طاعة البعاسية، وقال في الموسم: الحمد لله الذي أَعاد الحق إلى نظامه، وأَبرز زهر الإيمان من كمامه، وكمل دعوة خير الرسل بأَسباطه لاَ بِبَني أَعمامه. وكان يلقب بالزيدي نسبة إلى نحلته من مذاهب الإمامية ثم الولاة من بني العباس.

ومن العلويين إلى سنة أَربع وثلاثين وثلاث مئة وليها أَبو الفتوح الحسن بن جعفر إلى أَن مات في سنة ثلاثين وأَربع مئة إلاَّ أَن صاحب مصر الحاكم العُبَيْدِيَّ عزله وولّى مكة عوضه ابنَ عم له يقال له أَبو الطيب، ثم أُعيد إلى ولاية مكة[٥].

ثم وليها بعده ابنه شُكر بن أَبي الفتوح، ودامت ولايته إلى أَن مات سنة ثلاث وخمسين وأَربع مئة، ثم ولي مكة علي بن محمد الصُّلَيْحي صاحب اليمن، ثم محمد بن جعفر بن أَبي هاشم، وهو جَدُّ أُمراءِ مكة المعروفين بالهواشم وهو أَبو هاشم محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن أَبي هاشم محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أَبي طالب، وكان تأمير الصُّليحي

---

(١) انظر: العقد الثمين [١/ ١٦٥ ـ ١٦٦].
(٢) انظر: العقد الثمين [١/ ١٦٦].
(٣) انظر: العقد الثمين [١/ ١٦٦].
(٤) انظر: العقد الثمين [١/ ١٦٦ ـ ١٦٧].
(٥) انظر: العقد الثمين [١/ ١٧١].

له في سنة ست وخمسين وأَربع مئة، ودامت ولاية أُمراءِ بني هاشم مئة وثلاثين سنة[١].

ثم ولي بعده ابنه قاسم، ثم أصبهيد بن سارمتكين، ثم عاد قاسم المذكور لولايتها في شوال سنة تسع وثمانين وأَربع مئة واستمر قاسم حتى مات في سنة سبع وعشرين وخمس مئة[٢].

وولي بعده قاسم ابنه إِلى أَوان الموسم في سنة ست وخمسين وخمس مئة، ثم ولي عوضه عمه عيسى بن فُلَيْتَةَ، ثم ولي قاسم مكة في شهر رمضان سنة سبع وخمسين، ثم قتل بعد أَيام يسيرة، وعاد عمه عيسى إِلى ولايتها، واستمر حتى مات في سنة ست وسبعين وخمس مئة ثم وليها بعد عيسى ابنه داود ثم أَخوه مُكْثِرُ بن عيسى، وبه انقضت ولاية الهواشم[٣].

وولي مكة بعد مُكْثِرٍ أَبو عزيز قتادةُ بن إِدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبد الله بن محمد بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أَبي طالب الحسني، في سنة سبع وتسعين وخمس مئة.

وقيل: في سنة ثمان وتسعين، واستمر حتى مات في سنة سبع عشرة وست مئة، وقيل: في سنة ثمان عشرة[٤].

ثم بعد قتادة ابنه حسن، ودامت ولايته إِلى سنة ستع عشرة وست مئة، وقيل: إِلى عشرين[٥].

ثم وليها بعده الملك المسعودي صاحب اليمن، ثم الملك المنصور نور الدين[٦]، ثم توالتها ملوك اليمن، وعساكرها بعد وقائع يطول شرحها إِلى أَن ملكها جَمَّاز بن حسن بن قتادة.

---

(١) انظر: العقد الثمين [١/ ١٧١ ـ ١٧٢].
(٢) انظر: العقد الثمين [١/ ١٧٢].
(٣) انظر: العقد الثمين [١/ ١٧٢].
(٤) انظر: العقد الثمين [١/ ١٧٣].
(٥) انظر: العقد الثمين [١/ ١٧٤].
(٦) بل وليها بعد المسعودي والده الكامل صاحب مصر ثم وليها المنصور. انظر: العقد الثمين [١/ ١٧٤].

ثم وليها بعده راجح بن قتادة ثم وليها بعده ابنه غانم بن راجح ثم وليها بعده إدريس بن قتادة، وأَبو نُمَيٍّ محمد بن أَبي سعد حسن بن علي بن قتادة بعد قتال[١].

وفي سنة أَربع وخمسين وست مئة انفرد أَو نُمَيٌّ بإمرتها، ثم عاد إدريس إلى ولايتها. ثم انفرد إدريس بولايتها أَربعين يوماً، ثم قتل سنة تسع وستين وست مئة، وانفرد أَبو نُمَيٍّ بولايتها إلى سنة سبعين، وتوفي وهو والٍ عليها في سنة إحدى وسبعين[٢]، ووليها قبل موت أَبي نُمَيٍّ بيومين ابناه حُمَيْضة وَرُمَيْثَة، واستمرا إلى أَن قبض عليهما في موسم سنة إحدى وسبع مئة، ووليها بعدهما أَخواهما أَبو الغيث وَخطيفة ابنا أَبي نُمَيٍّ، ثم وليها حُمَيْضَةُ وَرُمَيْثَة في سنة ثلاث وسبع مئة بولاية من الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر، واستمرا إلى موسم سنة ثلاث عشرة وسبع مئة، ثم وليها أَخوهما أَبو الغيث، ثم وليها حُمَيْضَةُ بعد قتال كان بينه وبين أَبي الغيث، ثم وليها بعده أَخوه رُمَيْثَة بولاية من الناصر المذكور، واستمر إلى أَن قبِض عليه بعد انقضاء الحج سنة ثمان عشرة وسبع مئة[٣].

ووليها عُطَيْفة بن أَبي نُمَيٍّ في أَوائل سنة تسع عشرة، واستمر إلى أَوائل سنة إحدى وثلاثين وسبع مئة، ثم وليها رُمَيْثَةُ بمفرده، واستمر إلى سنة أَربع وثلاثين. ثم ولِيها عُطَيْفَةُ شريكاً له، واستمر إلى سنة ست وثلاثين. ثم انفرد بها رُمَيْثَة، واستمر إلى أَن ترك ولايتها في سنة أَربع وأَربعين وسبع مئة لولديه عجلان وثَقَبَة، فأَبى ذلك ولاةُ الأَمر بمصر، وكتبوا له بالولاية فاستمر رُمَيْثَةُ إلى سنة ست وأَربعين، ثم وليها ابنه عجلان في حياة أَبيه، وفيها مات أَبوه، واستمر عجلان إلى سنة ثمان وأَربعين، ثم وليها معه أَخوه ثَقَبَةُ ثم صارا يتداولان ولايتها كل منهما وقتاً، ثم ولياها معاً باتفاقهما على ذلك في أَيام الموسم من سنة ثمان وخمسين وسبع مئة. ثم وليها بعدهما سَنَدُ وَرُمَيْثَةُ وابن عمهما محمد بن عُطَيْفَةَ في أَثناءِ سنة ستين وسبع مئة بولاية من الناصر حسن بن محمد بن قلاوون صاحب مصر[٤].

ثم وليها عوض بن عُطَيْفَةَ شريكاً لسند أَخو (؟) ثَقَبَة بن رُمَيْثَةَ.

ثم ولي عجلان إمرة مكة عوض سَنَد شريكاً لِثَقَبَة، وكان بمصر حين ولايته

---

(١) انظر: العقد الثمين [١/١٧٦].
(٢) انظر: العقد الثمين [١/١٧٦].
(٣) انظر: العقد الثمين [١/١٧٧].
(٤) انظر: العقد الثمين [١/١٧٨].

لذلك فما وصل إلى وادي مَرٍّ إلا وَثَقَبَةُ عليل مدنف، فلما مات ثَقَبَةُ في شوال سنة اثنين وستين وسبع مئة ولّى عجلان عوضه ابنه أَحمد بن عجلان ثم ترك عجلان الإمرة لابنه أَحمد على أُمورٍ اشترطها، واستمر منفرداً بالإِمْرة حتى أَشرك معه فيها ابنه محمد بن أَحمد بن عجلان، في سنة ثمانين وسبع مئة بولاية منْ صاحب مصر ولم يظهر لذلك أَثر لصغر ابنه، واستبداده هو بالأمور، واستمرا شريكين في الإِمرة حتى مات الأَبُ في العشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وسبع مئة، ثم انفرد بها الولد مئة يوم، ثم قُتل في مستهل الحجة في السنة المذكورة لما حضر لخدمة المحمل المصري، فوليها عوضه عنان بن مغامس بن رُمَيْثَة، واستولى على مكة بغير قتالٍ وقع بينه وبين جماعة الأَمير المقتول، واستولى على جُدَّة أَيضاً. ثم انتزعت منه في أَوائل سنة تسع وثمانين وسبع مئة، وأَشرك معه في الإِمرة ابْنَيْ عمه أَحمد بن ثَقَبَة، وعقيل بن مبارك بن رُمَيْثَة ثم علي بن مبارك استظهر بهم على أَعدائه فما وجد بذلك راحة(١).

ونمى الخبر إِلى السلطان الملك الظاهر برقوق بمصر فعزله، وولى علي بن عجلان بن رُمَيْثَة، وتحارب عنان وجماعته مع آل عنان، ومَن معهم بِأَذَاخِر، في سلخ شعبان سنة تسع وثمانين، وكان الظفر لعنان وأَصحابه، ثم استولى على مكة علي بن عجلان في موسم هذه السنة بعد مفارقة عنان وأَصحابه لمكة، ثم فارقهم عنان وتوجه إِلى مصر، فأَقام بها مدة مطلقاً ومعتقلاً، ثم ولي بعد إِطلاقه نصف إِمرتها شريكاً لعلي بن عجلان، واستمرا على الولاية إِلى الرابع والعشرين من شهر صفر الأَخير سنة أَربع وتسعين وسبع مئة، ثم استبدَّ بها عليٌّ وأَصحابه، بعد أَن هَمَّ بعضُهم بالفتك بعنان بالمسعى فنجا، ثم طُلِبَ إِلى مصر وتوجه بعده علي بن عجلان، واجتمعا بمصر عند الملك الظاهر فعزل عنان، وأَقام بمصر حتى مات في ربيع الأَول سنة خمس وثمان لمئة، وولي مكة علي بمفرده، ووصل إِلى مكة في موسم سنة أَربع وتسعين، وآخِر أَمِرِ أَنه قُتِل في تاسع شوال سنة سبع وتسعين وسبع مئة(٢).

ثم وليها عوضه أَخوه السيد حسن بن عجلان، واستمر منفرداً في الإِمرة إِلى أَن أَشرك معه فيها ابنه السيد بركات، في سنة تسع وثمان مئة بولاية من الناصر فرج بن الملك الظاهر برقوق صاحب مصر. ثم سعى لابنه السيد أَحمد في نصف الإِمرة الذي

(١) انظر: العقد الثمين [١/ ١٧٩].
(٢) انظر: العقد الثمين [١/ ١٨٠].

كان بيده، فأُجيب لسؤاله. وولي هو نيابة السلطنة ببلاد الحجاز، وذلك في ربيع الأَول سنة إِحدى عشرة وثمان مئة، واستمرا على ولايتها إِلى أَوائل سنة ثمان عشرة وثمان مئة. ثم عزلا عن ذلك ووليه السيد رمَيْثةُ بنُ محمد بن عجلان بن رمَيْثة. ثم عزل عن ذلك في ثامن عشر شهر رمضان سنة تسع عشرة، وولي عَمُّه إِمرة مكة السيد حسن عوضه، بعد حرب كان بين عسكر حسن وابن أَخيه في اليوم الذي قبله استظهر فيه عسكر السيد حسن على مَن قاتلهم، واستمر السيد حسن في إِمرة مكة حتى عزل عنها بالشريف علي بن عنان بن مغامس بن رمَيْثة بن أَبي نُمَيٍّ، وجهز معه الأَشرف برسباي عسكراً قويًا من القاهرة، فاستولوا على مكة بغير قتال، في سادس جمادى الأَول سنة سبع وعشرين وثمان مئة، ثم على جُدَّة، وتوجه قبل ذلك الشريف حسن لصوب اليمن، ثم أَتى مكة بأَمان من قبل السلطان، دخلها لابِساً لخلعة الولاية في أَول ذي الحجة سنة ثمان وعشرين، وتوجه إِلى القاهرة فأَكرمه السلطان كثيراً، وقرره في إِمرة مكة في العشرين من جمادى الأَول سنة تسع وعشرين وثمان مئة، وهو عليل، واستمر كذلك حتى توفي في سادس جمادى الآخرة من السنة بالقاهرة بعد أَن تجهز للسفر إِلى مكة، واستدعى السلطان بالسيد بركات بن حسن بن عجلان، وفُوِّضتْ إِليه إِمرة مكة، واستقر أَخوه السيد إِبراهيم نائباً عنه[1].

والسيد بركات المذكور هو جد السيد الشريف أَبي نُمَيٍّ الأَعلى. ثم ولي بعده محمد بن بركات بن حسن بن عجلان، ثم السيد الشريف الحسيب النسيب ولده بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان، ورأَيته رحمه الله وهو حسن الشيبة كبيرها ذو عقل وافر، وبهاء وكمال ظاهر، واستمر في الإِمرة بمفرده بعد وقائع وأُمور مع إِخوته، ذكرتُ بعضها في تعاقب السنين، عند ذكر إِمرة الحاج، واستمر منفرداً من غير منازع له إِلى أَن أَشرك معه في الإِمرة ولده مولانا السيد الشريف نجم الدنيا والدين أَبا نُمَيٍّ، وكان أَكبر أَولاده سنًا وعقلاً ومعرفة. فاستمرا على ذلك من غير منازع إِلى أَن انتقل السيد الشريف بركات بالوفاة بمكة إِلى رحمة الله تعالى ورضوانه في خامس عَشْري ذي القعدة سنة إِحدى وثلاثين وتسع مئة، ومولده سنة إِحدى وستين وثمان مئة، إِما في ربيع أَو بعده، وأُمه شريفة من بني حسن، ودخل القاهرة في سنة ثمان وسبعين، ومعه قاضي مكة البرهان بن ظهِيرة، ثم دخلها أَيضاً بعد ذلك، وانفرد ولده السيد الشريف نجم الدنيا والدين أَبو نُمَيٍّ بن بركات بن محمد بن

---

(١) انظر: العقد الثمين [١/ ١٨١ ـ ١٨٢].

بركات بن حسن بن عجلان بن رمَيْثة بن أَبي نُمَيٍّ محمد بن أَبي سعد حسن بن علي بن قتادة بن إِدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبد الله بن محمد بن موسى بن عبد الله المحض بن موسى بن الحسن بن الحسن بن علي بن أَبي طالب الحسني الهاشمي.

نَسَبٌ كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى ... نُوراً وَمِن فَلَقِ الصَّبَاحِ عَمُوْدَا

ولم ينازعه في ذلك أَحد من إِخوته، وأَخبرني فسح الله في مدته شفاهاً، أَنه ورد إِلى مصر والقاهرة للمقابلة في عام ثمان عشرة في ولاية السلطان الغوري، وفي عام أَربعة وعشرين وتسع مئة في ولاية السلطان سليمان لمقابلة نائبه خير بك، وأَظهره الله تعالى في تلك الأَقطار الحجازية نجماً أَشرقتْ بوجوده تلك الأَباطح، وسرَّتْ به رتب المعالي وحركات السعود والمناجح، وعَلاَ ذلك النجم على الفرقَدَيْنِ فصلح به ما كان فاسداً وخدم لسعده كل صالح، وانبثَّ سعده في تلك الأَقطار على الأَعداء سعد الذابح، وعلى الأَولياء سَعْد السعود، وأَشرق في حالك الدياجي نور عدله فعمّ الأَمن والأَمان لكل سالك ومورود، وتبسّمت ثغور أَيامه في تلك الأَقطار السنية الشرفة، فأَمن أَهل الحرمين، ومَن والاهم من كل مكروه وخيفة، فضراعة إِليك اللَّهم أَن تجعل عمره مديداً، وسعده على تجدد الأَيام جديداً، وأَوقاته في صفحات الأَيام غرراً، وتزيد في معاني خلاله المرضية أَسطراً ودرراً:

مَنْ كان يَسْأَل رَبَّهُ أُمْنِيَّةً ... فاللّهَ أَسْأَلُ أَنْ يُدِيْمَ لهُ الْبَقا

ولما نشأَ ولده السيد الشريف أَحمد، ومنحه الله تعالى رتب الكمال وأَودع فيه نور تلك الكواكب على أَتم مقصد، ورأى والده مخايِلَ السعادة والسيادة فيه، ونور الإِمرة الشريفة مَلءَ الناظر لمجتبيه، فقدّمه لأَنه أَكبر أَولاده، ونفّذ كلمته في سائر إِقليمه وبلاده، وجهزه بعد ذلك إِلى الأَبواب السليمانية، وقصد تأْييده بالأَوامر الشريفة الخاقانية، فدخل إِلى ذلك الباب المعظم، وداس ذلك البساط المكرم، وعامله مولانا السلطان نصره الله تعالى بما يليق بشرفه الشريف، وحباه من عطاياه الجليلة كل ما يحصل به التشريف، فعاد كما قدمنا ذكره مولى على تلك الممالك، نافذاً أَمره في تلك الأَقطار والمسالك، قد منحه الله تعالى حسن السياسة، وكمال المعقول وجمال السيادة والرئاسة، فحُمدت منه السيرة والسريرة، وكانت القلوب به مسرورة والعين برؤيته قريرة، وجميع الأُمور في الحقيقة منوطة بوالده، والمرجع إِلى تصرفه في طارف الأَمر وتالده، إِلى أَن توفي رحمه الله تعالى كما قدمنا ذكر وفاته في الليلة

المسفرة عن ثاني شهر رجب الفرد سنة إحدى وستين وتسع مئة، بوّأه الله تعالى أعلى غرف الجنة، وسقى ذلك العهاد المكرم صوب الرحمة، ثم إن مولانا السيد الشريف أبي نُمَيّ بن بركات أدام الله تعالى سعده ورحم أسلافه الكرام، وأيّد جده، قرر ولده السيد الشريف بدر الدنيا والدين حسن فيما كان فيه السيد الشريف أحمد، وقلّده تلك الولاية على أتم حالة وأسنى مقصد، وعرض على الأعتاب الشريفة السلطانية، والمواقف العلية (الخندكارية) السليمانية سقوط ضوء ذلك الشهاب النيِّر، وإشراق أنوار هذا البدر الذي هو فرع مجتبى من ذلك الأصل الْخَيِّر، وأنه رآه أهلاً لهذه الرتبة الشريفة بأتم مقصود وأجل مراد، وجهز إليه تقليد ولايته مع التشاريف السنية في طالع السعود، وشرف الإسعاد، وَسَطَعَتْ أنوار معدلته البدرية في الصعود والسيادة، وارتقى في سماء الإنصاف مُمَدًّا بالإسعاف، وفق المأمول منه وبه وزيادة:

فَلاَ زَالَ يَعْلُو رُتْبَةً بَعْدَ رُتْبَةٍ ... إِلَى أَنْ يُرَى لِلْفَرْقَدَيْنِ جَلِيْسا

ذكر بعض الوقائع بمكة المشرفة:

على سبيل الاختصار، مما يعد ذلك كالنادرة في معرض الأخبار، وقد ذكرت في توالي السنين ما اتفق من الوقائع بمكة، والطرقات في توالي الأعصار.

فمنها: أن في سنة تسع وتسعين ومئة، وقف الناس بعرفة بلا إمام، وصلُّوا بلا خطبة، لفرار أمير مكة عنها متخوفاً من حسين الأفطس العلوي، وكان وصوله مكة في آخر يوم عرفة، وبها وقف ليلاً[1]، كما قدمنا ذكره.

ومنها: أن في سنة مئتين من الهجرة نُهِب الحاج بِبُستان ابن عامر، وهو بطن نَخْلَةَ، وأُخِذَتْ كسوة الكعبة ثم استنقذها الجلوديُّ مع كثير من الأموال المنهوبة[2]، وقد ذكرت ذلك في تعاقب السنين أيضاً.

وفي سنة ست وستين ومئتين، وثب الأعراب على كسوة الكعبة، وانتهبوها، وصار بعضها إلى صاحب الزنج، واتفق أيضاً ضياع حمل من الكسوة الشريفة بعقبة أَيْلَة اختلسه بنو عطية في سنة ستين وتسع مئة وأُعيد بعد جهد، كما ذكرته أيضاً في تلك السنة.

ومنها: أن في سنة إحدى وخمسين ومئتين لم تقف الناس بعرفة لا ليلاً ولا

(١) انظر: العقد الثمين [١/ ١٨٤].

(٢) انظر: العقد الثمين [١/ ١٨٥].

نهاراً، لأَنَّ إِسماعيل بن يوسف العلويّ وافى المواقف بعرفة في يومها، وقتل من الحجاج نحو ألف ومئة، وسلب الناس، وهرب الناس إلى مكة[١].

ومنها: أن كافور الإخشيدي صاحب مصر كان يدعى له على المنابر بمكة والحجاز أجمع[٢].

وفي سنة تسع وأربعين وثلاث مئة لما انصرف حجاج مصر من الحج نزلوا وادياً وباتوا به فأتاهم السيل ليلاً فأخذهم جميعاً مع أثقالهم وحملهم فألقاهم في البحر.

ومنها: أن في سنة ثمان وخمسين وثلاث مئة خطب بالحرمين واليمن لصاحب مصر المعز العبيدي، وبطلت خطبة بني العباس، وفيها فرق قائد من جهته أموالاً عظيمة بالحرمين[٣].

ومنها: أن في سنة اثنتين وستين وأربع مئة أُعيدت الخطبة العباسية بمكة، وخطب بها للقائم عبد الله العباسي ثم للسلطان ألب رسلان السلجوقي[٤].

ومنها: في سنة سبع وستين وأربع مئة أُعيدت الخطبة بمكة لصاحب مصر المستنصر العبيدي، ثم خطب للمقتدر العباسي بمكة في سنة ثمان وستين، ثم أُعيدت الخطبة لصاحب مصر في سنة سبعين. ثم أُعيدت الخطبة للمقتدي في سنة اثنتين وسبعين[٥].

ومنها في ثمان وتسعين وأربع مئة خرج قوم من العرب على حاج مصر فقتلوا خلقاً كثيراً منهم، وأخذوا أموالهم وعادوا سائرين، فَسَيَّرَ إليهم أمير مكة محمد بن أبي هاشم عسكراً لينهبوهم فلحقوهم بالقرب من مكة، فنهبوا كثيراً من أموالهم وجِمالهم فعادوا إليه مستغيثين به، وشكوا إليه بُعد ديارهم، فلم يجبهم بما فيه كبير جدوى، وأعاد بعض ما أخذه منهم، فلما أيسوا منه عادوا من مكة عائدين على أقبح صفة، فلما بعدوا عنها ظهر عليهم جموع من العرب في عدة جهات فَضَايقوهم على مال أَخذوه من الحاج بعد أن قتلوا منهم جماعة وافرة، وهلك كثير بالضعف والانقطاع، وعاد السالم منهم على أقبح صورة في حالة عجيبة.

---

(١) انظر: العقد الثمين [١/ ١٨٥].
(٢) انظر: العقد الثمين [١/ ١٨٦].
(٣) انظر: العقد الثمين [١/ ١٨٦].
(٤) انظر: العقد الثمين [١/ ١٨٧].
(٥) انظر: العقد الثمين [١/ ١٨٧].

ومنها في سنة تسع وثماني وأربع مئة نزل الحاج العراقي في واد يسمى وادي المناقِب، عند نخلة، فأتاهم سيل عظيم فاجتاح جِمالهم، وأخذ الرجال والنساء، وما نجا إلاَّ مَنْ تعلق برؤوس الجبال.

ومنها في سنة عشر وخمس مئة كان أَمير الحاج العراقي يمن الحبشي الخادم المستظهري، ودخل مكة، وعلى رأسه الأعلام، وخلفه الكوسات، والبوقات والسيوف في ركابه، وإنما قصد إذهال أمير مكة والسودان.

ومنها في سنة اثنتي عشرة وخمس مئة عمر أَمير مكة قاسم بن هاشم الحسني مراكب حربية، وشحنها بالمقاتلة، وسيّرهم إلى عيذاب فنهبوا مراكب التجار، وقتلوا جماعة منهم.

ومنها في سنة تسع وثلاثين وخمس مئة نُهِبَ الحجاج العراقيون، وهم يطوفون ويصلُّون في المسجد الحرام لوحشة كانت بين نظر الخادم الحبشي أمير الحاج العراقي، وبين أمير مكة هاشم بن فُلَيْتَة[١].

ومنها في سنة أربع وأربعين وخمس مئة لما وصل الحاج العراقي إلى مضيق بين مكة والمدينة خرج عليهم العرب من بني زِغْب بعد العصر رابع عشر المحرم، فاستولوا على الحاج، وأخذوا من الأموال والجِمال والثياب ما لا يحصى، وأخذوا من الدنانير أُلوفاً كثيرة، وأخذوا من خاتون أُخت مسعود ما قيمته مئة أَلف دينار، وتقطّع الناس، وهربوا على أقدامهم، يمشون في البرية فماتوا من الجوع والعطش والْعُرْي.

ومنها في سنة سبع وخمسين وخمس مئة نَهَب أَميرُ مكة الحجاج العراقيين نحو أَلف جمل، لفتنة كانت بين الفريقين قتل فيها جماعة منهما، وعاد جماعة من الحجاج قبل تمام حجهم[٢].

ومنها أَن الحاج مكثوا بعرفة إلى الصباح خوفاً من فتنة كانت بين عيسى بن فُلَيْتَة أَمير مكة، وأَخيه مالك بن فُلَيْتَة، وذلك في سنة خمس وستين وخمس مئة، وذلك لأنهم إنما وصلوا عرفة في يومها[٣].

(١) انظر: العقد الثمين [١/١٨٧ ـ ١٨٨].
(٢) انظر: العقد الثمين [١/١٨٨].
(٣) انظر: العقد الثمين [١/١٨٨].

ومنها: أَن في سنة اثنتين وسبعين وخمس مئة أَبطل السلطان صلاح الدين يوسف بن أَيوب المكس المأخوذ من الحجاج في البحر إِلى مكة على طريق عيذاب، وكان ذلك معلوماً لأَمير مكة، فعوّضه السلطان صلاح الدين عن ذلك أَلفي دينار، وأَلف إِردب من القمح وإِقطاعات بصعيد مصر، وجهة اليمن، وقيل: إِنه عوضه عن ذلك ثمانية آلاف إِردب من القمح، تحمل إِليه كل عام إِلى ساحل جُدَّة[١].

ومنها: أَن جماعة من الحجاج ماتوا في الكعبة المعظمة من الزحام في سنة إِحدى وثمانين وخمس مئة، وهم أَربعة وثلاثون نفراً[٢].

وممن خطب له من ملوك مصر الملك الظاهر بيبرس الظاهري الصالحي ومَن بعده من ملوك مصر إِلى تاريخه.

ومنها: أَن الميورقي ذكر أَن في سنة خمس وخمسين وست مئة لم يحج من الآفاق ركب سوى حجاج الحجاز[٣]، وقال أَيضاً في سنة ستين وست مئة: لم ترفع أَيضاً رايةٌ لملك من الملوك بعرفة[٤].

ومن الحوادث أَن الحجاج ازدحموا في خروجهم إِلى العمرة من باب المسجد الحرام المعروف بباب العمرة، فمات من الزحمة منهم جمع كبير يبلغون ثمانين نفراً على ما قيل، وذلك بعد الحج في سنة سبع وستين وست مئة[٥].

ومنها: أَن في سنة عشرين وسبع مئة، وقف بعرفة عالم عظيم من جميع البلاد، وكان مع العراقيين محمل عليه حليٌّ من الجوهر، واللؤلؤ والذهب، ما قُوم بمئتي أَلف وخمسين أَلف دينار من الذهب المصري. ذكر ذلك الحافظ عَلَمُ الدين البرزاليُّ[٦].

ومنها: أَن في يوم الجمعة الرابع عشر من ذي الحجة سنة ثلاثين وسبع مئة قتل الدمر أَمير الحاج المصريين وابنه خليل وغيرهما، ونُهبَتْ للناس أَموال كثيرة، وذكر النُّويْري في تاريخه أَنَّ الخبر بهذه الحداثة وقع بمصر في يوم وقوعها بمكة[٧].

---

(١) انظر: العقد الثمين [١/ ١٨٩].
(٢) انظر: العقد الثمين [١/ ١٨٩].
(٣) انظر: العقد الثمين [١/ ١٩١].
(٤) انظر: العقد الثمين [١/ ١٩٢].
(٥) انظر: العقد الثمين [١/ ١٩٢].
(٦) انظر: العقد الثمين [١/ ١٩٤].
(٧) انظر: العقد الثمين [١/ ١٩٤].

ومنها: أَنَّ الحجاج وأَهل مكة تحاربوا كثيراً بعرفة في يومها من سنة ثلاث وأَربعين وسبع مئة فقتل من الترك نحو ستة عشر نفراً، ومن بني حسن ناس قليل، ولم يتعرّض للحجاج بنهب، وسافر الحجاج أَجمع من النفر الأَول، وسلك أَهل مكة في نفرهم من عرفة طريق المظلمة وهو اسم لِبئْرٍ هناك، فعرفت هذه الواقعة عندهم بسنة المظلمة(١).

ومنها: أَنَّ الحجاج المصريين قَلُّوا جدًّا في سنة ثمان وسبعين وسبع مئة لرجوع حريمهم من عقبة أَيْلَة إِلى مصر بسبب قيام الترك بها على صاحب مصر الملك الأَشرف شعبان بن حسين، وكان قد توجه منها إِلى الحج في أُبَّهَة عظيمة، وقد ذكرت هذه الواقعة فيمن حجّ من الملوك(٢).

ومنها: أَن في يوم التروية من سنة سبع وتسعين وسبع مئة حصل في المسجد الحرام جفلة بسبب منافرة حصلت بين بعض أَهل مكة، والحجاج فثارت الفتنة، ونُهبَتْ أَموالٌ كثيرة للحجاج، وقتل بعضهم، وتعرض الحرامية للحجاج فنهبوهم في طريق عرفة عند مأزِمَيْها وغيره، ونفر الحاج أجمع من النفر الأَول(٣).

ومنها: وصل مع الحجاج الحلبيين مَحْمَلٌ على صفة المحامل، ولم يعهد ذلك إِلاَّ في سنة سبع وثمانين وسبع مئة، ولم يكن ذلك قبلها(٤).

ومنها: أَن في سنة ثلاث وثمان مئة لم يحج أَحد من الشام على طريقهم المعتاد، لما أَصاب أَهل دمشق من القتل والعذاب والأَسر وإِحراق دمشق والفاعل لذلك أَصحاب تِمُرْلَنْك صاحب الشرق، وداوم انقطاع الحجاج الشاميين من هذه الطريق سنتين. ثم حجُّوا منها بمحمل على العادة في سنة ست وثمان مئة. ثم حجُّوا منها بمحمل على العادة في سنة تسع وثمان مئة، واستمر ذلك إِلى تاريخه(٥).

ومنها: أَنَّ الحجاج العراقيين حجُّوا بمحملٍ على العادة في سنة سبع وثمان مئة بعد انقطاعهم عن الحج تسع سنين.

وفي شعبان منها مات تِمُرْلَنْك، وحجّ العراقيون من هذه الطريق بعد هذه السنة

---

(١) انظر: العقد الثمين [١/ ١٩٥].
(٢) انظر: العقد الثمين [١/ ١٩٦].
(٣) انظر: العقد الثمين [١/ ١٩٧].
(٤) انظر: العقد الثمين [١/ ١٩٧].
(٥) انظر: العقد الثمين [١/ ١٩٧].

خمس سنين متوالية بمحمل على العادة، ثم انقطعوا منها ثلاث سنين متوالية.

أولها: سنة ثلاث عشرة وثمان مئة بموت سلطان بغداد أَحمد بن أُويس، في هذه السنة مقتولاً، وهو الذي جهز الحاج من بغداد في بعض السنين السابقة بعد سنة سبع وثمان مئة، ثم حجّ الناس من بعدها بمحمل على العادة إلى سنة عشرين وثمان مئة وانقطعوا، والذي جهزهم في هذه السنين متولي بغداد من قبل قَرَا يوسف التركماني، وهو الذي انتزع الملك من أَحمد بن أُويس، وحجّ العراقي بعد ذلك، ثم انقطع بعد سنة ست وتسعين وثمان مئة في دولة الملك الأَشرف قايتباي[1].

ومنها: خروج سلامة بن فواز المعروف بِجُغَيْمان، على الحاج المصري بوادي سماوة، في سنة ست وعشرين وتسع مئة في ولاية جانم من قصروه كاشف الفيوم والبهنساوية، فاستعدّ هو والحجاج لمحاربته، وكان القوم في نحو عشرة آلاف نفس، ما بين خيَّالة ورواحل ومشاة، فوقع الحرب بينهم من سحر ذلك اليوم إلى أوان الظهر، وانهزم هو وقومه، وكان القتل فيهم، ولم يحصل لفرد من أَفراد الركب أَدنى ضرورة، ولا ضاع من الركب عقالُ بعير.

وفي هذه السنة اتفق زحمة شديدة بعد الخروج من صلاة الجمعة المدينة الشريفة بباب السلام، فمات من الزحام أَربعة وعشرون نفساً.

وفي سنة تسع وثلاثين وتسع مئة اتفق بمكة جفلة هائلة، وهو أَن أَمير الركب لما دخل مكة بموكبه، وصحبته الشريف أبو نُمَيٍّ بن بركات بجماعته وخيوله، على العادة في عرضةِ أُمراء الحاج فأَراد شخص من (الانكشارية) أَن يُسَيِّب بندقية على الفارغ، وكان البارود كثيراً عن العادة فانكسرت، واشتعل البارود بسقائف الباعة بالمسعى، تجاه المدرسة الأَشرفية قايتباي، فحصل من العسكر والناس المتفرجة بعض غوغاء لذلك، فظنّ السيد الشريف أَن ذلك حيلة على القبض عليه ففزع وعزم وعسكره على القتال والذب عنه ففهم أَمير الحاج ذلك، وكان إذ ذاك مصطفى كاشف الغربية فأَسرع بالإذن للشريف بالتوجه مع جماعته، وبادر إلى نزوله بالمدرسة، وأَمر العسكر بالتوجه، وأَجهر النداء بالمسعى بالأَمان، فسكنت الفتنة وبلغتني أَنَّ حريم السيد الشريف لما أُشيع بمنزله القبضُ عليه، خرجن من المنزل حواسر، يصرخن حتى قيل لهن: إنَّ الشريف قد قرب إلى منزله سالماً، فعدن إلى منازلهن.

---

(١) انظر: العقد الثمين [١/١٩٧ ـ ١٩٨].

ومنها: ورود الحاج اليماني إِلى الأَقطار الحجازية بمحمل وعلم وطبول صحبة أَمير في كل سنة أَعاد ذلك مصطفى باشا اليمن في ولايته عليها في عام تسع وأَربعين وتسع مئة، وهو المعروف بالنشَّار، واستمر ذلك في كل سنة.

ومن الحوادث ما اتفق بمكة في سنة ثلاث وخمسين وتسع مئة ولاية الأَمير حسين متولي الفيوم والبهنساوية، من جفلة كبيرة بين الفورخ وبين العسكر المصري، وذلك أَن ولد بعض (كواخي) العسكر أَراد أَن يشتري بَطِّيخاً من شخص من السوقة المكية، فساومه فبخس التركي الثمن فاستغاث السوقي بأَحد عبيد السيد الشريف الخاصة المقدمين لديه ويسمى [....][1] فأَراد أَن يمنع التركي عنه فهاش عليه بالسلاح، فحينئذ جذب خنجره وهمز (؟) على التركي، فجاءت طرف الْجَنْبِيَّةِ في ضلعهِ، فجرحه وسال منه الدم، بعد أَن قطع ثيابه، ففزعت (الإِنكشارية) عند ذلك مع أَبيه للأَخذ بثأره، وفزع الفروخ مع عبد الشريف، وأَخذوه من أَيديهم على حمية، فلما وقع ذلك اجتمع العسكر المصريُّ جميعاً عن يدٍ واحدة وأَتوا أَمير الحاج يقولون له: إِن لم يسلمنا الشريف عبده وإِلاَّ ضَرَبْنَا بالسيف في جماعته وقتلنا كل مَن وجدنا منهم، وصمموا على ذلك بالكلية، وكادت أَن تقع الفتنة وكثرت المراسلات وتَرَدَّدَ (الجاويشية) والأَكابر بين الشريف وبين أَمير الحاج بسبب قائده، وهو يجيب عنه لينقذه من أَيديهم، فلم يستطع لكثرة تصميمهم على طلبه، فلما رأَى ذلك وخشي من وقوع فتنة كبيرة بين العسكر وجماعته أَرسله إِلى المسعى في ذلك اليوم، وشُمِّمَ الْعَبْدُ شيئاً من المِسْك بأَمر السيد الشريف، فمات في يومه، وقصد الشريف بذلك ستره بين قوّاده، لأَنه كان خصيصاً، واجتمعت على السيد الشريف بعد هذه الواقعة فحلف لي يميناً أَكِيداً بأَنه كان يود أَن يفدي فتاه بأَلف من الذهب لجماعة العسكر ولا يقطع يده فلم يريدوا المال، وإِنما أَرادوا قتله، قال: ولولا خوف الفتنة والضرر ونهب الحاج ما سمحتْ نفسي به.

ومن الحوادث الشنيعة المهولة واقعة الأَمير محمود أَمير الحاج مع الشريف وأَولاده، في سنة ثمان وخمسين وتسع مئة من إِظهار عزل الشريف أَحمد، والأَمر بخروجه من مكة وإِجهار النداء لولدي عمه الشريف محرم، وهما زائر وخائر بك، وهما غائبان عن مكة في موسم تلك السنة، ونهب الركب بطريق مِنى وبمكة، وقُتِلَ مَن أَراد الله قتله من الحجاج والعسكر، ولولا لطف الله تعالى في تلك السنة بعباده

---

(١) سقط المسمّى.

لما عاد من الركب أَحدٌ، وقد قدّمنا ذكر ذلك جميعه مفصلاً في بابه بما يغني عن إعادته. ولبعض أَصحابنا الحجازيين أَبيات في هذا المعنى لا بأْس بذكرها وهي:

أَقُولُ وَقَدْ رَامَ الشَّرِيفُ بنُ مَخْرَمٍ ... إِمارةَ بَيْتِ الله ذِي الْقَدْرِ وَالْعُلا
وَجَاءَ بِعَزْمٍ يَبْتَغِي قَبْضَ سَيِّدٍ ... عَلَى الْخَلْقِ وَبْلُ الأَمْنِ والْيُمْنِ أَسْبَلاَ
فَخَابَ الذي يَرْجُوهُ واخْتَلَّ أَمْرُهُ ... وآبَ بِخِزْيِ اللّهِ واللَّوْمِ في الْمَلاَ
أَيَا زَائِراً ضَلَّتْ مَسَاعِيْكَ كُلُّهَا ... وَمَا كُنْتَ إِلا زَائِراً مُتَرَحِّلا

ولا بأْسَ أَن نختم ذلك بذكر لطيفة حكاها صاحب «الذيل على مرآة الزمان» لسبط بن الجوزي في حوادث سنة ثلاث وتسعين وست مئة عن الشيخ شمس الدين بن الجزري الدمشقي أنه قال: لما كنت بمكة المشرفة كنت قد صادقت إِنساناً حلاوياً أَقعد عنده وأشتري منه، وهو دائم ينادي على حلاوته: رَحَل خواجا وَاأَسفي عليه!! فسأَلته عن سبب قوله ذلك فقال: في بعض الأَعوام قدم حجاج العراق ومعهم أَعجام كثيرة، فلما كان أَول يوم وأَنا قد طبخت الحلاوة، وبسطت الدكان، وإِذا بشابٍّ جميل الصورة عجميٍّ، قد قعد مكانك، وكنت قاعداً على كرسي قدام الدكان، فأَشار إِليَّ: أَنْ أَطعمني فغرفت له فأَكل حتى شبع، ومسح يديه، وقام وراح ولم يعطني شيئاً، وبعت واشتريت واستبركت بوجهه، فلما كان ثاني يوم حضر على عادته فحطَّيْتُ له فأَكل حتى شبع وقام وراح، فلما كان ثالث يوم حضر على العداة فحطَّيْتُ له فأَكل حتى شبع ومسح يديه ومدّ يده إِلى جيبه فأَخرج صُرَّةً ذهباً فيها مئة دينار وقال: خُذْ هذه الصُرَّة ثمن حلاوتك. فقلت له: يا سيدي: الذي أَطعمتك ما يساوي ثلاثة دراهم. فقال: لا أَشك، إِلا أَنني لما سافرت وودعت أَهلي جاءت أُختي وهي تَعِزُّ عليَّ وأَعطتني هذه الصرة، وقالت: كُلْ بهذه حلوى في مكة. واليوم قَدْ دُقَّ الكوس والرحيل بعد الظهر، وما قالتْ غير هذا القول، ولاَ قَالَتْ: كُلْ وأَطْعِم، وأَنا أَكلت عندك شبعي في هذه الثلاثة أَيام. فقلت له: تأْخذ معك من هذه الحلاوة زُوَّادَةً، فقال: لا، هذه أَمانة ولا يمكنني مخالفتها لعظم محبتي لها، وودعني وانصرف. فهذا سبب قولي: رَحَل خَوَاجا واأَسفي عليه. وليكن هذا آخر ما أَردنا إِيراده في هذا الفصل لأَنَّ القصد الاختصار، وعدم الملل بالإِكثار.

الفصل السابع

في ذكر أَفعال الحج والمناسك إِلى تمام أَفعاله شرعاً وما يتعلق بذلك، فنقول:

إِذا أَراد الحاج دخول مكة اسْتُحِبَّ له أَن يغتسل من بئر ذي طوَى وهو ما بين الثنية التي يُهْبط منها إِلى المعلاة والثنية الأُخرى التي إِلى جهة الزاهر. وقال النووي رضي الله عنه: إِنه الموضع المعروف بآبار الزاهر بأَسفل مكة[1]. والخصوصية بهذا اقتداء برسول الله ﷺ، ويجوز من غيرها. ويستحب دخول مكة من ثنية كَدَاء ـ بفتح الكاف والمد ـ والثنية في الأَصل الطريق بين جبلين، وهي في أَعلى مكة من جهة باب المعلاة نهاراً[2]. قال صاحب «الإِنصاف»: أَما دخولها نهاراً فمستحب بلا نزاع. ثم قال: والصحيح من المذهب أَنه لا يستحب دخولها في الليل، قدمه في «الفروع» وجزم به كثير من الأَصحاب[3]. ويقول حال دخوله مكة: آيِبُونَ تائِبُونَ، لربنا حامدون، الحمد لله كثيراً على تيسيره وحُسن بلاغه، والحمد لله الذي أَقْدَمَنِيْهَا سالماً معَافَى، اللهم هذا حرمنك وأَمنك، فحرِّم لحمي ودمي وشعري وبشري على النار، وأَمِّنِّي من عذابك يوم تبعث عبادك، وأَدخلني في رحمتك الواسعة، وأَعِذْني من الشيطان وجنده، وشرِّ أَوليائه وحزبه، واجعلني من أَوليائك وأَحبابك، وأَهل طاعتك برحمتك، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم. ويدخل المسجد من باب بني شَيْبة[4]، وهو المُسمّى الآن بباب السلام.

قال العلامة الفاسي: وهو أَول باب في الجنب الشرقي بين رباط الشرابي ورباط السدرة، وعليه منارة المسجد الحرام. وأَما الباب الذي يخرج منه المسافر إِلى بلده من المسجد الحرام فينبغي أَن يكون باب الْحَزْوَرَة أَو باب إِبراهيم، أَو باب العمرة[5].

فإِذا دخل القادم من باب بني شيبة ورأَى البيت رفع يديه وكبّر وقال: اللهم زِدْ هذا البيت تعظيماً وتكريماً وتشريفاً ومهابةً وبِرًّا، وزِدْ مَن عظَّمه وحجَّه تعظيماً وتكريماً

---

(١) وقال في إِيضاحه [ص٢١٦]: وهي في أسفل مكة في صوب طريق العمرة المعتادة. وقال في شرح المهذب [٨/٣]: وهو وادٍ بباب مكة. اهـ.

(٢) انظر: الإِنصاف للمرداوي [٤/٣].

(٣) انظر: الإِيضاح للنووي [ص٢١٦].

(٤) انظر: الإِيضاح للنووي [ص٢٢٤].

(٥) انظر: العقد الثمين [١/ ١٠٤].

وتشريفاً ومهابةً وبرًّا، الحمد لله، اللهم إنك دعوت إلى بيتك الحرام، وقد جئتك له، فتقبّل مني، وأَصلح لي شأني كله، يرفع صوته بذلك[١]. ثم يَضْطَبع، وهو أن يجعل وسطَ ردائِه تحت كتفه الأَيمن وطرفَيْهِ فوق الأَيسر، ويطوف المتمتعُ للعمرة، والمُفْرِدُ والقارن للقدوم، ويرمُل في الثلاث طوفات الأُولى ويمشي في الأَربع الباقية بسكينة. والرَّمَلُ إِسراعُ المشي مع تقارب الخُطَا، وهو سُنَّة عند الجمهور، وبه قال مالك والشافعي وأَصحاب الرأي[٢].

قال الشيخ موفق الدين: وقد جاء عن ابن عباس وعطاء: ليس على مَن ترك الرمل شَيْءٌ، وبه قال أَبو حنيفة وعامة العلماء.

ورُوي عن الحسن وإِبراهيم النخعي والثوري وابن الماجشُون أَنَّ على تاركه دم لأَنه نسك، وعندنا أَنه هيئة فلم يجب بتركها شيءٌ كالاضطباع في الطواف، ولا يسن الرمل والاضطباع للنساء، ولا لأَهل مكة ولا في غير هذا الطواف[٣].

ويبتدىء الطواف من الحجر الأَسود فيحاذيه بجميع بدنه[٤]، ثم يستلمه ويقبّله، وإِن شاء استلمه وقبّل يده، وإِن شاء أَشار إِليه، والاستلام هو مسحه وهو مشتق من السلام وهو التحية، وأَهل اليمن يسمون الْحَجَرَ الأَسودَ الْمُحَيَّا، لأَن الناس يُحَيُّونه بالسلام، والتقسيم في الاستلام والإِشارة إِليه بحسب أَنواع وجود المشقة وعدمها[٥]، ثم يقول: بسم الله والله أَكبر، إِيماناً بك، وتصديقاً بكتابك، ووفاءً بعهدك، واتباعاً لسنّة نبيك محمد ﷺ، كلما استلمه، فإِذا أَتى الركن اليمانيَّ استلمه فقط[٦]، وقيل: يقبّل يده مع الاستلام من غير تقبيل الركن، ويستحب الدنو من البيت في الطواف لأَنه المقصود، وبه قال أَبو حنيفة ومالك والشافعي، إِلا أَن يُؤْذِيَ غيره أَو يتأَذّى في نفسه، فيخرج إِلى حيث أَمكنه، وكلما كان أَقرب فهو أَفضل، وإِن كان الأَبْعَدُ أَوسع مَطَافاً وأَكثر خُطَا[٧]، وكلما حاذى الْحَجَرَ والركنَ اليمانيَّ استلمهما إِنْ تسير، أَو أَشار إِليهما، ويقول بين

---

(١) ويدعو بما أحب من مهمات الآخرة والدنيا، وأهمها سؤال المغفرة. انظر: الإيضاح [ص٢٢٢].

(٢) انظر: شرح المهذب [٨/ ٤١]، المغني [٣/ ٣٨٧].

(٣) انظر: المغني [٣/ ٣٨٩ ـ ٣٩٠].

(٤) انظر: المغني [٣/ ٣٨٤].

(٥) انظر: المغني [٣/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤].

(٦) انظر: المغني [٣/ ٣٩٣].

(٧) انظر: المغني [٣/ ٣٨٨].

الركنين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١] ويقول في سائر طوافه: اللهم اجعله حجًا مبروراً، وسعياً مشكوراً، وذنباً مغفوراً، رب اغفر وارحم، واهدني السَّبِيْلَ الأَقوم، وتجاوز عمَّا تعلم، وأنت الأَعزُّ الأَكرم.

ولا تُكرَه قراءة القرآن في الطواف بل تسن، قاله الشافعي وأَصحاب الرأي[1].

وقال مالك: تُكْرَهُ[2].

وشروط الطواف: النية لأَنه عبادة، وستر العورة، والطهارة من الحدث والخبَث، لأَنه صلاة إلا أنه أُبيح فيه الكلام، ومن شروطه تكميل السبع والموالاة بأَن لا يقطعه إِلا لِمكتوبة أُقيمتْ أَو جنازة حضرت، فيفعلها ثم يبني، ويكون البناء من الْحَجَرِ الأَسود، ولو كان القطعُ من أَثناء الشوط، ويجعل البَيْتَ عن يساره، وأَنْ لا يمشي في شيء من البيت كَالْحِجْرِ والشاذَرْوَان، وأَن لا يخرج عن المسجد، وأَن يبدأ بالْحَجَرِ الأَسود[3].

ولا يصح الطواف منكّساً، ولا خارج المسجد، ولا على أَرض نجسة[4]، ولو طاف مع حائلٍ بينه وبين البيت أجزأَه، ومَن طاف راكباً أَو محمولاً لم يُجْزِئْهُ إِلا لعذرٍ، وسعيه راكباً كطواف وقيل: يجزىء السَّعيُ راكباً مطلقاً.

وقال الشيخ سلمان المرداوي في «الإِنصاف» السعي راكباً كالطواف راكباً على الصحيح من المذهب نَصَّ عليه، وذكره الْخِرَقيُّ والقاضي، وصاحب «التخليص» والمجد، وغيرهم، وقدّمه في «الفروع» والزركشي، ويجزيان عن المحمول دون الحامل. انتهى[5]. وعلى قول مَن قيده بالعذر أن المصطفى ﷺ إِنَّما طاف راكباً ليراه الناس، وذلك في حجة الوداع.

وقال الشافعي: يجزيه الطواف راكباً من غير عذر.

وقال أَبو حنيفة ومالك والليث: إِذا طاف لغير عذر راكباً كُرِهَ له ذلك، وقيل له: أَعِدْ فإِن لم يُعِدْ ورجع إِلى بلده أَجزأَه، وعليه دم[6].

---

(١) انظر: المغني [٣/ ٣٩١].

(٢) وهو قول عروة والحسن ورواية عن أحمد. انظر: المغني [٣/ ٣٩١].

(٣) انظر: الإنصاف للمرداوي [٤/ ١٩].

(٤) انظر: الإنصاف للمرداوي [٤/ ٥].

(٥) انظر: الإنصاف للمرداوي [٤/ ١٣].

(٦) انظر: المغني [٣/ ٤٠١].

ويستحب للمرأة الجميلة تأخير الطواف والسعي إلى الليل مع الإمكان، وعدم المحذور.

فإذا أكمل سبعة أشواط استحب له أن يأتي إلى الملتزم، وهو بين الْحَجَرِ الأَسود والباب ـ كما قدَّمنا ذكره ـ فيلصق بطنه بجدار البيت ويضع خَدَّهُ الأيمن عليه إن أمكنه، ويتعلق بأستاره ويبسط عليه ذراعيه وكفَّيه، وكذلك يفعل بعد طواف الوداع، فإن لم يقدر على ذلك وقف حياله، ثم يقول: اللهم إني عبدك البائس الفقير المضطر ببابك، الخاضع لك والخائف من عقابك، وهذا مقام العائذ بك من النار، أستغفرك وأتوب إليك، الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه، كما يحبُّ ربُّنا ويرضى وكما ينبغي لكرم وجهه وعزِّ جلاله، ويصلي على النبي ﷺ كما يصلي عليه في التشهُّد، ويدعو بما يريد من خيرَي الدنيا والآخرة، لنفسه وللمسلمين.

ثم يأتي المقام فيصلي خلفه ركعتين، يقرأ في الأُولى بعد الفاتحة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ١﴾ [الكافرون: ١] وفي الثانية (الإخلاص) ويدعو بما أحب، وهما سنّة مؤكدة غير واجبة، وقال أبو حنيفة ومالك: هما واجبتان، وللشافعي قولان[١].

ثم يشرب من ماء زمزم، ثم يأتي الْحَجَرَ الأَسود فيستلمه، وبه قال مالك والشافعي لفعل النبي ﷺ.

وسنن الطواف: استلام الركن وتقبيله أو ما يقوم مقامه من الإشارة واستلام الركن اليماني والاضطباع، والرمل، والمشي في مواضعه، والدعاء والذكر، وركعتا الطواف، والطواف ماشياً في أحد القولين، والدنوُّ من البيت، وفي بعض ذلك خلاف كركعتَي الطواف، والصحيح أنهما سنّة[٢].

ثم يخرج إلى السَّعي، وهو تبع الطواف، لا يصح إلا بعد الطواف، وإن سعى قبله لم يصح، وبه قال مالك والشافعي وأصحاب الرأي[٣].

ويستحب الخروج إليه من باب الصفا يَبْدَأُ برجله اليُسْرَى، ويجب تعيينه بالنية إمّا للعمرة أو للحج، وأن يبدأ بالصفا، ويختم بالمروة[٤]، وأن يكمل السبعة الأشواط متوالية، يحتسب ذهابه شَوْطاً ورجوعه شَوْطاً، ويقول حال خروجه: اللَّهم افتح لي

---

(١) انظر: الإنصاف للمرداوي [٤/ ١٩].
(٢) انظر: المغني [٣/ ٤٠٨ ـ ٤٠٩].
(٣) انظر: الإنصاف للمرداوي [٤/ ١٩].
(٤) انظر: المغني [٣/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤].

أَبواب فضلك، ثم يصعد إلى طرف جبل الصَّفَا إن كان ماشياً وإلاَّ فيصعد بدابَّته حتى تضع حافرها على شيء منه، والبناء على الجبل المذكور حكم الجبل ويسعى في بطن المَسِيْلِ، ويستقبل القبلة في صعوده وعلى المروة، ويرفع يديه عند الدعاء، ويكبّر ويهلّل، فيقول: الله أكبر الله أكبر، ولله الحمد. الله أَكبر على ما هدانا، والحمد لله على ما أَولانا، لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قدير، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأَحزاب وحده، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون[١]. ويقول في السعي: ربِّ اغْفِرْ وارْحَمْ، واعْفُ عما تعلم، إنك أَنت الأَعز الأَكرم[٢]. والسنّة رفع الصوت في التكبير وأَمَّا الدعاء فلا يرفع صوته لأَن سنة الدعاء السِّر كما قال تعالى: ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأنعام: ٦٣] وكما قال تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم: ٣] وتُسَنُّ موالاته بين الأَشواط والطهارة والسترة إلا الاضطباع، والمرأة لا ترقى ولا تسعى سَعْياً شديداً[٣]، وإن سعى بين الصفا والمروة على غير طهارة كُرِه ذلك وأَجزأه في قول أَهل العلم، منهم عطاء ومالك والشافعي وأَصحاب الرأي[٤]، فإذا فرغ حلق أَو قَصَّر إن كان معتمراً، ويحل له كل ما حَرُمَ عليه بالإحرام[٥] إلا أَن يكون متمتعاً قد ساق الْهَدْيَ فإنه لا يقصر، بل يبقى على إحرامه، فعلى المذهب يُحْرِم بالحج إذا طاف وسعى لعمرته قبل تحلله بالحلق، فإذا ذبح الهَدْيَ يوم النحر حلَّ منهما معاً نصَّ عليه[٦]، وإن كان مُفْرِداً أَو قارناً بقي على إحرامه[٧].

ويستحب له في مدة إقامته بمكة الإكثار من الطواف ومشاهدة الكعبة وإكثار الذكر والتلاوة، والدعاء بالملتزم. ويستحب دخول الكعبة، فيمشي تلقاء وجهه، حتى يكون بينه وبين الجدار الذي يقابله قدر ثلاثة أَذرع، فيصلي هناك ركعتين، وإن شاء زاد، ويُكَبِّرُ في نواحي البيت، ويدعو مخلصاً. ويستحب أَن يصلي داخل الْحِجْرِ

---

(١) انظر: المغني [٣/ ٤٠٥].
(٢) انظر: المغني [٣/ ٤١٣].
(٣) انظر: المغني [٣/ ٤١٢ ـ ٤١٣].
(٤) انظر: المغني [٣/ ٤٠٩].
(٥) انظر: المغني [٣/ ٤١٠].
(٦) انظر: المغني [٣/ ٤١١].
(٧) انظر: الإيضاح للنووي [ص٣٠٦].

تحت الميزاب قرب البيت، فهو من الكعبة. ومن محاسن الدُّعاء في البيت: اللَّهم إنَّكَ وعَدْتَّ مَن دخل بيتك الأَمْنَ، وأَنْتَ خير مَن وفَى، اللَّهم فاجْعَل أَماني أن تكفيني ما أَهَمَّني من أَمر الدنيا والآخرة حتى أدخل الجنة بغير عذاب.

ويكثر في إقامته بمكة من شرْبِ زمزم، ويتضلع منه، ويكثر من كل أَفعال الخير ويتجنَّب اللغو والرفث ومساوِىء الأَخلاق.

ويُسَنُّ الإِحرام للحج بمكة، والأَفضلُ من تحت الميزاب في ثامن ذي الحجة وهو يوم التروية، ويجوز من خرج الحرم ولا دم عليه، ويُسَنُّ الغسل لهذا الإِحرام، ويفعل ما تقدّم ذكره عند الإِحرام من الميقات، والسنّة أَن يخرج إِلى مِنى قبل الزوال، ويحرم بالحج عند خروجه إِليها إِن كان حلالاً أَوْ متمتعاً، ويسير إِلى منى مكثراً من التلبية ويستحب أَن يقول في طريقه إِلى مِنى: اللَّهم إِليك توجَّهت، وعليك اعتمدت، ووجهك أَردت، فأَسأَلك أَن تبارك لي في سفري، وأَن تقضي حاجتي، كما مننت على أَوليائك وأَهل طاعتك، فأَنا عبدك وابن عبدك في قبضتك، ناصيتي بيدك، تفعل بي ما أَردتَّ وتغفر لي، ثم يقول إِذا دخل إِلى منى: هذه منى وهي مما دللتنا (؟) للثنا جملة من المناسك، فأَسأَلك أَن تمنَّ علينا بجوامع الخير كله.

ويبيت بها بعد أَن يصلي بها الظهر مع الإِمام، ثم إِلى الفجر، وبهذا قال سفيان ومالك والشافعي وأَصحاب الرأْي، فإِذا أَشرقت الشمسُ على ثَبِير، وهو جبل معروف بمنى، وسيأْتي ذكره، سار إِلى نَمِرَة ـ بفتح النون وكسر الميم بعدها راء ـ موضع بعرفة قال الأَزرقي: هو الجبل الذي عليه أَنصاب الحرم عن يمينك إِذَا خَرَجْتَ من مَأْزِمَيْ عَرَفَةَ[1].

ويقول: اللَّهم اجْعلها خَيْر غَدْوة غدوتها، اللَّهم بارك لي في غدوتي، واقرنها برضاك عني، وتفضل عليّ بالسلامة في دنياي وأُخراي، واجعلني ممن تباهي به اليوم مَن هو خير مني وأَفضل مني، واحفظني في دِيني وطريقي برحمتك يا أَرحم الراحمين، ويكثر من القراءة والدعاء فإِنه موطن مَرْجُوٌّ فيه الإِجابة، ويستحب أَن يقيم بها إِلى أَن تزول الشمسُ، فيذهب إِلى المسجد، فيسمع الخطبة من إِمام أَو نائبه، يفتتحها بالتكبير ويذكر الوقوف ووقته، والدفع منه، والمبيت بالمزدلفة، ويجمع بين الظهر والعصر في أَول وقت الظهر إِن أَمكن مع الإِمام، وإِلاَّ في جماعةٍ أُخْرَى، وإِلاَّ

(١) انظر: الإيضاح للنووي [ص٣٠٧ ـ ٣٠٩].

منفرداً بأَذانٍ وإِقامتين[١]. قال أَبو العباس: ونمرة من الْحِلِّ وهي ليست من عرفات، وبها يكون سُوْقُهم، وأَمَّا أَرْضُ عرفات فليست السنة أَن يُنْزل بها، ولا يباع فيها ولا يُشْتَرَى، وإِنَّما تدْخلُ وقت الوقوف[٢].

قال مالك بن أَنس رضي الله عنه: لم يكن بعرفة مسجدٌ منذ كانت، وإِنَّما أُحْدِث مسجدها بعد بني هاشم بعشر سنين، وكان الإِمام يخطب منها موضع يخطب اليوم، ويصلي بالناس فيه.

وقد ذكر الأَزرقي أَنَّ مِنْ حَدِّ الحرم إِلى هذا المسجد [أَلْفا][٣] ذراعٍ، وست مئة ذراعٍ وخمسة أَذْرُعٍ[٤]، وأَنه من الغار الذي بعرفة، وهو منزل النبي ﷺ، إِلى هذا المسجد أَلْفا ذراعٍ وأَحد عَشر ذراعاً[٥]، ويسمون هذا المسجد مَسْجِدَ إِبراهيم[٦]، وهذا المسجد ببطن عُرَنَة، وليس هو من عرفات، فتكون الخطبة والصلاة يوم عرفة ببطن عُرَنَة.

وقال الشافعي: عَرَفة ما جاوز وادي عُرَنَةَ الذي فيه المسجد[٧].

وقال أَبو محمد بن حزم: عَرَفَةُ من الحل وعُرَنَةُ من الحرم.

قال الشيخ موفق الدين الحنبليُّ، عين الأئِمة وإِمام الأُمَّةِ، في شرحه على «المقنع»: وقد أَعرض كثيرٌ من الناس في زماننا عن أَكثر هذه السُّنَنِ فيوافون عرفة من أَول النهار، وربما دخلها كثير منهم ليلاً وبات بها، وأَوقد النيران بها وبِمنى والمزدلفة، وهذا بدعة وخلاف السنة، ويتركون إِتْيان نمِرَةَ والنزول بها فإِنها عن يمين الذي يأْتي عرفة من طريق المَأْزِمَيْنِ، يماني المسجد الذي هناك، ومَن قصد عرفات من طريق ضَبٍّ كانت على طريقه، ولا يجمعون الصلاتين ببطن عُرَنَة بالمسجد الذي هناك، ولا يعجلون الوقوف الذي هو الركوب وشدُّ الأَحمال، بل يخلطون موضع النزول أَول النهار بموضع الصلاة، والخطبة بموضع الوقوف، ويتخذون الموقف سُوْقاً، وإِنَّما كانت الأَسواقُ بين الحرم والموقف. انتهى كلامه هنا.

---

(١) انظر: الإيضاح للنووي [ص٣٠٧].
(٢) هكذا في الأصل، وفي أخبار مكة للأزرقي [٢/١٨٨]: [ألف].
(٣) انظر: أخبار مكة للأزرقي [٢/١٨٨].
(٤) انظر: أخبار مكة للأزرقي [٢/١٨٩].
(٥) إلى الجبال مما يلي بساتين بني عامر. انظر: مناسك النووي [ص٣١٠].
(٦) انظر: مناسك النووي [ص٣١٢].
(٧) انظر: مناسك النووي [ص٣١٨]، المغني [٣/٤٢٨].

ثم يتوجه إلى عرفة أي يروح إلى الموقف، ويسنُّ راكباً[(١)].

قال الْمُنَقِّحُ: ويسن وقوفه بعرفة راكباً بخلاف سائر المناسك والعبادات فراجلاً، فمَن حصل بها في شيء من هذا الوقت ولو لحظةً وهو مسلمٌ عاقلٌ ولو لم يعلم أَنها عرفة صحّ حجه[(٢)]، إلاَّ مع سُكْرٍ أَو إِغْمَاءٍ نَصًّا[(٣)].

والمستحب وقوفه مستقبل القبلة، عند الصَّخَرَاتِ وجبل الرحمة[(٤)].

وعرفةُ من الْجبل المشرف على بطن عُرَنَةَ - بالنون - إلى الجبال المقابلة له، إلى ما يلي آثارَ حوائط بني عامر، وليست عُرَنَةُ منها، ولا يصح الوقوف بها.

ووقت الوقوف من فجر يوم عرفة[(٥)] إلى فجر يوم النحر[(٦)].

وقال أَبو حنيفة ومالك والشافعي: إِنَّما يدخل الوقت بالزوال[(٧)]، وموقف النبي ﷺ على مُضَرَّس من الجبل النابت، مُضَرَّس بين أَحجار هناك ميامنة من الجبل الذي يقال له إِلآل بعرفة، عن يسار طريق الطائف، وعن يمين الإِمام، وهو عند الصَّخَرَاتِ الكبار التي عن يسار الجبل، إذا جعل وجهه إلى الكعبة في أَسفل الجبل.

قال جابر بن عبد الله: ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أَتى الموقف فجعل بطن

---

(١) انظر: مناسك النووي [ص٣١٤].

(٢) انظر: الشرح الكبير [٣/ ٤٣٤].

(٣) انظر: مناسك النووي [ص٣١٤].

(٤) قال الشيخ النووي: وهذا خطأ مخالف، وما اشتهر عند العوام من الاعتناء بالوقوف على جبل الرحمة الذي بوسط عرفات وترجيحهم له على غيره من أرض عرفات حتى ربما توهّم كثير من جهلتهم أنه لا يصح الوقوف إلا به فخطأ مخالف للسنة، ولم يذكر أحد ممن يُعتمد عليه في صعود هذا الجبل فضيلة إلا أبو جعفر الطبري فإنه قال: يستحب الوقوف عليه، وكذا قال أقضى القضاة الماوردي صاحب الحاوي من أصحابنا: يستحب أن يُقصد هذا الجبل الذي يقال له جبل الدعاء، قال: وهو موقف الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، قال الشيخ النووي: وهذا الذي قالاه لا أصل له، ولم يرد فيه حديث صحيح ولا ضعيف، والصواب الاعتناء بموقف رسول الله ﷺ وهو الذي خصّه العلماء بالذكر والتفضيل، ثم قال: وقد قال إمام الحرمين: في وسط عرفات جبل يسمى جبل الرحمة لا نسك في صعوده وإن كان يعتاده الناس.

(٥) انظر: مناسك النووي [ص٣١٦ - ٣١٧].

(٦) قال شيخ الإسلام موفق الدين المقدسي: لا نعلم فيه خلافاً. انظر: المغني [٣/ ٤٣٣].

(٧) واختاره أبو حفص العكبري، وحمل عليه كلام الخرقي، وحكى ابن عبد البر ذلك إجماعاً. انظر: المغني [٣/ ٤٣٣ - ٤٣٤].

ناقته الْقَصْوى إِلى الصَّخَرَاتِ، وجعل حَبْلَ الْمُشَاةِ بين يديه واستقبل القبلة، فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس، وذهبت الصُّفرة قليلاً حتى غاب الْقُرْصُ، وأَردف أُسامة خلفه، ودفع رسول الله ﷺ. رواه مسلم(١) وغيره(٢).

ويستحب الإِكثار من ذكر الله تعالى والدعاء يوم عرفة فإِنه يوم ترْجَى فيه الإِجابة، ولذلك اسْتُحِبَّ له الفطر ليتقوّى على الدعاء، مع أَنَّ صومه بغير عَرَفَةَ يَعْدِلُ سَنَتَيْنِ، وليس في الدعاء فيه شيء مُوَقَّت والمستحب المأْثورُ عن النبي ﷺ في الجملة، وقد روي أَن أَكثر دعاء النبي ﷺ يوم عرفة: لا إِله إِلاَّ الله وحده لا شريك له، له المُلك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. رواه أَحمد(٣) وهذا لفظه، والترمذي ولفظه: أَنَّ النبي ﷺ قال: «خير الدعاءِ دعاءُ يوم عرفة، وخير ما قلتُ أَنا والنبيون من قبلي: لا إِله إِلا الله وحده لا شريك له، له المَلك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»(٤) ويكثر من التضرُّع والتنصُّل من الذنوب، والندم على ما فات، والعزم المصمّم على ترك العود إِلى شيء من المَنْهيَّات، وينبغي أَن لا يتشاغل بشيء من أُمور الدنيا، ويأْكل من أَحَلِّ ما يقدر عليه.

فإِذا غربت الشمس أَفاض إِلى مُزْدَلِفَةَ بسكينه ووقار، وناوِياً الجمع بين العشاءين قَصْراً بِأَذَانٍ وإِقامتين، قبل حطِّ رحله، إِن أَمكن، فإِن صلّى المغرب في طريقه وترك الجمع جاز، لكن الجمع أَفضل(٥).

ويبيت بمزدلفة حتى يطلع الفجر، وله الدَّفْعُ منها بعد نصف الليل فإِنْ دفع قبله فعليه دم إِنْ لم يَعُدْ إِليها ليلاً، ولو كان بعد النصف كما لو وصل إِليها بعده قبل الفجر(٦)، وكذلك إِذا دفع من عرفات قبل غروب الشمس فعليه دم إِن لم يَعُدْ إِليها قبل الغروب، وتغرّب وهو بها(٧).

قال البكري في «معجمه» عن عبد الملك بن حبيب: جمع هي المزدلفة وجَمَّع

---

(١) في كتاب الحج [٢/٨٨٦ ـ ٨٩٢] ح [١٢١٨/١٤٧].

(٢) أخرجه ابن ماجه في المناسك [٢/١٠٢٢ ـ ١٠٢٧] ح [٣٠٧٤]، والدارمي في المناسك [٢/ ٦٧ ـ ٧١] ح [١٨٥١].

(٣) [٣/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣] ح [١٤٤٥٣].

(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات [٥/ ٥٧٢] ح [٣٥٨٥] وقال: حديث غريب.

(٥) انظر: مناسك النووي [ص٣٣٣ ـ ٣٣٧].

(٦) انظر: المغني [٣/ ٤٤١]، مناسك النووي [ص٣٣٨].

(٧) انظر: المغني [٣/ ٥٢٩].

وقُزَح، والمشعر الحرام، وسميت جمعاً للجمع بين المغرب والعشاء بها، وقيل لاجتماع الناس بها.

وحَدُّ المزدلفة ما بين المأزِمَيْنِ ووادي مُحَسِّر، ومُحَسِّر هو وَاد بين المزدلفة ومِنى[١]، سُمِّي بذلك لأن فيلَ أصحاب الفيل حَسَرَ فيه ـ أي أعيا ـ ويأخذ سبعين حصاة من المزدلفة أو من طريقه إليها ومن حيث أَخَذَ حَصا الجمار جار[٢]، ويُكْره من مِنى، وتكسيره، وصفة الواجب فوق الْحُمُّصِ ودون البندق[٣].

ويسن غسله إن لم يتيقن تنجُّسه[٤]، فإن تيقنه وجب غسله في أحد الوجهين، والخلاف قويٌّ[٥].

ولا يأخذ من مسجد[٦]، ولا يجزىء الرمي بحصا قد رمي به[٧]، فإنه يُروى أَنَّ ما يتقبّله الله يرفعه[٨]، ولا بِذَهَبٍ وفضة[٩]، ويشترط عِلْمُهُ بحصول الحصا في الْمَرْمى[١٠].

وهذه الليلة مشهودة، وإحياؤها مستحب، ويدعو فيقول: اللَّهم إنك مننت علينا بالإِسلام فَأَحْيِنَا عليه، وتَوَفَّنَا على الإِيمان، واجعلنا من صالحي أَهْلِهِ، قولاً وعملاً، سرًّا وعَلَناً، واغفر لنا جميع ما كان منَّا، ظاهِراً وباطناً جَهْراً وغائباً، وما هو كائِن أَبداً ما أَبقيتنا، يا واسع المغفرة، يا مَن لا يتعاظمه ذنبٌ أَن يغفره، ولا جُرْمٌ أَنْ يصفح عنه ويَهبَه، اللَّهم غفرانك يا أَرحم الراحمين. ويضطجع ساعة ليذهب عنه شدةُ الوسن، ويصلي الفجر قبل مسيره من جمع، اقتداء برسول الله ﷺ، فإذا أَتى المشعر الحرام واسمه قُزَح، فيرقاه إن أَمكن، وإلا وقف عنده بحمد الله ويهلله ويكبِّره ويكثر من قول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]. ثم يقول: اللهمَّ رَبَّ

---

(١) انظر: مناسك النووي [ص٣٣٤].
(٢) انظر: مناسك النووي [ص٣٤١].
(٣) انظر: المغني [٣/ ٤٤٥]، مناسك النووي [ص٣٤٢].
(٤) وهو رواية عن الإمام أحمد. قال موفق الدين المقدسي: والصحيح أنه لا يستحب وهو رواية لأحمد. انظر: المغني [٣/ ٤٤٦].
(٥) انظر: المغني [٣/ ٤٤٧].
(٦) انظر: مناسك النووي [ص٣٤٢].
(٧) انظر: المغني [٣/ ٤٤٦].
(٨) هو مروي عن ابن عباس. انظر: المغني [٣/ ٤٤٦].
(٩) انظر: المغني [٣/ ٤٤٦].
(١٠) انظر: المغني [٣/ ٤٥٠].

المشعر الحرام، والجمرات العظام، وزمزم والمقام، والركن والملتزم، ومَن لَبَّى وأَحرم، وتضرَّعَ مما اجْترم، والطائفين بالبيت المعظم، ذَلِّلْ نفسي حتى تنقاد لطاعتك، ويسّر عليها العمل بما يُقَرِّبُها إِلى رضاك، ويبعدها عن سخطك، ويجعلها من أَهل ولايتك، وسُكَّانِ جنتك، بفضلك وجودك ومِنَّتِك. ويدعو حتى يُسْفر.

ثم يدفع قبل طلوع الشمس إِلى مِنى، فإِذا بلغ مُحَسِّراً أَسرع قَدْرَ رَمْيَة بِحَجَر، وليكن شعاره في سيره هذا التسبيحُ تارةً، والتهليل أُخرى والتلبية تارة والتحميد أُخرى. فإِذا وصل منى فَيَجْتَهِدُ أَنْ ينزل من خَيْفِ منى ببني كِنَانَةَ، فإِن النبي ﷺ نزل هناك، فإِن لم يتيسر له ذلك ففي أَقرب الأَماكن إِليه. ثم يرمي جمرة العقبة وهي أَقرب الجمار إِلى مكة، ورَمْي الجمار تحية لمنى كما أَن الطواف تحيَّة المسجد فلا يبدأُ بشيء قبله ويكون الرميُ بعد طلوع الشمس من يوم النحر ويجوز فعله بعد نصف ليلته[١]، ويستقبل القبلة في كل الرمي، ويرمي عن يمينه[٢]، ويرفع يَدَيْهِ حتى يُرَى بياضُ إِبِطِهِ[٣]، ويرمي بسبع من الحصَا واحدة بعد أُخرى، يكبّر مع كل حصاة، ويقطع التلبية مع ابتداء الرمي ويقول: الله أَكبر كبيراً، والحمد للّه كثيراً، وسبحان الله بكرةً وأَصيلاً، لا إِله إِلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، لا إِله إِلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، لا إِله إِلا الله وحده، صدق وَعْدَهُ ونصر عَبْدَه، وأَعزَّ جنده، وهزم الأَحزاب وحده. اللّهم تصديقاً بكتابك، واتِّبَاعاً لسنّة نبيك محمد ﷺ، اللهمَّ اجعله حجًا مبروراً وسعياً مشكوراً، وذنباً مغفوراً[٤]. ولا يرمي في هذا اليوم سواها. فإِذا فرغ من الرمي انصرف، ولا يقف عندها للدعاء[٥].

ويسن[٦] سوقُ الْهَدْيِ من الْحِلِّ، ويُقَلِّدُهُ بالْعُرَى[٧] والنِّعال، ويشق صَفحَةَ سنامه اليمنى حتى يسيلَ الدَّمُ[٨].

---

(١) انظر: مناسك النووي [ص٣٤٧ ـ ٣٤٩].
(٢) انظر: مناسك النووي [ص٣٣٥].
(٣) انظر: مناسك النووي [٣٥٤].
(٤) انظر: مناسك النووي [٣٥٥ ـ ٣٥٦].
(٥) انظر: مناسك النووي [ص٣٦٣].
(٦) سنة مؤكدة. انظر: مناسك النووي [ص٣٦٤].
(٧) أي عروة القرب، أو ضربة القرب. انظر: مناسك النووي [ص٣٦٥].
(٨) انظر: مناسك النووي [ص٣٦٤].

ويجوز اشتراك سبعة في بَدَنة أو بقرة، ولا تُجزىء الشاة إلا عن واحد، ولا يجزىء في الْهَدْي والأُضْحِية إلا الجَذَع من الضأن، وهو ما تمّت له ستة أَشهر، والثَّنيُّ من غيره، وهو ما تمت له سنة من المعز وسنتان من البقر وخمس سنين من الإبل[١]، ولا يجزىء المعيبُ المنقص عيبه اللحم[٢]، ولا ما ذهب أكثر قَرْنه أَوْ أُذنه[٣]. ووقت الذبح لِهَدْي المُتْعَةِ والقِران والأُضحية يوم العيد عقب الصلاة، ويومان بعده[٤]، فإذا فرغ من النحر والذبح لما معه من الدماء حَلَقَ أَوْ قَصَّر من جميع شعر رأسه لا من كل شَعْرَة بعَيْنها[٥].

وقال الشافعي: يجزئه التقصير من ثلاث شعرات[٦].

وتقصير المرأة منه قدر أَنْمُلَةٍ[٧]، وكذا العبد ولا يحلق إلا بإذن سيده.

والحلق والتقصير نُسكٌ لا يلزم بتأخيره دم إلاَّ إن تركهما[٨].

ويحصل التَّحَلُّلُ الأَولُ باثنين من رَمْي وَحَلْقٍ وطواف والثاني بما بقي مع سَعْي وإن قَدَّمَ الحلقَ على الرمي أو النَّحْر أو طاف للزيارة أو نَحَر قبل رَمْيه فلا شيء مطلقاً، وإنْ أَخَّر رَمْي جمرةِ العقبة إلى آخرِ النهار جاز، لكن غير مستحب، ويسن دفنُ شعره، فإذا فعل ذلك حلَّ له كلُّ ما حَرُمَ عليه بالإحرام إلا النساء، وهذا هو التحلل الأَول[٩]. فلو وطىء بعد هذا التحلل لم يَفْسُدْ إلا بقية إحرامه، فيحرم من التَّنْعِيم ليطوف للزيارة في إحرام صحيح[١٠]. ويلزمه أَن يَفْدِيَ ببدنة على أَصح الروايتين[١١]، وعنه بشاة[١٢].

---

(١) انظر: مناسك النووي [ص٣٦٦].
(٢) انظر: مناسك النووي [ص٣٦٦].
(٣) انظر: مناسك النووي [٣٦٧، ٣٨١].
(٤) انظر: المغني [٣/ ٤٥٤].
(٥) انظر: المغني [٣/ ٤٥٥].
(٦) انظر: مناسك النووي [ص٣٧٩].
(٧) انظر: المغني [٣/ ٤٦٤].
(٨) انظر: المغني [٣/ ٤٥٨].
(٩) انظر: المغني [٣/ ٤٦٢].
(١٠) انظر: الشرح الكبير [٣/ ٣٢٠].
(١١) انظر: الشرح الكبير [٣/ ٣٢١].
(١٢) انظر: الشرح الكبير [٣/ ٣٢١].

وأما المرأَة الموطوءَة فإن كانت مطاوعة لزمتها الفدية(١)، وإن كانت مكرهة فلا فدية عليها(٢).

وعنه: تجب الفدية مع الإِكراه(٣)، ويتحملها الزوج كنفقة القضاء(٤)، ويلزمهما المضي في النسك الفاسد، وقضاؤه على الفور، سواء كان فرضاً أَو نفلاً، والإِحرام من أَبعد الميقاتين وهما الميقات الشرعي وحيث أَحْرَمَا أَوَّلاً(٥).

ثم يفيض إِلى مكة، ويسن له الغسل ثم إِن كان متمتعاً طاف لقدومه كعمرته ويَسْعَى، ثم يطوف ثانياً للفرض، ويسمى طواف الإِفاضة وطواف الزيارة. هذا مَنْصُوصٌ عن إِمامنا رضي الله عنه واختار الشيخ موفق الدين الاقتصار على طواف الفرض، وأَنه لا يطوف للقدوم فإِذا فعل ذلك حلّ له كل شيء حتى النساء. وهذا التحلُّل الثاني(٦).

ثم يأْتي زمزم فيكبّر فيها ثلاثاً، ثم ينزع بالدَّلْو الذي يلي الركن ويستقبل القبلة ويشرب، ويتضلّع منه ويتنفّس دونه ثلاثاً ثم يقول: بسم الله والحمد لله، اللَّهم اجعله لنا عِلْماً نافعاً، ورزْقاً وَاسِعاً، وريًا وشَبَعاً وشفاءً من كُلِّ دَاءٍ وسَقَم، ووجع وأَلَم، وقني به عطشَ يوم القيامة وأَهوال المطلع، واغسل قلبي واملأَه من خشيتك. اللهُمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد، واجعلني ممن شربه لسنّة نبيك محمد ﷺ، ورجاء لشفائك ومغفرتك يا أَرحم الراحمين. ويشربه لما أَراد من دِيْن ودنيا، لقرآن أَو علم، أَو غفران أَو تكثير رزق حلال ويستحب أَن يحمل مَعَهُ مِنْهُ ما يمكنه، ويهدي منه لمَن أَحب من أَهل بلده وغيرهم.

ثم يعود إِلى منى قبل الزوال فيصلي الظهر بها جَمَاعَةً ويكبّر دُبُرَ كل صلاة مكتوبة في أَيام التشريق، ويبيت بها ثلاث ليال. ثم يرمي في غَدِ يوم النحر الجمرة الأُولى وتلي مسجد الْخَيْف، بسبع حَصَيَات على ما وصفنا في جمرة العقبة، لكن يجعلها عن يساره، ثم يتقدّم عنها ويحمد الله تعالى ويهلّله ويكبّره مع كل حصاة ويقول: لا إِله إِلا الله وحده

(١) انظر: المغني لموفق الدين [٣/٣١٦].
(٢) انظر: المغني لموفق الدين [٣/٣١٦].
(٣) انظر: المغني لموفق الدين [٣/٣١٦].
(٤) لأنه الذي فسر حجتها فكانت النفقة عليه كنفقة حجته. انظر: الشرح الكبير [٣/٣١٨].
(٥) انظر: الشرح الكبير [٣/٣١٧ ـ ٣١٨].
(٦) انظر: المغني [٣/٤٦٧].

لا شريك له - إلى آخره - اللهم اجعله حجًا مبروراً - إلى آخره - ويقف بقدر قراءة سورة البقرة، ويسأل الله قبول مناسكه وإجابة سؤاله، ثم يَرْمي الجمرة الوسطى بسبع حصيات كما تقدّم، لكن يجعلها هي وجمرة العقبة عند رميها عن يمينه، ثم يأتي جمرة العقبة فيرميها كذلك، لكن يستبطن الوادي ولا يقف بعد رميها، ثم يرمي الثلاث في اليوم الثاني والثالث كذلك إن أقام، فإن تعجَّلَ دفن بقية الحصا، فإن لم ينفر حتى غربت الشمس لزمه المبيت والرمي بعد الزوال في غده(١).

فإذا نَفَر من مِنى أتى مكة وطاف للوداع إن كان مسافراً وهو واجبٌ ويلزمه بتركه دَمٌ(٢)، إلاَّ الحائض والنفساء(٣).

ومَن لم يَطفْ للزيارة حتى أتى به عند خروجه كفاه عن الوداع، ويبتدىء الطواف بنية الوداع(٤).

وأَركان الحج أَربعة: الإحرام، والوقوف بعرفة في جزء من يوم عرفة أَو ليلة النحر، والثالث (؟): طواف الزيارة ووقته إذا انتصفت ليلة النحر، ويجوز تأخيره عن أَيام منى، ويجب تعيينه بالنية فلو طاف للقدوم أَو للوداع لم يجزه عنه. الرابع: السَّعْيُ بين الصفا والمروة، على الصحيح من المذهب، وعنه أنه واجب يجبر بالدم(٥).

وواجباته سبعة: الإحرام من الميقات، والوقوف بعرفة إلى أَن تغرب الشمس، والمبيت بمزدلفة ليلة النحر إلى نصف الليل، فمتى فارقها قبله أَو طلع الفجر ولَمْ يَأْتها فعليه دم وقد تقدّم ذكره أَيضاً، ورَمْيُ الجمار كل جمرة بسبع حصيات، وحلق شَعَر الرأس كله أَو تقصيره إذا رمى جمرة العقبة(٦)، والمبيت بمنى ليالي منى، فمَن تركه أَو ليلة منه لزمه دم، إلاَّ أَهل السِّقَايَةِ والرُّعَاةِ. فلا يلزمهم المبيت إلاَّ أَنْ تَغْرُبَ الشمس فيلزم الرعاة دون السقاة، والسابع: طواف الوداع(٧).

---

(١) انظر: مناسك النووي [ص٤٠٣ - ٤٠٤]، المغني لموفق الدين [٣/ ٤٧٣].
(٢) انظر: المغني [٣/ ٤٨٥].
(٣) انظر: المغني [٣/ ٤٨٩].
(٤) هذه إحدى الروايتين والثانية لا يجزئيه عن طواف الوداع. انظر: المغني [٣/ ٤٨٦].
(٥) قال الشيخ النووي: والخامس: الحلق إذا قلنا بالأصح أنه نسك. انظر: مناسك النووي [ص٤١٧].
(٦) أي إذا قلنا إنه نسك وهو ظاهر مذهب الإمام أحمد. انظر: المغني [٣/ ٤٥٨].
(٧) انظر: مناسك النووي [ص٤١٧].

وأمَّا العمرة فأركانها ثلاثة: الإِحرام، والطواف، والسعي على الصحيح[١].

وواجباتها: الإِحرام من الميقات أو الحل، والحلق أو التقصير[٢]، فمَن ترك ركناً لم يتم نسكه إلا به، ومَن ترك واجباً صحَّ نسكه وعليه دم، ومَن ترك السنن فلا شيء عليه، والله أعلم.

فوائـد:

الأولى: جبل ثَبِيْرِ الذي إذا طلعت عليه الشمس سار الحاج من مِنى إلى عرفة هو بثاء مثلثة مفتوحة ثم باء موحدة مكسورة. أَغْلَى جبل بمنى، وهو يشرف على مِنى من جمرة العقبة التي تلقاء مسجد الخيف، وأمامه قليلاً على يسارِ الذاهب إلى عرفة[٣].

الثانية: يوم التَّرْوِيَة، سمي بذلك لأنهم كانوا يَرْتَوُون فيه الماء بعد[٤] (؟) وقيل: لأنَّ إبراهيم الخليل عليه السلام أصبح يَتَرَوَّى في أَمْر الرؤيا. قاله الأزهريُّ[٥].

الثالثة: مِنىً بكسر الميم وفتح النون مخففة، قاله ياقوت في «معجم البلدان»[٦].

قال ابن شُمَيْلِ: سُمِّيت منى لأَن الكبش مُنِيَ بها أي ذبح.

وقال ابن عيينة: أُخذ من المنايا وقال: مَنى الله الشَّيء قدره. ومِنى بُلَيْدَة على فرسخ من مكة، طولها ميلان، تعمر أَيام الموسم، وتخلو بقية السنة إلا ممن يحفظها، وقَلَّ أَن يكون في الإِسلام بلد مذكور إلا ولأَهله بمنى مَضْرِبٌ. وعلى رَأْسِ مِنى نحو مكة عَقَبَةٌ تُرْمَى عليها الجمرة يوم النحر، ومِنى شِعْبَان بينهما أَزِقَّةٌ، والمسجد في الشارع الأَيمن، ومسجد الكبش بقرب العقبة، وبها مصانع وآبار وحوانيت، وهي بين جبلين مُطِلَّيْن عليها. وكان أَبو الحسن الكرخيُّ يحتج بجواز الجمعة بها أَنها ومكة كمصر واحد، فلما حجَّ أَبو بكر الجصَّاصُ ورأَى بُعْدَ ما بينهما استضعف هذه العلة وقال: هذه مصر من أَمصار

---

(١) انظر: مناسك النووي [ص٤٢٦].

(٢) انظر: مناسك النووي [ص٤٢٧].

(٣) انظر: حاشية ابن حجر الهيثمي على مناسك النووي [ص٣٠٤ ـ ٣٠٥].

(٤) انظر: مناسك النووي [ص٣٠٤].

(٥) وقيل: لأنه تردى فيه من الروية في ذبح ولده. وقيل: لأن آدم رأى فيه حواء عندما أُهبط إلى الأرض. انظر: حاشية ابن حجر الهيثمي على مناسك النووي [ص٣٠٤].

(٦) [٥/٢٢٩] باب: الميم والنون وما يليهما.

المسلمين تُعْمَرُ وقتاً وتخلو وقتاً، وخُلُوُّهَا لا يخرجها عن حدِّ الأَمصار، وعلى هذه العلة كان يعتمد القاضي أَبو الحسين القزويني.

قال البشاري: وسأَلني يوماً كم يسكنها وسط السنة من الناس؟ قلت: عشرون إِلى ثلاثين رجلاً وقلَّ أَن تجد مضرباً إِلا وفيه امرأَة تحفظه فقال: صدق أَبو بكر وأَصاب فيما علل. قال: فلما لقيت الفقيه أَبا حامد البغويَّ بنيسابور حكيت له ذلك. فقال: العلة ما نصه الشيخ أَبو الحسن، أَلا ترى إِلى قول الله عزّ وجل: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣] وقال: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٥٩] وإِنما يقع النحر بمنًى.

وبمنى آياتٌ:

منها: رفع ما تُقُبِّلَ من حَصَا الجمار بمنى، ولولا ذلك لسدَّ ما بين الجبلين[(١)].

وقد روي عن الشيخ أَبي النعمان التبريزي شيخ الحرم ومفتيه أَنه شاهد حَصَا الجمار وهو يُرْفع عياناً[(٢)].

ومنها: اتساعها للحجاج في أَيام الحج مع ضيقها في الأَعين عن ذلك[(٣)].

ومنها: كون الْحدأَةِ لا تخطف اللَّحْمَ بمنى أَيام التشريق، وذلك على خلاف عادتها في غير هذه الأَيام[(٤)].

ومنها: أَنَّ الذبابَ لا يقع في الطعام وإِن كان لا ينفك عنها غالباً كالعسل[(٥)].

ومنها: قلة البعوض أَيام الحج[(٦)].

ومن حَدِّ باب بني شَيبة إِلى أَعلى العقبة التي في حَدِّ مِنى ثلاثة عشر أَلف ذراع، وثلاث مئة ذراع وثمان وستون ذراعاً باليد، ذكره العلامة الفاسيُّ المؤرخ[(٧)].

وللشهاب بن أَبي حَجَلَة:

شَكَرْتُ إِلٰهي بَعْدَ حَلْقِيَ في منًى ... بِيَوْم حَمِدْنَا في صَبِيْحَتِهِ الْقِرَى

وَلَوْ أَنَّ لِي في كُلِّ مَنْبتِ شَعْرَة ... لِسَاناً يَبُثُّ الشُّكْرَ كُنْتُ مُقَصِّرَا

---

(١) انظر: العقد الثمين [١/ ١١٤].

(٢) قال الفاسي: وهذه منقبة عظيمة. انظر: العقد الثمين [١/ ١١٤].

(٣) انظر: العقد الثمين [١/ ١١٤].

(٤) انظر: العقد الثمين [١/ ١١٥].

(٥) انظر: العقد الثمين [١/ ١١٥].

(٦) انظر: العقد الثمين [١/ ١١٥].

(٧) انظر: العقد الثمين [١/ ١١٥].

وله:

بَلَغْتُ مُنَايَ فِي مِنًى مِنْ إِلٰهِنَا ... وَلَمْ أَخْشَ مِنْ فزع الذُّنُوب بِهَا أَصْلاً
وَنِلْتُ مَعَ التَّقْصِيْرِ وَالْحَلْقِ غَفْرَةً ... كَأَنِّيَ بِالتَّقْصِيْرِ أَسْتَوْجِبُ الْفَضْلاَ

وللصَّلاح الصفديِّ عند رمي الجمار:

قَدْ رَمَيْتُ الشَّيْطَانَ في يَوْم حَجِّي ... بِجِمَارٍ في طَاعَةِ الرَّحْمَنِ
وَعَجِيْبٌ أَنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ تَلَظَّى ... وَهْيَ سَبْعُونَ جَمْرَةً في الْعَيَانِ

الفائدة الرابعة: سميت عَرَفَةُ عَرَفَةَ لتعارف آدم وحَوَّاء عليهما السلام فيها، لأن آدم عليه السلام أُهْبِط إِلى الهند، وحَوَّاء عليها السلام إِلى جُدَّةَ، فتعارفا بالموقف[١].

وقيل: لتعريف جبريل عليه السلام المناسك بها للخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام[٢].

وقيل: لاعتراف الناس بها بذنوبهم[٣]، إِلى غير ذلك من الأَقوال.

الخامسة: نَمِرَةُ ـ بفتح النون وكسر الميم ـ موضع بِعَرَفة.

قال الأَزرقي: هو الجبل الذي عليه أَنصاب الحرم عن يمينك إِذا خرجْتَ من مَأزِمَيْ عرفة[٤]، وقد تقدّم ذلك قريباً.

السادسة: مسجد الْخَيْفِ: قال أَهل اللغة: الْخَيْفُ ما انحدر عن غِلَظِ الجبل، وارتفع عن مَسِيْلِ الماء[٥]، وبه سمي مسجد الْخَيْفِ، وهو مسجد بِمِنى عظيم واسع فيه عشرون باباً.

السابعة: طوافُ الزِّيارة وطواف الْإِفَاضَة، أُضيف إِليهما لأَنه بَعْدهما والطواف الواجب، وطواف الصَّدَر ـ بفتح الصاد والدال ـ لأَنه يُفْعَل بعده وهو رجوع المسافر من قَصْده.

* * *

(١) انظر: العقد الثمين [١/ ١٠٩].
(٢) انظر: العقد الثمين [١/ ١٠٩].
(٣) انظر: العقد الثمين [١/ ١٠٩].
(٤) انظر: معجم البلدان [٥/ ٣٥٢].
(٥) انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي [٣/ ١٣٦].

الفصل الثامن

من الباب الخامس

في ذكر بقية المراحل على الترتيب وما قيل في ذلك فنقول:

إن المسافة من مكة إلى منى عشرون درجة ومثلها إلى المزدلفة، ومثلها إلى عرفة فيكون مجموع ذلك ستين درجةً، وسير الجمال يزيد وينقص كما لا يخفى ذلك عند إعادة التحرير، والفرق في ذلك يسير، ومدة الإقامة بمكة بعد النزول من مِنَى تَخْتَلِفُ، بحسب حال اعتدال أمير الحج والحجيج لما ألفوه في زمننا هذا، أما أمير الحاج فَلاِشْتِغاله ببيع ما جهزه من الحمول للمتجر والربح، وانتهاء أمر ذلك وحاله في هذه الإمرة يختلف بحسب طلب الحجيج وأَهل البلد لبضاعته وسرعة نفاق ذلك وضده، وأمّا الحُجّاج فهم قسمان:

الأَول: التُّجّار وقد ألفوا في هذا الزمن أن لا يسرعوا في نفاق سلعتهم وانفضاض بضاعتهم إلا بعد النزول من منى وذلك صار لهم عادة في الغالب، خصوصاً عند كساد السلع.

والثاني: بقية الرعايا والحجاج وهم مختلفون في اختيار الإقامة مدة بعد النزول وعدمها بحسب قدرتهم، فالفقير الذي ليس معه فضل من المال يَوَدُّ سرعةَ الرحيل من مكة بعد النزول من منى، وكذلك الجمَّالة لما يلزمهم من عليق جِمالهم، خصوصاً عند غلاء الأَسعار وقلّة ما في أيديهم، فمنهم مَن يُعْلِفُ جماله بالحشيش فقط إلى رحيله من مكة وعاقبة فاعل ذلك وَخِيْمَةٌ لما يستقبله الجمال والحجاج من السير المتعب بالرجعة، والذي ينبغي أَن يكون شأْنَ إقامته بمكة عليه، والأَولى اتِّباعُهُ كما ذكر لي ذلك السيد الشريف الحسن بن أبي نُمَيٍّ بن بركات أَمير مكة وما معها في عام ثلاث وستين بمنزله بمكة، لما تأَخر خروج الركب من مكة في تلك السنة، إلى العشر الثالث من الشهر، أَنَّ ألأَوْلَى لأَمير الركب أَن يبادر الخروج من القاهرة في ثاني عشر شوال، ويرحل من بِرْكَة الحاجِّ يوم السابع عشر بعد إجهار النداء بالقاهرة، فذلك في شهر رمضان ليكونوا على أُهْبَةٍ، وما زاد من الأَيام يكون إقامة الركب فيه بمكة قبل الصعود، وهذه الأَيام هي أَيام الموسم بالحجاز، وإذا عاد الركب إلى مكة بَعْدَ مِنَى يرحل بعد يوم أَو يومين فقط ليقل ضَرَرُ أَهل مكة بعد إقامة الركب بعد النزول، بخلاف عكس ذلك كما هو معلوم عند أَهله، والذي كان عليه الحال في الدولة الجركسية وصدر من الدولة العثمانية أَنَّ حالة نزول الركب مِنْ مِنَى تكون لمحطة

بالأَبطح، وهو الفضاء بين الجبال بالقرب من القبور بالمعلاة، ويتوجهون لطواف الوداع، فلا يزيدون على اليوم الواحد بعد نزولهم بل بمجرد طواف الإِفاضة إِن كان متأخراً عن أيام منى، يودعون ويتوجهون إِلى وادي مَرِّ الظهْرَان.

وفي سنة ثمان وخمسين وتسع مئة لما كان الحجُّ في غاية الخوف والوجل، من بني حسن والعربان المتخطفة، بسبب واقعة أمير الحاج مع الشُّرَفَاءِ، أَشَرْتُ على أَمير الحاج أَن يَبْرُزَ بِالركب إِلى وادي الزَّاهِر، ويبيت به ليتكامل الركب جميعاً ويرحل إِلى وادي مَرٍّ.

وفي سنة ثلاث وستين ولاية الأَمير عيسى بن إِسماعيل نزل الركب من منى إِلى أسفلِ حَذْرَةِ المِعْلا، وأنت متوجه إِلى الزاهر، عند بئر قديمة هناك، طويلة الرِّشاء، لكونه في تلك السنة منع من النزول بجوار القبور ـ كما قدمنا ذكره ـ فكان الركب قديماً يرحل يوم الثالث عشر أو صبيحة الرابع عشر إِلى وادي مَرٍّ خوفاً من حصول المشاق للرعايا وأَهل مكة في غلاء الأَسعار، عند زيادة إِقامة الركب بمكة، والحاصلة للجمالة لقلة ما في يدهم لمشتري العلف الزائد عن العادة. فهم يقتصرون على الحشيش غالباً، وإِن اشترى عَلِيقاً فلا يوف الجمال عادتهم منه، ويتأكد ذلك إِذا كان الفول غالياً فسرعة الرحيل بعد انتهاء أَمر الحج هو العادة والقاعدة كما ذكرنا.

وأمّا في زمننا فكان الركب في أول الأَمر يتأَخر إِلى خامس عشر الحجة، ويرحل يوم السادس عشر، ثم زادت المدة إِلى ثان عشر الحجة في نَيِّفٍ وأَربعين وتسع مئة، ثم تمت إِلى العشرين بواسطة المبيع المتعلق بالأُمراء، ولم يعهد زيادة على العشرين إِلا في سنة إِحدى وأَربعين عند تَوَعُّكِ الأَمير سنان الحمزاوي في تلك السنة بعد النزول، فخرج من مكة في ثاني عشر ذي الحجة، فلما كانت ولاية إِبراهيم بن عيسى باشا على الركب في سنة تسع وخمسين أَقام بمكة إِلى خامس عَشْرَي الحجة، فإِنه منع المبيع في أَيام الثمان طالباً لِغُلُوِّ الأَسعار، ومنع المتسببة والسوقة أَن يبيعوا للرعايا في أَيام منى، فلما نزل من منى شرع في مبيع ما عنده، فلم تنهض المدة المعتادة بذلك، فتأَخر إِلى خامس عَشْرَيْ ذي الحجة، فاقتضى الحال أَنْ عَمَّ الضرر على الرعايا وأهل مكة بسبب تأَخره، فاجتمع أهل الركب وتوجهوا إِليه وسأَلوه سرعة الرحيلِ بهم، فامتنع واحتج بباقي مبيعه، فكبروا عليه في وجهه، واستغاثوا من غلو الأَسعار، فإِنه جعل الثمن عن الربع الفول في تلك السنة خمسة أَنصاف من الفضة العددية، مع قلة أهل الركب في تلك السنة إِلى الغاية، واقتضى الحالُ أنه رحل من مكة إِلى الزاهر فأَقام به ثلاثة أيام أُخَرَ، ورحل منه إِلى وادي مَرٍّ،

وكان دخوله إلى القاهرة في ثامن شهر صفر الخير، ثم تبعه في ذلك مصطفى باشا، عقبه في سنة ستين وتسع مئة فأقام بمكة إلى ثالث عشري الحجّة، لأجل المبيع.

وأمّا في سنة خمس وخمسين فكانت الإقامة عشرين يوماً ورحل الركب من الأبطح قبل الفجر بخمسين درجة فكان نزوله بوادي مَرٍّ، يوم الحادي والعشرين ومدة سيره مئة وعشرون درجة.

وللشهاب بن أبي حَجَلة:

أَقُولُ وقَد فَارَقْتُ مَكَّةَ قَاصِداً ... جَنَابَ النَّبيِّ الهاشميِّ المعظَّم:
(فِرَاقٌ وَمَنْ فَارَقْتُ غَيْرُ مُذَمَّمٍ ... وَأَمٌّ وَمَنْ أَمَّمْتُ خَيْرُ مُيَمَّمِ)

وله:

لَئِنْ زَالَ بالتَّسْلِيمِ في مَكَّةَ الشَّقَا ... فَحَوْلَ الصَّفَا الْعَيْشُ الَّذِي لا يُكَدَّرُ
وإِنْ نَظَمَتْ شَمْلِي بهَا لَيْلَةُ اللُّقَا ... فَإِنَّ دُمُوعِي بَعْدَهَا الْيَوْمَ تُنْثَرُ

وله:

وَلَمْ أَنْس إِذْ فَارَقْتُ مكَّةَ قَاصِداً ... بوَادِي الْغَزَال الظَّبْيَ والظَّبْيُ رَاتِعُ
فَكُنْتُ كَذِي رِجْلَيْن رجْلٍ يري بهَا الْـ ... ـمَقام، وأُخْرَى لِلْحَبيْب تُسَارِعُ

وللصلاَح الصفديِّ:

رَحَلْتُ عَن الْبَيْتِ الْعَتِيْق الْمُحَرَّم ... إلى خير قبر في الأَنام معظم
فَكُنْتُ كَمَا قَدْ قَالَ قَبْلي حَقِيْقَةً ... أبو الطيب الكوفي رب التكلم:
(فِرَاقٌ وَمَنْ فَارَقْتُ غَيْرُ مُذَمَّمٍ ... وأَمٌّ وَمَنْ يَمَّمْتُ خَيْرُ مُيَمَّمِ)

وأَقام بالوادي ذلك اليوم والليلة.

وكان الرحيل منه يوم الثاني والعشرين بعد الشمس بعشرين درجة، فسار إلى أن قطع طارف الْبَرْقَاء، وعشَّى بوسط الدِّيْسَة قبل المغرب، فكان مسيره من قبل الظهر بأربع وستين درجة إلى قبل المغرب بعشرين درجة لدخول (الصنجق) مئة وثلاثين درجة، وأقام إلى بعد العشاء بأربعين درجة.

وسار إلى أن قطع مُدَرَّجَ عثمان، والحَذْرَةَ، وغدَّى بغير الدار المعتادة، فكان المسير إلى تلك الدار مئة وأربعين درجة، بزيادة عن الدار المعتادة خمس عشرة درجة إلى بعد شروق الشمس بعشر درج، وأقام بالْمُغَدَّى ثمانياً وعشرين درجة.

وسار إلى قبل الظهر بخمسين درجة، فكان الوصول إلى خَلَيص بعد الظهر بعشر درج، ستين درجة، وبات الركب بها على العادة.

ورحل بعد الشمس بسبع درج، فسار إلى أن قطع طارف قُدَيْد والدار المعتادة وعشَّى قبل المغرب بعشرين درجة، فكان مدة سيره مئة وأربعين درجة، وأقام بها إلى بعد العشاء بأربعين درجة، خمس وسبعين درجة.

وسار إلى أن مَرَّ على الْجُرَيْنَاتِ وغدَّى الدار المعتادة بعشر درج وغدَّى بالركب فكان مسيره إلى شروق الشمس مئة وثلاثين درجة إلى القرب من رابغ، وأقام بدار الْمُغَدَّى ثلاثين درجة.

وسار والباقي للظهر خمس وخمسون درجة، فكان مدة سيره إلى رابغ خمساً وثلاثين درجة لدخول (الصنجق) فبات بها.

وسار في اليوم الثاني بعد الشمس بعشر درج إلى أن مَرَّ على بُستَان القاضي وجاوزه وعَشَّى بالقرب من مَسْتُورةَ وأَبْيَار الشريف، فكان مدة سيره إلى قبل المغرب بعشرين درجة مئة وثلاثين درجة، وأقام بالدار سبعين درجة إلى بعد العشاء بثلاثين درجة.

وسار إلى أن مَرَّ على رأس القاع الكبير، وجاوزه وغدَّى بعد الشمس بثماني درج، فكان المسير مئة وخمسين درجة على العادة، وأقام بدار المغدّى خمساً وعشرين درجة ينقص عن العادة خمس درج.

وسار والباقي للظهر خمسون درجة، إلى أن جاوز القاع الصغير، وعشَّى بالقرب من رملة عَالِج، فكان المسير إلى قبل المغرب بعشرين درجة لـ(الصنجق) مئة وعشرين، وأقام بدار الْمُعَشَّى إلى بعد العشاء بسبعين درجة مئة وعشر درج. فكان مسيره إلى بدر وحنين والباقي للفجر ثمانين درجة، سبعين درجة إلى قبل الفجر بعشرة، فغدَّى بها، وجهز ما جرت العادة بتجهيزه من الجِمال والأَثقال وأحمال التجار صحبة مَن يثق به من جماعته، ونفر من (بلكات) العسكر الهجين والقطار إلى الينبع على العادة، وأخذ من بَذْرِ ما كان مُخَزَّناً بها من المأكولات والعليق وشمع الحجرة الشريفة المنورة.

ورحل إلى وادي الصفراء، فكانت الإقامة ببدر ثمانين درجة، والرحيل قبل الظهر بعشرين درجة، ومدة سيره إلى الصفراء تسعون درجة لدخول (الصنجق) إلى قبل المغرب بعشرة درج، وكان المسير إليها في حدائق، وماءٍ رائق، ومضائق كيمان

البساتين المزدرعة. وأصحاب الدرك بها جماعات متعددة من المطرة (؟) وبتلك الأَرض طائفة من عربان الحجاز، تدعى صُبْح، وبينها وبين المطر عداوة، فلا يمرُّوْن عليهم إلاَّ برَفيق منهم، وطائفة صُبْح من أهل الفساد في الغالب يسرقون من الحاج، ويقطعون الطرقات على المارة المنفرِدة، ويمتد أذاهم إلى بَدْرِ وحُنَيْنِ وإلى الينبع وما والى تلك الأَرض من منازل الحاج، ولم تزل حراس الركب و(دواداريَّة) أمير الحاج يظفرون بمَن وجدوه منهم ويقطعون رؤوسهم ويشهرونها بالركب.

وبهذا الوادي ـ في زمن توارد الأَمطار ـ حدائق تزهو بحسن نضارتها وتَلَوُّنِ ثمراتها، وتنزه في تلك الحدائق على مزدرعاتها وأطابها وجَنَّاتِها، وتنوع أَفنانِها على اختلاف صفاتها، وظلال باردة، ومياه متطاردة، وظباء بمحاسنها واردة، وباعتها يبيعون على أهل الركب اللحم المشويَّ والبطيخ ويسمونه الحبحب، والفجل والقرع والعجوة والباذنجان، ومن ثمرات النخيل أفنان، وقد توالى بها الْمَحْلُ، كما توالى على غيرها من القرى ببلاد الحجاز، بحيث مررنا على هذا الوادي وما حوله في سنة ستين وتسع مئة وقد جَفَّتِ تلك العيون، وغار ماؤها، وقحلت تلك الغروس، ويبس الشجر، وترحل منه غالب أهاليه، بعد أن كانوا ينتجعون إلى جباله وأعاليه. ولهم في سكناه قرار، وفي محاسنه أخبار، وللصلاح الصفديِّ:

يَـا وَادِيَ الـصَّـفْـرَاءِ أَذْكَـرْتَـنَـا ... فِـي جِـلَّـقِ عِـيْـشَـتَـنَـا الْـخَـضْـرَا

فَـالـرَّايَـةُ الْـبَـيْـضَـاءُ مَـنْـشُـوْرَةٌ ... إِذَا ذَكَـرْنَـا وادِيَ الـصَّـفْـرَا

وأول هذا الدَّرَك من بَدْر وحُنَيْنِ إلى آخر الصفراء، وغاية وادي الصفراء أول العطفاتِ، وهو حد درك بني عمرو أصحاب الْجَديدة، من درك الْمَطَرة، أهل الصفراء.

وفي تاريخ المدينة الشريفة للسيد السمهودي رحمه الله تعالى قال: قال ابن إسحق في وصف مسيره ﷺ إلى بدر: فلما كان بالْمُنْصَرَفِ ـ أي عند مسجد الغزالة ـ ترك طريق مكة بيسار، وسلك ذات اليمين على النازية يريد بدراً فسلك في ناحية منها حتى جَزع ـ أي قطع ـ وادياً يقال له رَحْقَانَ بين النازيَّة ومضيق الصفراء، ثم علا المضيق، ثم انْصَبَّ حتى إذا كان قريباً من الصَّفْرَاء وهي قرية بين جبلين سأَل عن جبليها ما اسْمَاهُما؟ فقالوا: يقال لأَحدهما مُسْلِح، وقالوا للآخر هذا مُخْري. وسأَل عن أهلها فقيل: بنو النار وبنو حراق بطنان من بني غِفار، فكره ﷺ المرور بينهما، وتفاءل بأَسمائهما وأسماء أهلهما، فترك الصفراء يساراً، وسلك ذات اليمين على واد

يقال له ذَفِران، وهو واد معروف قبل الصفراء بيسير، يصب سيله فيها، ويسلكه الحاج المصريُّ في رجوعه من المدينة إلى الينبع، فيأْخذ ذات اليمين، ويترك الصفراء يساراً.

قال السيد: ورأيتُ قبل الوصول إلى طرف ذَفِرَانَ الذي يلي الصفراء عن يمين السالك في طريق مكة يريد الصفراء مسجداً مَبْنِيًّا بالجصّ، مرتفعاً عن الطريق يساراً، يتبرك الناس بالصلاة فيه، وليس بقربه ساكن، فالظاهر أنه أحد المساجد التي صلّى فيها رسول الله ﷺ، ورأيت أمام محرابه قَبْراً قديماً، ولعله قبر عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، فقد ذكر ابن إسحق وغيره أنه مات بالصفراء من جراحته التي أصابته في المبارزة ببدر، ولم يذكروا مَحَلَّ دَفْنه، إلا أن ابن عبد البر قال عَقِبه: ويروى أن رسول الله ﷺ لما نزل مع أصحابه بالنَّازيَّتَيْن قال له أصحابه: إنَّا نجد ريحَ مِسْك، فقال: «وما يمنعكم وههنا قبر أبي معاوية»[1]، يعني عبيدة بن الحارث. انتهى. قال السيد: والنازيَّتين غير معروفة اليوم.

وقال المطريُّ عقِيب ذكر عبيدة بالصفراء: فدفنه رسول الله ﷺ بها، وكان أسنَّ بني عبد مناف يومئذ، وأظن مستنده في ذكر الدفن بها موته بها مع قول هند بنت أُثَاثَة في رثائه على ما نقله ابن إسحق رحمه الله تعالى:

لَقَدْ ضَمَّتِ الصَّفْرَاءُ مَجْداً وسُؤْدُداً ... وحِلْماً أَصِيْلاً وَافِرَ اللُّب وَالْعَقْل

عُبَيْدَةَ فَابْكِيْهِ لأَضْيَافِ غُرْبَة ... وأَرْمَلَةٍ تَهْوِي لأَشْعَبَ كالْجِذْل

وبالصفراء مسجد معروف يتبرك به، وذكر ابن زَبالة أن رسول الله ﷺ صلّى فيه. ونزول أمراء الركب بالصفراء بحسب قيامهم من بَدْرٍ وحُنَيْنٍ، ففي سنة خمس وخمسين عشَّى بها الركب، وأقام إلى بعد العشاء ثمانين درجة مئة وعشر درج، وسار إلى الْجُدَيِّدَةِ ـ بالتصغير صفة لموصوف أي القرية الجديدة ـ والباقي للفجر سبعون درجة، فكان مدة سيره إليها إلى بعد الفجر بعشر درج، ثمانين درجة، وهي قرية صغيرة بين جبال وعشش وحدائق ونخيل، ومضيق، يخرج إلى عين جارية يطيب عندها النزول والرحيل وتلك القرية جبالها شامخة عالية، ونخلها وأرطابها متدانية، والعين التي يستقي منها الحاج تسمى عين أم زيان ـ بفتح الزاي المعجمة وبعدها ياء تحتية مشددة ونون ـ وبها عين ثانية وهي أحلى من الأُولى يتبرك بشربها أهل الخيف وتسمى عندهم الحِزامي ـ بحاء مهملة مفتوحة وزاي معجمة كذلك بعدها ألف وميم

---

(١) لم أجده.

مكسورة ـ وتسمى خيف بني عَمْرٍو، وأهلها زيدية كغيرهم من أهل قرى الحجاز، يقرأون القرآن، وليس لهم منار للأذان، وحدُّ دركهم من آخر وادي الصفراء فأَوَّلُ درك الْجُدَيِّدَة من العطفات، ونهايته آخر المضيقات، وابتداء السهل من الوعر، ومن شيوخ القرية أصحاب الدرك هيزع بن يوسف، وحسن بن عجل. وكان مدة مسيره إليها إلى بعد الفجر بعشر درج، وأقام بها أربعين درجة للمغدَّى بالركب.

وسار والباقي للظهر خمس وخمسون درجة إلى الروحاء، وبها الفسقِية التي أنشأها الأَمير سيف الدين طاز، وكان مدة سيره مئة وعشرين درجة إلى قبل المغرب بخمس عشرة درجة لدخول (الصنجق)، والفسقية تُمْلأُ من بئر بجانبها، وهي عمارة الأَمير سيف الدين طاز، أحد المماليك الناصرية محمد بن قلاوون، تنقل في الخدم، واشتهر ذكره في الأَيام الصالحية إسماعيل، وصار من جملة الأُمراء، وأُنْعِم عليه بإقطاع طقز تمر، في أُخريات ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وسبع مئة، ثم أُنعم عليه في أوائل سنة تسع وأربعين بتقدمه ألف، واستقر أمير مجلس، وقام بتدبير الناصر حسن عند قيام الأَتراك عليه وانفرد به، ثم ولي نيابة حلب، وله ترجمة كبيرة ليس هذا محلها.

وحَدُّ هذا الدرك من ابتداء السهل من الوعر، إلى فِسْقيَّة طاز، إلى وادي الغزالة، إلى آخر قبور الشهداء، وصاحب الدرك الآن زَبْن بن جمعة بن جبار شيخ بني سالم المراوحة، وتوفي قتيلاً في واقعة عَرَبٍ ذبّ فيها عن الدرك فأَتَتِ الحراميَّةُ على نفسه فقتل ودفن بالقرب من قبور الشهداء، واستقر عوضه شيخاً على أهل الدرك ولده ومَنْ معه.

وبنو سالم المذكورون طوائف: منهم السعادين، والسواعد، والتُّمَم، وأولاد وافي، والأَحامدة، والردادة والحوازم، والمراوحة منهم الرحلة ومُزَيْنَة وبنو جَميل، والثوابت والغربان والخضرة والمفالحة والوسدة والْحُجَلة، والكدادات وذوي طاهر والجوامع والقراف. وفي هذا الوادي يقول الصلاح الصفديُّ:

نَظَرْتُ في وَادي بَني سَالِمِ ... لِكُلِّ لِصٍّ ظَالِمٍ غاشِمِ
يَسْرِقُ كُحْلَ الْعَيْنِ مِنْ جَفْنِهَا ... بِجُرْأَةٍ مِنْ مُقْلَةِ النَّائِمِ
كَمْ عاطِب فيهِ وكَم هَالِكٌ ... وَهْوَ مضافٌ لِبَنِي سَالِمِ

والروحاء ـ بالفتح ثم السكون والحاء المهملة ـ قال المجد: موضع من عمل الْفُرْعِ، على نحو أربعين ميلاً من المدينة. وفي «صحيح مسلم» على ست وثلاثين ميلاً.

وقال أبو عبيد البكريُّ: قبر مضر بن نزار بالروحاء على ليلتين من المدينة بينهما أحد وأربعون ميلاً. قال: وعلى مدخل الروحاء علمانِ، وعلى مخرجها علمانِ، فالجمع بين ذلك أنَّ الروحاء اسم للوادي، وفي أثنائه منزلة الحاج. قال ابن الكلبي: لما رجع تُبَّعُ من قتاله أهل المدينة نزل بالروحاء، وأقام بها وراح، فسماها الروحاء، وسئل كُثَيِّرٌ: لمَ سميت الروحاء؟ قال: لانْفِرَاجهَا وروحها. ويقال: بقعة روحاء طيبة أي ذات راحة. وروي أنَّ النبي ﷺ قال: «هذا واد من أَودية الجنة»[1] يعني وادي الروحاء، وأنَّ اسمه سجاسج، والسجسج الهواء الذي لا حَرَّ فيه ولا برد، وأن موسى بن عمران عليه السلام مَرَّ بالروحاء في سبعين ألفاً، وأنه صلّى بذلك الوادي سبعون نبيًا. وقال ابن إسحق في مسيره ﷺ إلى بدر: ونزل سَجْسَج، وهي بئر الروحاء. وقال الأَسديُّ: وبالروحاء آبار لرسول الله ﷺ، وبها قصرانِ وآبار كثيرة، منها بئر تُعرف بمروان عندها بركة للرشيد، وبئر لعثمان بن عفان رضي الله عنه، عليها سَانِية يسيل ماؤها إلى بركتها، وبئر تُعرف بعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في وسط السوق، يُسْنَى منها في إحدى البركتين. وبئر تُعرف بالواثق، وهي شرُّ آبار المنزل، طول رشائها ستون ذراعاً. انتهى. وبها الآن بركةٌ للحاج، تعرف ببركة طاز، ولعله جدّدها وجعل لها معلوماً ووقفاً.

وذكر لي مُضَيَّان ـ شيخ بني سالم بعد زَبْنٍ ـ أنَّ البئر التي تملأُ بها هذه الفسقية والثانية التي بها لا يدخلها الجمل الذي يكون أعور، ولا الذي في لونه شيء من السواد، ولا ما فيه شبهة من الحرام، وإذا أدخل ما فيه الصفات المذكورة للعمل في الثانية وقف وتغلّب، وعوكس في حركاته، والسبب في ذلك ما في البئر من الْعُمَّارِ الْجَانِّ المسلمين، ولهم عادة في كل سنة عند تجهيز السقاية ومَلْءِ الفسقية للوفد، ولا بُدَّ من ذبح شاة غَرًّا محجَّلَةً، تذبح فوق طرف البئر، ويطلق في البئر شيءٌ من دمها وتؤخذ أَجْزَاء من لحمها تدفن في الساقية، ويبخر المحلُّ بعودٍ طيبٍ أو ما أشبهه من الرائحة الطيبة، وإن لم يفعل ذلك وقفتْ حركاتها، وذكر لي أنَّ المشهور عندهم المتداول عند أهل الوادي أن البئر المذكورة أصلها بناء فرعون من الفراعنة، وأنها مشهورة عندهم ببئر ذَات الْعَلَمِ، وأنَّ طول رشائِها أربعة وعشرون ذراعاً.

وقال ابن الرَّضِيَّةِ:

إِذَا اغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاي قَالَ صحابَتِي ... لَقَدْ أُولِعَتْ عَيْنَاكَ بِالْهَمَلاَنِ

---

(١) لم أجده.

أَلاَ فاحْمِلاَنِي ـ بَارَكَ اللّهُ فِيْكمَا ـ إِلَى حَاضِرِ الرَّوْحَاءِ ثُمَّ دَعَانِي

والمقرر في الخزائن السلطانية عن ملء البركة وحفظ الدرك في كل سنة خمس مئة دينار واثنان وثمانون ديناراً، ووقف شخص يدعى بابن العداس على هذه الفسقية رزقة وقف بنواحي الأَشمونين تصرف لأَصحاب الدرك، وقد أدركتُ ما يُحمل من الوقف في كل سنة وكان ثمانين ديناراً ثم تناقص إِلى خمسين، وأربعين، وتداولته أيدي الأَكلة كغيره من الأَوقاف.

والعادة أن أمير الركب يُعَشِّي بالروحاء وفسقية طاز، ويقيم إِلى أَن يمضي من الليل خمسون درجة ويسير فيغدِّي بمكان يُعرف بالْفُرَيْشِ، بعد الشروق بثلاثين درجة، فتكون مدة سيره مئة وعشرين درجة، ويقيم بالدار أربعين درجة.

ثم يسير إِلى أَبْيار عليٍّ بِذِي الْحُلَيْفة، فتكون مدة سيره مئة وعشرين درجة، فيبيتون ثم يدخلون المدينة الشريفة ضحوة بزينة المحمل على العادة. وفي سنة خمس وخمسين بات الركب بفسقية طاز من غير عادة كالسنة التي قبلها، وسار بعد الشمس بثماني درج، إِلى أَنْ مَرَّ على قبور الشهداء وعشى بمحل يسمى المَلَلَ، فكان سيره إِلى قبل المغرب بعشرين درجة أو خمس عشرة لدخول (الصنجق) مئة وأربعين درجة. والملل ـ بلامين محركاً ـ واد بطريق المدينة على أحد وعشرين ميلاً منها. وقيل: ثمانية عشر ميلاً، وقيل: على ليلتين منها. وفي «الموطإِ» أَنَّ عثمان بن عفان رضي الله عنه صلّى الجمعة بالمدينة، وصلّى العصر بملل. قال مالك رضي الله عنه: وذلك للتهجير وسرعة السير[(١)].

وقال بعضهم: مَلَلُ وادٍ ينحدر من وَرِقَان، جَبَل مُزَيْنَةَ، حتى يَصُبُّ في فَرْشِ سُوَيْقَةَ. ويقال: فَرْشُ مللٍ، ثم ينحدر من الفرش حتى يصب في إِضَم، ويضاف إِليه الفرش والْفُريش، وجمعه كُثَيِّرٌ في قوله:

إِذْ نَـحْـنُ بِـالْـهَـضَـبَـاتِ مِـنْ أَمْـلاَلِ

قال ابن الكلبي: لما صدر تُبَّعُ عن المدينة نزل مَلَلَ، وقد أعيا ومَلَّ فسماه ملل، وقيل لِكُثَيِّر: لَمَ سمي بذلك؟ قال: لأَنَّ ساكنه مَلَّ المقام به.

وقيل: سمي به لأَن الماشي من المدينة الشريفة لا يبلغه إِلا بعد جهد وملل.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ في وقوت الصلاة [١/ ١٠] [١٤].

وقال كُثَيِّرُ بن عبد الرحمٰن الخزاعي، وقيل: جعفر الزُّبيري:

أَجَـزْنَ عَـلَـى مَـاءِ الْـعُـشَـيْـرَةِ وَالْـهَـوَى عَلَى مَلَلٍ يَا لَهْفَ نفْسِي عَلَى مَلَلْ!!

وفي كتاب «النوادر» لابن جني: أن رجلاً من أهل العراق نزل بملل، فسأَل عنه فأُخبر باسمه فقال: قبّح الله الذي يقول:

عـلـى مـلـل يـا لـهـف نـفـسـي عـلـى مـلـل

أيُّ شَيْءٍ كان يتشوّق من هذه، وإنما هي حَرَّةٌ سوداء؟ فقالت له صَبِيَّة كانت تلقط النَّوَى: بأَبي أَنْت وأُمّي، إنه كان والله له بها شَجَنٌ ليس لك.

وكانت الإِقامة بها في سنة خمس وخمسين إلى بعد العشاء بثلاثين درجة.

وسار إِلى المدينة الشريفة المنورة على الحال بها أفضل الصلاة والسلام، فكان دخوله إِليها بعد أن مَرَّ على مُفَرِّح ليلاً، وهو جبل عال يشرف منه على المدينة، ودخلها ضحوة عالية ومدة سيره مئة وستون درجة.

واعلم أنَّ غاية دَرَك بَنِي سالم والمراوحة من قبور الشهداء، ومن ذلك المحل إِلى آبار عليٍّ ليس له الآن درك، وما نُهِبَ في هذا المحلِّ ذهب ضياعاً، وكان في الأَيام الجركسية في درك الطائفة المعروفة ببني إِبراهيم، النازلة بالينبع وما حوله، وكان المقرر لهم في نظير حفظ الدرك ذهاباً وإِياباً من الخزائن السلطانية ألف دينار مصرية، فلما اتفق لبني إِبراهيم ما تقدّم ذكره من الفساد، وآل أمرهم إِلى القتل والتفرُّق في البلاد، وخلت مساكنهم للمنع من سكناها، وَوَلِيَ هِجَارُ إِمْرَةَ الينبع وولده دَرَّاج من بعده، تلاشى أمر الدرك، وانقرضت دولة الجراكسة ووُفِّرَ المبلغ بالخزائن السلطانية واستمر الدرك من ابتداء ولاية بني عثمان على ذلك التلاشي بغير خفير، وتوالى به الفساد ونهب بعض القوافل الواردة من عربان عَنَزَةَ وَظفيرٍ وحَرْبٍ وغيرهم، وتواترت الأَخايذُ، ومنع الطارق من تلك الطرق، إِلا بالاحتراس والاستعداد، وصار مَن نُهب له شيء في هذا المحل تارة يقول: على أمير المدينة، وتارة يقول: على أمير مكة، ولا يفوزون من هذا القول بطائل، ولا يعودون من أَخِيذتهم على نائل.

ولنرجع إِلى ذكر المدينة المنورة ومقدار الإِقامة بها، وقد أفردت لها باباً مستقلاً أذكر فيه عظيم شأْنها وأسمائها وشرفها وفضلها، وما يتعلق بذلك يأْتي ذكره بعدما نحن فيه، وكذلك أمر فضل الزيارة وغير ذلك.

والعادة أَنَّ الإِقامة بها للزيارة وراحة أهل الركب من مشقة السفر واشتغالهم

بالزيارة والتزوُّد من التَّمْر، ولتفرقة الصدقات المحمولة صحبة أمير الركب وغيره ثلاثة أيام، ويرحل منها سحر اليوم الرابع. وفي تلك السنة كانتْ إقامته يومين ورحل في الثالث قبل الظهر بعشرين درجة، فسار إلى ذي الْحُليفة، فكان مدة سيره أربعين درجة، وتأَخر أمير الركب بالمدينة وحضر في أثناء نهاره فسار قبل المغرب بخمس عشرة درجة من غير عادة إلى الروحاء وفسقية طاز، شيلةً واحدة، فكان المسير إلى بعد الشمس بأَربعين درجة مئتين وخمسين درجة، لدخول (الصنجق)، وكانت هذه الرحلة لطولها من المشقات على الرجال والجِمال، والعادة من المدينة إلى الروحاء رحلتان.

وللصلاح الصفديِّ وقد مَرَّ بأَمْوات ملقاة تحت شجر أُمِّ غيلان، بوادي بني سالم:

أَقُول لِمَنْ بَدَا في الرَّكْب مُلْقَى ... بِقَارِعَة الطَّرِيْق مِن الْمَنَايَا
خَرَجْت بِغَيْر مَرْكُوْب وَزَاد ... (فَنَفْسَكَ لُمْ، وَلاَ تَلُم الْمَطَايَا)

وله:

مَرَرْنَا بمَيْتٍ وَهْوَ مُلقىً عَلَى الثَّرَى ... تَغَرَّبَ حَتَّى عَنْ ذَوَاتِ الْمَقَابِر
وَقَدْ خرجت منهُ مباني جسْمِهِ ... وأَفْنَتْ بَقَايَا رَسْمِهِ أُمُّ عَامِر

وله:

لَقَدْ ذَكَرْنَا دِمَشْقاً فِي الْحِجَاز وَمَا ... قَدْ قَالَ حَسَّانُ فِي أَمْلاَك غَسَّان
فَكَمْ طَلِيْح بِذَاتِ الطَّلْحِ ظَلَّ وَكَمْ ... ذِي رِمَّةٍ قَدْ غَدَا تَحْتَ أَمِّ غَيْلاَن

وللشهاب بن أبي حجلة:

سَرَيْنَا وجَنْحُ اللَّيْل مُرْخٍ سُتُورَهُ ... عليه من الظلماء أَعْظَمُ سِرْبَال
وَشَوْكِ أم غَيْلاَنِ حِدَادٌ مَهُولَةٌ ... (ومسنونة زرق كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ)

والعادة أن يرحل من آبار عليٍّ أذان الظهر فيمر على جبل مُفَرِّح، ويعشى بمكان يسمى الفُرَيْشَات، بعد المغرب بعشرة درج، فتكون مدة سيره مئة وعشر درج، ثم يسير بعد العشاء بثلاثين درجة إلى فسقية طاز، إلى بعد الشروق بعشرين، فيكون المسير إليها مئة وأربعين درجة، وأكثر من ذلك بحسب سير الجِمال والوقوف، فيكون بالتقسيم إلى رحلتين راحة لا تخفَى على ذي لُبٍّ. وفي تلك السنة أقام بالدار بعد مشاق الرحلة السابقة المذكورة ثلاثين درجة.

وسار من الفسقية قبل الظهر بثماني درج إلى الْجُدَيِّدَة، فكان بسيره إلى الدار القديمة آخر درك الْجُدَيِّدَةِ بعد المضيق مئة وخمساً وعشرين درجة أذان العشاء، فأَقام بالدار ثمانين درجة لقرب التي بعدها من هذه.

ورحل منها إلى فسقية بركة، وكان مسيره إليها إلى قبل الفجر بخَمس درج، خمساً وستين درجة، وماؤها عذب سائغ وحَدُّ دركها من آخر الجُدَيِّدَةِ المحل المعروف بآخر العطفات، وهو أول دَرَك أصحاب فسقية بركة، ويسمى ذلك الوادي خيف بني عبد الله، منهم ذُو شبانة، وذو ربيع وذو سلمان، والفسقية المذكورة عمارة الأَمير بركة [....](1) ويباع على الحاج بتلك المنزلة اللحم الشويّ والبطيخ والملوخيا والقرع والباذنجان والفجل والكراث، والتمر، وهي تحاذِي الصفراء قرباً ومجاورة. ومن أصحاب دركها الآن بدر بن هيازع، ومنيجيل بن دريب بن علي بن سند ورفقتهما، إلى المحل المعروف بواسط وهو آخر حَدِّ الدرك.

وللصلاح الصفدي رحمه الله في جراد كثير مَرَّ على الحاج:

جَرَادٌ سَدَّ عَيْنَ الشَّمْسِ حَتَّى ... تَعَذَّرَ فَضُّهُ عِنْدَ الْفَضَاءِ
كَأَنَّ الْجَوَّ مِنْهُ فِي شِبَاكٍ ... وَقَدْ مُدَّتْ عَلَى مَاءِ السَّمَاءِ
وَلَمْ أَرَ قَبْلَهَا شَبَكاً صَنِيْعاً ... تُحَلُّ عُقُودُهَا بِيَدِ الْهَوَاءِ

وكانت الإقامة بالفسقية ثلاثاً وأربعين درجة.

وسار منها فقطع الوعر والمضيق المسمى بنقب عَليٍّ.

قال الجوهري: النَّقْبُ الطريق في الجبل، وكذلك المنقب والمنقبة. ومَرَّ على آجل والحدرة والوعر، وعشَّى بالقرب من رملة بني يحيى، فكان مسيره إلى قبل المغرب بعشر درج لدخول (الصنجق) مئة وخمساً وثلاثين درجة، وأول درك بني يحيى من واسط إلى الرملة الحمراء إلى مَحَل مُغَدى الحاج بالقرب من الدهناء. ومن شيوخهم القدماء محمد بن غنيم بن مشهور، وكانت الإقامة إلى بعد العشاء بخمس وثلاثين درجة، خمساً وستين درجة.

وسار إلى أن مَرَّ على الرملة الحمراء وغَدَّى بالقرب من الدهناء، فكان المسير إلى بعد الفجر بخمس درج، مئة وعشرين درجة على ضَوْءِ الإشارة مثل العام الذي قبله، وأقام إلى بعد الشمس بخمس عشرة درجة، اثنتين وثلاثين درجة، وهذا المحل

---

(١) بياض في الأصل.

أوان الحر وزمن الصَّيف في الغالب يكون كثير المشاق على أهل الركب من العطش والحر وخصوصاً على المشاة والفقراء، فليتنبه أمير الحاج لتحصيل الماء معه لأَجل سقاية الفقراء والعطْشَى في هذا المحل، فقد شاهدت حصول الضرر به غير مرة، وكان مسيره إلى الينبع قبل الظهر بثلاثين درجة، خمساً وأربعين درجة، وأقام بالينبع ثلاثة أيام على العادة المستمرة للاستراحة من تعب السفر السابق، وللتزوُّد من ذلك البندر وإزاحة أعذاره فإنه يوجد بمثل هذه البنادر ما لا يوجد في غيرها من المناهل.

وكان الرحيل منها يوم الرابع بعد الشروق بسبع درج، الموافق ليوم الجمعة عاشر شهر الله المحرم سنة ست وخمسين وتسع مئة، فسار إلى أن قطع من الوعرات أربعاً، وعشَّى بالقرب من الْخُضَيْراء ـ تصغير خضراء ـ قبل المغرب بخمس عشرة درجة، ستين درجة.

وسار فَمَرَّ على باقي الوعراتِ وغدَّى بآخر وادِي النار، قبل طلوع الشمس بعشر درج، في دار مُعَشَّى الطلعة، فكان مسيره مئة وخمساً وثلاثين درجة أيضاً. وللصلاح الصفديِّ:

يَـا رَبِّ لَـوْلاَ لـطـفـك ... مـا كـان فـي ذِي الْـهَـاجِـرَه
هَــذَا الْــهَــوَاءُ الْــبَــارِدْ ... فِـي وَسْـط وادي الــنــارْ
لـكـن رَحـمْـتَ عـبـيـدَكْ ... لَـمَّـا تَـبَـيَّـن فَـقْـرَهُـمْ
إلـى خـفـي أَلْـطَـافِـكْ ... وَجُـــودِكَ الْـــمِـــدْرَارْ

وسار قبل الظهر بستين درجة إلى نَبْط، فكانت إقامته بالدار ثلاثاً وثلاثين درجة، وكان وصوله إلى نَبْط قبل العصر بخمس درج، لدخول (الصنجق) ومدة سيره مئة وعشر درج، فعشى بنبط ونام وروى الحجيج، ورحل في اليوم الثاني بعد المغدى وبعد الشروق بسبع درج، فسار إلى أن مرّ على صُحَيْنِ الْمَرْمَرِ، وتجاوزه بكثير إلى قريب من الْعُقَيِّقِ، فكان المُعَشَّى بالدار بعد العصر بعشر درج ومسيره مئة وثلاثين درجة، وأقام إلى بعد العشاء بخمسين درجة وسار فمرّ على الْعُقَيِّق، وكان وصوله إلى الحوراء قبل الفجر بخمس درج، مدة سيره خمس وتسعون درجةً، والإقامة بالدار خمسون درجةً إلى بعد الشمس باثنتين وعشرين درجة.

وسار إلى وادي حزبان قبل الظهر بثلاث وستين درجة فوصل إليها بعد العصر بعشرين درجة، وكان مدة سيره مئة وثلاثين درجة إلى قبل المغرب بخمس عشرة درجة، وأقام بالدار إلى بعد المغرب بخمس وعشرين درجة، وجملتها سبع وخمسون درجة.

وسار إلى القرب من طرف الْحَنَك فغدَّى هناك، بعد الشمس باثنتي عشرة درجة، وكان مدة سيره مئة وخمسين درجة، وأقام بالدار خمساً وعشرين درجة، ورحل قبل الظهر بثلاثين إلى أَكْرى، فكان مدة مسيره لمعشَّاها خمساً وتسعين درجة إلى قبل العصر بخمس درج لدخول (الصنجق) وبات بها، ورحل بعد المغداة والشروق بخمس عشرة درجة، إلى أن مرّ على مَفْرشِ النعام، ونزل من الْحَدْرَاتِ بعد العصر بخمس عشرة درجة لدخول (الصنجق)، فكان مدة مسيره مئة وخمساً وأربعين درجة، وأقام بالدار إلى بعد العشاء بعشرين درجة.

وسار إلى أن مَرَّ على الْوَجْهِ والرَّحبة وجاوز دار المغدَّى بالطلعة بكثير، وحطّ بعد الشروق بدرجتين، فكان مدة مسيره مئة وخمسين درجة على تحرير أبي شعرة الميقاتي، وعلى تحرير أمير الحاج بِمِنْكَابِهِ مئة وستاً وأربعين درجة.

وسار بعد الشمس بثلاثين درجة إلى قريب من إسطبل عنتر، فكان وصوله إلى دار المعشاة قبل المغرب بخمس عشرة درجة، ومدة سيره مئة وخمس وعشرون درجة، والإقامة في الدار خمس وستون درجة.

وسار بعد العشاء بثلاثين درجة إلى أن مرَّ على وادي السَّماوة والدخاخين وهذا بعد الشروق بعشرة درج، فكانت المدة مئة وخمسين درجة، وأقام بدار المغدَّى عشرين درجة.

وسار إلى الأَزْلَمِ قبل الظهر بأَربع وخمسين درجة فكان دخول (الصنجق) في دار الأَزْلَم قبل العصر بسبع درج، ومدة الرحيل مئة ودرجتان، وأقام بالأَزْلَم تلك الليلة وثاني يوم بليلته.

ورحل يوم الأَحد تاسع عشر شهر الله المحرم، بعد الشروق بسبع درج، فكان وصوله إلى قريب من الشيخ مرزوق الكفافي قبل المغرب بخمس عشرة درجة في مدة مئة وخمس وخمسين درجة، وأقام بالدار إلى بعد العشاء بأَربعين درجة.

وسار، فكان وصوله إلى أَنْ عَدَّى دار السلطان وقت صلاة الصبح في مئة وعشرين درجة، وتاه الدليل عن طريق دار السلطان المعتادة، وأخذ إلى جانب البحر المالح، فأَقام بالدار إلى قبل الظهر بستين درجة.

ورحل إلى المويلح فكان وصوله إليها قبل العصر بسبع درج، ومدة مسيره مئة وعشرة، وبات بها تلك الليلة على العادة، لأَن الماء الذي بها لا يُرْوي الحاج في دفعة واحدة.

ورحل بعد الشروق بسبع درج وكان الباقي للظهر ثمانياً وسبعين درجة، فَعَدَّى الدار المعتادة المسماة بِتِرْيَمَ عند العربان ـ بالتاء المثناة الفوقية بعدها راء ساكنة وياء تحتية مفتوحة وميم ـ ونزل بأَول السبخة بالقرب من الشجر بوادي الشرمة الأَصلي، فإن الشرمة اسم لعين من الماء، تجري فسمي المحلُّ بها، وكان سيره إلى بعد العصر بست عشرة درجة لدخول (الصنجق) مئة وستًّا وأربعين درجة، وأقام بالدار إلى بعد العشاء تسعين درجة، فكانت الإقامة مئة وثلاث درج.

وسار إلى عُيُون القصب، فكان وصول (الصنجق) إليها قبل أذان الفجر بخمس عشرة درجة، ومدة مسيره خمس وستون درجة، وأقام بالدار سبعاً وخمسين درجة وهذه الدار يكون بها آخر حصول الحشيش، لعلوفة الجِمال.

وسار من العيون بعد الشمس بعشرين درجة إلى أُمِّ رُجَيْم وقبر الطواشي، فعدَّاهما وعشَّى بِطَيِّ الناشر، قبل المغرب بثلاث عشرة درجة لدخول (الصنجق)، فكان مسيره مئة واثنتين وأربعين درجة، وأقام إلى بعد العشاء بسبعين درجة.

ورحل إلى مغارة شُعيب، فوصلها قبل الشروق باثنتي عشرة درجة، وكان مدة مسيره خمساً وثمانين درجة، وأقام بالدار إلى قبل الظهر بخمس وأربعين درجة فكانت إقامته سبعاً وخمسين.

وسار إلى أن مرّ على المظلة وعَشَّى بموضع يقال له عند بني عطية الْحَمَامي ـ بألف ولام وحاء مهملة ـ اسم لجبل، قبل المغرب بعشر درج فكان مسيره مئة واثنتين وعشرين درجة، فعشَّى وأقام إلى بعد العشاء بعشرين درجة.

وسار فقطع الشَّرَفَة وحَطَّ برأس الحدرة الثانية بعد الفجر بعشر درج لدخول (الصنجق) فكان مدة مسيره مئة وأربعين درجة، وأقام بالدار سبعاً وثلاثين درجة بعد الشمس بخمس وعشرين.

وسار والباقي للظهر إحدى وستون درجة، فَمَرَّ على أُم الْعِظَام وعُشّ الْغُرَابِ وبَيْن الْجُرْفَيْنِ وعشَّى بآخره بدار المغاربة، فكان مسيره إلى المغرب مئة وثمانياً وأربعين درجة لدخول (الصنجق)، وأَقام إلى بعد العشاء بثلاثين درجة، خمسين درجة.

وسار إلى عقبة أَيْلَة، وكان وصوله إليها قبل الظهر بخمس وأربعين، مئة وثمانين درجة بتحرير أبي شعرة الميقاتي وبتحرير منكاب أمير الحاج مئة وخمساً وستين، فالخلاف بينهما في ساعة واحدة، وأقام بمناخ عقبة أيْلة بدار الرجعة المعتاد، وهو بعد النخل على جانب البحر ثلاثة أيام كوامل على العادة بيوم الوصول.

وسار منها قبل الفجر بثلاثين درجة إلى السَّطْحِ، فكان مدة سيره لدخول (الصنجق) اثنتين وثمانين درجة، وتكامل الركب في تمام مئة وعشرين.

وسار قبل الظهر بخمس وعشرين إلى الدار البيضاء بين طارف الركن والعراقيب، قبل المغرب بثماني درج، فكان مدة سيره مئة وإحدى عشرة درجة، وأقام بالدار إلى بعد العشاء بخمس وعشرين درجة، ثلاثاً وخمسين درجة.

وسار إلى أن مَرَّ على عُرْقُوب البغلةِ والْمُنَيْدِرَةِ، وغدَّى بالقرب من آبار العلائي فكان مسيره إلى قبل الشمس بخمس عشرة درجة على تحرير أمير الحاج مئة وأربعة وأربعين درجة وهو مُخْطِئٌ، وعلى تحرير أبي شعرة مئة وتسعاً وعشرين درجة فالخلاف بينهما في ساعة كاملة، وغدَّى.

وسار إلى وادي القريص قبل المغرب بخمس وعشرين درجة فكان مدة سيره مئة وخمساً وثلاثين درجة، وكان في تلك الليلة حصل ريح عاصف تعلق آثار الرمل والحصا في الوجوه والعيون والآذان فمنع مسير الركب وبركت الجِمال، فكانت الإِقامة بالدار بعدها بيسير مئة وخمساً وأربعين درجة.

وسار إلى نخل وقت الفجر، فكان وصوله إليها قبل الظهر بخمسين درجة، ومدة المسير تسعون درجة، فغدَّى.

وسار قبل الظهر بعشر درج فكان سيره إلى القرب من الْحَذْرَةِ، بوسط التِّيْهِ، أذان المغرب لدخول (الصنجق) مئة درجة، فعشَّى وأقام إلى بعد العشاء بعشرين درجة.

وسار إلى القرب من ثَغْرَةِ حامد، فكان مسيره مئة وستين درجة، وأَقام إلى قبل الظهر بثلاث وعشرين درجة.

وسار إلى أن مرّ على المنصرف، ولم يسر الركب من المضيق المعتاد، وإنما سار من درب العرب من غير عادة، وهو محل متسع، غير أنه حَدَرَاتٌ رملٍ، الأُولى منها كبيرة، ورمل تلك الحدرات غزير جدًا، يسير الكرب فيه بلا ازدحام فعشَّى الركب فوق الحدرة قبل العشاء بعشر درجٍ، لدخول (الصنجق)، فكان سيره مئة وخمساً وأربعين درجة، وأقام إلى بعد العشاء بأربعين درجة، ومدة الإِقامة خمسون درجة.

وسار إلى عُجْرُود، فكان وصوله إليها قبل الظهر بخمسين درجة، ومدة سيره مئة وخمسون درجة، وأقام أربعين درجة.

وسار قبل الظهر بعشر فعشى بالقرب من نخيل أبي زيد، قبل المغرب بثماني

درج، فكان مدة سيره تسعين درجة، وعلى تحرير أمير الحاج سبع وتسعون درجة، وأقام إِلى بعد العشاء بأَربعين درجة.

وسار إِلى بِرْكَة الحاج شيلة واحدة، وكان لدخول (الصنجق) في اليوم الثاني أذان الظهر إِلى البركة مئتان وثمانون درجة، ودخل الركب سالماً إِلى أوطانه غير أن هذا المسير المشط خصوصاً مثل هذه الرحلة غير مشكور، والعادة أنه يرحل من عجرود إِلى المفرح في مدة ثمانين درجة فيعشى ويسير والماضي من الليل ستون درجة، فيمر على المصانع ويُغَدِّي بعد الشروق بأَربعين، فيكون المسير مئة وعشرة درج، ويقيم عشرين درجة ويسير والباقي للظهر نحو الثلاثين درجة، فيصل إِلى الْبُوَيْبِ بعد أذان العصر بعشرة درج، فكيون مدة السير تسعين، ففي [هذا] من البسط، ودخول السرور على الوفد بملاقاة أهاليهم، واجتماعهم بمَن يرد إِلى الْبُوَيْب، وكذلك أهل الملاقاة أيضاً فيحمدون ذلك الاجتماع، ويثنون على مسير أمير الركب بواسطة ذلك ويستمر بالبويب إِلى أن يرحل والماضي من العشاء خمسون درجة. فيصل إِلى البركة طلوع الشمس، ومدة سيره سبعون درجة.

ولا يخفى ما في حسن هذا الورود من ثناء أهل الملاقاة والوفود، ومثل ذلك هو المسير المطلوب المعتاد قديماً دون الأَول، لأَنه أرفق بأَهل الركب، ونزول الوفد أول النهار أصوب، لأَنه إِذا نزل البِرْكَةَ بعد العصر فمَن أَخذ الراحة بها، وسار إِلى وطنه، فبالضرورة أن لا يدخل البلاد إِلا ليلاً، وأهل الفساد بين البركة والقاهرة، خصوصاً في حوائط نخل البركة أفعالهم غير متوانبة ولا قاصرة، وطلب السلامة أَوْلَى وأحرى، ومَن كان نيِّر الفكر فطناً فهو أَدْرَى.

فهذه جملة المراحل ذهاباً وإِياباً على ما ضبطته وحرّرته في تلك السنة واقتضاه المسير، وجمعه الاجتهاد وحسن التحرير.

ذكر المياه بدرب الظهر

ـ بفتح الظاء المعجمة والهاء ـ المتواردة عليه طوائف العربان.

وهو من المدينة المنورة إِلى القاهرة، ويُعرف ذلك بين العربان بدرب حِسْمَا الشرقي، مما أفادنيه بعض عربان طريق الحجاز أهل المعرفة به بتلك الطرق.

فأَول المياه: قبر أبو بلي، وبعده الجِزْلُ ـ بجيم تحتية مكسورة وزاي معجمة كذلك ـ.

نقرة سليع: ـ بنون مضمومة بعدها قاف ساكنة ـ.

الرمضاء: ـ بهمزة مفتوحة ولام بعدها وراء مهملة مشدّدة مفتوحة بعدها ميم وضاد معجمة مفتوحتين ـ.

وتر: ـ بواو مفتوحة بعدها تاء مثناة كذلك وراء مهملة آخر الحروف ـ.

قُنَّة: ـ بقاف معجمة ونون ـ ومنها إلى حِسْما.

وبحِسما من المياه: شقرة ـ بشين معجمة مكسورة وقاف مشوبة بالكاف ساكنة ـ.

نعمة: ـ بنون مكسورة وعين مهملة ساكنة ـ.

النَّابع: ـ بنون مشدّدة من النبع ـ.

الْمُرَيِّشة: ـ بهمزة مفتوحة ولام بعدها وميم مضمومة وراء مفتوحة وياء مثناة مشدّدة وشين معجمة مفتوحة ـ.

الحصب: ـ بألَف ولام بعدها حاء مهملة مفتوحة وصاد مهملة ساكنة وباء موحدة تحتية ـ.

الرُّكَيْبُ: ويسمى ركيب، السويق بالتصغير.

بضع: ـ بباء موحدة تحتية بعدها ضاد ساكنة معجمة وعين مفتوحة (؟) ـ.

العيون: جمع عين.

علقان: وهي بأَرض القحزة.

وبِحسْمَا محل يسمى عند العربان رُمَّ، وبه مفرق الطرق، فمن رم إلى غزة مياه أولها: البيضا ـ بألَف ولام وباء تحتية موحدة بعدها ياء ساكنة ـ.

معفرة: بميم مفتوحة وعين ساكنة وفاء مفتوحة.

الحَجَنَةُ: ـ بالألَف واللام، وحاء مهملة مفتوحة، وجيم كذلك بعدها نون مفتوحة أيضاً ـ.

حلوة: من الحلاوة وهي دون البيضا أسفل وادي مُوسى عليه السلام وبه مورد الماء.

قينان: اسم لعين تجري.

خرّاش: ـ بخاء معجمة مفتوحة بعدها راء مشدّدة كذلك ـ.

المايين: - بياءين مثناة تحتيتين - بئرين.

وبعده قدس وقديس.

غزة المرحوسة.

ومسير الركاب من رَمٍّ إلى غزة ليلتان والقافلة خمس ليال.

وأما من رم إلى مصر المحروسة فأَول المياه ضربة - بضاد مفتوحة بعدها راء ساكنة -.

غيظان: - بغين مكسورة وظاء معجمة ساكنة (؟) -.

المشاش، والحسنة: - بحاء وسين مهملة -.

البروك: - بباء موحدة وراء مضمومتين -.

الخضراء: من الخضرة.

الضيح: ومنه إلى بركة الحاج.

فهذه مياه درب الظهر من المدينة المنورة إلى جِسْمَا، ومن جِسْمَا إلى رَمٍّ طريقان إلى غزة المحروسة وإلى مصر. والله تعالى أعلم بالصواب.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب السادس

في ذكر المدينة الشريفة وأسمائها، ومشاهدها ومعاهدها وفيه فصول:

الفصل الأول

في فضلها، وأسمائها ومشاهدها ومعاهدها، وذكر هجرة سيد المرسلين ﷺ من مكة المشرفة إليها، وبناء المسجد الشريف النبوي واختيار دار الهجرة، وما تيسر من أخبار ذلك مُلَخَّصاً فنقول: المدينة الشريفة المنورة على الحالِّ بها ضريحُه عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام بَرِّيَّةٌ جبلية، ولها الأَحشبان:

أحدهما: أُحُدُ.

والثاني: عَيْر.

ولها أربعة أودية: وادي قَنَاة، ووادي بَطِحان، ووادي الْعَقِيق الأَصغر، ووادي العقيق الأَكبر، تأْتي مياهها في أوقات الأَمطار والسيول من حَرَّة بني سُلَيْم، على مقدار عشرة فراسخ من المدينة، ثم تجتمع كلها في موضع يقال له الْغَابَة ويخرج إلى واد يقال له إِضم، ثم يتفرّق في بئرين: إِحداهما بئر رومة، والأُخرى بئر عروة. وشرب أهل المدينة سائر السنة من هاتين البئرين.

قلت: وفي زمننا لما عمرت العين الزرقاء صار شرب أهل المدينة واستعمالهم منها.

وحَدُّ البقعة التي حرمها رسول الله ﷺ ما بين لابَتَيْها وهما الجبلان المذكوران قبل. وفي «صحيح البخاري» أن رسول الله ﷺ جعل اثني عشر ميلاً حِمَىَ حول المدينة[1].

---

(1) الحديث انفرد به مسلم في الحج [٢/ ١٠٠٠] ح [٤٧٢/ ١٣٧٢] وانظر: فتح الباري [٣/ ١٠١].

وفي رواية: «أنه جعل حمى كل ناحية من المدينة بَرِيْداً، لا يُنَفَّرُ صيده ولا يُعْضَدُ شجره»[1].

ولها عروض وهي الْكُوَر، وهي تَيْماءُ ودومة الجندل، والْفُرَع، وذو المروة، ووادي الْقُرى، وفَدَكُ وخَيْبَرُ وقرى عَرَبيَّةَ، ويَنْبُع، والسيالَةُ والأكحل، والْحوْرَاءُ ومَدْيَنُ.

ولها فرضة على ساحل البحر الفارسي تسمَّى الجار، بينهما يوم وليلة نصفها في البحر، وبين يديها جزيرة عامرة، ذكر ذلك صاحب «نزهة العيون».

وللمدينة الشريفة أسماء كثيرة منها: أَثرب ـ بفتح الهمزة وسكون المثلثة وكسر الراء وباء موحدة ـ وأَرض الله، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧] وأَرضُ الهجرة، كما في حديث «المدينة قُبَّةُ الإِسلام»[2] وأَكَّالَة القرى، وأَكَّالَةُ البلدان، لتسلطها على جميع الأَمصار وارتفاعها على سائر بلدان الأَقطار، بالإِيمان. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ [الحشر: ٩] والبارة، والبرة، والبحرة، والبحيرة والبلد، وبيت الرسول ﷺ، وتَنْدَدُ ـ بالمثناة الفوقية والنون ـ والجابرة، وجبَار كَحَذَام، والجبارة مع الجبارين، وجزيرة العرب، والجُنَّةُ الحصينة ـ بضم الجيم ـ والحبيبةَ لحبه ﷺ لها، والحرم ـ بالفتح بمعنى الحرام لتحريمها ـ وحرم رسول الله ﷺ وحسنة، مقابل السيئة، والْخَيِّرَة ـ بتشديد الياء ـ والدار، لأَمنها والاستقرار بها، ودار الأَبرار، ودار الأَخيار، ودار الإِيمان، ودار السنة، ودار السلام، ودار الفتح، ودار الهجرة، وذات الحجرة لاشتمالها عليها. وذات الْحِرَارِ، لكثرة الحِرار بها، وذات النخل، والسلقة، وسيدة البلدان، والشافية وطابة، وطَيْبَةَ، وطيِّبة ـ بتشديد التاء ـ وطايب ككاتب، ونقل عن التوراة أَيضاً تسميتها بالمطيبة، وكذا بطابة، وهو إِمَّا من الطيِّب بتشديد المثناة وهو الطاهر لطهارتها من أَدناس الشرك، أَو لموافقتها من قوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢] أَو لحلول الطيب بها ﷺ، وإِما من الطِّيْب ـ بسكون المثناة ـ لطيب أُمورها كلها، وطيب رائحتها، ووجود ريح الطيب بها.

قال ابن بطَّال: مَن سكنها يجد من تربتها وحيطانها رائحة حسنة.

---

(١) أخرجه أبو داود في المناسك [٢/٢٢٣] ح [٢٠٣٦].

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط [٥/٣٨٠] ح [٥٦١٨] وقال الحافظ الهيثمي: فيه عيسى بن مينا قالون وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد [٣/٣٠١].

وقال الإشبيلي: لتربة المدينة نفحة ليس طيبها كما عهد من الطيب، بل هو أعجب من الأعاجيب.

وقال ياقوت: ومن خصائصها طِيب ريحها، وللعطر فيها رائحة لا توجد في غيرها.

وما أَحسن قول أَبي عبد الله العطار:

بِطِيبِ رَسُول اللّهِ طَابَ نَسِيمُهَا فَمَا الْمِسْكُ مَا الْكَافُورُ مَا الْمَنْدَلُ الرَّطْبُ

وفي «منطق الطير» للشهاب بن أَبي حَجَلة:

طِبْنَا بِطَيْبَةَ في السُّرَى وَبَدَا لَنَا عِنْدَ الْعَبِيْرِ عَبِيْرُهَا الْفَيَّاحُ
بَلَدٌ بِهِ حَرَمٌ عَلَيْهِ جَلاَلَةٌ لِلْعَفْوِ فِي أَبْوَابِهِ مِفْتَاحُ

وله:

صَاح إِنْ جِئْتَ طَيْبَة وتَبَدَّتْ مِنْ قُبُاهَا رُؤوسُ تِلْكَ الْقِبَابِ
صَلِّ فِيْهَا عَلَى النَّبِيِّ وسَلِّمْ عَدَدَ الرَّمْلِ والْحَصَا والتُّرَاب

ومن أَسمائها العاصمة، والعذراء، والفرا، والفاضحة والقاصمة، وقبة الإسلام، وقرية الأَنصار، وقرية رسول الله ﷺ، وقلب الإيمان، والمؤمنة، والمبارَكة، ومبين الحلال والحرام، والمجبورة ـ بالجيم ـ والمُحبة ـ بضم الميم ـ والمحببة، والمحبوبة، والمحبورة، من الحبور، وهو السرور، والمحرمة، والمحفوفة بالبركات، والمحفوظة، والمختارة، ومدخل صدق، والمدينة، ومدينة الرسول ﷺ، والمرحومة، لأَنها دار المبعوث رحمة للعالمين، والمرزوقة، والمسكينة، ومُهَاجَرُ رسول الله ﷺ، والمسلمة ومضجع رسول الله ﷺ، والمقدَّسة، والمقر، والموفية، والناجية من النجاة، ويثرب، وطبايا، وغلبة ـ محركة ـ بمعنى الغلب لظهورها واستيلائها على سائر البلاد، وهو اسم قديم جاهليٌّ ذكره السيد السمهودي، ونبلاء من النبل ـ بالضم والسكون ـ وهو الفضل والنجابة فهذه ثمانون اسماً ذكر منها ياقوت في «المعجم» تسعة وعشرين اسْماً[1].

وذكر العلامة السيد السَّمْهُوْدِيُّ ثلاثةً وتسعين اسْماً في «تاريخ المدينة» أَوضحها. وفي هذا القدر كفاية بهذا المختصر.

---

(١) انظر: معجم البلدان [٥/٩٨].

وأَما فضلها فقد انعقد الإِجماع على تفضيل ما ضَمَّ الأَعضاءَ الشريفة حتى على الكعبة المنيفة، وأَجمعوا على تفضيل مكة والمدينة على سائر البلاد، واختلفوا في أَيهما أَفضل؟ فذهب عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضي الله عنهما ومالك بن أَنس وسائر المدنيين إِلى تفضيل المدينة، وأَحسن بعضهم فقال: في غير الكعبة الشريفة فهي أَفضل من المدينة ما عدا ما ضَمَّ الأَعضاء الشريفة إِجماعاً، بل نقل التاج السبكيُّ عن ابن عَقِيلٍ الحنبليِّ أَن تلك البقعة أَفضل من العرش.

وقال النُّوَيريُّ: المختار الذي عليه الجمهور أَن السماوات أَفضل من الأَرض.

وقيل: الأَرض أَشرف، لأَنها مستقرُّ الأَنبياء عليهم الصلاة والسلام ومدفنهم وهو ضعيف.

وأَسند ابن الجوزيِّ في «الوفاء» عن كعب الأَحبار: لما أَراد الله عزّ وجل أَن يخلق محمداً ﷺ أمر جبريلَ عليه السلام فأَتاه بالقبضة البيضاء التي هي موضع قبره ﷺ فعُجنت بماء التَّسْنيم، ثم غُمست في أَنهار الجنة، وطيف بها في السماوات والأَرض فعرفت الملائكة محمداً ﷺ وفضله قبل أَن تعرف آدم عليه الصلاة والسلام، وروى الحاكم في «مستدركه»: «اللَّهم إِنَّكَ أَخْرَجْتَني من أَحبِّ البقاع إِليَّ فَأَسْكِنِّي في أَحبِّ البقاع إِليك»(١).

وفي «الصحيح»: «اللَّهم حَبِّبْ إِلينا المدينة كَحُبِّنا مكة وأَشَد أَي بل أَشَدّ»(٢) ومن إِجابة دعوته ﷺ أَنه يحرك دابته إِذا رآها من حبها. وبالمدينة الشريفة تقرّرت الشرائع، وفُرضت غالب الفرائض، وأَكمل الله بها الدين، واستقر بها ﷺ إِلى قيام الساعة. وقد ثبت في محبته ﷺ للمدينة ما لم يثبت لمكة مثله، وحثَّ على الإِقامة والموت بها والصبر على لأْوَائِها وشدّتها.

وفي حديث: «ما على الأَرض بقعة أَحب إِلَيَّ من أَن يكون قبري بها منها»(٣) يعني المدينة، قالها ثلاث مرات، وقد شرع لنا أَن نُحِبَّ ما كان ﷺ يحبه، ونعظِّم ما

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه [٣/٣] كتاب الهجرة، وقال: هذا حديث رواته مدنيون من بيت أبي سعيد المقبري. وقال الحافظ الذهبي: لكنه موضوع فقد ثبت أن أحب البلاد إلى الله مكة، وسعد ليس بثقة .اهـ.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل المدينة [١١٩/٤] ح [١٨٨٩]، ومسلم في الحج [١٠٠٣/٢] ح [١٣٧٦/٤٨٠].

(٣) لم أجده.

كان ﷺ يعظِّمه. وقد روى الطبراني في «الكبير» والمفضل الْجَندِيُّ في «فضائل المدينة» وغيرهما عن رافع بن خديج رضي الله عنه قال: سمعت ـ وفي رواية أشهد لسمعت ـ رسول الله ﷺ يقول: «المدينة خير من مكة»[١].

وفي «الصحيحين» حديث «إنَّ الإيمان لَيأْرُزُ إلى المدينة كما تَأْرَزُ الحية إلى جحرها»[٢] ويأرُز كيسجد، أي ينقبض ويجتمع وينضم ويلتجىء.

وفي «مدارك عياض» قال محمد بن مسلمة: سمعت ملكاً يقول: دخلت على المهديِّ فقال: أوصني، فقلت: أُوصيك بتقوى الله، والعطفِ على أَهل بلد رسول الله ﷺ عليه الصلاة والسلام وجيرانه، فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «المدينة مُهَاجَرِي، ومنها مبعثي، وبها قبري، وأَهلها جِيراني، وحقيق على أُمتي حفظ جيراني، فمَن حفظهم فيَّ كنتُ له شفيعاً أَو شهيداً يوم القيامة، ومَن لم يحفظ وصيتي في جيراني سقاه الله من طينة الخبال»[٣].

وفي مسلم: «اللَّهم بارك لنا في تَمْرنا، اللَّهم بارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعِنا، وبارك لنا في مُدِّنا. اللَّهم إنَّ إبراهيم عبدك ونبيك وخليلك، وإنِّي عبدك ونبيك، وأنه دعاك لمكة، وأَنا أَدعو للمدينة بمثل ما دعا لمكة ومثله معه»[٤] وفي حديث: «اللَّهم اجعل مع البركة بركتين»[٥].

وفي «الصحيحين» وغيرهما حديث: «على أَنْقَابِ المدينة ملائكةٌ يحرسونها لا يدخلها الطاعون ولا الدَّجَّال»[٦].

وفي «الوفاء» لابن الجوزي حديث: «غُبَار المدينة شفاءٌ من الجذام»[٧].

---

(١) عزاه الحافظ الهيثمي للطبراني وقال: فيه محمد بن عبد الرحمٰن بن داود، وهو مجمع على ضعفه. انظر: مجمع الزوائد [٣/ ٣٠٢].

(٢) أخرجه البخاري في فضائل المدينة [٤/ ١١١] ح [١٨٧٦]، ومسلم في الإيمان [١/ ١٣١] ح [١٤٨/٢٣٣].

(٣) عزاه الحافظ الهيثمي للطبراني في الكبير قال: وفيه عبد السلام بن أبي الحبوب وهو متروك. انظر: مجمع الزوائد [٣/ ٣١٣].

(٤) أخرجه مسلم في الحج [٢/ ١٠٠٠] ح [١٣٧٣/٤٧٣].

(٥) أخرجه البيهقي في الكبرى في الحج [٥/ ٣٢٩] ح [٩٩٨٢].

(٦) أخرجه البخاري في فضائل المدينة [٤/ ١١٤] ح [١٨٨٠]، ومسلم في الحج [٢/ ١٠٠٥] ح [١٣٧٩/٤٨٥].

(٧) عزاه الحافظ العجلوني لأبي نعيم في الطب، ولابن السني، وللزبير بن بكار في أخبار المدينة. انظر: كشف الخفاء [٢/ ١٠١] [١٨٠١].

وفي مسلم حديث: «مَن أَكل سبع تمرات من ما بين لابتيها حين يصبح لم يضره شيء حتى يمسي»(١).

وفي «الصحيحين» حديث «مَن تَصَبَّحَ بسبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم سمٌّ ولا سحر»(٢) ورواه أَحمد برجال الصحيح بلفظ: «مَن أَكل سبع تمرات عجوة ما بين لابتي المدينة على الرِّيْق لم يضره يومه شيء حتى يمسي» قال فليح: وأَظنه قال: «وإِن أَكلها حين يمسي لم يضره شيء حتى يصبح»(٣).

فائدة في ضمنها معجزة:

إِنما سُمِّي نوع من تمر المدينة بالصيحاني لأَنه قد أَسند للصدر إِبراهيم بن محمد بن المؤيد الحموي في كتابه «فضل أَهل البيت» عن جابر رضي الله عنه قال: «كنت مع النبي ﷺ يوماً في بعض حيطان المدينة، ويَدُ علي كرّم الله وجهه في يده عليه الصلاة والسلام، قال: فمررنا بنخل فصاح النخلُ: هذا محمد رسول الله وهذا علي سيف الله، فالتفت النبي ﷺ إِلى علي رضي الله عنه فقال له: يا علي سَمِّهِ الصيحانيَّ، فسمي من ذلك اليوم الصيحاني»(٤) وهو حديث غريب.

قال العلامة السيد السمهوديُّ: وقد عقد فصلاً في سرد خصائص المدينة:

الأُولى: كونه ﷺ خُلِق من طينتها، وكذا أَبو بكر وعمر رضي الله عنهما وأَكثر الصحابة والسلف ممن دُفن بها.

الثانية: اشتمالها على البقعة التي انعقد الإِجماع على تفضيلها على سائر البقاع.

الثالثة: دفن أَفضل الأُمة بها.

الرابعة: أَنها محفوفة بأَفضل الذين بذلوا نفوسهم في ذات الله تعالى بين يَدَيْ نبيه ﷺ فكان شهيداً عليهم.

الخامسة: أَنَّ الله تعالى اختارها داراً وقراراً لأَفضل خلقه وأَكرمهم عليه ﷺ.

السادسة: أَن الله تعالى اختار أَهلها للنصرة والإِيواء.

---

(١) أخرجه مسلم في الأشربة [٣/١٦١٨] ح [١٥٤/٢٠٤٧].

(٢) أخرجه البخاري في الطب [١٠/٢٤٩] ح [٥٧٦٩]، ومسلم في الأشربة [٣/١٦١٨] ح [١٥٥/٢٠٤٧].

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده [١/٢١٢] ح [١٤٤٦].

(٤) لم أجده.

السابعة: أَن سائر البلاد افْتُتِحَتْ بالسيف وافْتُتِحَتْ هي بالقرآن.

الثامنة: أن الله تعالى افتتح منها سائر بلاد الإسلام حتى مكة المشرفة وجعلها مظهر دينه القويم.

التاسعة: ما ذكره عياض من الاتفاق على وجوب الهجرة إليها قبل فتح مكة ووجوب سكناها لنصرة النبي ﷺ ومواساته بالأنفس.

العاشرة: أنه يبعث أَشراف هذه الأُمة يوم القيامة منها. وأَتم العلامة السيد في سرد خصائصها مئة خصوصية لا يحتمل هذا المختصر ذكرها وفضل المدينة الشريفة كثير، وشرَفُهَا غزير.

ذكر مبدأ الهجرة إلى المدينة

رُوي أَنه أُري النبيُّ عليه الصلاة والسلام دار هجرته بصفة تجمع المدينة وغيرها، ثم أُرِيَ الصفة المختصة بالمدينة فتعيّنت، ثم أَذِنَ النبيُّ ﷺ لأَصحابه في الهجرة إلى المدينة، وأَقام بمكة ينتظر أن يؤذن له في الخروج، فتوجه بين العقبتين جماعةٌ منهم ابنُ أُم مكتوم، ويقال: إن أَول مَن هاجر إلى المدينة أَبو سلمة بن عَبْدِ الأَسَدِ المخزومي، زوج أُم سلمة[1]، وذلك أَنه أُوذي لما رجع من الحبشة، فعزم إلى الرجوع إليها، ثم بلغه قصة الاثنَيْ عشر من الأَنصار، فتوجه إلى المدينة فقدمها بكرة، وقدم بعده عامر بن ربيعة عَشِيَّةً[2]، ثم توجّه مصعب بن عُمير ليفقِّه مَن أَسلم من الأَنصار، ثم توالى خروجهم بعد العقبة الأَخيرة، فخرجوا أَرسالاً، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأَخوه زيد، وطلحة بن عبيد الله وصُهيب، وحمزة بن عبد المطلب، وزيد بن حارثة وعُبيدة بن الحارث، وعبد الرحمٰن بن عوف، والزبير وعثمان بن عفان وغيرهم[3]، حتى لم يبقَ معه ﷺ إلا علي بن أَبي طالب والصدِّيق رضي الله عنهما، كذا قاله ابن إسحاق وغيره.

قال السيِّدُ: والظاهر أَنَّ المراد لم يبق من أَعيانهم، لما رُوِي أَن مَن كان بمكة ممن يطيق الخروج من المسلمين خرجوا بعد خروجه ﷺ من مكة، فطلبهم أَبو سفيان

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [٣/ ١٦٧].
(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [٣/ ١٦٨].
(٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [٣/ ١٦٩].

وغيره من المشركين، فردُّوهم وسجنوهم، فَافْتُتِنَ منهم أُناس، ففي هذا دلالة على بقاء جماعة غير الصدِّيق وعلي رضي الله عنهما مع النبي ﷺ حينئذ، فلما رأَت قريش ذلك علموا أن أَصحابه قد أَصابوا منعةً ونزلوا داراً، فحذروا، فخرج رسول الله ﷺ إليهم، فاجتمعوا في دار النَّدْوَة ليأتمروا في أَمر رسول الله ﷺ وفيهم أَبو جهل.

وزعم ابن دُرَيْد في «الوشاح» أنهم كانوا خمسة عشر رجلاً.

وفي «المولد» لابن دِحْيَةَ: كانوا مئة رجل، وجاءهم إبليس لعنه الله في صورة شيخ نجديٍّ فقال: أدخلوني معكم فلن تعدموا مني رَأْياً. فأدخلوه، فقال بعضهم: نخرجه من بين أَظهرنا، وقال آخرون: بل نحبسه ولا يطعم حتى يموت. فقال أَبو جهل: قد رأَيت أَصح مِنْ رأيكم أن نعطي خمسة رجال من خمس قبائل سيفاً سيّفاً فيضربونه ضربة رجل فيتفرّق دمه في هذه البطون، فلا يقدر لكم بنو هاشم على شيء. فقال النجديُّ لعنه الله: لا أَرى غير هذا، فأَخبر جبريل النبي ﷺ، فأَنزل الله تعالى على نبيه ﷺ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠] فقال النبي ﷺ لعلي كرّم الله وجهه: «نَمْ على فراشي، واتشح ببردتي، فلن يخلص إليك منهم أَمر، فتردَّ هذه الودائع إلى أَهلها»[١] لأَن كفار قريش كانت تودع عنده لأَمانته وكان اسمه عندهم الأَمين الصادق. وأَتى النبي ﷺ أَبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه فأَعلمه وقال: «قَدْ أُذِنَ لي»، فقال: الصُّحْبَةَ يا رسول الله، وكان إنما حَبَس نفسه عليه، وكان عمر رضي الله عنه قد تقدّم إلى المدينة، وعلّف أَبو بكر رضي الله عنه راحلتين كانتَا عنده الْخَبَطَ أَربعة أَشهر، فعرض على النبي ﷺ إحداهما فقال: «بالثمن». وفي رواية ابن إسحاق قال: «لا أَركب بعيراً ليس هو لي» قال: هو لك، قال: «ولكن بالثمن الذي ابتعتها به». قال: أَخذتها بكذا وكذا، قال: «قد أَخذتها بذلك». قال: هي لك. قال السيد: والحكمة فيه كما أَفاده بعضهم أنه ﷺ أَحبَّ أَن لا تكون هجرته إلا من مال نفسه، وذكر ابن إسحاق أَن الناقة التي أَخذها هي الْجَدْعاء، فإنها كانت من إبل بني الْحَرِيْش، وكذا في رواية أَخرجها ابن حبان وأَنها الجَدْعاء، وأَفاد الواقديُّ أَن الثمن كان ثمان مئة درهم، اشتراها أَبو بكر من نعم بني قُشَيْرٍ، وأَخذ النبي ﷺ القصواء بثمنها.

وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن النبيَّ ﷺ أُذِنَ له في الهجرة إلى

---

(١) هذه القصة ذكرها ابن إسحاق والواقدي بنحوها. انظر: البداية والنهاية [٣/١٧٣ ـ ١٧٥].

المدينة بقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء: ٨٠] أخرجه الترمذي وصححه هو والحاكم، فذهب أبو بكر رضي الله عنه إلى عبد الله بن أُرَيْقط. قاله ابن عقبة، وفي «تهذيب ابن هشام» عبد الله بن أرقد، وفي رواية الأَموي عن ابن إسحاق بن أُريقد، وفي «العتبية» عن مالك: اسمه رقيط من بني الديل من كنانة فاستأجره، وكان هادياً خِرّيتاً أي ماهراً بالهداية، وكان على دين الكفار، قال النووي رحمه الله تعالى: لا نعلم له إسلاماً، فأمره أن يأتيهما بعد ثلاث في غار ثَوْرٍ، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله، فجاء عليٌّ رضي الله عنه واجتمعت قريش على باب الدار ليقتلوه بزعمهم، فقال لهم أبو جهل: لا تقتلوه حتى تجتمعوا، يعني الخمسة من القبائل الخمس، وجعل يقول لهم: هذا محمد كان يزعم لكم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوك العرب والعجم، ويكون لكم في الآخرة جنات تأكلون منها وإنْ لم تتابعوه يكون له فيكم ذَبْحٌ في الدنيا، ويوم القيامة نارٌ تحرقون فيها. فقال رسول الله ﷺ: «نعم والله، كذا أقول وكذا يكون، وأنت أَحدهم». ثم أَخذ حَفْنَةً من تراب فرماها في وجوههم، فأَخذ على أَبصارهم ولَمَّ علَى أَصْمِخَتِهِمْ فجعل على رأس كل رجل منهم تراباً وهو يقرأ أول سورة (يس) يستتر بها منهم إلى ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩] وتلا ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء: ٤٥][1]. ثم أتى منزل أَبي بكر رضي الله عنه فخرجا من خوخة كانت له، وأَتيا غار ثور، وأَقام المشركون ساعة فجعلوا يتحدثون. فجاءهم رجل كان إِذْ ذاك بعيداً منهم قال لهم: وما تنتظرون؟ فقالوا: إن نصبح فنقتل محمداً. فقال: قبّحكم الله وخيّبكم، أَوليس خرج إِليكم وجعل على رؤوسكم التراب؟ قال أَبو جهل لعنه الله: أَوليس هو ذاك مُسَجًّى ببردته؟ الآن كلمتنا!! فلما أَصبحوا قام عليٌّ رضي الله عنه عن الفراش، فقال أَبو جهل: صدقنا هذا المخبر، فاجتمعت قريش وأَخذت الطرق، وجعلت الجعائل لمَن جاء به، فانصرفت أَعينهم ولم يجدوا شيئاً، فجاء الدِّيليُّ بعد ثلاث بالراحلتين. فلا ينافي هذا ما وقع في رواية هشام عند ابن حبان حيث قال: فركبا حتى أَتيا الغار فتواريَا، يحتمل أَنهما ركبا غير هاتين الراحلتين أَو هما، ثم ذهب بهما عامر بن فُهيرة الدِّيلي.

وذكر موسى بن عُقْبة عن ابن شهاب في الحديث المتقدم أَن عليًّا رضي الله عنه رقد على فراش رسول الله ﷺ يُوَرِّي عنه، وباتت قريش تختلف وتأتمر أَيُّهُم يهجم

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [٣/ ١٧٥].

على صاحب الفراش فيوثقه، حتى أَصبحوا فإِذا هم بعليٍّ رضي الله عنه، فسأَلوه فقال: لا علم لي، فعلموا أَنه فَرَّ منهم.

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما: فاقتصُّوا أَثَرَه، فلما بلغوا الجبلَ اختلط عليهم فصعدوا الجبل فمرُّوا بالغار، فرأوا على بابه نَسْجَ العنكبوت فقالوا: لو دخل هنا لم يكن على بابه نسجُ العنكبوت، فمكث فيه ثلاث ليال. وذكر نحوه موسى بن عقبة عن الزهري، وكله مُقْتَضٍ لأَنَّ الخروج إِلى الغار كان في بقية تلك الليلة، وكان ذلك بعد العقبة بشهرين وليال.

وقال الحاكم: بثلاثة أَشهر أَو قريباً منها، ويرجح الأَول ما جزم به ابن إِسحاق من أَنه خرج أَول يوم من ربيع الأَول، فيكون بعد العقبة بشهرين وبضعة عشر يوماً، وكذا جزم به الأَموي فقال: خرج لهلال ربيع الأَول، وقدم المدينة لاثني عشر خلت منه. قال السيد: وعلى هذا كان خروجه يوم الخميس، وأَما حديث الحاكم: «لبثت مع صاحبي - يعني أَبا بكر رضي الله عنه - في الغار بضعة عشر يوماً ما لنا طعام إِلاَّ ثَمَر الْبَرير» يعني الأَراك، فقال الحاكم: معناه مكثنا مختفين من الكفار في الغار وفي الطريق بضعة عشر يوماً[١].

وقال الحافظ ابن حَجَرٍ: يظهر أَنها قصة أُخرى لما في «الصحيح» من أَن عامر بن فُهيرة كان يروح عليهما في الغار باللبن، وكذا قصة نزولهما بخيمة أُمِّ مَعْبَدٍ وغير ذلك[٢].

وكان مدة مقامه ﷺ بمكة بعد النبوة بضع عشرة سنة، وقال عروة: عشراً[٣]، وقال ابن عباس: خمس عشرة[٤]، وفي رواية عنه: ثلاث عشرة[٥]، ولم يعلم بخروجه إِلاَّ علي كرّم الله وجهه، وآل أَبي بكر رضي الله عنه، وكان من قصة نسج العنكبوت وغيره من أَمر الغار ما كان، وانطلق رسول الله ﷺ وأَبو بكر رضي الله عنه ومعهما عامر بن فهيرة يخدمهما يردفه أَبو بكر رضي الله عنه ويعقبه، والدليل، فأَخذ بهم من أَسفل مكة

(١) انظر: فتح الباري [٧/ ٢٧٩].
(٢) انظر: فتح الباري [٧/ ٢٧٩].
(٣) وهو مروي عن أنس، وعائشة، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وعمرو بن دينار. انظر: تاريخ الطبري [٢/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤].
(٤) انظر: فتح الباري [٧/ ٢٧١].
(٥) أخرجه الطبري في تاريخه [٢/ ٣٨٤ ـ ٣٨٥].

فأتى بهما طريق السواحل أسفل من عُسْفان، ثم عارض الطريق على أَمَج، ثم نزل من قُدَيْدٍ خِيَام أُمِّ مَعْبَد الخزاعية من بني كعبة، وبقية المنازل إلى قُبا ذكرها ابن زُبالة.

قال رزين: وأقامت قريش أياماً لا يدرون أَيْنَ أَخذَ محمد ﷺ، فسمعوا صوتاً على أبي قُبَيْسٍ وهو يقول:

فَإِنْ يُسْلِمِ السَّعْدَانِ يُصْبِحْ مُحَمَّدٌ مِنَ الأَمْنِ لاَ يَخْشَى خِلافَ الْمُخَالِفِ

فقالت قريش: لو علمنا مَنِ السَّعْدَانِ؟ فقال:

أَيَا سَعْدُ سَعْدَ الأَوْس كُنْ أَنْتَ مَانِعاً وَيَا سَعْدُ سَعْدَ الْخَزْرَجِيْنَ الْغَطَارِفِ

أَجِيْبَا إِلَى دَاعِي الْهُدَى وَتَبَوَّآ مِنَ اللّهِ في الْفِرْدَوْسِ زُلْفَةَ عَارِفِ

فعلموا إذ ذاك أنه أخذ طريق المدينة.

قال أبو سليمان الخطابيُّ: لما شارف النبي ﷺ المدينة لقيه بُريدة الأَسلميُّ في سبعين من قومه بني أَسْلَم فقال: مَن أنت؟ قال: بُريدة. فقال لأَبي بكر رضي الله عنه: «برد أمرنا وصلح». ثم قال: ممن؟ قال: من أسلم. فقال: «سلمنا». ثم قال: ممن؟ قال: من بني سهم. فقال: «خرج سهمنا».

وقد روى ابن الجوزيِّ رحمه الله في «شرف المصطفى» من طريق البيهقيِّ موصولاً إلى بريدة قال: كان النبي ﷺ لا يتطيّر، وكان يتفاءل. وكانت قريش جعلت مئة من الإِبل لمَن يأخذ نبيَّ الله ﷺ فيرده إليهم، حين توجّه إلى المدينة، فركب بُريدة في سبعين راكباً من أهل بيته من بني سهم، فتلقَّى نبي الله ﷺ، فقال نَبيُّ الله ﷺ: «مَن أنت»؟ قال: أنا بُريدة، فالتفت النبي ﷺ إلى أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه فقال: «يا أَبا بكر بَرَدَ أمرنا وصلح». ثم قال ﷺ: «ممن أنت؟» قال: من أسلم. فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «سلمنا». ثم قال: ممن؟ قال: من بني سَهْم قال: «خرج سهمنا» فقال بُريدة: مَن أنت؟ قال: «أنا محمد بن عبد الله رسول الله». فقال بُريدة: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمداً رسول الله، فأسلم بُريدة، وأسلم مَن كان معه جميعاً. فلما أصبح قال بُريدة للنبيِّ ﷺ: لا تدخل المدينة إلا ومعك لواءٌ، فحلَّ عمامته ثم شدَّهَا في رُمْحٍ ثم مشى بين يديه ﷺ، ثم قال: يا رسول الله تنزل على مَن؟ فقال النبي ﷺ: «إِن ناقتي هذه مأمورة». قال بُريدة: الحمد لله الذي أسلمت بنو سهم طائعين.

وفي «الصحيح» أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا

تجاراً قافلين من الشام، فكسى الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه ثياباً بيضاً[(١)]. وروي أن طلحة كان قدم من الشام ومعه ثياب أهداها لأبي بكر رضي الله عنه من ثياب الشام، فلما لقيه أعطاه، فلبس منها رسول الله ﷺ وأبو بكر.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: فيحتمل أن كلاً من طلحة والزبير رضي الله عنهما أهدى لهما[(٢)]. والذي في السير هو طلحة رضي الله عنه، فالأولى الجمع.

وكان المسلمون بالمدينة قد سمعوا بمخرج رسول الله ﷺ فكانوا يخرجون كل يوم إلى الْحَرَّةِ فينتظرونه فما يردهم إلا حَرُّ الشمس، فبعد أن رجعوا يوماً رقى رجل من اليهود على أَطَم من آطامهم لأمْرٍ ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مُبَيَّضِين، فلم يملك اليهوديُّ أن قال بأعلى صوته: يا بني قَيْلَةَ - يعني الأنصار - وفي رواية: يا معشر العرب، هذا جَدُّكُمْ - يعني حظكم - وفي رواية: صاحبكم الذي تنتظرونه. فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقَّوا رسول الله ﷺ بظهر الْحَرَّة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عَمْرِو بن عوف بِقُبَاءَ، على كلثوم بن الْهِدْم[(٣)]، قيل: وكان يومئذ مشركاً، وبه جزم ابن زبالة. وقال رزين: نزل في ظل نخلة ثم انتقل منها إلى دار كلثوم أخي بني عمرو بن عوف.

وفي «كتاب يحيى» عن محمد بن إسماعيل بن مجمع قال: لما نزل رسول الله ﷺ على كلثوم بن الهدم هو وأبو بكر رضي الله عنه وعامر بن فُهيرة قال: يا نجيح لِمَولًى له، فقال رسول الله ﷺ، والتفت إلى أبي بكر رضي الله عنه: «أنجحت ونجحنا» فقال: أطعمنا رُطَباً، قال: فأتوا بِقِنْوٍ من أُمّ جِرْذَان، فيه رطب مُنَصِّفٌ وفيه زَهْوٌ، فقال رسول الله ﷺ: «ما هذا»؟ قال: عِذْقُ أم جرذان. فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم بارك في أم جرذان».

قال الزهري: قدم رسول الله ﷺ المدينة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، وبه جزم النواويُّ وكذا ابن النجار.

وفي «شرف المصطفى» ﷺ لابن الجوزيِّ رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: وُلِد رسول الله ﷺ يوم الاثنين، واستنبأ يوم الاثنين، وقدم المدينة يوم الاثنين، وقُبِض يوم الاثنين. وفي البخاري من حديث أنس رضي الله عنه

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار [٧/ ٢٨١ - ٢٨٢] ح [٣٩٠٦].

(٢) انظر: فتح الباري [٧/ ٢٨٧].

(٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [٣/ ١٩٥].

أَقام فيهم أَربع عشرة ليلة(١)، وهو المراد في رواية عائشة رضي الله عنها بقولها: بضع عشرة ليلة. وقال موسى بن عقبة عن ابن شهاب: أَقام فيهم ثلاثاً(٢).

قال ابن إِسحاق: أَقام فيهم خمساً(٣)، وبنو عمرو بن عوف يزعمون أَكثر من ذلك. قال الحافظ ابنُ حَجَرٍ رحمه الله: أَنس ليس من بني عمرو بن عوف فإِنه من الخزرج. وقد جزم بأَربع عشرةَ ليلة فهو أَولى بالقبول.

وأَمر النبي ﷺ بالتاريخ فَكُتِب من حين الهجرة في ربيع، رواه الحاكم في «الإِكليل» وهو معضل، والمشهور أَن ذلك في خلافة عمر رضي الله عنه، وأَن عمر رضي الله عنه قال: إِنَّ الهجرة فرقت بين الحق والباطل فأَرخ بها. وابْتُدِىء من المحرم بعد إِشارة علي وعثمان رضي الله عنهما بذلك، وأَفاد السهيلي رحمه الله أَنَّ الصحابة رضي الله عنهم أَخذوا التاريخ بالهجرة من قوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ [التوبة: ١٠٨](٤).

وفي «الصحيح» أَنهم لما قدموا قام أَبو بكر رضي الله عنه للناس، أَي يتلقاهم، وجلس رسول الله ﷺ فطفِق مَن جاء من الأَنصار يُحَيِّي أَبا بكر رضي الله عنه، حتى أَصابت الشمسُ رسول الله ﷺ، فأَقبل أَبو بكر رضي الله عنه حتى ظلّل عليه بردائِهِ، فعرف الناسُ رسولَ الله ﷺ(٥). وفي رواية موسى بن عُقْبَةَ عن ابن شهاب قال: وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطفِق مَن جاء من الأَنصار ممن لم يكن رآه يحسبه أَبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه، حتى إِذا أَصابته الشمس أَقبل أَبو بكر بشيء أَظلّه به(٦). وفي رواية عن ابن إِسحاق: حتى رأَينا أَبا بكر رضي الله عنه يتحيَّزُ له عن الظِّلِّ فعرفناه بذلك(٧).

ونزل أَبو بكر رضي الله عنه على خُبيب بن إِسافِ، أَحد بني الحارث بن الخزرج بالسُّنُح، ويقال: على خارجة بن زيد منهم. وأَقامَ عليٌّ رضي الله عنه بعد مخرجه ﷺ أَياماً قال بعضهم: ثلاثاً حتى أَدّى النّاس ودائعهم التي كانت عند

---

(١) انظر: البداية والنهاية [٣/ ٢٠٧].
(٢) وقال الحافظ ابن كثير: إنه الأشهر. انظر: البداية والنهاية [٣/ ٢٠٧].
(٣) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار [٧/ ٣١١] ح [٣٩٣٢].
(٤) انظر: البداية والنهاية [٣/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥]، فتح الباري [٧/ ٣١٤، ٣١٥].
(٥) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار [٧/ ٢٨١ ـ ٢٨٢] ح [٣٩٠٦].
(٦) انظر: فتح الباري [٧/ ٢٨٨].
(٧) انظر: فتح الباري [٧/ ٢٨٨].

النبي ﷺ وَخَلفَهُ لِرَدِّهَا. ثم خرج فلحق رسول الله ﷺ بقباء، فنزل على كلثوم بن الْهِدْم، وكان لكلثوم بن الْهِدْم بِقُبَاءَ مِرْبَدٌ، والْمِربدُ الموضع الذي يبسط فيه التمر لِيَيْبَسَ، فأَخذه منه رسول الله ﷺ فأسسه وبناه مسجداً كما رواه ابن زبالة وغيره.

وفي «الصحيح» عن عروة رحمه الله: فلبث في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأَسس المسجدَ الذي أُسِّسَ على التقوى[1].

وروى يونسُ بنُ بُكير في زيادة المغازي عن المسعوديِّ عن الحكم بن عتيبة قال: لما قدم النبي ﷺ فنزل بقباء قال عمار بن ياسر: ما لرسول الله ﷺ بُدٌّ من أَن نجعل له مكاناً يستظل به إذا استيقظ ويصلي فيه، فجمع حجارة فبنى مسجدَ قُبَاء، فهو أَول مسجد بُني، يعني لعامة المسلمين أَو للنبي ﷺ بالمدينة، وهو في التحقيق أَول مسجد صَلَّى فيه بأَصحابه جماعة ظاهراً، وإِن كان قد تقدّم بناءُ غيره من المساجد، فقد روى ابن أَبي شيبة عن جابر رضي الله عنه قال: لقد لبثنا بالمدينة قبل أَن يقدم علينا رسول الله ﷺ سنتين، نعمر المساجد، ونقيم الصلاة.

ولأَبي عبد الله الفيوميِّ المكي في قباء:

لِـلّـهِ يَـوْمٍ فـي قُـبَـاء مَـرَّ لِـي فـي جَـمْـعِ أَحْـبَـابٍ وبَـسْـط زَائِـدِ
وتَـمَـتَّـعَـتْ فـي رَوْضِـهِ أَحْـدَاقُـنَـا بِـحَـدَائِـقٍ تُـسْـقَـى بـمـاءٍ واحِـدِ

ثم إِن رسول الله ﷺ أَرسل إِلى ملأٍ من بني النجار فجاؤوا مقلَّدين بالسيوف وكانوا أَخواله، وذلك أَنَّ هاشماً بن عبد مناف تزوج منهم امرأَةً وهي سلمى بنت عمر فجاءهُ منها ولد، فلما مات هاشم وكبر الغلام مرّ به قوم من قريش فأَبصروه وقد ترعرع وهو ينتضل وهو يقول: أَنا القرشي، فجاؤوا وأَخبروا عَمَّهُ المطلب بن عبد مناف، فذهب فجاء به، فدخل مكة وهو مردفه وعليه ثياب السفر، فقالت قريش: هذا عبد المطلب، فغلب عليه هذا الاسم، فلذلك كان أَخواله بني النجار، فقالوا لرسول الله ﷺ: اركبوا آمنين مطاعين، وكان خروجه ﷺ من قُباء يوم الجمعة، والذي في كتب السير عن ابن إِسحاق، أَنَّ الجمعة أَدركته في وادي رانونا، فكانت أَول جمعة صلاّها بالمدينة وكانوا أَربعين وقيل مئة، فأَتاه عِتْبانُ بن مالك في رجال بني سالم فقال: يا رسول الله أَقم عندنا في العدد والعُدَّة والمنعة، فقال: خلُّوا سبيلها ـ لناقته ـ فإِنها مأْمورة، فخلُّوا سبيلها، فانطلقت، حتى إِذا وازنت دار بني بياضة تلقاه

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار [٧/ ٢٨١ ـ ٢٨٢] ح [٣٩٠٦].

زياد بن لَبيد، وفروة بن عمرو في رجال من بني بياضة، فأَجابهم بمثل ما تقدّم، فخلُّوا سبيلها، حتى إذا وازنت دار بني الحارث بن الخزرج اعترضه سعد بن الربيع وخارجة بن زيد وعبد الله بن رواحة، في رجال من بني الحارث، فأَجابهم بما تقدّم، فخلّوا سبيلها، فانطلقت حتى إذا مَرَّتْ بدار عَدِيِّ بن النجار وهم أَخواله دنيا، اعترضه سليط بن قَيْس في رجال منهم فأَجابهم بمثل ما تقدّم، حتى إذا أَتت دار بني مالك بن النجار بركت على باب مسجده ﷺ ثم وَثَبَتْ فسارَتْ غير بعيد، ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها، لا يثنيها به، ثم التفتَتْ خلفها، فرجعت إِلى مبركها أول مرة فبركت فيه، ثم تحلحلت ورزمت ووضعت جرانها، فنزل عنها رسول الله ﷺ(١). وفي رواية: أَنها لما وثبت من مبركها الأول بركت على باب أبي أيوب الأَنصاري رضي الله عنه، ثم ثارت منه وبركت في مبركها الأول. وفي رواية فقال رسول الله ﷺ: «هذا المنزل إن شاء الله تعالى»(٢).

وفي «البخاري» من حديث عائشة أنه ﷺ أَقبل يسير حتى نزل جانب دار أَبي أَيوب الأَنصاري فقال: «أَيُّ بيوت أَهلنا أَقرب»؟ أي أَخوال جَدِّهِ؟ فقال أَبو أَيوب: أنا يا رسول الله، هذه دارِي وهذا بابي، قال: «فانطلقْ فَهَيِّىءْ لنا مقيلاً»(٣). وفي رواية لابن زبالة: اختار رسول الله ﷺ على عينه فنزل في منزله وتَخَيَّرَهُ، وأَراد أَن يتوسط الأَنصار كلها. قال المطريُّ: وهو غير مناف لما تقدم من قوله: «دعوها فإِنها مأْمورة» لأَن الله تعالى اختار له ما كان يختاره لنفسه.

وفرح أَهل المدينة بمقدمه ﷺ إِليهم فرحاً شديداً، ففي «البخاري» من حديث البراء: ما رأَيت أَهل المدينة فرحوا بشيء فَرَحَهُمْ برسول الله ﷺ(٤).

وروى أَبو داود أَنَّ الحبشة لعبت بحرابهم فرحاً بقدومه ﷺ(٥).

قال رَزِيْنٌ: وصعدتْ ذوات الخدور على الأَجاجير يقلن:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا ... مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاع
وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا ... مَا دَعَا لِلَّهِ دَاعِي

---

(١) انظر: البداية والنهاية [٣/١٩٦ ـ ١٩٧].

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار [٧/ ٢٨١ ـ ٢٨٢] ح [٣٩٠٦].

(٣) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار [٧/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤] ح [٣٩١١].

(٤) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار [٧/ ٣٠٥] ح [٣٩٢٥].

(٥) أخرجه أبو داود في الأدب [٤/ ٢٨٣] ح [٤٩٢٣].

وفي رواية:

أَيُّهَا الْمَبْعُوثُ فِينَا جِئْتَ بِالأَمْرِ الْمُطَاع

والغلمان والولائد يقولون: جاء رسول الله ﷺ!! فرحاً به. ورُوِي عن أنس قال: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة أَظلم فيها كل شيء، فلما دخل المدينة أضاء فيها كل شيء. وأَسند يحيى عن الحسن قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة قال: «ابنوا لي مسجداً عريشاً كعريش موسى عليه السلام ابنوه لنا من لبن».

وأَورده رزين بلفظ: لما أَخذ في بناء المسجد قال: «ابنوا لي عريشاً كعريش موسى ثُمَامَاتٍ وخشبات، وظلة كظلة موسى عليه السلام، والأَمر أَعجل من ذلك» قيل: وما ظُلَّة موسى؟ قال: «كان إِذا قام فيه أَصاب رأْسه السقف» وعمل فيه بنفسه ﷺ ترغيباً لهم[(١)].

وفي «كتاب رزين» ما لفظه: عن جعفر بن محمد عن أَبيه قال: كان بناء مسجد رسول الله ﷺ بالسميط لبنة على لبنة، ثم بالسعيدة لبنة ونصف أُخرى، ثم كثروا فقالوا: يا رسول الله لَوح زِيد فيه، ففعل، فبنى بالذكر والأُنثى، وهي لبنتانِ مُخْتَلِفَتَان، وكانوا رفعوا أَساسه قريباً من ثلاثة أَذْرُع بالحجارة، وجعلوا طوله مما يلي القبلة إِلى مؤخرهِ مئة ذراع، وكذا في العرض، وكان مُرَبَّعاً. وفي رواية جعفر: ولم يُسَطَّحْ فشكوا الْحَرَّ، فجعلوا خشبه وسوارِيه جُذُوْعَ، وظللوا بالجريد ثم بالْخَصف، فلما وكَفَ عليهم طَيَّنُوه بالطين وجعلوا وسطه رحبةً، وكان جداره قبل أَن يظلل قامةً وشيئاً. وفي «صحيح البخاري» عن ابن عمر قال: كان النبي ﷺ يَخْطُبُ إِلى جِذْعٍ، فلما اتخذ المنبر تحولَ إِليه، فحنَّ الْجِذْعُ، فأَتاه فمسح بيده عليه[(٢)].

وفيه عن جابر أَن النبي ﷺ كان يقوم يوم الجمعة إِلى شجرةٍ أَو نخلة، فقالت امرأَة من الأَنصار أَوْ رجل: يا رسول الله أَلا نجعل لَكَ منبراً؟ فقال: «إِن شئتم» فجعلوا له منبراً، فلما كان يوم الجمعة رفع إِلى المنبر، فصاحت النخلة صياح الصَّبيِّ، ثم نزل رسول الله ﷺ فضمّه إِليه، وهو يئن أَنين الصَّبيِّ الذي يُسَكَّنُ، قال: كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها[(٣)].

وكان طول منبر النبي ﷺ الأَول على ما ذكره المطريُّ ذراعين في السماء وثلاث

---

(١) بنحوه عزاه الحافظ المنذري لابن أبي الدنيا مرسلاً. انظر: الترغيب والترهيب [٣/ ٢٢] [١٣] وعزاه ابن كثير للبيهقي. انظر: البداية والنهاية [٣/ ٢١٤].

(٢) أخرجه البخاري في المناقب [٦/ ٦٩٦] ح [٣٥٨٣].

(٣) أخرجه البخاري في المناقب [٦/ ٦٩٦] ح [٣٥٨٤].

أَصابع، وعرضه ذراع راجح، وطول صَدْرِه وهو مُسْتَنَدُ النبيِّ ﷺ ذراع وطول رمَّانتي المنبر اللتين كان يمسكهما ﷺ بيديه الكريمتين إذا جلس شبر وإِصبعان، وعرضه ذراع في ذراع يزيد، وتربيعه سواء، وعدد درجاته ثلاث بالمقعد، وفيه خمسة أَعواد من جوانبه الثلاثة. وهذا ما كان عليه المنبر في حياته ﷺ، وفي خلافة أَبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم. فلما حجّ معاوية رضي الله عنه في خلافته كساه قبطيَّةً، ثم كتب إِلى مروان وهو عامله على المدينة أَنِ ارفع المنبر عن الأَرض، فدعا له النَّجَّارِين، ورفعوه عن الأَرض، وزاد من أَسفله ستَّ درجات، ورفعوه عليه فصار المنبر تسع درجات بالمجلس، والمنقول أَن ذرع ما بين المنبر ومصلّى النبي ﷺ الذي نقل بالتواتر أَنه كان يصلّي فيه إِلى أَن توفي أَربعة عشر ذراعاً وشبراً، وأَن ذرع ما بين القبر المقدس والمنبر الشريف ثلاث وخمسون ذراعاً.

وفي «منطق الطير» للشهاب بن أَبي حَجَلَة:

يَا قَائِمِيْنَ إِلَى الصَّلاَةِ بِطَيْبَةٍ ... نِلْتُمْ مَقَاماً بِالنَّبِيِّ عَظِيْمَا
فَإِذا جَلَسْتُمْ في التَّشَهُّدِ حَوْلَهُ ... صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيْمَا

ولأَبي عبد الله الفيومي رحمه الله:

سُكَّانَ طَيْبَةَ يُبْلِي الْحُبُّ صَبَّكُمُ ... والشَّوْقُ مِنْهُ لِيَوْمِ الْعَرْضِ في طُولْ
تَاللهِ لَمْ يُشْبِهِ الْمِقْيَاسُ رَوْضَتَكُمْ ... ولا تَسَلِّي عَنِ الزَّرْقَاءِ بِالنِّيْلِ

وروى الشيخ محب الدين بن النجار رحمه الله تعالى أَن رسول الله ﷺ بنى مسجده مربعاً وجعل قبلته إِلى بيت المقدس، وطوله سبعون ذراعاً في ستين ذراعاً أَو يزيد، وجعل له ثلاثة أَبواب باب خلفه، وباب عاتكة ابنة عبد الله بن يزيد بن معاوية كانت لها دار تقابل الباب فنسب إِليها، وهو باب الرحمة، والباب الذي كان يدخل منه رسول الله ﷺ وهو باب عثمان نُسب إِليه كما نُسب باب عاتكة وهو المعروف بباب جبريل عليه السلام.

وحُوِّلَت القبلة إِلى الكعبة بعد الهجرة بستة عشر شهراً، في مسجد بني سَلِمَةَ الذي يقال له مسجد القبلتين في صلاة الظهر.

وقيل: كان ذلك في مسجد رسول الله ﷺ يوم الاثنين في النصف من شهر رجب على رأْس سبعة عشر شهراً من الهجرة في صلاة العصر، ولما صُرِفَتْ القبلة إِلى الكعبة سدَّ النبي ﷺ البابَ الذي كان خلفه وفتح ما سواه.

ونقل أَهل السير أَنَّ النبي ﷺ بنى مسجده مرتين: بناه حين قدم أَقلَّ من مئة في المئة، فلما فتح الله عليه خَيْبَرَ بناه وزاد عليه في الدور مثله، فصلّى فيه ﷺ متوجهاً إِلى

بيت المقدس ستة عشر شهراً، ثم أَمر بالتحوُّل إِلى الكعبة، فأَقام رهطاً على زوايا المسجد ليستدل القبلة، فأَتاه جبريل عليه السلام فقال: يا رسول الله ضَع القبلة وأَنت تنظر إِلى الكعبة. ثم قال جبريل عليه السلام بيده هكذا فأَماط كُلَّ حائل بينه وبين الكعبة من جبل وغيره، فاستقبلها رسول الله ﷺ وهو ينظر إِليها لا يحول دون نظره شَيء. فلما فرغ قال جبريل عليه السلام هكذا بيده فأَعادها إِلى حالها، وصارت قبلته إِلى الميزاب.

وذكر الشيخ محب الدين رحمه الله تعالى أَن حدود مسجد النبي ﷺ المشار إِليه من القبلة (الدرابزينات) التي بين الأَساطين التي في قبلة الروضة، ومن الشام الخشبتان المغروزتان في صحن المسجد، هذا طوله، وأَما عرضه من المشرق إِلى المغرب فهو من حُجْرة النبي ﷺ إِلى الأُسطوانة التي بعد المنبر وهو آخر البلاط. وقال الشيخ جمال الدين محمد المطريُّ: أَما (الدرابزينات) التي ذكر من جهة القبلة فهي متقدمة عن موضع الحائط القبليّ، لأَن الحائط القبليَّ كان محاذياً لمصلَّى رسول الله ﷺ، لما ورد أَنَّ الواقف في مصلّى رسول الله ﷺ كون رمانة المنبر الشريف حَذْوَ منكبه الأَيمنِ، فمقام النبي عليه الصلاة والسلام لم يغير باتفاق، وكذلك المنبر لم يُؤَخَّرْ عن منصبه الأَول، وإِنَّما جعل هذا الصندوق الذي في قبلة رسول الله ﷺ سترةً بين المقام وبين الأُسطوانات.

وذكر الشيخ محب الدين بن النجار أَنَّ طول مسجد الرسول ﷺ اليوم بعد الزيادات كلها مئتا ذراع وأَربعة وخمسون ذراعاً، وعرضه من مقدمه من المشرق إِلى المغرب مئة ذراع وسبعون ذراعاً، وعرضه من مؤخره مئة وخمسة وثلاثون ذراعاً. وذكر محمد بن الحسن ما يقارب هذا أَو مثله لاختلاف الأَذرعة، وكل ذلك بذراع اليد المتوسطة بين الطول والقصر.

ومن فضل المسجد الشريف النبوي على مُشَرِّفه أَفضل الصلاة والسلام ما روي بالسند عن أَبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ «لا تُشَدُّ الرحال إِلا إِلى ثلاثة مساجد: مسجدي، والمسجد الحرام، والمسجد الأَقصى»(١) متفق على صحته.

وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي خير من أَلف صلاة فيما سواه من المساجد إِلا المسجد الحرام»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة [٧٦١٣] ح [١١٨٩]، ومسلم في الحج [٢/١٠١٤١] ح [١٣٩٧/٥١١].

(٢) أخرجه مسلم في الحج [٢/١٠١٢] ح [١٣٩٤/٥٠٥].

و«منبري على تُرْعَة من ترَعِ الجنة»(١).

و«ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»(٢).

وعن أَبي أُمامة سهل بن حنيف رضي الله عنه أَن رسول الله ﷺ قال: «مَن خرج على طُهْرٍ لا يريد إِلا الصلاة في مسجدي حتى يصلي فيه كان بمنزلة حجة»(٣).

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَن دخل مسجدي هذا يتعلّم خيراً أَوْ يُعَلِّمُهُ كان بمنزلة المجاهد في سبيل الله، ومَن دخله لغير ذلك من أَحاديث الناس كان كالذي يرى ما يعجبه وهو لغيره»(٤).

وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحلف عبد أَو أُمة عند المنبر ولو على سواك رطب كاذباً إِلا وجبتْ له النار»(٥).

ذكر الحجرة الشريفة

قال المطريُّ: ولم يكنْ قبل حريقِ المسجد، ولا بعده على الحجرة الشريفة قبة، بل كان ما حول حجرة النبي ﷺ حَظِيْراً في السطح مبنيًّا بِالآجُرّ، مقدار نصف قامة، يميز الحجرة الشريفة عن السطح، إِلى سنة ثمان وتسعين وست مئة، في دولة السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الأَلفي الصالحي، عملت هذه القبة، وعمل مكان الحظير الآخر شُبَّاكُ خشبٍ يحكيه، ثم غُيِّر بعد ذلك بما هو عليه الآن.

كسوة الحجرة الشريفة:

وأما كسوة الحجرة الشريفة: فعمل ابن الهيجاء الوزير ستارة من الدَّبِيْقِي، وأدار عليها طرازاً أحمر، مكتوباً عليه سورة ﴿يسٓ ۝١﴾ وعلقها نحو القامتين على جدار

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده [٢/ ٤٧٨] ح [٨٧٤٢].

(٢) أخرجه البخاري في فضائل المدينة [٤/ ١١٩] ح [١٨٨٨]، ومسلم في الحج [٢/ ١٠١١] ح [٥٠٢/ ١٣٩١].

(٣) البخاري في التاريخ الكبير [٨/ ٣٧٩].

(٤) عزاه الحافظ الهيثمي للطبراني في الكبير وقال: فيه يعقوب بن حميد بن كاسب وثقه البخاري وابن حبان، وضعّفه النسائي وغيره ولم يستندوا في ضعفه إلا إلى أنه محدود وسماعه صحيح. انظر: مجمع الزوائد [١/ ١٢٨].

(٥) أخرجه ابن ماجه في الأحكام [٢/ ٧٧٩] ح [٢٣٢٦] والإمام أحمد في مسنده [٣/ ٤٥٩] ح [١٥٠٣٤].

الحجرة، بعد الإِذْنِ من الخليفة المستضيء بأَمر الله، ثم جاءتْ من الخليفة ستارةٌ من الإِبرسيم البنفسجي، عليها الطراز، والجامات البيض المرقومة بأَسماء الأَصحاب، فنقلت الستارة الأُولى التي هي عمل الوزير إلى مشهد عليٍّ بن أَبي طالب رضي الله عنه بالكوفة، وعلقتْ هذه عوضها، فلما ولي الناصر لدين الله أَنْفَذَ ستارة أخرى من الإِبريسم الأَسود، وطرّزها وجاماتها من الإِبريسم الأَبيض، وعلقتْ فوق تلك، فلما حجّت أُمّ الخليفة، وعادتْ عملت ستارة على شكل المذكورة قبلها فعلقتْ فوقها، ثم صارت ترسل من جهة مصر بعد سبع سنين أو نحوها، وتعلق بعد قلع التي قبلها إلى أن أوقف الملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاوون، وقفاً حسناً على عمل كسوة بيت الله تعالى، وحُجْرة النبي ﷺ، فاستمرت تُعمل بمصر من الوقف وتُجَهَّزُ على الصفة التي هي عليها الآن ـ أثابه الله تعالى ـ.

قلت: وفي سنة ثلاث وأربعين وتسع مئة عُرِضَ أمر هذا الوقف، ومُتَحَصَّلُهُ على خسرو باشا نائب السلطنة بمصر، ومصرف الكسوة الشريفة للحرمين المنيفين، فاستعظم مقداره، وأمر بِهَدْرِ جزءٍ وافرٍ من مبلغ الكسوة، وأن يوفر من حرير الطراز وغيره، شيء له مقدار، فلما كانت ولاية داود باشا، وعرض عليه ذلك أمر بعود المصروف المتوفر في ولاية خسرو، وأن يزادَ عليه بتغيير الطراز الحرير الأَصفر للكعبة الشريفة بطراز من المزركش الفضة، المطلاة بالذهب، ثم أمر بتغيير أعلام المنبر الشريف النبويّ، وكانا من الحرير الأَبيض والأَسود بمشلشل دائر من الحرير الأَبيض والأَسود والأَحمر، فطلبني داود باشا إلى الديوان وسأَلني عن صفتهما، ومقدار طولهما وعرضهما، فأَخبرته عن ذلك فأَشار بتغييرهما إلى المزركش المخايش فعملا كذلك في نَيِّفٍ وخمسين وتسع مئة، واستمرا. وفي ولايته أيضاً أمر بصياغة رصافيات المحمل من الفضة المطلاة بالذهب، وزاد في مصروف ثوب المحمل الشريف في زركشة وجعل له عَلَماً حسناً، وكان قبل ذلك بدون هذه الصفة، وعَمِل للحجرة الشريفة مفارز كباراً للشمع من الفضة الخالصة المطلية بالذهب، وله مثل ذلك من تَعَلُّقات البيت الشريف، والحجرة المصطفوية أشياء متعددة ـ أثابه الله تعالى ـ.

ذكر الأسطوانات المشهورة في الروضة

منها الأُسطوانة المخلقة، وهي التي صلَّى إليها رسول الله ﷺ المكتوبة، بعد تحويل القبلة بضع عشرة، ثم تقدّم إلى مصلاه اليوم، وهي الثالثة من المنبر، والثالثة

من القبلة، والثالثة من القبر الشريف، وكانت أيضاً الثالثة من رحبة المسجد قبل أن يزاد في القبلة رواقان، وهي متوسطة في الروضة، وتُعرف بأُسطوان المهاجرين، كان أكابر الصحابة رضي الله عنهم يصلُّون إِليها، ويجلسون حولها، وتُسَمَّى أيضاً أسطوان عائشة رضي الله عنها للحديث الذي روثْ فيها أنها لَوْ عرفها الناسُ لاَضْطربوا على الصلاة عندها بالسُّهْمَانِ، وهي التي أَسَرَّتْ بها إِلى ابن أختها عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما فكان أكثر نوافله إِليها، ويقال: إِن الدعاء عندها مستجاب.

ومنها: أسطوان التوبة وهي التي ارتبط فيها أبو لبابة بَشِيْرُ بن عبدِ المنذر الأَنصاريُّ الأَوسيُّ رضي الله عنه، نقل أهلُ السِّيَرِ أَنَّ رسول الله ﷺ كان إِذا اعتكف في رمضان طُرِحَ له فراشُه، ووُضع له سريره وراء أُسطَوانة التوبة، وهي الثانية من القبر الشريف، والثالثة من القبلة، والرابعة من المنبر، والخامسة من رحبة المسجد اليوم، وهي التي تلي أسطوان المهاجرين، التي تقدّم ذكرها آنِفاً من جهة الشرق في الصف الأول، الذي خلف الإِمام المصلي في مقام النبي ﷺ، وخلفها من جهة الشمال أسطوان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويُعرف بالْمَحْرس، لأَنه كان يجلس إِليه لحراسة النبي ﷺ، وهي مقابلة الخوخة التي كان النبي ﷺ يخرج منها من بيت عائشة رضي الله عنها إِلى الروضة الشريفة للصلاة، وخلفها أيضاً من جهة الشمال أسطوان الوفود كان لنبي ﷺ يجلس إِليها لوفود العرب إِذا جاءته، وكانت مما يلي رحبة المسجد قبل أن يزاد في السقف القبلي رواقان، وكانت تُعرف أيضاً بمجلس القلادة، يجلس إِليها سَرَوَاتُ الصحابة وأفاضلهم رضوان الله عليهم أجمعين.

مصلى رسول الله ﷺ:

وأما مصلى رسول الله ﷺ من الليل فقال الشيخ محب الدين بن النجار رحمه الله: روى عيسى بن عبد الله عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ يَطْرَحُ حَصِيراً كلَّ ليلة إِذا انكفَّ الناس وراء بيت علي رضي الله عنه ثم يصلي صلاة الليل. قال عيسى: وذلك موضع الأَسطوان الذي مما يلي الدورة على طريق النبي ﷺ. قال المطريُّ: وهذه الأسطوانة خلف بيت فاطمة رضي الله عنها وقد كُتِب فيها بالرخام: (هذا متهجد النبي ﷺ) قلت: ومحلُّ هذا الآن في الصُّفَّةِ التي تقابل الصُّفَّةَ التي هي مجلس الخُدَّام، وقد أُتقِنَ محرابُ النبي ﷺ بها بأَنواع النقوش من الرخام الملوَّن، ويسمى محراب التهجُد، وعلى الصُّفَّةِ (درابزين) من الخشب المخروط، وأَرَضُها مفروشة بالحصا الأَحمر كأَرض الحرم الشريف، وبين الصفتين المجاز المتوصل منه حاصلُ النذور، ومجلس شيخ الحرم، وباب جبريل عليه السلام وغير ذلك.

أبواب المسجد الشريف:

وأما أبواب المسجد الشريف: قال السَّيِّدُ: قد صحّ من الروايات أنه لما بنى رسول الله ﷺ مسجده الشريف جعل له ثلاثةَ أبواب كما قدّمنا ذكره: باب في مؤخره، وباب عاتكة في غربيه، وهو باب الرحمة، والباب الذي كان يدخل منه النبي ﷺ، وهو باب عثمان رضي الله عنه المعروف الآن بباب جبريل عليه السلام. قال محبُّ الدين بن النجار: روى إبراهيم بن محمد عن ربيعة بن عثمان قال: لم يبقَ من الأَبواب التي كان رسول الله ﷺ يدخل منها إلاَّ باب عثمان المعروف بباب جبريل عليه السلام. قال المطريُّ رحمه الله: ولما بَنَى الوليدُ بن عبد الملك المسجدَ ووسّعه جعل له عشرين باباً: ثمانيةً من جهة المشرق القبلي.

الأول: باب النبي ﷺ من جهة الحائط الشرقي، وقَدْ سُدَّ عند تجديد الحائط، وجُعل منه شبَّاكٌ يقف الإنسان عليه من خارج فيرى حجرة النبي ﷺ.

والثاني: باب عليٍّ رضي الله عنه كان يقابل بيته، وقد سُدَّ أيضاً عند تجديد الحائط.

والثالث: باب عثمان رضي الله عنه وهو المتقدم ذكره أنه نُقِلَ عند بناء الحائط الشرقي قبالة الباب الأَول الذي كان يدخل منه النبيُّ ﷺ، وهو باب جبريل عليه السلام.

والرابع: باب رَيْطَةَ ابنة أَبي العباس السفاح، ويُعرف بباب النساء.

والخامس: باب يقابل دارَ أسماء ابنة الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

والسادس: باب كان يقابل دار خالد بن الوليد رضي الله عنه.

والسابع: باب كان يقابل زُقَاق الْمَنَاصع.

والثامن: باب كان يقابل أبيات الصوافي.

فهذه ثمانية أبواب، وقد دخل غالبها في الحوائط وسُدَّتْ كما هو مشهور في الكتب المطولة.

وفي شماليِّ المسجد أربعة أبوابٍ سُدَّتْ عند تجديد الحائط الشمالي.

ومما يلي المغرب ثمانية أبواب، منها بابانِ مسدودانِ، وبقية بابٍ ثالث سُدَّ، وبقيت منه قطعة، ودخل باقيه عند تجديد الحائط من باب عاتكة إِليه، ثم باب عاتكة

بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية، وهو باب الرحمة، كان يقابل دار عاتكة المذكورة ثم صارت بعدها ليحيى بن خالد بن بَرْمك وزير الرشيد، وبابان سُدَّا أيضاً عند تجديد الحائط، ثم باب مروان بن الحكم، ويُعرف الآن بباب السلام، وباب الخشوع. انتهى ملخصاً مما ذكره المطريّ.

ذكر سور المدينة الشريف

ذكر أبو عبيد البكريُّ في كتابه «المسالك والممالك» أنَّ في سنة ثلاث وستين ومئتين بَنَى إِسحاق بن محمد الجعديُّ سور المدينة، وله أربعة أبواب: باب في الشرق وراء دار عثمان بن عفان رضي الله عنه، وباب في الغرب يخرج منه إِلى بقيع الغرقد ويخرج منه إِلى العقيق، وباب من الشمال والغرب يفضي إِلى مسجد الفتح، وباب آخر يخرج منه إِلى قبور الشهداء بِأُحُد. ونقل ابن خلكان أن عضد الدولة بن بُوَيه بنى بالمدينة سوراً بعد الستين والثلاث مئة، من الهجرة في أيام الطائع لله بن المطيع لله، ثم تهدّم على طول الزمان وخرب بخراب المدينة ولم يبقَ إِلا آثاره، حتى جدّد بها جمال الدين محمد بن أبي منصور أعني الجواد الأَصفهاني وزير بني زنكي سوراً محكماً على رأس الأَربعين وخمس مئة من الهجرة، ثم كثر الناس من خارج السور، ووصل السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي في بضع وخمسين وخمس مئة إِلى المدينة الشريفة بسبب رؤياً رآها، فصاح به مَن كان نازلاً حول السور، واستغاثوا به وطلبوا أن يبني عليهم سوراً يحفظ أغنامهم وماشيتهم، فأَمر ببناء سور، فبني في سنة ثمان وخمسين وخمس مئة، وكتب اسمه على باب البقيع، واستمر إِلى أن أدركتُ منه بقيةً غير صالحة، وكان أهل المدينة يشكون من تضررهم عند هجوم عربان الفساد، في أطراف المدينة، ونهبهم ما يجدون.

ثم لما كثر الفساد والتخطُّف من عربان عَنَزَة وظَفير وغيرهم من طوائف العربان المحيطة بالمدينة المشرفة، وصاروا في غالب الأَوقات يهجمون ويتخطفون ما وجدوه من غير مانع ولا مدافع، فإِن أمراء المدينة ـ في ذلك الزمن الذي أدركنا باكورتهم ـ كانوا في فئة قليلة من الجند والرجال، لضيق أحوال البلد عن كلفة الخيل وكثر العسكر، ولقلة محصولهم ورواتبهم، فلذلك لا يستطيعون الدفاع عن أهل المدينة إِلا بقدر يسير.

ولما بلغ مولانا السلطان سليمان نخبة آل عثمان ما فيه جيران المصطفى ﷺ من

شديد المشاق، واستيلاء أذى العربان على ما هنالك بالاتفاق، برزت أَوَامِرُهُ الخاقانية (الخندكارية) ببناء سور كبير عال مانع، يحيط بالمدينة من جميع جهاتها، ويمنع أهل الفساد والأذى عن تعرضهم لساحاتها، فبادر نائبه بالديار المصرية سليمان باشا للاهتمام في عمل ذلك وإتقانه، وشرع فيما فيه حمى مدينة الرسول ﷺ وجيرانه، فعمل هذا السور الذي بها الآن، وأتقن صناعته، وأعلى حيطانه ومكانته، وجعل له أبواباً عديدة محكمة البناء عالية، بأبراج يُرْمى بأحجار المدافع من قصد تلك البقعة الشريفة المصطفوية، فامتنع ببنائه ذلك من الأسواءِ والمضار، وأكد ذلك بما أوصله ببناء السور من بناء (حصار) جليل المحل منيع الجدار، وجعل بداخله أمير (دزدار) وجماعة من (الحصارليه) نحو التسعين نفراً ببنادقهم و(عرباجية) لِلأبراج بأحجارهم ومكاحلهم، لا يفترون عن حراسة هذا المحل، ولا يغيبون، ولا يخرجون منه، ولا يظعنون عنه شتاءً ولا مصيفاً، ولا ربيعاً ولا خريفاً، ورتَّب لهم ولكبيرهم ما يكفيهم من الجرايات والمصاريف، وجعل مفاتيح أبواب السور و(الحصار) بيد هذا (الدزدار)، فصارت المدينة الشريفة في حصن حصين، وفي حرز أمين، وكان الابتداء في بناء السور المذكور هندسة المعلم المجيد علي بن الصياد المهندس في سنة ست وثلاثين، والانتهاء منه ومن قلعته ومن جهاته في سنة خمس وأربعين وتسع مئة، ولاية داود باشا.

ولعمري لقد منح الله مولانا السلطان هذا الإلهام السديد، كما أعدَّ له على ذلك جزيل الثواب الوافر المديد، وتقرّب ببنائه إلى رضوان الله تعالى الذي لا يقال لفاعله: هَلْ مِنْ مَزِيد، ولقد حصل لهذا الحمى الشريف غاية العزة والمنعة، كما أُسِّسَتْ على تقوى من الله ورضوان هذه البقعة، وأمنت بحصوله جيران هذه الحضرة الشريفة، وقرّت أعينهم بِأَمْنِهم من كل مكروه وضرر وخيفة.

ثم استجد بعد ذلك المرحوم داود باشا سبيلاً حسن البناء، واسع الفناء، خارج السور المذكور، واستجدَّ بجانبه حماماً وبستاناً وأبنية حسنة الرونق، نور الأُنس والسناء من جميع جهاتها قد أشرق، وجعل بقربها بستاناً، وأودع فيه من محاسن الغروس أنواعاً، ونَوّع شجره ونباته ألواناً. ثم استجدت سيدة (الخواتين) والدة الملوك والسلاطين (الخاصكية) تجاه الحمام تكيةً للفقراء في هيئة حسنة عالية، خيراتها للمنقطعين في ذلك الحمى الشريف متدانية، وكان المعمار والمتكلم على العمارة والوقف أغا سلمان زمام (الآدُر) الشريفة، فجاءت في غاية الحسن، مقابلة لحمام الداوودية، حسنة المنظر، جلية الرونق للناظر وللمخبر أثابها الله تعالى، وكان انتهاء عملها في سنة سبع وخمسين وتسع مئة.

ثم برزت الأَوامر العلية السلطانية ـ أدام الله ظلال معدلته على الإِسلام والمسلمين، مؤيدة عزماته الشريفة بالنصر والفتح المبين ـ ببناءِ سور ثان يشمل هذه العمارة الخارجة عن السور، ويحيط بها، ويتصل بهذه العمارة و(الحصار)، وما استجد من العمارة خارج السور من جميع جوانبها، وعين لذلك وما يعمر أيضاً داخل المدينة الأَمير محمد جلبي ناظر الدشايش الشريفة كان، المدعو كرنيك ماماي، وتوجه وصحبته المعمارية، وما يحتاج إِليه في سنة أربع وستين وتسع مئة، فلم يتفق له عمارة لذلك، وشرع في عمارة داخل البلد وعاد.

ذكر بقيع الغرقد وما ورد في فضله ومَن يُعرف فيه من الصحابة وآل البيت رضوان الله عليهم أجمعين

روى المطريُّ في كتابه «التعريف» عن سعيد بن زياد وأبي عاصم قال: زعم مولاي قال: حدثتني أُمُّ قيس بنت مِحْصن قالت: لو رأيتني ورسول الله ﷺ آخذٌ بيدي في سكة المدينة حتى انتهى إِلى بقيع الغرقد فقال: يا أُمَّ قيس، قلت: لَبَّيْكَ يا رسول الله وسَعْدَيْك، قال: «تَرين هذه المقبرة»؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: «يبعث منها يوم القيامة سبعون ألفاً على صورة البدر يدخلون الجنة بغير حساب»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «أنا أول مَن تنشق عنه الأَرض فأَكون أول مَن يُبعث، فأَخرج أنا وأبو بكر وعمر إِلى أهل البقيع فيُبعثون، ثم يُبعث أهل مكة، فأُحشر بين الحرمين»[٢].

وروى المطريُّ قال: أنبأَنا أبو القاسم بن كامل عن أبي علي الحداد عن أبي نُعَيم الحافظ عن أبي محمد الخلدي قال: أنبأَنا محمد بن عبد الرحمٰن أنبأَنا الزبير بن بكار عن محمد بن الحسن عن محمد بن إِسماعيل عن حكام أبي عبد الله الشامي عن أبي عبد الملك أنه حدثنا حديثاً يرفعه إِلى رسول الله ﷺ أنه قال: «مقبرتان تُضِيْئانِ لأَهل السماء كما تضيء الشمس والقمر لأَهل الدنيا: البقيع بقيع المدينة ومقبرة بعسقلان».

---

(١) عزاه الحافظ الهيثمي للطبراني في الكبير، قال: وفيه مَن لم أعرفه. انظر: مجمع الزوائد [٤/ ١٦]، والحاكم في المستدرك في معرفة الصحابة [٤/ ٦٨].

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب [٥/ ٦٢٢] ح [٣٦٩٢] وقال: حديث غريب، وعاصم بن عمر ليس بالحافظ.

وللشهاب أحمد بن أبي حَجَلَة:

سَقَى بُقْعَةَ فِيْهَا الْبَقِيْعُ سَحَائِبٌ ... إِذَا أَقْلَعَتْ أَلْقَتْ دُمُوعِي الْمَرَاسِيَا

مَنَازِلُ لَوْ مَرَّتْ بِهِنَّ جِنَازَتِي ... لَقَالَ الصَّدَى يَا صَاحِبَيَّ انْزِلاَ بِيَا

عَلَى أَنَّنِي لَوْ مُتُّ فِيْهَا صَبَابَةً ... أُعِيْدَتْ بِهَا رُوْحِيْ إِلَيَّ كَمَا هِيَا

قال الشيخ جمال الدين المطريُّ: وأكثر الصحابة ممن توفي في حياة رسول الله ﷺ وبعد وفاته مدفونون بالبقيع، وكذلك سادات أهل البيت والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين. وكذلك أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين، غير خديجة فإنها بمكة، وميمونة بِسَرِف، غير أن قبورهم لا يُعرف منها اليوم إلا قبر أبي الفضل العباس عم رسول الله ﷺ وأبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. وقد ورد أنَّ الحسن بن علي رضي الله عنه حين أَحَسَّ بالموت قال لهم: ادفنوني إلى جنب أُمي فاطمة، فيكون قبره عند قبرها رضوان الله عليها ورحمته وبركاته، وجاء من طريق آخر أن قبر فاطمة رضي الله عنها في بيتها الذي أدخله عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه في المسجد، ومع الحسن رضي الله عنه ابنُ أخيه علي بن الحسين زين العابدين، وابنه محمد الباقر، وابنه جعفر الصادق رضي الله عنهم وعليهم قبة عالية البناءِ، بناها الخليفة الناصر لدين الله، أَبو العباس أحمد بن المستضيء.

زُرْ بَعْدَ خَيْرِ الرُّسْلِ تُرْبَةَ عَمِّه ... وَاثْنِ الدُّعَاءَ به عَلَى الْعَبَّاسِ

وَاسْتَسْقِ سُحْبَ دُمُوعِ عَيْنِكَ حَوْلَهُ ... فلطالَمَا اسْتُسْقِي بِهِ لِلنَّاسِ

غيره:

تَيَمَّمْ إِذَا وَافَيْتَ طَيْبَةَ تُرْبَةً ... يَطِيْبُ بِهَا عِنْدَ الْعُبُوْرِ عَبِيْرُهَا

وَإِنْ زُرْتَ عَمَّ الْمُصْطَفَى فِي بَقِيْعِهَا ... تَجِدْ تُرْبَةَ الْعَبَّاسِ يَبْسُمُ نُوْرُهَا

غيره:

حَوَى الْحَسَنَ ابْنَ فَاطِمَةٍ ضَرِيْحٌ ... بِهِ رَيْحَانَةٌ أَبَداً تَضُوْعِ

فَلاَ تَعْجَبْ لِقَوْلِي حِيْنَ أَدْعُو: ... (أَمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيْعُ)

ثم قبر عقيل بن أبي طالب، ومعه في القبر ابن أخيه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم وعليهم قبة، والمنقول أَنَّ قبر عَقِيل رضي الله عنه في داره. وللشهاب:

سأَلت فتَاةً في الْبَقِيْعِ أهاهنا   مَـزَارٌ عَـلَـيْـهِ لِـلْـوَفَـاءِ دَلِـيْـل
فَقَالَتْ لَنَا: هٰذَا وَذَاكَ كِلاَهُمَا: (خَلِيْلَيْ صَفَاءِ مَالِكٌ وعَقِيْلُ)

ثم قبر إبراهيم ابن سيدنا رسول الله ﷺ، وعليه قبة فيها شباك من جهة القبلة، وهو مدفون إلى جنب عثمان بن مظعون رضي الله عنه. وورد أيضاً أن عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه حين نزل به الموتُ أرسلت إليه عائشة رضي الله عنها أنْ هَلُمَّ إلى أصحابك ـ تعني النبي ﷺ وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما ـ فقال: لستُ بمضيِّقٍ عليك بيتك، إني كنت قد عاهدت ابن مظعون أينا مات دُفن إلى جنب صاحبه، ادفنوني إلى جنب عثمان، فدُفن إلى جانبه، فعلى هذا يُزَاراِنِ، مع إبراهيم عليه السلام، وفي قبلة قبة عَقيلٍ رضي الله عنه حظير مبني بالحجارة، يقال: إن فيه قبور أزواج النبي ﷺ فيسلّم عليهن هناك، ثم قبر أمير المؤمنين أبي عَمْرو: عثمان بن عفان رضي الله عنه شرقي البقيع في موضع يُعرف بِحُشِّ كوكب، عليه قبة عالية، بناها أُسامة بن سنان الصلاحيُّ أحد أُمراء صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة إحدى وست مئة:

زُرْ بِالْبَقِيْعِ أَمِيْرَ الْمُؤمِنِيْنع تَبِتْ   عِـنْـدَ ابْـنِ أَرْوَى مِـنَ الْـغُـفْـرَانِ رَيَّـانَـا
وَقُلْ لِطَرْفِكَ إِنْ أَجْرَى الدُّمُوعَ دَماً:   (الـلّـهُ أَكْـبَـرُ يَـا ثَـارَاتِ عُـثْـمَـانَـا)

ثم قبر أُمّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وهي فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف رضي الله عنها وعنه، في آخر البقيع، شمالي قبة عثمان رضي الله عنه في موضع يُعرف بالحمَّام، وعليها قبة صغيرة.

ثم قبر أم الزبير صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها على يسار الخارج من باب المدينة، ويقال: إنها دُفنت عند موضع الوضوءِ عند دار المغيرة بن شعبة رضي الله عنه وعليها بناء من حجارة، أرادوا أن يعقدوا عليه قبة صغيرة فلم يتفق ذلك لقربها من السور والباب. ثم قبر الإمام أبي عبد الله مالك بن أنس الأَصبحي إمام دار الهجرة، في قبة صغيرة إذا خرج الإنسان من باب المدينة كان مواجهاً له، من جهة المشرق. وللشهاب:

سَأَلْتُ صَدِيْقِي بِالْبَقِيْعِ وَقَدْ بَدَتْ   بِهِ تُرْبَةٌ يَدْعُو لَـهَا كـلُّ سَالِكِ
أَقبْر عَقِيْل ذَلِك الْقَبْرُ؟ قال: لاَ   وَحَـقِّـكَ هٰـذَا كُـلُّـهُ قَـبْـرُ مَـالِـك

ثم قبر إسماعيل بن جعفر الصادق رضي الله عنه في مشهد كبير، مبيض غربي قبة العباس رضي الله عنه، هو ركن سور المدينة من جهة القبلة والشرق، وبابه من داخل المدينة، بناه بعض ملوك مصر العُبَيْدِيِّين. وليس بالبقيع قبر معروف غير ما ذُكر وسُمِّيَ.

وفي شمالي المدينة على طريق الحجاج الشاميين من خارج سور المدينة قبر النفس الزَّكِيَّة محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، المقتول في أيام أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، شرقي جبل سَلْعٍ، وعليه بناء كبير بالحجارة، أرادوا أن يعقدوا عليه قبة فلم يتفق، وهو داخل مسجدٍ كبير مهجور فيه محراب، وفي قبلة المسجد مصرفُ عين الأَزْرَق الخارجة من المدينة، عليه بناءٌ مدرَّجٌ، من جهة الشرق والغرب والعين في وسطه تجري إلى مفيضها من البركة التي ينزلها الحجاج عند ورودهم وصدورهم.

فضل أُحُد والشهداء به:

وأما فضل أُحُد والشهداء به: ففي «البخاري» عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أُحُد جبل يحبنا ونحبه»[1].

وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «خرج موسى وهارون عليهما السلام حاجَّيْن أَوْ معتمرَين، فلما كانا بالمدينة مرض هارونُ عليه السلام فثقل، فخاف عليه موسى فدخل به أُحُداً فمات فدفنه فيه»[2].

قال المطري: وفي قبلة جبل أُحُدٍ قبور الشهداء الذين قتلوا يوم أُحُد بين يدي رسول الله ﷺ، وليس منها قبر معلوم إلا قبر حمزة رضي الله عنه، ومعه في القبر ابنُ أخته عبد الله بن جَحْش، وعليه قبة عالية، ومشهد محكم البناء، بنته أُمُّ الخليفة الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن المستضيء في سنة تسعين وخمس مئة، وشمالي مسجد حمزة رضي الله عنه آرام مِنْ حِجَارةٍ يقال: إنها قبور الشهداء، وكذلك غربي المسجد أيضاً آرامٌ من حجارة يقال: إنها من قبور الشهداء، ولم يثبت ذلك بنقل صحيح، ولا شَكَّ أن قبور الشهداء رضي الله عنهم حول قبر حمزة رضي الله عنه إذ لا ضرورة أن يبعدوا عنه، وعند رِجْلَيْ حمزة رضي الله عنه قبر لا يتوهم مَن يراه أنه من قبور الشهداء، بل هو قبر رجل تركيٍّ كان متولياً عمارة المشهد الكريم يقال له سنقر، توفي فدُفن هناك، وكذلك في صحن المشهد قبر قريب من الباب دُفن فيه بعض الأشراف من أمراء المدينة الشريفة، وتحت جبل أُحُد من جهة

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير [٦/ ٩٨] ح [٢٨٨٩]، ومسلم في الحج [٢/ ٩٩٣] ح [٤٦٢/ ١٣٦٥].

(٢) لم أجده.

القبلة لاصقاً بالجبل مسجد صغير، قد تهدّم بناؤه، يقال: إن النبي ﷺ صلّى فيه الظهر والعصر يوم أُحُدٍ، بعد انقضاء القتال، وفي جهة القبلة من هذا المسجد موضع منقور في الجبل على قدر رأس الإنسان يقال: إن النبي ﷺ جلس على الصخرة التي تتحته، وكذلك شمالي المسجد غارٌ في الجبل تقول عوام الناس: إن النبي ﷺ دخله ولا يصح ذلك، وكل هذا لم يرد به نقل فلا يعتمد عليه، والله أعلم.

* * *

الفصل الثاني

في فضل زيارة النبي ﷺ وما ورد عنه في ذلك وما نقل عن مَن زاره من الأَخيار من محاسن الأَخبار

روى الدارقطني والبيهقي وغيرهما عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن زار قبري وجبت له شفاعتي»[(١)].

وروى البزار من طريق عبد الله بن إبراهيم الغفاري حدثنا عبد الرحمٰن بن زيد عن أَبيه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «مَن زار قبري وجبت له شفاعتي»[(٢)].

وروى الطبراني في الكبير والأَوسط والدارقطني في أَماليه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن جاءني زائراً لا يعمد حاجة إلا زيارتي كان حقًّا عليّ أَن أكون شفيعاً له يوم القيامة»[(٣)].

وروى الطبراني والدارقطني وغيرهما عن ليث عن مجاهد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن زار البيت ولم يزرني فقد جفاني»[(٤)]. وروى الدارقطني

---

(١) أخرجه الدارقطني في سننه في الحج [٤/٢٧٨] [١٩٤]، والبيهقي في الكبرى في الحج [٤/٤٠٣] ح [١٠٢٧٣].

(٢) عزاه الحافظ الهيثمي للبزار قال: وفيه عبد الله بن إبراهيم الغفاري وهو ضعيف. انظر: مجمع الزوائد [٤/ ٥].

(٣) عزاه الحافظ الهيثمي للطبراني في الأوسط والكبير قال: وفيه حفظ بن أبي داود القارىء، وثقه أحمد وضعفه جماعة من الأئمة. انظر: مجمع الزوائد [٤/ ٥].

(٤) عزاه الحافظ العجلوني لابن عدي في الكامل، وابن حبان في الضعفاء، والدارقطني في العلل وغرائب مالك، قال: ولا يصح. انظر: كشف الخفاء [٢/ ٣٦٦].

وغيره قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي، ومَن مات في أحد الحرمين بُعث من الآمنين يوم القيامة»[١].

وروى أبو داود بسندٍ صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحدٍ يُسلّم عليّ إلاّ ردَّ الله عَليَّ روحي حتّى أَردَّ عليه السلام»[٢] وروى النسائي عن ابن مسعود مرفوعاً «إن للّه ملائكة سيّاحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام»[٣].

وعن العُتْبيِّ واسمه محمد بن عبيد الله بن عمرو أدركه ابن عُيَيْنَةَ وروى عنه قال: دخلت المدينة فأتيت قبر النبي ﷺ فزرته وجلست بحذائه فجاء أعرابيٌّ فزاره ثم قال: يا خَيْرَ الرُّسل إنَّ الله أنزل عليك كتاباً صادقاً قال فيه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ إلى قوله: ﴿رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٤] وإني جئتك مستغفراً ربك من ذنوبي مستشفعاً بك.

وفي رواية: وقَدْ جئتك مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى رَبي. ثم بكى وأنشد يقول:

يَا خَيْرَ مَنْ دُفِنَتْ في الْقَاعِ أَعْظُمُهُ   فَطَابَ مِنْ طِيبِهِنَّ الْقَاعُ وَالأَكَمُ
رُوْحِي الْفِدَاءُ لِقَبْرٍ أَنْتَ سَاكِنُه   فِيْهِ الْعَفَافُ وَفِيْهِ الْجُوْدُ والْكَرَمُ

ثم استغفر وانصرف، قال: فرقدتُ فرأيت النبي ﷺ في نومي وهو يقول: الحق الرجل وبَشِّره بأن الله تعالى غفر له بشفاعتي، فاستيقظت فخرجت أطلبه فلم أجده.

وحكى السيد في تاريخه «وفاء الوفا» قال الحافظ أبو عبد الله محمد بن موسى بن النعمان في كتابه «مصباح الظلام» إن الحافظ أبا سَعْدٍ السمعانيَّ ذكر فيما رويناه عنه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قدم علينا أعرابيٌّ بعدما دَفَّنا رسولَ الله ﷺ بثلاثة أيام، فرمى نفسه على قبر النبي ﷺ، وحثا من ترابه على رأسه وقال: يا رسول الله قلت فسمعْنا قولك، ووعيت عن الله سبحانه وقد وعينا عنك، وكان فيما أنزل عليك ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ [النساء: ٦٤] الآية وقد ظلمتُ نفسي وجئتك لتستغفر لي ذنوبي، فنودي من القبر: إنه قد غفر لك.

---

(١) أخرجه الدارقطني في سننه في الحج [٢/٢٧٨] [١٩٣].

(٢) أخرجه أبو داود في المناسك [٢/٢٢٤] ح [٢٠٤١].

(٣) أخرجه النسائي في السهو [٣/٣٧] باب: السلام على النبي ﷺ.

وروى الطبراني في «الكبير» عن عثمان بن حُنيف أَن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه في حاجة له فكان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي ابنَ حُنَيْف فشكَا إليه ذلك، فقال ابن حنيف: ائت الميضأة فتوضأْ ثم ائت المسجد فصلِّ ركعتين ثم قل: اللّهم إني أَسأَلك وأَتوجه إليك بنبينا محمد ﷺ نبيِّ الرحمة، يا محمد إني أَتوجه بك إلى ربك فتقضي حاجتي. وتذكر حاجتك. فانطلق الرجل فصنع ما قال، ثم أَتى باب عثمان فجاءه البوّاب حتى أَخذ بيده فأَدخله على عثمان رضي الله عنه فأَجلسه معه على الطنفسة فقال: حاجتك؟ فذكر حاجته، وقضاها له. ثم قال: ما ذكرت حاجتك حتى كان الساعة. وقال: ما كانت لك من حاجة فاذكرها. ثم إنَّ الرجل خرج من عنده فلقي ابنَ حُنَيْف فقال: جزاك الله خيراً، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليَّ حتى كلمته فيَّ. فقال ابن حنيف: والله ما كلمته، ولكني شهدت رسول الله ﷺ وأَتاه ضريرٌ فشكا إليه ذهاب بصره، فقال له النبي ﷺ: «أَوَ تَصْبرُ»؟ فقال له: يا رسول الله إنه ليس لي قائد، وقد شقّ عليَّ. فقال له النبي ﷺ: «ائت الميضأَة فتوضأْ ثم صلِّ ركعتين ثم ادع بهذه الدعوات، فقال ابن حُنَيْف: والله ما تفرّقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأَنه لم يكن به ضر قط»[١]. رواه البيهقي من طريقين بنحوه.

وروى النسائي والترمذي في الدعوات من «جامعه» عن عثمان بن حُنيف أَن رجلاً ضريراً أَتى النبي ﷺ فقال: ادع الله لي أَن يعافيني، فقال: «إنْ شئت دعوت، وإن شئت صبَرْتَ فهو خير لك» قال: فادعه. فأَمره أَن يتوضأَ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: «اللّهم إني أَسأَلك وأَتوجه إليك بنبيك محمد ﷺ نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي لِتُقْضَى لي، اللّهم شَفِّعْهُ فيَّ» فقام وقد أَبصر[٢].

وفي رواية ففعل الرجل فبرأَ[٣].

قال محمد بن المنكدر: أَودع رجل أَبي ثمانين ديناراً وخرج للجهاد وقال لأَبي: إن احتجْتَ إليها أَنفقها إلى أَنْ أَعود. فأَصاب الناس جهدٌ من العلاء فأَنفق أَبي

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير [٩/ ٣٠ ـ ٣١] ح [٨٣١١].

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات [٥/ ٥٦٩] ح [٣٥٧٨] وقال: حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وابن ماجه في إقامة الصلاة [١/ ٤٤١] ح [١٣٨٥] والإمام أحمد في مسنده [٤/ ١٧٠] ح [١٧٢٤٥].

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده [٤/ ١٧٠ ـ ١٧١] ح [١٧٢٤٦].

الدنانير، فقدم الرجل وطلب ماله، فقال له أبي: عُدْ إِليَّ غداً، وبات في المسجد يلوذ بقبر النبي ﷺ مرة، وبمنبره مرة، حتى كاد أن يصبح، يستغيث بقبر النبي ﷺ فبينما هو كذلك وإِذا بشخص في الظلام يقول: دُونكها يا أَبا محمد، فمدَّ أَبي إِليه يده فإِذا هو بصرّة فيها ثمانون ديناراً، فلما أَصبح جاءه الرجل فدفعها إِليه.

وقال الإِمام أَبو بكر بن المقري: كنت أَنا والطبراني وأَبو الشيخ في حرم رسول الله ﷺ، وكنا على حالة وأَثَّر فينا الجوع وواصلنا ذاك اليوم، فلما كان وقت العشاء حضرت قبر النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله الجوع! وانصرفت، فقال لي أَبو القاسم: اجلس فإِما أن يكون الرزق أَو الموت. قال أَبو بكر: فنمت أَنا وأَبو الشيخ، والطبراني جالس ينظر في شيء، فحضر بالباب علويٌّ فدقَّ ففتحنا له الباب، فإِذا معه غلامان مع كل واحد منهما زنبيل فيه شيء كثير، فجلسنا وأَكلنا وظننا أَنَّ الباقي يأْخذه الغلام، فولّى وترك عندنا الباقي، فلما فرغنا من الطعام قال العلوي: يا قوم أَشكوتم إِلى رسول الله ﷺ؟ فإِني رأَيت رسول الله ﷺ في المنام فأَمرني أَن أَحمل بشيء إِليكم. وقال ابن الجلاب: دخلت مدينة النبي ﷺ وسلم وبي فاقة، فتقدّمت إِلى القبر وقلت: ضيفك، فغفوت فرأَيت النبيَّ ﷺ فأَعطاني رغيفاً فأَكلت نصفه وانتبهت وبيدي النصف الآخر. وذكر الحافظ أَبو القاسم ابن عساكر في تاريخه بسنده إِلى أَبي القاسم ثابت بن أَحمد البغدادي قال: إِنه رأَى رجلاً بمدينة النبي ﷺ أَذَّنَ للصبح عند قبر النبي ﷺ فقال فيه: الصلاة خير من النوم، فجاءه خادم من خدم المسجد فلطمه حين سمع ذلك فبكى الرجل وقال: يا رسول الله في حضرتك يُفْعَلُ بي هذا الفعل؟ فَفُلِج الخادم، وحُمل إِلى داره فمكث ثلاثة أَيام ومات.

والحكايات في هذا الباب كثيرة لا يحتمل تعدادها هذا المختصر.

* * *

الفصل الثالث

في كيفية الزيارة، وما يفعله الزائر عند الشروع فيها وما يتعلق بذلك

يستحب لِمَن قضى مناسكه وقصد الرجوع إِلى أَوطانه، أَن يقصد المدينة الشريفة النبوية.

قال السيِّد السمهودي في «تاريخه»: لأَن العناية بها متعينة، والرعاية لعظيم حرمتها لكل خير متضمنة، والوسيلة بنشر شرفها شافعة، والفضيلة لأَشتات معاهدها جامعة، لأَنها طابة ذات الحجرة المفضلة، ودار الهجرة المكملة، وحرم النبوة

المشرف بالآيات المنزلة، والمسجد الذي تُشد إليه الرِّحال المزملة، والبقعة التي تهبط الأَملاك عليها والمدينة التي يأرز الإِيمان إليها، والمشهد الذي تفوح أَرواح نجد من ثياب زائريه، والمورد الذي لا تروى من الشوق غلّة وارديه، والعرصة التي خصَّها الله عزّ وجل بالنبي الأَطهر، والحومة التي فيها الروضة المقدّسة بين القبر والمنبر، والتربة التي سمت بساكنها على الآفاق، وفضلت بقاع الأَرض على الإِطلاق، فهي كما قيل:

جَزَمَ الْجَمِيعُ بِأَنَّ خَيْرَ الأَرْضِ مَا ... قَدْ حَاطَ ذَاتَ الْمُصْطَفَى وَحَوَاهَا
ونَعَمْ لقد صدقوا بساكنها علت ... كَالنَّفْسِ حِيْنَ زَكَتْ زَكَى مَاوَاهَا

فيزور المسجد الشريف النبويِّ والقبر الكريم المصطفوي، ويكثر في طريقه من الاستغفار، وتلاوة القرآن، والتهليل والتكبير والتسبيح والتحميد، والصلاة على رسول الله ﷺ كما يصلي عليه في التشهد. فإِذا دنا من حرم المدينة المنورة وشاهد أَعلامها، ورباها وآكامها فليستحضر وظائف الخضوع والخشوع، ويبدي في ذلك المحل الشريف انسكاب الدموع، مستبشراً بالهنا وبلوغ المُنى. وإِن كان على دابة حركها تباشراً بمدينة النبي ﷺ، ولله در القائل:

قُرْبُ الدِّيار يَزِيْدُ شَوْقَ الْوَالِهِ ... لاَ سِيَّمَا إِنْ لاَحَ نُورُ جَمَالِهِ
أَوْ بَشَّرَ الْحَادِيْ بأَنْ لاَحَ النَّقَا ... وَبَدَتْ عَلَى بُعْدٍ رَؤُوسُ جِبَالِهِ
فَهُنَاكَ عِيْلَ الصَّبْرُ مِنْ ذِي صَبْوَةٍ ... وَبَدَا الَّذِي يُخْفِيْهِ مِنْ أَحْوَالِهِ

وليجتهد حينئذ في مزيد الصلاة والسلام، ويردد ذلك كلما دنا من الربا والأَعلام. ولا بأْس بالترجُّل والمشي عند رؤية ذلك المحل الشريف والقرب منه كما يفعله بعضهم، لأَنَّ وَفْد عَبْدِ القيس لما زار النبي ﷺ نزلوا عن الرواحل، ولم يُنْكر عليهم، وتعظيمه في الوفاة كهو في الحياة. وقال أَبو سليمان داود المالكي: أَنَّ ذلك يتأَكَّدُ فعله لمَن أمكنه من الرجال، وأَنه يستحب تواضعاً للّه تعالى وإِجلالاً لنبيه ﷺ.

وأَنشدني شيخنا الإِمام العلامة ترجمان الأَدب، لسان المنقول والمعقول والعرب، السيد الشريف شرف الدين موسى الحطابي الأَرميوني المالكي أَسكنه الله تعالى الفردوس الأَعلى من لفظه في سنة نَيِّفٍ وثلاثين وتسع مئة قال: أَنشدني شيخنا العلاّمة الحافظ عثمان الدِّيَمِيُّ المحدّث من لفظه بسنده قال: أَنشد حسان بن ثابت الأَنصاري لما دخل رسول الله ﷺ المسجد، والصحابة جلوس وأَرادوا القيام فنهاهم عنه:

لَكَ التَّعْظِيْمُ والتَّبْجِيْلُ فَرْضٌ ... وَتَرْكُ الْفَرْضِ مَا لا يَسْتَقِيْمُ

أَيَـرْضَـى مَـنْ لَـهُ عَـقْـلٌ وَدِيْـنٌ ... وَمَـعْـرِفَـةٌ يَـرَاكَ وَلاَ يَـقُـومُ

قال: فتبسّم النبي ﷺ. وحكى عياضٌ رحمه الله تعالى في «الشفا» أن أبا الفضل الجوهري رحمه الله تعالى لما ورد المدينة زائراً، وقرب من بيوتها ترجّل باكياً منشداً:

وَلَمَّا رَأَيْنَا رَسْمَ مَنْ لَمْ يَدَعْ لَنَا ... فُؤَاداً لِعِرْفَانِ الرُّسُومِ وَلا لُبَّا

نَزَلْنَا عَنِ الأَكْوَارِ نَمْشِي كَرَامَةً ... لِمَنْ بَانَ عَنْه أَنْ يُلِمَّ بِهِ رَكْبَا

وإذا بلغ حرم المدينة الشريفة فليقُلْ بعد الصلاة والتسليم: اللَّهم هذا حرمُ رسولك ﷺ الذي حرمته على لسانه، ودعاك أن تجعل فيه من الخير والبركة مثل ما هو في حرم البيت الحرام، فحرِّمني على النار، وآمِنّي من عذابك يوم تبعث عبادك، وارزقني من بركاته ما رزقته أَوْلِيَاءَكَ وأَهلَ طاعتك، ووفقني فيه لحسن الأَدب وفعل الخيرات وترك المنكرات، ثم يشتغل بالصلاة والتسليم.

ويستحب أن يغتسل لدخول المدينة ويلبس أنظف ثيابه ويتطيّب. وقال الكرماني من الحنفية: فإن لم يغتسل خارج المدينة فليغتسل بعد دخولها. وإذا شارف دخول المدينة وشاهد القبة الشريفة فليلزم الخضوع والخشوع، مستحضراً عظمتها وأنها البقعة التي اختارها الله لرسوله عليه الصلاة والسلام، ويمثل في نفسه مواقع أقدام رسول الله ﷺ عند ترداده فيها، وأنه ما من موضع يطأه إلا وهو موضع قدمه العزيز، ولا يضع قدمه عليه إلا مع الهيبة والسكينة، متصوراً تعظيم الله تعالى له حتى قرن ذكره بذكره، وأحبط عمل مَن انتهك شيئاً من حرمته ولو برفع صوته فوق صوته. ويقول عند دخوله من باب البلد: بسم الله، ما شاء الله، لا قوة إلا بالله ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠] حسبي الله، آمنت بالله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، اللَّهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وبحق ممشاي هذا إليك، فإني لم أخرج بَطَراً ولا أَشَراً ولا سمعة، خرجت اتّقاء سخطك وابتغاء مرضاتك. أسألك أن تنقذني من النار، وأن تغفر لي ذنوبي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. والحرص على ذلك كلما قصد المسجد، ففي حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «إن مَن قال ذلك في مسيره إلى المسجد وَكَّلَ الله به سبعين ألف مَلَكٍ يستغفرون له ويقبل الله عليه بوجهه»(١) ثم ليقوي في قلبه شرف المدينة وأنها حوت أفضل بقاع الأَرض بالإجماع:

---

(١) لم أجده.

أَرْضٌ مَشَى جِبْرِيْلُ في عَرَصَاتِهَا   والـلّـهُ شَـرَّفَ أَرْضَـهَـا وَسَـمَـاهَـا

ويقدم صدقة بين يدَي نجواه. ويبدأُ بالمسجد الشريف قبل التعريج على أَمر من الأُمور، أَو شيء هو إِلى مباشرته في ذلك الوقت، فإِذا شاهد المسجد الشريف النبوي والحرم الشريف المصطفوي، فيستحضر أَنه أَتى مهبط أَبي الفتوح جبريل عليه السلام، ومنزل أَبي الغنائم ميكائيل عليه السلام، والموضع الذي خَصَّهُ الله بالوحي والتنزيل، فليزدد خضوعاً وخشوعاً يليق بهذا المقام، ويقتضيه هذا المحل الذي ترتعد دونه الأَقدام، وجرت عادة القادمين من ناحية باب السلام بالدخول منه، وإِلا فالدخول من باب جبريل عليه السلام للزائر أَفضل، ذكر ذلك السيِّد السمهودي عن القاضي فضل الله بن النصر الغوري. ويقدم رِجله اليمنى ويقول: أَوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وبنوره القديم، من الشيطان الرجيم، بسم الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إِلا بالله، ما شاء الله، لا قوة إِلا بالله. اللَّهم صَلِّ على سيدنا محمد عبدك ورسولك، وعلى آله وصحبه وسلِّم تسليماً كثيراً. اللَّهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أَبواب رحمتك. ربِّ وفقني وسدِّدني وأَصلحني، وأَعنِّي على ما يرضيك عنِّي، ومُنَّ عليَّ بحسن الأَدب في هذه الحضرة الشريفة، السلام عليك أَيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. ولا يترك ذلك كلما دخل المسجد أَو خرج منه، إِلا أَنه يقول عند خروجه: «وافتح لي أَبواب فضلك» بدل قوله: «وافتح لي أبواب رحمتك» ثم ليتوجه إِلى الروضة المقدسة، وإِن دخل من باب جبريل عليه السلام فليقصدها من خلف الحجرة الشريفة، مع ملازمة الهيبة والوقار، وملابسة الخشوع والانكسار، والخشية والافتقار. ثم ليقف في مصلى النبي ﷺ إِن كان خالياً، وهو جانب المنبر تجاه صندوق المصاحف، ويجعل عمود المنبر حَذْوَ منكبه الأَيمن، ويستقبل السارية التي إِلى جانبها الصندوق، وتكون الدائرة التي في قبلة المسجد بين عينيه، فذلك موقف النبي ﷺ الذي يَؤُمُّ الناس فيه، وإِلا ففي غيرها. فيصلي تحية المسجد ركعتين خفيفتين. قال الكرماني: يقرأ في الأولى بعد الفاتحة ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾، وفي الثانية (الإِخلاص)، فإِن أقيمت مكتوبة أو خاف فوتها بدأَ بها، وحصلت التحية بها، ثم يقول بعد فراغها: الحمد لله الذي بلغنِي هذا المكان، ووفقني لإِتيانه، وأوصلنية في يُسْرٍ وعافية. اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإِكرام، والطول والإِنعام، فلك الحمد مِلْءَ السماوات والأَرض، ومِلْءَ ما شئت من شيء بَعْدُ. ويأْتي القبرَ الشريف، من باب المقصورة القبليِّ الذي على يمين مستقبل القبر الشريف، فإِذا استقبلها كان محاذِياً له، فإِذا وصل المقصورة استقبل

وجهه الكريم ﷺ وذلك بأن يستدبر القبلة ويستقبل جدار القبر نحو أربعة أذرع من السارية التي في زاوية المقصورة، ويجعل القنديل على رأسه ناظراً إلى أسفل ما يستقبل من جدار القبر المقدّس غاضًا الطرف في مقام الهيبة والإجلال، ويضع يمينه على شماله كما في الصلاة. ثم يسلم ولا يرفع صوته بل يقتصد فيه.

قال المطري: ومن أكمل ما يسلم به المسلم: السلام عليك يا خاتم النبيين، السلام عليك يا شفيع المذنبين، السلام عليك يا إمام المتقين، السلام عليك يا قائد الغر المحجلين، السلام عليك يا رسول رب العالمين، السلام عليك يا مِنَّة الله على المؤمنين، السلام عليك يا طه، السلام عليك يا يس، السلام عليك وعلى أهل بيتك الطيبين الطاهرين، السلام عليك وعلى أزواجك الطاهرات المبرآت أمهات المؤمنين، السلام عليك وعلى أصحابك أجمعين ورحمة الله وبركاته.

قلت: وينبغي أن يزاد هنا لمَن يكون قادماً: قال الله تعالى فيما أنزل عليك في كتابه الجليل ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤] وقد جئتك يا رسول الله ظالماً نفسي، مستشفعاً بك إلى ربي.

قال المطريُّ: ويقول: جزاك الله عنا يا رسول الله أفضل الجزاء، وصلّى عليك أفضل الصلوات، نشهد أنك بَلَّغْت الرسالة وأدَّيْت الأَمانة ونصحت الأُمة، وكشفت الغمة، وجاهدت في سبيل الله، وعبدتَّ ربك حتى أتاك اليقين، جزاك الله عنا يا رسول الله أفضل ما جَزَى به نبيًا ورسولاً عن أمته، وصلّى عليك كلما ذكرك الذاكرون، وغفل عن ذكرك الغافلون، أفضل وأكمل ما صلّى على أحد من الخلق أجمعين. أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنك عبده ورسوله وخيرته من خلقه. اللهم آته الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، وآته نهاية ما ينبغي أن يسأله السائلون. اللهم صلِّ على محمد عبدك ورسولك النبي الأُمي وعلى آل محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد النبي الأُمي وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد. وأَقَلُّه: السلام عليك يا رسول الله. قال: وإن اتسع الوقت فمن أحسن السلام أن يقول: السلام عليك يا مَن سَفَرَتْ لوامع مجده، السلام عليك يا من هَمَرَتْ هوامع رفده، السلام عليك يا مَن ظَهَرَتْ أنوار علائه، السلام عليك يا مَن بَهَرَتْ آثار سنائه، السلام عليك يا نتيجة الشرف الباذخ، السلام عليك يا سلالة المجد الراسخ، السلام عليك يا جوهرة الشرف

الأعلى، السلام عليك يا واسطة العقد المحلى، السلام عليك يا إمام الأنبياء، السلام عليك يا صفوة الأصفياء، السلام عليك يا مَعْنَى الوجود، السلام عليك يا منبع الكرم والجود، السلام عليك يا دُرَّة لُؤَيٍّ، السلام عليك يا غُرة قُصَيٍّ، السلام عليك يا نبعة المكارم، السلام عليك يا سلالة الأكارم، السلام عليك يا ذا المحامد، السلام عليك يا أبا القاسم، السلام عليك يا مَن عظمت حياته، السلام عليك يا مَن بهرت آياته، السلام عليك ورحمة الله وبركاته:

سَلاماً تَضَوَّعَ عَنْ مِسْكِهِ ... يَجُرُّ بِدَارِيْنَ ذَيْلاً طَوِيْلا
وَيَنْفَحُ عَنْ نَسْمَةٍ لَمْ تَزَلْ ... تُعِيْدُ عَلَيْكَ الثَّنَاءَ الْجَمِيْلاَ
وَيَتْلُو أَحَادِيْث قُرْبِ غَدَتْ ... تَبُلُّ الْعَلِيْلَ وَتُرْوِي الْغَلِيْلاَ

والحمد لله الذي أقرَّ عيني برؤيتك، وأحرز سابق السعادة بحلول بلدتك، وأحَلَّنِي بشريف روضتك، وقضى لي أن أفوز بزَوْرَتِكَ:

حيثُ النُّبُوَّةُ جَرَّتْ مِنْ ذَوَائِبِهَا ... فَضْلاً وَأَجْرَتْ يَنَابيعاً مِنَ الْحِكَمِ
حَيْثُ السَّنَا مُشْرِقٌ والْعِزُّ مُتَّسِقٌ ... وَالْجُوْدُ مُغْدَوْدِقٌ بِالْبَارِدِ الشَّبِمِ
حَيْثُ الضَّرِيْحُ وَمَا ضَمَّتْ صَفَائِحُهُ ... مِنَ النَّبِيِّ الرَّضِيِّ الطَّاهِرِ الشِّيَمِ
أَنْوَارُهُ غُرَّةٌ فِي الْمَجْدِ نَيِّرَةٌ ... وَفَخْرُهُ شَمَمٌ فِي مَعْطِسِ الْكَرَمِ
دَرَّتْ عَلَيْهِ يَنَابِيْعُ الرِّضَا وَسَرَتْ ... عَلَيْه نَفْحَةُ سِرِّ الْقُرْب في الْقِدَمِ
وَلاَحَ مِنْ نُوْرِهِ مَغْنىً أَضَاءَ بِهِ ... مقَامُ آدم فَخْراً وَهْوَ فِي الْعَدَمِ
إِنسَانُ عَيْنِ الْعُلاَ سِرُّ الْكَمَال سَنَا ... فَخْر النُّبُوَّةِ نُورُ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ
يَا آخِراً عِنْدَ خَتْمِ ٱلأَنْبِيَاءِ بِهِ ... وَأَوَّلَ الرُّسْلِ عِنْدَ اللّهِ فِي الْقِدَمِ
يَا غُرَّةً أَوْضَحَتْ طَهَ أَسِرَّتُهَا ... ودُرَّةً جُلِيَت فِي نُوْن وَالْقلَمِ
كَانَتْ حَيَاتُكَ مَا بَيْنَ ٱلأَنَام حَياً ... سَقَى ثَرَاهُمْ بِغَيْث وَاكِفِ الدِّيَمِ
وكَانَ فَقْدُكَ خَطْباً شَاكَ أَنْفُسَهُمْ ... لَمَّا أَلَمَّ بِصَدْعٍ غَيْرِ مُلْتَئِمِ
فَٱلآن لَيْسَ سِوَى نُور حَلَلْتَ بِهِ ... مَنْجَا الطَّرِيْدِ ومَلْجَا كُلِّ مُعْتَصِمِ
وَقَدْ حَطَطْنَا لَدَيْكَ الرَّحْلَ هِمَّتُنَا ... عَلى الصَّدَا نَهْلَةٌ مِنْ مَوْرِدِ الْكَرمِ
نُقَبِّلُ التُّرْبَ إجْلالاً لِسَاكِنِه ... فَكُلُّ مَوْطِىءِ أَقْدَام مَقَرُّ فَمِ
هَذَا عَطَاؤُكَ فَاغْمُرْنَا بِمَنْهَلِهِ ... فَقَدْ مَدَدْنَا أَكُفَّ الْفَقْر والْعَدَمِ
وإِنْ رَمَتْنَا الْخَطَايَا وَسْطَ مَهْلَكَةٍ ... فَأَنْتَ مَلْجَأُ خَلْقِ الله كُلِّهِمِ

حسْبِي شَفَاعَتُكَ الْعُظْمَى إِذَا صَفِرَتْ — يَداي أَوْ أَسْفَرَتْ عن زَلَّةٍ قَدَمِي
فَالْعَفْوُ شِيْمَتُكَ الْعُظْمَى الَّتِي شُهِرَتْ — إِذْ كانَتِ المُوبِقَاتُ الْيَوْمَ مِنْ شِيَمِي
صَلَّى عَلَيْكَ إِلٰهُ الْعَرْشِ مَا حَمَلَتْ — عَنْكَ الثَّنَاءَ الْمُرَجَّى أَلْسِنُ الأُمَمِ
وَنَاسَمَ الْمِسْكُ أَنْفَاسَ السَّلَامِ عَلَى — هَذَا الضَّرِيْحِ وَهَذَا الْبَيْتِ وَالْحَرَمِ

ثم ينتقل عن يمينه قدر ذراع فيسلم على أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه، ثم ينتقل أيضاً عن يمينه قدر ذراع فيسلّم على عمر الفاروق رضي الله عنه. ومما يقوله إن شاء: السلام عليك يا خليفة سيد المرسَلين، السلام عليك يا مَن أيّد الله به يوم الردة الدين، السلام عليك يا من بادر بالإيمان من غير توقف، السلام عليك يا مَن لم تستملك الدنيا بزخرف، السلام عليك يا مَن أنفق في ذات الله ورسوله ماله، قليله وجليله، ولم يترك لنفسه ولا لأهله إلا الله ورسوله. السلام عليك يا مَن تشرف بجميل المصاحبة في الغار والعَرِيْش والطريق. السلام عليك يا أفضل الخلفاء يا أبا بكر الصدِّيق. ومما يسلم به على عمر رضي الله عنه إن شاء: السلام عليك يا أمير المؤمنين، السلام عليك يا مَن أَيَّدَ الله به الدين، وختم به الأربعين، السلام عليك يا مَن شدَّ أزر الإسلام فتمهد بعزائمه ونصح، ومصَّرَ الأمصار وللأقاليم افتتح، السلام عليك يا مَن لم تأخذه في الله لومة لائم، فلم يدع الحق له صديقاً، السلام عليك يا مَن ما لقيه الشيطان سالكاً طريقاً إلاَّ واتَّخَذَ غير طريقهِ طريقاً. السلام عليك يا مُحَدَّثَ هذه الأمة، الناطق بالصواب، السلام عليك يا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، أشهد أنكما قد خلفتما رسول الله ﷺ في أمته بأَحْسَن الخلف، وسلكتما طريقته، وشيدتما شريعته، وكنتما له خليفتَيْ صدقٍ، وإِمَامَيْ عَدْل وحق، فجزاكما الله عن نبيكما وعن الإسلام وأهله خير الجزاء، وأنزلكما أشرف منازل الصدِّيقين والأولياء، وأَنَالَكمَا أفضل ما أناله أحداً من خلفاء الأنَبياء، ونفعنا بهذه الزيارة والمحبة، وحشرنا مع نبينا ومعكما وسائر الأَحبة. السلام عليكما ورحمة الله وبركاته.

ويستحب له أن يزور البقيع وأُحُداً ويصلي في واديه، وأن يقصد قبَاءَ فيصلي في مقام رسول الله ﷺ، وهو في الرحبة عند الأُسطوانة الثالثة، ويدعو بما يسّره الله له من خيرَي الدنيا والآخرة، ويزور المساجد المقصودة والأَماكن المشهورة المشهودة. فإذا أراد الرحيل إلى وطنه اغتسل ولبس أحسن ثيابه، ثم يأتي المسجد ويكرر الصلاة على النبي ﷺ ويصلي فيه ويفعل ما تقدّم، ثم يأتي القبر الشريف المكرم ويسلّم عليه ﷺ ويسأَل الله تعالى أن لا يجعله آخر العهد من الزيارة الشريفة، ويكون متألماً

متحزِّناً على فراق الحضرة الشريفة النبوية، متأسفاً على ما يفوته من تركه ملازمتها. وهناك يسبق من المحبين سوابق العبرات، ويتصعّد من بواطنهم لقوة الوجد لَوَاحِق الزفرات. وأنشد أبو الفضل الجوهري في توديعه للنبي ﷺ:

لَوْ كُنْتَ سَاعَةَ بَيْنِنَا مَا بَيْنَنَا ... وَرأَيْتَ كَيْفَ نُكَرِّرُ التَّوْدِيْعَا
لَعلِمْتَ أَنَّ مِنَ الدُّمُوعِ مُحَدِّثاً ... وَعَلِمْتَ أَنَّ مِنَ الْحَدِيْثِ دُمُوعَا

ولله دَرُّ القائل:

أَرْسَلَتْ مُقْلَتِي دُمُوعاً غِزَاراً ... وَحَوَتْ أَضْلُعِي لَهِيْباً ونَارَا
وتَنَاءَى صَبْرِي وَهَلْ بَعدَ بُعْد ... يَجدُ الصَّبُّ سَلْوَةً واصْطِبَارَا
يا دِيَارَ الأَحْبَاب كَانَ اخْتِيَاري ... أن أَرَاكِ المَسَاءَ والأَبْكَارَا
ذَاكَ لَوْ يَسْمَحُ الزَمَانُ ولَكِنْ ... لَيْسَ لي أَنْ أُعَارِضَ الأَقْدَارَا
لَيْسَ عَزمي رضَا وَعَنْ طِيْبِ نَفْسٍ ... إِنَّمَا كَانَ بِالقَضَاءِ اضْطِرَارَا
واخْتِيَارِي أَنْ لاَ أُفَارِقَكِ الدَّهْـ ... ـرَ وَلَكِنْ لاَ أَمْلِكُ الاخْتِيَارَا
فَعَسَى الله أَنْ يَمُنَّ بِعَوْد ... وَعَسَاهُ يُطْفِي لَهِيْباً وَنَارَا

وللشيخ الصالح أَبي الحسن بن غانم المقدسي:

إِذَا هَبَّ لي مِنْ نَحْوِ طَيْبَةَ رِيْحُ ... تَرى الْدَّمْعَ مِنْ جَفْنِي هناك يسيحُ
ويُصْبِحُ عِنْدِي لِلْغَرَامِ مُحَرِّكٌ ... يَكَادُ بِسِرِّي في الغَرَامِ يَبُوحُ
وتَزْدَادُ أَشْوَاقِي إِلَى سَاكِنِ الحِمَا ... ويُمْسِي فؤَادُ الصَبِّ وَهوَ جَرِيحُ
بِذِكْرِ رَسُول الله طَابَ حَدِيْثُنَا ... وَمِنْ طِيْبِه كلُّ الوُجُودِ يَفُوحُ
هنيئاً لكُم زُوَّارَ قَبْرِ مُحَمَّد ... هَنِيْئاً لَكُمْ رَحْبُ المَزَار فَسِيحُ
لَكُمْ عِنْدِيَ الْبُشْرَى نَعِيْمٌ وجَنَّةٌ ... لَكُمْ مِنْهُ رَيْحَانٌ لَدَيه وَرُوحُ
أَلا أَيُّهَا الرَكْبُ الَّذِي يَمَّمَ الحِمَى ... وَمِنْ دُونِهِمْ صَبٌّ هُنَاكَ طَرِيحُ
أَلاَ فَقِفُوا ليْ عِنْدَكُمْ واحبسوا السُّرَى ... لَعَلِّيَ أبْكِي ساعةً وأَنُوْحُ
والْثُم أخْفَافَ المَطِيِّ فإِنَّها ... سَيَنْفَحُها مِنْ أرْضِ طَيْبَةَ شِيْحُ
أَهَلْ لَكَ يا رَكْبَ الحِجَازِيِّ عودة ... عَلَيَّ فأغدو معكُمُ وأَرُوحُ
وأُصْبِحُ نَشْوَاناً يَمِيلُ بيَ الهَوَى ... إِذَا أَصْبَحَتْ تِلْكَ القُبَابُ تَلُوحُ

ثم يَخْرُجُ غَيْرَ مُسْتَدْبِرِ القَبْرِ الشَّرِيفِ ويَبْدَأُ بِرِجْله اليسرى عكس الدخول للمسجد، ويكثر من الصلاة على النبي ﷺ.

وينبغي لأَمير الركب أن لا يرحل يوم الجمعة بعد الصلاة من المدينة الشريفة، ويحترز من الإِعلان بالنَّفير عقب الصلاة، فيحصل للوفد شدة الازدحام والاصطدام بباب المسجد، كما وقع ذلك في سنة ست وعشرين وتسع مئة، فمات من الزحام بباب السلام أربعة وعشرون نفساً ما بين رجال ونساء، ثم عقب ذلك في أخريات النهار توارد عربان الفساد لمَن تأخر رحِيله أو انقطع عن الركب يسيراً، فعاد أمير الركب في أثناء الطريق فجمع المنقطعين في السير، وأوصلهم إِلى الركب.

وليكن هذا آخر ما تيسّر إِيراده في هذا الباب، والله تعالى المسؤول في حسن المآب، وأن يمنحنا في الآخرة أفضل الثواب، ويلطف بنا في موقف السؤال والحساب.

* * *

الباب السابع

وهو خاتمة الأَبواب
في ذكر بعض مَن حجّ من الأَعيان نساءً ورجالاً من الصحابة والخلفاء، والملوك والوزراء، وأكابر الأُمراء

وذكر بعض أحوالهم وأقوالهم وأفعالهم، وفيه فصول:

الأَول: ذكر مَن حجّ من الصحابة والخلفاء، أقول:

أما حجة رسول الله ﷺ فقد أفردت ذكرها في فصل مستقل تقدم في أول الكتاب، وهي حجة الوداع التي بَيَّن فيها ﷺ للناس معالم دينهم، وقال ﷺ: «خذوا عني مناسككم»[1] وهذه الحجة أفردت لها العلماء كتباً مستقلة كالبقاعي وغيره كما هو معلوم، وإِنَّما المراد هُنَا ذِكْرُ مَن حجَّ بعد وجوب الفَرْضِ من بعض الأَكابر، فلا يحتاج إِلى إِعادة ذكرها هنا. وقد ذكرت في تعاقب السنين حج بعض الصحابة والخلفاء والملوك والأُمراء وغيرهم، والقصد ذكر ذلك مجملاً بعد ذكر بعضه مفصلاً، ليكون أوقع في النفس، وأقرب للكشف من الطرس، مما لا تراه مجموعاً إِن شاء الله تعالى في غير هذا الكتاب، وإِن كان بعض المتأخرين كالمقريزي تكلم على نحو هذا الباب وسماه «الذهب المسبوك في تاريخ مَن حجّ من الملوك» وقد اطَّلعت عليه، ونقحت ذلك المسبوك، وأضفته مُصَفى إِلى هذا اللجين، ومَن طالع كتابي هذا فإِنه يقول: لا أثر بعد عين.

فَأَوَّلُ مَنْ حَجَّ مِنَ الصَحَابَة سيدنا أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه خليفة رسول الله ﷺ، حجّ بالناس أميراً عليهم في زمن النبوة، بأَمر رسول الله ﷺ أول ما فرض الله تعالى على عباده حج البيت العتيق، وخلف رسول الله ﷺ في تلك الحجة، وأمره أن يُخَالِفَ المشركين لأَنهم كانوا يقفون بِجَمْعٍ، فيقف بعرفة ولا يدفع

(١) تقدّم تخريجه.

منها حتى الليل، ويدفع من جَمْعٍ ـ وهي المزدلفة ـ قبل طلوع الشمس، فخرج في ثلاث مئة رجل من المدينة الشريفة، وبعث النبي ﷺ معه بعشرين بدنةً قلّدها وأشعرها بيده، عليها ناجيةُ بن جُنْدب الأَسلميُّ، وساق أَبو بكر رضي الله عنه خمس بدناتٍ، وألحقه ﷺ بالإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فاجتمع به بالْعَرْجِ، وقيل بِضَجْنان، وقت الصبح، وهو راكب على ناقة رسول الله ﷺ الجدعاء، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: أمير أم رسول؟ فقال: لا بل رسول أرسلني رسول الله ﷺ بـ(براءة) أقرأها على الناس في تلك المشاعر والمناسك، فكانت أول حجة في الإسلام سلك فيها هذه المسالك، وهي سنة تسع من الهجرة[1]، وقد قدمت ذكر هذه الحجة في أمراء المواسم، مما يغني عن إعادته ويمنح النجح إن شاء الله تعالى بإفادته.

وحجّ بالناس بعد وفاته ﷺ، وهو خليفة سنة اثنتي عشرة من الهجرة[2] وتوفي رضي الله عنه لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة.

الإمام الأَول الناطق بالصواب، عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانت خلافته عشر سنين ونصف، حجّ في جميعها إلاّ السنة الأُولى فقط، فإنه حجّ فيها بالناس عتاب بن أَسِيْد، أمير مكة المشرفة.

وقيل: بل حجَّ عمر بالناس في خلافته كلها، قال أبو عثمان النهديُّ: رأيت عمر يرمي الجمرة وعليه إزار مرقوع بقطعة جِراب، وقال عليُّ بن أبي طالب: رأيت عمر بن الخطاب يطوف بالكعبة وعليه إزار فيه إحدى وعشرون وقعة فيها من أَدَم.

وعن سعيد بن المسيب قال: حجّ عمر رضي الله عنه فلما كان بضجنان قال: لا إله إلاّ الله، العليُّ العظيم المعطي مَن شاء ما شاء، كنت أَرْعَى إبل الخطاب في هذا الوداي في مِدرعة صوف وكان فَظًّا يتعبني إذا عَمِلْتُ، ويضربني إذا قَصَّرْت، وقد أمسيت وليس بيني وبين الله أحد ثم تمثّل يقول:

لاَ شَيْءَ مِمَّا تَرَى تَبْقَى بَشَاشَتُهُ ... يَبْقَى الإِلٰهُ ويُوْدِي المالُ وَالْوَلَد
لَمْ تُغْنِ عَنْ هُرْمُزٍ يَوْماً خَزَائِنُهُ ... والخُلْدَ قدْ حَاولَتْ عادٌ فَمَا خَلُدُوا
ولاَ سُلَيْمَانَ إِذْ تَجْرِي الرِّيَاحُ لَهُ ... وَالإِنْسُ وَالْجِنُّ فِيْمَا بَيْنَهَا بُرُدُ

---

(١) انظر: البداية والنهاية [٥/ ٣٣].
(٢) انظر: البداية والنهاية [٦/ ٣٥٧].

أَيْنَ الْمُلُوكُ الَّتِي كَانَتْ نَوَافِلُهَا ... مِنْ كُلِّ أَوْبٍ إِلَيْهَا رَاكِبٌ يَفِدُ
حَوْضٌ هُنَالِكَ مَوْرُوْدٌ بِلاَ كَدَرٍ ... لاَ بُدَّ مِنْ وِرْدِهِ يَوْماً كَمَا وَرَدُوا

وفي حجته الحادية عشر، سأل عن أُوَيْسٍ الْقَرَنِيِّ كما كان يسأل عنه، وصعد إلى أبي قُبَيْسٍ فنادى بأعلى صوته: يا أهل الحجيج من أهل اليمن أفيكم أويس؟ فقال شيخ كبير طويل اللحية من قَرَن: يا أمير المؤمنين إنَّك قد أكثرتَ السُّؤَالَ عن أُوَيْس هذا، وما فينا أحد اسمه أُوَيْس إلا ابن أخ لي يقال له أُوَيْس، وأنا عمه، وهو حقير بين أظهرنا، أَخْمَلَ ذِكْراً وأقلَّ مالاً وأوهنِ أَمْراً مِنْ أن يَرْفَعَ إليك أمره، فسكت الإمام عمر رضي الله عنه، وظَنَّ أنه ليس هو أُوَيْس الْقَرَنِيَّ الذي يريده، ثم قال: يا شيخ وأين ابنُ أخيك هذا الذي تزعم أنه حقير، أَهُوَ معنا بالحرم؟ قال الشيخ: نعم هو معنا بالحرم يا أمير المؤمنين، غير أنه في أَرَاكَة عَرَفَةَ، يرعى إبِلاً لنا، فركب عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب على حمارَيْنِ لهما، وخرجا من مكة، وأسرعا السير إلى أراكة عرفة، ثم جعلا يتخللان الشجر، ويطلبانه، فإذا هُما به في طِمْرَيْنِ من صوف، قد صفَّ قدميه قائماً يصلي إلى شجرة، وقد رمَى ببصره إلى مَوْضِعِ سُجودِهِ، وألقى يديه إلى صدره والإبل حوله ترعى، فقال عمر لِعَلِيٍّ رضي الله عنه: يا أبا الحسن إن كان في الدنيا أُوَيْسُ فهذا هو وهذه صفته، ثم نزلا عن حماريهما فذهبا إلى أَراكةٍ، ثم أَقبلا إليه يريدانه، فلما سمع أُوَيْسُ حِسَّهمَا أَوجز في صلاته، ثم تشهّد وسلّم، وتقدّما إليه فقالا له: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فأجابهما، فقال عمر رضي الله عنه: مَن الرَّجُل؟ فقال: راعي إبلٍ أجيْرٌ، فقال عمر رضي الله عنه: ليس عن الرعاية أسألك ولا عن الأُجْرة، وإنما أَسألك عن اسمك ممن أنت يرحمك الله؟ فقال: أنا عبد الله وابن أمته، فقالا: قد علمنا أَنَّ كل مَن في السموات والأَرض عبيد الله، فإِنَّا نقسم عليك بحق الحرم والمسجد المعظم إلاَّ أَخْبَرْتَنَا باسمك الذي سَمَّتْك به أُمُّكَ قال: يا هاذَان ما تريدان بي؟ أَنا أُوَيْسُ بن عبد الله، فقال عمر رضي الله عنه: الله أَكبر، فقال عمر (؟) رضي الله عنه: نحبُّ أَنْ توضح لنا على عنقك الأَيْسر. قال: وما حاجتكما إلى ذلك؟ فقال له عليٌّ كرّم الله وجهه: إن رسول الله ﷺ وصفك لنا وقد وجدنا الصفة كما أخبرنا، غير أنه أعلمنا أَنَّ بشِقِّك الأَيسر لمعة بيضاء كمقدار الدرهم أَو الدينار، ونحن نحب أَن ننظر إلى ذلك، فأَوضح لهما عن شقه الأَيسر فلما نظر عليٌّ وعمر رضي الله عنهما إلى اللمعة البيضاء ابتدرا، أَيُّهمَا يُقَبِّلُ قبل صاحبه، وقالا: نشهد أنك أُوَيْسُ القرنيُّ، ثم بكيا طويلاً وقالا: يا أُوَيْسُ إِنَّ رسول الله ﷺ أَمرنا أَن نقْرِئَكَ منه السلام، وأَمرنا أَن نسأَلك أَن تستغفر لنا، فإِن رأَيت أَن تستغفر لنا يرحمك

الله فقد خبَّرَنَا بأنك سيد التابعين، وأن تشفع يوم القيامة في عدد رَبيعة ومَضَرَ، فبكى أُوَيْسُ بكاءً شديداً ثم قال: عسى أن يكون غيري؟ فقال عليٌّ: إنَّا نُبِّئْنَا أنك هو، لا شك في ذلك، فادع الله يرحمك الله وأنت محسن فقال أُوَيْسُ ما أَخُصُّ باستغفاري نفسي، ولا لأحد من أولاد آدم، ولكنه في البر والبحر للمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، في ظلم الليل وضياء النهار، ولكن مَن أنتما يرحمكما الله، فإني خبرتكما باسمي وشهرتي، وشهرت لكما أمري ولم أُحبَّ أن يعلم بمكاني أحد من الناس، فقال علي كرّم الله وجهه: أمَّا هذا فأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وأمَّا أنا فعليُّ بن أبي طالب، فوثب أُوَيْسُ فرحاً مستبشراً، فعانقهما وسلّم عليهما، ورحّب بهما وقال: جزاكما الله عن هذه الأمة خَيْراً. قالا: وأنت جزاك الله عن نفسك خَيْراً قال: ومِثْلي يستغفر لأمثالكما؟ فقال عمر رضي الله عنه: مكانك حتى آتي مكة فآتيك بنفقة من عطائي، وفضل كسوة من ثيابي فإني أراك رَثَّ الحال، هذا المكان ميعادنا قال: يا أمير المؤمنين لا ميعاد بيني وبينك، ولا أعرفك بعد اليوم ولا تعرفني، ما أصنع بالنفقة وما أصنع بالكسوة، أمَا ترى عليَّ إزاراً من صوف ورداءً من صوف، متى أراني أخرقهما، أما ترى نعلي مخصوفتين؟ متى تراني أُبليهما، ومعي أربعة دراهم أخذتها من رعايتهم، متى تراني آكلها، يا أمير المؤمنين إنَّ بين يديَّ عقبة لا يقطعها إلاّ كُلُّ مُخِفٌ مهزول، فَأَخِفَّ يرحمك الله يا أبا حفص، إن الدنيا غَرَّارة زائلة فانية، فمَن أمسى وهمَّته فيها اليوم مَدَّ عُنقَه إلى غَد، ومَن مَدَّ عنقه إلى غَدٍ علق قلبه بالجمعة، ومَن عَلَّقَ قَلْبُهُ بالجمعة لم يَيْأَس من الشهر، وأَوْشَكَ أَنْ يطلب السَّنَةَ، وأَجَلُهُ أقربُ إليه من أَمَلِه، ومَنْ رفض هذه الدنيا أدرك ما يريد غداً من مجاورة الجبار، وجرت من تحت منازله الأنهار، ونزلت من فوق منازله الثمار، فلما سمع عمر رضي الله عنه كلامه ضرب بيده الأَرْضَ ثم نادى بأعلى صوته: ألا ليت عمر لم تَلِدْه أُمُّهُ، ليتها عقراً لم تعالج حَمْلاً، أنا هاهنا، ومضى أُوَيْسُ يسوق الإبل بين يديه، وعمر وعلي رضي الله عنهما ينظران إليه حتى غاب، وولّى عمر وعلي رضي الله عنهما نحو مكة.

ولما صدر أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه من مِنى أناخ بالأَبْطَح، ثم كوّم كومة من البطحاء، ثم ألقى عليه طرف ثوبه فاستلقى، ومدَّ يده إلى السماء فقال: اللّهم ضعفتْ قوتي وكبرت سِنِّي، ورقَّ عظمي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مُضَيَّع ولا مفرط ولا مفتون، ثم رجع إلى المدينة فما انسلخ ذو الحجة حتى قتل رضي الله عنه.

أَمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: حجّ في خلافته كلها إلا السنة الأُولى والأَخيرة، وذكر ابن الأَثير أَنه حجّ بالناس في السنة الأُولى، وجدّد أَنصاب الحرم، وأَمر بتوسيع المسجد الحرام بدور اشتراها ودور هدمها على مَنْ أَبَى البيع، وترك ثمنها لأَربابها في خزانة الكعبة، وَحَوَّلَ ساحِلَ مكة القديم إِلى ساحلها الآن المعروف بِجُدَّة، واغتسل في بحرها وقال: إِنه مبارك، وضرب فسطاطه بمنى في سنة تسع وعشرين، وكان أَول فسطاط ضربه عثمان رضي الله عنه، وأَتَمَّ الصلاة بها وبِعرفة، وقد قدمنا ذكر ذلك في تعاقب السنين بما يغني عن إِعادته، وحجّ وهو خليفة أَحد عشرة حجة، وقتل رحمه الله تعالى في سنة ست وثلاثين من الهجرة.

أَمير المؤمنين علي بن أَبي طالب رضي الله عنه: حجّ في السنة التاسعة من الهجرة مع أَبي بكر الصدِّيق لما أَرسله رسول الله ﷺ بسورة (براءة) يقرأها على الناس في تلك المشاعر العظام، ولما رجع الإِمام أَبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه إِلى المدينة قال: يا رسول الله ما لي؟ قال: «خير، أَنت صاحبي في الغار غير أَنه لا يبلغ غيري أَو رجل مني»[1] يعني عليًا رضي الله عنه ولا يعلم عدد حجه قبل ذلك، وأَما بعد ولايته الخلافة فلم يحج لاشتغاله بحرب الجمل وصِفِّيْن.

خالد بن الوليد رضي الله عنه: حجّ من العراق سرًا في سنة اثنتي عشرة، ومعه عدة من أَصحابه يعسف البلاد، فأَتى مكة وحجَّ ورجع فما تَوافى جُنْدُهُ بالحيرة حتى وافاهم مع صاحب الساقة، فقدماها وخالد وأَصحابه مُحَلِّقُون، ولم يعلم بحجه إِلاَّ مَن أَعلمه، ولم يعلم أَبو بكر رضي الله عنه بذلك إِلاَّ بعد رجوعه، فعتب عليه، وكانت عقوبته إِياه أَن صرفه من العراق إِلى الشَّام مُمِدًّا جموع المسلمين باليرموك.

أَمير المؤمنين معاوية بن أَبي سفيان رضي الله عنه حجّ بالناس عدة سنين أَولها سنة أَربع وأَربعين، وقدم مكة بمنبر صغير معه ثلاث درج، وخطب عليه بها وهو أَول منبر خطب عليه بمكة، ودخل الكعبة في سنة خمسين، وسأَل عن مصلَّى رسول الله ﷺ بها فأَخبره عبد الله بن عمر أَنه بين العمودين المقدمين وقال له: اجعل بينك وبين الجدار ذراعين أَو ثلاثاً، واعتمر في رجب سنة ست وخمسين.

عبد الله بن الزبير بن خويلد بن أَسد بن عبد الْعُزَّى بن قصي القرشي الأَسدي أَمير المؤمنين: بويع له بالخلافة بعد موت معاوية بن يزيد بن معاوية بن أَبي سفيان،

---

(١) عزاه ابن كثير للإمام أحمد، والترمذي، وللمصيصي لوين. انظر: البداية والنهاية [٥/ ٣٤].

واجتمع على طاعته أهلُ اليمن والحجاز والعراق وخراسان، وحجّ بالناس ثماني حجج، وهو أَول مولود وُلِد في دار الهجرة وكانت له بمكة حروب منها وقعة المنجنيق، وحرق غالب الكعبة الشريفة به من عسكر يزيد بن معاوية، وبلغهم وفاته وهم محاصرون لعبد الله بن الزبير، وأَهل مكة في المسجد الحرام ليلة الثلاثاء هلال ربيع الأَول سنة أَربع وستين من الهجرة، فتركوا الحصار، وتوجّهوا إِلى الشام كما تقدّم ذكره، ثم إِنَّ ابنَ الزبير هدم الكعبة الشريفة وبناها على قواعد إِبراهيم عليه السلام وكان الفراغ منها في سابع عشر رجب من السنة المذكورة، ثم محاصرة الحجاج بن يوسف الثَّقفي له داخل الحرم الشريف، ورمَى الكعبة المعظمة بأَحجار المنجنيق والنار، وحرَّق أَستار الكعبة في ولاية عبد الملك بن مروان، إِلى أَن كانت وفاته قتيلاً رحمه الله تعالى على يد الحجاج بن يوسف الثقفي في يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة خلت من جمادى الآخر سنة ثلاث وسبعين.

عبد الملك بن مروان: أَمير المؤمنين الأَموي بن الحكم بن أَبي العاص بن أُمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، حجّ بالناس في سنة خمس وسبعين، وطاف وهو مُتَّكِىء على كتف بعض الصحابة، وجَدَّد أَنصاب الحرم، وعزل الحجاج عن الحجاز، وأَمره على العراق، ولما انصرف عبد الملك من الحج.

وقيل: من العمرة في السنة التي قبل هذه رافقه الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، إِلى دمشق فظهر للحارث من عبد الملك جفوةٌ وأَقام ببابه شهراً لا يصل إِليه، فانصرف عنه وقال فيه أَبياتاً من الشعر أُنشِدت لعبد الملك، فأَرسل إِليه مَنْ ردَّهُ من طريقه، وعاتبه عليها فقال: جفوة ظهرت لي منك، فولاه مكة المشرفة.

سليمان بن عبد الملك بن مروان: أَمير المؤمنين: حجّ بالناس سنة سبع وتسعين، ولما طاف كان إِلى جانبه خليفته الإِمام العادل عمر بن عبد العزيز وإِلى الجانب الآخر محمد بن كعب القرظي فقال سليمان: كيف كان بناءُ الكعبة حين بناها ابنُ الزبير؟ فأَشار له عمر بن عبد العزيز إِلى ما كان ابن الزبير فعل، وأَنه جعل لها بَابَيْن، وأَدخل الْحِجْرَ في البيت فقال سليمان: ليت أَنَّ أَمير المؤمنين - يعني أَباه - كان وَلَّى ابن الزبير ما تولَّى من ذلك فقال له عمر بن عبد العزيز: أَمَّا أَنا سمعته يقول: ليتَ أَني تركتُ ابنَ الزُّبير وما تَحَمَّل من ذلك. قال سليمان: أَنت سمعته يقول ذلك؟ قال: نعم، ثم التفت إِلى محمد بن كعب فقال: كم طولها؟ قال: سبعة وعشرون ذراعاً، قال: وعلى ذلك كانت؟ قال: لا، قال: فكم كانت؟ قال: كانت

على عهد النبي ﷺ ثمان عشرة ذراعاً، قال: فمَن زاد فيها؟ قال: ابنُ الزبير، قال سليمان: لولا أمر كان أمير المؤمنين فعله، لأحببت أن أَرُدَّها على ما بناها ابن الزبير، ثم قال: عليَّ بِحُجَّاب البيت، فدخل هو وعمر بن عبد العزيز ومحمد بن كعب القرظي، فجعل ينظر إلى ما فيها من الحُلي، فقال لمحمد بن كعب: ما هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين أقره رسول الله ﷺ، ثم أقره الولاة بعده أبو بكر وعمر وعلي وعثمان ومعاوية رضي الله عنهم، قال: صدقت. ورأى سليمان بن عبد الملك الناس بالموسم فقال لعمر بن عبد العزيز: أما ترى هذا الخلق الذي لا يُحْصِي عددهم إلاَّ الله تعالى، ولا يسع رزقهم غيره، فقال: يا أمير المؤمنين هؤُلاءِ اليوم رعيتك وغداً خصماؤك، فبكى بكاءً شديداً، ثم قال: الله المستعان! وحملت ملابس جسم سليمان بن عبد الملك في هذه الحجة على سبع مئة بعير، وقِس على ذلك غيره وقيل: على تسع مئة. وقال في حجه هذا ـ لِلْقَيِّم على طعامه ـ: أطعمني من خرفان المدينة؟ ودخل الحمَّام، وخرج وقد شُوي له أربعة وثمانون خروفاً فأكل من كل خروف حمازته مع لحم كليته حتى أتى على آخرها، ثم دعا الناس إلى طعامه فأكل معهم مثل ما كان يأكل، وأتى الطائف فسأله ابنُ أبي زُهير الثقفي أن ينزل عليه، فنزل، فجاءه برُمَّان فأكل منه مئة وسبعين رمانة وخروفاً وست دجاجات وعشرين رقاقة، ثم أكل مع الناس، وعزل طلحة بن داود الحضرميَّ عن مكة، وكان عمله عليها ستة أشهر، وولي عوضه عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد الأَسدي.

الوليد بن عبد الملك بن مروان: كان حجه في سنة إحدى وتسعين فلما دخل المدينة غدَا إلى المسجد ينظر إلى بنائه وأخرج الناس منه ولم يبقَ غير سعيد بن المسيب فلم يجسر أحدٌ من الحرس يخرجه فقيل له لو قمت، فقال: لا أقوم حتى يأتي الوقت الذي كنت أقوم فيه، فقيل: لو سلمت على أمير المؤمنين، قال: والله لا أقوم إليه، قال عمر بن عبد العزيز: فجعلت أعدل بالوليد ناحية المسجد لئلا يراه، فالتفت الوليدُ إلى القبلة فقال: مَن ذلك الشيخ أهو سعيد؟ فقال عمر: نعم، ومن حاله كذا وكذا، ولو علم بمكانك لقام وسلّم عليك وهو ضعيف البصر، فقال الوليد: قد علمتُ حاله ونحن نأتيه، فدار في المسجد ثم أتاه فقال: كيف أنت أيها الشيخ، فوالله ما تحرَّك سعيدٌ فقال: بخير والحمد لله، فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله؟ فانصرف الوليد، وهو يقول لعمر: هذا بقية الناس.

هشام بن عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين: حجّ في سنة ست ومئة وكتب له أبو الزِّنَادِ سِيَرَ الحج، قال أبو الزناد: لقيت هشاماً في الموكب، ومعه سعيد بن

عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان، فسار إلى جنبه فسمعته يقول له: يا أَمير المؤمنين إن الله تعالى لم يزل ينعم على أهل بيت أَمير المؤمنين، وينصر خليفته المظلوم، ولم يزالوا يلعنون في هذه المواطن أبا تراب فإنها مواطن صالحة، وأمير المؤمنين ينبغي له أَن يلعنه فيها، فشَقَّ على هشام قوله وقال: ما قدمنا لشتم أَحد ولا لِلَعْنه، قدمنا حجّاجاً، ثم قطع كلامه، وأَقبل عليَّ يسألني عن الحج، فأَخبرته بما كتبت له، وشقَّ على سعيد أَني سمعته يتكلم بذلك، وكان منكسراً كلما رآني، ودخل هشام الكعبة فإذا هو بسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب فقال له: يا سالم سَلْنِي حاجة، قال له سالم: من حوائج الدنيا أَم من حوائج الآخرة؟ فقال: من حوائج الدنيا، فقال له سالم: أَما والله ما سأَلت الدنيا مَن يملكها فكيف أَسأَل مَن لا يملكها؟ وحجّ في تلك السنة إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله التيميُّ، الذي يقال له أَسَد الحجاز، وجلس على الْحِجْر، فلما طاف هاشم بالبيت ومرَّ بإبراهيم صاح به إبراهيم وقال: أَسأَلك بالله وبحرمة هذا البيت الذي خرجت معظماً له أَلا رددت علي ظلامتي؟ قال: أي ظلامة؟ قال: داري مقبوضة، قال: فأَين كنت عن أَمير المؤمنين؟ ـ أي عبد الملك ـ فقال: ظلمني والله، قال: فأَين كنت عن الوليد بن عبد الملك؟ قال: ظلمني، قال: فأَين كنت عن سليمان؟ قال: ظلمني، قال: فأَين كنت عن عمر بن عبد العزيز؟ قال: يرحمه الله رَدَّهَا عليَّ فَلَمَّا ولّى يزيد بن عبد الملك قبضها وهي اليوم في يد وكلائك، فقال له هشام: والله لو كان فيك مَوْضِعُ ضَرْبٍ لأَوجعتك، فقال: فيَّ والله ضَرْب السوط والسيف، ومضى هشام ثم دعَا الأَبرش الكلبيَّ وكان خاصًّا به، فقال: يا أَبرش كيف ترى هذا اللسان، قال: ما أَجوده، قال هشام: هي قريش وأَلسنتها، ولا يزال في الناس بقياها، ما رأَيت مثل هذا، ويقال: إن إبراهيم قال لهشام: ناشدتك الله في ظلامتي، قال: فما فعل عبد الملك فيها؟ قال إبراهيم: ترك الحقَّ وهو يعرفه، قال: فما صنع الوليد؟ قال: اتّبع أَثر أَبيه، وقال بما قال القوم الظالمون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢] قال: فما فعل فيها سليمان؟ قال: لا حلى ولا سدى وفي رواية: لا قَفًى ولا سَرًّى، قال: فما فعل عمر؟ قال: رَدَّ الحقَّ إلى أربابه رحمه الله تعالى، فاستشاط هشام غضباً، وكان إذا غضب انقلبت حولته، ودخلت عينه في محاجره، ثم أَقبل عليه وقال: أَما والله أَيُّهَا الشيخ لو كان فيك مَوْضِعُ ضرب لأَحسنت أَدبك، فقال: والله فيَّ، الدين والحسب، لا يتعدى للحق وأَهله، وستكون غداً تحت، وستعلم، وهذه الرواية أَحسن من الرواية الأُولى، وأَوقع في القلب لما فيها من البلاغة والإِيجاز،

وتعجب هشام منه، وتقريعه للأبرش الكلبيّ، وكانت هذه الدار بين الصفا والمروة، تسَمَّى دار آل علقمة، وكان لآل طلحة فيها شيء، والذي أَخذها نافع بن علقمة الكنانيُّ، وهو خال مروان بن الحكم، وكان عاملاً لعبد الملك بن مروان على مكة، ولم ينصفهم عبد الملك من نافع بن علقمة.

وكان هشام بن عبد الملك حَجَّ أَيضاً في زمن أَخيه الوليد أَو أَبيه فطاف بالبيت وجهد أَن يصل إِلى الْحَجَر الأَسود ليستلمه فلم يقدر عليه، فَنصِب له منبر وجلس عليه ينظر إِليه الناس ومعه أَهل الشام، إِذْ أَقبل عليُّ بن الحسين بن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، وهو من أَحسن الناس وجهاً، وأَطيبهم ريحاً وأَرجاً، فلما بلغ إِلى الْحَجَر الأَسود تنحَّى له الناس، حتى يستلمه فقال رجل من أَهل الشام: مَنْ هَذَا الذي قد هابه الناس هذه الهيبة؟ فقال هشام: لا أَعرفه، مَخَافَةَ أَن يرغب فيه أَهلُ الشام، وكان الفرزدق حاضِراً، فقال الفرزدق: لكني أَعرفه، قال الشامي: مَن هو يا أَبا فراس؟ فقال الفرزدق هذه الأَبيات:

هٰذَا الَّذِي تَعْرف الْبَطْحَاءُ وَطْأَتَهُ ... وَالْبَيْت يَعْرِفهُ والْحِلُّ والْحَرَمُ
هٰذَا ابْن خَيْر عِبَادِ اللّهِ كُلِّهِم ... هٰذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ
إِذَا رَأَتْهُ قُرَيْشٌ قَالَ قَائِلُهَا: ... إِلَى مَكَارِم هَذَا يَنْتَهِي الْكَرَمُ
يُنْمَى إِلى ذُرْوَةِ الْعِزِّ الَّتِي قَصُرَتْ ... عَنْ نَيْلِهَا عَرَبُ أَلإِسْلام وَالْعَجَمُ
يَكَادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَانَ رَاحَتِهِ ... رُكْنُ الْحَطِيْم إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ
يُغْضِي حَيَاءً ويُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ ... فَمَا يُكَلَّمُ إِلاَّ حِيْنَ يَبْتَسِمُ
مَنْ جَدُّهُ دَانَ فَضْلُ الأَنْبِيَاءِ لَهُ ... وَفَضْلُ أُمَّتِهِ دَانَتْ لَهُ الأُمَمُ
يَنْشَقُّ نُورُ الْهُدَى عَنْ نُوْرِ غُرَّتِهِ ... كَالشَّمْسِ يَنْجَابُ عَنْ إِشْرَاقِهَا الْغِيَمُ
مُنْشَقَّةٌ مِنْ رَسُولِ الله نَبْعَتُهُ ... طَابَتْ عَنَاصِرُهُ والْخِيْمُ والشِّيَمُ
هَذَا ابنُ فَاطِمَةٍ إِنْ كُنْتَ جَاهِلَهُ ... بِجَدِّهِ أَنْبِيَاءُ اللّهِ قَدْ خُتِمُوا
اللّهُ شَرَّفَهُ قِدْماً وَكَرَّمَهُ ... جَرَى بِذَاكَ لَهُ فِي لَوْحِهِ الْقَلَمُ
وَلَيْسَ قَوْلُكَ: مَنْ هَذَا؟ بِضَائِرِهِ ... الْعُرْبُ تَعْرِف مَنْ أَنْكَرْتَ وَالْعَجَمُ
كِلْتَا يَدَيْهِ غِيَاثٌ عَمَّ نَفْعُهُمَا ... يُسْتَوْكَفَان وَلاَ يَعْرُوْهُمَا الْعَدَمُ
سَهْلُ الْخَلِيقَة لا تُخْشى بَوَادِرُهُ ... يَزِيْنُهُ اثْنَتَانِ الْخُلُق وَالْكَرَمُ
حمال أَثقالِ أَقوام إِذا فرحوا ... حُلْوُ الشَّمَائِل يَحْلُو عِنْدَهُ نَعَمُ
لا يُخْلِف الْوَعْدَ مَيْمُوْنٌ بِطَلْعَتِهِ ... رَحْبُ الْفِنَاءِ، أَرِيْبٌ حِيْنَ يَعْتَزِمُ

مِنْ مَعْشَرٍ حُبُّهُمْ دِينٌ، وبُغْضُهُمْ كُفْرٌ، وقُرْبُهُمْ مَنْجًى، وَمُعْتَصَمُ
إنْ عُدَّ أَهْلُ التُّقى كانوا أَئِمَّتَهُم أَوْ قيل: مَنْ خَيْرُ أَهْلِ الأَرضِ؟ قُلْتُ: هُمُ
لا يَسْتَطِيْعُ جَوادٌ بُعْدَ غَايَتِهِم ولاَ يُدَانِيهِمْ قَوْمٌ وإِنْ كَرُمُوا
هُمُ الْغُيُوثُ إذَا مَا أزمةٌ أَزَمَتْ وَالأُسْدُ أُسْدُ الشَّرَى والنَّاسُ تُخْتَرَمُ
لاَ يَنْقُصُ الْعُسْرُ بَسْطاً مِنْ أَكُفِّهِم سِيَّان ذَلك إنْ أَثْرَوْا وإِنْ عَدِمُوا
يُسْتَدْفَعُ السُّوْءُ وَالْبَلْوَى بِحُبِّهِم ويُسْتَرَبُّ بِهِ الإِحْسَانُ وَالنِّعَمُ
مُقَدَّمٌ بَعْدَ ذِكْرِ اللّهِ ذِكْرُهُمُ في كُلِّ بَدْءٍ وَمَخْتُومٌ بِهِ الْكَلِمُ
يَأْبَى لَهُمْ أَنْ يَحِلَّ الذَّمُّ سَاحَتَهُمْ خِيْمٌ كَرِيْمٌ وأَيْدٍ بِالنَّدَى هُضُمُ
أَيُّ الْخَلائِقِ لَيْسَتْ في رِقَابِهِم لأَوَّلِيَّةِ هَذَا أَوْلَهُ نِعَمُ
مَنْ يَعْرِفِ اللّهَ يَعْرِفْ أَوَّلِيَّةَ ذَا الْعِلْمُ مِنْ بَيْتِ هَذَا نَالَهُ الأُمَمُ

فغضب هشام وأمر بحبس الفرزدق بِعُسْفَان، بين مكة والمدينة، وبلغ ذلك عليّ بن الحسين فبعث إلى الفرزدق باثني عشر ألف درهم، وقال: اعذر أبا فراس، فلو كان عندنا أكثر من هذا لوصلناك به، فردّها الفرزدق، وقال: يا بن رسول الله ما قلت الذي قلت إلاّ غَضَباً لله عزّ وجل ورسوله، وما كنت لأَرْزَأَ عليه شَيْئاً فقال: شكر الله، لك ذلك، إلا إنّا أهل البيت إذا أنفذنا أمراً لم نَعُدْ فيه، فقبِلها وجعل يَهْجو هشاماً وهو في الحبس، فمما هجاه به:

أَتَحْبِسُني بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالَّتي إِلَيْهَا قُلُوْبُ النَّاسِ يَهْوَى مُنِيْبُهَا
يقَلِّبُ رَأْساً لَمْ تَكُنْ رَأْسَ سَيِّدٍ وَعَيْناً لَهُ حَوْلاءُ بَادٍ عُيُوبُهَا

الوليد بن عبد الملك: فاسق بني أُمية حج سنة ست عشرة ومئة، ذكر ذلك ابن الأثير وابن جرير وسبط بن الجوزي، وجزموا به، وقال المسعودي وابن الجوزي: حجّ بالناس محمد بن هشام المخزومي، وقيل: الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وقال التقيُّ المِقريزيُّ في «الذهب المسبوك»: ولم يحج بعد هشام أَحدٌ من بني أُمية وهو خليفة، وقال سبط بن الجوزي: حجّ بالناس الوليد بن يزيد وحمل معه الخمور والملاهي والكلاب، وأراد أن يشرب بمكة، وقال ابن الجوزي: إنه حمل معه كلاباً في صناديق، وحمل معه خمراً، وعمل قبة من حديد، ويقال: مَن ساج على قدر الكعبة، لتركب على أركان الكعبة وتَخْرج لها أَجنحةٌ لتظلله إذا طاف هو ومَن أَحب من أَهله ونسائه، وكان فظًا متجبِّراً، وأَراد بزعمه أن يطوف فيها حول البيت ويطوف الناس من وراء القبة، ولم يبقَ إلاّ أَنْ تُرَكَّب، فخوّفه أَصحابه، فجمع المغنيين بمكة،

وتشاغل باللهو، فقام الناس في ذلك والفقهاء والعبَّاد، وغضبوا عليه وتكلموا وقالوا: لا يكون هذا! وكان من أشدهم في ذلك كلاماً وقياماً سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمٰن بن عوف، وكتب إلى الوليد بذلك، فكتب: أنِ اتركوها، فقال سعد بن إبراهيم، عند ذلك: ليس إلاّ هَذَا، لا! هَا الله حتى نَصْنَع بها كما صنع بالعجل، لَنُحَرِّقَنَّه ثم لننسفنه في الْيَمِّ نسفاً، النَّار النار!! فدعَا بالنار فَأُحْرِقت، ويقال: إنَّ القبة حملت على الإبل من الشام، ووجه معها قائداً من قواد أهل الشام في ألف فارس، وأرسل معه مالاً يقسمه في أهل المدينة، فتقدّم بها فَنُصِبت في مُصَلّى رسول الله ﷺ، ففزع لذلك أهلُ المدينة واجتمعوا فقالوا: إلى مَن نفزع في هذا الأمر؟ فقالوا: إلى سعد بن إبراهيم، فأتاه القوم فأخبروه الخبر، فأمر أن يُضرموها بالنار فقالوا: لا نُطيق ذلك معها قائدٌ في ألف فارس من أهل الشام. فدعى مولى له، فقال: هلم الْجُرَاب، فأتاه بالجُرَابِ فيه درْعُ عبد الرحمٰن، التي شهد فيها بدراً فصبّها عليه وقال: هَلُمَّ بغلتي، فأتاه ببغلته فركبها فما تخلّف عنه يومئذٍ قرشيٌّ ولا أنصاري، حتى إذا ما أتاها، قال: عليَّ النار، فأُتِيَ بالنار، فأضرمها فيها، فغضب القائد فقالوا له: هذا قاضي أمير المؤمنين ومعه الناس، ولا طاقة لك به، فانصرف راجعاً إلى الشام، وشَبعَ عبيدُ أَهْلِ المدينة من الالتقاط مما استلبوه من حديدها.

أمير المؤمنين ثاني خلفاء بني العباس أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي العباسي: حجَّ بالناس في سنة أربعين وأحرم من الْحِيْرة، وأعطى أشراف القرشيين ألف دينار لكل واحد منهم، ولم يترك أحداً من أهل المدينة إلاّ أعطاه، إلاّ أنه لم يبلغ بأحد مبلغ الأشراف، فكان ممن أعطاه الألف دينار هشام بن عروة وأعطى قواعد قريش صحائف الذهب والفضة، وكساهُنَّ، وأعطى بالمدينة عطايا لم يعطها أحدٌ كان قبله، ولما قضى حجَّهُ توجه إلى بيت المقدّس، ثم سلك إلى الشام مُنْصرفاً، حتى أتى الرقة فنزلها، وأمر بترخيم الحِجْر ـ بكسر الحاء ـ وهو أول مَنْ رخَّمَهُ.

وفي حجته الثالثة اجتمع بالخضر عليه السلام في المطاف لما سمعه يشكو إلى الله من ظهور البغي والفساد في الأرض، في قصة طويلة ذكرناها أول الكتاب، وكان في كلام الخضر عليه السلام، في رواية رواها العلامة ابن فهد القرشي المكي، في تاريخه عن والده بحق قراءته عليه إلى آخر السند: إنَّك لا تجمع الأموال إلاّ لواحدة من ثلاث: إن قلت أجمعها لولدي، فقد أرَاكَ الله عزّ وجل عِبَراً في الطفل الصغير، يسقط من بطن أُمه، وما له على الأرض مال، وما من مال إلاّ ودونه يدٌ شحيحة

تحويه، فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى يعظم رغبة الناس فيه، ولست بالذي يعطي بل الله يعطي مَن يشاء، وإن قلت: أَجمع المال لِيشُدَّ سُلْطَاني فقد أَراك الله عزّ وجل عِبَراً فيمن كان قبلك ما أَغْنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة، وما أَعدُّوا من السلاح والكراع، وما ضَرَّكَ وولد أَبيك ما كنتم فيه من الضعف، حين أَراد الله عزّ وجل بكم ما أَراد، وإنْ قلت: أَجمع المال لطلب غاية هي أَجسم من الغاية التي أَنت فيها، فوالله ما فوق ما أَنت فيه إِلاَّ منزلة لا تُدْرَكْ إِلاَّ بالعمل الصالح يا أَمير المؤمنين: هل يُعَاقَبُ مَن عصاك من رعيتك بأَشد من القتل؟ قال: لا، قال: فكيف يصنع بالملك؟ خَوَّلكَ ما أَنت فيه من تلك الدنيا، وهو لا يعاقب مَن عصاه بالقتل، ولكن يعاقب مَن عصاه بالخلود في العذاب الأَليم، وهو الذي يرى منك ما عقد قلبك، وأَضمرته جوارحك، فماذا تقول إِذا انتزع ملك الدنيا من يدك ودعاك إِلى الحساب؟ فهل يغني عنك ما كنت فيه شيئاً؟ فبكى المنصور بكاءً شديداً حتى ارتفع صوته ثم قال: يا ليتني لم أُخْلَقْ ولم أَكُ شيئاً، ثم قال: كيف احتيالي فيما خولت ولم أَرَ من الناس إِلاَّ خائِناً، قال: يا أَمير المؤمنين عليك بالأَئِمَّة الأَعلام الراشدين، قال: ومَن هم؟ قال: العلماء، قال: قد فَرُّوا مني، قال: هربوا منك مخافة أَن تحملهم على ما ظهر من طريقتك، ولكن افتح الباب، وسهِّل الحجاب، وانتظر المظلوم وامنع الظالم، وخذ الشيء مما حلّ وطاب، واقسمه بالعدل، وأَنا ضامن عمن هرب منك أَن يأتيك فيعاونك على صلاح أَمرك ورعيتك، فقال المنصور: اللَّهم وفقني أَن أَعمل بما قال هذا الرجل. وجاء المؤذِّنون فسلّموا عليه، وأُقيمت الصلاة فخرج فصلَّى بهم، ثم قال للحرسِيِّ: عليَّ بالرجل، إِنْ لم تَأْتِني به لأَضْرِبَنَّ عنقك، واغتاظ غيظاً شديداً، فخرج الحرسِيُّ يطلب الرجل فبينما هو يطوف إِذ هو بالرجل قائم يصلي فقعد حتى صَلَّى، ثم قال: يا ذا الراجل أَما تَتَّقي الله فيَّ؟ قال: أَما تعرفه؟ قال: بَلَى، قال: فانطلق معي فقد أَقسم إِلا أَن يقتلني إِنْ لم آتِهِ بِكَ، قال: ليس إِلى ذلك سبيل، قال: يقتلني، قال: ولا يقتلك. قال: كيف؟ قال: أَتحسن تقرأُ؟ قال: لا. وأَخرج من مِزْوَد كان معه رِقًّا فيه شيء مكتوب قال: خذه فاجعله في جيبك، فإِن فيه دعاءَ الفرج، قال: وما دعاء الفرج؟ قال: لا يرزقه إِلا السعداء، قال: رحمك الله قد أَحسنت إِليَّ، فإِن رأَيت أَنْ تخبرني ما هذا الدعاء وما فضله، قال: مَن دعا به صباحاً ومساءً هُدِمتْ ذنوبه، ودام سروره، ومُحيت خطاياه، واستجيب دعاؤه وبسط له في رزقه، وأُعطي أَمله، وأُعين على عدوه، وكُتب عند الله صدِّيقاً، ولا يموت إِلا شهيداً، يقول: اللَّهم كما لطفتَ في عظمتك دون اللطفاء، وعلوت بعظمتك على

العظماء، وعلمت ما تحت أَرضك كما علمت ما فوق عرشك، وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك، وعلانية القول كالسر في علمك، وانقاد كلُّ شيء لعظمتك، وصقع كل ذي سلطان لسلطانك، وصار أَمر الدنيا والآخرة كله بيدك، اجعل لي من كل هَمٍّ أمسيتُ فيه فرجاً ومخرجاً، اللَّهم إن عفوك عن ذنوبي وتجاوزك عن خطيئتي وسترك على قبيح عملي، أَطمعني أن أَسأَلك ما لا أستوجبه منك، فصرت أَدعوك آمِناً، وأَسأَلك مستأْنساً، وإنك لمحسن إلي وإني لمسيء إلى نفسي، فيما بيني وبينك، تتودد إليَّ وأَتبغض إليك، ولكن الثقة بك حملتني على الجرأَة عليك، فَعُدْ بفضلك وإحسانك إليَّ، إنك أَنت التوّاب الرحيم. قال: فأَخذته فصيَّرته في جيبي، ثم لم يكن لي هَمٌّ غير أَمير المؤمنين، فدخلت فسلمت عليه فرفع رأْسه ينظر إليَّ وتَبَسَّم، وقال: ويلك وتُحْسِنُ السحر؟ فقلت: لا والله يا أَمير المؤمنين، ثم قصصت عليه أَمري مع الشيخ، ثم قال: هات الرَّقّ، ثم جعل يبكي وقال: إنك نجوت، وأَمر بنسخه، وأَعطاني عشرة آلاف درهم، ثم قال: أَتعرفه؟ قلت: لا، قال: ذاك الخضر عليه السلام.

وفي حجته الأَخيرة عزم على الحج، فحين خرج إلى مكة بعث الخشَّابِيْن لقتل سفيان الثوريِّ فلما دخلوها نصبوا الخشب، ونودي: يا سفيان، فإذا رأْسه في حِجْر فُضَيْل بن عياض، ورجلاه في حِجْرِ سفيان بن عُيَيْنَةَ، وقالوا له: يا أَبا عبد الله! اتَّقِ الله، ولا تشمت بنا الأَعداء، فتقدّم إلى أَستار الكعبة ثم أَخذها وقال: بَرِئْتُ مِنْك إنْ دخلها أَبو جعفر!! فاستجاب الله له، ولم يدخلها وذلك أَنه لما قرب أَبو جعفر المنصور من مكة أَرسل إليه عاملُها محمد بن إبراهيم رسولاً بهدايا، فلما أَخبر المنصور بها أَمر بدوابِّه فَضُرِبتْ وجوهها، وعزله، وولّي ابنَ أَخيه إبراهيم بن يحيى بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وهو صَبيٌّ أَمرد، فكان محمد يسير ناحية، وعدل بأَبي جعفر عن الطريق في الشِّقِّ الأَيْسر وأُنِيْخ به، ومحمد واقف قبالته، ومعه طبيب له، ومضى نحو مناخ أَبي جعفر، فرأَى نَجْوَهُ، فقال لمحمد: رأَيت نَجْو رجل لا تطول به الحياة، فمات أَبو جعفر المنصور عند بِئْرِ مَيْمُونِ الحضرميِّ، ظاهر مكة، في سَحَر سابع ذي الحجة، واستخلف ابنَهُ المهديَّ، ولم يحضر عند وفاته إلاَّ خَدَمه، والربيع مولاه، وكَتم موته، ومنع من البكاء عليه، ثم أَصبح فحضر أَهلُ بيته كما كانوا يحضرون فكان أَول مَن دعا عيسى بن علي ثم ابن أَخيه عيسى بن موسى ثم أَذن للأَكابر وذوي الأَسنان منهم، ثم لعامتهم، وخرج أَبو العنبر خادمه وشقَّ أَقْبِيَته، وَحَثَا عَلَى رأْسه التراب، وصاح: واأَمير المؤمنيناه!! فما

بقي أَحد إِلاَّ قام، ثم تقدّموا ليدخلوا عليه، فمنعهم الخدم، وقيل: إِنَّ الربيع كتم موته وأَلبسه وأَسنده، وجعل على وجهه حُلَّةً رقيقةً يرى شخصه منها ولا يفهم أَمره، وأَدنى أَهله منه، ثم قرب منه الربيع كأَنه يخاطبه، ورجع إِليهم باكياً مشقوق الجيب لاطِماً رأْسه، واشتغلوا بتجهيزه، وفرغوا منه وقت العصر، وكُفِّنَ وغُطِّيَ وجهه وبدنه وجعل رأسه مكشوفاً لأَجل إِحْرامِه، وحُمِلَ إِلى مكة، وصَلَّى عليه ابن أَخيه إِبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وقيل: عيسى بن موسى، ودُفِنَ في مقبرة المعلاة، وقيل: بين الْحُجُون وبئر ميمون، وحفروا له مئة قبرٍ، لِيُعَمُّوا على الناس قبره، ودُفِن في غيرها ثم وَجَّهَ موسى بن المهدي والربيع إِلى المهدي بخبر وفاة المنصور، وبالبيعة له، مع منارة (؟) ابن الزبير (البربري) مولى المنصور، وبعثا معه أَبا العباس الطوسيَّ، ومعه خاتم الخلافة، وبعثَا أَيضاً بعده مع الحسن الشروي بقضيب النبي ﷺ، وبُرْدتِهِ، وخرجوا من مكة فقدم الخبر على المهدي مع منارة يوم الثلاثاء منتصف ذي الحجة فبايعه أَهل بغداد. وقال العلامة المقريزي في كتابه المسمى بـ«الذهب المسبوك» أَنه لما كان سنة ثمان وخمسين ومئة سار من بغداد إِلى مكة للحج، واستلخف ابنه محمد المهدي، ووصاه وصية بالغة بليغة جدًا، وودّعه وبكى، وأَعلمه أَنه ميت في سفره هذا، فكانت وفاته في بئر ميمون، خارج مكة، لستٍّ خلونَ من ذي الحجة، واتَّفق أَنه لما نزل آخر منزل بطريق مكة نظر في صدر البيت فإِذا فيه بعد البسملة:

أَبَا جَعْفَرٍ حَانَتْ وَفَاتُكَ وانْقَضَتْ ... سِنُوكَ وأَمْرُ اللّهِ لاَ بُدَّ وَاقِعُ

أَبَا جَعْفرٍ هَلْ كَاهِنٌ أَوْ مُنَجِّمٌ ... لَكَ الْيَوْمَ مِنْ جدّ المنية مَانِعُ

فأَحضر متولي المنازل وقال له: أَلم آمرك أَن لا يدخل المنازل أَحد من الناس؟ وكانت الخلفاء يبنى لهم في كل منزلة ينزلونها دارٌ، ويُعَدّ لهم فيها سائر ما يحتاج إِليه من الستور والفرش والأَواني وغير ذلك، فقال: والله ما دخله أَحد منذ فرغ فقال: اقرأ ما في صدر البيت، فقال: ما أَرى شيئاً. فأَحضر غيره فلم يَرَ شيئاً فقال: يا ربيع قِفْ بيني وبين الحائط، فقام الربيع بينه وبين الجدار، فرأَى البيتين كما كان يراهما قبل وقوف الربيع، فعلم أَنه قد نُعِيتْ إِليه نفسه فقال: يا ربيع اقرأْ آية من كتاب الله، فقرأَ: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] فرحل من المنزل وقد تطيَّر فسقط عن دابته فَانْدَقَّ عُنُقُه.

وقيل: بل مات من مرضه، ودُفِن ببئر ميمون. انتهى كلامه.

قلت: وكان المنصور يوصف بالبخل المفرط، ومن ذلك ما ذكره سبطُ بن الجوزي في «المرآة» قال: حُكِيَ عن خالد بن الصلت قال: ولاَّنِي أَبو جعفر المنصور عند بنائه بغداد على رُبْعٍ من أرباع المدينة، ففرغت منه، ورفعت إِليه حساب النفقة، وهو يحسب بيده، فبقيَ منها خمس عشرة درهماً، فحبسني أياماً حتى أدَّيتُها إِليه. قال: ودخل يوماً فطاف في قصر فأَعجبه مكانٌ فيه، فأَراد أَن يعلم ما أُنفق عليه، فقال للمسيب: أَحْضر لي بَنَّاءَ فارهاً، فأَحضره فقال له: كَمْ غُرم على هذا القصر؟ فلم يردَّ عليه شيئاً مخافة المسيب لأَنه تولى بناءه. فقال: تكلم، فلم يُحرْ جواباً، فأَخذ بيده وأدخله الحجرةَ التي استحسنها. وقال له: ابن لي بإزاء هذا المجلس طاقاً فبناهُ في يومين. فقال للمسيب: لا أَرْضَى بهذا فنقصه دزهماً، ثم أخذ المسيب والأُمناء والبنّائين بحساب الطاق الذي بناه ذلك الرجل، ونظروا في بناء القصر، فخرج على المسيب ستة آلاف درهم فأَخذه بها، فما خرج من القصر حتى حملها، وحكى ابن حمدون في «تذكرته» أَنَّ أبا جعفر المنصور في بعض حجّاته حدَا به سالم الحادي في طريقه بقول الشاعر:

أَبْـلَـجَ بَـيْـنَ حَـاجِـبَـيْـه نُـوره إذا تَـبَـدَّى رفَـعَـتْ سـتـورهُ
يَـزِيْـنُـهُ حَـيَـاؤهُ وخَـيْـرُهُ وَمِـسْـكُـهُ يَـشُـوبُـه كَـافُـورُهُ

فطرب أبو جعفر المنصور حتى ضرب برِجله المحمل، ثم قال: يا ربيْع أَعْطه نصفَ درهم!! فقال سالم: لا غير يا أمير المؤمنين!!، والله لقد حَدَوْت لهشام بن عبد الملك فأَمر لي بثلاثين ألف درهم. فقال له المنصور: ما كان له أن يعطيَك من بيت مال المسلمين ما ذكرت، يا ربيْع وكِّل به مَن يستخرج هذا المال منه. قال الربيع: فما زلت أسفر بينهما حتى شرط عليه أن يحدو به في قفوله وخروجه بغير مُؤنة، وكان سالم هذا تورد له الإِبل بعد الثمان والتسع والعشر، فَيَحْدُو لها فيلهيها حَدْوُهُ عن ورد الماء.

قلت: إِن صحّ ما نقله ابن حمدون كان ذلك من غرائب المنقول عن البخل والبخلاء، لكن قد تقدّم صدقاته وعطاياه في أول حجّاته، وهو خليفة، وتفرقته على الأَشراف القرشيين بأَلف دينار لكل نفر، ولعل الإِمساك عرض له بعد ذلك، كما يطرأ ذلك في كثير من الناس، فأَيْنَ هذه الحكاية مما رأيته منقولاً في «التذكرة الصفدية» بخطه عن أبي الْمُحَلِّم عوف بن مُحَلِّم الشيباني، قال: كانت لي وفادةٌ على عبد الله بن طاهر، إِلى خراسان، فصادفته يريد المسير إِلى الحج، فعادلته في العمَّارية

من مَرْو إلى الرَّيِّ، فلما قاربنا الريَّ سمع عبد الله بن طاهر وَرَشَاناً في بعض الأَغصان يصيح، فأَنشأ عبد الله يقول متمثلاً شعراً:

أَلاَ يَا حَمَامَ ٱلأَيْك إِلْفُكَ حَاضِرٌ ... وغصنك مَيَّاد فَفِيْمَ تَنوْحُ؟
أَفِقْ لاَ تَنحْ مِنْ غَيْر شَيْءٍ فإِنَّنِي ... بَكَيْت زَمَاناً وَالْفؤَادُ صَحِيْحُ
وُلوعاً فَشَطَّتْ غرْبَةً دَارُ زَيْنَبٍ ... فَهَا أَنا أَبْكي وَالْفؤَادُ قَرِيْحُ

ثم قال: يا عوف أَجز هذا، فقلت في الحال:

أَفِي كلِّ عَامٍ غُرْبَةٌ وَنُزُوْحُ ... أَمَا لِلنَّوَى مِنْ وَنْيَةٍ فَيُرِيْحُ
لَقَدْ طلَّحَ الْبَيْنَ الْمُشِتُّ رَكَائِبِي ... فَهَلْ أرين الْبَيْن وَهْوَ طلِيْحُ
وَأَرَّقَنِي بِالرَّيِّ نوْحُ حَمَامَةٍ ... فنُحْتُ وذُو الشَّجْوِ الْقدِيْم يَنُوحُ
عَلَى أَنَّها ناحَتْ وَلَمْ تُذْرِ دَمْعَةً ... وَنُحْتُ وأَسْرَابُ الدُّمُوعِ سُفُوحُ
وَنَاحَتْ وَفَرْخَاهَا بحَيْثُ تَرَاهُمَا ... وَمِنْ دُوْنِ أَفْرَاخِي مَهَامِهُ فِيْحُ
عَسَى جُودُ عَبدِ اللّهَ أَنْ يَعْكِسَ النَّوَى ... فَتُضْحِي عصَا ٱلأَسْفَارِ وَهْي طَرِيْحُ

قال: فأَخرجَ رأسه من الْعَمَّارية، وقال: يا سائِقُ أَلْقِ الزِّمَامَ فأَلقاه فوقف ووقف الحاج، ثم دعا صاحب بيت ماله فقال له: كَمْ يضم ملكنا في هذا الوقت؟ فقال: ستين ألف دينار. فقال: ادفعها إلى عوف، ثم قال: يا عوف لقد أَلْقَيْتَ عصا تطوافك فارجع من حيث جئت. قال: فأَقبل خاصة عبد الله عليه يلومونه ويقولون: أتجيز أيها الأَمير شاعراً في مثل هذا الموضع بستين ألف دينار، ولا تملك سواها؟ فقال: إليكم عنِّي، فإِني استحييت، فليس من الكرم أَن يسير جملي، وعوف يقول: عَسَى جود عبد الله، وفي ملكي شيء لا ينفرد به، ورجع عوف إلى وطنه فسئل عن حاله فقال: رجعت من عند عبد الله بالغنى، والراحة من النَّوَى.

المهدي أبو عبد الله، محمد بن أبي جعفر المنصور، عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي العباسي: حجّ سنة ستين ومئة واستصحب معه ابنه هارون الرشيد، وجماعة من أهل بيته، وكان ممن صحب معه يعقوب بن داود، على منزلته التي كانت عنده، فأَتاه حين وافَى مكة بالحسن بن إبراهيم بن عبد الله الذي استأْمَنَ له يعقوب، فأَحسن المهديُّ جائزته، وأعطاه مالاً من الصوافي، وحمل له الأَمير محمد بن سليمان الثَّلْجَ حتى وافَى به مكة، وهذَا شيءٌ لم يَتِمَّ لأَحد قبله، فنزل المهديُّ دار الندوة وجاء عبد الله بن عثمان بن إبراهيم الْحَجَبيُّ بالمقام مقام إبراهيم في ساعة خالية نصف النهار، مشتمل عليه، فقال للحاجب: ائذن لي على

أمير المؤمنين، فإنَّ معي شيئاً لم يدخل به على أَحدٍ قبله، وهو يَسُرُّ أمير المؤمنين، فأدخله عليه، فكشف عن المقام فَسُرَّ بذلك، وتمسّح به، وسكب فيه ماءً ثم شربه، وقال له: اخرج، وأرسل إلى بعض أهله فشربوا منه، وتمسّحوا به، ثم أُدْخِل واحتمله ورُدَّ مكانه، وأمر له بجوائز عظيمة، وأقطعه خيفاً بنخلة، يقال له ذات الْقويع فباعه من مُنيرة مولاة المهديِّ، بعد ذلك بسبعة آلاف دينار، وذكر حجبة الكعبة للمهديِّ أنه اجتمع على الكعبة كسوة كبيرة، حتى إنها قد أثقلها، ويخاف على جدرانِها أن تنهدم من ثقل الكسوة، فأمر أَن يُنزع ما عليها من الكسوة فنُزع حتى بقيت مجردةً، ثم لما بلغوا إلى كسوة هشام وجدوها من الديباج الثَّخِين، ووجدوا كسوةَ مَن كان قبله عامته من متاع اليمن. ثم طلا جُدْرَانَها من داخلها وخارجها بالغالية والمسك والعنبر، وصعدوا على ظهر الكعبة بقوارير الغالية، فجعلوا يفرغونها على جدران الكعبة من خارج جوانبها كلها، وعبيد الكعبة قد انخرطوا في البكار التي تخاط عليها ثياب الكعبة، يطلون بالغالية جدرانَها من أسفلها إلى أعلاها من جوانبها كلها. ثم أفرغ عليها ثلاث كساء من قَبَاطِيٍّ وخَزٍّ ودِيبَاج، والمهدي قاعد على ظهر المسجد مما يلي دار الندوة ينظر إليها، وهي تطْلى بالغالية، وحين كسيت، ويقال: إنه لم يخفف عليها من كسوتها شيْءٌ حتى كان سنة مئتين كما سيأتي، وقسم المهدي في الحرمين أموالاً عظيمة إلى الغاية يقال: إنها ثلاثون أَلْفَ ألفِ درهم، وصل بها من العراق، وثلاث مئة ألف دينار، وصلت إليه من مصر، ومئتا ألف دينار وصلت إليه من اليمن، ومئة ألف ثوب وخمسين ألف ثوب، وأمر أن يزاد في أعلى المسجد، ويشتري ما كان في ذلك الموضع من الدور، وخلف الأَموال، وأمر بذلك قاضي مكة الأَوقص محمد بن عبد الرحمٰن بن هشام بن يحيى بن هشام بن العاص المخزومي، ففعل ذلك في السنة التي بعدها.

قال مالك بن أنس الفقيه: لما حجّ المهديُّ دخلت عليه فقال: يا مالك ألك دار؟ قلت: لا وأُحَدِّثك حديثاً حدّثناه ربيعة بن عبد الرحمٰن أنَّ نسب الرجل داره، فأمر لي بثلاثة آلاف دينار، وروى الخطيب أن المهديَّ لما حجّ دخل المدينة فدخل عليه جماعة، فقال: أنشدوني فأنشده عبد العزيز الماجشون:

وَلِلنَّاسِ بَدْرٌ فِي السَّمَاءِ يَرَوْنَه ... وَأَنْتَ لَنَا بَدْرٌ عَلَى ٱلأَرْضِ مُقْمِرُ

ومَا الْبَدْرُ إلاَّ دُوْنَ وَجْهِكَ فِي ٱلَّذِي ... يَغِيْبُ فَيَبْدو حِيْنَ غَابَ فَيُقْمِرُ

فأَعطاه خمسة آلاف دينار، وقيل: عشرة آلاف دينار، وقال الخرائطيُّ: حدثنا

أبو سهل النحويُّ قال: حجّ المهديُّ فنزل زبَالَةَ، فجلس يتغدّى فجاء شابٌّ فجعل يصيح: أنا عاشق. فأَمر بإِدخاله. فدخل فقال: اذن فَكُلْ، فجلس يأْكل مع المهديِّ، فقال له: مَن عشيقتك؟ قال: بنت عمّي، قال: أولَها أَبٌ؟ قال: نعم، قال: فما له لا يزوجك؟ فقال الأَعْرَابِيُّ: أَدْنِ مني أذنك، فأَدناها إِليه فقال: إِني هَجِيْنٌ، قال: وإِذا كنت هجين؟ قال: هو عندنا عَيْب، فأَرسل المهديُّ إِلى أَبيها فجاء فقال: اقعد فكُلْ. فقعد فأَكل فقال: لِمَ لا تُزَوِّجِ ابْنَتَكَ بِابْنِ أخيك؟ قال: يا أمير المؤمنين إِنّه هجين، وكان عنده على المائدة من بني العباس جماعة، فقال: هؤلاء كلهم من بني العباس، وهم هُجَناء، وما ضرَّهُم ذلك، ثم زوجه المهديُّ على عشرين ألفاً، وقال: عشرة آلاف مَهْرٌ، وعشرة آلاف للعيب، والهجين الذي أبوه عربي وأمه غير عربية، ذكر ذلك صاحب «مرآة الزمان» في ترجمة المهدي، وروى عبد الله بن مرزوق قال: حكى يحيى بن أيوب قال: قدم المهديُّ حاجًّا فلما أخذ في الطواف نُحِّيَ الناسُ عن البيت، فوثب عبد الله فلبَّبَ المهدي بردائه ثم هَزَّهُ، وقال: مَنْ جعلك أحقَّ بهذا البيت مِمَّنْ أَتاه من بعيد حتى إِذا صار عنده حُلْتَ بينه وبينه؟! فقال: مَن هذا؟ فقال: أنا ابن مرزوق، وكان مولى من مواليهم، فكره أن يعاقبه عقوبة يشنع بها عليه العامة فأَخذه معه إِلى بغداد، وحبسه في إِصطبل الدواب، مع فرس شموس ليدوسه فيقتله، فذلّل الله له الفرس وكان يَمُدُّ عُنُقَهُ بين يديه، وأُخْبِرَ المهديُّ فحبسه في بيت مظلم، وأخذ المفتاح فخبأَه تحت رأسه. فقيل له: إِنه في البستان يأْكل البقل. فأَحضره، وقال: مَن أطلعك؟ فقال: الذي حبسني، فأطلقه فعاد إِلى مكة.

الهادي موسى بن المهدي أمير المؤمنين محمد بن أبي جعفر المنصور العباسي الهاشمي: حجّ قبل أن يولى الخلافة في زمن أخيه سنة إِحدى وستين ومئة.

هارون الرشيد بن المهدي محمد بن المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي العباسي، عين الخلفاء العباسيين وواسطة عِقْدِهم، وقُطب دائرتهم، حجّ حجّته الأُولى وهو خليفة، في سنة سبعين ومئة، وفرّق بالحرمين مالاً كثيراً، وكان حجُّه ماشياً يمشي على اللبود، وكانت تُبسط له من منزل إِلى منزل، ويقال: إِن الحجة التي مشى فيها سنة سبع وسبعين ومئة، وفي بعض حجات الرشيد لما دخل المسعَى أُخْلِيَ له فجاء رجل إِلى أبي عبد الرحمٰن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب العمري، فقال: يا أبا عبد الرحمٰن هذا أمير المؤمنين يَسْعى، وقد أُخْلي له الْمَسْعى. فقال العمريُّ للرجل: لا جزاك الله عني خيراً، كلفتني أمْراً كنت عنه غنِيًّا، ثم تعلق نعليه، وقام، فأَقبل هارون من المروة

فصاح به: يا هارون!! فلما نظر إليه قال: لبيك يا عم! قال: ارقَ الصفا، فلما رقيهُ قال: ارم بطرفك إلى البيت، قال: قد فعلت، قال: كم هُمْ - يعني الحجاج -؟ قال: ومَن يحصيهم؟ قال: فكم في الناس مثلهم؟ قال: خلق لا يحصيهم إلا الله. قال: اعلم أيها الرجل أنَّ كل واحد منهم يُسْأَلُ عن خاصَّة نفسه، وأنْتَ وحدك تُسأَل عنهم كلهم، فانظر كيف تكون! قال: فبكى هارون، وجلس وجعلوا يعطونه منديلاً للدموع. قال العمريُّ: وأخرى أقولها لك! قال: قل يا عم. قال: والله إنَّ الرجل ليسرف في ماله فيستحق الْحَجْرَ عليه، فكيف من إسرافه في مال المسلمين؟ قال: ثم مضى، وهارون يبكي، وفي رواية أنه لقيه في المسعى فأَخذ بلجام دابته فأهوت إليه الأَجناد، فكفَّهم عنه الرشيد، فكلمه فإذا بدموع الرشيد تسيل على مِعْرَفَةِ دابَّتِهِ، ثم انصرف، وأنه لقيه مرة أخرى في بعض حجّاته فقال: يا هارون فعلت وفعلت؟ فجعل يسمع منه، ويقول: مقبول منك يا عَم على الرأس والعين، فقال له: يا أمير المؤمنين من حال الناس كيت وكيت. فقال: عن غير علمي وأَمْري. وفي بعض حجّات هارون الرشيد قال له الْعُمَرِيُّ: يا أمير المؤمنين إني أريد أن أكلمك بكلام غليظ احتمله للّه عزّ وجل. فقال: سأفعل والله، ثم قال: والله لقد بعث الله مَن هو خير منك إلى مَن هو شرٌّ مني. وقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤].

وفي بعض حجّات الرشيد دخل الكعبة فرآه بعض الحجبة وهو واقف على أصابعه وهو يقول: يا مَن يَمْلِك حوائج السائلين، ويعلم ضمير الصامتين، فإن لكل مسلم منك ردًا حاضراً وجواباً، ولكل صامت منك علم محيط ناطق بمواعيدك الصادقة، وأياديك الفاضلة، ورحمتك الواسعة، وصَلِّ على محمد وعلى آل محمد، واغفر لنا ذنوبنا، وكفِّر عنا سيئاتنا، يا مَن لا تضره الذنوب، ولا تخفى عليه العيوب، ولا تنقصه مغفرة الخطايا، يا مَن كبس الأَرض على الماء، واختار لنفسه أحسن الأَسماء، صلِّ على محمد وعلى آل محمد، وخِرْ لِي في جميع أموري، يا مَن خشعت له الأَصوات بأَنواع اللغات، يسأَلونه الحاجات، إنَّ مِنْ حاجتي إليك أن تغفر لي ذنوبي إذا توفيتني، وصرت في لَحْدِي، وتفرقَ عني أهلي وولدي، اللهم لك الحمد حمداً يفضل على كل حمد، كفضلك على جميع الخلق، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد صلاة تكون لك رضاً، وصلِّ عليه صلاة تكون لي ذكراً وأجراً عند الجزاء الأَوْفَى، اللهم أَحْيِنَا سُعَدَاءَ، وتوفَّنا شهداءَ، واجعلنا سعداء مرزوقين، ولا تجعلنا أشقياء محرومين.

وحجّ في سنة ثلاث وسبعين فأَحرم من بغداد، واعتمر في شهر رمضان سنة

تسع وسبعين، فأقام بمكة وقت الحج، وفرّق في الحرمين أموالاً كثيرة، وحجَّ بالناس، ومشى من مكة إلى مِنَى إلى عرفات، وشهد المشاهد كلها ماشياً.

وحجّ سنة ست وثمانين، ومعه أولاده والفقهاء والقوّاد، وأنفق بمكة نفقات عظيمة بلغ عطاؤه أَلْفَ أَلْفِ دينار وخمسين أَلْف دينار، وفيه يقول دادو بن رزين الواسطيُّ:

بِـهَـارُونَ لاَحَ الـنُّـورُ فِـي كُـلِّ بَـلْـدَةٍ ... وَقَـامَ بِـهَـا فِـي عَـدْلِ سِـيْـرَتِـهِ الـنَّـهْـجُ

إِمَـامٌ بِـذَاتِ الـلّـهِ أَصْـبَـحَ شُـغْـلُـهُ ... وأَكْـثَـرُ مَـا يُـعْـنَـى بِـهِ الْـغَـزْوُ، والْـحَـجُّ

وَإِنَّ أَمِـيْـنَ الـلّـهِ هَـارُونَ ذَا الـنَّـدَى ... يُـنِـيْـلُ الَّـذي يَـرْجُـوه أَضْـعَـافَ مَـا يَـرْجُـو

وفي هذه الحجة عزل صهره محمد بن عبد الله العثمانيَّ عن صلاة مكة، وولي مكانه سليمان بن جعفر بن سليمان، فلما كان قبل التروية بيوم بعد الصبح صعد المنبر، فخطب خطبة الحج ثم فُتِح له بابُ البيت فدخله وحدهُ ليس معه غيره، وقام سرور على الباب، وأُجِيف أَحَد المصراعين، فمكث فيه طويلاً في جوف الكعبة، ثم دعَا بولده محمد الأَمين، ولي العهد فكلّمه طويلاً ثم دعَا بولده المأْمون عبد الله، ففعل به مثل ذلك، ثم دعا بجماعة من أقاربه، وأهل دولته منهم يحيى بن خالد وولده جعفر. ثم كتب وَلِيّا العهد كُلُّ واحد على نفسه كتاباً لأَمير المؤمنين، فيما أخذ على كل واحد منهما لصاحبه، ويؤكد فيه عليهما بخط يده، وحضرت صلاة الظهر قبل فراغهم، فنزل أمير المؤمنين فصلّى بهم الظهر، ثم عَلاَ الكعبة فكان فيها إلى أن فرغوا من الكتابين، ثم أمر أمير المؤمنين أن يعلقا في جوف الكعبة قبالة بابها.

وذكر التقي المقريزي في «الذهب المسبوك» فقال: كان يغزو سنة، ويحج سنة، فحجّ إحدى عشرة، وقيل تسع حجج، ولا يعلم من ملوك الدنيا ملك حجّ ماشِياً سوى مَلِكَين: هرقل بن هرقل بن أنتونيش من أهل صلوقيا، حجّ من حمص إلى إيليا التي هي بيت المقدس ماشياً، ووافاه كتاب رسول الله ﷺ في سفرته هذه يدعوه إلى الإِسلام كما وقع في «الصحيحين» وغيرهما، والثاني هارون الرشيد.

قال سبط بن الجوزي في «المرآة»: واختلفوا في سبب مَشْيه فقال الهيثم: رأى رسول الله ﷺ في المنام فقال: يا هارون إِن هذا الأَمر صائر إِليك فحج ماشياً، ووسع على أهل الحرمين فأَنفق فيهم أموالاً لا ينفقها خليفة، وقال أبو اليقظان: كان الهادي قد حَلَّفَه لابنه جعفر بن الهادي أيماناً مغلظة من الطلاق والعتاق، والحج إلى بيت الله ماشياً فسأَل الفقهاء فقالوا: أما الأَيمان فتكفَّرُ، والمشي إلى بيت الله ليس له

كفارة. قال سبط بن الجوزي: قلت: والعجب من تعذيب الرشيد نفسه بالمشي، وما كان يلزمه فإن محمداً رحمه الله قال في «الجامع الصغير» رجل قال: عَلَيَّ المشيُ إلى الكعبة أو إلى بيت الله ماشياً فعليه حجة أو عمرة ماشِياً، وإن شاء ركب وأهرق دماً[١]، وهذا استحسان، والقياس أن لا يلزمه شَيْءٌ لأَنَّ المشيَ ليس بقربه مقصودة، فصار كمن لو قال: عليَّ أن أمشي إلى البيت المقدّس ونحوه، وإنما استحسنوا لأنه روي عن علي عليه السلام أنه خيّره بين الركوب، وذبح الشاة. وفي حديث عقبة بن عامر الجهني أنه قال: يا رسول الله إن أُختي نذرت أن تَحُجَّ ماشية، فقال: «إن الله غنيٌّ عن تعذيب أختك، مُرْهَا فلتركب ولْتُهدِ شاةً»[٢] انتهى كلامه[٣]. قال المقريزي: وكان يطوف بين المغرب والعشاء ثلاثة عشر أسبوعاً، ولا يطيق ذلك أحدٌ ممَّن كان معه، وكان إذا سعى شَمَّر إزاره، وجعل له ذنبين، وكان يفتن مَن رآه.

قلت: وفي قول المقريزي نقْلاً عن سبط بن الجوزي، كما ذكره في «المرآة»: لم يحج أحد من الملوك ماشياً إلا اثنين نظر، وقد قدّمنا في كتابنا هذا مَن حجّ من ملوك الإسلام ماشياً غير الرشيد كابن الزبير وغيره من الملوك، فدعواه الحصر لا وجه لها، اللهم إلا أن يكون قصد بقوله: لم يحج أحد من الملوك ماشياً من بلده فيحتمل، وفيه نظر أيضاً قال: وحجّ الرشيد في سنة ثمان وثمانين راجلاً، وقسم أموالاً كثيرة، وهي آخر حجة حجّها، وكان إذا حجّ حجّ معه من الفقهاء وأبنائهم مئة، فإذا لم يحج، أَحَجَّ ثلاث مئة رجل بالنفقة السابقة، والكسوة الظاهرة، ولم يُرَ خليفة قبله أكثر عطاء منه، ويقال: لو قيل للدنيا متى أيام شبابك؟ لقالت: أيام هارون الرشيد.

عبد الله أمير المؤمنين المأْمون بن هارون الرشيد الهاشمي العباسي: حجّ سنة اثنتي عشرة ومئتين وهو خليفة، كذا قال الذهبي في «العبر» وقال سبط بن الجوزي في «المرآة»: إنه لم يحج بعده خليفة أبداً، وليس كذلك بدليل ذكرنا في هذا المؤلف مَن حجّ بعده من الخلفاءِ، ولعله لم يطلع على حجة المأمون، ولم يطلع على حجة الخليفة المنتصر بالله، وأما الحاكم فحجّ بعد وفاته.

---

(١) انظر: الفتاوى الهندية [١/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣].

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده [١/ ٣١٤] ح [٢١٣٩]، والبيهقي في الكبرى [١٠/ ١٣٦] ح [٢٠١١٤]، والطبراني في الكبير [١١/ ٣٠٩] وعزاه الحافظ الزيلعي لأبي يعلى في مسنده. انظر: نصب الراية [٣/ ٣٠٥].

(٣) الذي وجدته في الجامع الصغير لمحمد بن الحسن الشيباني قوله: رجل جعل لله عليه أن يحج ماشياً فإنه لا يركب حتى يطوف للزيارة. انظر: الجامع الصغير [ص١٦٨].

الخليفة المنتصر بالله محمد بن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم محمد بن الرشيد هارون العباسي، حجّ سنة ست وثلاثين ومئتين، وحجّت معه جدته شجاع أُمُّ المتوكل على الله جعفر، ذكر ذلك العلامة ابن فهد القرشي في تاريخه.

الحاكم بأَمر الله: أبو العباس أحمد بن محمد بن الحسن بن أبي بكر بن أبي علي القبي (؟) بن الحسن الخليفة الراشد بالله، على خلاف في نسبه، ثاني خلفاء بني العباس بديار مصر، حجّ في سنة تسع وتسعين وست مئة، والسلطان يومئذ الملك المنصور لاجين، ولما قدم مكة أراد من الشريف أبي نُمَيٍّ أمير مكة أن يدعو له على منبر مكة، فامتنع من ذلك، وجرت بينهما مفاوضة تَرَفَّع عليه فيها أبو نُمَي مفاخراً بنسبه الشريف، ومن جملة قول أبي نمي: مَن أنت، ومَن أبوك أما تستحي إِذْ ذكرت نسبك مع نسبي ثم انتسب حتى بلغ علي بن أبي طالب، فسكت ولم يحر جواباً. قال صاحبنا العلامة المرحوم جار الله بن فهد في تاريخه: وهو ثاني خليفة عباسيٍّ بويع بعد المعتصم، وأول خليفة عباسي سكن مصر، وأول خليفة عباسي حجّ منها، وأعطاه صاحبها المنصور لاجين سبع مئة ألف درهم، وحجّ معه عياله، وأمير العرب مُهنّاً بن عيسى بن مُهَنَّا، وشكرت سيرته فإنه تصدّق بشيء كثير، وأطعم العيش للناس كافة، وحمل المنقطعين، وترجم له المقريزي في كتابه «الْمُقَفَّى» ترجمة كبيرة فقال في نسبه: أحمد بن الحسن بن أبي بكر ابن الأَمير أبي الحسن علي القبي ابن الإِمام أمير المؤمنين الراشد بالله أبي جعفر منصور بن المسترشد بالله أبي منصور الفضل بن أحمد المستظهر بالله أبي العباس بن المقتدي بأَمر الله، هذا هو المشهور عند نَسَّابة مِصْرَ، العباسي البغدادي فَرَّ من واقعة بغداد على يد هُولاكو، وذكر خبراً طويلاً إِلى أن جدّد له البيعة أهلُ مصر، وأنزله الملك الظاهر بيبرس البندقداري في البرج الكبير داخل باب القلعة من قلعة الجبل، وأثبت نسبه على قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز، وبايعه السلطان ومَن دونه، ولُقِّب بالإِمام الحاكم بأَمر الله، وقلّد السلطان أمور البلاد، وذلك في يوم الخميس ثامن المحرم سنة إِحدى وستين وست مئة، وحجّ من مصر في سنة أربع وتسعين، وجرت بينه وبين الشريف مفاوضة في النسب في هذه السنة، والخليفة ساكت، وذلك في سلطنة العادل كتبغا، ثم إِنه منع من الركوب والاجتماع إِلى أن ولي السلطنة الملك المنصور لاجين، في سنة ست وتسعين وست مئة فرسم بالإِفراج عنه وسأَله أن يفوض إِليه السلطنة فأَجابه وقلّده، وركب وشقّ القاهرة معه، فأنعم عليه السلطان، وأمر له بكسوة، ورسم أن يخلى له الكبش، وأن يكون مقيماً فيه هو وعائلته، وأجرى عليه الرواتب بجميع ما

يحتاج إِليه، ورسم بأَن يكون في يوم الجمعة يخطب، ويَؤُمُّ الناس، فنزل من قلعة الجبل في موكب حفيل، ومعه الأُمراء والحجّاب، وكان يوماً مشهوداً اجتمع فيه لرؤية الخليفة عالَم لا يقع عليه حصر، وصاروا يتمسّحون به، ويسأَلونه الدعاء، ونزل بمناظر الكبش، وحجّ ثانياً في سنة سبع وتسعين، ومات ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الأُولى سنة إِحدى وسبع مئة، وحُملت جنازته من الكبش إِلى جامع ابن طولون، حيث صُلِّيَ عليه، ومشى الأُمراء بين يدَي الجنازة إِلى أن دُفن بجوار المشهد النفيسي، وخطب من بعده لابنه المستكفي بالله أبي الربيع سليمان بعهده إِليه، وكملت مدة خلافته أربعين سنة، وهو أول خليفة عباسي مات بمصر. انتهى.

* * *

الفصل الثاني

في ذكر مَن حجَّ من الملوك

الملك الصُّليحي: واسمه علي بن محمد بن علي الصُّلَيحي، ملك اليمن كله سهله وجبله، ووعره وبره وبحره، وخطب بنفسه، وكنت قاعدة ملكه صنعاء، دخل مكة في سادس ذي الحجة سنة خمس وخمسين وأربع مئة، وفعل فيها أفعالاً حسنة، ونشر العدل، واستعمل الجميل مع أهلها، ومنع المفسدين، وطابتْ به قلوب النَّاس، وأمن الحاجُّ أَمْناً لم يُعْهد مثله، لإِقاته السياسة والهيبة، حتى كانوا يعتمرون ليلاً ونهاراً، وأموالهم محفوظة، ورحالهم محروسة، وتقدّم لجلب الأَقوات فرخصت الأَسعار، ورفع جور مَن تقدّم، وظهرت عنه أفعال جميلة، وانتشرت له الأَلسنة بالشكر، وكثرت له الأَدعية، وكان متواضعاً، إِذا جاز على جَمْع سلّم عليهم بيده، وكَسَا البيت الشريف ثياباً بيضاً من حرير صيني، ورد بني شيبة عن قبيح أفعالهم، ورد إِلى البيت من الحْليِّ ما كان بنو أبي الطيب الحسنيون أخذوه لما ملكوا بعد شُكْرٍ، لأَنهم حملوه إِلى اليمن، فابتاعه الصليحيُّ منهم، وكانوا قد عَرَّوا البيت والميزاب، ودخل البيت ومعه زوجته الحرة الكاملة، وكانت حُرَّةً كاسمها، مدبِّرة مستولية عليه، وعلى اليمن، وكان يُخْطب لها على المنابر أولاً للمستنصر وثانياً للصليحي، بعده لزوجته الحرة فيقال: اللهم أدم أيام الحرة الكاملة السيدة كافلة المؤمنين. وكانت لها صدقات كثيرة، وكرم فائض، وعدل وافر.

وخرج الصُّلَيْحِيُّ من مكة في يوم عاشوراء، وقيل في شهر ربيع الأَول، ورتب في إِمرة مكة أبا هاشم محمد بن جعفر الحسني صهر شكْر بن أبي الفتوح على ابنتيه.

الملك العادل: نور الدين محمود بن عماد الدين أتابك بن زنكي بن أبي سعيد، قسيم الدولة، أخذ قلعة حلب، وأظهر بها مذهب أهل السنّة، وكان أهلها من الرافضة، وأبطل الأذان بـ(حي على خير العمل)، وأنشأ بها المدارس على مذاهب الأئمة الأربعة، ثم ملك دمشق، وأقطع أمراء العربان إقطاعات لحفظ الحاج، فيما بين دمشق والحجاز، وأكمل سور المدينة النبوية، واستخرج لها العين، فدعا له أهل الحرمين على منبريهما ودُعِي له في منابر القاهرة ومصر، وحجّ في سنة خمس وخمسين وخمس مئة.

الملك المعظم: شمس الدين توران شاه ابن والد الملوك نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان الكردي، قدم مكة معتمراً، وتوجه إلى زبيد، واستولى على ممالك اليمن، ومات بالإسكندرية سنة ست وسبعين وخمس مئة، فوجد عليه مئتا ألف دينار مصرية ديناً، قضاها عنه السلطان صلاح الدين بن أيوب، وسبب هذا الدَين كثرة جوده، وسعة عطائه.

ومن غريب ما يحكى عنه أن الأديب الفاضل مهذب الدين أبا طالب محمد بن علي بن الحيمي قال: رأيت في النوم المعظَّم شمس الدولة توران شاه، وقد مدحته وهو في القبر ميت، فلفَّ كفنه ورماه إليّ وأنشدني:

لاَ تَسْتَقِلَّنَّ مَعْرُوفاً سَمَحْتُ بِهِ ... مَيْتاً وَأَمْسَيْتُ مِنْهُ عَارِياً بَدَنِي
وَلاَ تَظُنَّنَّ جُودِي شَانَهُ بُخُلٌ ... مِنْ بَعْدِ بَذْلِي مُلْكَ الشَّامِ وَالْيَمَنِ
إِنِّي خَرَجْتُ مِنَ الدُّنْيَا وَلَيْسَ مَعِي ... مِنْ كُلِّ مَا مَلَكَتْ كَفِّيْ سِوَى كَفَنِي

وإليه ينسب درب شمس الدولة بالقاهرة.

الملك المعظم: شرف الدين أَبو الفتح عيسى ابن الملك العادل سيف الدين بن أَيوب، حجّ من الشام على الهجن، وبنى الْبِرْكَة، وعدة مصانع، وتصدّق على أَهل الحرمين بصدقات جزيلة، وكان وصوله إلى مكة يوم الثلاثاء سادس ذي الحجة فالتقاه أَبو عزيز قتادة أَمير مكة، وحضر في خدمته فقال له المعظم: أَين ننزل؟ فأَشار بسوطه إلى الأَبطح، وقال: هناك! فنزل المعظم، وبعث إليه قتادة بهدايا يسيرة، وحجّ معه الشريف سالم بن قاسم بن مُهَنَّا الحسني أَمير المدينة، وهمّ به قتادة أَن يلزمه فلم يتمكن من ذلك، وتوجّه الأَمير سالم مع المعظم إلى الشام.

الملك المسعود: صلاح الدين أَبو المظفر يوسف ابن الملك الكامل بن أَيوب، قدم مكة سنة إحدى عشرة وست مئة، وصحبته أَلف فارس من الخيل و(الجندارية)،

ومن الرماة خمس مئة، متوجهاً إلى اليمن فخطب به، ونثر على الناس أَلف دينار، وحمل إلى أَمير مكة أَلف دينار، وقماشاً بأَلف دينار، ونَوَى الحج فخَشِي تفرقَ الأَجناد، إذا جاء الموسم، فوصل من مكة إلى اليمن في العشر الثاني من ذي القعدة، وذكر ابن خَلِّكان والنويريُّ أَنه توجه إلى اليمن بعد الحج، ثم دخل مكة في سنة تسع عشرة وست مئة، وكان مَلَكَ مكة في شهر ربيع الأول وقيل: الآخر، وقاتل صاحبها الشريف حسن بن قتادة، فانهزم حسن، وفارق مكة، فنهبها عسكر المسعود إلى العصر، وسفكوا الدماء، ثم صاح المسعود بالأَمان لهم، وردّ على أَهل الحجاز جميع أَموالهم، ونخلهم، وما كان أُخِذ من الوادي ومكة من الدور، وبدا منه تَجَبُّرٌ وقلَّةُ دين، من ذلك: أَنه صعد قبة زمزم ورَمَى حمام مكة بالبندق، وضرب غلمانه الناسَ بالمسعَى بالسيوف في أَرجلهم، حتى كانت الدماءُ تجري من سيقانهم، وهم يسعون ويقولون لهم: اسعوا قليلاً قليلاً، فإن السلطان نائم سكران في دار السلطنة بالمَسْعى، وهي المدرسة الأَفضلية الآن، ومنع الحجاج من دخول مكة يوماً واحداً، ثم لبس خلعة الخليفة، واتفق الأَمر، وفتح باب مكة، وحجّ بالناس، وطابت قلوبهم، ونصب راية صفراءَ، وطلع علمه، وعلم أَبيه، ومنع اطلاع علم الخليفة الناصر لدين الله العباسي إلى جبل عرفة [ويقال: إنه أذِن في إطلاعه] قبل الغروب لَمَّا لِيم في ذلك، وخُوِّف، [وهَم العراقيُّ بقتاله فعجز عن ذلك لكثرة عسكره، وقَدَّمَ] أعلام أبيه على أَعلام الخليفة، [وخرج بعد الحج من مكة متوجهاً إلى اليمن واستناب على مكة الأَمير نور الدين عمر بن علي ابن رسول]، ورتب معه ثلاث مئة مقاتل من الفرسان وولّى الشريف راجحاً خلي والسُّرَّيْنِ ونصف المخلاف، وتوجه الشريف راجح بن قتادة إلى الينبع، وجمع جيشاً، وعاد إلى مكة فحاربه نور الدين علي ابن رسول وكسره على الخِربة فقصد الشام، وتوجه إلى العراق، وذاق قطيعة الرحم بقتل أَبيه وعمه وأَخيه، ونزع ملكه، وجعل طريداً شريداً خائفاً يترقّب، وعوتب الملك الكامل على منع ولده لطلوع عَلَمِ الخليفة، فكتب أَبوه يعاتبه على ذلك، وعلى ما أَراق من دم الشرفاء، وقال: برئتَ يا اقسيس من ظهر العادل إن لم أَقطع يمينك فقد نبذت وراء ظهرك دنياك ودينك، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم، فغرم ديات الشرفاء، وأَصابه شلل في يده، ثم قدم مكة سنة ست وعشرين وست مئة من اليمن لما سمع بوفاة عمه المعظم صاحب الشام طمعاً فيها، ولم يصل إلى مكة إلا وقد فُلج ويَبِسَتْ يداه ورجلاه، ورأَى في نفسه الْعِبر، بحيث أَنه طلب كفناً من رجل مغربي، وحلف له أَنه ما يرضي لنفسه من جميع ما معه كفناً يكفن فيه، فمات ودُفن بالمعلاة

مع الغرباء بوصية منه، وبنى عليه قبة مشهورة به الآن، وكان قد بنى القبة التي على مقام إبراهيم الخليل عليه السلام وضرب الدراهم المسعودية المتعامَل بها بمكة، وولي إمرتها بعد والده الكامل محمد صاحب مصر، واستناب فيها شجاع الدين طغتكين.

الملك المنصور: نور الدين عمر بن علي ابن رسول صاحب اليمن، قدم مكة في عام إحدى وثلاثين وست مئة على النجب يريد الحج، لأنه كان قد أَرسل إلى الخليفة العباسي ـ وهو المستنصر والد الخليفة المعتصم أبي أَحمد عبد الله خاتمة خلفاء بني العباس ـ هدية عظيمة، وسأَله أن يقلده بلاد اليمن، ويكتب له بذلك، ويرسل إليه تقليداً وخلعة، فعاد إليه الجواب إنَّ التقليد والخلعة يصلان إليه في عرفة، فخرج من اليمن على النجب فلم يصل إليه شيء، وفَرَّ راجحُ بن قتادة من مكة لما قدمها المنصور، وكان في سنة تاريخه جهّز له عسكراً جرّاراً، وخزانة عظيمة، لحرب ابن المجلى، ومَن معه من عسكر صاحب مصر، فحاربوهم وأَخرجوهم عن مكة، فرجع المنصور إلى اليمن وهو متغير من راجح بن قتادة، لكونه لم يواجهه، ثم لما رجع المنصور إلى اليمن عاد راجح إلى مكة ووصل المنصور ما طلب من الخليفة في السنة التي بعدها في البحر على طريق البصرة مع رجل يقال له مغالي (؟) ثم عاد السلطان نور الدين عمر بن علي ابن رسول صاحب اليمن إلى مكة في سنة خمس وثلاثين وست مئة في أَلف فارس، وأَطلق لكل جنديٍّ يصل إليه من أَهل مصر المقيمين بمكة أَلف دينار، وحصاناً وكسوة، فمال إليه كثير منهم، وأَرسل إلى راجح بن قتادة أَمير مكة فواجهه في أَثناء الطريق، وحمل راجح النقارات والكوسات، واستخدم من أَصحابه ثلاث مئة فارس، وسار راجح مسايراً السلطان نور الدين على الساحل، ثم تقدّم إلى مكة، فلما تحقق (جغريل) وصول الملك المنصور أحرق ما كان معه من الأَثقال، وخرج من مكة بمَن معه من العسكر قبل وصول صاحب اليمن بيومين، وذلك في سابع رجب، فلما وصل إلى المدينة الشريفة بلغه الخبر بوفاة الكامل صاحب مصر فدخلها في العشر الأَوسط من شعبان، وعسكره متفرقة، ودخل مكة راجح بن قتادة وأَرسل إلى السلطان نور الدين ابن رسول قاصداً يخبره بالخبر، وهو بالسَّرَّيْنِ، فبشّره بذلك فأَخلع عليه وكذا أَمر الأُمراء والمماليك الذين معه أَن يخلعوا عليه ما كان عليهم من الثياب، فخلعوا عليه ما أَثقله، وسار السلطان من فوره إلى مكة فدخلها معتمراً في شهر رجب الفرد، وتصدّق فيها بأَموال جزيلة، وأَنفق على عساكره، ودعوا له بمكة بعد موت الكامل، وجعل فيها رتبةً مئة وخمسين فارساً، مقدمهم ابن الوليد، وابن النفري، وأَقاموا بها، وتوجه السلطان نور الدين إلى اليمن بعد الحج.

ثم في سنة سبع وثلاثين بعث الملك الصالح نجم الدين أَيوب إِلى مكة أَلف فارس عليهم الشريف شِيْحَة أَمير المدينة، فلما سمع بهم عسكر المنصور خرجوا من مكة، وأَخلوها فدخلها شيحةُ، وملكها ونهبها، ولم يقتل أَحداً، فلما سمع المنصور عمر ابن رسول صاحب المين ذلك بعث بابن النفري، والشريف راجح بن قتادة إِلى مكة في عسكر جرّار، ففرّ الشريف شيحةُ بمَن معه، وقدم القاهرة.

ثم في سنة ثمان وثلاثين وست مئة قدم مكة عسكر جرَّار جهّزه الملك الصالح نجم الدين أَيوب مع الشريف شيحة، وفيهم علم الدين الكبير، وعلم الدين الصغير، فأَخذوها من عسكر صاحب اليمن، وحجُّوا بالنَّاس فقدم الملك المنصور نور الدين عمر ابن رسول مكة في السنة التي بعدها في شهر رمضان، في عسكر جرّار فلما علم المصريون بقدومه وَلَّوْا هاربين، وأَحرقوا دار السلطنة بمكة على ما فيها من عدد وسلاح وغيرها، فدخلها السلطان نور الدين، وأَبْطَلَ سائر المكوسات التي بها، والجبايات والمظالم، وكتب بذلك مربعة جعلت قبالة الْحجَر الأَسود، على زمزم، وبعث إِلى صاحب ينبع الحسن بن علي بن قتادة فلما أَتاه أَكرمه، وأَنعم عليه، واستخدمه واشترى منه قلعة ينبع، وأَمر بخرابها، حتى لا تبقى قراراً للمصريين، وجعله بالوادي مساعداً لنوابه بمكة، واستناب فيها مملوكه الأَمير فخر الدين السلحدار بن فيروز، وتوجه إِلى اليمن في السنة التي بعدها، واستمر فخر الدين السلحدار أَميراً بمكة إِلى سنة ست وأَربعين، عزله السلطان نور الدين ابن رسول وولّى عوضه محمد بن المسيب اليمني، على مال يقوم به، فأَقام بها هذه السنة والتي بعدها، وأَساء السيرة، وأَعاد الجبايات والمكوسات، واستولى على مال الصدقات التي كانت تصل من اليمن [ومنع الجند النفقة] فتفرّقوا عنه ومكر الله به فولي مكة الشريف حسن بن علي بن قتادة بعد قتال أَميرها علي بن المسيب نائب صاحب اليمن، وأَخذ ما كان معه من خيل وعدد، ومماليك، وقَيَّده وأَحضر أَعيان الحرم، وقال: ما لزمته إِلا لتحققي خلافه على مولانا السلطان، وعلمت هدية هذا المال إِلى العراق، وهو محفوظ عندي، حتى يصل مرسوم السلطان، فوردت الأَخبار بعد أَيام بوفاة السلطان.

الملك المظفر شمس الدين: يوسف بن المنصور عمر بن علي ابن رسول حجّ في سنة تسع وأَربعين وست مئة، وكسا رؤساء الحرم التشريفات، وأَقام بمكة عشرة أيام يفرق الصدقات المبرورة، فوصلت صدقاته لكل بيت بمكة، وعمّت الحاجَّ أَجمعين على اختلاف أَنواعهم، وجهّز أَعيان حاج مصر، وعمر المسجد الذي بقرب المجزرة الكبيرة من أَعلاها على يمين الهابط إِلى مكة، ويسار الصاعد منها، يقال إِن النبي ﷺ صلّى فيه المغرب.

وحجّ أَيضاً في سنة تسع وخمسين وست مئة، وكان يسير في البر والمراكب في البحر سائرة بسيره، وبها من العلوفات والأَطعمة، فلما قارب مكة خرج عنها الشريفان إِدريس بن قتادة، وأَبو نُمَيّ بن أَبي سعد خوفاً منه، ثم دخل مكة في عساكره وجنوده محرماً ملبياً خاشعاً متضرعاً، عاري الرأس والجَنْب حتى قضَى حق الطواف، ثم تقدّمت العساكر والجيوش فحطّت في الحُجُون، ولم يزل بمكة إِلى أَن قضَى ما يجب عليه من الوقوف بعرفة، فوقف بالصخرات، وطلعت أَعلامه وأَعلام صاحب مصر مضمومة فقال له الأَمير عز الدين الإِمام: هلا طلعتْ أَعلامك يا مولانا قبل أَعلام المصريين؟! فقال: أَتراني أُؤَخِّرُ أَعلام ملك كسر عساكر التتر بالأَمس، وأُقَدِّمُ أَعلامي لأَجل حضوري؟! لا أَفعل هذا أَبداً، ثم مضى في حجه حتى أَتمه، ثم قصد البيت الشريف وحلّ له ما حرم عليه، ولم يزل مدة إِقامته بمكة يصلي المغرب على قبة زمزم، ثم يطوف وارداً وصادراً، وتخالف هو والوزير القاضي في مقام إِبراهيم، وخدم البيت الشريف، وأَخذ المكسحة فكسحه، وتأَبّط القِرْبَة وغسله، ثم ضمّخه بالغوالي الفاخرة، وكسا الكعبة الشريفة من داخلها، ولم يكسها ملك قبله بعد الخلفاء العباسيين ببغداد، واستمر يكسوها مدة سنين مع ملوك مصر، وإِنما تجعل كسوته على الكعبة بعد سفر الحاج المصري من مكة، مراعاة لصاحب مصر، وانفرد بكسوتها في بعض السنين، وأَقام مع ذلك بمصالح الحرم وأَهله، ثم أَقام في مكة عشرة أَيام يفرق الصدقات حتى وصلت صدقاته إِلى كل منزل بمكة، وعمّت جميع الحاج على اختلاف أَنواعهم، وجهّز حاج مصر بالإِنعام والمراكب والأَزواد، وكسا رؤساء الحرمين الشريفين، ونثر على البيت الذهب والفضة. ولما أَزمع الرحيل تقدّمت أَثقاله إِلى البئر المعروفة بالبيضاء ثم ودّع البيت باكياً مستعبراً، وعاد إِلى بلاده، وفي غالب مدة سلطنته كان يُخْطَب له بمكة وخطب فيها بعده لذريته ملوك اليمن بعد الخطبة لصاحب مصر، وعمل للكعبة باباً، وأَقام بها حتى أُبْدِل في أَواخر سنة ثلاث وثلاثين وسبع مئة بالباب الذي بعث به الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر، وأَخذ بنو شيبة حِليَتَه، وكانت ستين رطلاً فضة والقفل الذي على باب الكعبة الآن منسوب إِليه.

الملك الناصر: أَبو شادي داود ابن الملك المعظم أَبي الفتح عيسى بن أَيوب، حجّ سنة ثلاث وخمسين وست مئة.

السلطان الملك الظاهر: ركن الدين، سلطان الإِسلام والمسلمين، أَبو الفتح بِيْبَرس البندقداري الصالحي، ملك مصر، أَول مَن أَدار المحمل وكسا الكعبة من ملوك

مصر، حجّ سنة سبع وستين وست مئة، وكانت الوقفة الجمعة، وكان في صحبته جماعة من الأُمراء منهم الأَمير بدر الدين (الخازندار) وقاضي القضاة صدر الدين سليمان بن عبد الحق الحنفي، وفخر الدين بن لقمان، وتاج الدين بن الأَثير، ونحو ثلاث مئة مملوك وأَجناد من الحلقة، ولم يصحب غلماناً ولا عَكَّامِيْنَ، إلا الأُمراء و(الخاصكية) الذين معه، وقال: الصغير يخدم الكبير، وكل مَن يعرف صنعة يعملها في السفر. وكان توجه إِلى مكة بعد مضي خمسة وعشرين يوماً أَو نحوها من القعدة بحيث أَنه لم يبقَ بينه وبين يوم عرفة إِلا نحو خمسة عشر يوماً، وكان قد قَدَّمَ في المنازل إِقامة، وكلف الْمُؤْنَة وإِبلاً وخيلاً يركبون عليها، فإِذا وصل إِلى المنزلة الأُخرى تركوا ذلك، وركبوا الموجود لهم في المنزلة التي وصلوا إِليها، وكان سفرهم على حكم البريد، كلما وصل إِلى بريد ركب الخيل الذي فيه، ونزل عن الذي يركبه إِلى المكان، وتبقى الخيل والجِمال مستوقفة تعتلف، كل شيء في منزله، ومكانه إِلى أَن يأتوا إِلى ذلك المكان بعد الفراغ من الحج، ورجوعهم إِليه من مكة والمدينة، والسلطان بطول طريقه يستفتي قاضي القضاة صدر الدين، ويستفهم منه أَمر دينه، فسار إِلى مكة في سبعة عشر مرحلة، فلما وصلوا إِلى مكة ركب السلطان هو وجميع الأُمراء الخيل الْبُلْق، وكان وصولهم إِلى مكة في ثامن ذي الحجة، وقد طلع كلهم إِلى عرفة، ولم يَبْقَ إِلاَّ أَمير مكة، وبعض غلمانه، فاستنكر ذلك وقال: ما يأْتي في هذا الوقت إِلاَّ مَن يريد أَنْ يدرك الحج قبل أَن يفوته. وفي هذا اليوم ما جرت العادة أَنْ يقدم فيه أَحَد إِلى مكة إِلاَّ غريب ما له عادة بالحج. فسأَلهم: هل أَنتم من العراق أَو من العجم أَو من الترك؟ فقال السلطان: قولوا له الذي قلت: لا يَجِئْني إِلاَّ على الْبُلْق فقد جئناه على البلق، ونحن محرمون، هذا صاحب مصر، ومعه الأُمراء الذين معه في مصر والشام. ثم قال له: هذا الأَمير فلان، وهذا فلان، وذكر له كل أَمير باسمه، فإِنْ شئت أَنْ تقتل الكُلَّ فاقتلهم، وكان صاحب مكة الشريف أَبو نُمَيٍّ قد كتب إِلى الظاهر يهدده ويتكلم بما لا يخاطب به أَحد من الملوك، ويقول له: لا يَجئني إِلاَّ على الخيل الْبُلْق، وأَنه ما يبالي به. فاستغفر وقال: العفو يا مولانا السلطان. ثم ركب وسعى معهم، وأَشهد على نفسه أَنه ترك جميع ما كان يأْخذه من جميع الحاج القادمين من البر المصريّ والشامي وأَعمالها، إِكراماً للسلطان، وأَنه قد ترك ذلك (الْجَبَا) إِلى يوم القيامة فلا يأْخذ أَحد من المتولِّين بمكة من أَحد من سائر الحجاج المصريين والشاميين شيئاً لا من تجارهم، ولا من أَغنيائهم، ولا من فقرائهم، دائماً أَبداً، واستقر الحال على ذلك إِلى هذا الزمان، وما بعده إِن شاء الله

تعالى، وكان يأخذ (الْجَبا) والمكس من التاجر من كل ما يكون معه ومن الحاج الذي ليس معه متجر، يؤخذ منه جباً على كل جمل، يُوقف الركب عند قبر أَبي لَهَب، ولا يتعدَّى منه جمل، إِلا بعد أَن يؤخذ منه جباه، الذي كان مقرراً عليه في ذلك الزمن الماضي، قبل حج الظاهر بيبرس، وصار الحاج طَلقاً ليس أَحد يطالب أَحداً بشيء من سائر الأَشياء لا التاجر، ولا الغني، ولا الفقير، ولا المشاة كلهم، واستقام أَمر الناس في السفر من طريق مصر إِلى مكة بغير جبا، وبطل ما كان يأخذه صاحب مكة من حاج مصر والشام، وجميع الركوب التي تصل إِلى مكة المشرفة، وكان الحاج المصريُّ والشامي قد انقطع عن مكة فلم يحج من شدة الظلم والخوف الذي يجده الناس من متولي مكة في تلك السنين الماضية، وتصدّق السلطان بمال عظيم في الحرم الشريف على الفقراء والمجاورين، وفرّق كساوِي على أَهل الحرم، وأَعطى خواصه جملة من المال ليفرقوها على الناس سرًّا، وصار كواحد من الناس لا يحجبه أَحد، ولا يحرسه إِلا الله تعالى، وهو منفرد يصلي ويطوف ويسعى، وغسل الكعبة الشريفة وصار في وسط الخلائق، وكل مَن رمى إِليه إِحرامه غسله، وناوله إِياه وجلس على باب البيت، وأَخذ بأَيدي الناس ليطلعهم إِلى البيت، فتعلّق به بعض العامة بإِحرامه ليطلع فقطعه، وكاد يرمي السلطان إِلى الأَرض، وهو مستبشر بجميع ذلك، وعلّق كسوة الكعبة بيده، وخواصه، وتردَّد إِلى مَن بالحرمين الشريفين من الصالحين، وسَبَّلَ الكعبة الشريفة في كل سنة، وأَحسن كثيراً إِلى أُمراء الحجاز إِلاَّ صاحب المدينة جماز بن شِيْحَةَ الحسني وابن أَخيه مالك بن سيف، لفرارهما منه، وزاد أَمير مكة مالاً وغلالاً في كل سنة بسبب تَسْبِيل الكعبة الشريفة للناس، ولم يغفل مع ذلك عن تدبير الممالك، وكُتاب الإِنشاء تكتب عنه في المهمات، وكتب كتاباً إِلى صاحب اليمن ينكر عليه أُموراً، ويقول فيه: سطَّرتها من مكة المشرفة، وقد أَخذت طريقها في سبع عشرة خطوة، يعني بالخطوة المنزلة، ويقول له: الملك هو الذي يجاهد في الله حق جهاده، ويبذل نفسه في الذَّبِّ عن حوزة الدين، وإِن كنت ملكاً فاخْرُج، الْقَ التَّتَار، وأَحسن إِلى أَميرَي مكة، وإِلى أَمير الينبع وأَمير خُلَيْص، وأَكابر الحجاز. وكتب منشورين لأَمِيرَيْ مكة إِدريس، وأَبي نُمَيٍّ، وسأَلا أَنْ يُؤَمِّرَ عليهما أَميراً من جهته، نائباً بمكة تقوى به نفسها، ويرجع أَمرهما إِليه، ويكون الحلُّ والعقدُ على يده فولَّى الأَمير شمس الدين مروان، نائب الأَمير عز الدين أَمير (جان دار)، وطلب الظاهر عبد الحق بن سبعين غاية الطلب فاختفى، ثم قضى السلطان مناسك الحج، وسار عن مكة في ثالث عشر ذي الحجة.

وقال المقريزي في «الذهب المسبوك»: إنَّ الملك الظاهر توجه إلى الحج، ومعه الأمير بدر الدين (الخازندار) وقاضي القضاة صدر الدين الحنفي، وفخر الدين إبراهيم بن لقمان كاتب السر، وتاج الدين بن الأثير، ونحو ثلاث مئة مملوك، وعدة من أجناد الحلقة، وسافر في خامس شوال كأنه يتصيَّد، ولم يجسر أحدٌ يتحدّث بأنه متوجه إلى الحجاز، وذلك أنَّ الحاجب جمال الدين بن الداية كتب إلى السلطان يسأله: إني أشتهي أنْ أتوجه صحبة السلطان إلى الحجاز. فأمر بقطع لسانه، فلم يتفوَّه أحدٌ بعدها بذلك، فوصل الكرك أول يوم من ذي القعدة، ودبَّر أموره في خفية بحيث أن لا يشعر بها الخاصة فضلاً عن العامة، وقدم المدينة النبوية خامس عشري القعدة، ودخل مكة خامس الحجة، وعاد إلى الكرك، ثم لما قارب الشام بعث أَحَدَ خاصته على البريد، بكتب البشارة إلى دمشق بالسلامة بعد قضاء الحج، وقدم القاهرة أول صفر، وعليه عباءته التي حجّ بها لم يغيرها نحو خمسة وسبعين يوماً فخرج الملك السعيد إلى لقائه وصعد قلعة الجبل. انتهى كلامه.

الملك المجاهد: آنصُ ابن السلطان الملك العادل كتبغا المنصوري، حجّ سنة أربع وتسعين وست مئة، ومعه الأمير سيف الدين طغجي، وغيره من الأُمراء، ففرّق مالاً عظيماً، أنعم على الشريف أبي نُمَيٍّ أمير مكة بعشرين ألف درهم، وعلى أولاده بعشرة آلاف درهم، وعلى الأمير طغجي بمئة وستين ألف درهم، منها بدلة كلها زركش فيها قباء تتري فيه ألف دينار، وفرّق على الغلمان والفقراء ثمانين ألف درهم، وعمل طول الطريق روايا مملوءة سكراً وسويقاً ونحوه، وفرَّق حلوى كثيرة، حتى أبيعت العلة الحلوى بدرهمين، والرطل السكر بدرهم ونصف، وخلع على جميع مَن معه من الأُمراء والمماليك والأجناد وغيرهم، وكان كريماً حشيماً جميلاً، وكانت مواهبه وعطاياه خارجة عن الحدِّ في الكثرة، وقال صاحبنا العلامة جار الله بن فهد في تاريخه: أنه حجّ في جماعة من الأمراء و(الأُدَر) السلطانية وحصل لأهل الحرمين بهم رفق كبير، وبذل المال لصاحب مكة وشكرت الناس سيرة أنص المشار إليه، ويقال: إنَّ الذي نال صاحب مكة منه نحو سبعين ألف درهم فضة.

السلطان الملك الناصر: محمد بن قلاوون الألفي الصالحي. قال العلامة تقي الدين المقريزي: إنه حجّ سنة ثلاث عشرة وسبع مئة من الشام وعاد وهو راكب ناقة لطيفة القدِّ، بعمامة مدورة ولثام، وعليه بِشْتٌ من أَبْشَات العرب، وفي يده حربة، وتلقاه شيخ الإسلام تقي الدين بن تَيْمية الحنبلي وسائر الفقهاء، وجميع الناس، وكان يوماً مشهوداً بلغ كراء دار التفرُّج على السلطان بست مئة درهم فضة. ثم سار إلى

مصر فصعد قلعة الجبل في ثاني عشر صفر الخير، وقال العلامة صاحبنا الشيخ جار الله بن فهد القرشي المكي ـ تغمّده الله برحمته ـ: إنه حجّ في سنة اثنتي عشرة وسبع مئة من الكرك، وتوجه منها في ذي القعدة، ومعه نحو أَربعين أميراً، وستة آلاف مملوك على الهجن، ومئة فارس، وسار في أَيام يسيرة، وطاف بالكعبة، وعليه ثياب إحرام من صوف، وهو يعرج في مشيته، وحوله جماعة من الأُمراء، وبأَيدي كبراء منهم الطبر، مِن أَمامه ومن خلفه وجوانبه، فلما فرغ من طوافه ركع خلف المقام، ودخل الحِجْرَ فصلّى فيه، ثم جاءَهُ قاضي مكة نجم الدين الطبريُّ، والشيخ رضيُّ الدين الطبريُّ إمام الشافعية، وكان دخوله مكة بعد دخول الركب المصري، وحجّ وانصرف راجعاً قبل الركب إِلى القاهرة.

وحجّ في سنة تسع عشرة وسبع مئة.

قال المقريزيُّ رحمه الله تعالى: فلما تحرك لذلك أَتته تَقَادُم الأُمراء من كل جاب، وسائر نواب الشام وحلب، وأَول مَن بعث تقدمته الأَمير تنكز نائب الشام، وفيها الخيل والهجن بأَكوار الذهب، والسلاسل من الفضة والذهب، وجميع المقاود والمخاطم من الحرير الملون المحكم الصنعة. ثم تقادم الملك المؤيد صاحب حماة ثم تلاه الأُمراء، وشرع القاضي كريم الدين ناظر الخاص في تجهيز ما يحتاج إِليه، وخرج إِلى ناحية سرياقوس، وصار يقف وهو مشدود الوسط، أَو يجلس على كرسي، وسائر أَرباب الوظائف في خدمته، وهو يرتب الأُمور، فعمل عدة قدور من فضة ونحاس، تحمل على البخاتي ليطبخ فيها، وأَحضر الخولة لعمل مَباقِلَ وخَضْراوات ورياحين ومشمومات في أَحواض خشب، لتُحمل على الجِمال، وتُسْقَى طول الطريق، ويؤخذ منها كل يوم ما يحتاج إِليه، ورتب الأَفران، وقلالي الجبن، وصنّاع الكماج، والسَّمِيد، وغير ذلك مما يحتاج إِليه، وأَعطى العربان أُجرة الجِمال التي تحمل العليق والشعير والبقسماط والدقيق، وجهز مركبين في البحر إِلى ينبع، ومركبين إِلى جدة، بعدما اعتبر كلفة العليق بأَوراق كتب فيها أَسماء اثنين وخمسين أَيمراً منهم مَن له في اليوم مئة عليقة، ومنهم مَن له خمسون عليقة، وأَقلهم مَن له عشرون عليقة، وكان جملة الشعير المحمول مئة أَلف وثلاثين أَلف أَردباً من الشعير، وجهز من الشام خمس مئة جمل تحمل الحلوى والسكر والفواكه وحضرت أَيضاً (حوائج خاناه) على مئة وثمانين جملاً تحمل حب الرمان واللوز، وما يحتاج إِليه في المطبخ، سوى ما حمل من (الحوائج خاناه) بالقاهرة، وجهّز أَلف طائر من الأَوِزِّ، وثلاثة آلاف طائر من الدجاج، فلما تهيأَ ذلك ركب السلطان مستهل ذي القعدة، ومعه

الملك المؤيد صاحب حماة وقاضي القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعي، بعدما مُهِّدَتْ عَقَبَةُ أَيْلَةَ من الصخور، ووسع مضيقها بعدما كان سلوكه مشقًّا، وفتح مغارة شُعَيْب، فلما قدم مكة أَظْهر من التواضع والذلة والمسكنة أمراً زائداً، وسجد عند معاينة البيت سجود عبد ذليل، واجتمع عند السلطان من العربان ما لا يجتمع لملك قبله، وصاروا يدلون عليه إِدْلالاً زائداً، بحيث قام في بعض الأَيام ابنٌ لموسى بن مُهَنَّا، وقال للسلطان: يا أَبا علي بحياة هذه ـ ومدَّ يَدَهُ إلى لحية السلطان فمسكها ـ إلاَّ أعطيتني الضيعة الفلانية. فصرخ فيه الفخر ناظر الجيش، وقال له: ارفع يدك قطع الله يدك!! والك يا ولد الزنا تمد يدك إلى لحية السلطان؟! فتبسّم السلطان، وقال: يا قاضي هذه عادة العرب إذا قصدوا كبيراً في شيء يكون عظمته عندهم مَسْكُ ذِقْنِهِ، يعني أنه قد استجار به فهو عندهم سُنَّة. فقام الفخر مغضباً وهو يقول: والله إن هؤلاء مناحيس، وسنتهم أَنْحَسُ منهم، لا بارك الله فيهم، وصلّى الجمعة بمكة وصلاّها بالمدينة أَيضاً، ونزل السلطان بركة الحج في ثاني عشر المحرم سنة عشرين وسبع مئة.

وقال العلامة جار الله القرشي المكي في تاريخه: حجّ صاحب مصر الملك الناصر في سنة تسع عشرة وسبع مئة حجته الثانية، ومعه المؤيد صاحب حماة، ونحو خمسين أميراً من المقدمين، و(الطبلخانات) والعشروات وجماعة من أَهله، وأَعيان دولته، وقاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، وابنه القاضي عز الدين، وذلك في تاسع ذي القعدة، وقدم مكة بتواضعٍ وذلة، وبالغ في التواضع بحيث قال للأَمير بدر الدين حنكلي بن البلبا: لا زلت أُعظم نفسي إِلى أَن رأَيت الكعبة وذكرت بَوْسَ الناسِ الأَرضَ لي، فدخل في قلبي مهابة عظيمة ما زالت حتى سجدت لله تعالى، وحسن له القاضي بدر الدين بن جماعة أَن يطوف راكباً كما فعل النبي ﷺ. فقال: ومَن أَنا حتى أُشَبَّه بالنبي ﷺ، والله لا طُفْت إلا كما يطوف الناس. قلت: الصواب مع السلطان في طوافه ماشِياً، والمصطفى ﷺ إنما طاف راكباً في حجة الوداع ليراه الناس، مع ما في صحة الطواف راكباً لغيره ﷺ إلا لعذر من الخلاف بين أَصحاب الإِمام أَحمد وبين بقية الأئمة، ونقل الشيخ موفق الدين عن أَبي حنيفة، ومالك، والليث أَنه إِذا طاف راكباً لغير عُذْرٍ كُرِهَ له وقيل له: أَعِدْ فإِن لُم يُعِدْ ورجع إِلى بلده أَجزأَه، وعليه دمٌ، ذكره في «شرح المقنع» مع أَن اللائق بالإِمام الأَعظم في ذلك المحل الطواف ماشياً، لأَنه أَولى بالخضوع، وانسكاب الدموع، فتحسين ابن جماعة للسلطان طوافه راكباً خلاف ألأَوْلَى، ولهذا كان الملك الناصر خاشعاً خاضعاً لله،

ومنع الحجاب من منع الناس أَنْ يطوفوا معه، وصاروا يزاحمونه وهو يزاحمهم كواحد منهم في نية طوافه، وفي تقبيله الْحَجَر، وبلغه أَن جماعة من الْمُغْل، ممن حجّ قد اختفى خوفاً منه فأَحضرهم، وأَنعم عليهم، وبالغ في إِكرامهم، وغسل الكعبة بيده، وأَخذ أُزر إِحرام الناس غسلها لهم بنفسه وأَبطل سائر المكوسات من الحرمين، وعوض أَميري مكة والمدينة منها إِقطاعاً بمصر والشام، وأَحسن إِلى أَهل الحرمين، وأَكثر من الصدقات، وعمل معروفاً كثيراً في الحرمين.

وذكر للسلطان بمكة أَنَّ العادة كان يُحمل الماءُ إِلى خلَيْص ليجري الماء من عين بها إِلى بركة يردها الحاج، وقد انقطع ذلك منذ سنين، فصار الحاج يجد شدة من قلة الماء بخلَيْص، فرسم السلطان بخمسة آلاف درهم لإِجراء الماء من العين إِلى البركة، وجعلها مقررة في كل سنة لصاحب خلَيْص، ليوجد الماء في البركة دائماً.

قلت: وهي باقية بالديوان السلطاني، وصرفتها، لأَصحاب خُلَيْص من جملة مرتباتهم، والمقررات المستمرة، وعوائدهم المستقرة إِلى يومنا هذا، وقد أَدركتُ هذه العين في باكورة العمر، وسِن الشباب في سنة ثمان وثلاثين وتسع مئة، ولاية مصطفى كاشف الغربية لإِمرة الحاج، وقد انقطع الماء ووقفت العين، وتعطلت البركة التي بها، ووصل الركب فلم يجد بها ماءً فصعد الحاج إِلى مجاري العين بالجبل، وبالوادي، وتتبّعوا محالَّ الماء، فلم يحصلوا من ذلك طائلاً، وباؤوا بمشقة شديدة، وكوتب نائب السلطان سليمان بن عثمان بمصر وهو إِذ ذاك سليمان باشا بما حلّ وجلّ من المشقة، فعرض ذلك على المسامع السلطانية، وبرز أَمره الشريف السلطاني أَجرى الله الأُجور في صحائفه، وأَدام بِرهُ الموفور بساعي البيت وطائفه بعمارتها على أَحسن قانون، وتنوع من الفنون، فعمرت على يد أَمين جُدَّةَ من مالها، وأُتقنتْ، فجرى الماء على حال التسديد، وتنظيف مجراه، وأُعيد تبييض الفسقية بالنورة المحكمة الصناعة، فجاءت بحمد الله طيبة الإِساغة والنفاعة، وبنى نائب جُدَّة بجانبها قبة لطيفة، وبيضها بالجص والنورة، داخلاً وخارجاً، وجعل على العين شاذًا مقيماً بخليص، لا يبرح عنها خارجاً، ولا يكون عن حراستها ومصالحها دارجاً، فعادت من أَعظم مناهل طريق مكة وأَنزهها ومن أَجل منازلها وأَفرحها، خصوصاً ما يزرعه أَهل تلك المحلة بجوانب مجاري العين من بعض أَشجار الليمون والأَعناب، ومن البطيخ اللطيف منظراً، ويلذ طعمه كالشراب، ومن أَنواع البقول والخضر، مما يجد به القادمُ إِلى تلك البقعة غاية الروح والأُنس بعد مشاق السفر، ويزول عن جسده ما كان به من الفتور والكلال والضرر، ويطيب له خبر تلك المحلة والمنزلة، بعد السماع والخبر، وكم

مرت لنا بها أَوقات، وورد علينا فيها وبها نعم ومسرات، في صحبة أَماجد الأُمراء الأَعيان، ذوي الْفُتُوَّة والمكارم والإِحسان، إذ الناس فيهم بقية من صبابة، تغمّدهم الله برحمته، وأَسكنهم فسيح جنته، بفضله وطوله، ومنته وحوله.

ما يخُصُّ أَهل دَرَك خُلَيْصٍ مما كان مرتباً قديماً، وأُضيف إِليه مرتب ما بعده من الدرك كما ذكرنا ذلك في محله من المنازل والمناهل من الأَشرفية القديمة المعاملة ست مئة وثلاثة وأَربعون ديناراً.

وقد خرج كلامنا في هذا المحل عن المقصود، فلنرجع إِلى ما كنا بصدده مما ذكره ابن فهد في تاريخه من الخبر الموررود فنقول:

ولما أُخرجت كسوة الكعبة لتعمل على البيت صعد كريم الدين الكبير، إِلى أَعلى الكعبة، بعدما صلَّى بجوفها، ثم جلس على العتبة، ينظر إِلى الخياطين فأَنكر الناس استعلاءَهُ على الطائفين، فبعث الله عليه وهو جالس نعاساً سقط منه على أُم رأْسه من علو البيت، ولو لم يتداركه من تحْته لهلك، وصرخ الناس في الطواف تعجباً من قدرة الله تعالى في إِذلال المتكبّر، وانقطع ظُفُرُ كريم الدين فتصدّق بمال جزيل، وسأَل المجاورون بمكة، ومَن بها من التجار أَنْ يُخَلِّف عندهم عسكراً لمنع حُمَيْضَة بن أَبي نُمَيٍّ إِنْ هو قصد أَهل مكة بسوءٍ، فجرد مِمّن معه الأَمير شمس الدين قرا سنقر (شاد العمائر) ومعه مئة فارس.

وحجّ ثالث مرة في سنة اثنتين وثلاثين وسبع مئة، ورسم بسفر (الخواتين) وبعض السراري، وطلب صنّاع مصر لعمل الاحتياجات، وركب السلطان في سبعين أَميراً من قلعة الجبل، يوم الخامس والعشرين من شوال، وبعث الأَمير ايتمش المحمدي، ومعه مئة حجّارٍ إِلى عقبة أَيْلَةَ فوسَّعها ونظفها، وقدم البركة يوم السبت ثاني عشر المحرم.

ذكر مَن حجّ من ملوك التكرور

أول مَن حجّ من ملوك التكرور كما ذكره المقريزيُّ: سرنبداله، ويقال: برمندانه، ثم حجّ منسادل بن ماري بن حباطة في أيام الملك الظاهر بيبرس، ثم حجّ شاكوره ثم حجّ منسا موسى بن أَبي بكر الأَسود ملك التكرور، في سنة أَربع وعشرين وسبع مئة ومعه أكثر من خمسة عشر ألفاً من التكاررة، ودخل إِلى السلطان بالقاهرة فسلّم، ولم يجلس ثم أُركب حصاناً، وأَهْدى هو إِلى السلطان أَربعين ألف مثقال،

وإلى نائبه عشرة آلاف، ونزل سعر الذهب بالقاهرة درهمين، وثارت فتنة بين التكاررة والترك بالمسجد الحرام، شهرت فيها السيوف في المسجد، وكان ملك التكرور بالشباك المشرف على المسجد الحرام بجانب رباط الخوزي، فأَشرف من الشباك على أصحابه، وأشار إليهم بالرجوع عن القتال فكفُّوا، وذلك من رجحان عقله، إذْ لا ملجأَ له ولا ناصر في غير وطنه وأَهله، ثم رجع ملك التكرور فخلع عليه السلطان خلعة الملك عمامة مدورة، وجبة سوداء وسيفاً مذهباً.

وذكر المقريزي أنه قدم إلى مصر بهدايا جليلة، وذهب كثير، فأَرسل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون (المهمندار) لتلقيه، وركب به إلى القلعة في يوم الخدمة، فامتنع أنْ يُقَبِّل ٱلأَرْضَ، وقال للترجمان: أنا رجل مالكي المذهب، فلا أسجد لغير الله. فأَعفاه السلطان من ذلك، وقربه إليه، وأَكرمه وخرج مع الموكب، فسار ركباً وحده ساقة الحاج، حتى قضى حجّه، وتأَخر بمكة بعد الموسم أيَّاماً، وعاد فهلك كثير من أصحابه وجماله بالبرد، حتى إنه لم يصل معه إلا نحو الثلث، واحتاج إلى قرض مال كثير من التجار، وكان إذا حدثه أصحابه في أمرٍ كشفوا رؤوسهم عند مخاطبته عادة لهم.

قتل: والتكاررةُ مشهورون بكثرة الذهب، ومما يدل على ذلك ما اتَّفَق في عام إحدى وأَربعين وتسع مئة، ولاية المرحوم سنان يوسف من جانم الحمزاوي لإِمرة الحاج، وهو أنه في تلك السنة حجّ ركب كبير من التكرور، صحبة رجل من أعيانهم، ولهم ترجمان يتكلم عنهم مع الحكام في مصالحهم، فضاع لبعضهم ببعض المنازل سبائك وقضبان من الذهب، فجاؤوا إلى أمير الركب، يطلبون منه المساعدة لهم في الفحص عن السارق، فاهتم بذلك اهتماماً زائداً، ولم يظهر الذهب المسروق عند أحد، ولا تبيّن لهم غريم يطالبونه، فأَكثر القول على أمير الحاج في معنى ذلك، فبرز أمره لشهود المحمل أنْ يتوجهوا بصحبة كبيرهم إلى محلهم، ويضبطوا ما هو بصحبة كل رجل منهم من الذهب بعدة مثاقيل، ففعلوا ذلك إلا بعض رفاقهم فامتنعوا من كتابة ما معهم فسأَل بعض الشهود: ما السبب أن لا تكتب ما مع هؤلاء النفر؟ فقال: إنهم فقراء يملك الرجل منهم نحو ثلاثة آلاف مثقال من الذهب، ودونها فلا يحتاج إلى كتابة مثل ذلك.

السلطان إدريس بن علي ملك البرنو، وهو أكبر ملوك التكرور وأعظمهم مملكة، وجميعهم يُؤَدُّونَ إليه [. . . .][1] كما هو المشهور، حجّ في عام اثنتين

(١) بياض في الأصل.

وسبعين وتسع مئة في ولاية أحمد أمير اللواء [....][1] فوصل المخبر بقدومه من طريق الصعيد بحراً في العشر الأَخير من شهر رمضان المعظم قدره، من السنة المذكورة، فلما علم علي باشاه مصر بقدومه، جهّز له جماعة من خواصه وأكابر (الجاويشية) لملاقاته من مصر القديمة وكان عين... وسكنه المنزل المعروف بأَقبردي (الدوادار) الكبير كان، في الدولة الجركسية المجاور للرملة، وهو مكان معدٌّ لأستاذه [....][2] لسعته ثم انثنى عن ذلك لحلول الوطواط بقاعته الكبرى، ولما ورد من مصر القديمة [....][3] راكباً للسفن ومعه أولاده الصغار وأخته، وأقوام كثيرة من أهل دولته وخواصه ووزرائه فأَنزله علي باشاه بالقصر الذي داخل البستان بالميدان السلطاني، واهتم بشأْنه ونقل إِليه ما يحتاج إِليه، وقدم معه من ملوك التكرور السلطان عبد الله ابن جل - بضم الجيم المعجمة - ملك بلالاً، من بلاد التكرور وليس له مع إدريس ذكر يذكر بل يُعَدُّ من جماعته، وسأَلت بعض التكاررة ممن يلوذ به ما مقدار عساكره في تلك المملكة فقال لي: يزيدون عن مئتي ألف، ونزل السلطان عبد الله ابن جل بالرملة تجاه مدرسة السلطان حسن ومعه أخت السلطان إِدريس في خيام المقعدية، وهي على صفة المكبات التي تغطى بها آنية الطعام من القماش الأَبيض، وعلوها ضيق منقوش باللون الأَسود، وسفلها واسع جدًا، واحتفل الباشاه بأَمره احتفالاً كُلِّيًا، فكان يسايره في غالب الأوقات والسكون، بحيث أنه كان يجلس مع باشاه مصر إِما مُقْعِياً أَو مضطجعاً أو مُتَّكِئاً، إِشعاراً بعدم الاكتراث بمحل نائب السلطنة العليا بمصر، وبلغني أنه بالغ (؟) فقال: إِن هذا نائب فهو لا شيء، ولم يقم لأَحد من أمراء الأَلوية الواردين للسلام عليه، بل مَن بالغ في إِكرامه مدّ يده له فقط، وأُخْبِرْتُ أنه لما قدم بلاد الصعيد خرج الأَمير محمد بن عمر الهواري إِلى لقائه فلما قابله لم يزده على أن مدّ يده له، مع أنه [....][4] عن [....][5] قدر حافل فأَعطى باشا مصر ومَن رأى عطيته من الأَكابر حسب مراتبهم وكان ترك بخط الجامع الطولوني، ولداً قاصراً مع بعض أَخصائه لم يحج فتردد إِليه بعض [....][6] ممن هو بالقرب من داره إِكراماً لوالده، فلما بلغه ذلك أَعطاه حصاناً من الخيل مثمناً [....][7] ويذكر عنه أنه ترك بدار ملكه ولداً له كبيراً وضعه في بيت، وترك مفتاحه مع نائبه على المملكة [....][8] حيًا فلا تطلقه حتى أحضر، فإِن قدر الله بوفاتي فأَطلقه ليكون عوضي ويقال إِن والده [....][9] موجود بدار ملكه طاعن في السِّنِّ،

(١، ٩) بياض في الأصل.

ولما أن توجه الركب جهزه علي باشاه في محفة رومية مغشاه [. . . .][١] وبصحبته أُخته ومَن يلوذ به من الحرمي، في ثلاثة أحمال محاير مغشاة، وثلاثة خيول جنائب من [. . . .][٢] لا يفارقه طبل كبير وزمر لائق بهم، لا يفترون عن الطبل مرة، والبوق مرة، هكذا ليلاً ونهاراً [. . . .][٣] من شعائر ملكهم فيكون [. . . .][٤]

بمحل الملك ومسيرة مهيبة له وتعظيماً لشأْنه بين الرعية، ووجه الباشا صحبته أمير (آخور) حضرته فكان حاجباً له إذا ركب الفرس، وإذا كان في المحفة لا يفارقه في وقت من الأَوقات مع مصاحبته للوزراء والتراجمة وخواص مملكته، وكان يسير في جوانب الركب وفي ساقته وتارة في أول الركب حيث شاء في الفضاء وفي المضيقات يتقدّم أو يتأَرخ حسب اختياره.

وحجّ في هذه السنة ابن عبد المؤمن المغربي في قافلة كبيرة من بلاد المغرب، فكان الآخر في ناحية.

ومن غريب تعظيم أمراء التكرور له أنه إذا أراد وزيرٌ أو ترجمان مخاطبته في أمر ما، طرح نفسه على لأَرض وألصق صدره بها، وحسر عمامته عن رأسه، وصفق بيده وخاطبه حينئذ، فيجيب بقليل من الجواب، فلا يعاود هيبَةً له.

ومَرَّ موكبه في منازل الركب على مخيم أمير الحاج، فخرج إليه مبادراً وقبل يده وأنزله بمجلس في مجلسه صدراً، وجلس أمير الحاج تجاهه متأَدِّباً، فلم يلبث غير يسير ونهض راكباً على حاله.

ولما دخل مكة المشرفة توجه إلى منزل الشريف حسن بن أبي نُمَي أمير مكة، فأَكرمه وألبسه قفطاناً من الشطمة الذهب، فنزعه وجهزه إلى أمير الحاج، إشعاراً أَنَّ منزلتي فوق ذلك، وأنت أولى به، وجهّز إليه الشريف حسن مئة رأْس من الغنم ومن العسل والسمن وغير ذلك، وكان في الموقف الأَعظم واقفاً وراء أمير (آخور) باشا، لأَنه يحجبه حتى في ذلك المحل المكرم، وهو بثيابه وهَيْئَتِهِ في حالة الحل بعمامته، وهي من اللون الكحلي مصقولاً، ولثام أزرق، وعليه أثواب وسيعة الأَكمام، ولم يُغَيِّرْ من حالته في الحل شيئاً.

ولما نفر الركب ضرب طبله وزعق البوق الذي بصحبته، ولم تكن معه راية ولا علم.

(١ ، ٤) بياض في الأصل.

وطوّفه صاحبُنا القاضي محمد بن عبد الحق النويريُّ المالكيُّ، فيقال: إنه دفع إليه ثلاث مئة مثقال من التبر، والله أعلم بحقيقة ذلك.

ولما رجع من الحج جاءت إليه الملاقاة في كل محل، فجهز إليه الأَمير محمد بن عمر أمير عربان هوارة إلى الينبع خمسين حملاً من الأَرز والسكر والعليق والزاد، وجهز إليه علي باشاه مصر صحبة أمراء الملاقاة إلى أكره وإلى عقبة أيلة، وعاد معظماً مبجلاً لكنه غير راض عن أمير الركب، لكونه كان يضرب بعض التكاررة لشدة حمقه جداً.

واتفق في حالة الرجوع أنَّ أمير الركب مرّ على ركب السلطان إدريس، فضرب بعض أولاد أكابر دولته، فبادرت التكاررة بسيوفهم ورماحهم إليه ليفتكوا به، وبلغ السلطان، وكان في المحفة فطلب الفرس وأراد أن يوقع بأَمير الركب فعلاً، فبادر (دوادار) الركب وهو قيت الجركسي (كيخية) العساكر الجركسية، ونزل عن فرسه، وقبَّلَ يده، وتلطّف به حتى استمر في محفته، ورمى أمير الركب السوط من يده وتوجه هارباً منهم، فلم يصدّق بالنجاة، ولذلك كان راضياً عن (الدوادار) وأثنى عليه عند باشاه مصر دون أميره.

وأخبرني صاحبنا قيت المذكور أنه لما حضر من الحج أضافه في منزله المشرف على بركة الفيل، وهو من المنازل المشتهرة في حسن البناء والسعة، فلما استقر بداره قال له: أنا لا آكل من طعامك في منزلك، بل تجهزه إلى محلّي من الميدان السلطاني، قال: فالفاكهة والحلوى هل تجابرنا بأَكل شيء منها؟! قال له: فتخرج أنت وكُلُّ من هُنا. إلى خارج المحل، وجلس وحده فأَكل ما تيسَّر، ثم صفق بيديه فعاد. . . مع صاحب المنزل وجهز إليه المأْكولات إلى حله، وركب وتوجه. هكذا أخبرني بلفظه.

ومما ذكر من مكارم أَخلاقه أنه لما عاد إلى القاهرة أمر جماعته أن لا يأْخذوا من الغلمان الذين كانوا بصحبته وهم خدمه [. . . .][1] السقائين والفرّاشين وغيرهم شيئاً من الجِمال ولا من القِرب ولا من (اليرق) المتعلق بالحج، بل يكون هبة لهم، وأَعطاهم من ماله فوق ذلك لكل نفر مئة نصف، وأقام بالقاهرة إلى يوم الجمعة ثاني عشري صفر الخير، وتوجه عائداً من طريق مصر إلى الصعيد راكباً السفن، فخرج في

(١) بياض في الأصل.

ذلك اليوم، وتأَخر بعده عبد الله بن جل سلطان بلالاً إِلى اليوم الثاني، فركب السلطان إِدريس السفنَ من السواقي السلطانية، وتوجه في سبعة مراكب من مراكب الصعيد الكبار السلطانية، وتوجه في ثاني يوم رحيله السلطان عبد الله في ثلاث مراكب كبار، وكانا اشتريا من الخيول الحسان قدراً حافلاً جدًا.

ولما أراد السلطان إِدريس التوجه أخذه بيده علي باشاه مصر ومَرَّ به على إِسطبلات خيوله، وخيّره فاختار منها ثلاثاً من أَحسنها وأثمنها فوهبها له، وتوجه مكرماً إِلى بلاده.

ومن سيرته أنه زار الشيخ العلامة الجمال محمد البكري الصديقي الشافعي، في طريق الحجاز الشريف وقال له: يا مولانا أنتم آل الله نتردّد إِلى محلكم تبركاً، لأَنكم محل ذلك.

قلت: ذكر صاحب «نزهة العيون» مملكة التكرور فقال: وأما التكرور فهم منسوبون لمدينة تسمى تكرور بها العلماء والصلحاء، ولها نبر (؟) وملك مستقل بنفسه، واسم التكاررة غلب على سائر مَن يسكن بلاد برنو، ولهذا البلد ملك عظيم أعظم من ملك غانة، وأوسع مملكة، لأَن في يده هذا البلد، وبلد كران، وبلد ودان، وبلد فران، وبلد زويلة.

وأما بلد برنو فمن بلاده كانم، وهي مدينة عظيمة مبنية باللبن، ولها أنهار كثيرة غزيرة الماء سايغة (؟) وجيمي - بالجيم ممالةً إِلى الشين - وهي آخر المدن التي يسكنها الملك.

ومن البلاد التي يسكنها كاكا ويقال لها غاغان، ونانيقم وأبكم وأفليكم وكمتولوا وغيرها. وهي نحو عشرين مدينة، وكلها أخصاص، ولا يسكن البناء إِلا الملك، ولكل بلد سوق، ويقصد من كل ناحية في يوم من السنة مخصوص، وهم يلبسون المخيط ويتعمّمون، ولا يأْكل أحد من التكرور مع أحد، حتى مع امرأته وولده، يرون أن ذلك يقل بالحرمة.

ومن أدبهم أن الخادم لا يمرُّ بقوم مجتمعين، وإِذا اضطرت لذلك مشتْ على ركبتيها حتى تتعداهم، وهم يعظمون ملوكهم غاية التعظيم، بحيث كان الرجل إِذا. . . ذلك رمى بنفسه الأَرض مكبًا على وجهه. انتهى كلامه.

الملك المجاهد: صاحب اليمن حجّ في سنة اثنتين وأَربعين وسبع مئة، وتوجه من بلده إِلى مكة في عسكر كبير، وفي خدمته الشريف ثُقَبَةُ ابن صاحب مكة رُمَيْثَةَ بن

أَبي نُمَيٍّ، فلما بلغ يَلَمْلَمَ ميقاتَ الإحرام من ناحية اليمن يوم الاثنين سلخ ذي القعدة، أَمر بنصب الأَحواض فنُصبتْ، ومُلئت ماءً، وطُرح فيها من السويق والسكر ما شاء الله، وسبَّلهَا للناس، وشرب منها الصغير والكبير، والقاصي والداني، وتصدّق على الناس يومئذ بدراهم وثياب كثيرة للإحرام، ووصل إليه في يَلَمْلَمَ أميرُ مكة الشريف ابن أَبي نُمَيٍّ، ومعه سائر الأَشراف وأَعيان مكة، فلما حضروا بين يدَي المجاهد تصدّق عليهم أَجمعين على قدر مراتبهم، وأَعطى الشريف رُمَيْثَةَ من النقد العين أَربعين أَلف درهم، جددا مجاهديَّةً، وأَعطاه من الكسوة، وأَنواع الطيب من المسك والعنبر والعود، ما يحمله أَربعة من الحمّالين، وأَعطاه عدة من الخيل والبغال، كوامل العُدَد والآلات، وخلع عليه وعلى مَن معه من الأَشراف، ثم سار إلى مكة فدخلها عشاءَ لَيْلة الأَربعاء ثاني ذي الحجة الحرام فطاف وسعى، ودخل الكعبة الشريفة بعد سَعْيه، فلما خرج من الكعبة دخل مدرسته المجاهدية، ثم خرج إلى المخيم في آخر لَيْلته، فلما أَصبح صلّى الصبح، ثم دخل مكة فأَقام بمدرسته يوماً وليلة، وهو يشاهد الكعبة، ومَن يطوف بها من الناس، فلما كان يوم التروية ركب السلطان في عسكره إلى منى، وبات بها، فلما أصبح سار إلى الموقف في تواضع وخشوع وأدب، فلما كان وقت الوقوف ركب والأَشراف في خدمته، والقواد وغيرهم من المصريين، ووقف عند الصَّخَرَاتِ، يَتَوَخّى موقفَ النبي ﷺ، فلم يزل واقفاً بين يدَي الله تعالى بتسبيح وتهليل وتقديس إلى آخر النهار، وأَطلق علمه بجبل عرفة، وكان المصريون قد عزموا على منعه من ذلك، ومن الوقوف عند الصخرات بعرفة، وكان الأَشراف والقواد في خدمته إلى أن قضى مناسك الحج، وعَمَّ بصدقته أهل مكة.

وذكر العلامة ابن فهد في تاريخه «إتحاف الورى» أنه لما دخل عرفة وصل إليه آخر النهار أَميرا الركب المصريِّ والشامي، وسأَلاه المثول بين يديه لتقبيل كفه فَأَذِنَ لهم، فوصلا وقَبَّلا كفه مراراً، وأَكثرا من الدعاء له، فلما غربت الشمس سأَلاه أن يأذن لهما في المسير في خدمته، فأَمرهما أن يسيرا في عساكرهما ومحاملهما، فقبَّلا يده وانصرفا، فلما قضى المناسك تقدّم إلى مكة فطاف بها طواف الوداع، وخرج وأشعر العسكر بالتأَهب للسفر، وسار آخر يومه، وأصبح على بئر آدم وهي التي تُسمّى بئر علي، وإنما هي بئر الحسين بن سلامة، فأَقام هنالك إلى يوم الخميس سابع عشر الحجة، وسافر وهو متغير الخاطر على بني حسن، لكونهم لم يمكِّنوه من كسوة الكعبة، وكانت الأَشراف والقوّاد في خدمته طول إقامته بمكة، إلى أن سافر.

ثم حجّ ثانياً سنة اثنتين وخمسين، وآل أمره في هذه السفرة إلى فتنة بينه وبين

أمراء الحاج والشريف صاحب مكة، واقتتلوا، وانهزمت عساكره، وقُبِضَ عليه وتوجه به أمير المصري مكرماً، فقابل السلطان بمصر، وعاد إلى بلاده مكرماً، ولذلك خبر طويل، حذفناه إذ لا يحتمل هذا المختصر ذلك.

الملك الأَشرف: شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون، أراد الحج في سنة ثمان وسبعين وسبع مئة فجهّز عشرين قطاراً من الهجن بقماش ذهب، وخمسة عشر قطاراً يعني حرير أيضاً، وقطاراً ملبّس خليفتي، وقطاراً ملبّس أبيض برسم الإحرام، ومئة رأس خيل مشتهرة، وكجاوتين، وتسع محفات بأَغشية حرير مزركش، وستة وأربعين زوج محاير، وخزانة، عشرون جملاً، وقطارين جِمال محملة خضر مزدرعة، ومن الجِمال المحملة شيئاً كثيراً، وتوجه معه من الأُمراء المقدّمين تسعة، ومن (الطبلخاناة) خمسة وعشرون، ومن العشراوات خمسة عشر أميراً. وقال المقريزي في «السلوك» بأنه خرجت أَطلاب الأُمراء قبله في ثاني عشر شوال، بتجمُّل عظيم إلى الغاية، وأناخوا ببركة الحاج، وخرج في ثالث عشرهِ طلب السلطان، ومعه من الحرير والذهب ما لا يقدر على وصفه، وتفنّن الغلمان في حسن ترتيبه، وتأَنقوا فيه، وأبدوا من صنائعهم العجائب والغرائب، وذكر ما قدمناه من الأَكوار والخيول والمحفات والمحائر، وذكر بعدها من أصطال المطابخ والمشارب، وأنواع المأْكولات الملوكية ما لا يدخل تحت حصرٍ، منها ثلاثة آلاف وست مئة علبة حلوى، زنة كل ما في علبة خمسة أرطال، فيكون ذلك مئة ألف وثمانين ألف رطل، جميعها قد عُملت من السكر النقي، وطُيِّب بمئة مثقال من المسك، سوى الصندل والعود، وعمل الأُمراء من الحلوى مثل ذلك. وأما الأَجناد والأَعيان فلم ينحصر ما عملوه من هذا الصنف.

ثم قال المقريزيُّ: فانظر عظمة بلد يعمل فيه السلطان وأمراؤه في شهر واحد ثلاث مئة ألف رطل وستين ألف رطل من السكر سوى مَن دونهم، ولعله نظير ذلك، ولم يعز مع هذا وجود السكر، ولا غلا سعره. قال: فقد أدركنا هذا وعلمنا صحته، وحمل معه عدة من أرباب الملاهي والمخايلين، فأَنكر الناس ذلك من أنه غير لائق بالحج فكان مشاهدة هذا الطلب يوماً مشهوداً، ومنظراً بديعاً تتعذّر حكايته، ووصفه، ونزل إلى بركة الحاج فأَقام بها إلى يوم الثلاثاء ثاني عَشْرَيْهِ، ورحل منها بكرة النهار، ولم يزل سائراً بمَن معه حتى نزل من عقبة أَيْلةَ جانب البحر في تاسع عشري شوال، ولما نزل بمناخ أَيْلةَ ركب عليه المماليك بسبب تأْخير النفقة، فانهزم السلطان الأَشرفُ في نفر يسير، وعادَ إلى القاهرة، إلى أَنْ قُبض عليه في بيت امرأة في ليلة الاثنين خامس ذي القعدة فكان آخِرَ العهد به، وقُتِل خَنْقاً، وكان تسلطن ولده المنصور في

غيبته على يد الأَتراك بمصر، ورجع في تلك السنة غالبُ الحاجِّ من العقبة لما نزل بهم، وحجّ مع المحمل، وبقيَّةِ الناس الأَمير بهادر الجمالي.

مولاي السلطان حلي عبد العظيم سلطان المغرب، قدم من المغرب فارًا في سنة ست وستين وست مئة، فأَنعم عليه السلطان الملك الناصر، وأجرى له الرواتب السنية، وتوجَّه حاجًا صحبة الركب في تجمُّل زائد، ولما عاد أخذ الأَمير يلبغا في تجهيز مولاي حلي بعد عوده من الحج إِلى بلاده، وخلع عليه السلطان فرجية حرير أطلس أحمر، من تحتها تحتانية أطلس أصفر، وعلى الفرجية تركيبة زركش، وطوق بعنبرانية، وأُلبِس طرحة على عمامته، وقلد بسيف محلًى مذهّب، في يوم الاثنين ثامن عشري صفر، وسافر فمات على تروجه من أعمال البحيرة في أوائل ربيع الأَول سنة سبع وستين وسبع مئة.

الملك المنصور: حسن بن المؤيد سليمان بن الحسين صاحب كلوة، حجّ سنة ثلاث عشرة وثمان مئة، وكانت الوقفة بالجمعة، وتصدّق على أعيان الحرم وزار بعد الحج، وركب البحر من أثناء الطريق إِلى بلاد اليمن ليتوصل منها إِلى بلاده من عدن.

الملك الناصر: حسن بن أبي بكر بن حسين بن بدر الدين متملك دمرة، التي تسميها العامة دِيبة، وهي جزيرة في البحر تجاور سيلان. حجّ في عام ثمان وثلاثين وثمان مئة.

السلطان عبد العزيز: بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق أبو فارس المريني بن أبي الحسن بن أبي سعيد البربري، صاحب فاس من بلاد المغرب، لما مات أبوه أبو الحسن اعْتُقِل هو إِلى أن تغلّب الوزير عبد الله بن علي على أمر الملك، ونصب تاشفين بن أبي الحسن أخا عبد العزيز هذا في السلطنة، وذلك في سابع عشر ذي القعدة سنة اثنتين وستين وسبع مئة، فثار محمد بن أبي عبد الرحمٰن بن أبي الحسن في صفر سنة ثلاث وستين، وكانت له حروب آلت إِلى خروجه إِلى مصر، فَحَجَّ ورجع فمات في سنة أربع وسبعين وسبع مئة.

الملك الصالح: صاحب حصن كيفا، حجّ في سنة ست وسبعين وسبع مئة، وعزم على المجاورة والتخلّي عن الملك فأَشار عليه مَن معه من أُمرائه بتأْخير ذلك لئلا تضيع المصلحة بأَهله وقومه بالحصن، فرجع إِلى مقر ملكه.

الملك جمجمة: ابن السلطان محمد بن مراد بن محمد بن بايزيد يلدرم بن مراد بن أرخان بن أرطغلو بن أعوز بن عثمان، ملك الروم، وهو أخو السلطان

بايزيد بن محمد، ورد إلى الديار المصرية في ولاية الملك الأَشرف قايتباي، فارًّا من أخيه السلطان بايزيد بن محمد بن مراد، في عام ست وثمانين وثمانمئة بعد وفاة والده محمد في عام تاريخه، فأَكرمه السلطان، وأحسن نزله، وقام بما يجب له من حقوق تأهيل أولاد الملوك، واستأذن السلطان قايتباي في الحج ذلك العام فأَذن له، وحجّ في غاية الجمالة والجلالة، وكان أمير الأَول القاضي شهاب الدين أحمد ابن القاضي جمال الدين يوسف ناظر الخواص الشريفة والجيش، وأمير المحمل يشبك من حيدر والي القاهرة، وكان الجمجمة، في صحبة الركب الأَول، وحجّ في تلك السنة شاهين الجمالي نائب جدة كان، وهو مملوك والده ناظر الخواص يوسف، جهّزه السلطان صحبته، ليكون له معيناً، وعاد السلطان الجمجمة صحبة الركب الأَول على حاله، فكان قدومه إلى بركة الحاج في يوم الاثنين حادي عشري المحرم سنة سبع وثمانين فنزل هو وأمير الأَول، وشاهين في المدورة السلطانية وأكلوا من المدة، وكان السلطان قايتباي جهز لملاقاته (أمير كبير) فمَن دونه من الأُمراء وأهل الدولة، وتوجه من البركة في تجمُّل هائل، وعليه أبهة الملك، ونزل في تربة الأَشراف قايتباي في الصحراء، ونزل أمير أول في تربة والده، وركب السلطان جمجمة في يوم الثلاثاء، وصعد إلى الديوان، ومعه أمير أول، وشاهين، فأَلبسهم السلطان التشاريف، ونزلوا وجميع الأُمراء في خدمة الجمجمة إلى داره بالقرب من خط سفل الربع الظاهري، ثم توجه أمير أول وشاهين والأُمراء إلى دورهم، وأما أمير المحمل يشبك بن حيدر والي القاهرة يوم الأَربعاء، ومعه أمير الحاج العراقي، وولده ومحمله، فأَلبس السلطانُ الأَميرَ يشبك فقط، وأما أمير الحاج العراقي فلم يلتفت إليه، ونزل في الترسيم هو وولده إلى دار الأَمير يشبك، وأكل المدة في داره، وداروا بالمحمل السلطاني بمصر والقاهرة، وقدامه المحمل العراقي خشباً بلا قماش، ولم يزل السلطان جمجمة بالقاهرة إلى أن توفي، ودُفن خارج باب النصر، وتربته مشهورة، وجعل لها وقفٌ حسن على فقهاء وصوفية يقرأون القرآن العظيم، ويهدون ثوابه للجمجمة، ومن عادة ملوك الروم إذا دفنوا على أن تجعل الستور و(البشاخين) على قبورهم، وتلف الشاشات على الطراطير، وتكون عمائم على القبر إشارة إلى مقام أصحابها، ومحلهم من الدنيا فكان ذلك بهذه التُّربة والله أعلم.

السلطان الملك الأَشرف أبو النصر قايتباي: وهو آخر مَن حجّ من ملوك مصر في سنة أربع وثمانين وثمان مئة، وكان أمير الحاج في تلك السنة خشقدَمْ الزمَّام، وكان خروج السلطان قايتباي من القاهرة بعد خروج الحاج بثلاثة أيام، وكان سائراً

عقب المحمل، ولما كان سابع عشر القعدة خرج صاحب مكة الشريف هَيْزع، والقاضي الشافعي برهان الدين بن ظهيرة، وابنه أبو السعود، وأخوه قاضي جدة الفخري أبو بكر إلى لقاء السلطان، وكان وصل إلى مكة قاصده في خامس عشر القعدة، وأخبر أنه فارق السلطان في عقبة أيلة ثم عقبه قاصد آخر وأخبر أنه فارقه من عيون القصب، وأنه سائر بين ركب الأول والمحمل، فلما توجه صاحب مكة، ومَن معه سمعوا به أنه توجه لزيارة قبر النبي ﷺ فقصدوه، إلى أن وصلوا بدراً فأقاموا بها إلى أن سمعوا بإقباله فلاقوه إلى الصَّفْرَاءِ وقربها، وسلّموا عليه، وعادوا معه إلى بدر فخلع على الشريف وبقية الجماعة، ومدَّ لهم سماطاً من الحلوى، وسماطاً من الطعام، ثم فارقوه من بدر، ولما وصلوا إلى بطن وادي مرٍّ، أقاموا به ليعمل له الشريف سماطاً فخرج إلى الوادي، ومعه بقية القضاة، والخطباء التجار، فلما كان يوم الأَحد مستهل ذي الحجة وصل السلطان وجماعته إلى قرب المخيم بالوادي، فسلّم عليه القادمون، ومشوا أمامه إلى المخيم، وانصرفوا فمدَّ له الشريف سماطاً حسناً، ثم في ثاني الشهر بعد صلاة العشاء دخل السلطان إلى مكة، ومعه القاضيان الشافعي برهان الدين بن ظهيرة، وابنه وأخوه، وإمام السلطان برهان الدين الكركي، فلما مَرَّ بالسوق في المسعى، وأراد الدخول من عند العطَّارِيْن، جفلت فرسه فتكعكعت، فطاحت تجفيفته، فبقي لحظة مكشوف الرأس، إلى أن جاء (المهتار) رمضان فرفعها، وناولها له، ثم لما نزل بباب السلام قرأ بعض القراء بمجمع رباطه: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧] إلى آخر السورة، وطَوَّفَهُ القاضي الشافعي برهان الدين بن ظهيرة، وسعَّاه، وهما ماشيان، وبجانبه إمامه برهان الدين الكركي، فقال لهما السلطان: أنا بين برهانين، ودعا له ولد الرَّيِّس على قبة زمزم، وهو في المطاف، فلما فرغ من سعيه عاد إلى الزاهر، وبات به إلى الصباح فخرج للقائه الشريف أمير مكة وأولاده، وعسكره، والقضاة والخطباء والأُمراء والتجار، فخلع عليهم كلهم من الزاهر، ودخلوا أمامه ركباناً لكن بعيداً منه، وكانت له أبهة عظيمة، ويوم مشهود لم يتخلّف أحد من الرجال والنساء عن الفرجة، واستمر الراكبون أمامه إلى أن وصلوا إلى مدرسته التي أنشأها بجانب باب السلام، أحد أبواب المسجد الحرام، فترجّلوا بالمَسعَى، ووقفوا إلى أن وصل، ونزل وطلع إلى مدرسته، فتوجه كل أحد إلى بيته، ومدَّ له الشريف سماطَيْنِ، واستمر السلطان بمدرسته لم يَرَهُ أحد بمكة إلاَّ مرتين: مرة وقت ذهابه لعرفة، ومرة توجه لدرب اليمن لرؤية ما قدَّمه أمير مكة من الخيل والإبل.

وأما الليل فإنه كان يطوف فيه، وأمر بصدقة كبيرة ففرقت على أعيان الناس، وقليل من أهل الحرم، والفقراء والغرباء، ولم يحصل لجماعة كثيرين من أهل الحرم الدرهم لافرد، لاستيلاء الخواجا شمس الدين بن الزمن، وجماعة السلطان عليها، وفرّقوها كما أحبُّوا، وحجّ السلطان، ومعه جماعة من الأَعيان منهم إمامه شيخ الشيوخ برهان الدين الكركي، والأَمير المحتسب يشبك الجمالي، وجاني بك سلاق، وولد المقر الشرفي يحيى بن الجيعان، نائب كاتب السر الزيني بركات، ومباشر السلطان، وخصيصه أبو البقاء، ورمضان المهتار، وكان الحج هَنِيئاً، والوقفة يوم الاثنين، ولم ينحر السلطان شيئاً من البدن، وسافر الحاج، وتخلّف السلطان بعد الحاج يومين، وقرّر في مدرسته القضاة الأَربعة مشايخاً، وأربعين طالباً للحضور وللدرس، وستة أنفس قُرَّاء صفة، ثم [بعد وقت] عُوِّضوا بقراءة شباك [وخادماً للربعة]، وخادماً لمصحف الشيخ وهو قاضي القضاة الشافعي، وداعٍ وَكاتب غيبة، وقارىء البخاري وفرّاشين وبوّاباً ووَقاداً وجبَّاداً، وثلاثة مؤذنين، ومسبلاً بسبيله، وعشرة أيتام ومؤدبهم، وناظراً على الرباط وهو أخو القاضي الشافعي، فخر الدين أبو بكر بن ظهيرة، وشيخان للرباط، وغير ذلك، وحضر المذكورون أو غالبهم بالمدرسة المذكورة صبح يوم الجمعة ثالث عشر ذي الحجة، والسلطان جالس بطرف الإِيوان القبلي، والقاضي الشافعي بصدر الإِيوان، وقدامه المصحف على كرسي، وفرّق على الحاضرين أجزاء، وأخذ السلطان واحداً من الأَجزاء، وختم القاضي الشافعي، ولم يُؤخذ من السلطان الجزء حتى وضعه من نفسه، ومُدَّ للحاضرين سماط من الحلوى، بدور المدرسة، ونزل السلطان، وجلس مع القضاة والناس، ثم اسقوا سكراً، وسُوْبَيه، وانصرفوا فلما كان يوم السبت رابع عشر ذي الحجة سافر السلطان، وأمر بهدم سبيل السيدة أُم الحسين بنت القاضي شهاب الدين الطبري الكائن بالمسعى المعظم، بالقرب من المروة على يمين الداخل إِليها، بإِشارة الخواجا ابن لزمن، والمهندس [الذي عمر المدرسة] لكون السلطان اشترى الدار المعروفة بالعلقمية في المروة، وما حولها من الدور، ورسم بعمارة قيسارية، ويجعل لها باب قبالة المسعى، لتظهر العمارة من الصفا إذا شِيْلَ السبيل فهدم لذلك، وسافر السلطان ظهر يومه بعد أَن طاف ودعا له ابن الرئيس فوق ظلة زمزم، وخرج معه الشريف صاحب مكة وأولاده، والقاضي الشافعي وجماعته، والتجار وغيرهم، إِلى وادي الزاهر الكبير، ثم رَدَّهم من هناك، وتوجه إِلى تخت ملكه وهو آخر مَن حجّ من الملوك بمصر.

وأخبرني السيد الشريف أحمد بن أبي نُمَيٍّ بن بركات بن محمد أمير مكة من

لفظه ـ في موسم سنة ثمان وخمسين وتسع مئة عند بروز أمر السلطان على لسان نائبه علي باشا بمصر بعدم تناولهم لمتحصل العشور العدني، وأن يضاف ذلك إلى السلطان سليمان ـ أَنَّ سبب تناولهم لذلك كَملا، عند سفر السلطان قايتباي إلى الحج، بمقتضى أنَّ جده محمداً بذل مجهوده في حسن تلقي السلطان، والقيام بخدمته فاستشار السلطان قايتباي بني الجيعان وبعض خواصه، فيما ذا ينعم به على الشريف محمد جَدِّه، في مقابلة بذل مجهوده في الخدمة، وكم يعطيه من ألوف الدنانير. فكان من جوابهم للسلطان: يبرز أمركم بسؤاله عما يريد، وهل يختار المال أو له مقصود غيره؟ فلما ذكر للشريف محمد ذلك عن السلطان كان من جوابه لسؤالهم: إِنَّ الموسم العدني لنا نصفه عادة قدمية، وللسلطان نصفه، فإن سمح السلطان بما يخصُّه كان ذلك أوفَى إِنعام، وأوفر وأَجل مكرمة تشتهر عنه وتذكر، فلما أُعيد ما قاله على السلطان برز أمره بذلك، وأمر بكتابة حكم سلطاني، وشمله بعلامته بمكة المشرفة، وصار المتحصل من العدني كملاً للشريف صاحب مكة من حينئذ.

ومن لطائف ما ينقل عن السلطان قايتباي رحمه الله في ملاقاة جماعة الشريف له أنهم لما مَدُّوا له السماط الحلوى لم يسأَل مع كثرة أنواعها إِلا عن نوع خاص من المعمول المخبوز يقال له بلغة المكيين: كُلْ واشْكُرْ. فقال للمقدِّم الذي جاء بالسماط: أَيُّ شَيْءٍ يسمى هذا يا (قشمر)؟ فقال: يسمونه كُلْ واشكر. فقال: سلِّم على الشريف، وقل له: أكلنا وشَكَرْنَا. وهذا كثير من سلطان تركي رحمه الله تعالى.

ولما عاد السلطان من مكة، وقارب دخول القاهرة أرسل للأَمير يشبك (الدوادار) الكبير، ولجماعة الأُمراء، وأعيان مملكته بأَن لا يلاقيني أحدٌ إِلا عند نصب حوضي ببركة الحاج، فشرع الأَمير يشبك في بياض القبة التي عملها خارج القاهرة، لينزل السلطان فيها، ومنها يكون طلوعه بالموكب إِلى القلعة، وهي التي بنى بجانبها داود باشا الباب والحائط، ومجلساً على الباب، يشرف منه الجالس فيه على الفضاء، ويرى منه تربة العادل، وغير ذلك، ولقد أحسن بعمارته، وزاد ذلك المحمل أبهة بنور بصيرته رحمه الله تعالى وأثابه.

ثم في يوم الاثنين ثامن المحرم ورد هجَّانٌ من السلطان، واجتمع بأَزبك الأَتابكي، والأَمير يشبك، وعلى يده كتاب، من مضمونه عدم الملاقاة للسلطان، وأن جميع الأُمراء لا يلاقِي أحدٌ منهم السلطان ببركة الحاج، ولا يلاقوا إِلا من القبة التي عند خليج الزعفران. وأخبر بأَنه فارق السلطان عند قبر الطواشي، فخلع على الهجان غالب الأُمراء، ثم في يوم الثلاثاء تاسع المحرم رجعت المدورة من بركة الحاج، وكانت

نصبت بها، وجميع (يرك) الأُمراء إِلى القبة، بخليج الزعفران، فنُصبت تجاه القبة حسب أوامره الشريفة، ونصب جاهها خامُ الأُمراء يتلو بعضه بعضاً ممتدًا إِلى صوب بركة الحاج، وكان الخام له تسعة أيام منصوب بالبركة، وأَراد الأَتابكي أزبك أن يعمل مدة عظيمة للسلطان في بركة الحاج، والأَمير يشبك يعمل مثلها في القبة، فمنعهم السلطان من البركة، وفي هذا اليوم نودي بالزينة فزينت القاهرة ومصر وأعمالها، وجميع الحارات والأَسواق، وفي حادي عشر المحرم وصل هجَّانٌ، وأخبر أنه فارق السلطان بعجرود، وأنعمت عليه (خوند) بتشريف، وكذلك جميع الأُمراء، فعمل الأَتابكي المدة في القبة، والأَمير يشبك مل مدة مثلها في القبة التي أنشأها في غيبة السلطان بين سبيل ابن قايماز والحارة الحسينية. فيقال: إِن الأَمير أزبك ذبح في مدته ثلاثين فرساً ومئتين معلوفاً غير الأَبقار، وأمر بعمل أربعين قنطاراً من السكر المكرر، لعمل المأْمونية والحلاوات، وَنَوَّعَ مُعَلِّمُ الحلاوة أنواعاً منها حتى إِنه بالغ في ذلك فعمل قصوراً من حلاوة، وأعمدة وأَصْحُناً، وأشياء غريبة، وكانت عدة صحون هذه المدة خمسة عشر ألفاً، وعلم مثل ذلك الأَمير يشبك في مدته الأُخرى. فكان دخول أسباق السقَّائين، وعقبهم الحاج في يوم الجمعة ثاني عشر المحرم، وأخبروا أن السلطان نزل ببركة الحاج، وأنه يتعشى ويبيت بها، فلم يستطع أحد من الأُمراء، ولا من المماليك السلطانية أن يتوجه لملاقاته بالبركة، حذراً من مخالفته، فلما كان صبيحة يوم السبت ثالث عشر الشهر المذكور ركب أزبك الأَتابكي والأَمير يشبك، وأمراء الأُلوف والأَربعينات والعشرات (والخاصكية)، وجميع المماليك السلطانية بالشاش وقماش الخدمة، وساروا إِلى أن وصلوا قريباً من المرج، وإِذا بالسلطان قد أقبل، فلما قربوا منه نزل أَزبك الأَتابكي ومَن معه، وسلّموا على السلطان وركبوا، وساروا قدامه إِلى أن بقي بينهم وبين المدورة مقدار رمية سَهْم نشاب، نزل الأَتابكي ونزل جميع الأُمراء (والخاصكية)، والمماليك مشاة قدام السلطان إِلى المدورة، وهو راكب بمفرده إِلى أن نزل في المدورة وقت الضحى، ومُدَّت له المدة التي ما عُمِلَ مثلها في العصر، فلما بدأ السلطان في الأَكل ازدحمت العامةُ على المدة فضربهم رؤوس النوب فنهرهم السلطان، ورموا العِصِيَّ من أيديهم، ثم أمر السلطان العامة أن يقعدوا على السماط، ويأْكلوا، فصار كل مَن أكل من صحن يأْخذه، وخطفوا غالب المدة، وكسروا الباقي، كل ذلك والسلطان جالس، ووقعت عمامة أحد العوام في الزحام فلم يجدها، وادَّعى أنه كان فيها عشرون ديناراً، فلم يُلْتَفَت إِليه، وقيل له: الذي في رأسه عشرون ديناراً يزاحم على الطعام؟! وسمعه السلطان وقام، فتحوّل إِلى غيرها فعارضه شخص من العامة، وقال

له: يا مولانا السلطان كنت مسافراً إِلى مكة المشرفة فما حصل لأَحد من خلق الله تشويش، وفي هذا اليوم خطفوا المماليك في الزينة عمائمنا، وضربوا الناس. وكان الذي خطف عمامة واحد لا غير. فقال السلطان: لا حول ولا قوة إِلا بالله العلي العظيم ما بقينا نطلع القلعة إِلا في غداة غد، فلما قال السلطان ذلك احتاج الأَمير يشبك أنه بطل مدته التي شرع فيها في القبة التي أنشأَها، وصار يعملها بالقلعة بالحوش السلطاني، ومَرَّ ثِقل السلطان بالصحراء متوجهاً إِلى القلعة يقدمه اثني عشر جملاً من الشقادف ضمنها رقيق، ذكور وإِناث، وستة عشر جملاً مخزومة، ثم مرّ بقية الحمل فكان أوله تربة الملك الظاهر خشقدم بالصحراء، وآخره تربة الملك الظاهر برقوق، وورد على السلطان وقت المغرب خبر من مماليكه أنَّ ثلاثة أنفار من مماليك الأَمير يشبك قتلوا نفراً من مماليك السلطان، فعزم السلطان على الركوب وقت الفجر، وركب السلطانُ صبيحة يوم الأَحد بالشاش والقماش، وجميع الأُمراء، (والخاصكية) وحمل الأَتابك أَزبك القبة والطير على رأس السلطان من ناحية اليمين، وهي عبارة عن مظلة كما كان ذلك قديماً للخلفاء الفواطم بمصر، وخرج النصارى واليهود لملاقاة السلطان، وفي أيديهم الشموع الموقدة، منطلقين الأَلسن بالدعاء للسلطان، مشاة من القبة التي بخليج الزعفران إِلى القبة التي أنشأَها يشبك للسلطان في غيبته بمكة، فلما وصل السلطان القبة تضارب النصارى واليهود، وصفع بعضهما بعضاً وأَراد المسلمون الدخول بينهم فمنعهم السلطان من ذلك، ودخل السلطان القبة، ونزل بها يسيراً ورآها، وركب بالطلب السلطاني، فسارت الهجانة أول الطلب، ومقدمهم حشيش ابن الغياثي أول الهجن، ومعه تسعة قُطُرِ هجْن خاصة مغطاة بالغواشي من الحرير الأَصفر السلطاني، ثم من بعدها نوبة إِحرام قماشها حرير أبيض، ثم من بعدها إِحدى وخمسون نوبة من الهجن أَكوارها ذهب، وقماشها من أنواع الحرير الملون، ثم من بعد ذلك المماليك السلطانية (والخاصكية). ثم من بعدهم ثلاثة عشر (أُوجاقياً) ركباناً على الخيول، وعلى يد كل واحد منهم فرس مسروج مغطّى، إِما بالغواشي الحرير أو بالجوخ الأَصفر، ويليهم تسعة وخمسون (أوجاقياً) ركباناً، وعلى يد كل نفر منهم فرس بسرج من الذهب، وكنبوش مزركش، (وأوجاقيان) لابسان الكوافي المزركشة ثم مملوكان صغيران، ركباناً على يد كل نفر منهم فرس، عليه جوشن بديع الصفة، والحجاب ورؤوس النوب يفسحون الطرق من غير تشويش على أحد. ثم الأُمراء العشروات والأَربعينات. ثم المباشرون ثم الأُمراء مقدمو الأُلوف. ثم قضاة المذاهب الأَربعة، ثم (الطبردارية) ثم الدف والشَّبَّابَةَ، ثم الحاج رمضان (مهتار الطشت خاناه)، و(الركاب دارية) تلعب بالغواشي تجاه السلطان،

ثم السلطان الملك الأَشرف قايتباي، راكباً على فرس أبيض، وعليه فوقاني أبيض، ومرّ بذلك الموكب الجليل، وشقّ الشارع الأَعظم، وباب زويلة إِلى قلعة الجبل، فكان لدخوله يوماً مشهوداً رحمه الله تعالى وعفا عنه.

سلطان الشرق: الشيخ راشد بن مغامس بن صقر بن محمد بن فضل، سلطان البصرة والحسا والقطيف، حجّ في سنة ثلاث وثلاثين وتسع مئة في ولاية الأَمير تنم من مغلباي على الحج، في نحو خمسة آلاف نفس على رواحل، ونزل الأَبطح، وكانت ولايته على الشرق في عام إِحدى وثلاثين وتسع مئة، فاستقلّ بالبصرة واستعان به بنو جَبْرٍ لضعف حالهم، فقوي عليهم، وأخذ منهم الحسا والقطيف، وأعمالهما، وذلك لما استولى الأَعداء من الفرنج المخذولين على بلادهما، وقتلوا سلطانهم الشيخ مقرن بن زامل بن حسين بن ناصر الجبري في سنة سبع وعشرين وتسع مئة، ثم وليها بعده عمه علي بن أجود نحو شهرين، فأَخذها منه ابن أخيه ناصر بن محمد بن أجود، فأَقام ثلاث سنين، وأعطاها بَيْعاً لقطن بن علي بن هلال بن زامل، فأَقام فيها نحو سنة، ثم مات فخلف ولده، ثم عجز عنها، ودفعها لغصيب بن زامل بن هلال فأَقام بها نحواً من سبعة أشهر، فأَخذها منه بالحرب الشيخ راشد بن مغامس صاحب الترجمة، وولى البصرة لأَخيه محمد، وأقام هو بالحسا والقطيف، وخرج للحج منها صحبة الشيخ يحيى ابن أخيه محمد، والشيخ مهنا، وقاضيهم الشيخ العلامة جمال الدين محمد بن عبد العزيز الشهير برفرف المكيّ البصري، الشافعي، ولحقهم السلطان الشيخ راشد بالطريق بعد نصف شهر، ورافقهم قوم كثير من البلدان، ووافت البركة في أسعار القوت ولله الحمد.

وحجّ بعد ذلك أيضاً في نحو العشرين ألفاً من بلاده، وحجّ ولده أيضاً في نحو العشرة آلاف من أهل البصرة، وغيرها.

أجود بن زامل العقيلي الجبري: نسبة لجد له اسمه جبر، ولذا يقال له ولطائفته بنو جَبْر، النجدي الأَصل المالكي المذهب، مولده ببادية الحسا والقطيف من الشرق، في رمضان سنة إِحدى وعشرين وثمان مئة، وولي بعد أخيه، واتسعت له المملكة بحيث ملك البحرين، وعُمان، ثم قام حتى انتزع مملكة هرموز من ابن أخ لصرغل، كان استقر فيها بعد موت أبيه، وصار رئيس نَجْد، ذَا أتباع يزيدون على الصوف مع فروسيته، تعددت في بدنه جراحات كثيرة بسببها، أكثر من الحج في اتباع كثيرين يبلغون آلافاً، مصاحباً للتصدُّق والبذل لأَهل الحرمين وغيرهم.

* * *

الفصل الثالث

في ذكر مَن حجّ من الوزراء وأكابر الأُمراء، وأماثل العلماء والصلحاء، وأجلاء الفقهاء، والكتاب ومشائخ العربان ممن له شهرة في ذلك الزمان

فمن ذلك أبو مسلم عبد الرحمٰن بن مسلم الخراساني، حجج في سنة ست وثلاثين ومئة، فكان في طريقه يصلح العقبات، ويكسو الأعراب في كل منزل، ويصل الفقراء من ماله، وحفر الأنهار، وسهل الطريق، وكان الصيت له، فإن في تلك السنة حجّ أبو جعفر المنصور قبل أن يستخلف، وأخذ له البيعة وهو في الحج عمه عيسى، عقيب وفاة أخيه أبي العباس السفاح، فكانت الأَعراب تقول: هذا المكذوب عليه، لأَنه لم يفعل ما فعله أبو مسلم، وأمر منادياً في طريق مكة: بَرِئتِ الذمة من رجل أوقد ناراً في عسكر الأَمير. فلم يزل يُغَدِّيهم ويُعَشِّيهم، حتى بلغ مكة، ولما وصل الحرم نزل وخلع نعليه، ومشى حافياً تعظيماً للحرم، وَصَفَّ في المسعى خمس مئة وصيف، على رقابهم المناديل، يسقون الأَشربة من سعى من الحاج بين الصفا والمروة، ورأى أهل اليمن، فقال: أيُّ جند هؤلاء لو لقيهم رجل ظريف اللسان غزير الدمعة؟! فلما صدر الناس من الموسم نفر أبو مُسلم قبل أبي جعفر كراهة اجتماعهما على المياه فيضر ذلك بالناس، والتماس الرفق بهم.

عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ابن أَخي السفاح والمنصور: حجّ مراراً أَميراً على الموسم في خلافة عمّيه أَبي العباس وأَبي جعفر، وولاه أَبو العباس العهدَ بعد أَبي جعفر، وكان جليلاً جميلاً في أَهل بيته، وكنيته أَبو موسى، نشأَ بالبلقاء، ثم خرج مع أَهله إِلى العراق، وقد ذكرت ولايته على الحاج في بابه قال: سبط بن الجوزي: ومولده سنة ثلاث أَو أَربع ومئة. قال الزبير بن بكار: كان عيسى إِذا حَجَّ حجَّ بِأُناسٍ من أَهل المدينة، ويتعرّضون له فيصلهم، فمرّ بأَبي الشدائد الفزاري وهو ينشد شعراً:

عِصابة إِنْ حَجَّ عيْسَى حَجُّوا ... وَإِنْ أَقَامَ بِالْعِراقِ دَجُّوا

والْقَوْم قَوْم حَجُّهمْ مُعْوَجُّ ... مَا هَكَذا كَانَ يكُونُ الْحَجُّ

فسلّم عليه أَبو الشدائد فلم يردَّ عليه، وقال: ويلك تهجو حجاجَ بيت الله!! فاعتذر إِليه.

إِبراهيم بن المهدي: أَخو الرشيد العباسي، ولي إِمرة الحاج في سنة أَربع

وثمانين ومئة، وقال الحافظ ابنُ عساكر: ولاه أَخوه هارون دمشق سنتين، ثم عزله، وهو الذي طلب الخلافة، واتفق له ما هو مشهور في كتب التاريخ. قال إِبراهيم: حججت مع أَخي هارون وهو خليفة، فدخلنا المدينة فخرجت أَدور في عِرَاصها، فعطشت فإِذا بجارية تسقي من بِئْرٍ فقلت: اسقِيْنِي. فقالت: أَنا مشغولة عنك بضريبة عليَّ لمولاي قال: فنقرت بسوطي على قُرْبوص سرجي، وغنيت بشعر الأَحْوص أَقول:

كفِّـنَـانـي إِنْ مُـتُّ فـي درْع أَرْوَى   وامْتَحَا لي من بِئْرِ عُرْوَةَ مَائي
إِنـنِّـي والَّـذي تـحـج قـريْـش   بـيـتَـهُ سـالـكـيْـن نَـقَـبَ كـدَاء
لَـمُـلِـمّ بِـهَـا وَإِنْ بِـتُّ مـنْـهَـا   صـادراً كَـالَّـذي وَرَدَتُّ بِـدائـي
وَلَـهـا مَـرْبَـعٌ بِـبُـرْقَـة خـاخ   وَمَصيْفٌ بِالْقَصْرِ قَصْرِ قُبَاءِ
قَلَبَتْ لِيْ ظَهْرَ المجَنِّ فَأَضْحَت   قـدْ أَطـاعَـت مَـقَـالَـةَ الأَعْـدَاءِ

قال: فرفعت الجارية طرفها إِلي، وقالت: أَتعرف بئر عروة؟ قلت: لا. قالت: هي والله هذه، ثم سقتني حتى رُوِيتُ. وقالت: هل لك أَن تعيده؟ قلت: نعم فأَعدتُّه، فطربت. وقالت: والله لأَحملن لك قِرْبَةَ ماءٍ إِلى رحلك. فحملتها معي، فلما رأت الخدم والجيش فزعت، فقلتُ: لا بأْس عليك، وكسوتها وأَعطيتها دنانير.

أَشناس التركي أَحد كبار قُوَّاد المعتصم، أَمير المؤمنين، حجّ في سنة ست وعشرين ومئتين في أَعلى مراتب الرئاسة، وعقد له المعتصم الولاية على مكة، والمدينة، وعلى كل بلد يدخلها وخُطب له على منبري الحرمين وغيرهما من البلاد التي اختار فعل الإِمرة بها، ولم يزل على مهابته وولايته على كل محل سلكه إِلى أَن أَتى إِلى سامرًا، وكان أَمير (؟) الحاج في تلك السنة بإِمرة محمد بن داود بن عيسى، كما قدّمنا ذكره في محله.

عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي عم السفاح، والمنصور، حجّ بالناس مراراً منها في سنة خمسين ومئة وخمس وخمسين وإِحدى وسبعين ـ كما ذكرنا ذلك في بابه ـ كانت فيه خلال لم تجتمع في غيره منها: أَن يزيد بن معاوية حجّ بالناس سنة خمسين، وحجّ عبد الصمد في سنة خمسين ومئة، وبينهما مئة سنة، وهما في العدد إِلى عبد مناف سواء، ومنها: أَنه مات وليس على وجه الأَرض عباسية من بيت الخلافة إِلا وهو محْرمٌ لها، ومنها أَنه كان هائل الخلقة، عظيم الجثة، كانت يديه ذراعاً، وأَضراسه وأَسنانه قطعة واحدة، دخل القبر ولم يتغير له سنٌّ بل أُدخل

القبر بأسنان الصِّبَا، ومنها: أَنَّ ريشة طارت إِلى عينه فذهب بصره، ومنها: أَنه أَعمى ابن أَعمى ابن أَعمى ابن أَعمى ابن أعمى خمس مرات، وكانت وفاته سنة خمس وثمانين ومئة.

أَخو سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، أُمه سُعْدى أُمْ ولد، وهي أُم صالح وعبد الصمد بني علي بن عبد الله، ولي البصرة وما يليها، وكور دجلة والأَهواز، والبحرين، وعُمان، وكان شجاعاً جواداً، ولاه أَبو العباس الموسم سنة خمس وثلاثين ومئة، فلم يزل عليها حتى مات، فأَقره أَبو جعفر.

ولما حجّ أنفق في صلات المهاجرين والأَنصار وقريش والموسم، خمسة آلاف أَلف درهم، وكان أَبو جعفر قد جعل إِليه خراج أَعماله، لا يَحْملُ إِليه منها شيئاً، فكان يخرج أَموالاً عظيمة، وكان يعتق كل سنة عشية عرفة مئة رقبة. قال سبط بن الجوزي: حكى البلاذُرِيُّ أَنه سمع يوماً وهو في سطح داره نسوة من جيرانه يقلن: ليت الأَمير نظر إِلينا فأَغنانا!! فصَرَّ دنانير في صرر على عددهن، وأَلقاها إِليهنَّ، فماتت واحدة منهن فرحاً. قال: وكانت له بالبصرة آثار جليلة، وبنى مساجد كثيرة، وفيه يقول الشاعر:

كَمْ منْ يَتِيْم وَمِسْكِيْن وَأَرْمَلَة ... جَبرْتَـهُ بَعْدَ فقْر يَا سُلَيْمان
ومَسْجد خَرِبٍ لِلّهِ تعْمُرُهُ ... فِيهِ كُهُولٌ وأَشيَاخٌ وشُبَّان

توفي بالبصرة سنة اثنتين وأَربعين ومئة وسنه تسع وخمسون سنة.

علي بن يقطين: من وجوه دولة بني العباس حجّ فذكر عنه للهادي أَمير المؤمنين أنه لما رأى الناس في الطواف حول الكعبة، قال: ما أَشبَهَهُم ببقرٍ تدُوْسُ في البيدر، فقتله مع الزنادقة، وقال العلامة ابن الحداد يخاطب الخليفة في ذلك:

أَيا أَمِيْن اللّهِ في خلقِهِ ... ووَارثَ الْكَعْبَةِ والْمنبَرِ
مَاذَ تَرَى في رجُل كافرِ ... يُشَبِّهُ الْكَعْبَةَ بالْبَيْدر
وَيَجْعَلُ النَّاسَ إِذَا مَا سَعَوْا ... حُمْراً تَدُوْس الْبُرَّ في الدَّوْسَر

قلت: ومثل خبر هذا الزنديق ما ذكره سبط بن الجوزي في «المرآة» قال: حجّ الكافي أَبو الفضل زيد بن الحسين فلما عاد من الحج قال:

يَا رَبِّ أَيُّ فَضِيْلَةٍ في مكّة ... حتّى فَرَضت عَلَى عِبادِكَ بِرَّها

أَلِخِضْبِهَا أَحْبَبْتَهَا أَلِطِيْبِهَا اخترْتَها أَمْ لَيْسَ تَعْرِفُ حرَّهَا؟!

قلت: إنها لا تعمي الأبصار، ولكن تعمي القلوب التي في الصدور.

طاهر بن عبد الله بن طاهر: حجّ في سنة تسع عشرة ومئتين في عدد كثير من الجند، وأَحضر معه قِفْلاً، فيه أَلفُ مثقال من الذهب، فقفل به البيتَ، ونزع قفله الذي كان عليه، وكان مطْلِيًا. يقال: إنه من عمل الْحَجَّاج، وتصدّق على أَهل الحرمين، وعاد.

محمد بن عبد الله بن طاهر: حجّ في سنة ست وأَربعين ومئتين، وحمل معه ثلاث مئة أَلف دينار، مئة أَلف لأَهل مكة، ومئة أَلف لأَهل المدينة، ومئة أَلف لإِجراء الماء من عرفات إلى مكة. قلت: ولعبد الله والداهما من المآثر والمفاخر، ما يملأُ ذكره وتعْداده الدفاتر، وله من الأَخبار في ذلك ما هو مذكور ومشكور، فمن ذلك ما حكاه سبط بن الجوزي في «مرآة الزمان» ـ نقلاً عن الخطيب بإسناده إلى سهل بن ميسر ـ قال: لما رجع عبد الله بن طاهر من الشام إلى بغداد صعد فوق سطح قصره يوماً فنظر إلى دخان مرتفع من جواره. فقال: ما هذا الدخان؟ فقالوا: لعلّ قوماً يخبزون، فقال: أَو يحتاج جيراننا إلى ذلك أَو أَن يتكلفوا ذلك؟! ثم دعا حاجبه فقال: امضِ ومعك كاتب، وأَحْصِ جيراننا ممن لا يقطعهم عَنَّا شارع، فمضَى وأَحصاهم فبلغ عددهم أَربعة آلاف نفس، فأَمر لكل بيت باللحم والخبز، وبما يحتاجون إليه، وبكسوة الشتاء والصيف والدراهم، فما زال ذلك دأْبه حتى خرج من بغداد، فانقطع ذلك فكان يبعث من خراسان إليهم بالكسوة مدة حياته ـ رحم الله تلك الأَرواح ـ.

وحكى عنه القزويني في كتابه «مفيد العلوم، ومبيد الهموم» أَنه لما كان أَمير خراسان كانت له جارة عجوز لها ثلاث بنات، فاختلّ حالها واحتاجت إلى بيع دارها فانتهى الخبر إلى الأَمير، فدعاها، فقال لها: لَمَ تَبِيْعِيْن دارك؟ قالت: إن بناتي قد كبرن، وأُريد أَن أُزوجهن، وما لي شيء. فدعا الدلالة قال: هؤلاء بناتي زَوِّجِيْهِنَّ، وعلي جهازهن فهيأ لكل واحدة ثلاثة آلاف دينار، وجهاز العروس.

أَنشدك الله هل في ملوك زمانك مَن لم يَغصِبْ دار جاره؟! كُفَّ عن غَلَوَائِك قَلِيْلاً ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾ [المزمل: ١٠].

إِينال الخوزي: مولى المعتصم وأَحد كبار قواد المتوكل حجّ في سنة أَربع وثلاثين ومئتين، وعقد له المتوكل الولاية على كل بلد يدخلها، وعلى مكة، ودُعي له على المنابر بالحرمين الشريفين.

جَعْفَرُ بن دينار والي اليمن: حجّ سنة إحدى وثلاثين ومئتين، وكان معه أربعة آلاف فرس، وقيل ستة آلاف، وألفا راجل، ثم سار إلى اليمن متولياً عليها من قبل الواثق.

أسد الدين شيركو بن شادي: مقدم جيوش نور الدين محمود بن زنكي، حجّ في سنة خمس وخمسين وخمس مئة فتصدّق، وفعل كل خير، وأغنى أهل الحرمين، وأمر ببناء رباطه في مدينة النبيّ ﷺ، وأوصى إذا مات أَنْ يُحْمَل، ويُدْفن فيه، وحجّ في تلك السنة نور الدين علي كوجك نائب قطب الدين صاحب الموصل، فما فعل خيراً قط، ولا تصدّق بدرهم واحد على كثرة ماله وبلاده.

فَخْرُ الدين غازي بن العادل أَبي بكر بن أَيوب: حجّ في سنة أَربع وعشرين وست مئة من مَيَّافارِقِين، وكان ثقله على ست مئة جمل، ومعه من (اليرق) وما يحتاج إليه من آلات السفر، وما يستعين به في طريقه ما لا يوصف، وخمسون هَجِيناً، كل هجين عليه مملوك، وجهزه الملك الأَشرف جهازاً حسناً عظيماً، وسار غربي الفرات على قرقيسيا والكبيسات والعمر والعين، وكلها قرى، وفيها عيون جارية، ونخل كثير، ومنها يجلب التمر إلى الشام، وتصدّق في مكة والمدينة، وعاد إلى العراق، ولم يصل الكوفة، بل سار غربي الطريق الذي سلكها فكاد يهلك هو ومَن معه عطشاً، حتى وصل إلى حوران، وبعث له الخليفة في هذه الحجة فرسين وبغلين وألفي دينار، وقال له: هذه من ملكي لتنفقها في طريق الحج، وَأَوصى أَمير الحاج بخدمته.

الأَمير بكتمر الجوكندار: قال صاحب «الذَّيل على المرآة» إن في مستهل شعبان سنة سبع مئة زينت مصر والقاهرة بسبب دوران المحمل، وكسوة البيت والحجرة النبوية على ساكنها أَفضل الصلاة والسلام كما جرت به العادة، من ركوب القضاة والأُمراء والمقدمين، وجميع العسكر وجميع الخطباء والأئمة والمؤذنين، والقراء والوعّاظ، وجميع أَرباب الدولة بمصر والقاهرة قدّام المحمل الشريف، والسبيل السلطاني، وكان يوماً مشهوداً، وولي إمرة الحاج في هذه السنة الأَمير الكبير سيف الدين بكتمر الجوكندار، أَمير (خازندار) الملكي المنصوري، واهتم الأَمير المذكور في هذه الحجة، وأَنفق من ماله نحو خمسة وسبعين أَلف دينار مصرية، وكان سفر الركب من القاهرة إلى الْبِرْكَة يوم الاثنين ثاني عشر شوال، ورحيلهم من البركة بكرة يوم الأَحد ثامن عشر شوال، وحجّ في هذه السنة من القاهرة الأَمير بهاء الدين قراقوش أَمير خمسين فارساً، والأَمير حسام الدين مُغلْطَاي، أَمير خمسين فارساً،

والطواشي مرشد الخادم أَمير خمسين فارساً، والأَمير أَسد الدين ابن الأَمير عز الدين الأَفرم، والصاحب فخر الدين بن الخليلي والصاحب زين الدين بن حنا، والقاضي شرف الدين الحنبلي، ومن المصريين والمقدمين والعسكر وعدة السبيل مئة جمل منها زاد وسواقة ثمانون، ومحائر عشرة، والباقي هجن وسقاؤون، ويوم سفرهم من القاهرة أَيضاً زينت القاهرة ومصر أَيضاً ـ وركب الناس كما تقدّم شرحه في شعبان ـ وقال المقريزي، وابن فهد وغيرهما: إنه احتفل بهذه الحجة كثيراً، وأَنفق من ماله خمسة وثمانين أَلف دينار، وصنع معروفاً كثيراً، من جملته أَنه جهّز مراكب في بحر القلزم قد شحنها بالغلال والدقيق، وأَنواع الإِدام من العسل والسكر والزيت والحلوى ونحو ذلك، فوجد بالينبع قد وصل ثلاثة مراكب فعمل فيها إِكراماً ونادى في الحج: مَن كان محتاجاً إِلى مؤنة أَو حلوى فليحضر، فأَتاه المحتاجون فلم يَرُدَّ منهم أَحداً، وفرّق ما بقي على الناس ممن لم يحضر لِغِنَاه، وأَعطى أَهل الينبع، ووصلت بقية المراكب إِلى جدة ففعل بمكة كذلك، وفرّق على سائر أَهلها والفقراء بها، وعلى حجاج الشام ـ أَثابه الله تعالى ـ وقال صاحبُ «الذَّيْل على المرآة»: إِنه يوم دخول الركب إِلى البركة اتفق أَنَّ السلطان الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي وصل من الصيد، إِلى بركة الحاج في ثالث صفر، فالتقى مع أَمير الحاج سيف الدين بكتمر الجوكندار، وصحبته الركب والسبيل والمحمل، فنزل عنده، وهنأه بالسلامة، وخلع عليه، وصعد إِلى قلعته بالقاهرة عصر النهار، ودخل عقيب دخوله المحمل والحجاج إِلى القاهرة ومصر، وشكر الحجاج أَميرهم ودعوا له، وذكروا أَنَّ بِرَّهُ وصدقته وإِحسانه عمّت جميع الناس، وأَنه أَنعم على صاحب مكة وأَولاده بمبلغ مئة أَلف درهم غير ما خلعه عليهم، وأَعطى المجاورين والأَشراف بمكة صدقات كثيرة، ولما وصل إِلى المدينة خلع على صاحبها وعلى أَولاده، وأَعطاه شيئاً كثيراً، وكذلك تصدّق على المجاورين، وأَهل المدينة قال: وحكى الشيخ القدوة سيف الدين الآملي وكان بصحبته من القاهرة أنه كان إِذا نزل الأَمير في المنزلة يحضرون قدامه الموازين، ويزنون من الزاد لأَهل الركب والمحتاجين وغير المحتاجين لكل إِنسان ما يكفيه هو وجماعته، ويباشر ذلك بنفسه من غير ملل، ولا ضجر، وهو مقبل على فعل الخير، فرح بذلك مستبشر تقبّل الله منه.

الأَمير سِلاَّر: نائب السلطنة بمصر: حجّ في سنة ثلاث وسبع مئة، ومعه نحو ثلاثين أَميراً، فبعث إِلى الحجاز في البحر عشرة آلاف إِردب من القمح، وبعث سنقر الأَعسر أَلف إِردب، وبعث سائر الأُمراء القمح للنفقة في أَهل الحرم، فعمّ النفع بهم،

وفعل الأَمير سِلاَّر ببلاد الحجاز أَفعالاً جميلة، منها: أَنه كتب أَسماء المجاورين بمكة، وأَوفى عنهم جميع ما كان عليهم من الديون لأَربابها، وأَعطى لكل منهم بعد وفاء دينه مُؤنة سنة، ووصلت مراكبه إِلى جدة سالمة، ففرّق ما فيها على سائر أَهل مكة جليلهم وحقيرهم، وكتب سائِرَ الفقراء وجميع الأَشراف، وحمل الدراهم والدنانير والغلة بقدر كفاية كل منهم سنة، فلم يبقَ بمكة رجل ولا امرأَة، ولا صغير ولا كبير، غني أَو فقير، حُرٌّ أَو عبد شريف، أَو وضيع، إِلاَّ وَعَمَّهُ ذلك، ثم استدعى الزَّيْلَعَ، وفرّق فيهم الذهب والفضة، والغلال والسكر والحلوى، حتى عَمَّ سائرهم، وبعث مباشرِيهِ إِلى جُدَّةَ، ففعلوا بها كما فعل هو بمكة، وتصدّق أَيضاً الأَمراء الذين حجُّوا معه، وحمل ما بقي إِلى المدينة النبوية، وعَمَّ أَهل المدينة بالعطاء كما عمَّ أَهل مكة، فكان الناس بالحرمين يقولون: يا سِلاَّر كفاك الله هَمَّ النار! ولم يسمع عن أَحد فعل من الخير كما فعل.

الأَمير سيف الدين يشبك الناصري: حَجَّ في سنة تسع وثلاثين وسبع مئة، وصحبته عدة من الأُمراء، وتصدّق على الحاج والمشاة من مصر إِلى مكة، ومن مكة إِلى مصر بالماء والبقسماط، وجعل لهم خيمةً يستظلون تحتها، فلما قدم مكة فرق في الأُمراء مالاً كثيراً، فبعث إِلى كل من الأُمراء (الطبلخاناة) خمس مئة دينار، وفرّق في الأَجناد، وبعث إِلى بيوت الأُمراء بمال كثير. ثم استدعى المجاورين جميعهم من الأَشراف وغيرهم من أَرباب البيوت، ومن أَهل مكة صغاراً وكباراً، ثم استدعى الزَّيْلَع وغيرهم، وفرّق فيهم من الأَموال ما لا يعلمه إِلاَّ الله تعالى، فلم يبقَ بمكة أَحد إِلاَّ وأَسْدَى إِليه معروفاً، وكان جملة ما فرّقه ثلاثين أَلف دينار وأَربع مئة أَلف درهم، سوى ما وصل إِليه في المراكب من الغلال، فلما قدم المدينة الشريفة بعد قضاء نسكه فعل فيها خيراً كثيراً ـ رحمه الله تعالى وأَثابه ـ.

أَحمد الشهابي بن الأَتابكي بالي (؟) بك: حَجَّ أَميراً مراراً في الأَيام الظاهرية خشقدم، وفي كلها شِبْه الْمُصَادَرِ لكثرة كِلَفِهِ، التي لا يعوض عنها ما العادة جارية به، بل يستدين، وتوجّه الأَمير الأَول في سبع وسبعين وثمان مئة، فتوجه وهو في غاية الكراهة لذلك، والتململ منه، لشدة مرضه بحيث أنه لم يمكنه طلوع القلعة للبس الخلعة، بل أُرْكِبَ في المحفَّةِ فمات في ليلة الجمعة العشرين من شوال سنة تاريخه ببركة الحاج، وحُمل في محفته التي توجه فيها إِلى بيته، فوُجِد قد خُتم عليه فغُسل خارجه بالحوش داخل المقعد، وصُلّيَ عليه في آخر يومه، ودُفن بجانب أَبيه بباب القرافة، وعُينَ أَميرٌ على الحاج عِوَضَهُ فنزل على (يركه)، وأَضاف السلطان إِليه

إقطاعه، وهو ربعُ بلد تسمى بمنية المرجا لنفسه، وفتحت حواصله فوجد بها من البيارم (؟)، والشاشات ونحو ذلك الكثير، وصاح عياله بسبب ذلك كله، وأَكثروا الابتهال والدعاء.

الأَمير أَقبردي الأَشرفي قايتباي: بل هو ابن عمه أَو قريبه، كان (خاصكياً) سنين، ثم ترقّى لإِمرة عشرة، وحجّ قبل ترقّيه، وتقدّم ثم استقر في (الدوادارية) الكبرى عقيب موت يشبك من مهدي، وسكن بيته العظيم المجاور لحدرة البقر، بالقرب من الرملة، وهو المشهور بسكناه إِلى آنِنا هذا، وقد غُيِّرت معالمه وبُدِّلت مراسمه، وصار من نيف وثلاثين وتسع مئة مخصوصاً بالمهمّات السلطانية لسعته، وكثرة منافعه، فاتخذ به بدر الدين السوهاجي البقسماطي أَفراناً لعمل البقسماط المتعلق بالمهمات السلطانية وإِمرة الحاج، وجعلت قاعته الكبرى البديعة الترتيب لحزم دقيق مهمات إِمرة الحاج وغيره، وإِسطبلاته الجليلة لِشُوَن إِمرة الحاج، ينقل إِليها الغلال، وتُخزن بها إِلى أَن تعبَّأ إِلى البنادر، وغير ذلك، ورأَيت حمير الطحانين صاعدة بالدقيق في سلم القاعة الكبرى وهابطة، فسبحان مَن يعز ويذل لا إِله إِلا هو، وعمل به في عام ست وستين وتسع مئة عشرة من الطواحين على يد إِبراهيم بن (المهمندار) ناظر أَموال مصر و(دفتردارها) لطحين قمح السلطنة، المعد للمهمات السلطانية، وإِمرة الحاج، وعين لها سعد الدين المنعوت بابن زبارة الوالي القبطي، لكتابة ما يدخل إِليها، ويخرج منها، وضبطه، وجعل له (جامكية) سلطانية من الخزائن في كل يوم خمسة من الفضة، ولم يزل هذا المنزل مُعَدًّا لنزول العساكر السلطانية المجهزة إِلى الممالك كالبلاد اليمانية وغيرها، وسُدَّ وسُدَّ بابُه الأَصليُّ المقابل للمنزل المعروف بالأَمير أنسباي حاجب الحجّاب. ثم آل في آنِنا إِلى ملك الأَمير حمزة بن إِسكندر، أَمير الحاج في سنة اثنتين وستين وتسع مئة، واستجدّ به بابان كبيران، يتوصل إِليهما من حدرة البقر، وطريق الرملة، وجُعِل على هذه الأَبواب جماعة من العسكر، ولهم كبير يكون كـ(اليسق) ضبطاً لما فيه من التعلُّق السلطاني، وأُزيلت منه الوقفية الصادرة من الأَمير يشبك من مهدي، فإِنه من جملة أَوقافه، وبني بحوشه حاجز بين باب القاعة الكبرى من حد (الدركاة) العظيمة البنيان، الدالة على فخامة بانيها، تصلح أَن تكون لمعقل كبير من المعاقل، والحصون الإِسلامية، قد عُقِد على دائر باب هذه (الدركاة) وما والاه عِقْدٌ عالي البناء، جليل الاقتناء، وهو مبني بحجر الماء الأَحمر، بصناعة ملوكية، وبين باقي فسحة حوشه المشتمل على بقية الحواصل والأَفران والمقعد والمبيت، ولكل جهة باب مستجد من البابين المتقدمين.

وقد خرجنا عن المقصود فنقول: ثم إن صاحب الترجمة تزوج ابنة خاص بك، أُخت زوجة أُستاذه، وأُضيف إليه الوزر، بمباشرة موفق الدين تارة، وابن البدر حسن أُخرى، وقاسم شقيقه، ثم صار المتكلم فيه ديوانه الشرف المعروف بأَبي المنصور، وولي إمرة المسرجة بالوجه القبلي غير مرة فجلب الأَموال منه، ومن الجهات النابلسية، وغيرها، وكان ما يفوق الوصف، وبالغ حتى كاد أَمير سلاح أَن ينقمع منه، وغصب منه مماليكه، فكاد أَن يكون فيه ما يشرح في الحوادث، ويقال: إنه أَرسل ثلاث مئة دينار فرقت في الأَزهر وغيره، وصار إليه الحل والربط، ثم صار خبراً من الأَخبار.

ثمَّ انْقَضَتْ تِلكَ السنُون وأَهْلُهَا فكأَنَّها، وكأَنَّهُمْ أَحلام

الأَمير أَزبك من ططح الأَشرفي، ثم الظاهري جقمق: المنسوبة إليه الأَزبكية، جلبه الخواجا ططح من بلاد جركس، فاشتراه الأَشرف برسباي في سنة إحدى وأَربعين وثمان مئة، وكان مراهقاً، ثم انتقل لولده العزيز، واشتراه الظاهر جقمق، وأَعتقه ورباه، ورقاه بحيث جعله ساقياً، ثم أَمير عشرة في سنة اثنتين وخمسين، ثم من رؤوس النوب، ثم زوّجه ابنته من مطلقته (خوند) مغل ابنة الناصري بن البارزي، وعمل لها مُهِمًّا حافلاً جدًّا، واستولدها عدة، وماتت في سنة سبع وستين، فلما مات الظاهر استمر على ما كان عليه من إمرة (طبلخاناة) و(الخازندارية) الثانية، ثم صار بعد ذلك أَحد المقدمين، ثم استقر حاجب الحجّاب في تاسع جمادى الأُولى سنة ثمان وستين، ثم نقل إلى رأس نوبة النوب، ثم في شهر الحجة سنة سبعين تزوج ابنة أُستاذه الثانية، ثم صار نائب الشام سنة اثنتين وسبعين، وما كان بأَسرع من استقرار الأَشرف قايتباي في المملكة، فرسم بإحضاره فكان وصوله في شهر صفر الخير، وارتجَّتِ الديار المصرية لذلك، حتى كان لقدومه من السرور ما لا يعهد لغيره غالباً، وبرز الأَكابر والأَعيان لملاقاته إلى قطيا، فما فوقها، ونزل إليه السلطان قايتباي بالريدانية ليلاً، وجلس معه ساعة ووضع بين يديه (النمجاه) وقال له: أَنت أَحق مني فَدَعا له واستقر في (الأَتابكية) فرسخت قدمه فيها، وتكرر سفره قبل ذلك، وبعده للبحيرة لعمل مصالحها، والقبض على الآخذين لملاقاة الحجيج في سنة اثنتين وسبعين وللتجاريد، مراراً.

حجّ مراراً، وأَعظم حجّاته التي في سنة تسع وسبعين فإنه برز من القاهرة في ثالث شوال، وبدأَ بالزيارة النبوية، وأَقام بها خمسة أَيام، ثم كان وصوله إلى مكة في تاسع عشر ذي القعدة، ودام بها نحو شهر، وظهر من مكة في منتصف ذي الحجة

بعد المحمل، ودخل القاهرة يوم الثلاثاء سابع عشر المحرم، وطلع من الغد فبالغ السلطان قايتباي في إكرامه كما بالغ في إكرام (خوند) لما قدمت مع الركب الموسمي وهو بمكة بالمشي بين يديها تجاه محفتها من المُدَّعى، وحجّ في ركب الأمير أَزبك في هذه السنة الشيخ أمين الدين الأَقصرائي، وفيها توفي ولده أَبو السعود بعد منزلة بَدْر، وفي أَيام أَتابكيته جرف الأَماكن المعروفة بخرائب عنتر، وابتنى بها جامعاً هائلاً، وقصوراً منيعة، وحمّاماً، ووكالة، بل أَذن للأَعيان ومَن دونهم فابتنوا هناك أَماكن على مراتبهم كل ذلك محاكاة لبركة الرطلي، وصارت محلاً للنزه ونحوها كهي، ولكسر السد المتوصل لبركتها في أَيام النيل يوم مشهود، وقرر بالجامع صوفية ومدرسين وقُرَّاءَ، وغير ذلك، وعمل فيه خزانة لكتب العلم، وعمل بعض الفضلاء مقامة في المناظرة بين بركة الرطلي والأَزبكية ذكر ذلك الشمس السخاوي في تاريخه «الضوء اللامع، لأَهل القرن التاسع» قلت: قد اطلعت على هذه المقامة في باكورة العمر، وكان في البركتين بقية من العمّار، وقد تلاشَى حالهما في آنِنا، واستولى عليهما الخراب لعدم الأَمن، وتواتر ورود المناسر والحرامية. فأَما بركة الرطلي فقد هُدِم ما بخالط المعروف بالجسر، من العمائر والقصور من أُصولها، وأُخِذت أَنقاضها ضياعاً على أَربابها في زمن داود باشا، وغرس موضع تلك القصور شجر الأَثل، وصارت تلك الجهة مخوفة السلوك، وانقطع بسبب ذلك ورود المراكب زمن النيل إِلى البركة ليلاً، وخرب ما على هذه البركة من القصور الجليلة التي كانت في جميع الدروب المشهورة بتلك الجهة كدرب الفليجي، والسمنودي، وابن حجر، هذا من جهة الجسر الفاصل بين الخليج والبركة، وأَما من الجانب الثاني فدرب سعد وما حوله، وبقي من دروبها على حاله إِلى آننا هذا درب مَيَّالة، ودرب البشري، يسكن في منازل هذين الدربين بعض أصحاب الأَماكن وغيرهم بأُجرة تافهة زمن النيل في الغالب، وبعده على تخوُّف، والحامل لهم على الأُنس بالسكنَى فيهما هو أَن الشيخ العلامة جمال العلماء شمس الدين محمد ابن الشيخ أبي الحسن البكري الصديقي الأَشعري الشافعي نظف أَرض تلك الدروب والبيوت التي كانت بين خوخة الجسر ودرب ميالة، وأَنشأ في محلها بستاناً جليلاً، وحوشاً كبيراً متسعاً، يتوصل إِليه من بابين كبيرين، على الشارع المتصل بقنطرة الحاجب، واقتصر من داخل ذلك على بعض الأَماكن الباقية، مما قد دُثر، كبيت الشهاب أَحمد بن حجر المعروف بسكناه، وغيره، وسكن هناك بحريمه وجماعته وأَولاده، واستمر سكناه في غالب الأَيام هناك، فكان في ذلك من الأُنس ما سوغ لغيره السكنى في تلك (؟) الدربين.

وأَما بركة الأَزبكية فلم يبقَ فيها عامر سوى ما بين القنطرة التي هي أَول الرصيف والشارع الذي تعلوه الأَماكن إِلى الدرب المتوصل منه إِلى بيت الأَمير أَزبك، والمدرسة الأَزبكية وغير ذلك، وينتهي حدُّ ذلك العمار إِلى الدرب الثاني المتوصل منه الآن إِلى الساحة الكبرى الشارعة إِلى باب اللوق، المعدّة تلك الساحة في آنِنا لسباق الخيل، وجمع المتفرجين من غوغاء العامة في يوم الجمعة بها، وما عدا ما ذكرنا فخراب دائر، وفي كل سنة في الغالب ترد المناسر إِلى تلك الساحة وإِلى قنطرة الذكة، فمن السكان مَن يرحل تخوُّفاً، ومنهم مَن يستمر، فسبحان مَن يغير ولا يتغير، وهو الباقي، وما سواه فانٍ.

أَقبردي المظفري: رأْس نوبة الجمدارية في أَيام المؤيد شيخ، ثم أَمير عشرة في أيام الظاهر جقمق، ثم صار من رؤوس النوب الصغار، حجّ أَميراً على الركب الأَول، ثم توجه إِلى مكة مقدماً على المماليك السلطانية بها بعد سودون المحمدي، وكان مشكور السيرة، مات بمكة في ليلة الثلاثاء رابع عَشَرَي شوال سنة سبع وأَربعين وثمان مئة.

أَينال الجكمي: تقدّم في الأَيام المؤيدية، وولي نيابة حلب، حجّ في سنة ست وعشرين وثمان مئة ثم عاد إِلى الشام، ثم ولي تقدمة بالقاهرة سنين، ثم نيابة الكرك، ثم عاد إِلى نيابة حلب سنة تسع وثلاثين فبمجرد وصوله ورد عليه مرسوم مع هجّان بنيابة الشام، وتوجه إِليها، واستمر حتى قتل بعد خروجه عن الطاعة السلطانية في سنة اثنتين وأَربعين، وحمل رأْسه إِلى القاهرة، ودُفنت جثته بتربته التي أَنشأَها بالقرب من جامع كريم الدين، قبليّ دمشق، قبل إِكمالها.

سودون اليشبكي: من يشبك الجكمي (أَمير آخور) التركماني، ويُعرف بقندوره، ترقى في الْخِدَم إِلى أَن ولي قلعة دمشق بالبذل، ثم صار أَحد المقدمين بدمشق، حجّ أَميراً على المحمل الشامي سنة ثمان وستين وثمان مئة، فمات بعد خروجه من المدينة النبوية إِلى جهة الشام.

شاربك الأَشرفي برسباي: تنقّل في عدة ولايات إِلى أَن صار أَمير مئة بدمشق و(دوادار) السلطان بها، حجّ أَمير المحمل الشامي فمات في رجوعه بالقرب من الكرك، أَواخر المحرم سنة ثلاث وسبعين وثمان مئة.

شاهين الجمالي يوسف ناظر الخاص بن كاتب جكم: ترقى إِلى أَن عمل شادًا بجُدَّة سنين، وندبه السلطان للوقوف على عمارة الخشابين والبندقانيين، فحمدت

سيرته، واستقرّ شيخ الخدّام بالمدينة المنورة، واجتهد في إجراء عين حنين في سنة خمس وتسعين وثمان مئة، حجّ أميراً على الركب الأول في سنة ست وتسعين، وتعب كثيراً بمَن معه.

حسن الشيخي أمير آخور الظاهري برقوق: تأمَّر على الحاج، وكان كثير الشَّرّ، شرس الأخلاق، جمَّاعاً للمال مع البر والصدقة، وكان الناصر نفاه إلى بلاد الروم، ثم نفاه المؤيد إلى القدس، وله آثار بمكة منها عمارة الرواق الغربي من المسجد الحرام، توفي بالقدس.

وزير السلطان ابن عثمان: حجَّ في سنة خمسين وثمان مئة، ومعه مال جزيل، فرقه بالحرمين على بعض المستحقين والأغنياء، وأذاب في فسقية العباس ثلاث مئة وستين رأساً من السكر المصري، فلم تَحْلُ به، فزاد قنطارين عسل، وملأ قرب السقَّائين، وخرجوا بذلك إلى المسعى ليسقوا الحاج.

السيّد حسن: ناظر إسكندرية، حجّ في سنة سبع وأربعين وثمان مئة ففعل بمكة معروفاً كثيراً من الصدقات بالذهب والقمح والدقيق والحلوى والسكر وغيره، على الفقراء والمنقطعين بالحرم، واعتمد فعل الخيرات وإيصال المبرّات ـ أجزل الله ثوابه ـ.

المنصور عثمان بن الظاهر جقمق: حجَّ سنة ثلاث وسبعين وثمان مئة ولاقاه صاحب مكة السيد محمد بن بركات بن حسن بن عجلان إلى الوادي، ودخل معه مكة وكذا أمير أول، ومشى أمامه من المُدَّعَا، و(باش المماليك) مغلباي والأتراك من الزاهر، ومنع الشريف أنْ يمشي، وخلع عليه خلعة سنية، وكذا القاضي الشافعي.

جعفر شلبي: أمين القسطنطينية العظمى المعروفة بـ(استنبول)، وصِهْر (الدفتردار) الأعظم بالمملكة العثمانية إسكندر شلبي، حجّ في عام ثمان وثلاثين وتسع مئة، في ولاية مصطفى كاشف الغربية على الحاج، في غاية العظمة والمهابة، وأول قدومه إلى مكة نزل بسبيل (الخندكار) بباب المعلاة، حتى توجهتْ إلى لقائه الأعيان والأكابر، وعُيِّن لطوافه قاضي قضاة الحنفية أبو السرور بن الضياء، وخرج لملاقاته قاضي القضاة الشافعي، والسيد عرار بن عِجل، وغيرهما من الأعيان، وعمل له القاضي الشافعي سماطاً، واستمرَّ عنده إلى قريب المغرب، فنزل وطاف وسكن القصر علو باب إبراهيم، وعتب على صاحب مكة في عدم ملاقاته له، وتَقْدِمَتِهِ طعاماً يكون قبل قدومه، فتوجه له بعد ذلك وسلّم عليه، وهاداه وطيّب خاطره، فقضى مناسكه،

وتوجه صحبة الركب إِلى المدينة المنورة، فنزل بالمدرسة الأَشرفية قايتباي، وأَقام بها إِلى أن رحل مع الركب إِلى القاهرة.

سليمان باشا الوزير الكبير، ونائب المملكة المصرية: كان حجّ لما عاد من اليمن والهند، بتلك العمارة الكبيرة المشهورة، في سنة خمس وأَربعين وتسع مئة، وكان توجهه من جدة في شهر صفر منها، ودخوله إِليها في ضحى يوم الخميس الرابع عشر من صفر، واهتمَّ صاحب مكة لملاقاته، فجمع كثيراً من العسل والسمن ونحو الأَلفين من الأغنام وغير ذلك من المأْكولات، ومن التحف، وأَقام بوادي الدَّكْنا، أَحد أَودية وادي مَرٍّ، فجاءه الخبر بغتة وهو بمكة، لكونه وصلها لبعض غرضه أَنَّ سليمان باشا وصل إِلى جدة متوجهاً إِلى البلاد الهندية في ستين قطعة من المراكب والأَغربة، فاضطربت البلاد، وارتجَّت العباد، وكثرت المقالات، خصوصاً وقد تقدّم منه قتل الأَمير جانم الحمزاوي، مدبر المملكة المصرية وولده يوسف، فتغيّر خاطر الشريف صاحب مكة، ولم يجد بُدًّا من تجهيز أَكبر أَولاده السيد أَحمد، ومعه بعض جماعته لملاقاته، وعملت الحلوى، وجهزت مع الأَغنام والسمن والفاكهة، يقال: على ثلاثين جملاً، وتوجه السيد أَحمد، وطلع له إِلى مركبه، ومعه الشريف عرار بن عجل بن رمَيح، والجمال محمد المريسي، ومن القواد نحو العشرة، وجلس بقية جماعته في مَرْسى أَبي صريف (؟)، فأَكرمه الباشا، وقام له عند قدومه وذهابه، وسأَله عن أَبيه وطلب الدعاء منه، وأَخبر أَنه لم يقتل الحمزاوي إِلا بأَمر (الخندكار)، ثم أَخلع عليه وعلى السيد عرار، وعلى الجمال المريسي، ولم ينزل الباشا من مركبه حفظاً للعسكر، ولم يُحْدِثْ شيئاً من الأُمور فسكن بذلك ما عند الناس من الاضطراب، لكنه أَمر بطلب الماء العذب والحطب، فحصل له من جماعة الشريف ما أَحبَّ، ونجلت له الصهاريج التي هي داخل جدة وخارجها، واجتمع به الخواجا الشحري صهر القبطان الفرنجي فسأَله عن حالهم، وتخت ملكهم فقال له: بلاد قوة ـ بضم القاف ـ وسأَله عن مصاهرته له، وأَشاع الناس قتله، ومسك بعض التجار فلم يصح شيء من ذلك بل أَطلقه، وحصل الريح الطيب فسافر الباشا من بندر جدة ضحى يوم الاثنين ثامن عشر الشهر، وكانت إِقامته بالبندر خمسة أَيام، ولم يصل للباشا هدية الشريف من الأَطعمة وغيرها. فيقال: إِنه رسم له بستة آلاف من الذهب الجديد، وعُدَّ سرعة سفره من سعد صاحب مكة، وقد حبسه عن دخولها حابسُ الفيل، واتضح أَنَّ صاحب مكة لم يعطِ الباشاه شيئاً من النقد، وإِنما جهز ما تقدّم ذكره من الأَغنام والمأْكولات، فأُبيعت في بندر جدة بأَحسن الأَثمان، لغلو الأَسعار

بها، وعقب توجه الباشا من جدة دخل الشريف أَبو نُمَيٍّ الفرْضَة، وهرع الناس للسلام عليه، وعزل رأس المباشرين بها محمد الظفاري، وولّى عوضه يحيى بن سبيع (؟) بن راجح، لوعده له، بمشاركة محمد المريسي ليكون عيناً للشريف على أَحواله، وخدمه على ذلك بخمسة آلاف دينار، ثم وصل نجّابٌ في شهر رمضان المعظم من سليمان باشاه، أَخبر بأنه دخل الدُّيُو، وبعض البنادر حولها، وجاءه الأَمير صفر الرومي، فأَخلع عليه عدة من الخلع، وأمره بحفظ بلاده حتى يعدو لأَخذ بلاد اليمن، ويحج عام تاريخه، ويرجع إلى الهند لحرب الفرنج المخذولين، ويحفظ باب الْمَنْدَب من هجومهم عليه، وأنه أَرسل إلى صاحب زبيد وهو الناخوذة أَحمد، يطلب مواجهته، فأَرسل إِليه يعرّفه أَن عسكر الأَروام الذين معه منعوه من ذلك، وهو مهتم لملاقاته من الْبَرّ بخيل ورجال، ولما كان ضحى يوم الجمعة ثاني عَشرَيْ القعدة وصل سليمان باشا إلى جدة، ومعه نحو الأَربعين مركباً، وكانت أَهل مكة والأَعيان اشتغلوا بخبر وصوله من جهة اليمن والهند، بعد أَخذه لمدينة زبيد، بمباطنة بعض عسكرها ودخوله هجماً لها في خامس شوال عام تاريخه، وأَقام بها مدة، وقتل أَميرها الناخوذة أَحمد الرومي، مع غيره من أَكابرها، واستناب بعض الأَروام فيها، وكذلك مملكة عدن، فاهتم الشريف لملاقاته، وأَمر بتحصيل الضيافة، فجمع له أَلف رأس من الغنم، ومئة قنطار من العسل وستين قنطاراً من السمن وحلوى، وغير ذلك من الفواكه، وتوجهوا إلى بندر جدة، وكان وصل قبله سليمان (كيخيته) في نصف الشهر فلاقاه السيد أَحمد في جدة، وقدّم له فاكهة وحلوى وغير ذلك، وأَراد الطبخ له بها فقال: يكون بمكة ونيته العجلة للسفر إلى جهة مصر والروم، ولما وصلت المراكب إلى البندر جهزها الباشاه إلى جهة الطور مع غالب عسكره الذي وصل معه، ثم قدم إلى مكة فخرج الأَعيان لملاقاته من وادي حَدَّة، فوصل إلى الزاهر في ليلة الأَربعاء تاسع عشري القعدة، وبات إلى الصباح، ودخل من أَعلا مكة بعرضة لطيفة، ومعه السيد أَحمد بن أَبي نُمَيٍّ الحسني بعد أَن أَلبسه قفطاناً مدنراً، والأَفندي مصلح الدين قاضي مكة، والبرهان بن ظَهيرة الشافعي، والتاجي بن يعقوب المالكي، وآصف خان وزير الهند، راكبين أَمامه وهو خلفهم بمفرده، وخلفه (الصنجق) والطبول، حتى إِذا وصل إلى المدعا أَمر بسكوت الطبل تأَدباً واستمر على ذلك حتى وصل إلى محل سكنه أَسفل مكة جهة باب إبراهيم بمنزل السيد علاء الدين ملك التجار، وهو المنزل الذي بناه داود باشا بعد ذلك تكية للفقراء، فأَقام به سليمان باشا، وهرع الأَعيان للسلام عليه فلم يجتمعوا به، وعمل له صاحب مكة سماطاً لائقاً به، ومُدّ بحضرته،

ولم يخرج من منزله يوم تاريخه إلا ليلاً، فطاف وسعى راكباً، ومعه إمام المالكية الجمال محمد بن عبد الحق النويري العقيلي، بمقتضى أنه لاقاه من جدة، وأفاده بطوافه تقريره في خمسة وعشرين ديناراً صرة بدفتر الذخيرة، وأحسن له بغير ذلك، ثم أمر بإجهار النداء ببلد الله الحرام والاطمئنان، ومَن له شكوى يتوجه إلى منزله، وكان في وسط المسجد الحرام، وحول المطاف على رؤوس الأنام.

وفي ظهر يوم الجمعة بعد صلاتها، جلس في مقام الحنفية تجاه بيت الله والميزاب، على كرسي من حديد، وجلس تحته ابن صاحب مكة الشريف أحمد بن أبي نُمَيٍّ بن بركات الحسني، ومصلح الدين الرومي قاضي البلد، والقضاة المفصولون، وأمر بالنداء في الطواف وأروقة المسجد بأنَّ مَن له شكوى فليحضر لديوان الباشا، فأنكر الأعيان ذلك بقلوبهم، ولم يمكنهم ظهوره، وحصل بذلك انتهاك حرمة المسجد الحرام بالنداء للمظالم، والجلوس على كرسي الحكم، والترفُّع على الشريف ابن سيد المرسَلين، وعلى قضاة الشريعة، ولكنه قد ذاق وبال أمره بعد ذلك، وحق على الله تعالى الانتقام من كل جبار عنيد، ثم قام وتوجه إلى منزله، وصار يتردد إلى مقام الحنفية في أوقات الصلوات ويجلس على كرسي كل يوم، بعد صلاة الصبح ساعة، وبعض عساكره واقفون أمامه، ولم يتفق ذلك لمَن كان قبله من السلاطين، وغيرهم من الجبابرة المتكبرين، ويُظْهِر إبطال المظالم، وإخفاء الصدقات لأهل الرُبُطِ الفقراء، ولذوي البيوت، فكتب له الشيخ أبو زرعة قوائم بالمستحقين على عادته، ففرّق على الأربطة لكل نفر ثلاثة عشر نصفاً، واستوعب أهلها، ثم قسم عليهم لَحْماً لكل رباط خمسة كباش، وأعطى بعضَ ذوي البيوت من الفقهاء وأتباعهم، والفقراء من الأعراب لكل نفر ثلاثة عشر نصفاً، فرفع الشيخ شهاب الدين ابن حجَر قصة بسبب خلوةٍ في رباط الأشرف قايتباي، فأعادها له، ثم ادَّعى الشيخ محيي الدين العراقي الخطيب على الشيخ موسى الرومي بسبب سكناه في المدرسة الشرابية، فلم يفده شيئاً، وادعى شخص أعجمي على الشيخ أبي زرعة المنوفي، بسبب وصيته على تركة الخواجا خليل الكيلاني، وكنت في تلك السنة سبقتُ دخول الركب إلى مكة، وصحبتي صاحبنا العلامة المفتي الشريف شمس الدين محمد البرديني الحنفي، وتأخرتُ عن مواجهته في ذلك الوقت، ثم واجهته بعد ذلك مراراً بطلبه لي من أمير الحاج، وحثه على ذلك لما تقدم لي وللوالد رحمه الله تعالى من خدمته عند توجه سليمان مملوكه أميراً على الركب، فحصل لي منه الجبر والتعظيم والرعاية، ولما دخل الركب صحبة مصطفى أمير اللواء في تلك السنة بعد أن كان

كاشفاً لإقليم الغربية، وهو أَمير على الركب، على عادته فقابل الباشا على وَجلٍ منه بسبب قتله في تلك السنة للأَمير حجازي ابن بغداد، أَمير عربان المنوفية، بأمر داود باشا مصر، وكان حجازي يلوذ بسليمان زمن ولايته، فبالغ سليمان في إِهانة أَمير الحاج مصطفى المشار إليه، واشتط على المذكور بترادف الإِهانة حتى أَنه ذكر لي أَنه نوى أَن يشرد على راحلته، ويترك إِمرة الحاج خوفاً على نفسه منه، لأَنه جعله غرضاً مع داود، مع أَنَّ سليمان هو الذي كان سبباً لترقيه في المناصب، وأَنشأَه وأَقرضه لما جعله أَمير الركب من ماله إِسعافاً له على تجهيز المهم، ثم إنه بعد ذلك أَلاَنَ جانِبَهُ له، واستعطفه، ولما عاد من الحج وتوجه إِلى المملكة الرومية جعله باشاه زبيد باليمن، وكان مصطفى بذل له في حالة عوده من مكة وسفره صحبة الركب ما أَحبَّ من جماله وأَحماله وماله، فكان ذلك سبباً لتطييب خاطره، بعد ذلك العتب البليغ.

ولم يلم الشريف أَبو نُميٍّ على سليمان قصداً، ولا سلَّم عليه، وإِنما اتفق له أَنَّ الباشاه في ليلة الأَحد الثامن من ذي الحجة بينما هو بالْحِجْر الشريف بعد أَن اغتسل من زمزم، وأَحرم بالحج، وإِذا بالشريف أَبي نمَيٍّ قد وصل إِلى المطاف، وكان الباشاه يصلي للإِحرام تحت الميزاب، فاجتمع به هنالك، فأَقبل الباشا عليه وأَظهر الفرح والسرور برؤيته وقال له: أَنت والدي، وولدك أَحمد ولدي، وقبل الباشا شعَفَته (؟) وتوجه إِلى منزله، ووقف الباشا بِعَرَفَة مع أَمير الحاج، وإِمام الموقف مصطفى الرومي قاضي مكة، وكانت الوقفة بالاثنين، ومرَّ في صبيحة هذا اليوم السيد أَبو نُمَيٍّ على عادته في دخول عرفة بموكبه وهوادجه وخيوله، إِلى أَن توجه إِلى محل نزوله منها فجعل طريقه على خام الوزير سليمان باشا، وكان قريباً من (وطاق) أَمير الحاج بالجبل، فخرج الباشا من خيمته، واستمر واقفاً والعسكر والخيول تمر على (وطاقه) حتى جاء الشريف بموكبه الخاص، فأَومى إِلى الباشا بالسلام راكباً، بحيث أَن فرسه وطئت أَطناب خيامه، وتوجه مسرعاً ولم يقِفْ، وعاد سليمان فجلس في خيمته، ولما نزل الباشا من مِنى نصب خيامه عند درب المعلاة في محل أَمير المصريّ بقرب البرك، وتقدّم أَمير المصريّ قريباً من الأَبطح بالقرب من الشامي، وكان سفرهم في يوم الثلاثاء سابع عشر ذي الحجة، فوصل الباشا في ظُهْر تاريخه إِلى الوادي، وتبعه أَمير الحاج في ليلة الأَربعاء المسفرة عن ثامن عشر، وتوجه سليمان باشا صحبة الركب إِلى الينبع فكانت خيمته في الدور تجاه خيمة أَمير الحاج، وقد شكا لي غلامه من أمر أَرسله إِلى أمير الحاج، ولم يتكلم في شيء مما يتعلق بأَمير الحاج، بل يعوّل عليه، وكان يطلبني لمهماته بمكة كثيراً، بمكة والطريق، ويكثر

من الترحُّم على والدي ـ أَسكنه الله بحبوحة الجنة ـ وانفرد بالمسير وحده، متقدماً على الركب من الينبع إِلى القاهرة.

لطفي باشا: الوزير الكبير، حجَّ من طريق مصر معزولاً عن منصبه في عام تسع وأَربعين وتسع مئة في ولاية المرحوم جانم من قصروه لإِمرة الحاج، ولما قدم من البلاد الرومية احتفل بأَحواله أَكابر الدولة وأَنزله داود باشا بمنزل كاتب السر ابن أَجا، المعروف بسكن المرحوم جانم الحمزاوي، بخط قنطرة آق سنقر، وطلبني وأَمرني بملازمته والنظر في مهمات خدمته، واحتياج سفره، وكذلك أَمير الحاج فكان الوزير على الغاية القصوى من الحرمة والمهابة والتعظيم، وتردّد إِلى منزله داود باشا، ومحمد شلبي ناظر الأَموال مراراً عديدة لأَخذ خاطره والتلطُّف به، إِلى أَن توجه مكرماً، وكان مِسِّيكاً مُقَتِّراً، وأَتذكر أَنني عرضت عليه يوماً مقدار ما يحتاج إِليه من البقسماط لمأْكولات غلمان السفر بخدمته، وكان داود باشا جالساً عنده بمنزله، وكذلك (الدفتردار) فقال لي الوزير: هل يمكن أَننا نعطيهم ثمن ذلك نقداً من هنا إِلى العود ونربح مشقات كلف ذلك؟ فأَجبته: أَن ذلك غير لائق بمقامكم العلي، وسببه أَنَّ الغلمان يتصرّفون في ثمن ذلك الذي تقبضونه لهم، ولا ينظرون إِلى أَمر الزاد، وكلما احتاجوا بالطرقات إِلى القوت وطلبوه من صاحب طعامك فيمنعهم من الأَخذ، ويذكرهم ما سلف من تسليم ثمن قوتهم فلا يسمع منهم عند ذلك إِلاَّ غوغاءهم ولهجهم بذكر الجوع، فقال لي داود باشا: أَصَبْتَ والصواب ما قلت وتبدأُ بعمل البقسماط قبل كل شيء. ولما برز من القاهرة توجه معه داود باشا لوداعه، وكانت جماله عند مسير الركب أَمام الدُّلَلاءِ، وأَهدى إِليه أَمير الحاج من الأَكوار المزركشة وغيرها، ومن الجِمال والمأْكولات ما شكر منه على فعله، وسافر معه إِماماً صاحبنا الشيخ أَبو اللطف سبط الشيخ العلامة أمين الدين بن النجار الشافعي الغمري، وطوفه صاحبنا الشيخ العلامة الأَوحد قطب الدين بن مُلاًّ علاء الدين النهروالي، مفتي الحنفية بمكة، ولما قرب وصوله إِلى مكة جاءت لتلقيه أَولادُ السيد الشريف أَبو نُمَيٍّ بن بركات، ثم عقبهم أَخوهم الأَكبر المتولي إمرة مكة وهو الشريف أَحمد الحسني، وقدمت إِليه الهدايا الكثيرة، والاتحافات الغزيرة، ومُدَّ له سماط حافل يوم دخوله إِلى مكة، وعامله الشريف أَبو نُمَيٍّ بما يليق بمقامه، وزاد في تبجيله وإِجلاله وإِعظامه، وكان حاجًّا بصحبته (جاويش باشا) السلطان المسمى شجاع، على جانب من الرفعة أَيضاً، وأَهدَى له أمير الحاج ما يناسبه، ولما آن خروجُ الركبِ من مكة جهز إِليه الشريف الأَغنام وما يحتاج إِليه من أَسباب الرجوع، ولم يحصل منه لأَهل الحرمين

فيما يظهر صغيرُ برٍّ ولا كبيرَهُ، ولم يصدر منه بطرقات الركب ولا بالحرمين أَثَرٌ يذكر، سوى ما دفعه إلى خير الدين الرومي شادّ عين خلَيْص عند وفاة مملوك من خواصه بها لِبنَاءِ مدفنٍ وللصدقة عليه، وهو مئة دينار من الذهب الفرنجي والجديد الضرب، فبنى له خير الدين المذكور المدفن وبيتاً لسكناه، يشتمل على باب كبير وحوش وسيع، وهو ظاهر البنيان بمنزلة الركب بِخلَيْص، وعاد الوزير صحبة الركب إلى القاهرة، وتوجه منها إلى بلاده مكرماً.

محمد باشا الوزير الثاني: حجّ معزولاً من الوزارة، من طريق الشام في عام نيف وخمسين وتسع مئة ودخل مكة محرماً متواضعاً إلى الغاية، وصدقاته يسيرة، وأَجلُّ ما فعله مما حمِدَ فيه، وشكر على مثله، أنه لما مرَّ عند الزيارة الشريفة بالزُّقَيِّقَيْن ـ بالتصغير ـ عند دخوله إلى المدينة المنورة رأى ذلك المحلَّ حَصِراً ضَيِّقاً لكثرة ما به من الأحجار التي تضرُّ بالسالك، فلما عاد من الحج وتوجه إلى القسطنطينية العظمى أَرسل بعد ذلك بمدة، أَلفاً من الذهب البنادقة، وأَمر بدفعها إلى الأَمير مستدام، ناظر الحرم الشريف النبويِّ ـ صلوات الله وسلامه على الحالِّ به ضريحه ـ وكاتبه في أَن ينظف بها طريق الزُّقَيِّقَيْنِ، وبالغ في تسهيل سلوكه على المارّة به، فاجتهد الأَمير مستدام في ذلك إلى الغاية، ونظفه تنظيفاً حسناً، وأَزال ما كان بطرقه من أَسباب العناء وسهل ممشاه، ودحى (؟) ذلك الوعر الذي كان بطريقه وانتقاه، وذلك في سنة إِحدى وستين وتسع مئة فعدت هذه الفعلة من محاسنه أَجزل الله ثوابه.

أَخو الوزير الأَعظم، رستم باشا: الوزير الكبير، حجّ في سنة ثلاث وستين وتسع مئة، ولاية عيسى بن إسماعيل أَمير بني عونة، بالبحيرة لإمرة الحاج، وكان قدومه صحبة الركب الشامي، فنزل بالمدرسة الأَشرفية قايتباي، وأَكرمه الشريف صاحب مكة، وتردد إلى محله أَمير المصريّ، والشامي الذي جاء بصحبته من الشام، ولم تُذْكَر له محمدة في تلك الحجة، ولا مأْثرة في سلوك تلك المحجة، وكان غالب أَيام الموسم مقيماً داخل المدرسة، لا يبرح عنها، إلى أَن قضى نسكه، وعاد صحبة الحاج الشامي على حاله.

(كيخية القابجية): بخدمة السلطان سليم ابن السلطان سليمان ـ نصره الله تعالى نصراً عزيزاً ـ حجّ في عام أربع وستين وتسع مئة من طريق البحر، وأكرمه الشريف صاحب مكة، وأنزله في المدرسة الكلبرقية بباب الصفا، وقسم بمكة والمدينة المنورة بعض صدقات كانت بصحبته، وعاد من البرّ صحبة الركب المصري إلى القاهرة، وتوجه منها إلى بلاده مكرماً.

أَحمد ابن الإِمام كراد أَحمد ـ بتفخيم الكاف المشوبة ـ ابن محمد، ملك الحبشة المسلمين، المجاهد، المرابط الغازي، والده صاحب مملكة دِنْبيَه ـ بكسر الدال المهملة بعدها نون ساكنة وباء موحدة مكسورة بعدها ياء مثناة تحتية مفتوحة وهاء آخر الحروف ـ تغلّب كراد أحمد المذكور على أكثر مدن الحبشة وقُراها، واستولى، وقتل وسبَى، وغنم وغزا بلاد الْحِطِي النصراني ملك الحبشة، وكان الملك حينئذ ونَاك سَكَّذْ ـ بواو مضمومة ونون مفتوحة بعدها ألف وكاف ـ وسكد ـ بفتح السين المهملة بعدها كاف مشددة مفتوحة ودال مهملة ساكنة ـ فكرَّ عليه الإِمام غير مرة، وبرز إِليه الحطي بنفسه المرة بعد الأُخرى، فلم يَفزْ منه بطائل، وحال بينه وبين الظفر به كلُّ حائل، واشتهر بكثرة عساكره وجموعه، وشجاعته التي يضرب بها المثل، وظفره بكل بطل بعد بطل، ونَما ذكره عندهم بذلك، في سائر قراهم والممالك، وغنم وسبَى، وجهز أولاد الحبوش من غالب الأَقطار، إِلى مشاهير الأَمصار، وظفر بولد النجاشي المدعو ميناس، وجهزه في سرية منهم، وباعه بمملكة اليمن ـ كما سيأْتي ذكره ـ ولقد بلغني من ثقات الحبشة وغيرهم أنه آلَى على نفسه أَنه لا يزال يسبِي ذراريهم ويجهزهم إِلى الأَقطار والأَمصار، حتى يصير ثمن كل رأس دينار، ولعمري لقد أكثر من البعوث منهم في نيِّف وأربعين وتسع مئة، وقبله وبعده، حتى سام هذا الحبش كل مُفْلِس، واجتمع منهم في يد آحَادِ الرَّعية الثلاث من العدد، وأكثر من ذلك وأقل، فكيف بذوي الحلاوة والقدرة، وأتذكر أنني شريتُ من جلاب مارٍّ بسربة على باب داري، جارية حبشية قد قاربت البلوغ أَوْ نَاهَزَتْ في عام خمس وأربعين وهي بكْرٌ حسنة الشكل، بعشرة من الذهب، ورأيتُ أَنَّ الجَلاَّب قد شَطَّ عليَّ في الثمن.

ولم يزل ونَاك سَكَّد النجاشي يجمع له الجموع، ويكثر لملاقاته الدفوع، وهو يهزمه ويبدد جمعهُ، ويفنِي عساكره، حتى بلغني أنه كان يجعل أجساد القتلى في الحرب إِذا أكل كالموائد، بأَن يضع ما يقدم إِليه من المأكولات على أجسادهم، ويأكل أكلاً سائغاً لم يتقدّم له مثله على غير هذه الصفة، واستمر ملك الحبشة المدعو ونَاك سَكَّذْ يبرز إِليه ويعود بالخيبة، وتدور بجماعته دائرة الروع والهيبة، إِلى أن توفي وهلك في غير حالة قتال، ولم يظفر به في حرب ولا نزال، فلما ولي بعده ولده المدعو أَطناب سَكَّذْ عزَّ عليه ما فعله ملك دِنْبِيَهْ أحمد المجاهد المذكور في نصارى الحبشة، وما سَبى من ذراريهم، واستعدَّ لقتاله ومحاربته، وجمع الجموع من نصارى الحبشة والفرنج، وخرج إِلى ملاقاته، وإِشعال نار الحرب في طرقاته، فالتقيا في

المحل المعروف عندهم بِدَلْمِيْدَا كركيس، بأَرض كُتْلو ـ بدال مفتوحة ولام ساكنة وميم مكسورة بعدها ياء مثناة تحتية ساكنة ودال مهملة مفتوحة بعدها ألف آخر الحروف، وكُتْلو بكاف مضمومة بعدها تاء مثناة فوقية ساكنة ولامٌ مضمومة بعدها واو ـ وهذه الأَرض فضاء شاسع، وتناوشا القتال، ولم يزل بينهما الحرب والطعن والضرب، إلى أن أَلقاهم الزحف بأَرض يقال لها وُنَا، دَكا ـ بواو مضمومة، ونون مفتوحة موصولة بأَلف بعدها، ودَكَا: بدال مهملة مفتوحة وكاف مفتوحة أيضاً بعدها ألف ـ فأَمسيا بها، وركب الإمام كراد أحمد ملك المسلمين سحراً، وجميع ملبوسه ومركوبه من اللون الأَحمر وكذلك ما على عساكره جميعاً وخيوله، وزحف على الحطي بعساكره على الصورة التي ذكرناها، فبدّد جمعه وشتّت شمله، وكاد أن يكون الظفر له، وكان من أعيان أمراء الحطي شخص يدعى كاليد، أصله نشأَ عند الإمام ومن جنده، ثم غضب منه، لأَمْرٍ ما، ولحق بالحطي ملك النصارى، فصار من وُزرائه، فراسل الإمام يومئذ قائلاً له: إنني كنت من أتباعك، والآن فدونك الحرب والنزال، وكان يعرف الإمام بهيئته التي كان يعهدها قديماً لما كان في خدمته، فلما التحم القتال ـ كما ذكرنا ـ وهجم الإمام بنفسه يكرُّ على الأَبطال من النصارى، ويجيد الطعن في موطن النزال، وكاليد المذكور يراه من بُعْد، ولا يقدر أن يدنو منه، خوفاً ورعباً من سطوته، وبينما هو ناظر إليه وهو يجيد الطعن، ويُبَدِّدُ الظعن، إذ حانت منه التفاتة فإذا بعض رماة الفرنج وقد حرر على الإمام ببندقهِ، ورماه بها، فأَصابته، وكانت سبباً لمنيته، فخرَّ صريعاً، ولم يشعر بموته أحد، والرامي وجميع عساكر النصارى يظنونه من شجعان الإمام، ولم يعرفه إلاَّ كاليد، بعلامته لديه، فأَجهد كاليد فرسه، وأَتى إلى موضعه من القتلى وهو صريع بينهم، واحتزَّ رأسه، وأتى بها إلى ملك الحبشة ممتنًا عليه بذلك، قائلاً له: هذه رأس عدوك، فلم يصدقه الحطي، واستمر الحرب على حاله بعد قتل الإمام، من الصبح إلى العصر، ظنًّا منهم أنه حيٌّ بين السعاكر فجمع كاليد جمعاً من أعيان الحبشة، واستشهدهُم على معرفة الرأس، فشهدوا أنها هي، بالعلامة التي يعرفونها، فعند ذلك برز كاليد بالرأس بين العساكر، وصاح بأَعلى صوته بلسان الحبشة ما معناه: لماذا تقاتلون؟ وعَمَّن تناضلون قد قتل كراد أحمد؟ فعند إشهار الرأس تبددت عساكره، وتفرقت شيعاً، ونُهِبَ (وطاقه) ومُسِك ولده صاحب الترجمة وهو صغير مراهق، وحُمل إلى ملك الحبشة، وأما زوجة كراد أحمد وبقية عساكره فالتحقوا إلى بلدة، أهلها كلهم عرب مسلمون، تدعى أَتبَرا ـ بهمزة مفتوحة وتاء مثناة ساكنة وباء مفتوحة وراء مهملة كذلك ـ واجتمعت

الزوجة بهم، وتوجهت من عندهم إلى مدينة عدن من أرض اليمن، وباشا زَبيد حينئذ مصطفى النشار، وأما أحمد ولد الإمام فإن الحطي دفعه إلى أمه، وأوصاها بحفظه، وتوجَّهَ إلى حرب آخر بعساكره، وكان من مقدور الله تعالى أنَّ الإمام ظفر ـ في حروبه أراضي الحبشة، قبل قتله ـ بولَد للحطي صغير كولده، يدعى ميناس، فجهزه مع السبي في مركب إلى أرض اليمن، ليباع بها هو ومَن معه، فاشتراه مصطفى باشا النشَّار، وعلم أنه ولد ملك الحبشة، فاستلمه وضمّه إليه، وعلّمه سوراً من القرآن، وأراد أن يخصيه، ثم رجع عن ذلك، وسمعت زوجةُ الإمام أن ولد الحطي عند مصطفى باشا، فطمعت في خلاص ولدها أحمد من يد النجاشي، وجاءتْ إلى مصطفى باشا، وأهدتْ إليه هدايا سنية وتحفاً كثيرة، وشكتْ إليه ما اتفق للإمام، وأَسْرِ ولدها عند الكفار، وسألته في أن يكاتب أمَّ الحطي، ويتلطّف بها، ويعدها بتجهيز ولدها ميناس إن جهزت إليه ولد الإمام فجرت المكاتبات من الجهتين إلى أن جهزت إليه ولد الإمام في غيبة ولدِها في الحرب، وأرسلت معه هدايا، ومن جملتها سبائك من الذهب الأحمر، لها قدر وافر، فوفَى لها مصطفى باشا بما شرطه لها، وتسلَّم ولد الإمام، ودفعه لأُمه وجهز ميناس مكرماً في جمْع من العسكر لحفظه إلى أن تسلمته أمه، بعد أَنْ خرجت عساكر الحبشة لملاقاته من سائر المدن والقرى، وكان دخوله يوماً مشهوداً كما بلغني ذلك من الثقات الذين شهدوا هذه الوقائع، ولما عاد الحطي إلى كرسي مملكته سأل أمه عن ولد الإمام فأَخبرته بما اتفق، فغضب غضباً منكراً، ووبّخها بما فعلت، خوفاً منه أن يصير كوالده، ويأْخذ بثأْرِهِ، وأما ميناس فاستمر في مملكة أبيه، وكتم إسلامه إلى أن هلك أبوه أطناب سَكَّدْ المذكور، وولي ميناس ملك الحبشة بعده، وكانت أكابر الحبشة تحرِّضه على سنِّ الغارات، وإيقاع القتال بالحبشة المسلمين أتباع الإمام، وهو يمتنع من ذلك، وصرّح لبعض خواصه من الحبشة: إنني قد آليتُ على نفسي أن لا أَسُلَّ السيوف في وجوه المسلمين، وبلغني من الثقات أَنهم يريدون ولاية أحدِ أقاربه عوضه عليهم، ويدعونه في بعض القرى معزولاً عن الملك لذلك، هذا ما قيل.

وأما أحمد ابن الإمام ملك دِنبيَه فاستمر عند مصطفى النشار مكرماً، إلى أن عُزل من مملكة اليمن، وأتى إلى القاهرة وهو بصحبته، فقابل الباشا داود، وكتب له عروضاً إلى السلطان يعرِّفه عن منزلته، وما كان عليه والده، وتوجه صحبة الباشا إلى الباب، فأُكرم، وحُسِّن ملتقاه، ورُتِّب له من العلوفة ما يليق به، كعادة السلطان في أولاد الملوك، وعاد إلى الديار لمصرية وسكن بمنزل يشرف على بركة الفيل،

وصُرِفت له العلوفة المقررة من الخزانة المصرية، وركب كأَولاده الملوك بالسروج المحلاة، والسلاسل الفضة، ومشتْ في ركابه العبيدُ الأَتراك، وكان شابًا حسن الشكل والسمت والقد، بعنق كالغزال، لا نبات بعارضيْه، عليه سيما السعادة، وتلحظه مخايل الرئاسة، ولديه عقل وذوق، ومعرفة وأدب، وتعرَّفَ بالأَكابر، وتلطّف في حسن عشرته بمَن اصطحب معه، وكان تَقَدَّمَ له الوعدُ من السلطنة أنه إِذَا جلس بالقاهرة مدة، وقويَ عزمه على قتال الحبشة النصارى والأَخذ بثأر أبيه، يجهز معه عساكر وقوة، وأُهْبَة للحرب، تليق به، ويصير كوالده، فأَقام بالقاهرة عدة سنين، ليست له حالة سوى صرف ماله من الثمار، والجلوس في الدار، وجُهِّزَ أزدمر باشا لقتال الحبشة، ولم يُجَهَّزْ صحبته، فسئمت نفسه وضاق صدره، وأَنِفَ من إِقامته بدارِهِ على غير حالة، كأَهلِ الفراغ والبطالة، وتذكر ما كان فيه أبوه من الملك، وغزو الكفار وتَمنَّى ألأَخذَ بالثأر، فلم يَرَ منهم لذلك تأْهيلاً، وضاقت نفقته فاستدَانَ وتجمَّدَ عليه من الدَين قدرٌ حافل، وشكا إِلى إِسكندر باشا بسبب الدَين، فوفّر من (جامكيته) قدراً وافراً للدين فضاق حاله وقلَّ ماله، واختلط حينئذ بالعامة، واجتمع عليه مَن لا يؤبه به، وصار يتردد إِلى الجامع الأَزهر لقراءة شيءٍ من كتب العلم، ليتشاغلِ بذلك عما هو فيه من الحصر والضيق، وعزم على الحج إِلى البيت العتيق، مُتَنَكِّراً مُتَسَتِّراً، فخرج في ركب الحاج، في ولاية خضر بن عبد الله على الركب، عام ست وستين وتسع مئة كآحاد الرعية، راكباً على ناقة بغبيط، فلم يشعر به أحد، وفقده إِسكندر باشا من القاهرة، وخشي أن يلحقه اللوم من السلطان، فكتب إِلى خضر أمير الحاج أن يفحص عنه بمكة، ويقبض عليه ويرده بصحبته، فجعل عليه العيون والمراصد، إِلى أن قبض عليه بمكة المشرفة متنكراً، وكان عزم على أن يتوجه بعد الحج في بعض المراكب إِلى أهله وحاشيته، فأُعِيْد إِلى القاهرة معتقلاً صحبة (جاويش) فاشتدّ به الأَسف مع صغر سنه، وتوالتْ عليه الهموم، وعدم مساعدة الأَقدار، فاعتلَّ، وتوفي في عام سبع وستين بخط الجامع الأَزهر غَريباً، وكُفِّن ودُفن وغُسِّل في بعض المقابر رحمه الله تعالى، وكان تَعَرَّفَ بنا، وأحسن الصحبة معنا إِذا اجتمعنا به.

مولاي الرشيد ابن مولاي محمد بن الحسن بن مسعود ومولاي: هو ابن بنت مولاي عثمان ملك تونس، من بلاد المغرب، حجّ في نيّف وخمسين وتسع مئة في ولاية مصطفى باشا على الحج، وحجّت معه أمه، وهي من المولدات، سمراء اللون كهو، وكان السبب في قدومه إِلى مملكة مصر وحجه ما حكاه من لفظه: أنه لما توفي

والده اجتمعت الأَكابر على ولاية أخيه مولاي الحسن ابن مولاي محمد، لأَنه كان يُحَابيهم، ويؤلف قلوبهم عليه، فتعصّب له أكابر المملكة، وولي عوض والده وانتظم أمر أخيه مع أهل الدولة دونه، ففرّ الرشيد ومعه أمه، خوفاً على نفسه من الغدر به، وقصد الديار المصرية بَحراً، من طريق إسكندرية، وحجّ في هذه السنة كما قدّمنا ذكره، واكترى جمالاً من عربان الربائع دون المقاطِرية، ورتّب له مصطفى باشا الذي هو أمير الحج عليقاً، وأكرمه بعض إكرام، وألَمَّ بي كثيراً، وقصد مصاحبَتِي، وتردَّدَ إِلى خيمتِي في المناهل للمصاحبة، وأكثر من مسايرتي في أوقات الرحيل من الدور، ورأيت لديه من الأُنس والذوق ما يخالط به أهل الأدب، ويُذَاكِر به ذوي الحفظ، وربما أهدى إِلي من لطائف ما صحبه من المأكولات الخاصة به، كبعض الأَشربة، والجوارش المطيبة الممسكة، ويذكر لي أن ذلك من عمل والدته، وفيه حسن المعاشرة ومحبة السماع الحسن، ولديه دهاء فربما عظم الشيء الحقير لمقصد من المقاصد، ولما رجع إِلى القاهرة من الحج توجّه إِلى الأَعتاب السلطانية، فَرُتب له ما يكفيه، واستمر بـ(استنبول) مكرماً على أحسن حالة، أحسن الله عاقبته.

ومن الملحق بعد التاريخ: محمود أغا النوبي: زَمَّام سيدة الخواتين، ابنة السلطان سليمان ابن السلطان سليم خان بن عثمان، عُزل من وظيفة الزِّمام في سنة تسع وستين فحضر إِلى القاهرة بحراً، في شهر شعبان المكرم من السنة، قصاداً للحج إِلى بيت الله الحرام، في أُبَّهة وشهامة زائدة عن الحصر، بحيث بلغني أنه لما حضر من السفر، ونزل بمحل بالقاهرة، جهز إِليه مصطفى باشا مصر (أرمغاناً) من جملته عشرون قنطاراً من السكر النقي، وخمسون رأساً من الأَغنام، فردّها عليه صحبة قاصده وقال: أنَا مغمور من رزق السلطان، فلا حاجة لي بهديته، وذكر لي يعقوب (جاويش) وهو ثقة في الأَخبار، أنه وصل صحبته اثنان وثمانون زوجاً من الصناديق، فيها أسبابه، خارجاً عما هو غير ذلك، وذكر لي مَن أثق بقوله: إنَّ سبب عزله من الزِّمام سوء أخلاقه فيقال: إِنه ضرب (دوادار) رستم باشا الوزير الأَعظم زوج سيدته في حال حياة رستم ووجوده، ولم يُعاتب على ذلك، وتوجه مسرعاً إِلى مكة المشرفة، من طريق الطُّور بَحْراً في شهر شعبان المكرم، ولم يقم بالقاهرة لمصادفة الوباء وقوة فعله في هذا التاريخ، ولما وصل إِلى ساحل جُدَّةَ لم يُلاَقِه أحدٌ من جماعة الشريف أمير مكة، بل تعرّض له حاكم جُدَّةَ وأتباعه في أخذ العشور، وشدَّدُوا عليه جدًّا فلم يغيره ذلك ظاهراً، ولما دخل مكة لم يلاقه أحدٌ أيضاً، بل سلّم عليه السيد حسين المالكي مستوفراً، وتوجه من غير جلوس، فنزل بالتكية (الخاصكية) بسكن صاحبنا الشمس الكازواني، وحصل له بنزوله عنده غاية

الإِحسان، فإِنه دفع إِليه نقداً نحو ستين ذهباً، وأقام بكلفته منذ نزل عنده إِلى أن رحل، وأحسن إِلى الشمس محمد بن عبد الحق النُّوَيْري المالكي، بخمسين ديناراً ذهباً، وإِلى ولد آصف خان وزير الهند كان، نحو الستين ديناراً، وإِلى الشمس محمد بن بركات المالكي ثلاثين ديناراً، وإِلى غيرهم، ولما دخل مكة وجد الماء بقِلَّة، فركب بنفسه، وكشف عن آبار الزاهر والشُّبَيْكَةِ، ودفع لإِبراهيم بك (باش العمائر) مصروفاً على حفر الآبار، فحفر بئراً في طريق بركة ماجد، على يسار المتوجه إِليها، وبئراً في وادي الزاهر، وحصل بهما نفع عظيمٌ، ورأيت زمن الموسم خيمة الشاد منصوبة بوادي الزاهر، واجتهد في حفر الآبار النازحة، حتى أصلح ماءَها ودخل الركب إِلى مكة، وهو على ذلك أَثابه الله تعالى وعَمَّر مَسْجدَ الرَّاية، وأصلح المنارة التي به، وأصلح جدره، وحجّ في غاية التواضع ولزوم السكون، وكانت إِشارته بعرفة تسعة قناديل، ونزل بالمدينة في سبيل داود باشا وكان سيره أول الركب في محفَّة جليلة، وأبهة ظاهرة، وعاد مكرماً إِلى القاهرة.

أولاد إسكندر باشا مصر: حجُّوا صحبة (كتخداي) حضرته في عام أربع وستين وتسع مئة، مع الركب في ولاية خضر بن عبد الله الرومي على الحاج، ومعهم بعض الحريم في ثلاث محفَّات، واكترى لهم من المقدم عبد الكريم البغال بالخزانة السلطانية المستجدة الإِنشاء في تقدمة الجمال عام تاريخه، جِمالاً عدتها مئة وخمسون جملاً، وتوجهوا صحبة أمير الحاج، وطلبني الباشا للتوجه معهم، بعد امتناعي من السفر صحبة خضر المذكور، وألحَّ في ذلك، فلم يتفق سفري لبعدي عن القاهرة وقت طلبه، وحصل عنده من ذلك ما كدره وغير خواطره، وكفى الله بعنايته وحمايته شَرَّه، فحجُّوا في تلك السنة، وأكرمهم صاحب مكة، وأحضر لهم من الإِقامات ما يليق بهم، ومن الهدايا و(الأَرمغانات) ومن جملة ذلك البرقع الشريف، وأنزلهم بالدار العطيفية، ولم يحصل منهم لأَحد من أهل الحرمين إِحسان، وكان حصول النفع بسفرهم للوفد خاصة بمقتضى أنَّ العربان عصت في هذه السنة على أمير الحاج لِسُوءِ تصرفه معهم، وامتنع أعيانهم من مقابلته وقصدوا تَعَمُّدَ الأَذى للوفد، مقابلة لسوءِ فعله، فردَّهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً، بواسطة وجود أولاد الباشا في الركب، خشية من عواقب أفعالهم، فكان سفرهم حاسماً لمادَّة ضرر العربان والله أعلم.

بالي باشاه سيواس: من ممالك الروم، وهو من مماليك السلطان بايزيد، كان في فتح رُودس وحصارها (أغا التفكجية) ثم ترقَّى إِلى أن صار باشاه في سيواس، ثم عُزل واستمر (طرخان) وحجّ في عام ستين وتسع مئة، وانقطع إِلى الله تعالى، بحيث

لا يجتمع إلا بقليل من الناس، واتفق أنَّ غالب الناس توجه إلى عرفة ليلة الأَربعاء ما عدا أمير الحاج المصري والشامي، فإنهما خرجا ضُحىً مع قاضي مكة، وأقام أمير الشامي بِمِنَى، وبات إلى الفجر، وتوجه صبحاً إلى عرفات، وأما أمير المصري ومَن معه والسيد الشريف وبنو حسن وأهل مكة فتوجهوا إلى عرفات ولم يبيتوا بِمِنَى، وأرسل الشريف يقول لقاضي مكة: قد استفاض بين أهل مكة أنهم رأوا الهلال بالثلاثاء، وأخبرنا الثقات أنهم رأوه عياناً، فينبغي التوجه احتياطاً لندرك بقية الليل بعرفات، فيحصل الوقوف على تقدير صحة رؤيتهم. فلم يوافق القاضي على ذلك، وبات إلى الصبح، وتوجه الشريف إلى عرفات، وعمل أمير الحاج المصري إحراقَةً في تلك الليلة بعرفات وحده، ودخل قاضي مكة وأمير الشامي ضحوة إلى عرفات، فأَرسل بالي باشا إلى أمير الشامي يقول له: إنك أبطلت حجَّ مَنْ أقام معك تلك الليلة بمنى، لأن الثقات أخبروا برؤية الهلال ليلة الثلاثاء، فاستعدَّ للجواب إذا سُئِلت عن ذلك بالأبواب العالية!! فأَجابه بأَني شخص عامي، وقد أمرني قاضي البلد بالإِقامة بمنى، لإحياء سُنَّةِ الْمبِيْتِ في هذه الليلة، فامتثلتُ أمره. فقال له: إنك وإن حصلت هذه السُّنَّة لكن يحتمل أنه فاتك الوقوف الذي هو أعظم أَركان الحج، على تقدير أن يكون الهلال بالثلاثاء. فأَرسل حينئذ أمير الحاج الشامي إلى قاضي مكة الكتابَ وأخذ منه تَمَسُّكاً بأَنه هو الذي أمره بالمبيت بمنى تلك الليلة.

ومما أَلحق بمن ذكرنا بعد تَأْريخ الكتاب:

مصطفى باشاه مملكة اليمن، ثم الديار المصرية: حجّ معزولاً عن مملكة اليمن في عام سبع وستين وتسع مئة في ولاية عثمان بن أَزدمر باشا، على الركب، ورجع بعياله وأولاده صحبة الركب معظماً، وقام أمير الحاج بخدمته أجَل قيام، فحفظ له ذلك لمَّا وَلِي مصر، واكترى جِماله من المقدمين اللذين هما جمَّالة الركب، وهما علي بن العظمة ومحمد بن محمد طعيمة، عُرف بالسيسي، وعدة ذلك مئة وخمسة وخمسون جملاً، بمبلغ قدره من الذهب ألفان اثنان، وديناران فرنجية، منها لحمل الخزانة والأَسباب خمسة وثمانون جملاً، وباقي ذلك لحمل السَّنِيح والعليق، وما يركب على ظهرِهِ الأَتباع، وهذا الباشاه كان قبل ولاية اليمن نائباً بغزَّة، ثم لما ولي مصطفى باشا النشار مملكة اليمن ثاني مرة، وعزل منها أزدمر باشا متوجهاً لبلاد الحبشة، ولم تطل إقامته باليمن، وكان أَجَلُهُ بزَبيد، في عامِهِ، ودُفن بمدرسته التي أنشأَها داخل مدفن اختاره حين الإِنشاء، فعيّن بعده مصطفى هذا باشا باليمن، واستمر بها إلى أن عُزل في عام سبع وستين وولي عوضه محمود باشا، الذي كان أَميراً على الركب في عام واقعته

مع الأَشراف بمكة وقبله، كما قدّمنا ذكر ذلك، وتوجه محمود باشا من طريق البحر خوفاً من الفتن، ورعاية لخاطر الشريف أَبي نُمَيٍّ، من توجهه في البَر، وعاد مصطفى المشار إِليه بعد أَن حجَّ من طريق البر معظماً، وكان نزوله ورحيله مع الدُلَلاءِ في أَول الركب، واتفق له أَنَّ علي باشاه أَغا نائب مصر انتقل بالوفاة بقلعة الجبل، في الليلة المسفرة عن يوم السبت سادس صفر عام ثمان وستين، وجاء الخبر بوفاته، والركب بعجرود في صبحية ثامن صفر، ودخل مصطفى باشا إِلى القاهرة فوجد العسكر مشغولاً بوفاة علي باشا وحفظ البلد، فلم يلقه منهم أَحد كما جرت العادة، ولما دخل القاهرة طمع في أَن يكون نائب غيبة من يتولى، إِلى حين حضوره، فامتنع قاضي مصر حسن بن عبد المحسن من ذلك، والأَمير إِبراهيم ناظر الأَموال، وعَرَضا بوفاته، وانْفَرَدا بتدبير المملكة من سادس صفر إِلى سابع عَشرَيْ شهر ربيع الأَول، فورد الجواب في اليوم المذكور بجلوس مصطفى المشار إِليه بمملكة مصر وكان سكنه بخط جامع قوصون، فأَصبح يوم الثلاثاء ثامن عَشرَي شهر ربيع الأَول جالِساً في ديوان القلعة، ونقل أَمتعته وأَسبابه وحريمه إِلى قلعة الجبل المعروف بيشكر، وأَقبلتْ حينئذ أَرباب الأَلوية والأُمراء وأَهل الدولة لتهنئته بما صار إِليه، فغضَّ باطناً من القاضي حسن، ومن إِبراهيم ناظر الأَموال، لمنعهما له من الجلوس حال قدومه، وانفرادهما بتدبير المملكة، ثم شرع في عمل مُهِمٍّ كبير، لختان ولد ولده بقلعة الجبل، وجمع أَكابر أُمراء الأَلوية والأَعيان بالميدان السلطاني، ونصب به لخيام المعتبرة، ومدّ الأَسمطة الهائلة المنوعة الأَطعمة، وعلم إِحراقة كبيرة جليلة، تشتمل على أَصناف صور الحيوانات الغريبة الشكل، واستمر باشاه مصر، والعامة تثبت ولايته تارة، وتعزله بغيره أُخرى، فورد من الباب السلطاني حكم آخر في خامس عَشرَي جمادى الآخرة باستمراره، والعامة على ما ذكرت من القلقة (؟) حتى أَخبرني بعض أَهل العلم من الروم أَنه حضر قراءة الحكم الواصل من الباب، وأَن مضمونه: إِنَّك تحفظ الإِقليم، وتطالعنا بأَخبارك. وليس في هذه العبارة ما يدلُّ بالمنطوق والمفهوم على التفويض المطلق، بل على حفظ البلد، هكذا قال. واستمر حاكماً إِلى أَن ورد عليه براءة سلطانية في شهر صفر الخير سنة تسع وستين باستمراره، وتفويض أُمور مصر إِليه، وقُرِىءَ ذلك بالديوان وسلمت عليه أَهل الدولة بالتهنئة أَيضاً على جاري اصطلاحهم في ذلك، ولم تَحْمَدِ الرعية سيرته، لشهرته بالطمع، والنظر إِلى جمع المحصول، والمصالح المتعلقة به، وقطع النظر عن أَحوال الرعية والذَّبِّ عنها، ومنع أَسباب الأَذى والضرر عمن حصل له، وقمع المفسد وتأْييد المصلح، وحصل الصلح والتراضي بينه وبين إِبراهيم ناظر الأَموال، وزوج محمود ولد

أَخيه ببنت إِبراهيم من ابنة مصطفى باشا النشار، وانتظمت كلمتهما ثم عُزل إِبراهيم من نظر الأَموال ـ كما قدمنا ذكر ذلك في التاريخ ـ وولي عوضه عبد الرحمٰن الذي كان (مقابلجياً) بمملكة الروم، ثم صار رأس الكتبة لديوان السلطان بتلك المملكة، ودخل القاهرة في شهر جمادى الآخرة، سنة تسع وستين، وعزل القاضي حسن بن عبد المحسن، بعرب زادة ـ مدرّس مدرسة السلطان سليمان ـ وقصد التوجه إِلى مصر، فجاء الخبر في الشهر المذكور قريباً بغرقه بالقرب من رُودِس، وقد قدمنا ذكر ذلك بما يغني عن إِعادته، وفي زمنه تلاشت أَحوال مملكة الديار المصرية، وكثر الهرج والفساد، وقلّ النظر في أَحوال العباد، والبلاد، ومشى على ما كان عليه إِبراهيم بن (المهمندار) من بيع المناصب للسفل والأَراذل بالثمن الوافي، فَغَنَّى بالحمى مَن لا يدري الأَلحان، وعلت الأَسافل على ظهور الخيول الجياد الحسان، ومشى في ركابهم المماليك بالغواشي المتنوعة بعد مقاساة الذل والفقر والامتهان، فما أحقهم بقول القائل:

إِنِّي لأَفْتَحُ عَيْنِي حِيْنَ أَفْتَحُهَا عَلى كَثِيْرٍ ولٰكِنْ لاَ أَرَى أَحَدَا

وفي زمنه تواتر ورود السرّاق والمناسر بالشموع والجموع إِلى مصر القديمة، وظواهر القاهرة، وتكرر ورودهم وقتلهم لمقدمي الأَدراك وللخفراء، مع إِهمال أَمرهم، وقطع النظر عن أَفعالهم وجلّ الخطب بهم، حتى أَنهم وردوا إِلى الشارع الأَعظم، كسوق الورّاقين والعطر، وباعة الحرير، وسوق أمير الجيوش، بالشموع والجموع، من غير مبالاة من الحكام، ثم وردوا أَيضاً في المراكب والعقبات ليلاً في بحر النيل، ومرُّوا في الخلجان من قنطرة الحروبي وخليج المرخم فنهبوا ما في مراكب المتفرجين والباعة، وسلبوا أثوابهم وأخذوا أسبابهم، وجاؤوا إِلى منزل شخص من اليهود من عمال دار الضرب بخط قنطرة الموسكي، وكان المذكور متمولاً، فبادر إِلى وضع نقوده وما عنده من المصاغ في صندوق متقن، ووضع عليه قفلاً، ورمى به تحت منزله في الخليج، فما طفا في الماء، ولما دخل المنسر إِلى داره لم يجدوا إِلا ما فيه من الأَثاث والثياب فأَخذوا الجميع، وأَصبح اليهودي رفع صندوقه من الماءِ وسلمت النقود، فبادرت عند ذلك سكان الربوع والبيوت إِلى الرحلة، وتحولوا من غير مهلة، فتعطلت بيوت الخلجان ومراكب السوقة وبطل ذلك في موسم النيل، في أواخر عام سبعين وفي أوائل عام إِحدى وسبعين، ولله الأَمر، وغلت أَسعار المأكولات، وتصرفت الباعة بحسب اختياراتها والإِرادات، وصار ذكر المعروف من المنكرات، وحِيل بين قلوبهم وبين الإِلهام لفعل الخيرات، وتنكّر كلُّ معروف وفشت الخبائث والمنكرات، وانهمك الحكام وأَرباب الولايات على جمع الْقِطَعِ البِيْضِ

والصُّفرِ المنقوشات، ونصبوا لها فِخَاخَ المحالات ليظفروا بما تصل إليه قدرة حالاتهم من التصيُّدَات، وما أَحَقَّهُمْ بقول أَبي شعيب الحراني:

أَلاَ يَا دَوْلَةَ السَّفَلِ أَطَلْتِ اللُّبْثَ فارْتَحِلي
ويَا صَرْفَ الزَّمَانِ أَفِقْ نَقَضْتَ الشَّرْطَ في الدُّوَلِ

ولم يزل على ولايته وانهماكه في تحصيل الأَموال من العمال ومشايخ العربان، ومن التسبُّب بالبيع والشراء في كل صنف أَحبَّهُ وحسنت عنده فائدته، إلى أَن ورد عليه أَحد مماليكه من الباب السلطاني وأَخبره بعزله وولاية علي باشا نائب الشام سابقاً، وذلك في ليلة الاثنين المسفرة عن عَشرَي ربيع الآخر سنة إِحدى وسبعين وتسع مئة، فاستمرّ بقلعة الجبل إلى أن قارب علي باشا دخوله إلى الديار المصرية، نزل إلى داره المستجدة الملك له بدار العمارة، فاستقرّ بها بعد دخول الباشا أياماً عديدة، وتوجَّهَ لزيارة القدس وصيام رمضان هناك، ثم ورد عليه الخبر بولاية حلب الشهباء فوليها باتفاق موت نائبها عند وصوله كما وقع له بمصر واستمر بها إلى [. . . .][1].

وفي أوائل سنة إِحدى وسبعين هبط النيل سريعاً، فإِنَّ الوفاء كان في ثالث عشر الحجة سنة سبعين، ولم يُوَفِّ الزيادات السابقة بل هبط قبل أوان هبوطه، فشرقت غالب بلاد الصعيد، والأَماكن العالية الأَراضي وغلتْ بسبب ذلك أسعارُ الغلال والمأْكولات، وتصرّفت الباعة بحسب اختياراتها والإِرادات [. . . .][2] اللحم الضأْن حتى للأَكابر والأَعيان، وكَثُرَ تهافتُ البشرِ على لحم البقر، مع عجافته وغلاء أسعاره وقَلَّ وجود ما يؤكل بالأَسواق كالبيض والجبن المقليّ إلا بعسر، وبالجملة فلم يوجد صنف من أصناف المأْكولات الإِنسانية [. . . .][3] وإلا وزيد في أسعاره الزيادة المفرطة، مع تخزين الباشاه وأرباب الأَلوية لأَصناف البضائع وتحكيرها، وبيعها بالسعر الوافي، ومنعها عن الرعية، بحيث أن باشاه مصر كان يرسل إلى الكشاف ومشايخ العربان بالأَقاليم يخزن جل السمن، وغيره من الأَصناف الموجودة بالأَقاليم، حتى البصل والبيض، ويخزن ذلك بحواصله، ويدفعه إلى السوقة بما يختار من الثمن، وكذلك أرباب الأَلوية مع تهافتهم على استئجار الطين السلطاني، والأَوقاف للزراعة، وزيادتهم في تلك إلى الغاية فضاقت أحوال الرعايا، وتعطّلت معايشهم، ويقال في الأَمثال: إذا اتَّجَرَتِ الملوكُ، هلك الصعلوك، كما قدّمنا ذكر ذلك.

(١ ـ ٣) بياض في الأصل.

وأَما كثرة القتل والهرج في الأَقاليم وداخل القاهرة وأخطاطها، ففاش، بحيث أنه لم تنظر الحكام في قضية شخص من أفرادهم، بل يذهب دمهم هدراً، ولا يعلم لقاتلهم خبراً.

ولقد اتفق أنَّ اثنين بصحبة مصطفى باشاه وفلاحه وُجِدا مقتولين بمنزل سكنه، بخط جامع قوصون، ولم يفحص عن قاتلهما، ولم يعلم له خبر، ومثل ذلك وأشباهه كثير، ولم تزل أحوال القاهرة مدة ولايته في التلاشي المفرط إلى أن ورد الخبر بعزله عنها في تاسع عشر ربيع الآخر سنة إحدى وسبعين، وولاية علي باشاه المعزول عن حلب إلى مصر الملقب بالصوفي، يقال: إنه كان شادًا على عين بلد القسطونية (؟) ثم تنقّل في الولايات إلى نيابة بغداد، ثم إلى الشام ثم إلى حلب ثم عُيِّنَ إلى مصر، وهرت الأكابر إلى ملاقاته في العشر الأُوَل من جمادى الأول، جعل الله قدومه مباركاً على المسلمين.

* * *

ذكر مَن ولي مصر نيابة من ابتداء الفتح (الخندكاري) إلى آخر ولاية مصطفى باشاه المشار إليه

فنقول:

أَولهم خاير بك الجركسي الجنس، الذي كان نائباً بحلب الشهباء، وليها في عام ثلاث وعشرين وتسع مئة، لأَنه ورد مع السلطان سليم مباطناً على أُمراءِ جنسه، فوعده بالنيابة إذا ملكها ووفى له بذلك، واستمر بها نائباً إلى أن توفي بحمرة شديدة في عام ستٍّ وعشرين وتسع مئة. وفي زمنه كان تغيير الدينار المصري الذي كان في الدولة الجركسية وهو خمسة وعشرون فضة غورية بدينار ذهب غوري، فجعل خاير بك سكَّةً جديدة سليمية، كل عشرة أنصاف بدينار ينقص ستة أقسام من المعالمة القديمة، فذهب أموال الرعية والتجار هدراً لذلك، ويقال: إنه بعد وفاته تواتر صياحه في قبره، نعوذ بالله من ذلك.

ثم وليها بعده مصطفى باشاه، يقال: إنه من صهورة السلطان فاستمرت المعاملة في زمنه على ما فعله خاير بك وكان في أول [. . . .][1] من العمار للأَقاليم، وعدم تعاطي البلص، كما كان الحال في زمن خاير بك إلى أن عُزل.

---

(١) بياض في الأصل.

وفي زمنه كانت واقعة جانم من دولات باي، كاشف البهنساوية والفيوم، وعصيانه على السلطنة وخروجه عن الطاعة [. . . .](١) السلطنة وانضم إليه ومعه أينال، وطوائف الجركسية الذين هم عصبته، وجردت إليه التجاريد المرة بعد الأُخرى، وانضم إليه مشايخ العربان إلى أن تقطّر به فرسه في بعضها، فقُطعت رأسه وعُلِّقت بباب زويلة وانقضى أمره.

وممن التأم معه القاضي بركات بن موسى الناظر على أُمور الحسبة وما [. . . .](٢) مع ذلك وابن الأَمير سودون (الدوادار) الذي كان ساكناً بمنزل المرحوم جلبلاط بخط حارة عبد الباسط وغيرهما.

ثم ولي الديار المصرية قاسم باشاه المدعو كزل، إلى أن عُزل عنها وهو ثالث نائب.

ثم وليها أحمد باشاه أحد وزراء الدولة السليمانية وهو رابعهم، فسعى في الأَرض الفساد، وخرج عن طاعة السلطان سليمان، وبادر إلى قتل مَن خشي منه من أُمراء الألوية وأَكابر المملكة، فعصت عليه جماعة (الانكشارية) مع نائب القلعة وبعض الأَنفار من (البلكات) وتركوه حتى ركب منها في بعض سفراته، وعمدوا إلى أبواب القلعة، فغلقوها، وإلى الأَبراج فعمروها بالمدافع وتحصّنوا بها، ولم تزل الحرب بينهم وبينه، فإنه نزل بالدار المعروفة بطراي، المطلة على بركة الفيل، واستعان على حربهم ببقية من الزعر (؟) الذين كانوا في الدولة الجركسية، ونادى للعامة بالجهاد، ونصب على أبواب قضاة مصر الذين هم أولاد العرب أربعة أَلوية وهم: لواء على منزل شيخنا أقضى القضاة أحمد بن النجار الفتوحي الحنبلي، ولواء على منزل شيخنا أقضى القضاة كمال الدين الطويل الشافعي، ولواء على باب الصالحية النجمية لشيخنا أقضى القضاة يحيى بن إبراهيم الدميري المالكي، ولواء على باب المدرسة الحَطابية لشيخنا أقضى القضاة علي بن ياسين الطرابلسي الحنفي، وانضم على كل لواء من الزعر والغوغاء والعامة قدر وافر، ودبّروا حيلة على فتح باب القلعة، وهو أنهم نقبوها من طريق يتوصل منها إلى بئر المأْذون، التي بالسبع حدرات، وطلعوا من فم البئر، وفتحوا أبواب القلعة ليلاً، فلم يشعر العسكر الذين بها إلا وقد دهمهم عسكر أحمد باشاه والعامة، فأَخذوهم في الحبال، وأنزلوهم إلى منزل طراباي، شيئاً بعد شيء،

(١) بياض في الأصل.
(٢) هكذا في الأصل ولعله يوجد سقط.

وهو يأمر بضرب أعناقهم حتى امتلأَت بهم تلك الطرق، ونهبوا العسكر خزانة السلطان التي بالقلعة، فلما صعد إِليها أجهر النداء بالقاهرة وأَعمالها أنه سلطان الديار المصرية ومَن خالفه قُتِل، وكان ممن دبّر به المملكة القاضي شهاب الدين أحمد بن الجيعان وأولاد عوض، والقاضي شرف الدين الصغير المعروف بابن الجرزي، ولفيفهم وجماعة أخر، فاحتاج إِلى نفقة على العسكر عند ولاية السلطنة، كما هي العادة، فأَشاروا عليه جماعة المباشرين، وأهل الرأي الفاسد بمصادرة [. . . .][1] الناس وأكابر البلد، فشرع في ذلك، وكانت أمور، وأهوال آل ذلك [إِلى غدره][2] وهو في داخل الحمام بالقرب من الرملة، فلما أحسّ بهم كسر بعض الجامات وفرّ هارباً إِلى الريف فتبعه العسكر، ولم يزالوا به حتى قطعوا رأسه ونصبوها بباب زُوَيْلَة ونصفها محلوق مع لحيته، والنصف الآخر على حاله وأَراح الله المسلمين منه.

ثم وليها بعده إِبراهيم باشاه، أَرسله السلطان لتمهيد المملكة، لأَنه الوزير الأَعظم، فكان دخوله إِلى القاهرة في شهر جمادى الآخر عام ثلاثين وتسع مئة، فمهد البلاد، وقتل مَن أَراد الله قتله على يده من أَكابر المملكة المصرية، فمن مشايخ العربان الأَمير علي بن عمر متولي الصعيد شنقاً بثيابه بباب زُويلة، وأحمد بن بقر أمير عربان جذام بالشرقية، ومن غيرهم من العربان، ومن المباشرين الشهاب أَحمد بن الجيعان وأولاد عوض الاثنان وغير ذلك مما ذكرته في بابه من التاريخ، وكانت إِقامته بمصر قليلة، وتوجه إِلى باب السلطان معظماً مبجلاً، ثم اتهم بعد ذلك بمباطنة الفرنج وقتل بالباب السلطاني.

ثم ولى مصر قبل توجه إِبراهيم منها سليمان باشاه أغا، واستمر بها إِلى أن عُزل في عام إِحدى وأربعين وتسع مئة. وكانت مدته فيها من نهاية [. . . .][3] والعمار للأقاليم، وفي [. . . .][4] واقعة مباشري ديوان [. . . .][5] بسبب [. . . .][6] جانم الحمزاوي من القاضي شرف الدين بن الجزري عرف بال[. . . .][7] فآل الأَمر إِلى قتل شرف الدين خنقاً ببرج القلعة بعد معاقبته، وممن قتل في هذه الواقعة ولد أخيه [. . . .][8] والقاضي محمد بن محاسن زوج أخته، وصفي الدين بن سرايل ومخائيل ابن فلبس أحمر (؟) النصراني، وغيره و[. . . .][9] وآل الأَمر إِلى موت سليمان باشاه

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) هكذا في الأصل، ولعله يوجد سقط.

(٣ ـ ٩) بياض في الأصل.

وجانم الحمزاوي وولده مغضوباً عليهم، وقد ذكرنا ذلك بما أغنى عن ذكره هنا.

ثم وليها خسروه باشاه الذي كان نائباً بحلب، وحضر إليها في عامه، فكانت مدته فيها من الرخاء [. . . .][١] غير أنه التأم عليه شخص يسمى قاسم المغربي، كان إذْ ذاك مفتش الأَوقاف، وكان أصله بواباً عند كاتب السر ابن أجا بحلب، وكان للباشاه به صحبة هناك، فاتفقوا على جانم الحمزاوي وولده ومشى في إفساد [. . . .][٢] ذلك جانم الحمزاوي، فتوجه صحبة [. . . .][٣] إلى المملكة الرومية، فراراً من تدبيرهما عليه، وعادا صحبة سليمان باشاه ثاني مرة موليان (؟) غزو مملكة الهند واليمن بعمارة ستين قطعة [. . . .][٤] للحمل من السويس، وكان من أمرهما ما كان بعد حضور سليمان باشاه [. . . .][٥] ونزل بمصر [. . . .][٦] وآل أمر قاسم المغربي أن سليمان باشاه شنقه بباب زويلة، وجانم الحمزاوي وولده ضربت أَعناقهما على يده، وكانت عاقبة سليمان وخسروه [. . . .][٧] أن غضب السلطان عليهم وسلب نعمتهم، وماتوا على أَسْوَإِ حالة.

[. . . .][٨] بالباب، بسبب إقليم مصر [. . . .][٩] وقد أَوردنا ذلك في ذكر التاريخ.

ثم ولى مصر بعد سليمان وخسروه داود باشاه أغا، في سنة أربع وأربعين وتسع مئة، فاستمر بها إلى عام ست وخمسين وتسع مئة، وتوفي بالقاهرة ودُفن خارج مقام الإمام [. . . .][١٠] وفي زمنه كان ابتداء قتل بني بغداد، وأولهم حجازي بن حسام الدين بن بغداد، وكثر القتل بالأَرياف جدًّا في ولايته، لأَنه كان يأْخذ على كل قتيل خمسة وعشرين ذهباً، فعُرف بذلك وقلّت هيبته في القتل فلذلك كثر، وهو آخر باشا (؟) ولي مصر، وهو قليل الطمع عند ولايات الكشاف والأُمناء ومشايخ العربان، وسيرته مشهورة في ذلك، وحضر يوم وفاته أحكام من الباب بالتفتيش عليه فكانت وفاته ستراً له.

ثم وليها بعده علي باشاه الذي هو في زمننا [. . . .][١١] وهو أول مَن طمع جدًّا في البلص على الولايات والكُشّاف والأُمناء ومشايخ العربان، وأخذ على ذلك الأُلوف من الذهب الأَحمر، حتى أنه بسبب ذلك أطمع الكشاف والأُمناء ومشايخ العربان في إيذاء الرعية ونهب أموالهم، ثم عزل عنها وولي الوزارة العظمى، وفي زمنه كانت واقعة محمود مع أَشراف مكة في عام ثمان وخمسين وتسع مئة.

(١ ـ ١١) بياض في الأصل.

ووليها محمد باشاه ولد عمة السلطان سليمان، وكان شابًا حسناً كثير السكون، قد غلب على عقله حب اللهو [....][١] وذوي البطالة وجعل تدبير أُمور مصر إلى شخص (كيخية) بابه، وشخص من أهل حلب قدم معه يدعى بابن الفيربي، فاتفقا على الأَخذ من أرباب الولايات كعلي باشاه.

وفي زمنه كان ابتداء نمو سعار الغلال خصوصاً القمح [....][٢] أحد من المراجعة الفاحشة من جمال الدين البلقاني وعلي زلوم، فقبض على كتاب الشونة وسجنهم [....][٣].

[....][٤] العلماء، ابن عبد العظيم الصيرفي صاحب ديوان الشونة.

[....][٥] الديوان بالشونة والعفيف بن [....][٦] وصفي الدين، ورفيقه جلال الدين بن الخازن، فهرب جلال الدين وقبض على الباقين وكانت وقائع وأمور آلت إلى عزله من الشونة، واستمر ذلك بعد عمل الحساب.

وعزل محمد باشاه من ولاية مصر وخرج منها هارباً منسحباً من طريق الترب، إلى أن وصل إلى الباب، وجاء الخبر بوفاته، فمن قائل: إن السلطان دسّ عليه سمًّا، ومن قائل: إنه لما قدم إلى الباب وأراد أن يقبّل يد السلطان فمنعه من ذلك غضباً عليه، ثم طلب بعد أيام قليلة في وقت تخوّف فيه من ذلك الطلب فانشقّ قلبه خائفاً ومات ولم يدخل عند السلطان [....][٧] واستمرّ ما رَتَّبَهُ من غلاء أسعار المغل بعده إلى تاريخه، فإنه جعل من محصل بيع غلال الشون السلطانية قدراً وافراً يضاف إلى ما يجهز به كل عام من الحمل من خراج مصر وغيره إلى الأَبواب السلطانية، وثمن بسبب زيادة المجهز بالثمن الوافر، ولم يمكن بعد ذلك هضم هذه الضرائب الوافرة، خوفاً من نقص مال الخزينة فلذلك كان الغلاء بالديار المصرية، وذلك أحد التغيرات التي أخلّت بأَحوال أهل مصر، وكانت هذه السنة السيئة في صحيفة محمد باشاه فإنه أول مَن سنّها أحسن الله العاقبة إلى خير.

وفي زمنه أيضاً حصل الخلل العام [....][٨] وارتفع سعر الدينار الذهب عند الصرف بالنقرة إلى سبعين نصفاً، واختلت معايش الرعية وأحوال الباعة بذلك السبب [....][٩] إذا مرّ بالقاهرة [....][١٠] يقول [....][١١] وصاحت عليه [....][١٢] دار وأشارت إليه بيدها وهو مار بشارع خط [....][١٣] برسباي قابلته

(١ ـ ١٣) بياض في الأصل.

على عادتها [....][1] مصر بمعنى آخر التي لهجت في لسانها فلم يفهمها أحد من [....][2] الذين [....][3] عن ذلك.

وفي إقليم مصر بعده إسكندر باشاه (بستانجي) السلطان كان، وهو الذي تولى قتل إبراهيم باشاه ذَبحاً بيده في حالة نومه، لإخباره بذلك عن نفسه، لما وليها لأَنه كان إذ ذاك (بستانجياً) وترقى منها إلى نيابة مرعش، ثم نقل منها إلى الديار المصرية من غير سياسة أهل إقليم كبير تكمل به أَدواته (؟)، ورأيته يوم دخوله إلى القاهرة وهو مار بالموكب، وسرجه من خشب مدهون، واللبب من جلد مدهون كذلك، والقبا الذي عليه دون ملبوس أدنَى (الجاويشية) الذين بموكبه، ولما دخل القاهرة واستقرّ قدمه بقلعة الجبل، وكان ناظر الأَموال بمصر إبراهيم بن المهمندار فإنه كان وليها في ولاية محمد باشاه، فعرّفه ما كان غيره من الولاة تفعل، ففعله وزاد عليه، وأَكثر من الطمع المفرط، ثم انضم إلى خدمته خجا خضر بن عبد الله الرومي، وهو من هجان تجار مصر، فعرّفه طريق المتجر، وجمع المحصول المربح في ذلك، ولم يغادر شيئاً من أصناف المأكولات بمصر حتى خرج عليه. واتجر فيه، ولم يفته صنف حتى الرمان والليمون والبصل، وغلت سائر الأَسعار في زمنه جدًّا، وهو أول مَن أَفحش في تخزين أصناف المأكولات، وطلب السعر الوافي حتى ضجرت الرعية من أفعاله، وجهّز القمح من الشون السلطانية إلى بلاد الفرنج للمتجر، ولما كثر ضجيج العامة من سوء فعله وطمعه نمى خبره إلى السلطان، وقيل له: إن أفعاله لا تناسب أفعال أهل [....][4] فبادر السلطان ـ نصره الله تعالى ـ إلى عزله وولاية علي باشاه [....][5] وجهز نفراً من جنس (الانكشارية) [....][6] فلم يشعر إسكندر باشاه إلا وعلي باشاه قد أرسى على إسكندرية بمراكبه [....][7] وتجهّز الرجل، وخرج من الشارع الأَعظم إلى الريدانية خائفاً يترقّب، فبلغ علي باشاه بروزه من القاهرة، وأرسل إليه: بأَنك لا تتوجه حتى [....][8] فإن السلطان أمر بتجهيزك بطريق البحر. فلم يسعه إلا الامتثال، وكان لدخول علي باشاه يوماً مشهوداً [....][9] على قرية شبرا من أعمال القليوبية وركب من ثم، ومرّ بالشارع، ومعه ألف (؟) من الانكشارية الواصلة [....][10] عساكر القاهرة، وضجّت الرعية كلهم بلسان واحد: مصر خراب انظر في أحوال المسلمين، فكثر عليه [....][11] يشكون من الكشَّافة والعمال وغيرهم، فلما استقر قدمه بقلعة الجبل جهز صحبة إسكندر باشاه [....][12] نفراً

(١ ـ ١٢) بياض في الأصل.

من الانشكارية واللاوند، وأنزله من بحر إسكندرية إلى الباب السلطاني محتفظاً عليه ك(اليسق)، ثم نظر [. . . .][١] علي باشاه في أحوال الرعية، فتلطّف بالكبير وراضى الضعيف وفصل في حال المسلمين [. . . .][٢]، ثم نظر في أحوال المال السلطاني وإذا هو يؤول لمصالح باشات مصر الذين هم كانوا [. . . .][٣] وإنما يجهزون مع العمال يبلص لهم ما فضل عنهم.

فأَول ما فعل من المصلحة السلطانية أنه أبطل ما كان على كل جهة وعمل، فوردت عليه العمال حينئذ بالزيادات السلطانية في أعمالها، فزاد حاصل إسكندرية على ما كان سابقاً في السنة أربع مئة كيس، منها من الأَشرفية بالمعاملة الجركسية ألف ألف دينار، وكذا سائر الأَعمال كل نسبة من غير ضرر ولا شطط، لأَن سائر الأَعمال كان غالب المحصول متوجه إلى باشاه مصر، خوفاً من شره لطلبه ذلك ولطمعه، فساس الرعية أحسن سياسة بيده ولسانه، وزار دار إبراهيم ناظر الأَموال غير مرة [. . . .][٤] عند التوقف في [. . . .][٥] الغلال [. . . .][٦] إلى [. . . .][٧] يوجب الرخاء للمسلمين وغير ذلك من الأَحوال التي عائدٌ نفعها لعباد الله، وقال له: إنما أَنْت كاتب بقلمك، والسؤال من السلطان إنما هو مِنِّي، وكذلك الجواب، فلأَيِّ شيء تشق على المسلمين، فكثر الدعاء له.

وبالجملة فأَقام بالقاهرة والديار المصرية نحو عام ونصف، وتوفي في التاريخ الذي قدمنا ذكره، وجميع العباد متأَسفة على فقده رحمه الله تعالى.

ثم ولي مصطفى باشاه صاحب الترجمة التي ذكرنا بعضها وقدمنا من سيرته مع ما يغني عن الكثير، ولم يزل على ولايته إلى أَن ورد الخبر من الأَبواب السلطانية بعزله، في تاسع عشر ربيع الآخر، عام إحدى وسبعين وتسع مئة وولاية علي باشاه الملقب بالصوفي متولي حلب، وهو الرابع عشر ممن ولي مصر نيابة عن مولانا السلطان سليمان بن عثمان وعن والده، والله تعالى يهدي السبيل، ويجعل قدومه على أهل الديار المصرية مباركاً فيه [. . . .][٨] ولما دخل علي باشاه إلى الديار المصرية كان أحياناً يظهر من أقواله وأفعاله سيرة العدل، وأحياناً يتغير وتسوء أخلاقه ونسب بسبب ذلك إلى استعماله الكيفية كالبن والبرش، لكنه يغلب عليه التواضع، وحب الفقراء وعدم الزينة في زيِّه وملبسه ومأكله والإنكار على أهل الظلم والفساد تارة، وتارة يكل الأُمور إلى تصريف محمد ماماي شهلا (كيخياي) وشبهه، فيميل إلى أخذ

(١ ـ ٨) بياض في الأصل.

الرشى وتقييد أحكام الباشاه فيبدو منه له خلاف الواقع، وكان الفساد بواسطة محمد المشار إليه وبعض جماعة الباشاه الخواص كترجمانه المسمى كهلان، إلى أن ورد الخبر يوم الجمعة ثالث عشري شعبان سنة ثلاث وسبعين بولاية محمود باشاه وكان في اليمن، وأنه وصل من طريق البحر إلى إسكندرية، فحضر في تلك الجهة [. . . .][1] باشاه حضرته بحراً من إسكندرية فكان وصوله إلى ساحل إسكندرية يوم الخميس تاسع عشر شهر رمضان عام ثلاث وسبعين، فبادر علي باشاه وتوجه للسفر من القاهرة مسرعاً، وكان دخول محمود باشاه إلى قلعة الجبل ثامن عشري رمضان سنة تاريخه وهو [. . . .][2] من عشرتهم (؟) إبراهيم بن خذاوردي (؟) بن محمد، الحلبي الأَصل، المصري المولد والدار، أمير اللواء وناظر أموال مصر، كان قدم جده محمد ووالده خذاوردي وعمه كمال صحبة ملك الأُمراء خاير بك نائب مصر، أخذ نيابة المملكة الحلبية من ابتداء الفتح (الخنذكاري) [. . . .][3] في يوم الجمعة مستهل المحرم عام ثلاث وعشرين وتسع مئة، فكان [. . . .][4] مراراً بخدمته إلى أن توفي خاير بك، فاستمر على وظيفته لمن بعده إلى أن توفي، واستقر بعده كمال عوضه في ذلك، فاستمر على ذلك مع بضع وظائف كنظرِ وقف الأَشرف قايتباي وغيره، إلى أن توفي في نيف وأربعين وتسع مئة، فاستقر عوضه أخوه خذاوردي والد صاحب الترجمة، في سائر ما كان فيه من الظوائف، ولم يزل على ذلك مع غلظة في [. . . .][5] ويسر في [. . . .][6] عن لسان الحكام بالديوان الشريف كأَخيه بل أَشَرُّ، إذْ هُمَا من الأَقطار الحلبية كما شرحنا، وأخلاق أهل ذلك القطر لا تخفى على أهل الفراسة والذوق، وولد إبراهيم هذا بالقاهرة فنشأَ مع أَولاد العز، وقرأ بعض القرآن على الشيخ تاج العارفين الطائفي (؟) مع ولده عبد الغني وغيره من أقرانه، وتردد إلى صاحبنا المرحوم الشيخ سراج الدين الجاولي الحنفي فقرأ عليه ما تيسّر من ربع العبادات، وتعلّم الكتاب والحساب بطريقة كتاب مصر وبطريقة الترك، وخالط الخاصة والعامة من الأُمراء والفقهاء وغيرهم مع دهاء وحسن تملق ظاهراً وخبث سريرة، كأَنه [. . . .][7] وشارك أهل المعاملات والخبرة بأَحوال جمع المال والمحصول، ففاقهم في ذلك، وسأَل والده بعض (باشات) مصر وأظنه إما أول ولاية داود، أو آخر ولاية سليمان داود باشاه أن يكون (جاويشاً)، فاستقرّ في ذلك، ولاحت عليه لوائح الهمّة والرجولية الفحلة في ما هنالك، مع إقبال سعوده في حركاته، وبلوغ آماله فيما يهم به

(١ ـ ٧) بياض في الأصل.

من اهتماماته. فأَراد والده أَنْ يَشُدَّ عضده بصهورة بعض أَكابر الأُمراء والأَعيان، ليكون أَبلغ في تنقله في المراتب، فيسّر الله تعالى له ذلك بمعونته، وجاء ذلك العون على وفق إِرادته، وهو أنه خطب له ابنة مصطفى النشّار، فأَجابه لذلك، وكان إِذْ ذاك أمير لواء، وأمير الحاج عدة سنوات، وزوّجه إِحدى بناته، وأنجبتْ منه ذكراً وأُنثى، وترقّى صهره مصطفى في الولايات بعد ذلك، إِلى أن صار باشاه مملكة اليمن [....][1] كان [....][2] الديار المصرية ممن أنتجه الزمن، ورأى من إِبراهيم ما أُعجب به وحسن لديه خطابه وجوابه فيما ندبه إِليه فقربه [....][3] مصطفى باشاه اليمن، وعرف بين أكابر الأُمراء لصهورته وانتسب إِليه، ولازم خدمة بابه، وجهزه بـ(أَرمغان) حافل، وعروض من عنده إِلى الباب السلطاني أول مرة، فتعرّف بأَكابر ملك الرحاب، وتردّد إِلى الوزراء وأعيان تلك السُّدةِ السلطانية والحجّاب، وعاد من تلك السفرة موفوراً بما بغى بالمسرة ثم كان من مقدور الله تعالى وفاة داود باشاه مصر في عام ست وخمسين وتسع مئة، وجلس مصطفى باشاه نائب غيبة [....][4] مصر إِذْ لم يكن بها حينئذ من أمراء الأَلوية أجل منه، فسمت همته إِلى نيابة مصر عوضاً عن داوود فعيّن صهره إِبراهيم لبلوغ مأْموله، وكتب عروضاً بما عوّل عليه من مراده وسوّله، وتوجه إِبراهيم أولاً إِلى الباب ومعه سيف داود باشاه المتوفى، فلم يُجدَّ في سيره وطالت مدة رحيله ونزوله فبلغ [....][5] السلطان وفاة داود قبل قدومه إِلى الباب، فلما قدم إِلى الأَعتاب بالسيف والعروق وجد الأَمْرَ قد قضي من قبل مولانا السلطان قبيل الوفود، وقد عين لولاية النيابة بالمملكة المصرية علي باشاه، الذي كان (أمير آخور) أسطبل سابقاً، وترقى إِلى أن صار في زمننا هذا وزيراً أَعظماً (؟)، وقيل لإِبراهيم حينئذ: قد قضي الأَمر قبل قدومك [....][6] وأُخِذ ما معه من (الأرمغان) وولي (كيخية الجاويشية) وعاد إِلى صهره بغير المقصود، بل صار عدوًّا [....][7] بالتهم عند كل عَدُوٍّ وحسود، واهتم حينئذ إِبراهيم غاية الاهتمام بما فيه التقرُّب من خاطر علي باشاة مصر، فصار من الملازمين لخدمته، وممن يتلقى قصص المتظلمين في حضرته، وسقط في يد صهره مصطفى باشاه [....][8] وغضّ منه علي باشاه لطلبه النيابة قبله، وكان إِبراهيم عنده عليه من أشد الأَعوان، وسعى في إِفساد ما بينهما باطناً، وقصد إِزالة صهره من الديار المصرية، ليخلو له وجه علي باشاه، وآل الحال في ذلك إِلى أَنَّ علي باشاه عرض على الباب السلطاني توجه مصطفى باشاه إِلى

(١ ـ ٨) بياض في الأصل.

مملكة اليمن، ليكون عوناً لأَزْدَمِر باشاه في قتال الإمام الزيدي، فَأُجِيْبَ إلى ذلك، وتوجه مصطفى باشاه بَحْراً من طريق السويس، وتبعه نحو السبع مئة نفر من العساكر السلطانية، وما أُضيف إليها من الأَعيان و(الجاويشية)، وتمت عليه مقاصد إبراهيم وعظمت لديه تلك القضية، لأَنه توجه مدداً لأَزْدَمِر باشاه، بعد أن كان المذكور من آحاد كُشَّافِ مملكته، وفي يده وحكمه وقبضته، فإنه كان في ولايته كاشفاً بجازان، وهو الذي عرض له في لواء بذلك القطر والأَوان، فكاد أن يهلك غيظاً، وكان في تلك السنة أميراً على الحج، فَعُزِلَ في العشر الأَخير من شهر رمضان المعظّم، وولى إمرة الركب عوضه محمود الذي كان (كتخداي) داود باشاه، وذلك في عام سبع وخمسين وتسع مئة، واستمر إبراهيم يناصح علي باشاه، ويتقرّب من خاطره، كما هو شأنه في الدهاء والخداع وخبث الباطن، إلى أن صار معدوداً من ألزامه (؟)، ولما عزل من النيابة بمحمد باشاه، وتوجه لمقابلة السلطان بمدينة حلب فإنه كان إذ ذاك في عزم التوجه لقتال قُزُل باش، كان حافظاً لإبراهيم سابق خدمته له، ثم إن إبراهيم لازم تجهيز عروضه إليه، مع الإغداق بالهدايا الفاخرة، فتذكره علي باشاه وجعله (أغا) لعساكر الغرب، ثم نقله سريعاً إلى إمرة لواء، ثم جهّز إليه حكماً سلطانياً بأَنْ يكون أمير الركب المصري، وذلك في عام اثنين وستين وتسع مئة، فامتنع من قبول ذلك، واشرأَبَّتْ آماله إلى ولاية نظر الأَموال بمصر، فلم يمضِ إلا القليل من الأَيام وورد عليه الحكم السلطاني بنظر أموال مصر، وأن يكون (دفتردارًا) بها، وكنت جالساً عنده وأول مَن هنَّأَهُ بذلك، فقام بأَعباء هذا المنصب قياماً بليغاً، وضبط الأَموال الديوانية، ونقل شرح جميع الدفاتر المجلّدة بالخزائن السلطانية عنده، ونظر في أحوال العمّال، وانفرد بالرأي والتدبير في ذلك، وكاتب علي باشاه الوزير بالأَحوال، وأُعيدت الأَجوبة بما يُحِبُّ ويختار، فكبرت همته وعلت رتبته، وخدمه وتردد إليه الكبير والصغير من أكابر مصر وعمالها، وقضاتها وكتّابها، ودبّر التدابير على حسب مراده، وكان تدبيره أحد أسباب خراب مصر، فإنه قرر على الْكُشَّافِ ومشايخ العربان والعمال من ألوف الذهب الأَحمر بحسب ولاياتهم، وكان لا يُوَلِّي كاشِفاً إلاَّ بعد إجهار النداء بالديوان: أنَّ الإقليم الفلاني من يختار ولايته بكذا وكذا يحضر يكتب عليه الالتزام، ومَن دفع فيه القدر الفلاني فهو له، فكان يأْخذ على الكشف الواحد بحسب المرتبة وكثرة المحصول والخراج والرعية، فلا يولي أحداً منصباً أو يلتزم لعماله أو يقرر في كشف، أو في كتابة بالديوان أو غيره حتى يأْخذ منه من الذهب بحسب تلك الوظيفة أو العمالة، فيأْخذ من كاشف الغربية مثلاً عشرة آلافِ ذهباً، ومن

العامل بحسب ولايته، ومن الكاتب من خمس مئة من الذهب إلى ما دونها، وذلك غير الذي يأخذه الباشاه فإنه صاحب السيف فقد يأخذ أكثر منه، ولقد صرح له عبد الله بن بغداد لما اعتقله وأراد قتله وفعل ذلك، وكان من قوله له: يا أمير إبراهيم ما ذنبي تحبسني؟ قال له: عندك مال السلطان، وكان من جوابه بأعلى صوته بالديوان: أنت أَخَذْتَ مني في مدة سبع سنين سبعين ألفاً من الذهب الجديد الأَحمر، في كل سنة عشرة آلاف من الذهب، وكان قوله ذلك سبباً لتعجيل قتله خوفاً من سوء العاقبة، فشنقه في تلك الأيام، وحسن للباشاه ذلك حتى تَمَّ له.

وقد قدمنا أنه إذا فعل الباشاه وناظر الأَموال مثل هذه السيرة الخبيثة، فليس عند الْكُشَّاف ومشايخ العربان إلا نهب أموال الرعية والافِتيَات عليهم بالكذب والقتل، طمعاً في أموالهم، إذ الحكام قد سوّغوا ذلك لهم بطمعهم المفرط جدًّا.

ثم تمادى إبراهيم في الطمع والشح والبخل بمال السلطان جدًّا إلا لنفسه، فإنه كان يأخذ من الكتاب الذين هم في الجهات الديوانية كل برطيل [....][1] من الذهب الأَحمر، ويطلق لهم السراح في تعويض ذلك بأَقاليمهم من حين مباشرتهم، وظهر منه عدم الخير جدًّا وكثر خبثه وشره، وبسط لسانه في أعراض بعض الناس، فحص عن تركاتهم ليحيط بها علماً، فكرهته العامة والخاصة، وثقل عليهم جلوسه بالديوان جدًّا لأَن مدته في هذه الولاية طالت إلى سبع سنوات، وأسمعوه غليظ القول، إذَا مَرَّ بشوارع القاهرة، واستقر قدمه في هذا المنصب واستخفّ بالباشاه ومَن دونه، وظنّ أنَّ الدهر قد صفا له، ومتى اتفق ذلك لمن قبله؟ فإن الحكم ورد عليه بنظر الأَموال في عام اثنين وستين وتسع مئة، والباشاه حينئذ محمد ابن عمة السلطان إلى أَنْ عُزِلَ، ثم ولاية اسكندر باشاه جميعها إلى أَنْ عُزِلَ، ثم ولاية علي باشاه أغا إلى أن توفي، واتُّهِمَ بأنه هو الذي دَسَّ عليه سمًّا في قهوة فأَضعفته ثم دَسَّ عليه ثانياً مع الطبيب حتى عجل وفاته، هكذا يقال، وبين يدَي الله تلتقي الخصوم، فإن علي باشاه المذكور منع العمال والكُشَّاف ومشايخ العربان أن يدفعوا برطيلاً لا لنفسه ولا لغيره، وتبع طريق العدل والعمّار، والنظر في حال الرعية، فثقلت عليه وَطْأَتُهُ خصوصاً وقد كشف عما كان يأْخذه الباشاه قبله لنفسه، وما كان يأخذه ناظر الأَموال، وعلم ذلك وتحققه.

ثم استمر إبراهيم على وظيفته يأخذ الأَمر متصرفاً حسب اختياره إلى أَنْ ولّى مصطفى باشاه بعد علي أغا، فقرر معه تلك الخلال الخبيثة، وأعرض عن سيرة علي

(١ ـ ٣) بياض في الأصل.

باشاه بالكلية وخلا له الجو، فلم يشعر إلا وقد فاجأه العزل في [....][١] عام تسعة وستين وتسع مئة بعبد الرحمٰن شلبي كاتب الإنشاء بديوان الروم، وامتحن إبراهيم مع العزل بما كان سبباً له واقعته مع أحمد شلبي وما قدمنا ذكره من المرافعات الفاحشة الآيلة إلى [....][٢] فاعلها عند [....][٣] بإرادة الله تعالى، وقد قدّمنا ذكر ذلك في التاريخ بما فيه كفاية.

ثم إن الله كشف عنه ذلك البلاء بأَن عين لتمشية عين عرفة وإيصالها منها إلى مكة المشرفة كما قدّمنا ذكره [....][٤] لذلك، وأخذ في أُهْبَةِ السفر إلى مكة المشرفة من طريق السويس، فكان قدومه إلى مكة المشرفة [....][٥] في سلخ القعدة عام تسع وستين وتسع مئة قبل دخول ركب الحاج بثلاثة أيام، ونزل المدرسة الأَشرفية قايتباي، وحجّ في تلك السنة التي تليها، وتوجه للزيارة الشريفة المصطفوية في مستهل ربيع الأَول عام سبعين، فزار وعاد إلى مكة في ثامن عشر الشهر المذكور، واستمر على وظيفته معماراً على عين عرفة بعد [....][٦] إلى حد عمل زبيدة بنت المنصور، ثم تعسّر عليه العمل بعده لشدة يبس الصخر الذي هو سفل تلك الجهة وصعوبته [....][٧] ما صنعه في موسم سنة سبعين فأَنشأَ في ذلك التاريخ إلى أن عَدَّى فسقية منى التي هي منهل الركب قبل بركة مطية (؟) المعروفة ببركة السلم، والله المسؤول أن يحسن عاقبته، ويسهل عليه ما عسر من إجراء طريق العين إلى مكة بِمَنِّهِ وكرمه ويمنه.

كانت وفاة إبراهيم المذكور فيه في ثاني رجب الفرد الأَصب عام أربع وسبعين وتسع مئة بالمفجر، وحُمل إلى مكة المشرفة فدُفن بتربته التي عمرها بجانب قبة أم السلطان منزلة الركب، ومدة إقامته بمكة للعمارة أربعة أعوام وستة أشهر، والمصروف على يده من الذهب مائتا ألف وثمانون ألف دينار، والعمل إلى اتجاه جبل حراء والله غالب على أمره.

سنان أغا: (قابجي السلطان) سليم ابن السلطان سليمان بن عثمان. ورد من الروم من طريق البحر إلى مصر، فلما وصل إلى ساحل بولاق جهز إليه مصطفى باشاه مصر (كيخيته) و(أغاة) حضرته لملاقاته ومعهم فهرس بركاب وسرج مذهبين، وسلسلة فضة، وما يليق به على عادة ملاقاة الأَكابر، وتلقاه أكابر العسكر، فركب وسار إلى أن أنزل بقلعة الجبل، بعد أن عين الباشاه لنزوله محلاً لائقاً به، وفرشه له

(١ ـ ٧) بياض في الأصل.

بأَنواع الفرش، وقام بكلفته غاية، وذلك في عام سبعين وتسع مئة، فحجّ صحبته عيسى بن إِسماعيل، أمير عربان البحيرة وأمير الركب في تلك السنة، مكرّماً مبجّلاً في محفة، وحوله من المماليك والخدم ما يناسب أمثاله، ولما وصل إِلى مكة أكرمه الشريف حسن بن أبي نُمَيٍّ أمير مكة، وعظَّمه وبجَّله، فإِن والده كان في جهة الشرق لقتال طائفة من بني لام، وجهز إِليه الضيافات والأَغنام و(الأَرمغان)، وفرق سنان هذا صدقة بمكة على أرباب الشعائر وأهل الحرم، بدفتر في يده مفصل بأَسماءِ بعض الأَعيان من أهل مكة، فكان يعطي الفقهاءَ والعلماءَ من خمسين نصفاً وأكثر إِلى ما دونها [. . . .][1] وأرباب الشعائر لكل نفر خمسة عشر نصفاً، وكذلك فعل في المدينة المنورة ففرّق بها بدفتر بيده من دينار من الذهب إِلى خمسة عشر نصفاً، وذكر لي قاضي المدينة المنورة مصطفى بن محمد عُرِف بمعمار زاده، أن شأْن سنان المذكور لدى ابن السلطان كبير، وأنه من أعيان خاصته، وربما أكل معه على السماط، وجلس بصحبته، تَمَّمَ حجه وزيارته وعاد صحبة الركب مكرماً ثم توجه إِلى المملكة الرومية [. . . .][2].

أحمد (جبجي) السلطان سليمان، حجّ في عام سبعين وتسع مئة في ولاية عيسى أمير بني عونة من طريق البحر.

وصحبته برسم الصدقة بالحرمين ـ عن المرحومة والدة السلاطين المعروفة بـ(الخاصكية) عتيقة (الخندكار) ـ أربعة عشر ألف دينار، فأَكرمه الشريف حسنَ وأنزله بالمدرسة الباسطية بمكة، وذُكِرَ أنه فرّق بمكة سبعة آلاف دينار من المال المذكور فلمْ تحمد فقهاء مكة وفقراؤُها تلك التفرقة، ولم يوافقوه على أنه فرّق هذا القدر، وكذلك أهل المدينة المنورة، ونُسِب إِلى الخيانة فيما نُدِب إِليه، من أهل الحرمين، وذكر فيهما بسوءِ السيرة في ذلك، وعاد إِلى القاهرة صحبة الركب المصري معززاً مكرماً ثم توجه إِلى الأقطار الرومية.

علي أغا (إِسكي سرايه) ومعنى إِسكي أي [. . . .][3] باللغة التركية، الرومي الجنس، الأَبيض اللون، من أعيان أغوات الباب السلطاني، يقال: إِنه قد جرت عادتهم أنَّ السلطان إِذَا توجه من القسطنطنية لغزو أوْ لصيد أو لغيرهما تجهزت (الخاصكية) ومَن معها إِلى (السراي) القديمة أي دار ملك أسلافه، وكان علي أغا المشار إِليه هو الزمَّام في هذا الحل، حضر المذكور من الأقطار الرومية بحراً،

(١ ـ ٣) بياض في الأصل.

فهرعتْ جماعة مصطفى باشاه مصر والأَعيان إِلى لقائه بساحل بولاق، وجَهَّزَ إِليه فرساً مكملاً من خيوله ليركبه، وسار إِلى قلعة الجبل، فأنزله الباشاه هناك، وبالغ في إِكرامه وتعظيمه، وذلك في عام سبعين وتسع مئة، وكان أحياناً يقصد منزل أحمد شلبي أمير اللواء في المحل المعروف بأَزبك المكحل، خارج باب زُويلة للزيارة والتحدث معه، فإِنه كان قديماً كاتباً على خزانة إِبراهيم باشاه الوزير الكبير ولَهُ بِهِ إِلمام.

حجّ في العام المذكور، صحبة عيسى أمير بني عونة، وجهزه مصطفى باشاه جهازاً لائقاً به، وتوجه معززاً مكرماً، في محفة محفوفة بالمماليك والخدم والتجمل، وأكرمه الشريف حسن بن أبي نُمَيٍّ بن بركات، وهاداه، وجهز إِليه الضيافات كعادة أمثاله، وقضى نسكه وعاد إِلى الأقطار الرومية صحبة الركب الشامي.

حاجي أحمد (كيخية) المرحوم داود باشاه، حجّ في عام سبعين وتسع مئة صحبة عيسى أمير بني عونة في محفة و(يرق) كثير ومحمل مزين بأَلوان أول الركب [....][١] وحجّ قبل هذه في عام اثنين وستين ولاية حمزة بن إِسكندر على إِمرة الحاج، وكان في تلك السنة حجّ بصحبته [....][٢] الخواجا خضر بن عبد الله الرومي قبل ولايته لإِمرة الحاج.

ففي تلك السنة شرع حاجي أحمد في عمارة التكية التي وقفها باسم أستاذه داود باشاه، وجعل لها وقفاً هائلاً ورتّب رَبْعَةَ لقراءة القرآن، وقرر في ذلك طائفة من فقهاء مكة، وجعل لكل نفر عشرة من الذهب في السنة، والتكية المذكورة أصلها من الدور الجليلة بمكة المشرفة، عرفت بسكن شخص من أكابر التجار المتمولين يسمى علاي [....][٣] وكان ينعت بملك التجار، في نيف وأربعين وتسع مئة، ولما عاد سليمان باشاه من غزو الهند واليمن إِلى مكة المشرفة نزل في هذه الدار، إِلى أن توجه، وكذلك مَن ورد إِلى مكة من أعيان أكابر الأمراء، فاشتراها حاجي أحمد، وغيّر معالمها، وجعلها تكية للفقراء، ورتّب بها ما يناسب التكايا من جهات الْبِرِّ وطُرُقِ المعروف، أثابه الله تعالى، وكذلك فعل بالمدينة المنورة ـ على الحالِّ بها ضريحه أفضل الصلاة والسلام ـ فجعل تكية للفقراء وربعة كذلك. ولما قضى نسكه في هذا العام توجه من مكة، ومعه جماعات كثيرة من الحجاج للزيارة، متقدماً على الركب بأَيام عدة، فزار القبر المصطفوي ﷺ [....][٤] صحبة الركب [....][٥] وقلة من الحجاج.

(١ ـ ٥) بياض في الأصل.

وبحث عن أحوال التكية بالمدينة المنورة، وأقام بالمدينة المنورة عدة أيام، وخرج منها متوجهاً إلى الينبع، فالتقى مع الركب المصري بالرَّوْحاءِ في دار المغدة بها ورحل أمير الكرب [....][١] إلى المدينة المنورة وتوجه هو إلى الينبع، ونِعم الرجل هو ديناً وصلاحاً، ولنا به صحبة وله إلى ميل [....][٢] على أفعال البر، وكانت وفاته في عام ثلاث وسبعين وتسع مئة.

خجا سنان من أعيان تجار [....][٣] الروم في عام سبعين وتسع مئة بَحْراً، ومعه عياله وأولاده لقصد الحج، فنزل بدار عيسى بن إسماعيل [....][٤] الغورية في المنزل المعروف بزوجته، فإن بردي (؟) من أمراء الجراكسة، وكانت المذكورة مجاورة بمكة فحضرت [....][٥] العام المذكور وتوفيت عقيب حضورها.

حجّ خجا سنان في عام سبعين المذكور، صحبة عيسى أمير الحاج [....][٦] من ماله في محفتين له ولحريمه، وأكرمه غاية الإكرام، ويقال: إنَّ سبب ذلك أنه اقترض منه بمدينة إستنبول [....][٧] عشرين ألفاً من الذهب، وجاء بصحبته لقصد الحج، وقبض ماله، وكان بصحبة الخواجا المذكور ولد مميز شرع في ختانه (؟) بمكة المشرفة فاهتم عيسى بذلك، وعمل له سماطاً هائلاً بمنى جمع عليه أكابر الحاج، وبعض أكابر مكة، وأركب الولد فرساً، وتبعه أكابر مَن حضر السماط ركباناً على الخيول والبغال والطبول والزمور، فمَرَّ بشارع مِنًى، وعاد إلى المخيم، فعملت له إحراقة كبيرة، وهي إحراقة منى المعتادة ليلة الرحيل، واتفق في تلك الليلة عند عمل الإشارة أنَّ الْفَرَّاشَ عَمَّرَ جميعَ القناديل وهي تزيد عن الألَف، وأوقدها ونصبها في حبال الإشارة على العادة، فلم يشعر إلا وقد انكسر العود والحامل لذلك، وسقط بما فيه من القناديل فتكسرت جميعها، وتفاءل الناس بذلك وقالوا: لعل أن يحصل لعيسى أمر يكرهه، واحتاج أنَّ الفراش بادر إلى جمع قناديل أُخَر، وعمل إشارة ثانية غير تلك، وتَمَّ له فعلها على ما ينبغي فعله، وحجّ وعاد إلى القاهرة معززاً مكرماً، ثم تجهّز إلى السفر وتوجه إلى الروم بحراً بعياله وأولاده، بعد أن استوفى ما له في ذمة عيسى من القرض جميعه كما بلغني ذلك ممن أثق بقوله.

محمد شَلَبي أمين الشون السلطانية بالقاهرة والمملكة المصرية، كان حجّ في عام سبعين وتسع مئة في محفة وتجمُّل، صحبة الركب وكان يسير أمام الركب، وتخاصم مراراً مع حاجي أحمد (كيخية) داود باشاه، وأحمد (كيخية) محمود باشاه

(١ ـ ٧) بياض في الأصل.

اليمن على تقدُّمه عليهم، ولم يقدروا على منعه من ذلك، فإنه كان يسير معه ركب من الفلاحين، وأسافل أهل الركب، والسبب في ذلك إهمال عيسى أمير الركب لأَحوال الحجيج، وسيره في أعقاب الحج دائماً، فلا يعلم من أحوال أهل الركب شيئاً، وتكرر إعلامه بذلك وأنْ يردع المخالف فلم يلتفتْ إلى ذلك لعجزه عن مخاطبة أهل الروم، خصوصاً الأَكابر، ولقصور منزلته عنهم لكونه بَدَويًا عربيًا، ولم يُعْهد قط في سالف، الأَزمان ولا في حديثها أَنَّ بدويًا من أهل التبعية (؟) ولى هذه الإمرة مطلقاً، وعُدّت ولايته من أشراط الساعة، ثم إنَّ محمد شلبي لما عاد من الحج وافق على محل لائق به مع الأَكابر [....][1] وتقدّم بجِماله كما فعل في الذهاب إلى أن عاد إلى مصر (؟) المحروس، وكان عثمان باشاه ممالك الحبشة وكله في [....][2] الحمل بالبنادر الحجازية، وفي ذمة دَرَّاج بن هِجَارِ أمير الينبع، فقام في ذلك جميعه على أَحسن مقام واهتم ببيع ما يباع وقبض ما في جهة دَرَّاجٍ، ولم يتأَخر لعثمان باشا فيما وكله فيه شيء، قلَّ ولا جلَّ. والله أعلم.

* * *

ذكر مَن حَجَّ من أَكابر العلماء والقضاة وأَهل الفتوى من بُخَارى والروم

وإنما أَلحقنا ذكرهم بالأُمراء لقرب التشبُّه بأَحوالهم، ولكونهم مما يلحق بهم فنقول:

صدر جهان: الملقب بدر الدين محمد بن أَحمد بن عبد العزيز بن ماده البخاري، رئيس الحنفية ببخارى، وهو كان صاحبها على الحقيقة، يؤدي الخراج، وينوب عنهم في البلد، حَجَّ فلم تُحمد سيرته في الطريق، ولم يصنع معروفاً، فسمّاه الحجاج (صدر جهنم) وكان قد أَحرم ببغداد عند قدومه من بخارى، فلما عاد لم يلْتَفَت إليه لسوء سيرته مع الحجاج، وكانت حجته في عام ثلاث وست مئة.

حسن شلبي الفناري: ومعناه سيدي، وأَفادني بعض كتّاب الروم أَنه لا يقال (شلبي) إلا لمن كان أَبوه مسلماً فقط ابن ملا شمس الدين محمد شاه ابن العلامة شمس الدين محمد بن حمزة الرومي الحنفي، ويُعرف كسلفه بالفناري، وهو لقب لجدِّ أَبيه، لأَنه فيما نقل لما قدم على ملك الروم أهدى له فنياراً، فكان إذا سأَل عنه

(١، ٢) بياض في الأصل.

يقول: ابن الفنري؟ فعرف بذلك، ومولده سنة أَربعين وثمان مئة ببلاد الروم، ونشأَ بها فاشتغل على مُلاً فخر الدين ومُلاً طوسي، ومُلاً خسرو، حتى برع في الكلام والمعاني، والعربية والمعقولات، وأُصول الفقه، وصنف كتباً مفيدة، مع نظم بالتركي والعربي والعجمي، واستحضار، وذكاءٍ تام وثروة، حجّ مع الركب الشامي، وورد إِلى القاهرة قريباً من سنة ثمانين وثمان مئة، وبادر بالتوجه إِلى مكة من الطور ومعه جماعة من طلبته وعاد فمات ببلاده سنة ست وثمانين وثمانمائة.

عالم الروم: القاضي عبد الواسع شلبي، العجمي الأَصل، الرومي الحنفي قاضي رُمِيليّ، حَجَّ معزولاً من القضاء، وجاور بمكة المشرفة معظماً إِلى أَن توفي في ثامن عشر رمضان سنة خمس وأَربعين وتسع مئة، ودُفن بالمعلاة بقارعة الطريق أَمام تربة أَبي سفيان الشامي، في الشِّعْب الأَقصى، بعد أَن وصى إِلى بعض الأَروام، ولم يَظْهرْ له نَقْدٌ. ويقال: إِنه عمر بالْمُخَلَّفِ عنه رِبَاط بمكة جهة زقاق الشرابي بسويقة الشامي ولم يتم تبييضه وأَسكن بعضه، وختم أَمين الترك على مُخلَّفِهِ، وباع ما له من الأَثاث والثياب وانفرد بذلك عن أَمير مكة بغير عادة.

القاضي محيي الدين شلبي: ابن قاضي العسكر الجمالي يوسف بن علي الشهير بالفناري، أَخو الشيخ أَبي القاسم الذي كان مقيماً بمكة، الرومي الحنفي، قاضي رُمِيلّي، حجّ في سنة خمس وأَربعين وتسع مئة من طريق الشام، وصادف في تلك السنة رجوع سليمان باشا من الهند إِلى مكة، فنزل عند أَخيه أَبي القاسم في حارة قريش، وقصده بعضُ أَهل مكة للسلام عليه، فلم يلتفت إِليهم، وأَظهر النفور من الناس، والتشكيك في الطهارة واللباس، وكان يطوف حول الكعبة وهو معظّم لها ومحترز من مخالطة الناس في الطواف، واستمر ساكناً عند أَخيه، حتى أَتم نسكه، وجاور بمكة فسكن في منزل الخواجا أَحمد العنبري الدمشقي، بجوار باب الزيادة، وسافر في شهر صفر إِلى الطائف لتوعك جسده من الْحَرّ، فاكترى ثلاثين جملاً له ولأَتباعه، لأَجل وجود الهواء الرطب، مع اتصافه بالعبادة وبُعده عن الناس، ثم عاد إِلى مكة في ثالث ربيع الثاني في شدة الحرّ، الذي توجه للطائف بسببه، وكان الموجب لعوده سريعاً واقعةٌ اتفقت له مع عربان الحجاز، وهو أَنَّ شخصاً من عربان بني مُطَيْرٍ نَهَبَ له بعض أَسباب، فجعل عليه عيوناً بمجيئه وقت عوده للسرقة، فلما عاد رماه بعض جماعته بنشّابٍ وقيل: ببندقة فوقع إِلى الأَرض ميتاً، فأَمر بقطع أَطرافه، وبتعليقه على شجرة ليرهب بذلك غيره من السرّاق، كما هو شأن أَهل السياسة من الظلمة، لا العلماء الذين يحكمون بما أَنزل الله على رسوله، وليت شعري

ما فائدة قطع أطرافه بعد قتله؟! وعلى أيِّ شرع تكون هذه القتلة وما تابعها؟ إذْ لا ثبوت باعتراف أَو بينة، ولعل السارق غيره من طائفته أَو من غيرها، فتشوشت لذلك عُربان مُطيْر، وطلبوا الأَخْذ بثأره، فالتجأ إِلى عصبة من أهل الطائف منهم العفيف عبد الله بن محمد النفر، شيخ ثقِيف، ويقال: إِنَّ أَخاه الذي بمكة وهو الشيخ أَبو القاسم الفنري التمس من الشريف بعض قوّاسة تتوجه إِليه لحراسته، فعاد معهم إِلى مكة سالماً، وقد وجد أَحمالاً جُهزت إِليه من بحر الطور إِلى جُدَّة، من سكر وأرز ودقيق وعسل وغيره، مما أَرسل بطلبه من داود باشا مصر بدراهم، يقال: إِنها سبع مئة دينار من الذهب، فأَرسل مئة وعشرين حِمْلاً وأَعاد له بقية المبلغ، فأَرسلها نائب جدة عبد المجيد شلبي الرومي إِلى مكة من غير عشور، وحصل له بوصولها غاية الأَفراح، لشدة الغلاء بمكة في جميع الأَقوات، وحصل منه الإِنعام على جماعة من المترددين إِليه لكل نفر نصف حمل دقيقاً، وكان شأنه التحجُّب من الناس، مع ضعف بدنه، وشدة الوسواس في الطهارة واللباس، ولما قصد التوجه صحبة الركب المصريِّ إِلى القاهرة المعزية، والتنزه على نيلها ومحاسنها البهيَّة، توجه إِليه أَمير الركب جانم من قصروه، وبالغَ في إِكرامه، وتوجهت إِليه بعده، وصحبتي مُقَدَّمُ الجمالة لمعاقدته على الحمل، فرأَيته في أَعلى طرق الوسوسة، قد استحوذ عليه الشيطان، ودَلاَّهُ بغرور، فأَنزله في طبقات التخيُّل بمكان، حتى إِنه امتنع من الجلوس على الفرش ومصافحة المسلِّمين، ومن القرب من جنس الناس بسوء اليقين، فإِن اتفق أَنه مست يده يد إِنسان غسلها سبعاً، وإِن لمس بساطه فقد ارتكب محظوراً حيث منع منه نفعاً، وكانت غالب جلسته القرفصاء تحامياً عن مسِّ جسده للأَرض، وفحش تخيله، حتى صار لا يعتقد صحة أَداء الفرض مع سوء تقشفه وبخله، وتغاليه في إِبداءِ وساوس لا تصدر من مثله، ولقد رأَيته بالمدينة المنورة لما دخل المسجد الشريف النبويَّ، والمحل المبجل المصطفويَّ، وقت صلاة العصر واجتماع الحجيج للصلاة، فمرَّ بين العامة وفي رجله نعْلٌ مطبق، يطأُ به أَرض المسجد من غير توقٍّ لفعله ولا انتباه، فأَنكر فعله أَهل المسجد من الحجيج وأَهل المدينة والعامة، وصاحوا به: في هذا المحل الشريف تبْدِي خلافَ الخشوع والاستقامة! أَين خضوعك في حضرة مَن ظلّلته الغمامة؟ بئس صنيعك وعملك الذي لا يَزن قلامَة، أَلمْ تعلم أَنَّ العيون الرَّمْد من تراب هذه الأَرض تكتحل، وأَنَّ بتقبيل هذا الثرى وانسكاب الدموع في عَرصَات هذه الساحة تذهب الخطايا وتضمحل؟ وأَسمعوه غليظ القول وأَكثروا نكراً، وأَبْدَى تجلُداً على ما كان سببه وساوسه وصَبْراً، ولما دخل القاهرة أَكرمه حكامها، ونزل

بالمحل المعروف بالبرابخية، بخط بولاق، فأقام به مدة، وتوجه إلى بلاده مكرماً، وولي الإفتاء بالروم إلى أن توفي بها.

الشيخ محمد بن إلياس: قاضي مصر، وكان مفتي المملكة الرومية المنعوت بشوي زاده، حجَّ صحبة الركب الشامي، وتلقاه أركان الدولة بمكة، وأكرمه صاحبها، وأنزله في محل لائق به، وترددت إلى محله الفقهاء والعلماء بها، وسلك سبل التواضع، وحسن الخلق مع أهل الحجاز وجيران بيت الله تعالى، فأثنوا عليه وحمدوا طريقته، وقضى نسكه، وعاد صحبة أهل الشام إلى بلاده مكرماً.

القاضي حامد شلبي الرومي: قاضي مصر، حَجَّ منها صحبة الركب بعد أن كَتَبْتُ له قائمةَ احتياجه، ونَظَرْتُ في جميع أسباب سفره إلى حين توجهه صحبةَ الحج المصري، وكانت محفته وأثقاله وراء الدليل والفرَّاشين، مقارنة لمحفة الشيخ العلامة الجمال محمد البكريِّ الشافعي وذلك في عام سبع وخمسين وتسع مئة، ولاية الأمير محمود (كيخية) داود باشا، كان على الركب، وحجّ في تلك السنة أولادُ ابن كشكي أمير طحطا والمراغة من إقليم الصعيد، في تجمُّل كبير، وكانوا بركبهم بين الدليل والشعارة، وصحبتهم طبل كبير، يضربون عليه وقت الإيذان بالرحيل، وكان القاضي حامد في تلك السنة صحبة المصريّ، فحجّ ونسك النسك وعاد.

عبد الغني شلبي: خطيب مدرسة السلطان سليم بمدينة (استنبول)، حجّ في عام ستين وتسع مئة، صحبة الركب الشامي، وكان صحبة الركب في تلك السنة بالي باشا سيواس، الذي قدّمنا ذكره قريباً فحجّا وعادَا مع الحاج الشامي.

عبد الرحمٰن بن علي الرومي الحنفي قاضي رُمِلّي، ثم قاضي مصر وحاكمها، بعد حسن بن عبد المحسن عتيق رستم باشا، حجّ في عام ستين وتسع مئة، في محمل هائل و(يَرق) عظيم، ولما عزم على الحج أراد أن أكتب له بمهامٍّ ما يحتاج إليه من (اليرق) والأسباب والجِمال برًّا وبحراً، فكتبت له ذلك على يد القاضي أحمد بن شعبان، ونائب بابه، فمشى على ذلك واعتمد عليه، وكانت جِماله نحو المئة وأُجْرتها ألفين (؟) من الذهب ونيفاً (؟) وتوجه حريمهم بصحبته، واستعدَّ لكلف السفر، فجهز حمولاً كثيرة برًّا وبحراً ولما برز من القاهرة بأيام حصل له مرضٌ أَشْرَفَ منه على الوفاة، واستمرَّ به إلى مكة المشرفة، وأقام بها وهو في غاية التوعُّكِ، وشَنَّع العامَّةُ بوفاته بمكة، ثم أُشِيع أنه لم يتوجه صحبة الركب، وأنه يتأخر بمكة إلى أنْ يتعافَى، ويعود بَحْراً، فكانت إقامة الركب في تلك السنة بمكة إلى سبع وعشرين

من الحجة، ومنَّ الله تعالى عليه بأَنْ رأى خفَّة مما يَجِد، فعزم على العود صحبة الركب، فعاد، وزار قبر المصطفى ﷺ، وخرج متوجهاً إلى القاهرة من المدينة المنورة مُعَافى ناقهاً، وعاد إلى الديار المصرية مُوَلًّى على عادته، حاكماً شرعيًّا كاتباً له من القضاة، ولم يحصل منه في هذه السفرة نفعٌ لأَحد ولا ضرورة، ولم يتعرضْ لأَمر من أمور إمرة الحاج مطلقاً، بل يعود على أمير الحاج في ذلك، مع أن تلك السنة هي المسماة بسنة العفاس (؟) ووقائعها، وضررها غير محظور، فألزم نفسه الإنصَاتَ عن جميع الأمور، وأعرض عن جمع الربائع في تلك السنة، ولا يتعرّض إلا لأَحوال نفسه وجِماله، وعاد ذَامًّا من أمير الركب ومن (دواداره) قيت الداوودي، والله أعلم.

* * *

ذكر بعض مَن حجّ من العلماء والصلحاء والأَعيان

الإِمام الأَعظم أَبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي رضي الله عنه، حجّ في سنة ست وتسعين من الهجرة، ورَوَى عن عبد الله بن جَزْء الزُّبَيْدِيّ الصحابي.

وقال عبد الله بن داود الحربِيُّ: أَراد الأَعمشُ الحجَّ فقال: مَن هاهنا يذهب إِلى أَبي حنيفة يكتب لنا منه مناسك الحج؟ وحكى الخطيبُ عن خارجة بن مصعب - أَو يزيد بن هارون - قال: ما رأيت أَورع ولا أَعقلَ ولا أَفضلَ من أَبي حنيفة، وما وقع أَحدٌ في أَبي حنيفة إِلا دَلَّ على نقصان عقله، وأَخباره وعلمه وكراماته أَكثر من أَن تحصر، وقد تضمّنها التواريخ والسير، توفي في سنة خمسين ومئة وعمره سبعون سنة. ويقال: إِن الشافعي ولد يوم وفاته، ولما دُفن سمع الناس ثلاث ليال عند قبره صوتاً ولا يرون شخصاً وهو يقول:

ذَهَبَ الْفِقْهُ فَلاَ فِقْهَ لَكُم ... فاتَّقُوا اللّهَ وكُونُوا خَلَفَا

مَاتَ نُعْمَانُ فَمَنْ هَذَا الَّذِي ... يُحْيِيَ اللَّيلَ إِذَا مَا سَدَفا

وقال الناس فيه عدة مراث وأَشعاراً كثيرة رحمه الله تعالى.

الإِمام مالك بن أَنس: بن مالك بن أَبي عامر بن الحارث بن عمرو بن خُثيل، بن عمرو بن الحارث، وهو ذو أَصْبح، من حِمْيَر، وعداده في بني تيْم بن مُرَّة من قريش، إِلى عبد الرحمٰن بن عثمان بن عبد الله التيمي، وكنيته أَبو عبد الله إِمام دار الهجرة قال ابن سعد: وكان مالك يجلس في منزله على ضجاع له، ونمارق

مطروحة يمنة ويسرة في سائر البيت لمن يأتيه من قريش والأَنصار، وكان مجلسه مجلس وقار وحلم، وكان مهيباً نبيلاً، ليس في مجلسه شيء من المراءِ واللغط ولا رفع صوت، وكان له كاتب اسمه حبيب يقرأُ عليه الحديث، قال ابن سعد بإِسناده عن زيد بن داود قال: رأَيت في المنام كأَنَّ القبر انفرج، وإِذا رسول الله ﷺ قاعد، والناس مصطفُّون، فصاح صائح: أَيْنَ مالك بن أَنس؟ فجاء مالك حتى انتهى إِلى رسول الله ﷺ فأَعطاه شيئاً فقال: اقسم هذا على الناس. فخرج به مالك يقسمه على الناس، فإِذا هو مِسْكٌ يعطيه إِياه، توفي صبيحة أَربع عشرة من ربيع الأَول سنة تسع وسبعين ومئة وهو ابن خمس وثمانين سنة.

الإِمام الجليل، والقرشي النبيل، أَبو عبد الله محمد بن إِدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عُبَيْد بن عَبْدِ يَزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قُصَيٍّ بن كلاب بن مُرَّة المطلبي الشافعي، الفقيه، نسيب رسول الله ﷺ، ولد سنة خمسين ومئة بغَزَّة، وقيل: باليمن، وقيل بعسقلان، وغَزَّةُ أَصَحُّ، وحمل إِلى مكة، وهو ابن سنتين،ونشأَ بها، وأَقبل على الأَدب والعربية والشعر، فبرع في ذلك، وحُبِّبَ إِليه الرَّمْيُ حتى فاق الأَقران، وصار يصيب من العشرة تسعةً، ثم كتب العلم، وكانت أُمُّهُ أَزْدِيَّةً.

قال ابن عبد الحكم: لما حملت به أُمه رأَتْ كأَنَّ المُشْتَري خرج من فَرْجها حتى انقضَّ بمصر، ثم وقع في كل بلد منه شِظْيَةٌ، فتأَول المعبرون أَنه يخرج منها عالمٌ يخصُّ علمه أَهل مصر ثم يتفرّق في سائر البلدان. وقال الشافعي: حفظت القرآن وأَنا ابن سبع سنين، وقرأت «الموطأ» وأَنا ابن عشر سنين، ولما حجَّ بشْرٌ الْمَريسيُّ قال لأَصحابه: رأَيت شابًا من قريش بمكة، ما أَخاف على مذهبنا إِلا منه - يعني الشافعيَّ - وقال عبد الله بن أَحمد بن حنبل قلت لأَبي: يا أَبة أَيُّ رجل كان الشافعيُّ فإِني سمعتك تكثر الدعاء له؟! فقال: يا بني كان الشافعي للدنيا كالشمس، وكالعافية للناس، فهل رأَيت لهٰذين من خَلِف أَو منهما عوض؟ وقال أَحمد بن حنبل: ما أَحد مَسَّ مِحْبَرةً ولا قلماً إِلا وللشافعي في عنقه مِنَّةٌ. قال سبط بن الجوزي في «المرآة» قال الخطيب: سمعت القاضي أَبا الطيب الطبريَّ يقول: شافع بن السائب الذي يُنْسب إِليه الشافعي قد لقي النبي ﷺ وهو مترعرع، وأَسلم أَبوه السائب يوم بدر، فإِنه كان صاحبَ رايةِ بني هاشم، فَأُسِرَ وفدى نفسه، ثم أَسلم قال: وكان السائب يشبَّهُ برسول الله ﷺ قال الخطيب: وقال أَبو الطيب الطبريُّ أَيضاً: وقد وصف بعض أَهل العلم بالنسب الشافعي فقال: هو شقيق رسول الله ﷺ في نسبه،

وشريكه في حسبه، لم ينل رسول الله ﷺ طهارةً في مولده وفضيلةً في آبائه إلا وهو قسيمهُ فيها إلى أن افترقا من عبد مناف، فإنَّ المطلب زوج ابنه هاشمَ الشّفاءَ بنت هاشم بن عبد مناف، فولدت له عبْدَ يزيد، جَدَّ الشافِعيِّ فالشافعي ابن عم رسول الله ﷺ وابن عمته، لأنَّ المطلب عَمُّ رسول الله ﷺ والشفاء بنت هاشم أُخت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ.

نَسَبٌ كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ شَمس الضُّحى　　نوراً ومن فَلَق الصَّبَاح عَمُودَا

نشأ بمكة وبمدينة النبي ﷺ، وقدم بغداد مرتين وقال الإمام الشافعي: ما أفتيت حتى حفظتُ عشرة آلاف حديث، وقرأتُ «الموطأ» على الإمام مالك في أيام يسيرة، وحكى الربيعُ أنه كان يختم القرآن كل ليلة، ويختم في رمضان ستين ختمة، وكان حسنَ الصوت، كل مَن يسمعه يَتْلو يبكي، وكان ينام ثلث الليل، ويصلِّي ثلث الليل، ويكتب العلم ثلث الليل ثم صار بعد ذلك يُحْيِي الليل كله، وذكر الحميديُّ أَنَّ الشافعيَّ قدم من اليمن إلى مكة ومعه عشرون ألف دينار، فضرب خيمته ظاهر مكة، وفرق الجميع، قال الربيع: ما دخل الشافعي بغدادَ إلا ومشى إلى قبر أبي حنيفة، وزاره ودعا عنده فتقضى حاجته.

وهو مكيُّ الأَصل مصريُّ الدار والوفاة، وروى الخطيب عن أبي سعيد المكي قال: سمعت الشافعي ينشد:

رَأَيْتُ مُنَى نَفسِي تتُوقُ إلى مِصْرِ　　وَمِنْ دُوْنِهَا عَرْضُ الْمَهَامِهِ والْقَفَر
وَواللّهِ مَا أَدْرِي أَلِلْعِزِّ والْغِنا　　أُقَادُ إِلَيْها أَمْ أُقَادُ إِلى قبري؟!

وقال يونس بن عبد الأعلى: كان الشافعيُّ يتمثّل دائماً بقول أبي حازم:

إِذَا أَصْبَحْتُ عِنْدي قُوْتُ يَوْمٍ　　فَخَلِّ الْهَمَّ عَنِّي يا سَعِيْدُ
وَلَمْ تَخْطر هُمُومُ غَد بِبَالِي　　لأَنَّ غَداً لَهُ رِزْقٌ جَدِيْدُ
أُسَلِّم إنْ أَرَادَ اللّهُ أَمْراً　　وأَتْرُكُ مَا أُرِيْدُ لِمَا يُرِيْدُ

ومصنفاته كثيرة، منها كتابه «الأُم» وكتابه في «الفروع» رواه عنه الزعفراني في نيف وعشرين جزءاً.

وقال ابن زولاق المصريُّ: صنف الشافعيُّ بمصر نحواً من مئتي جُزْءٍ منها: «الأَمالي الكبير» ثلاثون جزءاً و«الأَمالي الصغير» اثنا عشر جزءاً وكتاب «السنن» ثلاثون جزءاً وغير ذلك، وتوفي ليلة الجمعة أو ليلة الخميس بمصر في آخر يوم من رجب

سنة أَربع ومئتين قال الربيع: لما دفنّاه رأينا هلال شعبان وعاش أَربعاً وخمسين سنة.

أَسند الشافعي عن إِبراهيم بن سعد ومالك بن أَنس، وعليه تَفَقَّه، وأَقواله (؟) القديم مذهب مالك، وأَسند عن سفيان بن عُيَيْنة، وعبد العزيز الدراوردي والماجشون، وعمه محمد بن علي بن شافع وغيرهم وروى عنه أَحمد بن حنبل، وأَبو ثور وأَبو عُبَيدٍ القاسمُ بن سَلاَّم وغيرهم.

الإِمام المبجّل أَبو عبد الله أَحمد بن محمد بن حنبل، بن هلال بن أَسد بن إِدريس بن عبد الله بن حيان بن عبد الله بن أَنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن ذُهْل بن شيبان بن ثعلبة بن عُكَابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هِنبِ بن أَفْصى بن دُعْمِيٍّ بن جَدِيلة بن أَسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان بن أُد بن أَدد بن الهميسع بن حمل بن النبت بن قيدار بن إِسماعيل بن إِبراهيم صلوات الله عليه وعلى سائر النبيين، الشيباني البغدادي، ناصر السنة، الصابر على المحنة، وفي نسبه منقبة عظيمة، ورتبة عميمة، من وجهين:

أَحدهما: حيث تلاقى فيه نسب رسول الله ﷺ لأَنَّ نزاراً كان له ابنان أَحدهما: مضر، ونبينا محمد ﷺ من ولده، والثاني: ربيعة، وإِمامنا أَبو عبد الله أَحمد من ولده.

والوجه الثاني: أَنه عربي صحيح النسب، وقال النبي ﷺ: «أَحِبُّوا العربَ لثلاث: لأَني عربي، والقرآن عربي، ولسان أَهل الجنة عربي» هكذا ذكره ابن الأَنباري في كتاب «الوقف والابتداء» وقد قدّمنا ذكر فضل العرب في أَول الكتاب بما فيه بُلغَةٌ من صبَابة.

حجّ سنة تسع وثمانين ومئة، وكان قصد في تلك السنة سفيان بن عُيَيْنة، فقدم مكة وقد مات الفُضيل بن عياض.

قال الإِمام أَبو عبد الله: حججت خمس حجج، فيها ثلاث راجلاً، أَنفقت في إِحدى هذه الحجج ثلاثين درهماً، قال: وخرجت إِلى الكوفة فكنت في بيت تحت رأْسي لَبِنَةٌ، ولو كانت عندي خمسون درهماً كنت قد خرجت إِلى جرير بن عبد الحميد إِلى الرَّيِّ، فخرج بعض أَصحابنا ولم يمكنّي الخروج، لأَنه لم يكن عندي - يعني نفقة - وفي رواية: قال عبد الله بن أَحمد: قلت لأَبي: ما لَكَ لَمْ ترحل إِلى جريرٍ، كما رحل أَصحابك، لعلك كرهته؟ فقال: والله يا بُنَيَّ ما كرهته، وَبِوُدِّي أَني رحلت إِليه إِنه كان إِماماً في الرواية، قلت: فما كان السبب؟ قال: لو كان معي

ثلاثون درهماً لرحلتُ فقلت: ثلاثون درهماً؟ فقال: لقد حججت في أَقَلَّ من ثلاثين.

وعن صالح بن أَحمد قال: عزمَ أَبي على الخروج إلى مكة يقضي حجة الإِسلام، ووافق يَحيى بنَ مَعِين، وقال أَبي: نخرج فنقضي حجّنا إن شاء الله ونمضي إلى صنْعاءَ إلى عبد الرزاق، فنكتب عنه ونسمع: فمضينا حتى دخلنا مكة وجئنا حتى نطوف طواف الْوُرود، فإذا عبدُ الرزاق في الطواف، وكان يحيى بن مَعِينٍ يعرفه، فطاف عبد الرازق، وخرج إلى المقام، فصلّى ركعتين، وجلس فقضينا طوافنا وجئنا إلى عبد الرازق، وهو جالس، فسلّم عليه يحيى بن معِين، وقال: هذا أَخوك أَحمد بن حنبل. فقال: حيَّاه الله وقرَّبَهُ، إنه ليبلغني عنه كلما أُسرُّ بِهِ ـ ثبّته الله على ذلك ـ فقام عبد الرازق لينصرف فقال له يحيى بن مَعِين: إذا كان غداً إن شاء الله تعالى بكَّرنا إليك، فانصرف عبد الرزاق، فقال له أَبي: لِمَ أَخَذْتَ على الشيخ الْمَوْعِدَ؟ فقال: لنسمع منه ونكتب، وقد أَرَاحَك الله مسيرةَ شهر ورجوع شهر والنفقة، فقال له أَبي: ما كان الله يراني وقد نويت نِيَّةً أَنْ أُفْسِدَها بقولك: فمضوا إلى عبد الرزاق إلى صنعاء، فسمعوا منه.

قال البيهقي: يحتمل أَنهم مضوا إلى صنعاء في تلك السنة، والأَشْبَهُ أَنَّ أَحمد بن حنبل خرج إلى صنعاء بعد ذلك بِمُدَّة. وقال ابن رافع: رأَيت أَحمد بن حنبل بمكة بعد رجوعه من اليمن، وقد تشققتْ رِجْلاهُ وبلغ منه التعب، وعن حرملة سمعت الشافعيَّ يقول: خرجت من العراق وما خلَّفْت بالعراق رجلاً أَفضل ولا أَعلم ولا أَتقى من أَحمد بن حنبل.

وفي رواية: خرجت من بغداد وما خلفت بها أَفْقَهَ ولا أَزهدَ ولا أَورع من أَحمد بن حنبل. قال البيهقيُّ: إنما قال هذا إمامُنا أَبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعيُّ عن تجربة ومعرفة منه بحال أَبي عبد الله رحمه الله، وعن ابن راهويه قال: قال لي أَحمد بن حنبل: تَعالَ حتى أُرِيك رجلاً لم تَرَ مثله، فذهب بي إلى الشافعي قال إسحاق: وما رأَى الشافعيُّ مثلَ أَحمد بن حنبل، وقال الحارث بن العباس: قلت لأَبي مسهر: هل تعرف أَحداً يحفظ على هذه الأُمَّةِ أَمْرَ دِيْنِها؟ قال: لا أَعلمه إلا شابٌّ في ناحية المشرق ـ يعني أَحمد بن حنبل ـ وقال عبد الله بن أَحمد: سمعت أَبي يقول: حججت خمس حجج، منها اثنتين راكباً، وثلاثاً ماشياً، أَو ثلاثاً راكباً واثنتين ماشياً، فضللت في الطريق في حجة، وكنت ماشياً فجعلت أَقول: يا عبادَ الله دُلوني على الطريق! فلم أَزل أَقول ذلك حتى وقعت على الطريق، وخرج إلى طرسوس ماشياً على قدميه.

وفضائله كثيرة، ومناقبه غزيرة، وعلومه وزهده ومحاسنه شهيرة، جُمعت في مؤلفات عديدة، وليس هذا المختصر يحتمل نشر شذرة منها.

توفي رحمه الله تعالى ببغداد يوم الجمعة، لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة إِحدى وأَربعين ومئتين، وهو ابن سبع وسبعين سنة وأَيام، وأَنشد ابن أَعين:

أَضْحَى ابْنُ حَنْبَلَ محنة مأمونة وَبِحُبِّ أَحْمَدَ يُعْرَفُ الْمُتَمَسِّك
وَإِذَا رَأَيْتَ لأَحْمَد مُتَنَقِّصاً فَاعْلَمْ بِأَنَّ سُتُورَهُ سَتُهَتَّك

وأَنشد أَبو عبد الله البوشنجي:

إِنَّ ابْنَ حَنْبَلَ إِنْ سَأَلْتَ إِمَامُنَا وَبِهِ ٱلأَئِمَّةُ في الأَنَامِ تَمَسَّكُوا
خَلَفَ النَّبِيَّ مُحَمَّداً بَعْدَ الأُولَى كَانُوا الْخَلائِف بَعْدَهُ فاسْتُهْلِكُوا
حَذْوَ الشِّرَاكِ عَلَى الشِّرَاكِ وَإِنَّما يَحْذُو المِثَالَ مِثَالُهُ الْمُتَمَسِّك

محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير بن عبد الْعُزَّى بن عامر بن الحارث بن حارثة بن سعد بن تَيْم بنِ مُرَّة، وكُنْيته أبو عبد الله، من الطبقة الرابعة من التابعين، من أهل المدينة، كان يحج كُلَّ سنة، ومعه عدةٌ من أَصحابه، فحجَّ سنةً فبينما هو في منزل من منازل مكة إِذْ قال للغلام: اذْهبْ فاشتَرِ لنا كذا وكذا. فقال: والله ما عِندنا ولا درهم، قال: فاذْهَبْ فإِنَّ الله يأتي به. قال: مِنْ أَيْنَ؟ قال: سبحان الله، ورفع صوته بالتلبية، وفعل أصحابُه كذلك.

وكان إِبراهيم بن هشام المخزومي قد حَجَّ في تلك السنة، فسمع أَصواتهم، فقال: مَنْ هؤلاء؟ قالوا: محمد وأَصحابُه؛ يحجُّون في كل عام، ومحمد يحملهم ويحمل عنهم مُؤنتهم. فأَرسل إِليه بأَربعَة آلاف درهم من ساعته. فقال محمد لغلامه: وَيْحَكَ أَلَمْ أَقُل لك: اذهب فاشترِ لنا؟ اذهب الآن.

مات سنة ثلاثين ومئة، رحمه الله تعالى.

عبد الله بن المبارك بن واضح: أبو عبد الرحمن المروزي الحنظليُّ، وُلد سنة ثمان عشرة ومئة، طلب العلم، وصنّف كتباً كثيرة في أبواب العلم وصنوفه، قال علماءُ السِّيَر: كان ابن المبارك سيداً إِماماً زاهداً عابداً وَرِعاً شجاعاً جَوَاداً، يَتَّجِرُ وينفق على الفقراء والمجاورين بالحرمين وغيرهم، وأقام طول عمره يحج سنة ويغزو سنة، وروى الخطيب عن إِسماعيل بن عباس أنه قال: ما على وجه الأَرض مثل عبد الله بن

المبارك، ولا أعلم خصلةً من خصال الخير إلا وقد جعلها الله فيه، ولقد حدثني أصحابي أنهم صحبوه من مِصْرَ إلى مكة فكان يُطعِمُهم الْخَبِيصَ، وهو صائم الدهر، حكى الخطيب عن محمد بن علي بن الحسين بن شقيق عن أبيه قال: كان ابنُ المبارك إذا جاء العام الذي يحجُّ فيه اجتمع إليه إخوانه من أهل مَرْو، فيقولون: الصحبة! فيقول: هاتوا نفقاتِكم، فيأخذها فيجعلها في صندوق يُقْفِل عليه، ثم يكتري لهم من ماله، ويجهزهم بكل ما يحتاجون إليه من مَرْو، إلى مكة، وينفق عليهم ويطعمهم أطيب الطعام، فإذا وصل إلى مكة قال لهم: ما الّذي طلب منكم عيالكم من المتاع؟! فيقولون: كذا وكذا، فيشتري لهم من متاع مكة ما سَمَّوْه، فإذا قدم المدينة سألهم أيضاً فيذكرون المتاع، فيشترِيهِ، فإذا عاد إلى بغداد سألهم كذلك، فإذا قدموا مَرْوَ، صنع لهم طعاماً عظيماً، وأحضرهم يأكلون، وفتح الصندوق، وأخرج تلك الصُّرَر، وعلى كل صرة اسم صاحبها، وأخرج لهم هدايا مكة والمدينة وبغداد، فيدفع الجميعَ إليهم ويُبَيِّض أثوابهم، فيعلم الناس أنهم كانوا معه.

المنذر بن عبد الله بن المغيرة بن عبد الله بن خالد بن حزام، كان من سروات قريش وزهّادها، وهو من الطبقة الخامسة من أهل المدينة، قال الزبير بن بَكّار: عَرَض عليه المهديُّ مئة أَلف درهم على أَن يليَ القضاءَ، فقال: يا أمير المؤمنين إني عاهدت اللّهَ أنّي لاَ أَلِيْ ولايةً أبداً، وإنّي أُعيذُك بالله أن تحملني على نَقْض العهد، حجّ في سنة خمس وسبعين ومئة فلم يكن له ما يَكْتَرِي به إلى الحج فاكترى لأَبيه وخرج هو ماشياً.

سُفيَانُ بن عيينة: حَجَّ كثيراً، وكانتْ آخِر حجّاته سنة سبع وسبعين ومئة، فلما كان بالمزدلفة وصلَّى اسْتَلْقَى على فراشه وقال: وَافَيْتُ هذا الموضع سبعين مَرَّة، وأقول في كل سنة: اللهم لا تجعله آخِرَ العهد من هذا المكان، وإني قد استَحْيَيْت من الله، من كثرة ما أسأله ذلك، فرجع فتوفي في السنة الداخلة، في عاشر رجب الفرد رحمه الله تعالى.

الإمام أبو الحسين، مسلم بن الحجاج القشيري، صاحب «الصحيح» حجّ في سنة عشرين ومئتين.

إسماعيل بن عبد الله المغربي الزاهد، أستاذ إبراهيم الخواص، وإبراهيم بن شيبان وغيرهما، كان كبير الشأن في علم المعاملات والمكاشفات، حجَّ على قدميه.

قال سبط بن الجوزي في «المرآة»: سبعاً وسبعين حجة، وما كان يأْكل ما تصل

إليه يد ابن آدم، ولم يتسخ له ثوب، ولا طال له ظفر ولا شعر. ومن كلامه: مَن ادعى العبودية وله مراد باق فهو كذاب، ولا تصح العبودية إلا لمَن أفنى مراداته الكلية وقام بمراد سيده. وأنشد:

لاَ تَـدْعِـنِـي إلاَّ بِـيَـا عَـبْـدِهِ فَـإِنَّـه أشْـرَفُ أَسْـمَـائِـي

محمد بن عبيد الله الكلاعيُّ، عابد الشام، سافر من حمص عديلاً لأبي عبد الله محمد بن مصطفى بن بهلول القرشي الحمصي، فاعتلّ ابن مصطفى في الجُحْفَةَ علّة صعبة، ودخل إلى مكة فطِيف به راكباً، وذُهِب به إلى مِنى، واشتدَّت عليه، فاجتمع عليه أصحاب الحديث، واستأذنوا محمد بن عبيد الله الكلاعيَّ في الدخول عليه فَأَذِن لهم، فدخلوا عليه ولا يَعْقِل شيئاً، فقرأوا عليه حديثَ ابن جرير عن مالك في المغفر وحديث محمد بن حرب عن عبد الله بن عمر: «ليس من البِر الصيام في السفر» وخرجوا فمات ودُفِن بمِنَى، وكانت حجتهما سنة ست وأربعين ومئتين.

أحمد بن نصر، أبو بكر الزَّقاق الكبير، أحد أقارن الجنيد، وأكابر مشايخ مصر، قال: جاورت بمكة عشرين سنة، فكنت أشتهي اللبنَ فغلبتني نفسي، فرجعت إلى عُسْفَانَ، واسْتَضَفْت حيًّا من أَحْياء العرب، فنظرت إلى جارية حسناء بعيني اليمين، فأَخذتْ بقلبي فقلت لها: قد أخذ كلُّك بكلِّي فما لغيرك مطْمع، فقالت لي: يقبح بك الدعاوى العالية، لو كنت صادقاً لَذَهَبتْ عنك شهوة اللبن، قال: فقلعت عيني اليمين التي نظرت بها إليها. وقالت لي: مثلك من نظر، فرجعت إلى مكة، وطفْت أسبوعاً ثم نمْت، فرأيت في منامي يوسف الصدِّيق عليه الصلاة والسلام فقلت: يا نبي الله أقرَّ الله عينك بسلامتك من زليخا، فقال لي: يا مبارك أقرَّ الله عينك بسلامتك من العُسْفَانِيَّة، ثم تلا عليه السلام: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمٰن: ٤٦] فصحت من طيب تلاوته، ورخامة صوته، وانتبهت وإذَا عيني المقلوعة صحيحةً. وقال: كنت مارًّا في تِيْهِ بني إسرائيل، فخطر ببالي أن علْمَ الحقيقة مُبَاينٌ لعلم الشريعة، فهتف بي هاتف من تحت شجرة: كلُّ حقيقة لا تتبع الشريعة فهي كفر.

الحسن بن حامد، بن علي بن مروان، أبو عبد الله البغدادي إمام الحنابلة في زمنه، ومدرِّسهم ومفتيهم، له المصنفات في العلوم المختلفات، وله «الجامع» في المذهب، نحو من أربع مئة جُزءٍ، وله «شرح الْخِرَقِي» و«شرح أصول الدين» و«أصول الفقه» سمع أبا بكر بن مالك، وأبا بكر الشافعيَّ، وأبا بكر النجَّاد، وأبا علي بنَ

الصواف، وأحمد بن سلم الحنبلي، ومن أصحابه القاضي أبو يَعْلَى، وأبو إِسحاق وأبو العباس البرمكيان، وأبو طاهر بن القطان وغيرهم، وناظر أبا حامد الإِسفراييني في وجوب الصيام ليلة الإِغمام، في دار الإِمام القادر بالله، بحيث يسمع الخليفة الكلام، فخرَجَتِ الجائزة السنية له من أمير المؤمنين، فردَّها مع حاجته إِلى بعضها، فضلاً عن جميعها تعفُّفاً وتنزُّهاً.

وكان يبتدىءُ في مجلسه بإِقراء القرآن، ثم بالتدريس، ثم ينْسَخ بيده، ويقتات من أُجرتهِ، فَسُمِّي الورَّاق لأَجل ذلك، كان كثير الحج فعوتب لذلك، في كبر سنه، فقال: لعل الدِّرْهَمَ الزَّيْف يخرجُ من الدراهم الجيدة: حكي أنَّ إِنساناً جاءَهُ بقليل ماءٍ وهو مُسْتَنِدٌ إِلى حجر، وقد أشرف على التلف، فأَومأَ إِلى الجائي له بالماء: من أين هو؟ وأيش وَجْهه؟ فقال له: هذا وقته؟ فأَومأَ: إِي نعَمْ هذا وقته، عند لقاء الله تعالى أحتاج أن أدري ما وجهه أو كما قال. وتوفي راجعاً من مكة، بقرب وَاقِصةَ سنة ثلاث وأربع مئة.

الشيخ علي بن عَقِيل بن محمد بن عقيلٍ، أبو الوفاء الحنبلي المشهور، صاحب المصنفات العديدة، والأقوال السديدة، في المذهب، مولده في جمادَى الآخرة سنة إِحدى وأربعين وأربع مئة، حجَّ فحكى عن نفسه قال: حججت فبينما أنا بالحرم إِذا بشيءٍ يلوح، وله شَعَاع، فأَخذته، وإِذا بعقِدْ لؤلؤٍ له قيمة، وهو منظوم في خيط حرير أحمر، فبينما أنا أُقلبُه، وإِذا بشيخ أعمى يقول: مَن رأى لنا عِقْداً من لؤلؤٍ فله مئة دينار، قال: فقلت له: فما علامته؟ قال: هو في خيط أحمر، فقلت: خذْ عِقْدَك. فقال: خذِ الدنانير. فقلت: لا والله. واتفق أنني خرجت إِلى الشام فزرت البيت المقدَّس، ونزلت إِلى دمشق، وقصدت بغداد، وكانت أُمّي باقيةً، فاجتزت بحلب فدخلتها آخر النهار، فآوَيْت إِلى مسجد، وأنا جائِعٌ بَرْدَان، فقال لي مؤذن المسجد: تَقَدَّمْ فصلِّ بنا فصليت بهم فعشُّوني، وكانت أوَّلَ ليلة من شهر رمضان، فقالوا: إِمَامُنَا قد توفي، وكان شيخاً صالحاً مكفوفاً، ونسألك أنْ تقيم عندنا هذا الشهر، فأَقمت أُصَلِّي بهم، فقالوا: للشيخ الذي كان إِمامَنا بنتٌ نُزَوِّجُكَ إِياها. فزوَّجوني، وأقمتُ عندها سنةً، وأولدتُّها ولداً ذكراً، ثم مَرِضَت في نفاسها، فتأَملتها ذات يَوْم، وإِذا بخيط أحمر في عنقها، وإِذا به الْعِقْدُ الذي لقيته بعينه، فقلت لها: يا هذه إِنَّ هذا العقد قَضِيَّتُه كذا وكذا. فبكت، وقالت: أنت هو؟! والله لقد كان أبي يبكي ويقول: اللهم ارزق ابنتي مِثْلَ الذي رَدَّ عَلَيَّ العقد، وقد استجاب الله منه، لأَنه كان صالحاً، ثم ماتت، فأَخذت الْعِقْدَ والْمِيرَاثَ، وعدت إِلى بغداد. توفي في سنة ثلاث عشرة وخمس مئة.

الإمام الحافظ أبو الفرج عبد الرحمٰن بن الجوزي البكريُّ الحنبلي، كذا ترجم له العلامة صاحبنا جار الله بن فهد القرشي المكي فقال: البكريُّ حجّ مرات منها سنة ثلاث وخمسين وخمس مئة، ووعظَ بالمسجد الحرام مرتين، وفي المدينة الشريفة.

وقال في كتابه «صيد الخاطر» فَصْلٌ: حججْتُ إلى بيت الله الحرام، ودخل في قلبي من هيبة المكان، ما لو لم يمزجه بالأُنْس به لما طابتْ عيشتي، فكنت تارة أنظر إليه بعين النِّسْبة فيشتد تعظيمي له، وتارة بعين لُطْفِ مالكه، فآنسُ بالبيت أُنْسَ العبدِ لبيت سَيِّدِه، فرأيت من قِلَّة احترام ساكني البلد بالبلد عجائبَ، وما ذلك إلا لأنَّني رأيته بعين النسبة، ورأوه بعين المادة، فهم يرون الحجارة، وأنا أَرى الإِضافة، وكانت هذه محنة إبليس، فإِنَّه نظَرَ إلى المادِّ، ونَسِيَ الاختصاص والأَمر، فسبحان مَن أسْكَنَ حَرَمَهُ مِثْلَ أولئك، حتَّى إنهم يأخذون المكسَ عن رؤوس الحاج، وما قَلِقْتُ بشيءٍ قطُّ كَقَلقِي من فعلهم ذلك وكان معنا شيخٌ بغداديٌّ من التجار، يتولَّى لهم أخذ المكس، فهجرته. ورأيت خلقاً من أصحابنا لم يتغيروا عليه، فهم يؤاكلونه ويشاربونه، فعلمت أنَّ الإِيمانَ بَاردٌ في قلوبهم، ورأيت من عَبيد مكة في استلاب الأَموال وقلة الاحترام للمكان ما أَزعَجني. ومن عجائب [أهل] مكة أنهم كانوا يمشون بين يدَي الخطيب يوم الجمعة بِمِقلاَعٍ يُضرَبُ على غَفْلَة، يزعج المكان والناس، فأَنكرت هذا فقالوا: هذا شعار لهم، فَقلت: بئْسَ الشعار، هذا مكان يجب احترامه عن رفع الأَصوات والأَذَان يكفي. انتهى كلامه.

الشيخ أبو عبد الله علوان ابن الأُستاذ عبد الله بن علوان الأَسدي الحلبي، ذكره الصاحب كمال الدين عمر بن العديم في «تاريخ حلب» ونص ما ذكره في ترجمته أنه قال: وهو الذي أبطل المكس عن أهل مصر والمغاربة الحجاج، فإِنَّ العادةَ كانتْ جاريةً عندهم ـ أي أهل مكة ـ أنهم يخرجون إلى جدة، ويأْخذون عن كل إنسانٍ سبعةَ دنانير، وينهبونهم، سواء كانوا فقراء أو أغنياء، فلما بلغ الشيخ ذلك قال للملك الناصر ـ في سنة اثنتين وسبعين وخمس مئة ـ سَيِّرْني في مَرْكَبٍ صغير، ومُرْ صاحب المركب أني مَتَى قلت له ارجع يَفْعَلُ ذلك، وسيَّره في مركب صغير، فلما وصلوا إلى مَرْسَى جدةَ جاءَهم إنسانٌ أسود من مكة ومعه مِيزان، وطالبهم بالمكس المعهود، وقال: أَدُّوا الحقَّ! فقال له الشيخ علوان: وما الحقُّ؟! فقال: الحقُّ على كلِّ رأْسٍ سبعةُ دنانير. فلطمه الشيخ وقال: وَيلَكَ!! تُسَمُّون المظالم حقًّا! وقال لصاحب المركب: ارْجع، فعاد، فاستغاثُوا إليه، وقالوا: على رِسْلِكَ حتى نُعْلِم الأَمير، فوقف إلى أن طالعوا صاحبَ مكة بأَمره، فقال: أطلعوه وجميع مَن معه في المركب، ففعلوا

ذلك. فلما وصل مكة اجتمع به صاحبها واعتذر له وقال: نحن قوم ضُعَفَاء وما لنا إلا هذه الجهة، والملوك قد استولوا على البلاد، ولا يَبَرُّونا بشيءٍ. فعند ذلك كتب الشيخ علوان إلى الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب، فشفع فيهم وطلب لهم منه شيئاً، فأَقطعهم الأَقطاع المعروفة بهم بمصر، وبطل ذلك المكس الذي كان يُؤخذ من الحاج، والذي عوضه السلطان للشريف في مقابل ذلك من النقد ألفان من الدنانير، من القمح أَلْفَا إِرْدَبٍّ وإقطاعات بصعيد مصر وجهة اليمن، وقيل: إنه عوّضه عن ذلك ثمانية آلاف اردب من القمح، تحمل إليه كل عام إلى ساحل جُدَّة، والحمد لله على إزالة هذه البدعة القبيحة ببركة الشيخ علوان وعلى يده.

الشيخ موفق الدين: عبد الله بن محمد بن أحمد بن قُدَامَةَ الْمَقْدِسِي الحنبلي، عالِم المذهب، وصاحب التصانيف المشهورة، وله في فقه مذهب الإمام أحمد رضي الله عنه اليدُ الطُّوْلَى المذكورة، حجّ في سنة أربع وسبعين وخمس مئة، هو والقاضي الفاضل من مصر وعاد إلى الشام.

إبراهيم بن عثمان بن محمد أبو إسحاق الغزِّي، قال سبط بن الجوزيّ في «مرآة الزمان»: إنه أحد فضلاء الدهر، وممن يُضرب به المثل في الشعر، وُلد بغَزَّةَ في سنة إحدى وأَربعين وأربع مئة، وانتقل إلى العراق، وخرج إلى خراسان وغيرها من البلدان، وأثنى عليه العماد الكاتب فقال: وكم له مِنْ حِكْمةٍ مُحْكمة النسج، واضحة النهج، وكلام أحلى من منطق الحسناءِ على منطقة الجوزاء، وقصائد كالفرائد، وقلائد كعقود الخرائد، ودرر حسان، ودُرٌّ ومَرجان - وذكر كلاماً طويلاً - خرج من مَرْوَ، يريد الحجَّ فتوفي في الطريق في سنة أَربع وعشرين وخمس مئة، فحُمل إلى بَلْخ، ودُفن بها، ومن شعره:

خـذْ مَـا صَـفـى لـك فَـالْـحَـيَـاة غُـرُوْرُ ... وَالـدَّهْـرُ يَـعْـدِل تـارَةً ويَـجُـورُ
لاَ تَـعْـتِـبَـنَّ عَـلـى الـزَّمـان فَـإنَّـه ... فَـلَـكٌ عَـلَـى قُـطْـب الـلَّـجَاج يَـدورُ
أَبَـداً يُـولَـدُ تَـرَحَـةً مِـنْ فَـرَحَـةٍ ... ويَـصُـبُّ غَـمَّـا مُـنْـتَـهَـاهُ سُـرُورُ
تَـعْـفـو الـسُّـطـور إذَا تَـقَـادَمَ عَـهْـدُهَـا ... وَالْـخَـلْـقُ فِـي رَقِّ الْـحَـيَـاةِ سُـطـورُ
كُـلٌّ يَـفِـرُّ مِـنَ الـرَّدَى لِـيَـفُـوتَـهُ ... وَلَـهُ إِلَـى مـا فَـرَّ مِـنْـهُ مَـصِـيْـرُ
فَـانْـظُـرْ لِـنَـفْـسِـكَ فَـالـسَّـلاَمَـةُ نُـزْهَـةٌ ... وَزَمَـانُـهـا ضافـي الْـجَـنَـاحِ، يَـطِـيـرُ
مِـرْآةُ عَـقْـلِـكَ بـالـشَّـبَـاب صـقِـيْـلَـةٌ ... وَجَـنَـاحُ عُـمْـركَ بـالْـمَـشِـيْـب كَـسِـيْـرُ
بَـادِرْ فـإنَّ الْـوَقْـتَ سَـيْـفٌ قَـاطِـعٌ ... وَالْـعُـمْـرُ جَـيْـشٌ وَالـشَّـبَـابُ أَمِـيْـرُ

وقال:

إِنَّمَا هٰذِهِ الْحَيَاة مَتَاعٌ   فالسَّفِيْهُ الْغَوِيُّ مَن يَصْطَفِيْهَا
مَا مَضَى فَاتَ، وَالْمُؤَمَّلُ غَيْبٌ   وَلَكَ السَّاعَةُ الَّتي أَنْتَ فِيْهَا

وكان قد غَسل أكثر شِعْره وتركه، فقيل له في ذلك فقال:

قَالوا: هَجَرْتَ الشِّعْرَ قُلتُ: ضَرُوْرَةً   بَابُ الْبَوَاعِثِ وَالدَّوَاعِي مُغْلَق
خَلَتِ الْبِلاَدُ فلا كَرِيْمٌ يُرتَجَى   مِنْهُ النَّوَالُ ولاَ مَلِيْحٌ يُعْشَق
ومِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّهُ لاَ يُشْتَرَى   وَيُخَانُ فِيْهِ مَعَ الْكَسَادِ وَيُسْرَق

الشيخ أَبو الحسن أَبو بكر ابن الشيخ يحيى الغياثي، حجَّ سنة ثمانين وخمس مئة، وطاف بالكعبة راكباً على بَغْلَة، وحوله نحو ثلاث مئة فقيه، يمشون بمشيه، ويطوفون بطوافه، ولم يستطع زيارة النبي ﷺ فَصَارَ قَلِقاً لذلك. فرأى النبي ﷺ في المنام يقول له: يَا أَبَا بَكْر إِنْ لم تَزُرْنا زرْنَاك، فقال: يا رسول الله، بكرمك فعلت فادع الله لي. فدعا له فقال: ولإِخوتي وأَولادي، حتى عدَّ سبعة بطون منهم، والنبي ﷺ يدعو لكل بطن عند ذكره.

الشيخ أَبو عبد الله عبد المعطي بن محمود بن عبد المعطي السكندري، من أَعيان مشايخ إِسكندرية، مشهور بالزهد والصلاح، وله معرفة بأُصول الدين ومذهب مالك، حجَّ سنة سبع وتسعين وست مئة على طريق عَيْذاب، وصحبته الشيخ زين الدين محمد بن منصور بن القفاص، فلما وصلا إِلى مكة كان بها رجل منقطع في جبل أَبي قُبَيْس، فنزل إِليهم وسلّم على الشيخ عبد المعطي ورفيقه وقال لهما: كل مَن يدخل هذه البلدة من أَهل هذا النور أَراه، وأَنتم أَول مَن دخلها من أَهل النور.

الشيخ مُحْيي الدين يحيى بن شرف النوويُّ الشافعي، حَجَّ مع والده.

والشيخ مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن تيمية الحراني الحنبلي الإِمام الجليل من أَئمة المذهب وكانت زوجته بدرية بنت عمه معه، وهي بنت الخطيب فخر الدين محمد بن الْخَضِر بن تَيْمِيَّة، في سنة إِحدى وخمسين وست مئة، وحدث الأَخيران في ليلة الأَربعاء سابع عشري ذي الحجة بفوائد ابن ماشي (؟) من آخر «جُزْء الأَنصاري»، و«رُباعيات الغيلانيات»، و«رُباعيات جزء الأَنصاري» وقُرِىء على الشيخ مجد الدين وحده مشيخة أَبي البدر الكرخي، وكان ذلك بحضرة الإِمام شمس الدين محمد بن مَسْدِي، المحدّث الجليل.

القاضي بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الشافعي، حجَّ مراراً، أولها في سنة ست وخمسين وست مئة مع والده من طريق البحر بعد تيسير الحج من البَر، وحضرَا وفاة الشيخ أبي الحسن الشاذلي الصوفي، بحميشا، من صحراء عَيْذاب، وصلّى عليه القاضي بدر الدين بن جماعة.

الحافظ العلامة شرف الدين الدمْيَاطي، عبد المؤمن بن خلف، المحدث، حجَّ سنة ثلاث وأَربعين وست مئة، وسمع بمكة من الفقيه محمد بن عبد الله بن مقبل العجمي المكي رحمه الله تعالى.

إبراهيم بن أَبي بكر الباجوري الشافعي، تفقّه قليلاً، وسلك طريق التصوُّف مع الدين المتين، وكثرة المال بحيث لم يكن يَقْبَلُ من أَحد شيئاً بل يَنْهَى أَصحابه عن الأَكل من أَحد، وكانت تلك طريقة والده، وتزايد اعتقادُ الناس فيه حتى كان قلَّ أَن يَرُدَّ أَحدٌ رسالته من الأُمراء، حجَّ عشرين حجّة، فحصل للناس به النفع الزائد في كل مرة، ومات راجعاً من الحج في المحرم سنة أَربع عشرة وثمان مئة، ودُفن بِتَبُوك ولم يكمل الستين.

الشيخ المعتقد إبراهيم بن علي بن عمر المتبولي، برهان الدين الأَنصاري القاهري الأَحمدي، أَحد المعتقدين، قدم من بلدة مَتبول، من الغربية، إلى طُنْدُتا، فأَقام بضريحها مدة، ثم تحوّل إلى القاهرة ونزل بظاهر الحسينية، فكان يدير بها مزرعة، ويباشر بنفسه العمل فيها من عَزْق وتحويل، وغير ذلك من مصالحها، وكان يجتمع إذْ ذَاك بالشيخ إبراهيم الغنّام، ونزل بزاوية هناك بدرب التتر، تعرف بالشيخ رستم، ثم قطن بزاوية غيرها بالقرب من دَرْب السباع، وصار الفقراء يردون عليه فيها، ويقوم بكلفتهم من زَرْعِهِ وغيره، فاشتهر أَمرهُ، وتزايد خبره، حجَّ مراراً عديدةً، وانتقل إلى بِرْكة الحاج، وأَنشأَ هناك زاوية مشهورة كبيرة للجمعة والجماعات، وبستاناً مُتَّسِعاً، وسبيلاً على الطريق هائلاً عمَّ الانتفاع به سيما في أَيام الحج، وكذا جامعاً كبيراً بِطنْدُتَا، وبرجاً بدمياط، وأَماكن غير ذلك، وكثرت أَتباعه بحيث صار يُخْبَزَ لهم في كل يوم زيادة على إرْدب، وربما بلغ ثلاث أَرادب، وهرع الأَكابر فضلاً عمن هو دونهم لزيارته والتبرُّك به، وكان عليق البهائم التي برسم مزروعاته ونحوها ثمانية أَرادب في كل يوم، ونسب إليه جماعة من الكرامات الكثيرة، واستفيض بينهم أَنه لم يَجِبْ عليه غُسْلٌ قط لا من جماع فإنه لم يتزوج، ولا احتلام، بل كان فيما قيل: يذكر ذلك عن نفسه. ويقول: إنه أَخذَ عن الشيخ يوسف البرلسي الأَحمدي وانتفع بصحبته، وأَنه فُتِح عليه في سطح جامع الظاهر، فإنه أَقام فيه مدة، وتزاحم الناس

عليه في الشفاعات، فكان يرفدهم برسائله، وربما توجه بنفسه في الْمُهِمّ منها، كل ذلك مع أُمِّيَّتِهِ، ومداومته على الإهداء لكثير من الأُمراء ونحوهم من فاكهة بستانه وغيرها، ولو لم يَكُنْ إلا جمعه الجمَّ الغفير على الطعام. وقال العلامة الشمس السخاويُّ في تاريخه «الضوء اللامع لأَهل القرن التاسع» وأَكثر ما أُنْكِرَ عليه اختلاطُ الْمُرْدَانِ من أَتباعهم بغيرهم، مع ذكر محبِّيه عنه في ذلك مقاصد صالحة. مات وقد توجه لزيارة القدس والخليل بعد توعكه مدة، بمكان يقال سدود بين غزةَ والرملة، بالقرب من المقام المنسوب للسيد سلمان، في ليلة الاثنين ثامن عشر ربيع الأَول سنة سبع وسبعين وثمان مئة، ودُفن هناك وسِنُّهُ يزيد على الثمانين.

شيخنا القاضي الفاضل أَقضى القضاة شيخ الإسلام، نور الدين علي ابن ياسين بن محمد بن محمد الطرابلسي الحنفي، نزيل الحطابية بخط البندقيين، أَخذ العلم والحديث عن أَماجد عصره، وأَفتى ودرس وولي أَقضى القضاة الحنفية في الدولتين الجركسية والعثمانية، وله السند العالي في علم الحديث، ومن مشايخه المحب الطَّبريُّ والشمس البخاري وغيرهما، وتصدَّر وانفرد بمذهبه، حجَّ في سنة أَربع وثلاثين وتسع مئة في ولاية تنم من مغلباي على الحج، وخرج لملاقاته من مكة قاضي القضاة الحنفي بها هو بديع الزمان ابن الضِّياء بن أَبي الليث، من وادي مَرِّ الظَّهْران، وصحب معه من محاسن ما يُلاقَى به الأَكابر من الأَطعمة والفواكه، وأَنزله في محل سكنه بمكة، وقسم على بعض الفقراء مبلغاً واختلس له في تلك السنة من المبلغ النقد ما يزيد عن أَلفي دينار، فاحتسبها عند الله تعالى، واتُّهِمَ به شَخْصٌ من نُوَّابه، يدعى جلال الدين بن محرز، فلم يلتفت إِليه في معنى ذلك، ورأَى النبيَّ ﷺ في المنام وأَشعره بقرب وفاته، فتهيَّأَ لذلك وكتب وصيَّتَهُ وباع جهاته، وأَعتق مماليكه، وأَوقف كتبه وتوفي بعد ذلك.

شيخنا ترجمان العرب، ولسان الأَدب، عمدة المعقول والمنقول، الشريف شرف الدين موسى بن أَحمد بن عبد الرحمٰن الحسني الأَرميوني المالكي الحطَّابي، نسبة لإِقرائه العلم في المدرسة الحطابية، تُشد إِليه الرحال في علوم عديدة، خصوصاً علم المعقولات، فإِنه كان يقرئه سرْداً من الرأْس، من غير مطالعة ولا كرَّاس، أَخذ عنه غالب فقهاء عصره مع العبادة والصلاح، وكان يختم القرآن في كل ليلة، ويذكر بكرامات منها: أَنه كانت له حمارة يركبها فإِذَا قَصَّرَ غلامه في عليقها جاءتْ إِليه في المنام، وشكت حالها، طبق ما وقع في اليقظة، ويذكر عنه أَنه كان يقرِئُ أَولاد الجان.

لزمته مدة سنين، وقرأتُ عليه كثيراً من النحو والصرف والمنطق والحديث وغيره، وهو أجلُّ مشايخي في العلوم العقلية، حجَّ وجاور في الدولة الجركسية، وأقام برباط كاتب السر ابن أجا، وأخبرني أنه اجتمع على جماعات من فحول علماء عصره بمكة، وعلى الرِّجال، وذكر ـ تغمده الله برحمته ـ أنه كانَتْ له أحوال ومشاهدات بمكة المشرفة، وأنه أَراد الصعود إلى البيت في وقت حَضْرٍ لكثرة ازدحام الخلائق، فأَراد التَّعَلُّق بشخصٍ من أَهل القوة، ليعاونه على الصعود، فلم يظفر منه بطائل، وضربه ورمى به إلى الأَرض، تحت الأَقدام والازدحام، فحصل له من الضرر ما اطلع اللّهُ فيه على سِرِّه قال: فلم أَشعُرْ إلاَّ برجل عظيم الهيبة في حلية الأَتراك، على رأسه زُنْط، فأَتى إِليَّ وأَقامني من الأَرض، وقال لي: هو ضربك فعل الله به وصنع؟! ودفعني فلم أَشعر إِلا وأَنا في داخل الكعبة من غير عَنَاء ولا مشقة لحقتني في ذلك، فلم أَشكَّ في أَنه القطب. قلت: لا يبعد ذلك فإنه كان من الرجال، أَصحاب التهجدات والأَحوال، ولما حان قدومه على الله آذَنَنِي بذلك بطريق الإِشارة، وذلك أَنني كنت أَقرأُ عليه في ذلك الزمن يوماً في «شرح التوضيح» للشيخ خالد الوقّاد الأزهري، ويوماً في كتاب «المغني» لابن هشام ولم يكن في ملكي إِذ ذاك نسختان منهما، فكتبت منهما كراريس بخط يدي متعددة فمن «شرح التوضيح» إلى (باب أَعلم وأَرى) ومن «المغني» إلى حرف [....][1] فلما كانت الليلة التي آذَنَنِي فيها بقرب وفاته، جاءَ إِليَّ وقت المغرب، ومعه «مغني اللبيب» بخطه، وذكر لي أَنها نسخته التي قرأَها على الشيخ خالد وصَحَّحَها: وقد خصصتك بها تكون عندك تذكرةً للرحمة عليَّ. فدفعها إِليَّ وتَوَجَّه، وكان منزله قريباً من الدار التي أنا بهَا، ووالدي رحمه الله تعالى بخط حارة بهاء الدين الأَسدي، فلما أَسفر الصبح لم أَشْعُرْ إلاَّ وقد أَتى إِليَّ قاصدٌ منه يطلبني إِلى داره، فتوجهتُ إِليه فإِذَا هو مريض محموم، فقال لي: يا ولدي افْعَل ما أَقول لك، قد حان القدوم على الله، وأُريدُ منك أَنَّك تلازمني في منزلي لا تفارقني حتى تخرج الروح من الجُثَّة. فقلت له: يا سيدي هذا تَوَعُّكٌ سببه لعله من الهواءِ، ويزول سريعاً. فأَعاد علي: هو ما قلت لك، فاستأْذَنْتُهُ في إِحضار فَصَّادٍ، فأَذِنَ بعد عُسْرٍ منه، فأَحضرت له فَصَّاداً فَصَدَهُ في ذراعه، ثم أَحضرت له ما يناسب من علاج مرضه، فلم يَعْبَأ بذلك، بل كان يستغرق في حاله وقتاً كبيراً، ثم يدعوني بعد إِفاقةٍ يسيرة، يجدني بِحِذَاءِ رأْسه جالساً إِلى اليوم الثالث أَفاق قرب الزوال، وكان

---

(١) بياض في الأصل.

لم يعلم بمرضه أَحدٌ، وقال لي: أُكتبْ بخطك قصةً على لساني إلى قاضي مصر بأَنه يقرر أَولادَ أَخِي في وظائفي عوضاً عني وانظر مَن ترسلها معه للقاضي يكتب عليها ما جَرَتِ العادة به في التقارير، فكتبتها ولم يَكُنْ عندنا ثالثٌ، فما فرغت من كتابتها إلاَّ وقد حضر رجل من طلبته الأَشراف، فأَخَذَها وتوجه إلى قاضي مصر، فأَجاب إلى سؤاله، واستغرق الشيخ حينئذ إلى أَنْ قَضَى نَحْبَهُ قبل العصر رحمه الله تعالى، وكانت وفاته في يوم الأَحد تاسع عَشْرَي شهر رجب الفرد، سنة تسع وثلاثين وتسع مئة. ومما أَنشدني من لفظه لنفسه:

لِـلأَمْـرِ لَـسْـتَ تَـمْـلِـك ... فـاصْـبِـرْ لِـحُـكْـم رَبِّـك
سَـلِّـمْ إِلَـيْـهِ تَـسْـلَـمْ ... لاَ تَـعْـتَـرِضْـهُ تَـهْـلِـكْ

الشيخ الصالح المعتقد أَفضل الدين الشافعي، رفيق الشيخ المعتقد الأَوحد علي البرلُسِي الخواص [. . . .][1] بخط سويقة اللبن، من أَخطاط القاهرة، كان عبد الله صالحاً على قدم الرجال، أَصحاب المقامات والأَحوال، من خَوَاص أَصحاب الشيخ المسلك المعتقد، عبد الوهاب الشَّعْرَاني، ويذكر عنه كرامات شهيرة.

كان الشيخ أَفضل الدين يُلِم بي وبوالدي كثيراً، حجَّ مراراً متجرداً من الدنيا متقلِّلاً منها، مرة بصحبة الوالد أَسكنه الله بحابح الجنة في عليين، حمل معه فيها من الزاد عن مسافة سفره من القاهرة إلى مكة المشرفة أَرْبَعَة أَقْرَاصٍ من الخبز، حساباً عن كلِّ رُبْعٍ من مسافة الطريق قرص واحد، وقصد الحج في السنة التي مات فيها، وهي عام إِحدى وأَربعين وتسع مئة، وكنت مسافراً مع والدي، فتوجّه على حاله بصحبتنا في ولاية يوسف الحمزاوي لإِمرة الحاج، فأَدركه أَجله قبل الوصول إلى الميقات، وشاهدت من بركاته وأَحواله فإِنهُ أَلَمَّ بِي كثيراً في تلك السنة التي توفي فيها، فكنت أُلاَزم أَحواله، فرأَيته يقيم المدة التي تزيد عن ثمانية أَيام لا يطلب الماء ولا يشربه، ثم يرد عليه حال فلا يزال يطلب الماء ويشرب، ويصبُّ على رأْسه طول نهاره، وفي عشيته وأَبكاره، وأَخبرني رحمه الله تعالى أَنه كان يعمل (الكِيميا) بِيَدِهِ بقدر ما يحج ويتصدّق في تلك السنة فقط، وأَنَّ ذلك كان حاله إِذا قصد الحج. وأَخبرني الشيخ عبد الوهاب الشعراني أَنه آذَنَهُ بوفاته في تلك السفرة والحجة، وأَنَّ تَرَابَهُ بِمنزلةِ بذْرٍ، عند سلوك تلك المحجة، ونقلت من خط سيدنا

---

(١) بياض في الأصل.

الشيخ عبد الوهاب الشعراني في كتابه المسمى بـ«الأَخلاق والعهود» ما نصه: سمعت سيدي علي الخواص يقول: لا ينبغي لأَحد أن يوصي بدفنه في مكان مُعَيَّنٍ ما، إِن أعطاه الله تعالى علم ذلك من طريق كشفه الصحيح الذي لا يدخله مَحْوٌ، إِن ذلك المكان الذي عيّنه هو الذي ذُرَّ على سرته منه يوم وُلد، وعرف الملك الذي ذرّه عليه، وسمعت أخي أفضل الدين رحمه الله يقول: أعرف موضع طينتي التي عُجِنَتْ مع طينة أبي آدم عليه السلام، ولم تَزَلْ روحي تشاهد ذلك المكان إِلى وقتي هذا. فقلت له: سأَلتك بالله تعلمني بمحلها! فقال: على يمين منزل الحاج بِبَدرٍ، قريباً من مسجد الغمام، فكانَ ٱلأَمرُ كما كان. وأخبرتني والدته بعد موته أنه قال لها ليلة النصف من شعبان ـ تلك السنة التي مات فيها ـ: إِنَّ ورقتي الليلة نزلت بموتي ودفني في بدر. قالت: فعلمتُ أَنَّ ولدي مَيِّتٌ تلك السنة، لأَنِّي ما عهدت عليه قط كَذِباً، فسافر تلك السنة إِلى مكة وهو مريض، فصار الناس يقولون له: حَجُّ مثلك لا يجب ولا يُستحب بالإِجماع. فيقول: ما أنا مسافر للحج، وإِنما أنا مسافر لقبري. فمرض في الذهاب فمات قبل بَدْرٍ بمرحلة، فَحُمِل إِلى بَدر رضي الله عنه. انتهى ما نقلته من خطه، نفع الله به.

فلما حَلَّ الركبُ بالْحَوْرَاء، أَشار إِليَّ بقرب الوفاة، وأَنه قد حان قدومه على الله، وأَوصاني ببعض ما أَراد، وكانت ترْبَتهُ بِبَدْر كما ذكر، والمعاد (؟) بعد توعُك يسير، ومرض غير عسير، فتوفي رحمه الله تعالى بعد الرحيل من مغدة الدَّهْنَاء، وبالقرب من واسط، في العشر الأَخير من ذي القعدة سنة إِحدى وأَربعين، وحُمل إِلى بَدْرٍ مَيِّتاً، وتولَّيْت غسله وتجهيزه، وآذَنْت بالصلاة عليه جَمْعاً من الحاج، فكان له مشهداً حسناً، حُمِلَ نعشه فيه على أَعناق الرجال، ودُفن مصاحباً بذكر الله تعالى بالقرية، في قبر واسع ملحود، عطر الرائحة، أَنوار الرِّضا والقبول عليه لائحة، وسُنِّم قبره، وجُعل عليه علامة من حَجَرٍ، وكثر التبرُّك بمشهده ودفنه في ذلك اليوم ـ جمعنا الله وإِياه في مستقر رحمته ـ ورأَيت حين غسله ببدنه طعناتٍ عديدة لم يكن يظهرها في حال حياته، فسأَلت صاحبه الشيخ عبد الوهاب عنها، فأَخبرني أَنه ذكر له أَنه في بعض حجّاته تَعرَّضَ له جماعة من الأَولياء (؟) بمنزلةِ قبر الشيخ مرزوق الكفَافي، وقصدوا قتله، فطعنوه تلك الطعنات إِلى أَنْ حجز بينه وبينهم الشيخ حسن الريحاني وسلّمه منهم.

الشيخ الإِمام الرحلة المحقق، قاضي العسكر بمدينة تونس المغوشي المغربي المالكي، فريد عصره، وعلاّمة دهره، قدم من الروم إِلى دمشق الشام، وتوجّه منها

إلى القاهرة، وحجّ منها في عام أربع وأربعين وتسع مئة، وهي أَول حجّاته، وحَجَّ بعدها حجة أُخرى في ولاية جانم بن قصروه على الحج، في نيِّف وأربعين، واجتمعت به في تلك السنة بعقبة أَيْلَةَ بالرجعة، وهو رجل متضلع بالعلوم والفنون، في غاية من المهابة والوقار والسكون، فلازمته في غالب أَوقاته للطيلسان (؟) موصوفاً على الأَلسنة بعظم الشأْن، وكان داود باشا مصر يعظِّمه إِلى الغاية، ويعامله بجليل الحماية والرعاية، واستمر بالقاهرة، وأَعيان الفضلاء مقبلة على الاشتغال عليه، والأَخْذِ عنه في سائر الفنون، إِلى أَن توفي بمنزل سكنه بخط بولاق، بقصر قانم، المشرف على باعة المغل، في نيف وخمسين وتسع مئة رحمه الله تعالى.

الشيخ الإِمام الحافظ، الرحلة، علامة الزمان أَوحد العصر، جمال العلماء العاملين، شيخنا أَبو الحسن محمد بن محمد جلال الدين بن عبد الرحمٰن بن أَحمد بن محمد بن أَحمد بن محمد بن عوض بن عبد الخالق بن عبد المنعم بن محمد بن الحسن بن محمد بن يحيى بن يعقوب بن نجم بن عيسى بن شعبان بن عيسى بن داود بن محمد بن نوح بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن أَبي بكر الصدِّيق، عتيق بن عثمان أَبي قحافة بن عامر بن عمرو بن سعد بن تَيْم بن مُرَّة بن كعب بن لؤَي، فالإِمام أَبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه يجتمع مع النبي ﷺ في مُرَّة بن كعب، البكري الصدِّيقي الأَشعري الشافعي، سبط آل الحسن طيّب الله تعالى ثراه، إِليه انتهت رئاسة العلماء في عصره، ولولده جمال العلماء قطب دائرة الفضلاء، شمس الدنيا والدين، ومولده كما كتب لي بخطه في سنة ثمان وتسعين - بتقديم التاء المثناة - وثمان مئة، كان علامة عصره في مصره، وفريد زمانه، وقطب وقته وأوانه، أخذ العلم في باكورة عمره عن أَجلاَّءِ مشايخ عصره، وتصدّر وأَفْتى، ودرّس وانتفع به الطلبة، وتخرّج عليه جماعة منهم عالم مكة المشرفة الشهاب بن حجر، والنجم الغيطي، والكمال بن الموقع، والشيخ ولي الدين الضرير، والشيخ المسمى بالشام وغيرهم، وانفرد بقوة الحافظة، وفرط ذكاء القريحة في طريق القوم، فأَحسن السلوك في تلك الطريقة، وحباه الله تعالى ما جمع له به بين علمي الشريعة والحقيقة، ولم تزلْ مجالسه بالجامع الأَزهر وغيره حافلة جدًا، زاهية بما حوته من أَماثل العلماء والفقهاء والأَعيان، لا يضاهيه فيها أَحَدٌ في ذلك الزمان، خصوصاً مجلس التصوُّف والكلام على الوجد والوجود، والجمع والفرق، والبقاء والفناء، والغيبة والحضور، والسُّكْر والذوق، والمحو والإِثبات، والنفس والخاطر، والوارد والشاهد، وعين اليقين وحق اليقين، والروح والسر، والتجريد والتفريد، والتجلِّي والمحاضرة، والتداني

والتدلّي والترقّي، والتلقّي بعبارات حسنة، وأَلفاظ بديعة لَسِنَة، وأَسْجاع بليغة منقّحة مستحسنة، سرداً من حافظته وقلبه وذهْنه، مواهب قد خصّه الله تعالى بها، فكان يتكلم عن جلالة بَادِيَة، وكانت مجالسه في اليوم عديدة، وأَوقاته في سائر أَيامه صالحة مفيدة، ففي صدر النهار للتصوُّف، وباقيه للفقه والتفسير والحديث، وما بين ذلك للتأْليف والتصنيف، في علوم شتّى، فصنّف التفسير المسمى بـ«تسهيل السبيل» والتفسير المسمى بـ«الواضح الوجيز» و«شرح المنهاج» بخمسة شروح، في أَجزاء عديدة، وله شرحان على «الإِرشاد» وشرحان على «العباب» وشرح على «متن الروض» و«شرح التنبيه» و«البهجة» ومات ولم يكملا. وله «تصحيح المنهاج» وحاشية على «شرح الجلال» المحلّي، و«نظم متن جمع الجوامع» ومتن «تلخيص المفتاح» في علم المعاني والبيان، وألّف في التفسير والحديث والفقه والنحو، وفي كل معنى، فبلغت مؤلفاته ما يزيد على أَربع مئة مؤلف، وله شعر بليغ، ونظم بديع سريع، وانفرد بعلم الحقيقة، وما رام حاسده محاورته ومعاندته إِلاَّ وَسَدَّ عليه طريقه، وكثرت حُسَّادُه من أَقرانه وغيرهم في عصره، ومات كلٌّ منهم بحسرة، وكان مع هذه العلوم والفضائل الجمة، والمصنفات وتحقيق المسائل المهمة، حسنَ الشكل والسِّمَات، فريد الأَوصاف والصفات، بليغاً جليلاً مفوَّهاً نبيلاً.

وأَتذكر رُؤْيتي له مارًّا من محلِّ سكنِهِ بالجامع الأَبيض، المطل على بركة القرع، سالكاً طريق الشارع الأَعظم إِلى الجامع الأَزهر، وهو في غاية الجمال والتجمُّل في ملبوسه ومركوبه، قد علاه من الوقار والمهابة ما انفرد بأُسلوبه، وحوله الطلبة يمشون في ركابه، عند ذهابه وإِيابه، حسن الطيلسان، عَذب اللسان، يهابه ويخضع لرؤْيته كل إِنسان، قد عَمَّه الله تعالى بسوابغ الامتنان، فلقد كان للإِسلام والمسلمين بوجوده أُنسٌ وافر، وجمال باه زَاه زاهر، يقول مَن رأَى شكله: قَلَّ أَنْ تَرى الْعُيُون مثلَه، وكان ـ أَسكنه الله الفردوس الأَعلى ـ شَهْماً مترفِّعاً على أَعيانِ الظلمة والحكام، معرضاً عنهم عند مُثولهم بين يديه من دون بقية الأَنام، ليس لهم لديه وزن ولا احتشام، مع سعيهم وترددهم إِليه، وخضوعهم له وبين يديه، ولطالما تَمَنَّى داود باشا أَن يجتمع به ويراه، ويغتنم بركته ورؤيته ودعاه، فلم يظفر من ذلك بطائل، وحال بينه وبين الاجتماع به حائل، إِلى أَنِ اتَّفَقَ وفاة أَمير المؤمنين المتوكل على الله محمد بن يعقوب القرشي الهاشمي العباسي، فاجتمع للصلاة عليه بسبيل المؤمنين الجمُّ الغفير، والجمعُ الوافر الكبير، وسُئِلَ الشيخ في التوجه للصلاة عليه، لشريف نسبه، وعظيم قدره وحَسبه، وفرش لداود باشا سجادة بالسبيل، ليصلي عليها إِذا حضر في ذلك المحفل الجليل،

وبينما الشيخ جالس على سجادته في جهة من السبيل، منتظراً لِقدوم الجنازة، والأبصار والقلوب نحوه لما خصَّ به من المنح وحَازَه، وإذا بدواد باشا قد أَقبل وهرول إلى جهة الشيخ وعلى اغتنام بركته عَوَّل، فلما رآه الشيخ قاصداً نحوه مهرولاً، لم يكن لِتلقيه محتفلاً، واستمر جالساً إلى أن قرب منه، وسلَّم عليه وناجاه، فقام له حينئذ وتعانَقَا، وتهلّل وجه الباشا، وتأدَّب مع الشيخ، وأَخذ بيده إلى أَنْ أجلسه على سجادة نفسه، وجلس تجاهه على الحصير، فَرحاً بما حباه الله من اجتماعه به وأُنسه، ومن جملة كلامه وتأَدُّبه واحتشامه: إني تباركت بهذا الميت، واعتقدت صحة نسبه باجتماعي بحضرتكم، وكم كنت أُحِبُّ وَأَوَدُّ الاجتماع برؤْيتكم، والتبرُّك بدعائكم ومشاهدتكم، فدعا له وأَسرع القيام إلى الصلاة، وتوجّه مسرعاً غير ناظر إلى عظمته والجاه.

وكان يَحجُّ عاماً، ويقيم بالقاهرة لإحياء مجالس العلم والتصوُّف عاماً، فأَما رحلته إلى الأَقطار الحجازية مجاوراً لاغتنام بركة تلك المواقف والمشاهد، التي سحابُ خلوصه وعَزْمه إليها لم يَزل ماطِراً، فكانت على الغاية من الجلال والجمال، وشرف النفس وكمال الأَحوال، والاستقامة التامة في سائر الحركات والأَفعال، وكان يُحِبُّ إظهار نعم الله تعالى عليه فيسافر متجمِّلاً بالمحفَّة والتنُورة والسحابة، والسرير، والحوش بما حواه من الحريم وأَتباعهم من الجم الغفير، واعتماد ما يصحبه من خَاصِّ الزاد الذي يكون لأَكابر الأُمراء في مدة المسير، على غاية من النزاهة والغِنا عن المأمور والأَمير، وللركب به وبوجوده من الجلال والجمال ما لا يحصى مع الانقطاع إلى الله تعالى، وحسم مادَّةِ آمالِهِ من الخلق، والبُعد عن الركون بقلبه إليهم على الغاية التي لا تسْتَقْصَى، ولم يزل على ذلك إلى أَن توفي، بعد قدومه من الحج، وتواتر اعتماره واجتهاده في تلك الحجة، وآذَنَ عند عوده منها بانقضاءِ سفره، وقرب الوفاة قبل تمام تلك المحجة وهو أَنه بينما هو سائر في بعض طرقات الإياب، والجمَالُ في حالة سيرها المعتاد في العود المُدْني من الأَحباب، إذ انقطع قِشَاط المحفَّة المصنوع من السيور المتعددة، فَأَبْدَى عند ذلك من إشارته ما صدع الأَفئدة، قائلاً: لا إِله إلا الله انْقَطَعَ السَّيْر، وانقضى حَثُّ ركابنا إلى الحجاز على خَيْر، فكانت وفاته بعد قدومه إلى القاهرة وتمرُّضه أَياماً في شهر ربيع الأَول سنة اثنتين وخمسين وتسع مئة، بالقاهرة بالجامع الكبير الأَبيض وتأَسفَتْ على فقده الخاصة والعامة، وأَظلم الْجَوُّ يوم وفاته لما حوى من القتامة، وعزي (؟) الإسلام لفقده، وصُدع الدين الحنيفي من بَعده، ورثاه الشعراء، واجتمع لمشهده العلماء والقضاة وأَعيان الأُمراء، فكان مشهدُهُ ومجلس

الصلاة عليه بالجامع الأَزهر حافلاً، وحشرت الناس من كل أَوْبٍ فلا ترى إِلاَّ باكياً أَو مصاباً بفقده ذاهلاً، وصلى عليه ولدهُ، والخليفة من بعده شمس الدين والدنيا إِماماً، مع اجتماع عامة العلماء بالقاهرة وما والاها فَنَوَوْا به ائتماماً، وكانت إِمامته إِشارة إِلى خلفه فيما كان عليه وبه، وزيادة، وأَنه قد أَشرقت شمس علومه في سماء السعادة، وازدحم الناس على نشعه تبرُّكاً بلمسه، يود كل منهم أَنْ لو فدَاهُ بروحه ونفسه، والتمسوا بركة لمسه بالمناديل والثياب، وتبعوا جنازته من كل باب، ودُفن بالقرافة مجاوراً للإِمام الشافعي أَسكنه الله تعالى أَعلى عليين، وأَعاد على المسلمين من بركاته ونفحاته، آمين.

ولد الشيخ الإِمام، نخبة العلماء والأَنام، جمال الملة الإِسلامية، درة طراز المعارف الإِلٰهية، بحر العلوم والحقائق اللَّدُنية، القائم بالوراثة المحمدية، الناشر عَرْفَ حضراته المسكية، المفصح بإِذن بارئهِ عن جلال الذات الأَحدية، نابغة أَماجد السلالة الصِّدِّيقية، عمدة المحققين، وبهاء العارفين، ومرشد السالكين، شمس الدنيا والملة والدين، محمد بن أَبي الحسن بن جلال الدين، محمد بن عبد الرحمٰن البكري الصدِّيقي الأَشعري الشافعي، سبط آل الحسن، إِمامٌ أَبرزته العناية الأَحدية مظهراً للأَسرار الملكوتية، وأَوجدته القدرة الصمدانية جمالاً للعصابة المحمدية، وأَشرقت شَمْسُ وجوده في الوجود للعباد آية، وأَشارت إِليه بالبنان أَماجدُ أَهل البيان في البداية والنهاية، فهو في طراز حُلَّةِ المعارف جوهرٌ مكنون، قد جمّل الله به الزمان، وأَقرّ بمظهره العيون، وانتخبه مَن سلك درر السلالة الصِّدِّيقيَّة، وأَنطقَهُ بغوامض علومه اللدنية، وأَجمع على محبته والثناء على شيمه الطاهرة كافَّة البرية، وما رام حاسدٌ ومعاند أَن يخوض في بحره إِلاَّ وأَرْداهُ الله رادًّا كيده في نحره، إِذْ هُوَ كما قيل:

وَإِذَا كُـنْـتَ بِـالْـمَـدَارِكِ غِـرًّا ... ثـم أَبْـصَـرْتَ حَـاذِقـاً لاَ تُـمَـارِ

وَإِذَا لَـمْ تَـرَ الْـهِـلاَلَ فَـسَـلِّـمْ ... لأُنَـــاسٍ رَأَوْهُ بِـــالأَبْـــصَـــارِ

فللّه دَرُّهُ من حافظٍ حجت إِلى كعبة علومه القلوب والأَسماع، وطافت بِفَيْضِهِ الأَفْئدةُ وسعت إِليها الأَقدام من سائر البقاع، ورمقت نحوه الأَبصار، وَزَهَا مجلسه بما حوى من الجموع وحاز من الفخار، وانعقد على فضله وحافظته الإِجماع، وطاب بمجالسه التصوفية التواجد والسَّماع، وبهر بعلومه ومعارفه العقول، ورَمَى ضدَّه بجمار صحيح المعقول والمنقول، منحة من منح العزيز الحكيم ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤] ولم يزل يحجُّ كوالده وزيادة، وحباه الله

رُتَبَ الكمال على أَجمل عادة، فمشى على سنن والده، وكانت بدايته بنهايته في طارف الأَمر وتالده، وتصدّر لتعطير مجالس العلوم، وأَفصح عن رموز كنوزها فأَغرب بما أَعرب في المنطوق والمفهوم.

فأَما الدروس الفقهية وبثّ علوم الشريعة المحمدية، فقد فاح أَرَجُ عبيرها بطيب شذا عاطِرِ عباراته، ووَدَّتْ سواجع الحمام أَن لو اقتبست من رقائق سَجعاته، ومُدح بالقصائد الفرائد على منابر المحامد، لما يبدي من غزير علمه ومحفوظاته، وغريب مسائل الأُصول والفروع المكتسبة من عنديَّاته، وإِثارة كوامن الفوائد المستغربة، بأَلفاظ رائقة بليغة مستعذبة، فكم أَزال عن القلوب ضيراً بِتحقيقه، وكمْ حقَّقَ مسائل الطلبة فأَشبعهم بعد الإِعواز من دقيقه، وكم قطع الشبهات بحجج لا يعرفها السيف، وأَتى بكل وَجْهٍ ما رأَى الروياني أَحلى منه في «أَحلام الطيف» وفروع صحّ سبكُها فقال ابْنِ الحداد: هذا هو الذهب المصري وروى من مَعِين مدد الصِّدِّيق، فقال العلماء: هذا هو السِّرُّ البكري، وأَوضح المسائل بما نسفَ جبال النَّسَفِي، وروى أَقوال صاحب المذهب بحافظة يتمنَّاها الحافظ السِّلَفِي، فلو رآه الغزالي لقال: هذا النسج على منوالي، وإِمامُ الحرمين لصلَّى خلف إِمامته ركعتين، والقفَّال لفتح باب إِعوازه للمقال، والْمَاوَرْدِيُّ لاغترف من طيب فوائده ما يجدي.

وأَما مجالسه التصوفية والكلام على الخواطر، وأَقسام النفس، فوضَّح بمعاني كلامه كل لَبْس، وأَتى بغرائب البديع والقوافي، وأَثنى عليه لسان الحقيقة بما أَبْدَى لأَهْل الطريقة من القوافي (؟)، وأَفصح عن مَعْنَى الوجد والوجود، والوارد والشاهد والمشهود، والبقاء والفناء في خدمة المعبود، وأَمثال ذلك وافياً بما زاد على المقصود، وأَغرب من معاني الاصطلاحات التصوفية، بعبارات بديعة الأَسْجاع وفية، مع الإِطناب والإِغراب، حتى أَتى من ذلك بالعجاب، وسلك في هذه الطريق من كل باب، وشخصت إِليه أَحداق نوابغ الحذاق، وهاموا طرباً لسماع تلك المعاني الدقاق، واعترفوا برسوخ قدم علومه على الإِطلاق، وفُقِدَ منْ يُماثله فيما يقتفيه، وإِنَّ صاحبَ البيت أَدْرَى بالذي هو فيه.

وأَما مجالس التفسير والحديث، وسرد أَقوال العلماء من كلِّ قديم وحديث، وتعداد تباين الأَقوال عن ظاهر قلبه، كأَنها من ورده الدائم وَحِزْبه، فقد بهر العقول وأَتى بالعجاب، وذكر من ذلك ما تحار فيه الأَلباب، وحَقُّهُ أَنْ يقال فيه بين الناس، ما قاله حسان بن ثابت في عبد الله بن عباس:

إِذَا قَـالَ لَـمْ يَـتْـرُكْ مـقـالاً لِـقـائِـلٍ ... بـمـلـتـقـطـات لا تـرَى بَـيْـنَـهَـا فَـضْـلا

كَفَى وشَفَى مَا في النُّفوسِ فَلَمْ يَدَع ... لِـذي إِرْبَـةٍ فـي الْـقَـوْلِ جِـدًّا ولا هَـزْلاَ

وله الشعر البديع البليغ، وأَفانين النظم والنثر الموجز السريع، والقدم الراسخ في فَضّ دُرَرِ المعاني والأَلفاظ، ووفور الحافظة لأَنه عَلَمُ الْحُفَّاظ، واقتباس جواهر المعاني من صَدَف الكلام، وسرد بدائع القوافي المتعددة بغير فكرة واهتمام.

وأَما ملازمة أَسفاره لأَعتاب الحرمين عاماً بعد عام، وتتبع أثر والده في ذلك المقام على الدوام، وتردده لهذين المحلين الشريفين، وسطوع أَنوار بركته وأَسرار طريقته كوضوح النَيِّرَيْن، فهو في ذلك الفرد الجامع، والغوث الذي يُمْلَى حديث نفحات أَسفاره على السامع، مع الجمال الذي يضاهِي به أَكابر الوزراء والأَعيان، وسعة المصروف الجليل القاصر دون وصفه اللسان، ووفود الأُنس العام، حيث حلَّ وجودُهُ وكان، وإِقبال قلوب الخاصة والعامة على حضراته وإِشاراته مع توالي الأَزمان، وإِذا جاور بزمزمٍ والمقام، وأَلْقَى عصا تَرْحَالِهِ عند سفر الحجيج عن مكة وأَقام، كان المشار إِليه في أُمور الملّة والإِسلام، وفي كل حادثة ومهمة للخاص والعام، لاَ جَرَمَ أَنه لمحل وجوده كالروح، ونفحات مدده الصدِّيقيِّ على تجدُّد الأَقطار والأَعصار تلوح، والمواهب الإِلٰهِيَّة تغْدِق عليه من غوامض أَسرارها وابلَ الفتوح.

ثم إِذا حَلَّ بِطَيْبَةَ، وعطر بنفحاتها رَدْنَهُ وجَيْبه، وكتب له بالوصال وصول، إِذ لم يكن بينه وبين المصطفى ﷺ والصديق رسول، آبَ بمراتب الإِسعاف والإِسعاد، مستمدًّا من حضرة أَشرف العباد، مُفَاضاً عليه خلع القبول من لدن صاحب طيبة وسعاد، فضراعة إِليك اللَّهم أَنْ تحفظ على الإِسلام والمسلمين جمالَ وجوده، وأَنْ تفِيْضَ عليه مِنْ منح الكمالات العلية غاية مراده ومقصوده.

الشيخ الإِمام العلامة مفتي المسلمين، قدوة العلماء المعتبرين، علامة العصر شمس الدنيا والدين، محمد ابن شيخنا الإِمام قدوة الإِسلام، ملك العلماء الأَعلام شهاب الدين أَحمد بن حمزة الرملي الأَنصاري الشافعي، متّع الله الإِسلام والمسلمين بوجوده، وأَفاض عليه من مزيد فضله وجوده. حجَّ في سنة ثمان وخمسين وتسع مئة في عام الفتنة، وواقعة الأَشراف مع محمود أَمير الحاج، في غاية الجمال والكمال، ورُتَبِ الاستقامة والفضائل والأَفضال، فإِنه ـ أَدام الله النفع بعلومه ـ رضع ثَدْيَ العلم، وبذل فيه جدَّهُ واجتهاده، وفاق أَقرانه في فقه الإِمام الشافعي وغير وزيادة، وأَزال بتحقيقه وتدقيقه في المسائل العلمية عن القلوب ضَيْراً، ونادته الفضائل والفواضل:

جزاك الله عن مسعاك خيراً، وأَشرقت شموس علومه على الأَفهام، فاستنار بمنطوقه ومفهومه كل حالك، وانفرد بتحرير فِقْهِ الإِمام الشافعي، وسلك في طرق تقاريره كل المسالك، فلم تزل مجالسُ دروسه بالجامع الأَزهر وغيره حافلة، وربوع فوائده وفرائده وعلومه كاملة، ودقائق فكره التي عجز عن تحصيلها ابن الخباز متواترة متواصلة، وانعقد الإِجماع على بيانه ومقوله، ولم يخالف فردٌ من أَفراد فضلاءِ عصره في القول بتفضيله.

إِذَا قَالَتْ حَذَامِ فَصَدِّقُوهَا ... فَإِنَّ الْقَوْل مَا قَالَتْ حَذَامِ

ومولده سلخ جمادى الأُولى سنة تسع عشرة وتسع مئة، وتصدّر للإِقراء بالجامع الأَزهر في عام إِحدى وأربعين، فأَجاد وأفاد، وقصدته الطلبة للانتفاع بعلومه من سائر الجهات والبلاد، فلم يكن بالجامع الأَزهر وغيره من الدروس التي تقصد للانتفاع كجموع محافله، لما يَرِدُ على أسماعهم من نوادر فضائله وفواضله، وله من المؤلفات المنقّحة «شرح المنهاج» للإمام النواوي المسمى بـ«نهاية المحتاج في شرح المنهاج» و«القصد والمرام» بجمع فتاوى والده شيخ الإِسلام، وشرح «العباب» للمزجد اليمني - إِلى كتاب الصلاة - في جزء «والقول المقبول في تفضيل الرسول» و«بغية الأَماني لشرح عقيدة القيرواني» و«عقيدة الإِيمان المنتخبة من شرح زبد بن رسلان» و«تيسير المرام في شرح أحكام المأْموم والإِمام» و«مختصر القول التام في شرح أحكام المأْموم والإِمام» لابن العماد لم يكمل، وحاشية على «الإِيضاح» للنووي المسمى بـ«المناسك الكبرى» لم تكمل.

وكانت حجته لقضاء الفريضة في سنة ثمان وخمسين - كما قدمنا ذكره - فحجّ في تلك السنة على غاية من الخلال الحسنة، في مَحَفَّةٍ جليلة بهية، بجِمال وأحمال بطيب خبرها ومخبرها سنية، وأرادهُ السيد الشريف أَبو نُمَيٍّ بن بركات أن يكتب على محضره الذي شرع في تجهيزه إِلى الأَعتاب السلطانية، بواقعته مع أمير الحاج، فبلغني أنه أجاب: إنما قدمتُ إِلى مكة المشرفة لأَقْضِيَ فرض الحج، ولا مَدْخَلَ لي في أمور المملكة، ولا ميل لي إِلى ذلك ولا ملكة، وامتنع من الكتابة عليه، ولم يَعْبَأْ بذلك السؤال ولم يجنح إِليه، وعاد من الحج مُكِبًّا على الإِفتاء والتدريس في علوم عديدة، بأَبحاث خارقة، وفكرة قادحة حاذقة، وتقارير سديدة وفوائد جليلة مفيدة.

ثم حجّ ثانياً في عام تسع وستين على غاية من التواضع والاستكانة، مجانباً لما كان بصحبته في أول حجّاته من المحفة وغيرها، مما يشعر بالعظمة والسيادة

والمكانة، بل اقتصر على شقة محارة، وخرج من القاهرة بعد الركب بأَيام، في حالة التكتُّم عن أهله وذويه وطلبته بعد الاستخارة، مرافقاً لبعض التجار بجواره، وكان قد آذنه بذلك قبله بأَيام، حسب اختياره، فلم يحصل الركب إلا بعد رحيله من الْبِرْكَةِ بيوم أو بعض يوم، لئلا يتبعه أحدٌ من عياله أو طلبته فيعتبه، ولو بأَدنى حالة عن عادة أو لوم، وكان للركب بوجوده جمال وافر، وأُنس بعلومه ظاهر، ولم يزل في حالة ذهابه وإِيابه، مجانباً لِلتُّرَّهات، وما يشغله في استصحابه، ولما زار قبر المصطفى ﷺ انقطع بالروضة لإِحياء تلك الليالي، واجتمع لديه عدد وافر للقراءة والذكر وللسهر في طلب المعالي، وعاد إِلى وطنه مفاضاً عليه حلل القبول، مستمدًا من حضرة سيد الشفعاء أشرف نبيٍّ ورسول، جمّل الله الإِسلام بجماله، وأدام نفع المسلمين بفوائده وفرائده ومقاله.

الشيخ الإِمام العالم العامل العلامة المعتقد المسلك، مربِّي المريدين، قدوة العلماء والصالحين، عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد بن محمد بن زرفا - بفتح الزاي المعجمة ابن موسى ابن السلطان أحمد بمدينة تلمسان، في عصر الشيخ أبي مدين ابن السلطان سعيد ابن السلطان قاشين، ابن السلطان محيي ابن السلطان زرفا، ابن السلطان زيان، ابن السلطان محمد ابن السلطان موسى، هكذا نقلت هذه النسبة من خطِّه في كتاب «الطبقات» له ثم قال بعد موسى: ورأيتُ في نسبتنا القديمة ثلاثةَ أَسماء مطموسة بينه وبين السيد محمد ابن الْحَنَفِيَّة ابن الإِمام علي بن أبي طالب، الشعراني - بالنون - نقلاً من خطه الشافعي الصوفي المسلك، مولده في سابع عَشْرَيْ شهر رمضان المعظَّم قدره، من شهور سنة ثمان وتسعين - بتقديم التاء المثنَّاة - وثمان مئة بناحية قلقشندة، من قرى القليوبية شرقي مصر، على مرحلة منها، بدار جَده لوالدته. ثم عادت به أُمُّهُ بعد أربعين يوماً من ولادته إِلى قرية أبيه، وهي المعروفة بساقية أبي شعرة، من أعمال المنوفية، فنشأ بها، وهاجر منها إِلى القاهرة المعزِّيَّة، وسنُّه اثنتا عشرة سنة فأَقام بالجامع الغمري سبع عشرة سنة، كما نقلت ذلك من خطه في «الطبقات» له عند ترجمة الشيخ أبي العباس الغمري، وذكر أَنه حفظ فيه العلم، وشرح الكتب، وسلك طريق الصوفية، ورتّب مجلس الصلاة على النبي ﷺ، في سنة ثمان عشرة وتسع مئة، ثم تحوّل من الغمري إِلى المدرسة المعروفة بأُم خوند، بخط كافور الإِخشيدي، بالقرب من مسكنه الآن، لأَن جماعة من أهل الغمري حسدوه على اجتماع الناس عليه في مجلس الصلاة، فتعصّبوا عليه، وبسطوا ألسنتهم في شأْنه، وأسمعوه غليظ القول، وتحالفوا على المصحف أن لا يحضروا معه مجلس الذكر

والصلاة على النبي ﷺ، وغير ذلك مما لا فائدة في ذكره، فلما انعزل عنهم بمدرسة أم خوند، التأم عليه جماعة يحضرون مجلسه المشتمل على الذكر والصلاة على الرسول ﷺ وكان ممن هو بجوار هذه المدرسة الأمير محيي الدين يوسف، عُرف بابن أُصيبعة لأصبع زائدة لوالده، وكان متقلداً إذْ ذلك مناصب سنية وافرة العدد، وممن هو دونه الجمال ابن الأمير المنسوب إلى شرف الدين، واقف الجامع خارج الحسينية المعروف به، ولعله من أُمراء الحسينية سابقاً، وقيل في نسبه غير ذلك. وأنَّ نسبتهم إلى الأمير شرف الدين لا أصل لها، مما الله أعلم به، وللمذكور عدة أولاد من أعيانهم شرف الدين ومحمد، فكان الأمير محيي الدين يتردد إلى المدرسة في أوقات الصلاة، ويلمُّ عليه أولاد الجمال ابن الأمير بمقتضى الجوار، وللتجوُّد به إذْ ذاك، فكان يجتمع بمجلس الشيخ ويعتقده، ويعوِّل عليه، ثم إن أولاد الأمير احتفلوا به، وذكروه في مجالسهم بسوق الجيوش، وعظموا شأْنه، فكانوا أول مَن عزره ونصره، وأَشْهروا ذكره وخبره، وكان بجوار المدرسة أيضاً أخوان مجيدان أحدهما لُقِّب بسعد الدين، وهو من أقباط مصر، وينسب إلى خدمة الأمير أزربك الناشف، أحد أمراء الجراكسة، والثاني وهو القاضي عبد القادر، أكثر مالاً ورزقاً وطِيْناً، وكان مع خِدْمة أزربك مصاهراً للقاضي شرف الدين بن الخرزي القبطي، عُرف بالصغير، وهو رأس ديوان السلطان بالقلعة المحروسة، وعمدة إقليم مصر وسائر جهاتها في الدولتين، فكان يقصد نفعه بإرساله مَسَّاحاً للطين السلطان بالإقاليم، فجمع من ذلك رزقاً عديدة اختلسها لنفسه، وكتب بها مستندات شرعية، ومَحَا عنها الرسم الأول، فلما كان الفتح العثماني السليماني، وتغيرت الأحوال وانقضت تلك الدولة، خشي عند الفحص والتفتيش أَنْ يُنْزَع ذلك الطين الذي جمعه والحالة هذه، فكان من عناية الله تعالى بالشيخ عبد الوهاب أنَّ عبد القادر الأزربكي دبَّرَ تدبيراً قصد حماية ذلك الطين به، فأعانه الله عليه، ويسّره له، وهو أنه اشترى قطعة أرضٍ مكملة الجدار على الخليج الحاكمي، تجاه الدرب الكافوري، وعمرها مدرسةً على الصفة التي هي بها، وجعل بها مَدْفَناً لم يرد الله تعالى أَنْ يُدْفَن فيه، ونقل إليها الشيخ عبد الوهاب الشعراني، وأوقف عليه تلك الحصص الطين المتفرقة، التي كان يخشى من تبعاتها عند انتباه السلطنة والدولة، للفحص عنها، فكان هذا الوقف على جهات برٍّ للشيخ عبد الوهاب وذريته، ولجميع القاطنين عنده بالمدرسة، رجالاً ونساءً وصغاراً، وكان ذلك قدراً حافلاً، ولما تم ذلك وكتب كاتيب الوقف بمضمون ما شرطه، وأشهد به على نفسه، وهرع الناس من كل أَوْبٍ من الأَقاليم وانقطعوا عند الشيخ بالزاوية، وقطنوا بها، وانتظم حينئذ مجلس

الذكر، وشاع ذكر الشيخ والمدرسة والوقف بالأَقاليم، فاجتمع عنده الجمُّ الغفير، وكثر بها القاصدون والواردون، وأقبلوا إليها من كل حَدبٍ ينسلون، من الفقراء والزَّمْنَى والعميان، والشبان والأَطفال والنساء، واشتهر الشيخ اشتهاراً تامًّا، ولحظته العيون بالوقار، وأَقبلت نحوه القلوب، وعطفت عليه الخواطر، ولو لم يكن سوى اجتماع هذه الأَعداد الوافرة على مجلس الذكر، وعلى الطعام في الصباح والمساء لكان ذلك كافياً، ودأب الشيخ في تصنيفه الكتب المتعددة في علمي الشريعة والحقيقة، واختصر بعض مؤلفات ابن عربي. «الفتوحات المكية» وغيرها، وألمَّ بالشيخ عليٍّ الخواص الأُمي البرلسي، القاطن بخط سويقة اللبن في زمنه، واشتهر بصحبته مع الشيخ أفضل الدين، المذكور قريباً، وجمع مؤلفاً كبيراً شرح فيه معاني ما التقطعه من كلام الشيخ علي الخواص وألفاظه، وسماه كتاب «الجواهر والدرر» وفيه مسائل مستغربة، وكتب على المؤلف المذكور أعيان علماء ذلك العصر كشيخنا أحمد النجار الحنبلي الفتوحي، وشيخنا شهاب الدين بن الشلبي الحنفي، والشيخ ناصر الدين الطبلاوي الشافعي، والشيخ ناصر الدين اللقاني المالكي، وغيرهم وأثنوا على المؤلِّف والمؤلَّف، وله من المؤلفات ما ذكره لي وإِملاء من لفظه كتاب «المنهج المبين، في أدلة جميع المجتهدين» وكتاب «كشف الغمة عن جميع الأمة» و«لواقح الأَنوار القدسية، في اختصار الفتوحات المكية» لابن عربي و«طهارة الجسم والفوائد من سوء الظن بالله تعالى وبالعباد» وكتاب «البحر المورود في المواثيق والعهود التصوفية» وكتاب «الميزان الخَضِرية المدخلة لجميع أقوال المتكلمين في العقائد الشرعية» ذكر أنه اجتمع بالخضر عليه السلام بسطح الجامع الغمري، وتباحث معه مليًا ورتب الأَسئلة والأَجوبة على مباحثه، ولذلك نعت الكتاب به، وكتاب «الأَنوار القدسية في بيان آداب العبودية» وكتاب «النور الفارق بين المريد الصادق وغير الصادق» وكتاب «القول المبين في بيان آداب الطالبين» وكتاب «الأَخلاق الزكية والعلوم اللَّدُنِّيَّة» وكتاب «لواقح الأَنوار القدسية في مناقب الفقهاء والصوفية» وكتاب «الجوهر المصون في علوم كتاب الله المكنون» ذكر أنه جمع فيه ثلاثة آلاف عِلم، وكتاب «الأَخلاق المتبولية المفاضة من الحضرة المحمدية» وكتاب «الأَجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية» وكتاب «منهج الصدق والتحقيق في تفليس غالب المدَّعين للطريق» وكتاب «هادي الحائرين إلى رسوم أخلاق العارفين» و«السر المرقوم فيما اختص به أهل الله من العلوم» و«فرائد القلائد في علم العقائد» وكتاب «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأَكابر» و«مفحم الأَكباد في بيان مواد الاجتهاد» وكتاب «علامات الخذلان على مَن لم يعمل بالقرآن» و«تنبيه المغترِّين أواخر القرن العاشر فيما

خالفوا فيه سلفهم الطاهر» و«قواعد الصوفية» و«القول المبين في الرد عن الشيخ محيي الدين بن عربي» وكتاب «كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان» ذكر أنَّ الجان أرسلوا إليه شخصاً منهم في صورة كَلْبٍ أصفر، يسألون منه الجواب عن نَيِّفٍ وسبعين سؤالاً في التوحيد، وقالوا: قد عجز علماء الجنِّ عن الجواب عنها، وجهّزوا له الأَسئلة في ورقة مطوية في فَم الشخص. كـ(السنبوسكه) يشبه خط الإنس، فنزل إليه ذلك الشخص في صورة الكلب، من طاق قاعته المجاورة للمدرسة، التي على الخليج الحاكمي، وكان الجواب لهم هذا المؤلف في نحو خمسين ورقة، ومن مؤلفات الشيخ كتاب «المنن والأَخلاق في بيان وجوب التحدُّث بنعمة الله على الإطلاق» ذكر فيه عن نفسه أشياء متعددة في مساق بيان نعمة الله عليه، منها أنه قال: حفظت القرآن وسنِّي سبع سنين، ونقلت عن الكتاب المذكور: ومما أنعم الله به عليَّ كشف حجابي في أوائل دخولي في طريق القوم، حتى سمعت تسبيح الجمادات والحيوانات، وذلك أنني كنت أُصَلِّي المغرب خلف الشيخ أمين الدين بن النجار، إمام جامع الغمري بالقاهرة، فانكشف الحجاب عن قلبي من صلاة المغرب إلى طلوع الشمس، فصرت أسمع كلام أهل مصر، ثم اتَّسع الأَمر إلى قرى مصر، ثم سائر الجوانب إلى البحار المحيطة، وسمعت تسبيح سَمَكِ البحر المحيط، الذي ما بعده بحر، وهو يقول: سبحان الملك الخلاّق، رب الجمادات والحيوانات والنبات والأَرزاق، سبحانَ مَنْ لا يَنْسى أحداً من خلقه، ولا يقطع برَّهُ عَمَّنْ عصاه، وذلك في سنة ثلاث وعشرين وتسع مئة. ثم إن الله رحمني وأسدل علي الحجاب، ولولا ذلك لذَهَلَ عقلي، وقال في الكتاب المذكور: ومما أنعم الله به عليَّ وتفضَّل عدم قولي بالجهة في جانب الحقِّ جَلَّ وعلا، من حين كنت صغيراً. عناية من الله عزّ وجل بي لا بعَمَل عملته، ولا بخير قَدَّمْته، ولا بسلوك الطريق على يد شَيْخٍ؛ وقد هلك في هذا الباب خلائقٌ لا يحصون، قال: وصورة ما وقع لي أنني كنت مارًّا تجاه باب سوق الكتبيين، مما يلي باب الزهومة، وعمري إِذْ ذَاكَ نحو ثلاث عشرة سنة، فتفكّرت في الله عزّ وجل، وظننت أنه فوق عرشه كما يستوي الواحد مِنَّا على سطح داره مثلاً، فصرفت الخاطر عنِّي، وقلت: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فبينما أنا واقف باهت، إِذَا بصوت في الْجوِّ أَسْمَعُهُ ولا أرى قائلاً، مع أنه من المخلوقات بيقين فإنه بصوت وحرف، يقول لي: اخرج من حيطة العرش إلى خارجه، وانظر بعقلك تَجدِ الوجودَ المحصور من العرش وما حواه من العلويات والسفليات، كَذَرَّة في الْجَوِّ، بالنسبة لما لا يتناهى ضبطه بالعقل من سائر الجوانب، فخرجت من العرش إلى خارجه، فرأيته بما حواه كالقنديل المعلّق بلا علاّقة، فإن صعد

أَبَد الآبديْن فلا يجد جسماً آخر يتعلق به، أو نزل، أبد الآبدِيْنَ لا يجد [حين] ينزل أَرْضاً يستقر عليها، فعلمت سعةَ عظمة الله تعالى، وَنزَّهْتُهُ عن القول بالجهة يقيناً من ذلك اليوم، وعلمت أَنه تعالى مُبَاينٌ لخلقه في سائر المراتب، إلى أن قالَ: وجمعت في ذلك المشهد الأَقدس بين الضِّدَّيْن، شهدت نفسي في مكانين، فإن كُنْتُ داخل العرش بيقين وكنت أرى نفسي خارجه حال كوني داخله، إذ العرشُ العظيم حاوٍ لكل ما تعقّله العقل، ومتى ما شهد العقل خارج العرش شيئاً فليس هو العرش العظيم، فبينما أنا واقف أشهد نفسي كما ذُكر، إذْ جَاءَ طائر أبيضُ طويل العنق، ففتح فاه، والتقط الوجود كله في جوفه، فصرت أرى نفسي داخلاً في بطن الطائر، وأنا خارجه، ثم جاءَتْ ناموسةٌ صغيرة فابتلعت الطائر بما حواه، وغابت عن العين، فقصصت هذه القصة على معلمي القرآن، فقال لي: يا ولدي هذه أخلاط سَوْدَاويَّةٌ فلم أَقنع بذلك، فمضيت إلى بعض العارفين فأَخبرته فقال: يا ولدي هذه عناية عظيمة من الله بك، فإنَّ هذا مقام لا يصل إليه أحدٌ إلا بالسلوك، على يد شيخ يَدُهُ طويلة، وهذا أول يَد، وظهور عظمة الله تعالى بقلبك، فاشكر الله عزّ وجل على ذلك، ثم قال: وقد وقع لي في هذه البقعة مخاطبات كثيرة، ومقدارها نحو سبعة أَذرع من سوق الكتبيين وأَنت ذاهب إلى سوق الورّاقين، ويليها من الشرق بقعة أخرى، وهي من باب جاع الفاكهانيين إلى سبعة أذرع وأَنت ذاهب إلى المدرسة الغورية، ولو أَنني كنت سلطاناً لحوَّلْتُ طريق الشارع عن هاتين البقعتين، لأُمور لا تُذكر مشافهة إلاَّ لأَهْلها، ومن ذلك اليوم ما مررت قط بهاتَيْن البقعتين إلاّ وأنا أَرْعُد من الهيبة، وصدقني على ذلك سيدي علي الخواص، وقال لي: بقي بقعة ثالثة وهي بخط جامع محمود بالقرافة، ولكن لا يدرك ذلك إلاَّ أصحاب الكشف. انتهى. ونقلت من خطه أيضاً: ومما أنعم الله عليَّ به مساعدة أصحاب النوبة في سائر أقطار الأَرض في حفظ أدراكهم من براري وبحار، ومدائن وقرى وجبال، فأَطوف بقلبي جميع أقطار الأَرض في نحو ثلاث درج، ولا تستبعد يا أخي ذلك فإنَّ القلب حكمه حكم المرآة الكبيرة، المعلّقة بين السماء والأَرض، فيرتسم فيها جميع العلويَّات والسفليات، ويصير البصر القلبي يدركها كلها على التفصيل، فالمدار على وسع قوة دائرة البصر لا غير، وامتحن أنت ذلك بمرآة صغيرة، تضعها فوق منارة عالية، فإنك إذا قابلتها بمدينة مصر كاملة تجدها كلها مرتسمة في تلك المرآة الصغيرة، فاعمل يا أخي على جَلاَءِ مِرآةِ قلبك من الصَّدَى - إلى أن قال -: وصورة طوافي كل ليلة أنني أُشِير بأَصبعي إلى أزقة المدائن والقرى، وإلى البراري والبحار، وأنا أذكر الاسم (الله الله الله) فأَبدأ بمصر العتيق، ثم بالقاهرة، ثم بقراها، حتى أصل لمدينة غَزَّة، ثم أذهب إلى

القدس، ثم إلى الشام، ثم إلى حلب، ثم إلى بلاد أهل السنة من العجم، ثم إلى بلاد التركية، ثم إلى بلاد الروم، ثم أُعَدِّي من البحر المحيط إلى بلاد المغرب، ثم إلى الإسكندرية، ثم أعطف منها إلى دمياط، ثم منها إلى أقصى بلاد الصعيد، ثم إلى أقصى بلاد العبد (؟) ثم منها إلى بلاد التكرور والسكوب والدحراج، ثم منها إلى بلاد النجاشي من الحبشة، ثم إلى بلاد الهند، ثم إلى السند ثم إلى الصين، ثم أرجع إلى بلاد اليمن ثم إلى مكة، ثم أتبع بقلبي الدرب الحجازي إلى بدرٍ ثم إلى الصفراء، ثم إلى مدينة الرسول ﷺ فأَستأْذنه وأدخل حتى أقف بين يديه ﷺ، وأسلم عليه وعلى صاحبيه، وأزور مَنْ في البقيع، ثم أقول: (دواهم فيها سبحانك اللهم، وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) وما أرجع إلى بيتي بمصر إلاّ وأنا ألهثُ من التعب، كالذي كان حاملاً جَبَلاً عظيماً ولا أعلم أحداً سبقني إلى ذلك. انتهى ما نقلته من خطه هنا ملخصاً. وقال أيضاً في الكتاب المذكور ـ أعاد الله من بركاته ـ: ومن نِعم الله عليَّ معرفتي بأَصوات الشرفاء من ذكر وأنثى، من وراء حجاب، وأُمَيِّز صوت الشريف من صوت غيره، كما أعرف كلام النبوة من المدرج فيه، وكما أعرف الكلام المزور في المكاتيب من غيره بمجرد رؤية الخط، وكما أعرف جميع ما جناه العبد من رؤية وجهه، وغير ذلك مما ذكرته في كتاب «الفراسة» وهذا الأَمر قد أعطاه الله لي تعالى من حين كنت صغيراً. هذا ما نقلته من خطه في مؤلفه المذكور. وأخبرني أن مؤلفاته تزيد على سبعين مؤلفاً ولم تزل شهرته تتزايد، ومشايخ العربان وأكابر القاهرة يترددون إليه في المدرسة الأَزرمكية، ورسائله مقبولة عندهم في الغالب عند كل مهم وقضية، واتفق من عناية الله تعالى به لما فتش على الرِّزَق السلطانية وغيرها تفتيشاً عامًّا في ولاية علي باشا الوزير الكبير في نيِّف وخمسين وتسع مئة، وكشف مدرسته وما حبس عليه وعلى مريديه بها، فظهر فساد أصول ذلك، وشهد أحمد الراشدي كاتب أوقاف الجيوش المنصورة بما يطعن في الوقف والمحصول، وعرض ذلك على الباشا، فأَمر بأَن تُجرَى في الوقف والمحصول على جاري عادته، ولا يعارض فيما بيده، وكتب عرضه إلى الباب السلطاني بما كان سبباً لإفادته فعاد الجواب بإجرائه فيه على أحسن العوائد، وأتم الفوائد، من غير منازع له في ذلك، ولا مدافع، إنعاماً من الإمام الأَعظم، واستجلاباً للدعاءِ من الموقوف عليه في مجالس الذكر وأوقات العبادات التي هي المغنم، وعطفتْ على إشاراتِ الشيخ الخواطر، ولهجت بذكر محبته ألسن مشايخ العربان والأَكابر، حتى صار الحال في الغالب لا يتولى أحد منصباً سلطانيًا إلاّ بعد أن يجتمع بالشيخ، ويأْخذ خاطره في شأْنه، وربما مَرَّ على زاويته تشريفه وموكبه، ونزل

على بابها وأوقف مَن معه خارجها، ودخل إلى الشيخ، وقبّل يده، ثم عاد إلى حاله، مستبشراً باجتماعه به، ومعتمداً على ما يصدر من ألفاظه، وانفرد في القاهرة بكثرة القبول والإقبال، وأخذ خاطره من الأكابر والأصاغر في غالب كل قَضِيَّة وولاية وحال، مع تواضعه جدًّا خصوصاً لذوي المناصب وأكابر الدولة والمتولين، ممن تردّد إليه من الأمراء والأعيان، وإقباله بكلِّيَّته عليهم إذا حضروا عنده في كل وقت وأوان، وإعراضه عمن سواهم حالة اجتماعه بهم، وربما انفرد بذاته معهم والمكان، وتبرُّعه بحمل حملاتهم، وبذل جهده في تحصيل إراداتهم، ومقصوده بذلك سرعة قبول شفاعاته لديهم، وقضاء مآرب مَن يقصدهم ويعتمد عليهم، وربما أثقلته في بعض الأوقات حملة من الحملات، فيردُّ عليه بسبب ذلك من الوارداتِ ما يأمر بسببه الفقراءِ والأطفال، والقاطنين بزاويته، بالصعود إلى سطحها والمنارة، والتضرُّع إلى الله بجليل الابتهالات، وربما رَمَى بنفسه طَرْحاً على الأعتاب متغلِّباً في ذلك الحال الذي يرد عليه، أو في طريق الباب، وربما خرج من زاويته عِشَاءً ماشياً منفرداً لِوارد أو حال ورد عليه، فلا يتبعه أَحَد من الفقراء لهيبته، ولا يومي إليه.

وحجّ مراراً متقللاً سواءً كان متلبساً بالفرض أو متنفلاً، منها: في سنة سبع وأربعين وثلاث وستين.

ولم تزل مدرسته مأوى للفقراء والمجاورين، ولهم بها الرَّاتِبُ في الغداة والعشي، من ذلك الوقف، وما يفتح الله به على تداول الأوقات والسنين، مع إحياء ليلة الاثنين والجمعة، واجتماع العدد الوافر والجم الغفير بعد صلاتها في تلك البقعة، وملازمته لإلقاء الدروس من الفقه ومن مصنفاته التصوفية على مريديه، في أوقات متعددة من غير بَحْث، إلا أَنْ حضره أحدٌ من بعض الفقهاء المترددة، وربما حُمِلت إليه الصِّلات والهباتُ من النقود والأصناف المتنوعات، فتارةً يخص بها المجاورين، وتقسَّم عليهم على كلا الحالات، وتارة يمنع من قبول ذلك بأَدْنَى الإشارات، وله في مثل ذلك وقائع معدودة، وأحوال مشاهدة ومقصودة، وقد أجمع على اعتقاده والتردد إليه وأخذ إشاراته والعمل بها الجمُّ الغفير من الأعيان المنوعة المراتب، وغيرهم من كل جليل وحقير، واجتمع عنده وانقطع لديه على سماط الله من الأعداد الوافرة رجالاً ونساءً وصغاراً، ومنهم المتزوج والمنفرد، وغالبهم على قراءة القرآن وتلاوته، يجتمع ويعتمد، ولهم من الراتب والكسوة ما هو جارٍ عليهم من ريع الوقف، ومن بعض الأكابر والمعتقدين، أعاد الله علينا وعليهم من بركات أوليائه ونفحاتهم، آمين.

ولم يزل الشيخ مُكِبًّا على العبادات والأذكار، والاشتغال بتصنيف الكتب وإلقاءِ

الدروس في مدرسته آناءَ الليل وأطرافَ النهار، وجميع أهل مصر قاطبة يلهجون بذكره، ويقصدون التبرُّك في مآربهم بنَهْيه وأمره، وكثرت منه المكاشفات والإشارات، وتردَّد إلى أعتابه أمراء الألَوية فمَن دونهم وخضع لأَوامِره أكابر الإسلام والباشات إلى أَنْ تَشَوَّقَ إلى ما عند الله، وحان قدومه على الله، فأبدى ذات يوم قلقاً واضطراباً، سببه تغيُّر أحوال الدين بإقليم مصر، وتواتر نُمُوِّ الفواحش والمنكرات، والإسفار عنها نقاباً، فقال في وقت من الأوقات ما معناه: لقد طاب الموتُ لِمَا أرى من الفساد، وسوء الحالات، فلَمْ يمضِ غير لمحة الطرف، وقد ورد عليه وارد المنية، وبدأَ به حالٌ عظيم اعتقل لسانه، وبطلتْ حركته بالكلية، فاستمرَّ طريحاً داخل داره، والأَكابر والأَصاغر واردون إلى زاويته، مستفهمون عن أخباره، إلى أن توفي بمصر عصر يوم الاثنين الثاني من شهر جمادى الأُولى عام ثلاث وسبعين وتسع مئة، ومدة تمرُّضه إحدى وعشرون يوماً، فاجتمع لوفاته الخلائق من كل أوب، وخرج نعشه من زاويته يوم الثلاثاء إلى مصلاة جامع الأَزهر، في مشهد حافل جدًّا بحيث أَنَّ الخلائق متواصلة من زاويته إلى الجامع، وممن صلّى عليه علي باشا مصر، ومَن دونه من أمراء الأَلويَة ومشايخ العربان والأعيان، وقاضي العسكر ومَن يليه من القضاة، ومشايخ العلم والفقهاء، والتجار وفقراءِ الزوايا، ولم يستطع أحد أن يدنو من نعشه لشدة الازدحام عليه، وتجاه نعشه فقراء الذِّكْر بأَعلامهم، وهم أعداد متوافرة، يذكرون نوبة، وهو بحيث أنَّ لرؤية مشهده يدهش العقول، ولا أعلم أنني رأيتُ مشهداً سابقاً لعالِم أوْ وَليٍّ كمشهده، ولا جمعاً كجمعه، وسُمِعَ علو دَوِيِّ الجنازة كصوت طبل الكوسات، أو ما يقارب ذلك، ويظهر لي أنَّ الجانَّ تبعتْ جنازته أيضاً، وأنَّ ما سمع من ذلك الصوت أَذْكَارُها في سماء الجنازة، فَصُلِّيَ عليه بالجامع الأَزهر، وحُمل نعشه من المقصورة والخلائق تصيح بالتأَسُّف على وفاته، وطيب ذكره، وعاد والخلائق على حالها في الازدحام إلى محل بُنِيَ له بجانب زاويته في حالة تمرُّضه، وفُتح له باب منها، ودُفِن في تلك الفسقية، وكانت كمل عملها في وقتِ خروج روحه. ومن غريب ما يُحكَى من إشاراته أَنَّ وَلده ذكر لوالدته في أُذُنِها سِرًّا أَنَّ الفسقية [....][1] فنطق الشيخ [....][2] لم يكن ذلك يتكلم [....][3].

الشيخ الإمام العلامة تقي الدين محمد ابن شيخنا أقضى القضاة، بقية السلف، شيخ الإسلام، شهاب الدين أحمد بن عبد العزيز بن علي بن إبراهيم الفتوحي

(١، ٣) بياض في الأصل.

الحنبلي، الشهير بابن النَّجَّار والده، فقيه الحنابلة ومدرِّسهم، ومفتيهم في عصره، وأخذ علم الفقه والأُصول عن والده، بعد حفظ كتاب «المقنِع» لعالم الحنابلة الشيخ الموفق وغيره من المتون، ولازم والده، مع الشيخ العلامة الشهاب البهوتي الحنبلي، والشيخ العلامة الشهاب أحمد المقدسي الحنبلي، ومؤلف هذا الكتاب، ونخب واشتغل، ودقّق مسائل الفقه، وقرأ على غيره في علوم متعددة، وأجاد واستفاد وأفاد، وانتهى إِليه بعد والده معرفة فقه الإِمام أحمد رضي الله عنه، وسافر إِلى الشام، فأَقام به مدة من الزمان، وعاد وقد أَلَّفْ مصنفه المشهور المنعوت بهـ«منتهى الإِرادات، في جمع المُقْنع مع التنقيح وزيادات»، حرر مسائله على الراجح من المذهب، فاشتغل به عامة طلبة الحنابلة في عصره، واقتصروا عليه، وقُرِىءَ على والده مَرَّات بحضرته فأَثنى على المؤلف، ثم أَشَرْت عَليهِ بشرحه، فكتب عليه شرحاً مفيداً في ثلاث مجلدات، أحسن فيه ما شاء، ورسمته بعد وفاته بـ«منهل الإِفادات»، وأَلَّفَ مختصراً في الأُصول وشرحه، ومؤلفاً في علم الحديث، وناب عن والده في وظيفة أقضى القضاة، حين توجه صحبة السلطان الغوري إِلى مَرْجِ دَابق، إِلى أن عاد، وانفردَ بعد والده بالإِفتاء والتدريس بالأَقطار المصرية، ثم بعد وفاة شيخنا الشهاب الشُّوَيْكِي بالمدينة المنورة، وتلميذه العلامة الشيخ موسى الحجَّاوي بالشام، انفرد فيما أعلم، في سائر أقطار الأَرض، وقصِدَ بالأَسئلة من البلاد الشاسعة كاليمن وغيره، وتَصَدَّى لنفع المسلمين، بالمدرسة الصالحية، بخط بين القصرين، فكان سكنه بخلوة الحنابلة، وكانت أيامُه جميعاً اشتغالاً بالفتيا، أو بالتدريس أو بالتصنيف، مع جلوسه في إِيوان الحنابلة للقضاء، وفَصْل الأَحكام، نيابةً، وربما لمْته على ذلك، فيعتذر لديَّ بفقره وكثرة العائلة، وحَجَّ قبل بلوغه صحبة والدته، وجاور بمكة، ثم حجَّ لقضاء الفرض في عام خمس وخمسين على غاية من التقشُّف والتقلُّل من زِينة الدنيا، وعاد مُكبًّا على ما هو بصدده من الفتيا والتدريس، لانفراده بذلك، وبالجملة فلم يكن مَن يُضَاهيه في مذهبه، ولا مَن يُماثله في منصبه، وكان قلمه أحسن من لفظه، وله في تحرير الفتاوى اليد الطُّوْلى، والكتابة المقبولة على الوجه الصحيح الأَوْلَى، وكان رَبْعُ فوائده بفضائله وفواضله مأهولاً، ولطال ما سمعت بقراءته على والده كتباً جليلة عديدة، مدة سنوات مديدة، منها «المقنع» للشيخ الموفق ابن قدامة و«المحرر» للمجد بن تيمية، وسمعت أنا وإِياه والشهاب أحمد المقدسي غالب كتاب «الفروع» للعلامة ابن مفلح، بقراءة الشهاب البهوتي، مع الملازمة بمنزل والده بحارة برجوان، وبدروس المدارس وغير ذلك من كتب الفقه والأُصول وآلات ذلك، ولم يزل مُكبًّا

بعد والده على تقرير مذهب الإمام أحمد، وتحريره على الوجه الأَنبل الأَحمد، إلى أن تمرّض خمسة عشر يوماً بمرض الزحِيْر، وكانت وفاته عصر يوم الجمعة الثامن عشر من شهر صفر الخير عام اثنين وسبعين وتسع مئة، وتأَسَّفَ عامة الناس والفقهاء على وفاته، وأكثروا من الترحُّم عليه، ولم يُخَلِّفْ بعده مثله في مذهبه، وخرج نعشه من المدرسة الصالحية يوم السبت تاسع عشر، وصَلَّى عليه ولده موفق الدين بالجامع الأَزهر، ودفن بتربة المجاورين، بجوار قبر العلامة الشمس العلقمي الشافعي بوصية منه قريباً من قبر الحافظ عبد الرحيم العراقي، صاحب «الأَلفية» في مصطلح الحديث، وكان قبل وفاته نزل عن تدريس المدارس لولده موفق الدين، وأجازه بالفتيا والتدريس، وأجلسه بالجامع الأَزهر لإِفادة الطلبة، وقليل ما هو، وكذلك لابنه الشيخ ولي الدين، فاستمرًا على ذلك بعد وفاته، ثم سأَل قاضي مصر حالة مرضه بمكاتبة أن يفوض لولده الكبير المدعو ولي الدين قضاء الصالحية، فأَجابه إلى ذلك، ثم عزل بأَخيه موفق الدين بعد أيام يسيرة، ثم عزل موفق الدين بعمه القاضي عبد الرحمٰن الحنبلي بعد مدة ولهما أخ ثالث بالغ، لم تنبت لحيته، هو أصغرهم، تغمّد الله والدهم برحمته، وقلت أَرْثيه يوم وفاته:

أَضْحى الوُجُودُ بِأَسْرِهِ مَحْزونَا ... لَـمَّا ثَوَى الشَّيْخ الإِمَامُ دَفِينا
فقِدَ التَّقِيُّ الْحَنبَلِيُّ وَقَدْ غَدا ... بِمُصَابِهِ ٱلإِسْلاَمُ يَلْطمُ عيْنَا
واغْبَرَّ وَجْهُ الْحَقِّ يَوْمَ وَفَاتِهِ ... وَالدِّيْنُ مصدوع يطيل غبونا
وَغَدَتْ رُبُوعُ الْفِقْه وَهْيَ دَوَارِسٌ ... وَمَجَالِسُ التَّدْرِيْسِ تَنْدُبُ حِينا
يا قَبْرَهُ مَا أَنْتَ إِلاَّ رَوْضَةٌ ... حَازَتْ إِمَاماً زاكياً وفنونا
قَدْ ضَمَّ هذَا اللَّحْدُ نُوْراً بَاهِراً ... وعُلُومَ فِقْه حُرِّرتْ وسكونا
فَسَقَى الإِلهُ عهادَهُ صَوْبَ الرِّضَا ... وَأَثَابَه عَفْواً وَعِلِّيِّينَا

الصدر الكبير، الرئيس محمد زين الدين أبو الجود بن شهاب الدين أحمد بن علي خولي السواقي السلطانية، ومن أعيان متفرقة العساكر العثمانية، وما مع ذلك من المناصب العلية، إنما اشتهر بالسواقي، وإِن كانتْ رتبته في الدولة أبعد غاية، وأجل بداية ونهاية، لأَن والده شهاب وعمه جمال الدين كانا مَخْصُوْصَيْنِ بهذه الْمَزِيَّة، ولا يتميزان إلا بها بين البريَّة، وأما المذكور فهو جليل تصدّر للرئاسة، فَأَلْقَتْ إِليه بمقاليدها، وخطب معاني المكارم ومحاسن الأَخلاق، فأَجابته خاضعة ولم تصلح إلا له، ولم يصلح إِلاَّ لها، وطلب لبنات الأَفكار صواب الرَّأي فكان طوع أمره مع النَّباهة

فلا يقال (شهى ولا لهى). وأسّس بنيانه على التقوى من أول يوم، وكان بالعناية الربَّانِيَّة مُؤَيَّداً، واشرَأَبَّتْ إلى سُؤْدُدِهِ أعناقُ ذوي الحسد، فَوَقاه الله سيئاتِ ما مكروا، وأَمَّنَهُ من كل سوء، ورَدَى.

نشأَ صاحب هذه الترجمة في باكورة عمره مُجانِباً لوالده وعمه، فيما كانا يُعانيانِ من ذلك، مُتَجَرِّداً عن سلوكه معهما تلك المسالك، لأَنهما كانا [....][1] تابعين، وكان على عُلُوِّ همته وبُعْد طريقته، وجليل [....][2] يسامي البدور، فلم [....][3] حال عدل ولا جور، لعدم خروجهما عن ذلك الطور، فلما تُوُفِّيَ عمه جمال الدين وطعن والده في السن [....][4] يلن أبداً حينئذ ما عنده من كوامن المحامد وبدائع [....][5] وتصدى إلى ما كان والده يباشره من [....][6] الطريف منها، والتالد [....][7] كمد كل عدو وحاسد، و[....][8] آثار همته العالية، وروى الحجيج [....][9] سقى نخل وعجرود بكل قربة وراوية، ونظر مهمات السواقي السلطانية بطريقة سديدة بهية [....][10] الحجيج من منهلَيْ نخل وعجرود، فأَتى من ذلك بما هو المقصود والمعهود، ويتوجه صحبة الركب من القاهرة [....][11] العدد الوافر من الجِمال المثقلة بأَنواع المأْكولات، وللمنقطع، وما عسى أن يراه مطروحاً للوفد من [....][12] ويباشر ذلك على غاية من الألطاف، ممدًّا للفقراء والمشاة بالاتحاف والإِسعاف، مع البشاشة إِلى النهاية، وبذل المعروف وطلاقة الوجه إِلى ما لا نهاية، فيرد ركب الحجيج المنهلين وهو مغمور بما عَمَّهُ به من الماء والزاد والعليق في تلك الطريق، واستمرار عموم الوفود بالري الكامل الشامل في كل سنة، واتباعه لكل طريقة سديدة حسنة، ومحمدة يحسن أثرها معنعنة، وإِذا عاد من نخل إِلى القاهرة رجع بالمنقطع والعَيَّان والمريض والعاجز، ووافاهم منه ما يقوم بأَودهم من كل خير ناجز ومعاملين بغاية الكفاية، مغمورين بجليل الرعاية، ويدخلون إِلى القاهرة، وألسنتهم رطبة بالدعاء والثناء من شيمه العاطرة، لم يحصل لفرد من أفرادهم أدنى ضرر ولا شر ولا كدر. وأما عند الإِياب فيرحل من القاهرة مستعدًّا لملاقاتي بوافر ما يحمله من المآكل الطيبات وما يعمل من السكر وأصناف الحلاوات، ومن أنواع البطيخ والفواكه المتنوعات، ومن الدجاج وبيضه والأَغنام، ما يحصل للوفد به غاية الإِكرام، فيعم بذلك بعد الري الغني والفقير والجليل والحقير، مقصداً جميلاً وتأسيساً جليلاً، مع مساعدتهم بالجمال الفرغ لحمل أثقالهم، وبذل العليق والزاد لكل

(١ ـ ١٢) بياض في الأصل.

محتاج حسب أحوالهم، وربما غمر بعض أمراء الركب بذلك بما احتاجه وأغناه عن طلب ما لا يقدر على وجوده إذ ذاك [. . . .][١] فلم يدرك شأْوَهُ أحد من أسلافه ولم يرَ في إتلافه للمعروف والمحتاج كإتلافه.

وله من العوائد على المنهلين من مال مقاطعة أمراء [. . . .][٢] السلطانية ستة من التشاريف المذهبة السنية، من أعلاها وأغلاها، منها من النوع المسمى [. . . .][٣] المبطّن بالمخمل، واحد تارة، واثنتان أخرى، وبقية ذلك البدد (؟) من الشمطة المذهّبة الغالية، على تعاقب السنين المتالية، وتارة يخص ولده بتشريف جليل، غير ما ذكر من التفصيل، وله من خاص الجوخ المخيوط أربعاً وأربعين ومن الملاليط عشرة، ويزيدون، ومن السكر والحلوى من قنطارين كل نوعٍ إلى ما دونه مع بذل [. . . .][٤] وأما العاص (؟) عليه من باشات الزمان المصرية بأعداد من التغاطي العالية المذهب [. . . .][٥] السواقي السلطانية بالسويس والقلعة ومصر القديمة والرملة وغيرهم [. . . .][٦] بطريقة [. . . .][٧] وكذلك [. . . .][٨] في أمر البساتين، وجماعة الغيطانية، إذْ مقاصده الجليلة أهم من هذه القضية، وأما اعتناؤه ببذل الطعام، وإكرام الواردين من الضيوف وغيرهم في كل مقام فقد انفرد بذلك في هذا الزمان، خصوصاً الأَعيان الأَكابر وأماثل الأَعيان، فلم تزل ساحته منهلاً للواردين والقاصدين، وسبيلاً لا يمتنع في كل وقت وحين، مغمور ذلك المورد في البكور والعشي بمحاسن الأَطعمة المتنوعة لعامة الوافدين، مع إغداقه على مشايخ بني عَطِيَّة وغيرهم من مشايخ العربان، ومَلْءِ عيابهم بالكسوة والزاد، وما هو مقصد لهم في كل أوان، فنمى ذكره، وبعد صيته، وقُصِدَ من كل أَوْب وناحية، لاشتهاره بمكارم الأَخلاق، واستمر بابه مورداً للقاصدين من الآفاق، وتردَّدَتْ إلى ساحته ليْلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً أكابر العلماء، وأُمراء الأَلوية، والفقهاء والقضاة، وأعيان الكتاب، وأماثل الأَعيان والكُشَّاف، وذوي الهيآت والأَسنان، فيغدق عليهم من ألطافه، وينوّع لهم من محاسن إتْحَافه، في صحافه مفاخر المأكولات في الأَصحن الهائلات، مع الكثرة العديدة في الأَعداد عن المأْلوفات، وأتذكر ورودي عليه مساءً، ولم يكن عنده في تلك الليلة إلا فئة قليلة، فعددت ما وضع بالسماط من الأَواني نَيِّفاً وثمانين، وذلك غَيْر الموضوع خارجه إذْ لم يكن في ذلك الوقت مَن يفي بذلك من الآكلين. وأخبرت من الثقة أنَّ راتبه من الخبز القرصة في كل يوم ما يعمل من ست عشرة بطة، مع ضيق معايش أهل مصر

(١ ـ ٨) بياض في الأصل.

وسكانها في هذا الزمن، وموالاة ما هو وارد على الإقليم من الغلاء والقحط والمحن، وأمَّا ما يُمَدُّ بساحته لمَن هو دون تلك الرتبة، ومَن هو من عامة الواردين دون ذوي الصحبة، فيغمرهم بالأَطعمة المتنوعة فئة بعد فئة، ويزيدون وينقصون، فتارة مئتان، وأكثر من ذلك إلى ست مئة ويزيدون، وربما جلس لإطعامهم بنفسه وقت العشاء، من قبل المغرب إلى وقت صلاة العشاء، فيباشر ذلك بمعرفته، ويغمرهم بتكرمته، مع بشاشة الوجه، وطلاقة اللسان، والحث على خدمته في حسن التأْدية والإحسان، ثم بعد ذلك يأْخذ في مسامرة مَن يبيت عنده من أعيان عصره، وأماثل مصره، فيلقي إلى فاضلهم مفتاح خزانة كتبه المتنوعة الفنون، وينبسط مع عامتهم بما تنشرح به الصدور وتقر العيون، ثم يحضر الطاري (؟) المحفوف بأَنواع اللطائف، وأصناف ما يعمل من الكنائف والقطائف، مع حسن التنويع بالفواكه وأصناف ما يعمل من السكر المكرر، والبطيخ الصيفي، المصنّع من لبة المنجر (؟) المطروح فيه من الفستق المقشَّر، والماورد الْمُمَسَّك المعطَّر، ومن الجبن الأَخضر المقلي في وقته، والموز الأَصفر، ومن أنواع الخواضر، وأصناف ما تُبسط له النفس، وتنشرح له الخواطر، مع سعة الصحون، وتنوُّع الفنون، والمباسطة مع كل منهم، حسب مقامه، والتأَنس بعامتهم، واتحافه من يده وكلامه، وافتقاده خدمتهم ليْلاً، وعمومهم فَضْلاً وطَوْلاً. ولما علم الله جميل نيته أعانه على ما هو بصدده، وأمدَّهُ بعنايته وإِسعافه في دهره، وأبده، ولم يلبث والده أن توفي فأَحسن جهازه، وأظهر في مواراته بِرَّهُ وإِعْزَازه، وحُمِل مُكَرَّماً إلى مقام السيد الجليل، والصحابي الأَكمل النبيل، عقبة بن عامر الجهنِي فواراه في ظاهر مزاره، وجانب حائط استقراره، وعمر ثَمَّ تِرْبَةً جليلة كريمة في تلك البقعة، المشرفة بحلول تلك البضعة، ولم يزل مؤيَّداً بالعناية الربانية محفوفاً بالجميل [....][1] كاملاً (؟) للعز والمحامد، قامعاً لكل معاند ومراصد، عاملاً بتقي الله ورضوانه في كل حالة [....][2] إليه جاعلاً عليه آماله، فما نابذه منابذ إلا وخُصِم، ولا تعرّض له متعرض إلا وقصم، قد ألقى إليه [....][3] زمامه، وانقاد لخاطره فكان في كل استشارة أمامه، وصار مرجعاً للاستشارة في حوادث المـ[....][4] مشاراً إليه فيما يصدره من [....][5] عند كلِّ مهم وقضية، ولم يزل يغرس أشجار المعروف في [....][6] جليل الثناء من كل صادر ووارد، مترقياً لدى باشاه الديار المصرية ماجداً بعد ماجد [....][7] ونظار أموالها وأمراء ألويتها، وأكابر أعيانها فلم

(١ ـ ٧) بياض في الأصل.

يدع فرداً من أفرادهم إلا [. . . .][1] من محاسن بره واحتفالاته، قد أجمع أهل عصره على انفراده بذلك في مصره و[. . . .][2] ألسنتهم بمزايا حمده وشكره، وبغّض إليه جمع الحطام وارتكاب الآثام، فلم تُعلم له هفوة، ولم [. . . .][3] بزلة أو صبوة، وما يمنحه الله له من متحصل الزراعات المتنوعة، وما [. . . .][4] من الممنوح والرواتب المتجمعة يكون مبذولاً جميعه لجهات البر واكتساب المحامد، ولصنائع المعروف، وبذل النداء لأَهل الدولة وذوي المراتب والوقوف، وله الراتب الجليل من الخبز القرصة لفقراء الجامع الأَزهر، والافتقادات لأَهل الزوايا وأهل الربُط، ومَن له شهرة من مشايخ الصوفية تذكر، وغالب أوقاته بمنزلة مشغول بتنفيذ الرسائل المجهزة إليه من الأَكابر والأَصاغر، وإرساله لكل ما طُلِب من أيِّ صنف كان على مقتضى الخاطر، وأَتَذَكَّرُ أنِّي وردتُ عليه وقتاً من الأوقات، فلم يَمْضِ مقدار لمحة من الطرف في ذلك المجلس، إلا وأوراق المطلوبات واردات، إما لصنف غلال أو أَحْطاب أو أَتْبان، أو ربيع بهائم، حتى الخوازيق والسلب لرباط خيولهم، فيأْمر جماعته بدفع المطلوب، على الوجه المختار المحبوب، وبذلك رسخ قدمه في السيادة، وأمضيت شفاعاته ومطلوباته على أكمل عادة، ورمقت إليه باشاه مصر ومَن دونهم بالأَبصار، وكان قدره لديهم في أَجَلِّ رُتْبَة واعتبار، ومرجعاً يلوذون به عند الاستشارة في المهمات والأَعمال الكبار، وفي إنشاءات الدور وأمور العمارة، والعمل بما يقتضيه رَأْيُه وتَصَرُّفُه بأَدْنَى إشارة، لما صَحَّ لديهم من معقوله، وثبت من اختباراتهم له في جميع مقوله، ورُقِم اسمه بالديوان السلطانيِّ من الأُمراء المتفرقة بأَربعة وعشرين عثمانيًا في كل يوم مغدوقة موثقة ولعمري أنه في زمننا من أفراد الدهر وعديم النظير، ومن محاسن الزمان الذي جاد به على أهله بعد البخل والتقتير.

ومَن تكن هذه أوصاف سؤدده	تجب مدائحه في السِّرِّ والعلن
فَاحْثُثْ لأَبوابه العليا بنات ثرى (؟)	في البر بالْعِيْسِ أو في البحر بالسفن
فاسعد برؤيته وابشر بطلعته	وامْلأْ جفونَك بَعْد السُّهْدِ بِالْوَسَن

فلو سُئِلَتْ عنه أَلْسنُ الأَيام، لقال خطيبها على منابر [. . . .][5] يتلو على الأَنام، ويعرض سجاياه الحميدة بمحاسن المقالات في كل مقام.

مَنَاقِبُ لَوْ أَنَّ اللَّيَالي تَوَشَّحَتْ ... بِأَذْيَالِهَا لاَبْيَضَّ مِنْهَا الَّذِي اسْوَدَّا

(١ ـ ٥) بياض في الأصل.

حجّ في عام ثلاثين وتسع مئة، في ولاية جانم الحمزاوي، وفي عام ست وثلاثين في ولاية ولده يوسف، ولم يزل على اهتماماته العلية في مناهل الحجيج لكل سنة، وبَذْلِ تكرماته وأعطياته المعنعنة على عربان الدرك لتسهيل الطرق، وحفظ مياه المناهل، وانقيادهم لطاعته ومنع فسادهم بطَلِّهِ والوابل، فأَكابرهم بمعونة الله طوع أمره، وما يَبْذُو منهم من المفاسد معادٌ (؟) على يده في سهل الأَمر ووعره، ولم تزل السلطنة الشريفة تستعين بسياسته لهم في كل جائحة بالرعية، وتؤكد على همّته العلية في كل ملمّة وقضية، فيقوم بأَعباء تلك الغريمة ويتلطّف في عودها من أهل الفساد بفكرة صحيحة سليمة، ورُبما توجه إِليهم لتلك المصحة إِلى أقصى البلاد الشامية، وبذل من ماله القدر الوافر وعاد، على أَتَمّ حالة مرضية.

وأمَّا رفقه بفقراء الوفد، واهتماماته في معونتهم في كل رفد، وحمل الأَعداد الوافرة من المنقطع منهم على جِماله، ودخولهم بعد الوفد إِلى القاهرة زمن البرد بالكسوة الساترة من ماله، فلم تزل أحوال الحجيج بمناهله منتظمة، وأمورهم بوافر سقايته ومزايا برّه منسجمة، كم نهل الوافدون من مناهله، فَعَمّهم بالرواءِ التام، وكم أَلَمَّ به ذوو المجاعات، فملأَ حقائِبَهُمْ بالزاد المنوع الصفات، وكم خال معدم أَوى إِلى ساحته فعمّه بوابل الفتوح، وكم أَحْيَا مَيِّتَ الانقطاع بالفقر في ذلك القفر، فتجدّدت فيه الروح، وكم عيان قد أهدر قدمه ونفسه فأَخذ بيده وأركبه، وكم وَالى بأَعطياته لكل معدم في كل منزلة، قد تطابقت الأَلسن على محاسن شيمه ومكارم أخلاقه، وتداولت أقدام الواردين على بابه و(وطاقه) وبثَّ نائله مع البشاشة لكل وافد إِليه باستحقاقه. فضراعةً إِليك اللهم أن تمنحه من عطاياك الوافرة غاية مَأْمُوله، وتفسح في مُدَّتهِ لنفع العباد بمكارم أخلاقه وطوله.

* * *

ذكر بعض مَن تكرر حجه من أَهل الخير والصلاح

فمن ذلك: أَحمد الورَّاق، نزيل الجامع الواسطي، ببولاق، وأَحد المعتقدين، كان يحج في كل سنة، والفتوحات ترد عليه، وحُكي عنه أَنَّ بعضهم سأَله الدعاء وهو جالس بالروضة النبوية فقال له: يا قليل العقل أَفي هذا المحل وأَنت عند سيد المرسلين؟ مات في المحرم سنة سبع وخمسين وثمان مئة ودفن بالجامع.

سعد بن عبد الله الحبشيُّ عتيق الطواشي بشير الجمدار، اعتنى به سيِّدُهُ وعَلَمه

القرآن، ورتبه في وظائف، واستمر بعد سيده على طريقة حسنة، وتزيَّا بزيِّ الفقهاء، وكان مُحِبًّا في السنة وأَهلها، جميل العشرة كثير الحج، يقال: إِنه حجّ ستين حجة، ومن أَعجب ما كان يحكيه أَنه شاهد بَعْضَ الغلمان باعَ ما حصل له مِنْ سماط السلطان بأَربعة دراهم فكان فيها ربع قنطار من اللحم، وستة أَرطال حلوى، خارجاً عمَّا عداه، توفي في سنة خمس عشرة وثمان مئة، ذكره الشهاب ابن حجر والشمس للسخاوي.

الشيخ الصالح الناسك المبارك المعتقد، محمد الجوخي، كان عبداً للّه صالحاً، واظب على الحج ماشياً سنين عديدة، متجرِّداً متقلِّلاً من الدنيا جدًّا، منقطعاً إِلى الله تعالى، وكان في غالب أَحواله أَراه في الدرب منفرداً، يمشي مع ركب الدُّلَلاَءِ، لا يجتمع على أَحد من خلق الله تعالى، ولا يسأَل إِلا الله، وكان بعد تعيين (السحابة السلطانية) وإِنشائها للفقراءِ بالدرب الشريف، يأْخذ قوته منها أُسْوَةَ الفقراءِ، ولازم على ذلك إِلى أَن كبر سنه، وضعفت قوته، وكان مصطفى باشا النشَّار يعتد بركته جدًّا، ويعقبه على جِمال (السحابة)، أَحياناً، ثم وهبه جملاً كبيراً من جِماله، والتزم له بعليقه في كل سنة، وكان يحجُّ عليه إِلى أَن انقطع عن الحج قبل وفاته بيسير، لعجزه عن الحركة فلازم الإِقامة بسطح الجامع الحاكمي، إِلى أَن توفي في سنة ثلاث وستين وتسع مئة رحمه الله تعالى، فلقد كان عبداً صالحاً وكان يُلِمُّ بِي كثيراً وبوالدي من قَبلي، ويحب أن أنفرد بما عساه أن يحتاج إِليه من ضروراته، دون أَهل الركب، وكان أُمِّيًّا، ويحفظ من إِشارات القوم وكلماتهم وحكاياتهم، ويستحضر من ذلك قدراً وافراً، واجتمع على شيخنا أَبي العباس الحريثي، وعلى الشيخ عبد الوهاب الشعراني، وأَخيه أَفضل الدين وغيرهم، وخلف ولداً سفيهاً صناعته النِّجارة، ويريد أَن يكون على قدم والده في الحج، وأَن الناس يُقبلون عليه كوالده، افتئاتاً من غير اتباع لما كان عليه والده من الدين والفقه وحسن الأَخلاق بل ربما افْتَرَى على بعض أَصحاب والده بالسَّبِّ والفحش، وعلى غيرهم ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

الشيخ المبارك المعتقد، حسين الشربيني، كان عبداً صالحاً على قدم التجريد وعلى الملازمة، وكان يعمم رأْسه بخرق، يجمعها ويربطها بحبال اللِّيف، حَجَّ نَيِّفاً وأَربعين حجّة متوالية، وكان فقيراً يغلب عليه الجذْب، وله على ديوان الحاج في كل سنة راتب عليقة لجمله، وجراية من البقسماط لمأْكوله، فإِذَا وَافى إِلى برْكَة الحاج، وطلب ذلك الراتب وقيل: لاَ بُدَّ من مشاورة أَمير الحاج القادم جديداً ليأْذن في

الإِعطاء، حصلتْ له حالة شَطْح في كلامه من غير اختيار منه وربما قال: أَنا لست مسافراً باختياري ـ أَو ما هذا معناه ـ ولم يزل مواظباً على الحج إِلى أَن انقطع لعجزه وضعف حركته، قريباً من الستين وتسع مئة، نفع الله ببركته.

الشيخ الصالح المعتقد، عمر الأَبُوصِيْري، لم يزلْ يحج في كل سنة متجرداً من الدنيا وأَحوالها، متصفاً بالزهد، ويصحب معه في كل سنة حِمْلَ جَمَلٍ من البقسماط، يفرقه على الفقراء والمحتاجين بمكة المشرفة والمدينة المنورة، زمن الحج، وشأْنه الْبُعْدُ عن الناس، وعدم الركون إِلى أَحَد من خلق الله تعالى، وكان يلبس الصوف على جسده دائماً ويغطي رأْسه بقطعة من الخيش الكنبار، يَخِيطها، ويسبل منها قطعة على عنقه وتارة يجعلها في الأَسفار على جبهته، تساعده في وقاية حَرِّ الشمس مع ملازمة الحج في كل عام، وأَخبرني أَنه لم يتزوج قطُّ، وكان لي به صحبة وأُنس، وله عليَّ ترداذٌ، سفراً وحضراً، ولم يَزَلْ على ذلك إِلى أَن توفي في شهر جمادى الأُولى سنة ثمان وستين وتسع مئة ببعض قرى مصر، وحمل ميتاً إِلى بلدته أَبو صير، فدُفن بها في مشهد بُني له وقبة أَمر بإِنشائه إِبراهيم بن المهمندار، الناظر على أَموال مصر إِذ ذلك، وجعل على قبره صندوقاً وسِتْراً طِيف به شوارع القاهرة يُزَفُّ بالمزاهر على عادة المشايخ، تغمّده الله برحمته ونفعنا ببركته.

الشيخ محمد أَبو جَريدة، عُرف بنخال، وكان يُلقب بذلك، كان يُبَشِّرُ بوصول الدور، بطريق الحجاز، تلقى ذلك عن والده، وحجّ نَيِّفاً وأَربعين حجة، وكُنِّي بأَبي جريدة لعصاة له، ورثها من أَبيه، كانا يَصْعَدَان بها على رؤوس الجبال العالية الشامخة، وفي المفاوز ويشيران بها للركب يميناً ويساراً، وهما يلهجان بقولهما: يا دائم. وكلاماً كثيراً مختصر معناه: أَن العابر بهذه البرية والمفازة مفقود، والخارج منها مولود، أَي في حكم الحالتين، وكان شعاره لباس الصوف حتى العمامة، ولم يزل على ذلك متردداً في هذه الخدمة مدة حياته إِلى قريب من ستين وتسع مئة.

الشيخ علي أَبو حلاوة، مبشّر الدار، كان على سيما أَهل الصلاح مكشوف الرأْس، يربي شعر رأْسه، وشعاره لبس الصوف، وكان حسن الصوت، يسمع من مسافة بعيدة، وكان به أُنسٌ في الركب، لطوافه على أَهل الركب ليلاً خصوصاً في الإِقامات والمناهل، وله محفوظات مناسبة التلاوة، ينبّه بذكرها النائم، ويذكُرُ الغافل، وربما قصد بعض أَعيان الركب بذلك، حجَّ نَيِّفاً وعشرين حجة متوالية، وتوجه إِلى المملكة الرومية فقرر له شيء من الجوالي، وهو في كل يوم ثلاثة أَنصاف، ولم يزلْ على وظيفته متردداً إِلى الحرمين مُبَشِّراً بالدور والمنازل، في تلك (؟) الطريقين، إِلى

أَن أَدركه أَجله، واخترمته المنية في نَيِّفٍ وخمسين وتسع مئة، وخلفه من بعده ولداه هما عبد المجيد وحسن، وسارَا بسيرته في البشارَة، مع حسن الصوت والطريقة المختارة، وصرف لهما ما كان مقرراً لوالدهما من المرتب بديوان إِمرة الحاج، وهما على ذلك إِلى آنِنَا هذا ـ منح الله لنا ولهما حسن القبول والمثوبة من لَدُنْهُ آمين ـ.

الشيخ ناصر الدين محمد بن محمد بن فخر الدين المليجي، أَبو شُوشة المُبَشِّر، كان شابًا صالحاً، تردّد على الدرب سنين عديدة، في بشارة الدار، مواظباً على عبادة الله تعالى، واتباع مرضاته، وكان على قدم (؟) ويَتَسَتَّرُ بصحبة الأَروام وكثرة المزح سامحه الله تعالى، والعبث به وكثيراً ما يقال له: يا علق العبد، وغير ذلك من الأَلفاظ القبيحة، فلا يتغير من ذلك، بل ينبسط معهم، ويظهر السرور يشتمهم له، وكان الشيخ علي أَبو حلاوة يغارُ منه كثيراً، ويتغير من اتِّباعه له في بشارة الدار، ويقع بينهما مخاصمات على ذلك، فلا يلتفت إِلى قوله، مع إِقبال الحجاج على الشيخ ناصر الدين، خصوصاً طائفة العسكر، وذكرهم له بالخير، والمواظبة على أَداءِ الفرض في تلك المفاوز، واستمر يواصل السفر إِلى الحرمين مُبَشِّراً إِلى أَن تَوَعَّك يسيراً عند دخول الركب إِلى طيبة الطيبة، ودام به ذلك مدة الإِقامة بها فلما رحل الركب منها أَراد التوجه صحبة الحاج، فلحظته العناية الربانية، وتبع الركب إِلى آبار عليٍّ، وأَوصى بعض معارفه أَن يبلغ أَخاه رسالته، ووصيته بما هو له مودع بالقاهرة في المدرسة التي بخط ميدان الغلة، إِنشاء الخواجا أَبي بكر المشمولة بنظر شيخنا الشيخ شهاب الدين أَحمد بن حمزة الرملي الشافعي، فإِنها كانت موطنه بالقاهرة، وعاد إِلى الحضرة المصطفوية، بالمدينة الشريفة الزكية، فتوفي بها من ذلك المرض، ودُفن ببَقِيع الغَرْقد، طيّب الله تعالى ثراه.

إِبراهيم الْمُبَيِّتُ: تردَّدَ في هذا الدرب سنين عديدة، وهو آخر مَن أَدركناه من المُبَيِّتِيْنَ الذين كانت لهم الطريقة الحسنة، وللحاج بهم أنسٌ، وللمنازل والمناهل بهم بهجة، وكان المذكور على طريقة تَبعَ بها مَنْ تقدَّمَهُ، وهو أَنه كان لا يغفل عن أَحوال الركب، ففي المضائق والطرقات، يمشي مع أَمير الركب إِمَّا لإِجهار نداءٍ بمصلحة من مصالح الحجيج، أَوْ لإِعْلام أَهل الركب ما أَمرهم أَميرهم أَو نهى عنه، وذلك دَأْبُهُ عند كل رحيل ونزول، وأَمَّا وقت كل عشية فإِمَّا أَنْ يطوف مع (الدوادار) أَو العسس للإِعلام بأَحوال تلك الدار، وتَيَقُّظ أَهل الركب لذلك، ويستمر مع الطوف إِلى نهايته على ذلك، ويطوف وحده ذاكراً من رقيق الأَشعار ما يناسب، ويمر على سائر الخيام مستصحباً (؟) من رقيق الشعر وبديع الكلام ما يذكر به الغافل وينبّه به النائم، وله خطب يذكرها تجاه

صِيْوان أمير الحاج، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي في نيِّف وأَربعين وتسع مئة، وخلفه من بعده تبعٌ له كان يدعى بخضير، وكان يبيع جُمارَ النخل بالقاهرة، وله صوت رقيق دون إبراهيم، وكان إبراهيم يغضُّ منه، واستقر عوضه بعد وفاته مدة سنوات، وتوفي بطريق المدينة المنورة بالرجعة عشية، فدُفن بالحمراء، تغمده الله برحمته، ثم كان من بعده محمد اللبان، حكم المرافقين (؟) وحسنت طريقته في ذلك، واستمرَّ على ذلك إلى أَن توفي بمغارة نَبْط، بدار أَمير الحاج، في عام أَربع وستين وتسع مئة، ودُفن تجاه مخيم أَمير الحاج، وقبره هناك ظاهر، آنس الله وحشته، وانقطع لموته التَّبْييتُ، وتلاشَى هذا الباب كغيره، وإلى الله ترجع الأُمور.

الشيخ الصالح سعود الدَّلاَّل بسوق النُّحَاس بَيْنَ القصرين، لم يزل متردداً مواظباً على الحج إلى بيت الله الحرام، ماشياً متجرداً من الدنيا، صحبة الركب، فقيراً إلى الله تعالى، منقطعاً عن عبادِهِ إليه، مواظباً على ما كان عليه الشيخ محمد الجوخي قبله، وغالبُ سيره مع الدُّلَلاَءِ أَول الركب، واتفق له في سنة أَربع وستين في ولاية خضر بن عبد الله الرومي لإمرة الحاج، أَن اشتهتْ نفسه أَنْ يأْكلَ من مَرَق طعام أَمير الحاج، الذي يطبخه بالمناهل، فتوجه بقصعة إلى المطبخ، فبمجرد وصوله أَخذ شادُّ المطبخ - وهو مملوك لأَمير الحاج - قصعته ورَمَى بها، وضربه على عَيْنِهِ قلعها، فعاد مُوَبِّخاً نفسه بما فعل، وذهبت عينه هدراً فاتفق لضاربه أَنه في السنة التي بعدها حال خروجه من القاهرة إلى البركة صحبة أُستاذه على وظيفته، [. . . .][1] حصول حُميًّ شديدة، فأُعيد إلى القاهرة من ساعته محمولاً في مَحَفَّة أُستاذه فلما أَنْ وصل إلى منزله قَضَى نحبه، ولم يتوجه من الْبركة خطوة واحدة، واستمر الشيخ سعود على سفره صحبة الركب لم ينقطع إلى آنِنَا هذا - أَحسن الله إليه -.

* * *

ومِمَّن حجّ من أَعيان الكتَّاب ورؤساؤهم مختصراً إِذْ لا يحتمل كتابنا هذا استيعاب ذلك.

إبراهيم بن مطهر بن سعيد الكاتب الأَنباري، حجّ في سنة اثنتين وأَربعين ومئتَيْن، من البصرة على عَجَلَة تَجُرُّهَا الإِبل عليها طُنْفُسَةٌ، ومعه فتيان، فسلك طريق المدينة المنورة، وكانت هذه العجلة من أَعجب ما رآه الناس في الموسم.

(١) بياض في الأصل.

أَبو بكر محمد بن علي المادراني ـ بتقديم الدال المهملة على الراء ـ كذا رأَيته في كتاب «المواعظ والاعتبار» للمقريزي، الكاتب بخدمة أَبي الجيش خُمَارَوَيْه بن أَحمد بن طولون، أَمير مصر، حجَّ اثنتين وعشرين حجة متوالية، أَنفق في كل حجة مئة وخمسين أَلف دينار، وخرج إِلى الحج ومعه سبعون ناقةً من الهجن لنفسه، وأَربعُ مئة من الجِمال لحمل جهازه ومؤنته، ومعه المحامل فيها من خواص البقولات، وأَخذ معه من أَحواض الرياحين وكلاب الصيد، وكان ينفق على الأَشْرَافِ وأَولاد التجار، ولهم عنده ديوان بأَسمائهم، وأَنه أَنفق في خمس حِجَج ـ وهي آخر الحجج ـ أَلْفَيْ دينار، وكانت جاريته تواصل معه الحج، ومعها لنفسها ثلاثون هَجيناً لأَتباعها، ومئة وخمسون عربيًا لجهازها، وكانت سنة القرمطيِّ بمكة فمن جملة ما ذهب له مئتا قميص قيمة كل ثوب منها خمسون ديناراً، وكان المذكور كاتِبَ خراج مصر رحمه الله تعالى، وترجم له المقريزيُّ في «الخطط» فقال: أَبو بكر محمد بن علي بن أَحمد بن رستم المادراني، أَحد عظماء الدنيا، مولده سنة ثمان وخمسين ومئتين، وقدم إِلى مصر في سنة اثنتين وسبعين ومئتين وخَلَفَ أَباه عليَّ بن أَحمد المادرانيَّ أَيام نظره في دولة أَبي الجيش خُمَارَوَيْهِ بن أَحمد بن طولون وسِنهُ خمس عشرة سنة، وحجّ سبعاً وعشرين حجّة أَنفق في كل حجّة منها مئة أَلف وخمسين أَلف دينار، وكان تكين أَمير مصر يُشَيِّعُهُ إذا خرج للحج، ويتلقاه إِذا قدم، وكان يحمل إِلى الحجاز جميع ما يحتاج إِليه، ويفرق بين الحرمين الذهب والفضة والثياب والطِّيبَ والحَلْوى والحبوب، ولا يفارق أَهْل الحجاز إِلا وقد أَغناهم، وقيل مرة وهو بالمدينة النبوية: ما بات في هذه لليلة أَحد بمكة والمدينة إِلا وهو شبعان من طعام أَبي بكر المادراني، وله ترجمة كبيرة اختصرناها، وتوفي سنة خمس وأَربعين وثلاث مئة، رحمه الله تعالى.

القاضي زين الدين عبد الباسط بن خليل بن إِبراهيم الدمشقي، عظيم الدولة، ورئيسها ومشيرها، صاحب المدرسة المنسوبة إِليه بالقرب من الخط الكافوري، والمدرسة بمكة، حَجَّ مِراراً منها: في سنة سبع عشرة وثمان مئة، صحبة أَمير الحاج جقمق المؤيَّدي، في تجمُّل زائد، وهي حجّته الأُولى، وحجَّ الثانية في سنة ست وعشرين، وجهز على يده الملكُ الأَشرفُ برسباي كِسْوةَ الكعبة الداخلة، وكان أَمير المحمل ياقوت مقدم المماليك، والأَول إِينال الششماني، فكان الأُمراء والرعية يرجعون في مصالح الحج والرعية إِلى رأْيه، وهو ناظر الجيوش المنصورة، وفوَّض إِليه السلطان الأَشرفُ أَمْرَ مكة، وعَمَل المصلحة فيها، لكفايته فيما يقوم فيه، وعظيم

رتبته عند الدولة، ومَشَّى الأَحوال في إِمرةِ مكة تلك السنة على السداد، وبدت منه بمكة على عادته صدقاتٌ مبرورة، وأَعمال مشكورة، وكانتْ أَحوال الناس من الحجاج وغيرهم بحسن درايته ودُرْبَته مستقيمة.

وحجَّ في سنة أَربع وثلاثين حجته الثالثة، وصحبته (خوند) جلبان زوجة السلطان أُم ولده، في تَجَمُّل كبير، وأَمر في هذه السنة فحفر بِئْراً في عيون الْقَصَبِ فَعَمَّ النفع بها ـ وقد قدّمنا ذكرها في أَول الكتاب ـ واشترى بمكة الدار التي على يسار الداخل من المسجد الحرام، مِنْ باب العجلة وأَمر (أستاداره) ركن الدين عمر الشامي في أَن يقيم بمكة، ويعمر بها مدرسة، وهي مشهورة باسمه هناك، وله السبيل بوادي الزَّاهر بمكة المعروف بالجوخي، وله الآثار الجليلة بمصر والشام، كالمدرسة الباسطية بالقاهرة، وأَوقافها المشهورة، وسبيل جليل ببركة الحاج لسقاية الحجيج، ولكل وارد على ذلك الْمَمَرِّ، وآثار حميدة، وترجَمَه الشمس السخَاوي في كتابه «الضوء اللامع لأَهل القرن التاسع» فقال: عبد الباسط بن خليل، واخْتُلِفَ فيمن بعده فقيل: إِبراهيم، وهو المعتمد، وقيل: يعقوب كما أَثْبتَه ابنُ حجر بخطه، الزين الدمشقي ثم القاهري، وهو أَول مَن تسمَّى بعبد الباسط، ولد سنة أَربع وثمانين وسبع مئة، وقيل: في سنة تسعين والأَول أَصحُّ بدمشق ونشأ بها في خدمة كاتب سِرِّها البدر محمد بن موسى بن محمد بن الشهاب محمود واختصَّ به، ثم اتَّصل من بعده بشيخ، حين كان نائباً بدمشق ولم ينفكَّ عنه حتى قدم معه إِلى الديار المصرية، بعد قتل النَّاصر فرج وسلطنة المستعين بالله، فلما تسلطن شيخُ، ولُقب المؤيَّدَ، أَعطاه نظر الخزانة والكتابة بها، ودام بها مدة اشترى في أَثنائها بيت تنكز، فأَصلحه وكمّله وجعله سكناً له هائلاً، واستوطنه، وكذا عمر تجاهه مدرسةً بديعةً، انتهتْ في أَواخر سنة ثلاث وعشرين وثمان مئة، وسلك طريق عظماء الدولة في الحشم والخدم والمماليك، من سائر الأَجناس والنُّدماء، وربما ركب بالسرج الذهب، والكنبوش المزركش، والسلطان زائد الإِصغاء إِليه، والتقريب له، حتى إِنه يخصه بالخلع السنية السمُّور وغيرها، زيادة على مَنْصبه، بل تكرر نزوله له غير مرة، فتزايدت وجاهته بذلك كله، وصار لا يسلم على أَحد إِلاَّ نادراً، فالتفتتْ إِليه العامة بِالتَّمَقُّتِ وإِسماع المكروه كقولهم: (يا باسط خذ عبدك) فلم يحتملهم وشكاهم إِلى المؤيد، فتوعّدهم بكل سُوءٍ إِن لم يكفُّوا فأَخذوا في قولهم: (يا جبال يا رمال يا الله يا لطيف) فلما طال ذلك عليه التفتَ إِليهم بالسلام وخَفْضِ الجناح، فسكتوا عنه وأَحبوه، ولا زال يترقَّى إِلى أَنْ أَثْرَى جدًّا، وعمر الأَملاكَ الجليلة، وأَنشأ القيساريَّة المعروفة بالباسطية، داخل باب زُوَيْلَة، وكان فيروز

الطواشيُّ قد شرع في بنائها مدرسةً فلم يتهيَّأْ لَهُ إكمالها، كل ذلك وهو كاتب الخزانة وناظر المسْتَأْجرات السلطانية بالشام والقاهرة، إلى أنِ استقرّ به الظاهر طَطَر في نظر الجيش عوضاً عن الكمال بن البارزي، في سابع ذي القعدة، سنة أَربع وعشرين، فلما استقر الأَشرف بالغ في التقرُّب إليه بالتقادم والتُّحف، وفتح له أَبواباً في جمع الأَموال، وإنشاءِ العمائر، فزاد اختصاصه به وصار المعول عليه، والمشار في دولته إليه، مع كونه لم يَسْلَم غالباً من مُعَاد له عنده كـ(الدوادار) الثاني جانبك، والبدر بن مزهر، وجوهر القنقبادي، إلاَّ أَنَّ مَزِيدَ خدمته بنفسه وبما يجلبه إليه بل وإلى مَن شاء الله تعالى منهم قاهرة لهم، وأُضيف إليه أَمر الوزر و(الاستدارية) لسدَّهُمَا بنفسه، وببعض خدمه إلى أَن مات الأَشرف، واستقر ابنه العزيز، وكان من أَعظم القائمين في سلطنته، واحتاج إلى الانتماء إلى الأَتابك جقمق، ولم يلبث أَن صار الأَمر إليه، فخلع عليه، باستمراره في نظر الجيش، ثم قَبَض عليه، وحبسه بالمقعد على باب البحر، المطل على الحوش من القلعة، في ثامن عشري ذي الحجة منها سنة اثنتين وأَربعين وثمان مئة، وصمّم على أَخذ أَلْفِ أَلْفِ دينار، فتلطّف به صهره الكمال بن البارزي وغيره من أَعيان الدولة، حتى صارت ثلاثة مئة أَلف دينار، وأَخذ منه قطعة قيل: إنها من نعل المصطفى ﷺ بعدما نُقل إلى البرج بالقلعة، ثم أُطلق ورُسِم له بالتوجه إلى الحجاز، فسافر بعدما خُلِع عليه وعلى عتيقه جانبك (الاستادار) هو وبنوه وعياله في ثامن عشر ربيع الأَول سنة ثلاث وأَربعين، فأَقام بمكة إلى سنة أَربع، فحجّ ورجع مع الركب الهاشميّ إلى دمشق، فأَقام بها سُنَيَّاتٍ، وزار في أَوائل صفر بيت المقدس، وأَرسل هديته من هناك إلى السلطان، ثم قدم القاهرة فكان يوماً مشهوداً، وخُلِعَ عليه على أَولاده، ونزل بداره، ثم أَرسل تَقْدِمَةً هائلةً واستمرَّ إلى أَن عاد لدمشق بعد أَن أُنعم عليه فيها بإمرة عشرين، ثم بعد سنين عاد إلى القاهرة مستوطناً بها. وفي أَثناء استيطانه حجّ رَجَبيًا في سنة ثلاث وخمسين، فوصل إلى المدينة النبوية فزار، ثم رجع إلى مكة، فأَقام بها حتى حَجَّ ثم رجع إلى القاهرة بدون زيارة، فكان دخوله لها في حادي عشر المحرّم سنة أَربع وخمسين فأَقام بها قليلاً، ثم تمَرَّض أَشْهُراً ومات عن قرب غروب يوم الثلاثاء رابع شوال منها، وصُلِّي عليه من الغد بمصلَّى باب النَّصر، ودُفن بتربته التي أَنشأَها بالصحراء في قبر عَيَّنَهُ لنفسه، وأَسنَدَ وَصيته لقاضي الحنابلة البدر البغدادي، وغيره، وعيَّن له أَلْفَ دينار يَصْرفُها تفرقةً على الفقراء ولنفسه الشطر منها، ففرّق ذلك بحضرة ولده على باب منزله، ونفذتْ سائر وصاياه، وكان إِنساناً حسن الشكل نَيِّرَ الشيبة، متجملاً في ملبسه ومركبه وحواشيه إلى الغاية، وافر الرياسة

حسن السياسة، كريماً واسع العطاء، استغنى بالانتماء إليه جماعةٌ، غاية في جودة التدبير ووفور العقل، وله من المآثر المنتشرة في أَقطار الأَرض ما يفوق الوصف، فمن المساجد الثلاثة بدمشق وغزة والقاهرة، والباسطية بمكة المشرفة، والتي بالقاهرة تجاه منزله بخط الكافوري أَجَلُّها، وأَصلح كثيراً من منازل الحجاز ومسالكها، ورتَّبَ سحابةً تسير في كل سنة من كلٍّ مِنْ دمشق والقاهرة إلى الحرمين ذهاباً وإياباً، برسم الفقراء والمنقطعين، وحَجَّ وهو ناظر الجيش مرتين، وأَحسن فيهما وما بعدهما من الحجّات إحساناً كبيراً، وسار ذكره، واشتهر إحسانه وخيره، وصار فَرْداً في رؤساء مصر والشام ملجأً للناس مُتَّصِلاً إحسانه بمَن يعرفه وبمَن لا يعرفه، وللشعراء فيه مدائح، وناهيك بجلالته أَنه ذكر العلامة ابن حجر في «فتح الباري» كسوة الكعبة وأَنه لم تزل الملوك تتداول كسوتها، إلى أَن أَوقف لها الصالح إسماعيل بن الناصر في سنة ثلاث وأَربعين وسبع مئة قَرْيَةً من ضواحي القاهرة يقال لها بيسوس، فلم تزل تُكْسَى من هذا الوقف إلى سلطنة المؤيد شيخ، فكساها من عنده سنةً لضعفِ وقفها، ثم فوّض أَمرها إلى بعض أُمنائه وهو القاضي زين الدين عبد الباسط ـ بسط الله في رزقه وعمره ـ فبالغ في تَحْسينها بحيث يعجز الواصف عن صفة حُسْنِها جزاه الله تعالى على ذلك أَفضل المجازاة. انتهى كلامه.

قلت: ومن ذريته في آنِنَا هذا رجلان أَحدهما يدعى عبد الباسط، وهو الناظر على وقف جَدِّه، ومصالح المدرسة الباسطية التي بالقاهرة، والثاني أَخوه المكنى بأَبي العز، فأَمَّا عبد الباسط فهو كما قال ابن لنكك من قصيدته التي أَولها:

لا تخدعنك اللُّحى ولا الصُّوَرْ ... في شجر السَّرُوْ منهم ردا وما له ثمر[1]

نشأَ في حظ جده، على غاية من الإهمال، ورذائل الأَفعال، ولما أن بلغ أَشدَّه واستوى أَخذ النظر على أَوقاف جده وعلى محصولها احتوى، وانفرد بها، واختص برَيْع الأَوقاف يصرف ذلك على ملبوسه ومركوبه وزوجته التي يميل إليها، ويحاول المستحقين على حقوقهم ومعاليمهم، فلا يكاد يعطي بعض ذلك، إلاَّ لمَن اتَّقى شره، وزاد خصامه، ورأَيت له ولداً بالغاً شابًا لم يَلتفتْ إليه بأَدْنى تربية ولا كفاية، وتوفي وقد بلغ من العمر ثمانية عشر عاماً ونَيِّفاً، بغير ختان فيما بلغني، وأَما أَخوه فمن أَهل البطالة يقال: إنه مُبْتَلَى بحب (البرش) الذي شاع في زمننا، فكلما نفد ما في يده

(١) هكذا البيت في الأصل.

حاول أَخاه على ما يأْخذه من ريع الوقف، ويصرفه على نفسه وعياله، إما طوعاً أَو كرهاً، ولم يُنَفِّذا لمأثرة من المآثر يُحْيِيَا بها سَلَفهُما، بل إنَّ النَّاظر على أَحوال المدرسة اختصر ما هو الواجب من شرط الواقف، حتى ستارة المنبر وأَعلامه، وكثير من أَحكامه والله الموفق، بَلْ وأُبيع من الوقْفِ أَماكن كثيرة، منها القاعة الشامية المعروفة بسكن والده بخطه المشهور، وهي من أَحسن البناء بمكان وغير ذلك، والله أَعلم.

إِبراهيم بن عبد الرحمٰن بن عبد الوهاب بن الزَّيْن اللُّدِّيُّ الأَصل، الْغَزِّيُّ، ناظر جيش غَزَّةَ وابن ناظرها، ويُعرف بابن قليب، استقرَّ بعد أَبيه، وفاق عليه كرَماً وحُسْناً، قدم القاهرة غير مرة، وسافر منها مع أَبي البقاء بن الجيعان، فزار المدينة، وحجّ وعاد فمات في رجوعه في يوم الخميس خامس عَشْرَي الحجة سنة تسع وثمانين وثمان مئة بِالأَبْرَقَيْن، وجُهِّزَ مع جماعةٍ فدُفن بالينبع، بجامع هلمان خارج البلد، ولم يكمل ثمانيةً وعشرين.

القاضي إِبراهيم بن عبد الغني بن شاكر بن ماجد بن عبد الوهاب بن يعقوب، سعد الدين بن فخر الدين الدمياطيُّ الأَصل، القاهريُّ، ويُعرف كسلفه بابْن الجيعان، ناظر الخزانة وكاتبها، وباني المدرسة الجيعانِيَّة ببولاق، بالقرب من منظرة الحجازية، وتُعرف الآن بتجديد محمود باشا اليمن، فإِنه جدّدها لقربها من معصرته التي أَنشأَها ببولاق، حَجَّ مراراً وزار بيت المقدس والخليل، وتقدّم في الرئاسة، وكان رئيساً عاقلاً مُحْتَشِماً وقوراً، مُحِبًّا في الفقراء، مكرماً لهم، وله مآثر حسنة منها بناء المدرسة الجيعانِيَّة التي قدّمنا ذكرها، وجعل بها شيخاً وصوفيةً، وأَول مَن خطب به (؟) بعض الفضلاء، ثم المولوي ابن تقي الدين البلقيني، الذي وليَ قضاء الشام، وله بالقرب منها عمائر حسنة هائلة، وملك منظرة البرابِخية، وكانت وفاته ليلة الجمعة ثالث عشري ربيع الأَول، سنة أَربع وستين وثمان مئة، ودُفن بالصحراء بتربة أَخيه المجد عبد الرحمٰن، بالقرب من تربة الأَشْرف، بَرَسْبَاي رحمه الله تعالى.

الشيخ الإِمام العلامة، القدوة الحجّة الفهّامة، البدر محمد بن عبد القادر بن محمد بن إِبراهيم الأَنصاريُّ الْجَزِيْرِيُّ بَلَداً، الحنبليُّ مذهباً ومعتقداً ـ المرحوم الوالد ـ بلّ الله ثراه، وجعل في أَعلى عِلِيِّيْن نُزُلَهُ ومأْواه، مولده ـ كما رأَيته بخط الجد عبد القادر ـ في افتتاح عام شهر الله المحرّم سنة ثمانين وثمان مئة فنشأ رحمه الله في طلب الفضائل ومُوَقَّى من النقائص والرذائل، أَخبرني ـ أَسكنه الله تعالى بحابح الجنان ـ أَنَّ منشأَ الجدود من أُصول والده من الجزيرة بعراق العرب، بالقرب من

بغداد، وأَنَّ بعض أَقاربه موجود بتلك الديار والبلاد، وأَنَّ مكاتبات بعضهم كانت ترد عليه بمكة قال: ولذلك كان إِمامُنا الأَعظم المبجّل، أَحمد بن محمد بن حنبل الشيباني رضي الله عنه، لقربنا من دياره، ولتتبُّعنا لآثاره، وأَمَّا والدته التي هي جَدَّتي فأُصولها من الأَكراد، وجدُّها الأَعلى من أَعيان أُمرائهم، وكانت لهم من أَوقافه أَماكن متعددة، ومنازل هائلة منفردة، بخط الدرب الأَحمر، خارج باب زُوَيْلَة، وطواحين، وبخط الدرب الكافوري وغيره، فبدّد شملهم جدودها، وحلّ وقفيتهم المؤكد عهودها، من الذرية مَن عمد إِلى تبديدها، ولم يبقَ بعد أُصول الجدة من ذلك سوى الدرب الذي بالخط الكافوري، الذي بصدره منزل سَكَنِي، المتجدد العمارة على يَدي، وبعض أَماكن بخط المارديني، وسمعت السلفَ يذكرون أَنه تفرق من أَقاربهم بالشام وحَماه وانقطعت أَخبارهم بتلك، ولم أَرَ منهم أَحداً.

ابتدأ الوالد رحمه الله في باكورة عمره بطلب العلم الشريف، فحفظ من المتون «مختصر الإِمام أَبي عبد الله الحسين الْخِرَقي» في الفقه و«التسهيل» للإِمام أَبي عبد الله محمد بن علي بن محمد بن أَساسلاَّر، البعلي الحنبلي في الفقه أَيضاً، ومتن «الخلاصة الأَلفية» في النحو للعلامة جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الْجَيَّانِي، وكتاب «كشف الرَّيْن في أَحوال العين» و«اللمحة العفيفية في الطب» المتضمنة للجزء العملي وكتاب «السبع مقالات» للإِمام أَبقراط، واشتغل على شيخ الإِسلام السعدي الحنبلي في الفقه، وعلى غيره من الحنابلة، ومن العلماء في العربية والحديث والطِّب، وكَتَبَ الخطَّ المليحَ المنسوب، واجتمع على حُذَّاق مشايخ علم الطب، واستفاد وأفاد، وقرأ «صحيح البخاري» وبقية الكتب الستَّة الحديثية وغيرها من كتب الحديث على جماعات متعددة، منهم العلامة شهاب الدين أَحمد بن سعيد القباني، وغيره من أَعيان مشايخ العصر، وأُجيز بمقروءاته ومرويَّاته ومسموعاته وغيرها، وممن أَجازهُ في الفقه أَقضى القضاة شيخُ الإِسلام محمد بن محمد بن أَبي بكر السعديُّ الحنبلي، والشهاب أَحمد بن علي الحنبلي، والشمس محمد بن أَحمد البدماصي الحنبلي، وجماعة أخر، ومن الأَطباء الأَماجد الرئيسُ أَحمد بن القوصوني الطبيب، والشمس محمد أَبو الوفاء، والجمال محمد بن عبد الوهاب القوصوني، والرئيس محمد بن الشريف الكحَّال، والشِهَاب أَحمد بن محمد المنوفي، وشرف الدين يحيى بن أَحمد بن خليل، والشمس محمد التفهني، والنوري علي بن محمد الشريف وعبد العزيز بن علي بن محمد الشريف الكحَّال، وغيرهم، وتَدَرَّبَ في علمَي الطب والكحل، وباشَرَ ذلك مباشرة حسنة، وعالج المرضَى بـ(المارستان)

المنصوري، في باكورة عمرِهِ، وكتب له توقيع جليل، بثبوت عدالته، وغزير فضله واستقامته، كتب عليه شيخ الإِسلام زكريَّا الأنصاريُّ الشافعيُّ، وجماعات عديدة من أكابر ذلك العصر، ودرج جليل، كتب عليه أجلاّء عصره من الأَطباء والكحّالين، بما تميّز به بين أقرانه في معرفة علمَي الطب والكحل في عصره، وتوقيع سلطاني مشمول بالعلامة الشريفة السلطانية الملك الأشرف قانصوه الغوري، بأَن يكون من أعيان كتاب الدَّسْتِ الشريف، بديوان الإِنشاء، بقلعة الجبل المحروس، وناب في القضاء قديماً، ثم ناب عن قاضي القضاة عبد البر بن الشِّحْنة الحنفي، في نظر (البيمارستان) المنصوري، مدة مديدة، وباشر ديوان (البيمارستان) مبارة حسنة مفيدة، واجتمع على جمع من أَكابر العلماء والفقهاء والقضاة والأَطباء، ثم سَمَتْ هِمَّتُهُ إلى التعلُّق بخدمة وَفْدِ الله تعالى، وحُجَّاج الحرمين، ودأَبَ فيما يُوصله لنفع عباد الله عزّ وجل في تلك (؟) الطريقين، فكتب في ديوان إِمرة الحاج الأَول في الدولة الجركسية، عدة من السنين، ثم كتب في ديوان إِمرة المحمل في الدولة الجركسية أيضاً، وجمع الله له ما كان متفرقاً من معرفة أمور هذا الديوان، فضبط ذلك على قانون الترتيب والتبيين، ونوع أصناف هذا المُهِمّ، عل أسلوب بديع، ورتّبه ترتيباً جليلاً، أقرّ له عند ذلك بالفضل والمعرفة الجميع، وأطلق الله تعالى بحسن سيرته وصفاءِ سريرته أَلسنَ العباد، فلا يزالون يثنون عليه بمحاسن الأَفعال ومحامد الأَخلاق، ويذكرونها في كل واد، واستمرَّ على هذه الخدمة من جانب السلطنة، معززاً مكرماً في علو رتبة من الحكام، سليم الصدر من ألإِحَنِ، وما يكون سبباً للانتقام من الأَنام، بعيداً ـ بعناية الله تعالى ـ من الخطايا والآثام، قليل الانهماك والارتباك على جمع الحطام، مشاراً إِليه بالأَصابع فيما يصدر ويرد من مهمات إِمرة الحاج في سائر القضايا والأَحكام:

إِذَا قَـالَـتْ حَـذَامِ فَـصَـدِّقُـوهـا فـإِنَّ الْـقَـوْلَ مَـا قَـالَـتْ حَـذَامِ

مَعَ ما حُبِّبَ إِليه من أعمال البر، وإِيصال الخير لكل فقير وضعيف، وما ورد عليه قَطُّ سائِلٌ وَرَدَّهُ صِفْرَ اليدين، بل يعطيه إِذَا عدم النقد مِنْدِيْلَ كَتِفِهِ الخَفيف، وتشدُّده في أمور الدين، ومحافظته على الصلوات، والأَوراد والعبادات، وصفاء النية وصحَّة اليقين، وانطلاق الأَلسنة بمحامده في البلاد الحجازية، وتلك الأَقطار، معظماً عند أهل الدول، مرقوماً قوله بالأَبصار، ولم يزلْ مواظباً على الحج والزيارة، والتردد إِلى تلك الآثار المحبوبة المختارة، إِلى أن انقطع بمرض الوفاة، وحان قدومه على الله فأَثَّر فيه وبه مرضُ الفالج، وكُفِّرَتْ عنه إِن شاء الله تعالى خطاياه، بملازمة العلة له، مدة تزيد على سنتين، وبما كان من معالجاته يعالج، فكانت وفاته في رابع عشر شهر

ذي القعدة سنة أربع وأربعين وتسع مئة، وكنت مسافراً لِمُهِمِّ إمرة الحاج، وسداد خدمته، وفيما كان فيه من تعلقات الحج وإِمرته، فتولّى تجهيزه والصلاة عليه ودفنه شيخنا أقضى القضاة بقية السلف الكرم، شيخُ الإِسلام شهاب الدين أحمد بن عبد العزيز بن علي بن إِبراهيم الفتوحي الحنبليُّ، الشهير بابن النجار في مشهد حافل، وصُلِّيَ عليه بالجامع الأزهر، ودُفن بتربة والديه، في فسقية جديدة عمرها لنفسه قبل وفاته ـ أسكنه الله تعالى الفردوس الأَعلى مع النبيين، والصدِّيقين والشهداء والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقاً ـ فكأَنَّهُ كان لمحاسن هذه الإِمرة، وانقضاء رؤسائها على مِيْعاد، ولم تكن مباشرتها من بعده للأَعوان سداد.

* * *

ذكر مَنْ حَجَّ مِنْ أعيان مشايخ العربان

فمنهم صالح بن مسرح، أحدُ بني امرىء القيس بن زيد مناة بن تميم، وكانْ يَرَى رَأْيَ الصُّفْرِيَّة، قيل: وهو أول مَن خرج منهم، حجَّ سنة خمس وسبعين من الهجرة، وحجّ معه شَبيب بن مزيد، وسويد والبطين وأشباههم، فهمَّ شبيب أنْ يفتك بعبد الملك بن مروان، فبلغه ذلك من خبرهم، فكتب إِلى الحجاج بعد انصرافه يأْمره بطلبهم وكان صالح يأْتي الكوفةَ فيقيم بها الشهر ونحوه، فلما بلغه طلب الحجاج له نَأى عنها وتركها.

شيخ العرب مُهَنَّا بن صالح بن مُهَنَّا: حجّ في سنة سبع وتسعين وست مئة، مع الخليفة الحاكم بأَمر الله، أحمد ابن الأَمير أبي علي العباسي، وشُكِرَتْ سيرته، وتصدّق بأَشياء كثيرة، وأطعم العيش للناس كافة، وحمل المنقطعين، وحمِدَتْ أفعاله أهلُ مصر في تلك السنة.

الأَمير داود بن أحمد بن يونس بن إِسماعيل بن يوسف بن عمر الهوَّاري، أمير إِقليم الصعيد، وعربان هَوَّارة، بالوجه القبلي، حجَّ في سنة خمس وثلاثين وتسع مئة، من طريق البحر، وصحب معه جماعة من أقاربه، وزوجتانِ له إِحداهما ابنة عمه الأَمير علي بن منصور بن يونس بن عمر، وأخوها منصور، في تَجَمُّلٍ زائد، فسكن بسويقة الشامي، ونزلت إِحْدى زوجتيه في بيت العينِي، وتوجه القضاة للسلام عليه في منزله بإِزاء المسجد الحرام، فلم يَروْا منه القيام والإِكرام، فتوقف كثير من الناس عن التوجه إِليه، وأراد هو التوجه لصاحب مكة السيد الشريف أبي نُمَيّ بن بركات بن

محمد بن بركات بن حسن بن عجلان، وأرسل إليه يخبره بذلك، ثم طرأ له عَدَمُ التوجُّهِ إليه، لكونه لَمْ يَلْتَفِتْ إليهم، فبلغ الشريف ذلك، فأرسل إليه مِنَ الأغنام خمسين رأساً، وهدية من القماش، وغير ذلك، فجهز إليه ابن عمر خيولاً وتُحَفاً كان أَعَدَّهَا له، وكتب أسماءَ أَرْباب الوظائف وغيرهم من الفقهاء والمستحقِّيْن في قائمة، على أَنْ يُعْطِيَ لكل نفرٍ وَيْبَةً من القمح، فإنه وصل معه عِدَّةُ جُلاَّبِ مشحونة بالقمح وغيره، وفرّق دراهم على أرباب الوظائف من القضاة والأئمة والفقهاء، وأرباب الشعائر بالمسجد الحرام، يقال: نحو ألف دينار، وعلى الفقراء الآفاقِيَّةَ المجردين مثلها، ولم يَجِدْ مَن يُشير عليه بحسن تفريقها، فإنها كانت تَعُمُّ أَهْلَ مكة.

وتوفيت ابنة عمِّهِ التي هي إِحْدَى زوجاته ابنة علي بن منصور بن يونس بمنى المعظم، وحملها إلى مكة فدُفنت بالمعلاة، وكان عوده مع الركب من البر في خامس عشر الحجة، في ولاية تنم من مغلباي على الركب، بعد أن أَمَر بتفرقة ألفٍ ومئتي إِرْدَبٍّ من القمح بجدة، على أَهل مكة، وكتب له صاحبنا الشيخ شمس الدين محمد أبو زرعة المنوفي - نزيل مكة رحمه الله تعالى - قائمةً بأَسماء المستحقين لذلك، فعيّن لكل نفر إِرْدَبًّا، وأنقص من ذلك، وأقام أمير الكرب المصريّ في هذه السنة ثمانية عشر يوماً، وكان توجهه يوم السادس عشر من مكة، فتقدّمه الأَمير داود بن عمر بيوم إلى الوادي.

عليٌّ بن سليمان بن جويلي بن سليمان، من أَعْيان مشايخ عربان بني عونة، بإقليم البحيرة، وهو ولد عَمِّ الأَمير عيسى بن إسماعيل، شيخ عرب الاقليم، حجَّ في عام اثنتين وخمسين وتسع مئة، ولاية الأَمير المرحوم أيدين الرومي، وحجَّ بصحبته ولده سليمان، وهو أكبر أولاده، وأشهرهم، فإنَّ المذكور له نَيِّفٌ وثلاثون ولداً من الذكور، وكلهم فرسان خَيْلٍ، وغالبهم أشكالٌ حسان، بيض الوجوه كالترك، فلما حجَّ في هذه السنة عمَّ الحجيج برًّا وخَيْراً، وكانت تلك السنة شديدة المشاقِّ على الوفد - كما قدّمنا ذكر ذلك في تعاقب السنين - من الغلاء، وموت الجِمال، وفقد المأْكولات بالرجعة والْعَلِيق، وأُبيعت كل عليقة بمنزلة أَكْرى بالرجعة يوم حضور الملاقاة بستة عشر نصفاً كبيرة، والرطل البقسماط أو الدقيق بنصف، ولا يوجد، ويقال على ذلك غيره تبعاً، وأما موت الجِمال فَفَحُشَ جِدًّا حتى مشتِ النساءُ والصبيان، فشمَّر الأَمير عليٌّ المشار إليه عن ساعد جدِّه واجتهاده، وهيأَ للوفد غايةَ ما يجده من استعداده، وسار هو وولده سليمان في ساقة الركب، لحمل العيَّان والمنقطع، وما عساه أن يُرْمَى بالساقة من حمل التجار والحجاج، سواءً كان غنيًّا أو فقيراً، قويًّا أو ضعيفاً، وصحب معه من الشقادِف لحمل الفقراء نحو

بضع وعشرين جملاً، وعمَّ المحتاجين بتفرقة الزاد والماء، صباحاً ومساءً، بحيث أنه حصل بوجوده في الركب تلك السنة غاية النفع والخير، وكان نفعه فيها عامًّا بواسطة تلك المشاقّ التي اتفق حصولها للوفد، ذكر لي من لفظه أنه بحمد الله خُصَّ بعدم موت شيءٍ من جِماله، فلم يحصل لفرد من أفرادها موتٌ ولا ضرر مطلقاً، ورجعوا (؟) بالسلامة دون غيرهم (؟) من الجِمال، ببركة أفعاله السديدة، وأثر نيته الحميدة، التي نوى بها لأهل الركب ـ أثابه الله تعالى ـ ولنا به صحبة وإقامة، بمنزله في القرية المعروفة بالعطف، غربي فوة، من إقليم البحيرة، مدة تزيد على الخمسين يوماً متوالية، وله همّة عالية، ومكارم سديدة مرضية وافية، أربَى فيها على مَن تقدَّمَهُ في السفر إلى مكة، من أعيان مشايخ إقليمه وأقاربه، فإنه كان بصحبته في تلك السنة قريبهُ المدعو تركي من أولاد عامر، فلم يحصل منه نفع لأحد مطلقاً.

محمد وأحمد: أولاد ابن كشكي، أمير عربان طحطا والمراغة، حجَّا في عام سبع وخمسين وتسع مئة، ولاية محمود (كِيخْيَا) داود باشا لإمرة الحاج، في ركب كبير من أقاربهم، وأهل بلدهم، بين الدليل والشّعارة، وأظهرَا تجمُّلاً زائداً على أمثالهم، وكان بصحبتهم نقارة (؟) العرب الحربية للإيذان برحيلهم من الدور، ولكن خالفوا في مسيرهم عادة مشايخ العربان، يسيرون في ساقة الركب لحمل المنقطع والعيَّان، وسقاية العطشان واللهفان، وأكثر ما رأينا من شهرتهم أنهم كانوا في المناهل غالباً تارةً يطبخون البازين بالسمن والعسل، ويفرقون ذلك في القصاع لأمير الحاج ولأَتباعه، ولأكابر الركب، طلباً للصِّيت والشهرة، وتارة يطبخون الأطعمة المتنوعة في المحلات القابلة لذلك، ويفرقونها كما شرحنا، وكان الأَوْلَى بذلك الفقراء وأهل الحاجة، وأَتَذَكَّرُ إرسالهم لي عدداً وافراً من الأَطعمة المُنَوَّعة في بندر الينبع، حالة الإياب، فأمرت بعض خدمِي أن يحمل ذلك ويطعمه للفقراء وأهل الحاجة.

وحجّ في تلك السنة صحبة الركب القاضي حامد قاضي مصر، ومن طائفة المتعممين القاضي تاج الدين بن الجيعان، كاتب الشُّوَنِ السلطانية، واتفق له في عوده أَنه برز بجِماله سِراً، وتقدّم الركب عند الرحيل من مناخ عَقَبَةِ أَيْلَةَ، إلى صعود نَقْبِ العقبة، وكان في تلك السنة (دوادار) قيت بن عبد الله الداوودي، أحد مماليك السلطان الغوري، وفيه حِدَّةٌ، فلما توجه أولَ الركب ليمنع الحجاج من السَّبَق، خوفاً من مُفسِدِي بني عَطِيَّة، فوجد القاضي تاج الدين بن أحمد بن الجيعان، سابقاً بجِماله، فأَنزله من شُقْدُفِهِ، وضربه سحراً، وأَدخل جِماله في أول الركب، ولعله لم يعلم به حالة إهانته، إذْ هُو من أكابر المتعمِّمين ذوي الأَصَالة.

وحجَّ في تلك السنة محمد بن عبد الرحمٰن ملتزم إِقليم الجيزية والده كان، وجمع من الأَعيان.

الأَمير عامر بن إِسماعيل بن عامر، أخو الأَمير عيسى، أمير عربان البحيرة، ووليها المذكور بإِذْنِ أخيه عيسى، عند توجهه أميراً على الحج في عام ثلاث وستين وتسع مئة، ثم لما رجع أخوه بالركب بعد العام المذكور كاتَبَ في عزل أخيه عامر عن الإِقليم، واستمراره هو على حاله، فَأُجِيب إِلى ذلك مع إِمرة (صنجق) سلطانيٍّ، زيادة على إِمرة الإِقليم، وحصل بينهما التقاطع والتدابر بسبب ذلك، مما لا يحتمل ذكره هنا.

حجَّ عامر المشار إِليه في عام ستين وتسع مئة في ولاية مصطفى باشا على الركب، في تجمُّل زائد، وسعة، عاد نفعها على أهل الركب، خصوصاً الفقراء، فإِنهُ وَاسَى المحتاجينَ من ماله، وأطعم الفقراء وسَقاهم، وتَصَدَّى لغرس شجر المعروف في أفئدة طالبيه، وأصرف على حجته مالاً جَمًّا، لا يمكنه تلافيه، وفرَّق على أعيان من الركب من الأُمراء والعسكر والفقهاء والقضاة والتجار، وأعيان أتباع أمير الحاج، لكل أحد ما يليق به من النقد والمأْكولات، والقماش وغيره، وجَهَّزَ لي في تلك السنة بالينبع صحبة (دواداره) فوطة من الحرير المنسوب استعمالها إِلى جُقْمُق، وضمّنها من التفاصيل السكندري الملونة عدد وافر، فردَدتُ ذلك عليه بتمامه، ولم أقبل منه شيئاً، كما هي عادتي في العِفَّة عن ذلك وأشباهه، فأَعادها ثانِياً، فأَعدتُها إِليه، فاتَّفق اجتماعه بأَمير الحاج عند المسير، فشكا إِليه قضيَّة ما رددته إِليه فقال له: لا تتعب نفسك في ذلك، فإِنه لا يقبل الْمِنَّة والصَّنِيْعَ من كل أحد.

وكان يطعِم الفقراء الزاد والطعام، ويسقيهم المياه، ويركب العَيَّان ذهاباً وإِياباً، إِلى أنْ عاد إِلى وطنه، أثابه الله تعالى.

الأَمير عيسى بن إِسماعيل بن عامر ـ أخي جويلي ـ بن سليمان بن عطية بن شبيب، أمير اللِّواء، وعربان بني عونة بالبحيرة، أحد مشايخ العربان ذوي الشهرة والرئاسة في قومه، أخبرني مَن أثق به من مشايخ البحيرة لما عَقَدتُ عَقْدَ العزم إِلى صوبها، وتوجهت إِليها في عام خمس وستين وتسع مئة، أَنَّ أَصْلَ بني عَوْنة من المغرب، ورَدُوا إِلى إِقليم البحيرة بنجوعهم، ثم ورد عليهم قوم من لواتة ومزانة، من أهل المغرب أيضاً، وهم أصول بني بغداد، مشايخ عربان المنُوفية فكانتْ لواتة ومزانة خبَثَاء الجيرة، وربما استعانوا ببني عونة في مآربهم، واستهانوا بهم في مطالبهم،

فاتفق انقطاع جسر في زمن النِّيل، فاستعملوهم في مَدِّهِ، وأجروهم على سوء جوارهم في هزل الأمر وجدِّه، فعمدت امرأةٌ من نساء بني عونة إلى أثوابها فرمتْ بها بين أترابها، وكشَفَتْ عن فرجها بينَ ذويها عند نقل تُرابها، وبينما هي في عملها حاسرة، عاملةً بما أُمرت به في كل كَرَّةٍ خاسرة، إذْ وافَى رجل من لواتة، فحين وقع بصرها عليه، سترتْ فرجها، وأظهرت الحياءَ بين يديه، فكان من كلام قومها، إذْ أَكْثَرُوْا من لَوْمِها: قَدْ بَدا مِنْكَ ما رَأَيْنا، وكثر مِنْ فعْلكِ إِعْجَابُنا، كيف هتكت سترك بيننا ومَزَّقْتِ الجلباب، ولما جاء هذا اللواتي بادَرْته إلى لبس الثياب، فأَجَابَتهم، وقد تحرك عندها السكون، بكلام أزعجهم لما أذاقتهم به طعم الهوان ولواعج المنون: إِنَّمَا كشفتُ فَرْجِي بينكم لأنكم نساء مثلي، ولا تستحي المرأةُ منْ مثلها وهؤلاء رجال، فلذلك سَدَلْتُ أثوابي، وأزرت حجابي، فثار كبير قومها، وقد تأَثَّرَ من توبيخها ولَوْمها، وعطف بمَن معه على لواتة ومزانة، أَنَفاً من الضيم، وأَقْشعوا سحابةَ هوانهم والغيم، وشَدُّوْا عليهم قتْلاً وحرباً، ومَنَحُوهم طعناً وضرباً، فطردوهم من جوارهم إلى أسفل منهم، وكان شعارهم عند اشتعال الحرب، واشتغالهم بالطعن والضرب: (عَوْنَهْ يا رجال)!! فلذلك سميت القبيلة بذلك، نسبة إلى كلمتهم تلك، قال: ومن حينئذ سكنوا وانفردوا بالإقليم، لكنْ على غير طمأْنِينَةٍ ممنْ يَرِدُ عليهم مِنْ طوائف العربان للغارة، كما هو شأن عربان البادية. ويذكرون أنَّ بني عونة كانوا إذْ ذاك طوائف، وعلى كل طائفة شيخ متَمَيِّزٌ بينهم، فكانوا يزرعون طين السلطان، ويوردون الخراج أقساماً بحسب طوائفهم، إلى أنْ كان زمن جويلي بن سليمان، أخو عامر جدُّ صاحب هذه الترجمة، فظهر له من بينهم خبر وخبرة، بالنِّسْبة لمَن تقدمه من مجموع شيوخهم، وانفرد بالشياخة على جمعهم، وكانَتْ له وقائع وحروب، مع أمراء السلطنة، في الدولة الجركسية، أَرْبَى فيها على عقلٍ وافرٍ، شكرت به سيرته، وحسنت أفعالُه وطريقته، فاستمرَّ منفرداً بالتقدم، ثم لما ولى الأَمير إسماعيل بن عامر أَرْبَى على جويلي في الشياخة على قومه، وتميَّز بدُوَيْرَةٍ ذات غرفة وساحة لمجتمعهم، بنَاها ليكون شهيراً ببنائها، بَيْنَ بيوتِ الشعاب ومضارب الأَطناب، وأثر بعض الآثار الحسنة، ونَمَا ذكره بين قومه بالسيرة المستحسنة، ومن شعار شياختهم لبس الشاش، وإِسبال لِثَامَيْنِ، وستر عنقه بهما، وما فضل يُسْدَلُ على أَحَدِ الكَتِفَيْنِ، وإِسبال الإِحرام الصوف فوق العمامة والثياب، وملازمتهم لذلك الشعار عند إظهار الانتساب.

ولما نشأَ الأَمير عيسى بن إسماعيل ـ المشار إليه في هذه الترجمة ـ وولي الشياخة بعد والده، أظهر زيادة على ما فعله والده من الظهور، فبنى منزله المشهور

بالحوش، وجعله على خلاف نمط الفلاحة، وإن كانَ يقاربُ في الشبه، بأَنْ جعل به أحواشاً عديدة، أكبرها أولها الذي جعله محلاً لسائر الواردين عليه من أهل الخراج وغيرهم، وبنى به المقاعدَ التركية، والمبيتات والطباق والقاعات، ثم اشتهر بإكرام الواردين عليه، وإطعام الضيوف، فَنَمَا ذكره، وبعدتْ همته وعظمت طريقته، وبنى مدرسة للمصلِّينَ، وطاحوناً لطحينِ خبز داره والواردين، وفُرْناً يقابلهما، وحمَّاماً بديعةَ الصفة للمتنعِّمين، وبستاناً حافلاً نَحْو نَيِّف وستين فَدَّاناً، به من الغروس ما يطيب ذكره، ويزهو منظره للنَّاظرين، ودأب في نُمُوِّ الفعال الحميدة التي شاع ذكرها بين القاطنينَ والسالكين، ورتَّبَ رواتب من العسل والأُرز وغير ذلك لجماعات تَرِدُ عليه من أكابر أهل مصر وأصاغرها، ممن اشتهر بطلاقة اللسان، أوْ من أعوان الظلَمة والمفسدين، أو لمعنى لَحَظَهُ في الإِعطاء، أَدَّاهُ إِليه اجتهاده، فكان فيه من المحسنينَ، كما قِيْلَ في ابْنِ عَبَّادٍ:

لاَ تَحْمَدَنَّ ابْنَ عَبَّادٍ وَإِنْ هَطَلَتْ ... كَفَّاهُ بِالْجُودِ حَتَّى أَخْجَلَ الدِّيَما

فَـإِنَّـهَـا خَـطَـرَاتٌ مِـنْ وَسَـاوِسِـهِ ... يُعْطِي وَيَمْنَعُ لاَ بُخْلاً وَلاَ كَرَمَا

وقد ضمنت البيت الأخير من هذين فقلت:

لاَ تَغْبِطَنَّ لِعِيْسَى قَطُّ مَكْرُمَةً ... وَإِنْ بَدَتْ مِنْهُ حَتَّى أوْسَعَتْ أُمَمَا

فَـإِنَّـمـا جُـودُهُ قَـصْـداً تَـوَهَّـمَـهُ ... أوْ مِنْحَةً لِظَلُومٍ طَالَ مَا احتكما

وَمِـنْ خَـواطِـرِهِ تَـبْـدُو مـكَـارِمُـهُ ... لاَ بَائِسٌ بِأَلِيْمِ الفاقةِ اضْطُلِمَا

وَإِنْ نَـظَـرْتَ إِلَـى أَفْـعَـالِـهِ أَبَـداً ... تَرَ جَمِيْعَ الَّذِي أَبْدَيْتُ مُنْتَظِمَا

فَـإِنَّـهـا خَـطَـرَاتٌ مِـنْ وَسَـاوِسِـهِ ... يُعْطِي ويَمْنَعُ لاَ بُخْلاً وَلاَ كَرَمَا

ثم أطلق يده بالعطاء لباشات مصر وحكّامها، وولاتها وظلَمَتها، بقدر الرتبة والمنزلة يكون التعيين، وأدّى إِليه اجتهاده أنْ يتصل عطاؤه وافتقاداته للباب السلطاني، وللوزراء به، وأكابر ذلك الديوان، وأصحاب العظمة به والشأن، فَنَمَا ذكره بذلك، وسلك بهذه الطريقة كل ما يريده ويقصده من المسالك، وكاتَب الوزير الأعظم ومَن دونه، ورقم على مِنَحِهِ وهداياه بتلك الديار الرومية: (يُحِبُّهُمْ ويحبونه) فذكر بعد الفلاحة مع أعيان الأُمراء، ذوي التَّرفُّهِ والراحة، ووصف بالكرم المفرط والعطاء المزيد، وقَرُبَ بإغداقِهِ من أصحاب الخشبة (؟)، وما هو من الظالمين بِبَعِيد.

ورأَيْتُ بحوشه في إقليم البحيرة قِدْراً كبيراً من النُّحاس الرومي، طوله سبعة أشبار، وعرضه كذلك، ذكر لي أنه جهزه إِليه سليمان باشا لما كانَ وزيراً أعظم، من

القسطنطينية، وكتب إليه أنه عمله له، وأصرف عليه بِالْجَاهِ من حساب المعاملة القديمة ألفاً وثمان مئة دينار، ليكون بمنزله مُعَدًّا للانتساب والافتخار، وذكر لي من لفظه: أنه طبخ فيه لجمعيَّة كبيرة، في دفعة واحدة، مرة إحدى عشر رأساً من الجاموس، ومَرَّةً مِنَ الغنم مئة وعشرة رؤوس.

واعْتَنَى بالأَسباب الموجبة لحسن الذكر والصيت، وانتشار ذلك في كل مراح ومقيل ومبيت.

وحجّ في عام خمس وعشرين وتسع مئة، ولاية الأَمير برسباي الجركسي (دوادار) ملك الأُمراء خاير بك، من جملة عامة أهل الركب، ثم بدا له الحجُّ، فاسْتأذَن في عام ثلاث وستين، وكتب بسؤال الإِذْن من عنده إلى الأَبواب السلطانيَّة، فعاد إليه الجواب بأَن يحج أَمِيْراً على الركب، معظماً في ذلك الْمُهِمِّ والقضية، فسافر في تلك السنة أميراً على الحج، ورأساً لوفود الْعَجِّ والثَّجِّ، فأَكثر من حمل الزاد والماء، وقصد ثناء الفقراء عليه بإِطعامهم وإِنجائهم من الظماء، واعْتَنَى في كل يوم بإِطعامهم طبيخ البازين في القصاع الوافرة، فاستمرّ على ذلك ذهاباً وإِياباً في كل كرّة غير خاسرة، وسار في أعقاب الحج لحمل المنقطع والعيَّان، واشتهر في تلك السنة بذلك بين وفد الله تعالى، خصوصاً مَن يتحقق منه المعرَّة واللسان، وجعل راتباً لفقراء مكة الآفاقيَّة من اليمن والزيلع، وطوائف الأَجناس، في كل يوم حملين من الدَّقيق، يُطبَخ بازيناً بالسَّمْن، ويفرق عشية كل يوم، مدة إقامة مكة، فَبِسَبَبِ إِطعام الفقراء البازين ومُدَاوَمَتِهِ على ذلك ذهاباً وإِياباً قال سوقة الركب لما فقدوا مَنْ كان يشتري بضاعتهم المعدَّة للفقراء من الحلاوة والعيش وغير ذلك: (في سنة البازين، بطلت الموازين) وبسبب عدم إِحسانه لفقراء مكة الذين هم من الفقهاء وعامَّة البلد، مِمَّنْ جَرَتْ عادةُ أكابرِ أَهْلِ الصِّيْتِ من الأُمراء ومشايخ العربان إِذا حَجُّوا يُفَرِّقون عليهم شيئاً من النقود، توسعةً عليهم، ولو مساعدة في ثمن إِحرام أو غيره قالوا: (سنة أبي حنيش، لا في أيش ولا على أيش) حتى لهجتْ بذلك أولادُ مكة وأطفالهم وسفهاؤهم في الأَزِقَّة والأَسواق، كما هي عادتهم في بَسْطِ الأَلْسنة عند التقصير في عطائهم.

ولما عاد من الحج جهّز (أرمغاناً) حافلاً للباب الشريف، فعين له حينئذ أن يكون من أمراء اللواء، وجُهِّز إليه لِوَاءٌ و(تمارا؟) كما هي عادة الإِنْعامات السلطانية، واستمرَّ أميراً على عربان بني عَوْنة مع كونه أميراً للواء السلطاني فتعدَّى حينئذ طوره، ولبس الملابس الفاخرة، وأكثر من المماليك التُّرْك، وأمر بأن يضرب (طبلخانة) الروم

المكملة، في كل يوم بعد العصر، على عادة أمراء الألْوِيةِ الكبار، لكن لم يُغَيِّرِ اللِّثَامَيْنِ وعامة العرب، وإِنَّمَا لبس الفوقاني خاصة، قصيراً بِكمٍّ، وركب السُّروج التركية المحلاَّة، ومشى في ركابه عددٌ من المماليك بِالزِّيِّ الرومي الفاخر، والغاشية الملوكية، وقلَّ خَيْرُهُ عند حصول هذه الرتبة عن الفقراء، وطَلَبِ الثواب، واقتصر على ما يجهزه إلى الديار الرومية وأكابر الباب، ومع بلوغه هذا المقام، واتِّصاله بهذا الإكرام، فَهُوَ متَّصف بأَوْصاف مشهورة، وأحوال مخبورة، منها: أنه أَعْسَرُ الْيَدِ، لا يكَادُ يتناول بيده اليمين غِذَاءً ولا شيئاً يهتم به، بل بشماله، ولا يخفى ما في ذلك. ومِعْيَانٌ قلَّ ما نظر إلى شيء واستحسنه إلا واقترنَ به الضرر، حتى في ماله وجماله، وحقود من غير أن يظهر منه خلافه في الخارج، وقلَّ ما أظهر البشاشة والإنْصاف في السلام للوارد إلا وكانَ مُدَاهِناً له، شديد البغض باطناً، وربما أمر بقتل النفس في الباطن وأنكر في الصورة الظاهرة، وغالب معروفه للإشاعةِ وذِكْرِ المحمدة، لا غير ذلك، وَوَعْدُهُ - في الغالب - كَبَرْق خُلَّبٍ، وربما اعتمد الكذب الصريح وَأَوْهَمَ خِلافَهُ، وقلَّ مَنْ ركن إليه بالكلية إلاَّ وشكا الفقر، لِشؤم اتباعه، وكان بعضُ أهل الذوق يَعُدُّ سَفَرَهُ - أميراً على الركب، وأمير اللواء - يَعُدُّهُ من أجَلِّ أَشْرَاطِ الساعة، ويستدلُّ بالحديث الشريف الوارد في هذا المعْنَى، ويجعله لإنفاق إنكاره (؟) بِضاعة، خصوصاً عدم تقدم ولاية أمير فلاحةٍ على وفود الله في الزمنِ الغابر، وأن يكون مَنْ سابقته الشعبة (؟) وبيوت الشعر مُنْدَرِجاً مع أَعْيان الأُمراء الأَكابر، فَيُعَوِّل في إنكاره على الاستقراء والتتبُّع الماضي، ولا يَلْوِي إلى سلوك سُبُل التَّساهل والتغاضي.

وأتذكر في عام حجته أميراً على الركب جلوسي بالحرم الشريف، تجاه الكعبة المعظمة، في يوم عيد الله الأكبر، حالَةَ إِرْخَاءِ ستور الكعبة بكسوتها الجديدة، بين جماعة من أعيان الحرم، وأمير الحاج فوق سطح البيت، مُخَفِّفاً من ثيابه، يُعاون السدَنَةَ في تعليق الستور، إِذْ جاءَ إِليَّ الشيخُ العلامة الأديب، محبُّ الدين بن مُلاَّ حاجي العجمي - مُطوِّفُ مصطفى باشا اليمن كان، وبعده لعدة من أُمراء الحاج - فجلس يُحادِثني إِذْ حانَتْ منه التفاتةٌ إلى البيت فرأى أميرَ الحاج بتلك الصورة على ظهر الكعبة، فأشار إليه مُبَادِراً قائلاً: رُوَيْعِيَ غَنَم لقد ارْتَقَيْتَ مُرْتَقى صعْباً!! فأَعْجبَ الحاضرون بذلك، يشير إلى قول أبي جَهْل بن هشام - زاده الله نكالاً - لعبد الله بن مسعود حين مَرَّ عليه في قَتْلَى بَدْرٍ، ووضع رِجله على عنقه قائلاً: هَلْ أَخْزَاكَ الله يا عَدُوَّ الله! ثم احْتَزَّ رأسه.

قلت: ولَمَّا حجّ عيسى أميراً على الركب في عام سبعين وتسع مئة لم تَبْد منه

منقبة ولا مكرمة، وتغيرت أفعاله قاطِبة بكل رذيلة ومَلأَمة، وكثرتْ شكوى وفد الله والفقراء وخدَمة الإِمرة، حتى العسكر السلطاني من سُوء سيرته، وما أبداه من إِهمال أحوال أهل الركب المفرط، وعدم الإِنصاف في حجه، وكثر سبُّ الفقراء له، ودعاؤهم عليه في كل منزلة، فلم يلتفتْ إِليهم، وعاملهم بالإِهمال عند كل محل ومشيلة (؟) ولم يجتمع على الثناء عليه في هذا العام اثنان، ولم يختلف على قبْح سيرته في سنته هذه اثنان (؟).

بدر بن يوسف الصعيدي الهواري من [....][1] وقيل من قرية تدعى طما ـ بكسر الطاء ـ قبلي أبو تيج من إِقليم الصعيد، حجّ في عام سبعين وتسع مئة، عام العفاش، ولاية عيسى بن إِسماعيل، فبذل جده واجتهاده في القيام بحال الفقراء والضعفاء، والمنقطعين في أعقاب الركب، فإِنه كان لجماله في ساقة الركب وأعقاب الحج على عادة أكابر مشايخ العربان، يطعم الجيعان ويسقي العطشان، وذكروا عنه ممن شاهدوا أفعاله، أن مروءته أكبر من حاله، فقد ذكر لي مَن أثق بقوله أن عدة جماله أربعة وثلاثون جملاً، وتبع ذلك، فقصعته التي يطعم فيها الفقراء يحملها عدة رجال، وأنه كان بصحبته من ذلك عدة، وأن معه ستة عشر وعاء [....][2] أكبرها يسع [....][3] أكثر من قربتين قد أعدّه لسقاية العطشى، فلقد حصل بين الوجه وأكره معطشة للفقراء والمشاة، وبعض الأَغنياء، فأذاب السكر في ماء التمر هندي، وسقاهم حتى أتَى على ما حمله من ذلك، وتغالى بعض أهل الركب فذكر أنه حمل من السكر نحو الثلاثة أحمال، وسقى الماء القراح بعد ذلك، وسمعت بعض الفقراء بساقة الركب يقول: لولا بدر الهواري [....][4] العطش لمات غالبهم، ولم يظهر لأَمير الكرب نتيجة في تلك المعطشة، ولا من أحد من أقاربه، فإِنه كان بصحبته أحمد بن دارورا من شريشره (؟)، وشاهين بن بوتر، وغيرهم مع أن أمير الركب أعدّ في هذه السفرة صحبته من العرب ألفاً وأربع مئة، وكانت جِماله نحو ألف وخمس مئة، وكان ناظراً على سحابة الفقراء، فلم يظهر لذلك نتيجة مطلقاً ولا أثر يُحمد، بل بلغني أنه حُمِلَ إِليه الساقة الركب من الماء الملح حملٌ واحد لسقاية العطشى، فكان يسقى منه بركوة صغيرة، سقاية لا نتيجة معها لعدم خيره جدًا في هذه السفرة، وتغيُّر نيته على وفد الله تعالى والفقراء، فضاعت أحوالهم، وتلاشت أمورهم، فإِنه وَكَلَ تدبير أحوالهم إِلى شخص شاب من أولاد القبط، كان كاتباً على

(١ ـ ٤) بياض في الأصل.

وقف السحابة، ولم تُحْمَدْ سيرته فيه يسمى خضر بن مجد الدين، وجعل معه شخصاً من جماعته أميناً على المصروف يدعى عمر اللقاني، فاتفقا معاً على بيع البقسماط والماء وغيرهما، ولم ينل الفقراء من المجهز في السحابة إلا العناء وعدم الغنا، فكانا يصرفان لهم في السفر ـ دون الإقامة ـ في كل خمسة أيام قليلاً من البقسماط، وأما القمصان والمراكيب فلم ينل المستحق منها شيئاً، وحصرت في الذهاب فلم يفرق منها إلا القدر التافه، فنال الفقراء من ذلك الجهد والبلاء، حتى أنهم بالغوا في قبح الثناء (؟) عيسى عيسى، بعضهم مصرحاً بالسبِّ له: غررت (؟) المسلمين بولايتك، وقتلت الفقراء وجعلت الْمُهِمَّ في صحائفك، ولم يزل بدر الهواري على حصن الصنيع، وجميل الفعال مع الفقراء ذهاباً وفي الإِياب إلى الينبع، فنفدَ ما معه، وركب البحر من الينبع إلى القُصَيْر، ومنها إلى بلاده، كتب الله سلامته وأثابه.

نور الدين علي وأخوه طاهر، أولاد واصل بن حسن بن بغداد، أقارب الأَمير حسن بن بغداد متولي إقليم المنوفية، حَجّا في عام ثلاث وسبعين وتسع مئة في محفة ونحو مِئَتَيْ جمل، بتجمُّل ظاهر، وكانا في أعقاب الركب لإِطعام الجائع، وسقى العطشان وبذل النَّدَى للظهور والتفاضل (؟) والثياب المخيوطة والنقد لأَتباع أمير الركب وغيرهم ذهاباً وإياباً إلى أن عادا إلى القاهرة.

جانم ومحمد أبو سعيد وحسن وحمَّاد أولاد سعد من شيوخ لواتة، حجُّوا في عام ثلاث وسبعين، فكانوا في أعقاب الركب في نحو مئتي جمل منها مغشاة ستة أحمال لمساعدة الفقراء بالماء والزاد والركوب، والتعقيب على جِمالهم إلى أن عادوا.

الفصل الرابع

في ذكر مَن حجَّ من النساء و(الخوندات)، وأَكابر المخدرات

فمن ذلك عائشة بنت طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عَمْرو بن كعب بن سعد بن تَيْم بن مُرَّة التيمية، حجّت في سنة خمس وتسعين من الهجرة، وكان الذي حجَّ بالناس في تلك السنة الوليد بن عبد الملك بن مروان الأُمويُّ أَمير المؤمنين، فدَخَلَتْ عليه وقالت: يا أَمير المؤمنين مُرْ لي بأَعوانٍ يكونون معي، فضمَّ إليها جماعةً يكونون معها، فحجّت ومعها ستون بغلاً عليها الهوادج والرحال.

وحجّت سُكَينة بنت الحسين، فكانت عائشة أَحْسَنَ منها آلةً وَثِقلاً فقال حادي عائشة:

عَائِشَ يَا ذَاتَ الْبِغَالِ السِّتِّيْن لاَ زِلْتِ مَا عِشْتِ كَذَا تَحِجِّيْن

فشقَّ ذلك على سُكَينة فنزل حاديها فقال:

عَائِشَ هٰذي ضَرَّةٌ تَشْكُوكِ لَوْلاَ أَبُوهَا مَا اهْتَدَى أَبُوكِ

فأَمرت عائشة حادِيَهَا أَن يكفَّ.

وحجّت مرةً وكان أمير مكة الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، من قبل أَمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فأَرسلتْ إِليه عائشة بنت طلحة، وكان يهواها: أَخِّر الصَّلاة حتى أَفرغ من طوافي. فأَمر الْمُؤَذِّنَ فأَخَّرَ إِقامة الصلاة حتى فرغتْ من طوافها، وجعل الناسُ يصيحون به، فلا والله ما قام إِلى الصلاة حتى فرغَتْ، فأَنكر ذلك أَهْلُ الموسم، وبلغ ذلك عبدَ الملك فعزله، وكتب إِليه يُوَبِّخهُ فيما فعل، فقال: ما أَهْوَنَ غضبَهُ إِذَا رضيتْ عائشة!! والله لو لم تفرغْ من طوافها إِلى الليل لأَخَّرْتُ الصلاةَ إِلى الليل.

قلت: ويقرب من ذلك ما حكاه الصَّلاحُ الصفديُّ في تاريخه الكبير عن الحسن بن وَهْبِ الكاتب المشهور، وهو أنه زارته يوماً بَنَانُ جاريةُ ابن حَمَّاد، وشَرطَتْ عليه أَنْ تَنصرف وقت الْعَتْمَةِ، فلما أَقبل الليلُ كتب إِلى مُؤَذِّنٍ على باب داره:

قُلْ لِدَاعِي الصَّلاَةِ: اصْبِرْ قَلِيْلاً قَدْ قَضَيْنَا حَقَّ الصَّلاَةِ طَوِيْلاَ

لَيْسَ فِي سَاعَةٍ تُؤَخِّرُهَا إِثْمٌ وَتُجَازَى بِهِ وتُحْيِيْ قَتِيْلاَ

وَتُرَاعِي حَقَّ الْمَوَدَّةِ فِيْنَا وَتُعَافَى مِنْ أَنْ تَكُونَ قَتِيْلاَ

فحلف المؤذِّنُ أَنْ لاَ يُؤَذِّنَ عَتَمَةً شهراً.

الْخَيْزُرانُ، أُمُّ موسى الهادي، وهارون الرشيد، وفيها يقول مروان بنُ أَبي حَفْصَةَ:

يَا خَيْزُرَانُ هَنَاكِ ثُمَّ هَنَاكِ أَمْسَى يَسُوسُ الْعَالَمِيْنَ ابْنَاكِ

فنهاه هارون وقال: لا تذكر أُمِّي بخير ولا بشَرٍّ، وكان قد ذكرها مروانُ يوماً عند موسى الهادي، في مديح فتهدّده بالقتل، وهي جرشية اشتراها المهدي فأَعتقها وتزوجها، ولم تلد امرأة خليفتين غير ثلاث نسوة: إِحداهن هذه، والثانية: ولاَّدةُ بنت العباس، زوجة عبد الملك بن مروان، ولدت الوليد وسليمان. وشاه فريد بنت يَزْدجُرْد، وَلَدَتْ للوليد بن عبد الملك يزيدَ وإِبراهيم، وليا الخلافة. قال هشام: كانت

الْخَيْزُرَان عاقلةً لبيبةً، صالحةً متصدِّقة، كانت غلتها في كل سنة ستة آلاف أَلف أَلف درهم، وستون أَلف أَلف درهم، تنفقها في الصدقات وأَبواب البرّ، حجّت كما تحج أُمَّهات الخلفاء من التجمُّل والزينة، وسعة العطاء، ومكارم الأَخْلاق، ولما عادتْ خرج شريك يتلقاها وكان على قضاء الكوفة، وحمل معه خُبْزاً فأَبطأَت، فأَقام ثلاثاً ينتظرها بمكان يقال له شاهي، فيبس خبزه، فجعل يبله بالماء ويأْكله، فهجاه أَبُو المِنْهال العلاء الغنويُّ فقال:

فَإِنْ يَكُـن الَّـذِي حَـدَّثْـتَ حَـقًّـا ... بِأَنْ قَدْ أَكْرَهُوْكَ عَلَى الْقَضَاءِ

فَمَا لكَ حِيْنَ تَخْرُجُ كُلَّ يَوْمٍ ... تَلَقَّى مَنْ يَحِجُّ مِنَ النسَاءِ

وَسَوَّدتَّ الْقَمِيْصَ فَصِرْتَ فِيْهِ ... تُطَوِّفُ يَا شَرِيْكُ مَعَ الإِمـاءِ

مُقِيْماً في قُرَى شَاهي ثَلاثَاً ... بِـلاَ زَادٍ سِـوَى كِـسَـرٍ ومَـاءِ

يَـزِيْـدُ الـنَّـاسُ خَـيْـراً كُـلَّ يَـوْمٍ ... وَتَـرْجِـعُ يَـا شَـرِيْـكُ إِلَـى وَرَاءِ

وَذَكَرَ سِبْطُ بن الجوزيّ في «مرآة الزمان» نقلاً عن الهيثم أَنَّ المهديَّ كتب إِليها وهي بمكة أَبياتاً يقول فيها:

نَحْنُ في أَكْمَلِ السُّرُوْر وَلَكِنْ ... لَيْسَ إِلاَّ بِكُمْ يَطِيْبُ السُّرُوْرُ

عَيْبُ مَا نَحْنُ فِيْهِ يَا أَهْلَ وُدِّيْ ... أَنكـم غُـيَّـبٌ ونـحـن حـضـور

فَأَجِدُّوا في السَّيْرِ بَلْ إِنْ قَدِرْتُمْ ... أَنْ تَطِيْرُوا مَعَ الرِّيَاحِ فَطِيْرُوا

فكتبت إِليه الْخَيْزُرَانُ تقول:

قَدْ أَتَانَا الَّذِيْ وَصَفْتُمْ مِنَ الشَّوْ ... ق فَكِدْنَا مِنَ الْغَرَام نَطِيْرُ

لَيْتَ أَنَّ الرِّيَاحَ تَحمِل (؟) إِلَيْكُمْ ... بَعْضَ شَوْقي وَمَا يُجِنُّ الضَّمِيْرُ

لَمْ أَزل صَبَّةً فَإِنْ كُنْتَ بَعْدِي ... فِـي سُرُوْرٍ فَدَامَ ذَاكَ السُّرُوْرُ

ولها بمكة آثارٌ حسنة منها: الدارُ المعروفة بها بالصَّفَا.

زُبَيْدَةُ بنتُ أَمير المؤمنين أَبي جعفر المنصور، زوج هارون الرشيد، وأُمُّ محمد الأَمين، من كبار أَهل الخير، وتجار المعروف، أَنفقت في حجتها بضعاً وخمسين أَلْفَ أَلْفِ درهم. قال صاحب «المرآة»: ولدتْ في زمن المنصور، فكان يُرَقِّصُهَا ويقول: أَنْتِ زُبْدَهْ وزُبَيْدة، فغلب ذلك الاسم عليها! قال علماءُ السير: كانت زبيدةُ صاحبةَ المعروف، وأَبواب البر والصدقات على العلماء والفقراء والمساكين، ومن لطيفِ ما يُحْكَى عنها أنه وَرَدَ عليها شاعرٌ من غِثَاثِ الشعراء ليمتدحها فقال:

أَزُبَيْدَةُ ابْنَةُ جَعْفَرٍ طُوبى لِشَاعِرِكِ الْمُثَابْ
تُعْطِينَ مِنْ رِجْلَيْكِ مَا تُعْطِي الأَكُفُّ مِنَ الرِّغَابْ!!

قال: فَهَمَّ به الحشمُ فقالت: لا تفعلوا فإنه إنما أَرادَ الخير فأَخطأَ، ومَن أَرادَ الخير فأَخْطَأَ أَحَبُّ إلينا ممن أَراد الشَّرَّ فأَصاب، وإنما أراد أَن يُرْبي على قول الشاعر:

شمالك أَجود من يمين غيرك وقفاك أَحسن من وجه سواك (؟)

فظنَّ أنه إذَا ذكر الرجلين أَبلغ في المدح، وأمرتْ له بجائزة. قال محمد بن الحسن: قال عمرو مولى مزلاج: فقال أبو نواس: فلقد ورد عليها شيء لو ورد على العباس بن عبد المطلب ما كان عنده من الحلم والاحتمال وتسهيل الأَمر أكثرُ مما كان عندها، ولها الآثار الجميلة على أرباب البيوت بأرض الحجاز، ومكة والمدينة، وحفر الآبار والمصانع، وإنفاق الأَموال الجليلة في أهل الحرمين، وأُحْصيَ ما أَنفقت في الحجاز فكان أَلْفَيْ أَلف دينار، وبلغتْ نفقتها في حجِّها أَلْفَ أَلْفَ دينار، وروى الخطيب عن إسماعيل بن جعفر بن سلمان قال: حَجَّتْ أُمُّ جعفر فبلغت نفقتها في ستين يوماً أَربعة وخمسين أَلْفَ أَلْف درهم، فرفع إليها وكيلُهَا كتابَ النفقة فنهته عن ذلك، وقالت: ثواب الله خير، وهو بغير حساب. وقال صاحب «إتحاف الورى بأَخبار أُمِّ القرى» في تاريخه: إن في سنة أَربع وتسعين ومئة، أَمَرَتْ أُمُّ جعفرٍ زُبيدةُ بنت أَمير المؤمنين المنصور، بعملِ بِرْكَتِهَا التي بمكة، فأَجْرَتْ لها عيناً مِنَ الحرم، فجرت بماءٍ قليْلٍ، فلم يكن فيه ريٌّ لأَهْل مكة، وقد غرمت في ذلك غرْماً عظيماً، فبلغها، فأَمرتِ المهندسين أَنْ يُجْرُوا لها عيوناً من الْحلِّ، وكان الناس يقولون: إنَّ ماءَ الْحِلِّ لا يدخل الحرَم، لأنه يمر على عِقَابٍ وجبال، فأَرسلتْ بأَموال عظام، ثم أَمَرَتْ مَن يَزِنُ عينها الأُولى، فوجد فيها فساداً فأَنشَأَتْ عيناً أُخرى إلى جنبها، وأُبطلتْ تلك فعملت عينها هذه بأَحْكَم ما يكون من العمل، وعظمت في ذلك رغبتها، وحسنتْ نِيَّتُها، فلم تزل تعمل فيها حتى بلغتْ ثنية جبل، فإذا الماء لا يظهر في ذلك الجبل، فأَمرتْ بالجبل فضرب فيه، وأَنْفَقَتْ في ذلك من الأَموال ما لم يَكُنْ تطيب به نفوس كثيرة غيرها، حتى أَجراها الله لها، وأَجرتْ فيها عيوناً من الْحِلِّ، منها عينٌ مِنَ الْمُشَاشِ، واتخذت لها بِرَكاً تكون السيول إذا جاءتْ تجتمع فيها، ثم أَجْرَتْ لها عيوناً من حُنَيْنٍ، واشترتْ حائِطَ حُنَيْنٍ، فصرفت عَيْنَهُ إلى الْبِرْكة، وجعلت حائطَه سَدًّا يجتمع فيه السيل، وحازتْ لها مَكْرُمَةً لم تكن لأَحد قبلها، وطابتْ نفسُها بالنفقة فيها بما لم تكن تطيبُ نفسُ أَحد غيرها به فأَهل مكة والحاجُّ إنما يعيشون بها بعد الله عزّ وجل ـ رحمه الله تعالى ـ انتهى.

وقال صاحب «عيون التواريخ»: زبيدة بنت جعفر بن المنصور، واسمها أَمةُ العزيز، وكنيتها أُمُّ جَعْفر الهاشمية العباسية، قيل: لم تلد عباسيةٌ خليفةً قطُّ إلاَّ هي، وكان لها حرمةٌ عظيمة وبرٌّ وصدقاتٌ، وآثارٌ حميدة في طريق الحج وبمكة، ولقبها جدها المنصور زُبَيْدة لِبَضَاضَتِها ونضارتها، وكان في قَصْرِهَا من الخدم والحشم والآلات والأَموال ما يقصر عنه الوصفُ، من جملة ذلك مئة جارية كلُّ منهنَّ تحفظ القرآن، وكان يسمع من قصرها مثل دَويِّ النحل من القراءة، ولم تزل زَيْنَ نساءِ الوقتِ بالعراق في أيام زوجها وولدها، وأَيام ابن زوجها المأمون، وهي التي سَقَتْ أَهلَ مكة الماء، بعد أَنْ كانتِ الرَّاوِيَةُ عندهم بدينار، وأَسالتِ الماء عشرة أميال بحط الجبال، وبجَوبِ الصخر، حتى نقلته من الحِلِّ إِلى الحرم، وعملتْ عقبةً كانت في طريق الحج فقال وكيلها: يلزمك نفقات كثيرة، فقالت: اعملها ولو كانت ضربة الفأْسِ بدينار، ولها في ذلك آثار كثيرة حسنة ـ أَثابها الله تعالى ـ ونقل عن بِشْرٍ الحافي أَنه قال: رأَيتُ زُبيدةَ في المنام قَدْ عَلَتْهَا الصفرةُ فقلت: ما فعل الله بكِ؟ قالت: غفر لي ربِّي. فقلت: وما هذه الصفرةُ التي عَلَتْكِ؟ قالت: مات بِشْرٌ الْمَرِيْسِيُّ ودُفِنَ في جواري، فزفَرَتْ جهنمُ زفرةً تغيرتْ أَلوانُ الموتى، وكان قَدَرِيًّا عفا الله عنه.

شُجاع أُمُّ المتوكل على الله، جعفر بن المعتصم بالله، محمد بن الرشيد هارون، حجَّتْ مع وَلَدِ ولدِها المنتصر بالله محمد بن المتوكل، في عام ست وثلاثين ومئتين في تَجَمُّلٍ زائد، وعادت صحبته.

جميلة بنت الملك ناصر الدولة أَبي محمد الحسن بن عبد الله بن حمدَان، صاحب الموصل، حجحَّتْ في سنة ست وستين وثلاث مئة، ومعها أَخوها إبراهيم، وكانت حِجَّتُهَا يُضْرَبُ بها الْمَثَلُ في التَّجَمُّل وأَفعال الخير، كان معها أَربع مئة عجاوة (؟) في الطريق لم يُدْرَ في أَيِّهَا كانَت لتساويها في الحسن والزينة، واستصحبت البقول المزدرعة في المراكن الخزف، على الجِمال، وأَظهرتْ من المحاسن، ونشرت من المكارم، وأَقامت من المروءة ما لا يُحْكَى مثلها عن ملك ولا ملكة، وأَفردتْ للرجالة والمنقطعين ثلاث مئة جمل، وقيل: خمس مئة، ونثرتْ على الكعبة حين شاهدَتْها وقيل: لما دخلتها عشرة آلاف دينارٍ من ضرب أَبيها، وما يناسبُ هذا، وأَعتقتْ ثلاث مئة عبد وثلاث مئة أَمَةٍ، وسقتْ جميع أَهل الموسم السَّوِيْق بالطَّبَرْزَذِ، والثلج، وأَعطتِ المجاورين عشرة آلاف دينار، وكتبت المجاورين بالحرمين الشريفين، وأَنفقت من الأَموال الجزيلة ما لا يوصف بعضه عن زُبيدة ولا غيرها من بنات الخلفاءِ ونساء الملوك، وخلعتْ على طبقات الناس خمسين أَلف ثوب.

زُمُرُّد خاتون: والدة الناصر لدين الله أَمير المؤمنين، حَجَّتْ في سنة خمس وثمانين وخمس مئة، في تجمُّل هائل، وسار في خدمتها صندل الخادم، وطاستكين، وطغريل صاحب البصرة، وأَسدتْ إِلى الناس معروفاً كبيراً قال صاحبنا العلامة جار الله ابن فهد المكي في تاريخه: ويقال لَمْ تَحِجَّ أُمُّ خليفة إِلاَّ هي، وأَرجوان أُمّ المقتدي، وزُبيدة أم الأَمين، قلت: لعل القائل لم يَطَّلِع على حجّة الخيزران أُمّ هارون الرشيد ـ وقد تقدّم ذكرها آنِفاً ـ ولا على حجّة والدة المعتصم ـ وسيأْتي ذكرها ـ.

رَبِيْعةُ خاتون، أُختُ العادل: حجَّتْ في سنة ثمان وست مئة، واتَّفَقَ في تلك السنة واقعة محمد الناصري أَمير العراق مع الشريف قتادة أَمير مكة من النهب والقتل بمنى وبمكة، والتجاء حاجِّ العراق بحجاج الشام، وجاء محمد بن ياقوت أَمير الحاج العراقي فدخل خيمة ربيعة خاتون، مستجيراً بها ومعه خاتون أُمُّ جلال الدين، فبعثتْ ربيعة خاتون مع ابن السلار إِلى قتادة تقول له: ما ذنْبُ الناس قد قَتَلْتَ القاتل، وجعلت هذه وسيلةً إِلى نهب المسلمين، واستحللت الدماءَ والأَموال في الشهر الحرام، والله لئن لم تَنْتَهِ لأَفْعَلَنَّ ولأَفْعَلَنَّ، فكَفَّ عنهم وطلبَ مئَةَ أَلفِ دينار، وأَقام الناس ثلاثة أيام حول خيمة ربيعة خاتون ما بين قتيل وجريح ومسلوب، وجائع وعُرْيان ـ وقد قَدَّمنا ذكر ذلك في تعاقب السنين ـ.

والدة المعتصم: حجَّتْ سنة إِحدى وأَربعين وست مئة، مع (دواداره) فكان ما صحبهما من الجِمال جملةَ أَلفاً ونَيِّفاً وثلاثين جملاً وسبع مئة إِلى الكوفة، وجهز لهم السلطان نور الدين ابن رسول هدية عظيمة، وأَكثرت من الصدقات والخلع على الأُمراء وأَهل الدولة المقيمين بمكة المشرفة، وقال النُّوَيْرِيُّ: حجّت أُمُّ الخليفة من بغداد، وركب ولدها الخليفة المعتصم بالله لوداعها، وتوجَّهَ في خدمتها الأَمير مجاهد بن أَيبك الدواداري، وسيف الدين قيران أَميرُ الركب، وكان خروج الحاج من بغداد في سابع عشر شوال، وتصدقتْ والدة الخليفة بالحجاز، بصدقات جزيلة، أَغنَتْ بها كثيراً من الفقراء، وكان عَوْدُها ووصولُها إِلى بغداد في خامس صفر سنة اثنتين وأَربعين وست مئة، وتلقاها (استادار) مؤيد الدين محمد بن العلقمي، وسائر أَرباب المنصاب، في ثالث صفر، وتأَخر الوزير نصر الدين لمرضه وعجزه عن الحركة، وخلع على مَن كان في خدمتها، وأَنعم على مجاهد الدين (الدوادار) بخمسة عشر أَلف دينار عيناً وحُلَّةً وفَرَساً.

أُرجوان: أُم المقتدي، أَمير المؤمنين جارية الذخيرة (؟) وتدعى قرة العين، حجتْ ثلاثَ حجج، كما تَحِجُّ أُمَّهَاتُ الخلفاء وهي أُم ولد أَرمنية، كانت صالحة

كثيرة الصدقات، عمرت طويلاً، أَدركت خلافة ابنها المقتدي، وخلافة ابنه المستظهر، وخلافة ابنه المسترشد، ورأتْ للمسترشد ولداً ودُفِنَتْ بالرصافة.

زَوْجَةُ ملك اليمن: حجَّتْ في سنة أَربع وأَربعين وستٍّ مئة، وعمرت مسجد الْهُلَيْلِجة، في التَّنْعِيم، المعروف بِأُمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وعمرتْ بقربه بئراً عذبة.

عَمة صاحب مَارِدِيْن: حجّتْ سنة أَربع وتسعين وست مئة، وكان لها تجمُّل كبير، وصدقات، وأَنفقتْ مالاً كثيراً وانتفع بها الحاج وأَهل الحرمين وأُمراؤها وأُمراء الحاج.

خوند طغاي: جارية الملك الناصر، محمد بن قلاوون، أُم ولده أَنوك، حجَّتْ في سنة إِحدى وعشرين وسبع مئة، فجعل لها أَرغون ثمان عرباتٍ كعاداتِ بلاد الترك، فسافرتْ فيها ورُفعتْ عليها العصائب السلطانية، ودُقَّتِ الكوساتُ وراءها، وحُملت الخضروات والبقول والرياحين في المحاير مزروعة في الطين على الجِمال، ولم يُعْهَدْ سفر امرأَة من نساءِ الملوك مثل سفرها، وسافر معها أَمير مجلس، والقاضي كريم الدين الكبير، وخرج النائب والحجَّاب في خدمتها إِلى بِرْكَةِ الحاج، حتى رحلت في يوم الأَربعاء سابع عشر شوال، فحجَّتْ وعادتْ إِلى القاهرة فخرج السلطان إِلى لقائها ببركة الحاج، ومَدَّ سماطاً عظيماً وخلع على سائر الأُمراء، ودَخلوا إِلى منازلهم، ولم يُسْمَعْ بمثل هذه الحجة في كثرة خيرها، ويقال: إِنه أَنفق على حجة طغاي مبلغ ثمانين أَلف دينار وست مئة وثمانين أَلف درهم، سوى ما حُمِلَ من الشام ومن أُمراء مصر.

الْحُرَّة أُم السلطان أَبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب المريني، صاحب فاس، حجَّتْ في سنة ثمان وثلاثين وسبع مئة، ومعها خلق عظيم من المغاربة، وكانت في ركب لها بمفردها، قُدَّام المحمل، وكان في خدمتها جمال الدين والي الحرة واتفق أَنَّ البلاد الحجازية كانت في تلك السنة مرخية جدًّا، بيعت الويبة الدقيق الفاخرة بتسعة دراهم، والسمن خمسة أَرطال بدرهم، والعسل أَربعة أَرطال بدرهم، وحصل بمكة سيل عظيم، لَوْ دام إِلى الصباح غرقتِ الناس ومكة.

بركة خاتون: والدة السلطان الملك الأَشرف شعبان بن حسين، حجَّت في سنة سبعين وسبع مئة بتجمُّل زائدٍ عن الحدِّ، وفي خدمتها جماعة من الأُمراء الكبار، ولما قدمتْ خرج السلطانُ إِلى لقائها من الْبُوَيْب. وقال المقريزي: خوند بركة، السِّتُّ

الجليلة، كانت أمةً مولدة، فلما أُقيم ابنُها في مملكة مصر عَظُمَ شأْنُها، وحجَّتْ بتجمُّل كبير، وبذْخٍ زائد عن الحدِّ، وعلى محفتها العصائب السلطانية، والكوسات تُدَقُّ معها، وسار في خدمتها من الأُمراءِ المقدَّمين بشاك العمري، رأْس نوبة، وبهادر الجمالي، ومئة مملوك من المماليك السلطانية أرباب الوظائف، ومن جملة ما كان معها قطار جمال محملة محاير، قد زُرع فيها البقول والخضروات، إلى غير ذلك مما يَجُلُّ وصفه، فلما عادتْ خرج السلطان بعساكره إلى لقائها، وسار إلى الْبُوَيْب في سادس عشر المحرم، وكانت خَيِّرَةً عفيفةً، لها برٌّ كبير، ومعروف، تَحَدَّثتِ الناسُ بحجّتها عدة سنين، لما كان لها من الأفعال الجميلة في تلك المشاهد الكريمة.

خاتون: زوجة الأَمير أيدكي، صاحب الدست، حَجَّتْ من الشام بتجمُّل كبير، وفي خدمتها ثلاث مئة فارس.

خوند بنت كمال الدين البارزي، كاتب السر، زوجة الظاهر، حَجَّتْ في سنة خمسين وثمان مئة، وحَجَّتْ في تلك السنة خوند بنت ابن عثمان فكانتا في تجمُّل زائد، ونزل السيد الشريف بركات عن فرسه، ومشى قدّامهم من باب المعْلاة إلى داخل مكة.

خوند الخاصكية، زينب ابنة العلائي علي بن أَحمد بن خاص بك، زوجة الملك الأَشرف إينال، حَجَّتْ ومعها ولدها سيدي أَحمد ابن السلطان الملك الأَشرف إينال، في تجمُّل زائد عن الحدِّ، في سنة إحدى وستين وثمان مئة، وكان معها ثلاث محفَّات ومئة وثلاثون زوج محاير، رأْسُها في الميمنة لخَونْد، زوجة ابن السلطان، والمحفة الثانية لزوجته الأُخرى ابنة دولات باي المحمودي، والثالثة وهي في الوسط لِخَوَنْدْ الخاصبكية زينب، وفي وصف أَغشيتها وحللها وحليها التي اشتملتْ على الزركش والذهب والجواهر ما يطول شرحه، ثم حَجَّتْ في سنة تسع وسبعين وثمان مئة أَيضاً، وهي زوجة الملك الأَشرف قايتباي، وحَجَّ في خدمتها الأَمير الكبير أَزبك، وكانتْ في مَحَفَّةٍ لَمْ يُرَ مِثْلُها، ووصفها أَنها مزركشة على مخمل كفوي بنفسجي، مكللة باللؤلؤ، منوعة بالرِّيش الأَزرق، برصافية كبيرة، مرصَّعة مكللة، باللؤلؤ، وفي أَرْجُلِ الْجِمَالِ خَلاَخِيلُ من الذهب، والمقاودُ والقلائِدُ والسلاسلُ من الذهب، وجميعُ ما على الجِمال من البرانس وغيرها مزركش، مكلّل باللؤلؤ والرِّيش، على صفة المَحَفَّة، وكان بصحبتها أُختُ الملك الأَشرف قايتباي، في مَحَفَّة من المخمل القرمزيِّ، مزركشة بالذهب، وجميعُ كسوة الجِمال كذلك، والرصافيةُ مرصعةٌ باللؤلؤ والريش، على أَتَمِّ أُبَّهَةٍ وأَحسن نظام، وكان معها سبعون زوجاً من المحاير،

غالبها أَغْشِيَتُها من المخمل المنوّع بطرز الذهب المزركشة، فترجَّلَ الشريف صاحب مكة، والأُمراء والقضاة والمباشرون عن خيولهم، ومَشَوْا قُدَّامَ المَحَفَّة، إلى أَنْ وصَلُوها إلى مَحَلِّ سكنها بالعطيفية، فألبستهم خُلَعاً، وفرقتْ على أَهل مكة شيئاً يسيراً.

خوند الأَحمدية، زوجة السلطان خشقدم، وهي جَدَّةُ المقر الشهابي أَحمد بن عبد الرحيم ابن القاضي بدر الدين العيني لأُمِّه، حَجَّتْ سنة ثمان وستين وثمان مئة، صحبةَ ولدِ ابْنَتِها في تجمُّل عظيم، يحاكي المؤيَّدَ أَحمد بن الأَشرف شعبان.

خوند، أُمُّ سيدي محمد، ولد السلطان الملك الأَشرف، قانْصُوه من سيردي (؟) الغوري، حَجَّتْ مع ولدها في سنة عشرين وتسع مئة، وجهزهم السلطان في تجمُّل زائد عن الحدِّ من الأَكوار المزركشة و(اليرق) الفاخِر، والنظام المملوكي. أَخبرني المعلم سرحان الجوخيُّ الذي فَصَّل قماشَ مَحَفَّةِ خُونْد المزركشة، أَنَّ معلم الزراكشة تسلَّمَ القماشَ والذهبَ بِالقبَّانِ، وأَعاده به، مزركشاً، ولما دخل ابنُ السلطان مكة المشرفة كان الأَمير طقطباي نائب القلعة المنصورة، وأَمير الحاج ماسِكاً لجام الفرس من الجانب اليمين، وأَغا سُنْبل المقدم الكبير من جانب اليسار، وحمل الشريفُ بركات أَمير مكة وسائر الأُمراء مَحَفَّةَ خَوَنْد، من عند مقام الحنفي إلى أَن وصَّلُوها إلى قاعة كاتب السِّر، محل سكنها، وفرش لابْنِ السلطان شُقَق الْمَخْمَل والحرير، إلى باب بيته، وهو آخِرُ مَن حجّ من أَولاد ملوك مصر.

عَمَّةُ مولانا السلطان سليمان ـ نصره الله تعالى ـ أُخت والده السلطان سليم بن عثمان، زوجة توقاد بن زاده، وهي أُمُّ محمد باشا نائب حلب، إذْ ذاك، ونائب مملكة مصر بعدها، حَجَّتْ عام الفتنة في سنة ثمان وخمسين، مع الركب الشامي في تجمُّل زائد، وموكب عظيم، و(جاويشية) وخدّام و(انكشارية) تَحْجِبُها، وأَحسنتْ إلى أَهل الحرمين، ومنْ جملة إِحسانها إِليهم تسكين الفتنة الواقعة في عام حجتها فإنها أرسلت صاحبنَا الشيخ العلامة قطبَ الدين بن مُلاً علاء الدين النهروالِيّ الحنفي مفتي الحجيج ـ وكان يُطَوِّفُها ـ إلى أَمير الحاج وقد اسْتَعَدُّوا لمحاربة صاحب مكة، ونَهَتْهُمْ عن ذلك، وقبَّحتْ صنيعهم، وأَمَرَتْ بمنادٍ ينادي من قِبَل الأَميريْنِ بالأَمان والاطمئنان، وأَنَّ البلاد بلادُ الشريف، وأرسلت (كيخيتها) مع صاحبنا المشار إليه، فمرُّوا على (وطاق) الحاج، والمنادي ينادي بين أَيديهم بالأَمان، وأَنَّ الشريف أَمير مكة على حاله، واستمرُّوا كذلك إلى أَنْ دخلوا مكة، ومرُّوا بأَسْوَاقِها، ودخلوا جِيَاد، وطبْلُ الحرب يُضْرَب، والخيل ملبسة، وتقدموا إلى الشريف وهو لابسٌ خَوْذَتَهُ ودِرْعَه

هو وأَولاده، فقال (الكيخية) للشريف: السلطانة تُسَلِّم عليك وتقول: إنَّ البلادَ بلادُكَ وَإِنَّ عليها مراجعة مولانا السلطان في ذلك، فتهلَّلَ وجهُ الشريف أَبي نُمَيٍّ، وخلع الدرع والخوذة هو وأَولاده، وقال: السمع والطاعة للسلطانة، ونَحْنُ في طاعة الله وطاعة السلطان، فسكنت الفتنة بذلك، وكتبتْ بمضمون ذلك إِلى الأَبواب العالية، فجاء الجواب بما طلبتْ، وسُطِّرَ ذلك في صحائفها.

وقد وقع مثل تسكين هذه الفتنة في سنة ثماني وست مئة لربيعة خاتون، أُخت الملك العادل الأَيوبي، مع السيد قتادة جَدِّ هؤلاء الأَشراف ـ كما قدّمنا ذكره في محله ـ.

سوسن والدة ملك التتر: حجّت في عام سبعين وتسع مئة من طريق الشام، ودخلت مكة صحبة الركب الشامي في محفة وتجمُّل هائل، وحولها جند وحفلة وغلمان ومماليك أَتراك، فأَكرمها السيد الشريف حسن أمير مكة، وحجّت وعادت صحبة الركب الشامي على حالها.

[. . . .][١] زوجة محمود باشاه مملكة اليمن، والتي أصلها مملوكة خوشكلدي نائب جدة أم أولاده، وحجّت سنوات عديدة صحبة أُستاذها خوشكلدي، لما كانت بالأَقطار الحجازية معه، وحجّت مع محمود المذكور وهو أمير الركب عامين، أحدهما واقعته مع الأَشراف في عام ثمان وخمسين، وصحبت في تلك السنة الأخيرة حمل صناديق ضمنه تحف وأحجار ومطرز لم تتركه بالقاهرة [. . . .][٢] من حادث. فلما كانت واقعة الأَشراف أقامت على ذلك الحمل الحرس وعاد سالماً.

وحجّت في عام سبعين وتسع مئة في تجمُّل هائل، وثلاث محفات وتسع عشرة [. . . .][٣] من المحاير المغشاة بالمخمل والحرير المقصّب، وكان غشاء محفتها مزركشاً بالذهب، والجِمال مقلّدة الأَطواق في أعناقها والخلاخل الذهب في أرجلها، وأظهرت من التجمُّل والزينة والتكرُّم وحسن السيرة يليق منها ومن لداتها.

وحجّ في خدمتها [. . . .][٤] أقاربها أحمد (كتخداي) زوجها ووكيل في تصرفاته، في محفة وتجمُّل، وأكثرتْ من العتب على أمير الحاج إِذ لم يتعهدها رعايةً لزوجها، وكتبت إِليه وهو باليمن تشكو من سوء سيرة أمير الركب، ولما توجهت من مكة المشرّفة للزيارة تمرّضت.

(١ ـ ٤) بياض في الأصل.

[....][1] التي هي كانت زوجة أحمد بن يحيى الحمزاوي وتوفي عنها بمنزلة إِبٍّ، باليمن، واستمرت إِلى أن كانت وفاتها بالمدينة المنورة ودُفنت عند أُمهات المؤمنين يوم الجمعة رابع عشر المحرّم وسنها نحو العشر سنوات (؟)، وتأَخرتْ بعد الحاج بالمدينة المنورة نحو يومين، ولحقت الركب بالينبع، في الليلة المسفرة عن إِقامة الركب ثاني يوم، وعادت على حالها.

إِسواة هندية منن ساء الأَكابر، حجّت من طريق البحر في تجمُّل وحفد وحسم في عام سبعين وتسع مئة، ولما وصلت إِلى ساحل جدّة وأرادت النزول إِلى الساحل والتوجه إِلى مكة لم تركب جملاً ولا غيره وإِنما صحبت وأحضرت معها من البلاد الهندية شبه مقعد من [....][2] صغير تحمله حفدتها على أكتافهم في حالته وهي بداخله، قيل تلك عادة أكابرهم مستمرة.

[....][3] قلت: مثل ذلك في الطواف والمسعى [....][4] ذلك والله أعلم.

شاهي خوبان (كيخية) والدة السلاطين ـ ومعناه ست الملاح ـ من أَخِصَّاءِ حضرة والدة السلاطين، حَجَّتْ في موسم سنة أَربع وستين، من طريق الشام في تجمُّل زائد، وحرمة وافرة، وأُبَّهَة عظيمة يحجبها (جاوِيشيان) من (جاويشية) الباب السلطاني، وعدد وافر من (الانكشارية) و(عجم أغلان) وجماعة من الخدّام، ولما حضرتْ إِلى الزاهر تلقَّاها السيد الشريف أَمير مكة، وأَنزلها بمدرسة الأَشرف قايتباي، محلِّ نزول أُمراء الحج، وكان تقدّم نزلوه بها الخواجا خضر بن عبد الله الرومي، أَمير المصري، في سنة تاريخه، فأُخْرِجَ منها، وحُوِّلَتْ أَسبابُهُ إِلى منزل بالقرب من مدرسة الشريف أَبي نُمَيٍّ اكتراه بخمسين ديناراً ذهباً لم تَجْرِ بذلك عادةٌ فإِنَّ شاهي خوبان المشار إِليها أَحْضرتْ بيدها حكماً سلطانيًا بنزولها في أَيِّ مكانٍ تختار، فاختارت المدرسة الأَشرفيَّةَ قايتباي، ومَدَّ لها الشريفُ أَمير مكة سِمَاطاً كَأُمراءِ الحاج، وأَرْسَلَ لَهَا بالهدايَا وأَنواع الافتقادات والأَلْطاف، فإِنَّهُ يُقال: إِنَّها من جوارِي السلطان، وممن أَلَمَّ بفراشهِ سابقاً، وجاورتْ بمكة تلك السنة، وجعل لها أَمير مكة راتباً في كل يوم رَأْساً من الضَّأْنِ وما يناسب ذلك من آلَةِ الطعام، وغير ذلك، واستمرتْ مجاورةً بمكة إِلى أَن حَجَّتْ في سنة خمس وستين وتوجهتْ صحبة الركب الشاميِّ ويقال: إِنَّها تصدقتْ بمكة على بعض الفقراء، لكل شخص دينارٌ من الذهب الجديد السلطاني.

(١ ـ ٤) بياض في الأصل.

سلطانة بنت موسى سلطان، من طائفة أمراء الأَتراك، يقال لهم بَايَنْدَرُوسَنه (؟) السلطان شاه طهماسب ملك العجم، وهي أم شاه إسماعيل ميرزا، الذي كان سلطاناً في خراسان، ثم عزله أبوه لكثرة حدَّة منه يخاف منها، وحبسه عنده إلى أن يقضي الله بما يريد.

حجّت في عام إحدى وسبعين وتسع مئة من طريق الشام، في تجمُّل ومحفّة بأَعلاها قبة لطيفة من خشب مخروط، مغشّاة بما يناسبها، ومحاير وأحمال بكثرة و(يرق) فاخر، وصحبتها حفدة من العجم وأعوان، وبلغني بمكة في موسم السنة المذكورة أنها لما وصلت إلى بغداد قدمت إليها ومعها عسكر من الأَعاجم بكثرة زائدة عن الحدِّ، فتوقف نائب بغداد في الإِذْن لها، وأن تتجاوز بغداد، ولبس لاَمَةَ حربه، واستعدَّ بعسكره لقتالهم إنِ امتنعوا، وأنه عرض على السلطان سليمان قدومها للحج، وهل يَأْذَنُ لها أم يمنعها، وكان من كلام النائب لها: أن تتوجه في بعض جماعة لتستعين بهم لا بتلك القوم الكثيرة، ثم لما قدمت على نائب الشام أمرها باختصار ما معها من الناس و(اليرق) فأَجابته إليه، وتوجهت صحبة الركب الشامي بما قدمت به إلى مكة فقط، ثم إنَّ نائب الشام عرض أيضاً في أَمْرِهَا، خوفاً من الملامة السلطانية فعاد إليه الجواب بمنعها من التوجه إلى بلادها، وأنه يجهزها إلى الباب السلطاني، فاحتاج أنه جهز (جاويشاً) من الشام، وصحبته مكتوباً إلى أمير الحاج الشامي ومثله إلى أمير المصريِّ بالتحيير عليها، ومنعها من الإِقامة بمكة والمدينة، وأن تعود بصحبة الحاج الشامي في الترسيم و(اليسق)، فتلاقى (الشاويش) مع أمير المصري بمنزلة القاع الكبير، وهو عائد للزيارة، فدفع إليه مكتوبه من نائب الشام، وتوجه إلى مكة من فوره فجعل أمير الشامي حوالى محفتها أربعين نفراً من (الانكشارية) الرماة، وضبطها ومَن معها رجالاً ونساءً، وما بصحبتها من الأَمتعة، ليوصلها إذا وصل إلى الشام إلى النائب، وعاد (الجاويش) بالحاج المصري وهو حسن بن عيسى الذي كان والده مقدّم جمالة الشام [. . . .][1] بصحبة أمير الحاج، وهو عزيز الدولة المظفرة، عيسى بن إسماعيل أبو حُنَيش أمير عربان بني عونة بالبحيرة، إلى أن توجه من عقبة أيلة إلى غزة.

وأما ما كان من قدومها إلى مكة، فإنها نزلت في الدار التي تجاه باب الصفا، وضاقت الدار بها لكثرة ما معها، فجعل لها الفرّاشون زقاقاً كبيراً من الخام الأَصفر

(١) بياض في الأصل.

الناخودي، بين بابها والشارع المسلوك، وجعلوا داخل ذلك المطبخ وآلاته، وفسحة لما معها من الغلمان والخدم الصِّغار، وأما المحفات فَجُعِلَتْ على باب الصفا، وبقية المحاير والثقل وضع على أرض الشارع، وكانت تطوف في نساء من قومها في أوقات خلوات المطاف ليلاً، وتوجهتْ إلى عرفات وقضت المناسك جميعها وعادت إلى منزلها بمكة تجاه الصفا.

وسَأَلْتُ السيدَ الشريفَ حسن أمير مكة شفاهاً: هل أرسلت إليها هدية أو أكرمتها؟ فقال: لا وإنما أتى إلينا من عندها بعض أناس للسلام ومعهم شيْءٌ من نوع الهدية ولم ألتفت إليهم، وذكر مَن أثق به بالمدينة المنورة أنها لما قدمت المدينة في الذهاب صرَّحَ بعض جماعتها بسَبِّ الشيخين، فاعتُقِل وعُرِض على القاضي وشيخ الحرم فأمرا بقتله فقُتل، وحُرِق جسده بباب السلام.

ولنرجع إلى حديث شاه طهماسب ووالده وابتداء دولتهما، فإنها من أعاجيب الأَخبار التي يتعيّن أن تُوَشَّى بها كتب التاريخ، فإني كنت في موسم هذه السنة سأَلت صاحبنا علامة عصره، وفريد دهره، مُلاً قطب الدين بن مُلاً علاء الدين النهروالي، مفتي الحنفية بمكة عما يحضره من أخبارها وأخبار زوجها فكتب إليَّ ما اطلعت عليه من أخبارهم، فإنه قال: قد طال ما فَحَصْتُ عن أخبارهم حتى ظفرت بتفصيلها من صاحبنا السيد الأَجل مرتضى من ذرية السيد الشريف الجرجاني - قدّس الله روحه - والسيد المشار إليه من أكابر أهل السنة، شافعي المذهب، محدّث مفسّر، وله اليد الطولى في التاريخ والأَدب والحكميات والرياضيات، حجّ سنة ثمان وستين وتسع مئة، وجاور بمكة ثم سافر إلى الهند وهو الآن في (دِلِّي) - كتب الله سلامته وأطال بقاءه - وهو كان معلماً لولدي شاه طهماسب، وهما سلطان محمد خذابنده وشاه إسماعيل ميرزا وكلاهما ولي خراسان، قال: وكان السيد مرتضى المخبر معلماً لكل منهما، مع أنه من أهل السنة وممن يُحَابيْهِم، ويمنع ويَذُبُّ عنهم وله سند عال في الحديث.

وملخص ما أخبر به من قصتهم: أن سلاطين العجم كانوا يقال لهم أق قونلوا (؟) وأولهم السلطان أزدان حسن بن علي بك بن عثمان بك بن قناق بك بن حاجي بك، كان هو وآباؤه من أمراء تيمور وأخذ الملك هذا عن السلطان أبو سعيد من نسل تيمور، وقتله في سنة ثلاث وسبعين وثمان مئة، واستولى على مملكة العجم جميعها، وتداول هو وأولاده وأولاد أولاده ثلاث طبقات إلى أن انقرضت دولتهم على يد شاه إسماعيل الصفويِّ، وكان من قصته أنَّ والده الشيخ

حيدر كان في أردبيل، وله مريدون بكثرة، وكان مجاوراً للكفار الكرجيين وكان يغزوهم مع مريديه في كل عام، وكان السلطان في ديار أذربيجان وبلاد. . . والعراق السلطان يعقوب بن أزدان حسن فعرض إليه شروان شاه صاحب مملكة شروان أن [. . . .][1] يريد السلطنة ويخشى منه على المملكة، فأَرسل السلطان يعقوب عسكراً فقتل الشيخ حيدر، وأسر أولاده، ومن جملتهم إسماعيل، فأَمر أن يحبس في قلعة إصطخر، من أعمال شيراز، بيد الأَمير قاسم الفرناك، حاكم شيراز من قِبَل السلطان يعقوب، فلما توفي السلطان يعقوب في سنة ست وتسعين وثمان مئة أطلق قاسم الفرناك أولاد الشيخ حيدر، ومنهم شاه إسماعيل، ومولده سنة اثنين وتسعين وثمن مئة، فتوجه وهو صغير يتيم إلى بلاد رشد، من أعمال كيلان، وحضنه هناك شخص يقال نجم زركر ـ يعني الضايع ـ فكان مريدو والده يرحلون إليه، ويتبرّكون به، ويأْتونه بالنذور، ويطوفون بالدار الذي هو ساكنه كما يطاف بالكعبة، إلى أن ظهر أمره، وكثر أتباعه على صغر، وكان الزركر شيعيًا فعلّمه على صغره التشييع حتى تمكّن منه، وكان آباؤه وأسلافه سالمين من هذا الاعتقاد، بل هم طائفة صوفية، تنتهي سلسلتهم إلى حضرة الإمام أحمد الغزالي رضي الله عنه، وما كان يُعرف لهم تشييع قبل ذلك، فلما استفحل أمره وضعف أمر أولاد السلطان يعقوب، واختلفت كلمتهم، خرج مع جماعة من عسكر والده ومريديه في سنة خمس وتسع مئة، وعمره إذ ذلك ثلاث عشرة سنة، وقاتل صاحب الشروان، وهو الذي كان أغرى السلطان يعقوب بقتل والده، فظفر به حيًا وانهزم، وعساكره تفرّقوا أيدي سبا، فوضعه في قدر كبير وطبخه، وأمر بأَكله فأَكله مريدوه، وما زال يهجم على البلاد وأطرافها ويأْسر ويقتل ويظفر ولم يحدث له انكسار، إلى أن استولى على جميع فارس والعراق وأذربيجان وخراسان، وأخذ عدة تخوت سلاطين تلك البلاد، وكان نجم الزركر صاحب التصرف الكلِّيّ عنده، وبيده الحل والربط، وأظهر مذهب التشييع إظهاراً فاحشاً، وقتل أكابر علماء تلك الجهة، فممن قتل: شيخ الإسلام عالم المسلمين في هراة، أحمد بن يحيى بن محمد ابن العلامة السعد التفتازاني، وقاضي القضاة عالم تلك الديار، مولانا أمير حسين الجنيدي اليزدي، صاحب التصانيف الكثيرة النافعة، ولم يزل يسفك الدماءَ ويقهر الملوك، وينبش قبور أهل السنة، ويحرق أجساد المشايخ، ويظهر سَبَّ الصحابة والسلف على المنابر، ويبالغ في إظهار الرفض إلى أن اصطفّ مع المرحوم

---

(١) بياض في الأصل.

المقدّس السلطان سليم خان، عليه الرحمة والرضوان، في موضع يقال له جالدران، في سنة عشرين وتسع مئة، وما كان أنْ انْهَزَمَ قبل ذلك مطلقاً، فقتل رؤوس عسكره الطاغين، وصاروا بالمدافع والبنادق العثمانية كالهباءِ المنثور، فهرب بمفرده مغتنماً حياته، ودخل السلطان سليم إلى تخت مملكته تَبْريز، ولم يُطِقِ الإقامة بها لوقوع الغلاء، فعاد إلى بلده، وترك ما افتتح من بلاده، فعاد الآخر بدون ذلك الطغيان السابق، ولم يزل كذلك إلى أن توفي في سنة ثلاثين وتسع مئة، عن طهماسب والقاس وبهرام وسام، وهذه أسماء لملوك الفرس أيام الجاهلية، فولى الملك أكبرهم، وهو طهماسب، ومولده سنة ثمانية عشر وتسع مئة وهو كَوْسجٌ، متوسط القامة نحيف، سلك مسلك أبيه في إظهار شعار الرفض، وقتل علماء أهل السنة، بل زاد على والده مع الإمساك، ولكنه أبطل مظالم كثيرة من بلاده، وأبطل شرب الخمر وأنواع الفسوق، وله الآن في ما علمنا ثلاثة أولاد: أحدهم إسماعيل ميرزا والثاني محمد خزابنده، والثالث حيدر ميرزا وهو أصغرهم، وممن قتله صبراً من علماء أهل السنة [. . . .][1] نظام الدين محمود بن قطب الدين محمد بن محيي الدين الأنصاري الخرقاني، كان عالماً علامة مفنناً، من أهل الله تعالى، وكان يسكن بلاد اللار، ولبس على يديه سلطان اللار المسمى شاه عدال، وحمى بلاد اللار من إظهار شعار الرفض، ومن سب السلف والصحابة، فلا زال به إلى أن أحضره بين يديه، وألزمه بأَنْ يَسُبَّ الشيخين رضي الله عنهما فقال: أنا الآن ما ذكرت اسمهما الشريف إلاً وأنا على طهارةٍ كاملة ولم أتَجَرَّأْ على ذكرهما بلساني وأنا مُحْدِث ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، فأَمر بأَن يغرز في جسده الشريف اثنتي عشرة ألف مسلَّة، ففعلوا به ذلك في ميدان تبريز، وهو لا ينثني عن الترضِّي عن الشيخين رضي الله عنهما إلى أنْ فارق الدنيا، فأَمر بإحراق جسده الشريف، فلم يحترق صدره، بعد أنْ بالغوا في إحراقه، فتركوه ـ رحمه الله وجعل قراه الجنة ـ وكان ذلك في سابع عشر ذي الحجة سنة خمسين وتسع مئة، وصَلَّيْنا عليه صلاة الغائب بمكة المشرفة يومئذ، ولو جمعنا عدد قتلاه لكان مجلداً ضخماً، خصوصاً والده فإنه كان إذا افتتح بلاداً من بلاد أهل السنة قتل مَن فيها قتلاً عامًّا، حتى الأَطفال في المهد، وحتى الكلاب والسنانير والحيوانات، ويَصْلُحُ أن يكون ظهوره معدوداً من الفتن العظيمة، التي تحدث في الإِسلام على كل مئة عام، كما ذكر ذلك الجلال السيوطي

---

(١) بياض في الأصل.

رحمه الله تعالى، فَعَدَّدَ الفتن العظيمة في كل قرن ثم قال: اللهم إنَّا نعوذ بك من فتنة المئة التاسعة التي تحدث على آخر القرن التاسع. ونقول: اللهم إنَّا نعوذ بك من فتنة القرن العاشر.

وأما نسبه فإنَّ أباه وأسلافه لا يعرفون إلا بالمشايخ، والمعروف منهم الشيخ حيدر والده شاه إسماعيل، ابن الشيخ جنيد، ابن الشيخ صدر الدين إبراهيم، ابن الشيخ خواجا علي، ابن الشيخ صدر الدين موسى، ابن الشيخ صفي الدين أبا إسحاق، وإليه ينسبون ويسمون الصَّفَويِّيْنَ، نسبة إلى الشيخ صفِيِّ الدين المذكور، ويُذْكَر عنهم أنهم ساداتٌ من بني حُسَيْن، من ذرية موسى الكاظم رضي الله عنه ويسوقون نسبه هكذا: صفي الدين بن أمين الدين، بن صالح بن قطب الدين، بن صلاح الدين رشيد، بن محمد الحافظ، ابن عوض الخواص، بن فيروز شاه، وزير كلاه بن محمد شرف شاه، بن محمد بن حسين، بن محمد بن إبراهيم بن جعفر بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن أحمد العراقي بن قاسم بن حمزة ابن الإمام الهمّام موسى الكاظم رضي الله تعالى عنه، هكذا ساق نسبه صاحب «زبدة التواريخ» قاضي القضاة السيد يحيى القزويني من أهل هذا العصر من مؤرخي بلاد العجم. قال صاحبنا الشيخ قطب الدين: ثم رَأَيْتُ في تذكرة بخط بعض أفاضل العجم يذكر أنه دخل أردبيل سنة ستين وثمان مئة، ووجد في (خانقاه) جَدِّ هؤلاء الطائفة الشيخ جُنيد نسبه مكتوباً حول قبره، ونقله من هناك وصورته: الشيخ جنيد بن إبراهيم بن علي بن صدر الدين بن سيف الدين بن جبريل بن قطب الدين بن صالح بن محمد بن عوض بن فيروز شاه فخر الدين بن علي بن الحسن بن إبراهيم بن ثابت بن حسين بن داود بن أحمد ابن الإمام موسى الكاظم، قال: وهذا النسب كما ترى غير موافق لما ذكره القاضي السيد يحيى القزويني، قال: ورأيت فتياً لإمام عصرنا عالم الإسلام والمسلمين، مفتي بلاد الروم الأَفندي خواجه جلبي، يوهي نسبهم فيها، ويذكر أنَّ شاه إسماعيل أمر النسّابين أن يكتبوا له نسباً، فما أمكنهم مخالفته لخوفهم على أنفسهم، فكتبوا له نسباً موضوعاً، وأثبتوه إلى شخص عقيم من الأَشراف، يعلم فضلاءُ أهل التاريخ والنسّابون أنه ما أولد، قال العلامة قطب الدين: وهذا نهاية ما قدروا عليه في تخليص النسب الشريف النبويِّ منه بهذا الطريق. انتهى. والله تعالى أعلم بحقيقة الحال فإنَّ العجم لا يكادون يحفظون الأنساب، ويتهاونون في ادِّعاء الشرف، وليس لهم علماء مؤرخون في كل عصر، يحفظون الأَنساب، ويترجمون لأَعيان العصر، كما يفعله علماء العرب، فلا يوثق بأَنسابهم والله أعلم.

وليكن هذا إتمام ما أَردْنا إِيْرادَهُ في هذا المكتوب، والمستعان بالله تعالى فهو الميسِّر لكل مطلوب ومرغوب، سائلاً مَنْ حَسُنَ خِيْمُهُ، وسَلِمَ من دَاءِ الْحسدِ أَدِيْمُهُ، أَنْ يُسْبِلَ ذَيْل سَتْرِهِ على هذا المرقوم، وأَن يُصلح ما عسى أَنْ يجده من الخطأِ في المنطوق والمفهوم، فقد قدَّمْنَا الاعتذار عن أَبناءِ الطبيعة، وأَنه قَلَّ أَنْ يسلم مُؤَلِّفٌ من خَطإٍ أَوْ خطل ولو كان في علوم الشريعة، والله المسؤول والمأْمول أَنْ يختم لنا بِالْحُسْنَى، ويجعلنا من الفائزين بعفوه، المغمورين برحمته، المقرَّبين في دار كرامته بالمحل ألأَسْعَدِ الأَسْنَى، إِنه هو الجواد الكريم، والرؤوف الرحيم.

قال مؤلفه: قد انقضى تسويده ـ ولا أَقول تحريره وتَبْيِيْضُهُ ـ في يوم الأَحد المبارك الميمون، لستٍّ ليال خلت من شهر رمضان المعظّم قدراً وحُرْمَةً، من شهور سنة إِحدى وستين وتسع مئة، من الهجرة النبوية، حامداً ومصلياً ومسلّماً على أَشرف المرسَلين المصطفى خير البرية [المخصوص بالشفاعة العظمى في اليوم المشهود، عند اشتداد الخطب وعظم البلية، وعلى آله وأَصحابه الكرام البرَرة المستَمْسِكين بأَوثق عُرَى الإِيمان، المأْخوذ عنهم بيان شَرْعِهِ الشريف في كل مُلِمَّةٍ وقضيَّة.

وكان جمعي له في أَوقات الفراغ من فِكْرَة يَقْدَح زنادُ همومِها، ومِحْنَةٍ يتوالى على الخاطر صَادِحُ غُمُومِها.

ومُدَّةُ التأْليف والاشتغال عنه بينهما بَوْنٌ وأَبعاد، فهي في التعداد لا تَفي بالمراد].

ثم بعد مدة أَعوام، وقد مَنَّ الله تعالى وله الحمدُ بالفسحة في الأَجل ويَسَّرَ ما أَراد جمعه في هذا الْمُؤَلَّفِ من الأَزَل، شمرتُ عن ساعد الاجتهاد ونَقَّحْتُ تلك المسودة، ورتَّبتها، وزدت عليها ما بِهِ [إن شاء الله تعالى] حصولُ النفع لمن استزاد، فجاء ـ بحمد الله وعونه ـ وافِياً بالمراد حسنَ الاختصار والاقتصاد، مع أَني لَمْ آخُذْ في تأْحليفه على مثالٍ سَبَق، ولا على نَمَط تقدَّمني فيه غيري فأَقول: قد حاز فَضْل السَّبْق واسْتحق، وإِنَّما جمعته حَسَبَ البديهة منْ مِنحِ العزيز الحكيم ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝﴾.

وكان الفراغ من كتابته في يوم الاثنين المبارك لست ليال خلت من شهر رجب الفرد الأَصب سنة ٩٩٠ أَحسن الله عاقبتها، قائلاً ما رأَيتهُ مُسَطَّراً بآخِر «إِعراب الأَلفية» لشيخ شيخنا في الأَدب، هو العلامة الأَوحد، خالد الأَزهريّ طيّب الله ثراهما، والشعر لغيره:

تَرَى الْفَتى يُنْكِرُ فَضْلَ الْفَتى لُـؤْماً وَخُـبْثاً فـإِذَا مَـا ذَهَـبْ
لَـجَّ بِـهِ الـدَّهْـرُ عَـلَـى نُـكْـتَـةٍ يَـكْـتُـبُـهـا عَـنْـهُ بِـمَـاءِ الـذَّهَـبْ

والحمد لله وصلواته على أَشرف المرسَلين محمد وآله وصحبه وسلّم آمين.

* * *

فهرس المحتويات

الباب الرابع
فيما يشتمل عليه ديوان إمرة الحاج

الموضوع **الصفحة**

الفصل الأول: في تجهيز الحمول ٥

ذكر العربان الحاملة لذلك ببدنات وأسماء ٨

ذكر الطوائف التي لا يحملون شيئاً من الحمل ١٤

ذكر المهمات من أمور حمل السويس ١٤

ذكر بعض توابع الحمل ١٨

الفصل الثاني: في ذكر الجِمال ٢٢

ذكر ما وقع وتقدّم في أثمان الجِمال المنقولة من دواوين الأمراء، من التعيين والعدة والتفصيل ٢٦

الفصل الثالث: في ذكر ما كانت عليه ولاية إمرة الحاج من الاعتبار والمهابة ... ٣٠

الباب الخامس
في ذكر المنازل والمناهل محلاً بمحل

الفصل الأول: في مسافة ما بين مكة المشرفة وغيرها ٤٣

ذكر تعاريج الطرق والبرد والفراسخ ٤٣

الفصل الثاني: في ذكر ما بين مكة المشرفة ومصر والشام واليمن والعراق من المراحل ٥٢

الفصل الثالث: في ذكر الأدراك وطوائف العربان، منزلاً بمنزل، ومنهلاً بمنهل ٨٩

الموضوع **الصفحة**

الفصل الرابع: في مختصر غزاة بدر، ومَن بها من الشهداء، وذكر مسجد الغمامة وغير ذلك من الفوائد ١٦٩

الفصل الخامس: في الإحرام من رابغ، وما يجب شرعاً من المناسك والمحظورات ١٨٤

الفصل السادس: في ذكر مكة المشرفة وأسمائها ومعاهدها، وحدود الحرم وذرعه ١٩٧

ذكر ولاية مكة المشرفة في الإسلام إلى هذا التاريخ ٢٣٣

ذكر بعض الوقائع بمكة المشرفة ٢٤١

الفصل السابع: في ذكر أفعال الحج والمناسك إلى تمام أفعاله شرعاً وما يتعلق بذلك ٢٤٩

الفصل الثامن: في ذكر بقية المراحل على الترتيب ٢٦٦

ذكر المياه بدرب الظهر ٢٨٢

الباب السادس
في ذكر المدينة الشريفة
وأسمائها وفضلها ومشاهدها ومعاهدها

الفصل الأول: في فضلها وأسمائها ومشاهدها ومعاهدها ٢٨٥

فائدة في ضمنها معجزة ٢٩٠

ذكر مبدأ الهجرة إلى المدينة ٢٩١

ذكر الحجرة الشريفة ٣٠٣

كسوة الحجرة الشريفة ٣٠٣

ذكر الأسطوانات المشهورة في الروضة ٣٠٤

مصلى رسول الله ﷺ ٣٠٥

أبواب المسجد الشريف ٣٠٦

ذكر سور المدينة الشريف ٣٠٧

الموضوع **الصفحة**

ذكر بقيع الغرقد وما ورد من فضله ومَن يعرف فيه من الصحابة وآل البيت رضوان الله عليهم أجمعين ٣٠٩
فضل أُحُد والشهداء به ٣١٢
الفصل الثاني: في فضل زيارة النبي ﷺ وما ورد عنه في ذلك وما نقل عن مَن زاره من الأخيار من محاسن الأخبار ٣١٣
الفصل الثالث: في كيفية الزيارة، وما يفعله الزائر عند الشروع فيها وما يتعلق بذلك ٣١٦

الباب السابع
في ذكر بعض مَن حجّ من الأعيان رجالاً ونساءً
من الصحابة والخلفاء والوزراء، وأكابر الأمراء

الفصل الأول: ذكر مَن حجّ من الصحابة والخلفاء ٣٢٥
الفصل الثاني: في ذكر مَن حجّ من الملوك ٣٤٧
ذكر مَن حجّ من ملوك النكرور ٣٥٩
الفصل الثالث: في ذكر مَن حجّ من الوزراء وأكابر الأمراء، وأماثل العلماء والصلحاء، وأجلاء الفقهاء ٣٧٥
ذكر مَن ولي مصر نيابة من ابتداء الفتح (الخندكاري) إلى آخر ولاية مصطفى باشاه المشار إليه ٤٠٣
ذكر مَن حجّ من أكابر العلماء والقضاة وأهل الفتوى من بخارى والروم ٤١٨
ذكر بعض مَن حجّ من العلماء والصلحاء والأعيان ٤٢٢
ذكر بعض مَن تكرر حجه من أهل الخير والصلاح ٤٦٠
ذكر مَن حجّ من أعيان مشايخ العربان ٤٧٢
الفصل الرابع: في ذكر مَن حجّ من النساء و(الخوندات) وأكابر المخدرات ٤٨١

